المعرفة

AL - MARIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٤٤ السنة ٤٧ - محرم ١٤٣٠ هـ - كانون الثاني ٢٠٠٩ م

زهرة المدائن
عاصمة الثقافة العربية

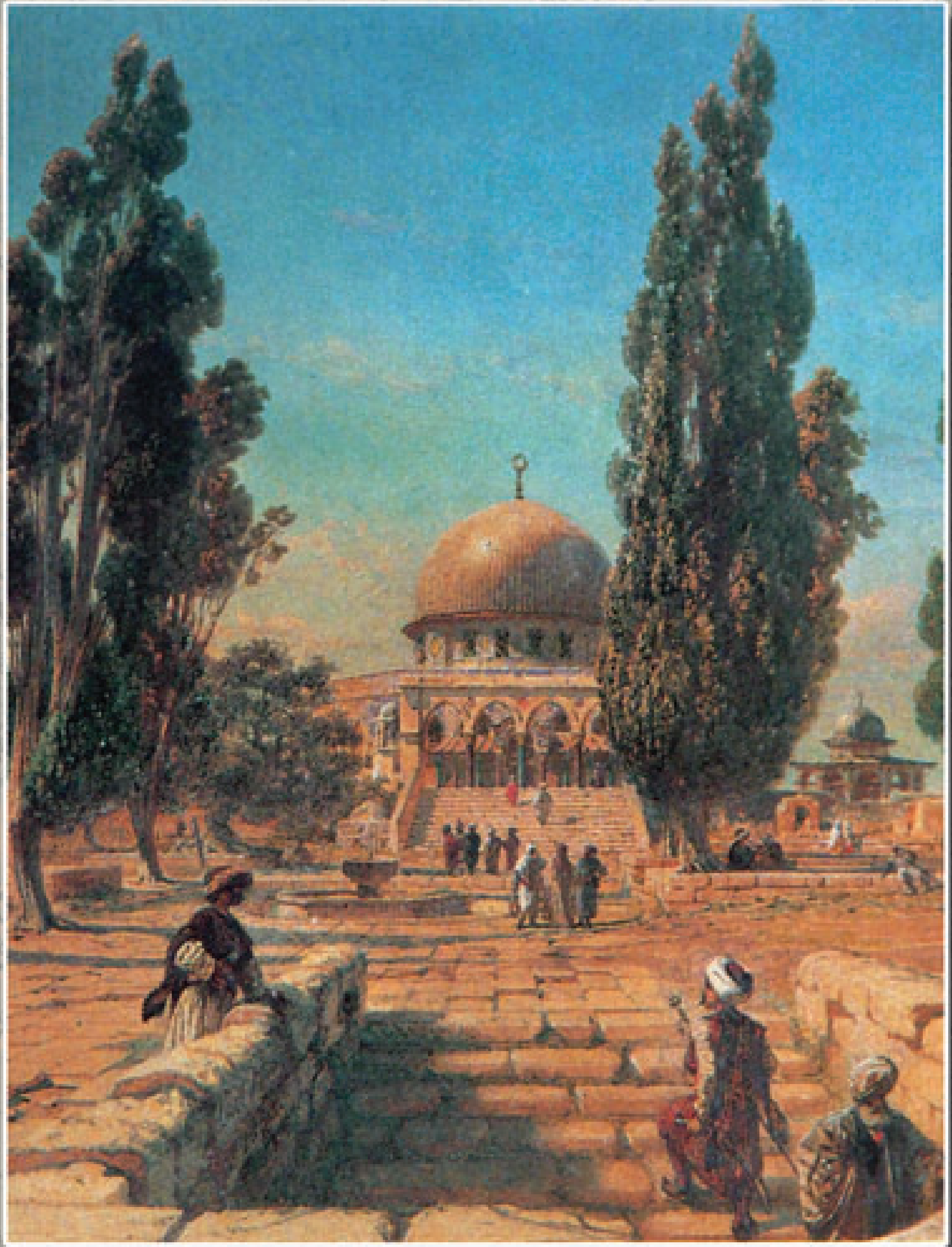
افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

القدس مدينة الزيتون

د. علي القيم رئيس التحرير



القدس - لوحة استشراقية عام ١٨٦٢

القدس عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٩

في هذا العدد



زهرة المدائن.. عاصمة الثقافة العربية

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة



القدس، مدينة الزيتون

د. علي القيم
رئيس التحرير



الإبداع

شعر:

قصة:

آفاق المعرفة

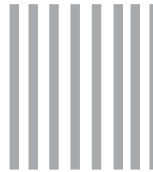
حوار العدد

متابعات

كتاب الشهر

آخر الكلام

كلمة الوزارة



الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

زهرة المدائن.. عاصمة الثقافة العربية

أبارك للأمة العربية قرار وزراء ثقافتها في مؤتمرهم الذي عقد في مسقط عام ٢٠٠٦ باختيار القدس عاصمة للثقافة العربية للعام ٢٠٠٩ وقد لبينا جميعاً اقتراح الصديق الدكتور عطا الله أبو السبح (وزير الثقافة الفلسطيني آنذاك) وكانت

استجابة السادة الوزراء تعبيراً عن عمق ما تعنيه القدس للأمتين العربية والإسلامية بل للعالم كله، فالقدس ساكنة في الوجدان العربي منذ سكنها أجدادهم اليبوسيون الأوائل قبل خمسة آلاف عام، وهم الذين أسسوها، وسموها يبوس في الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت تلك الهجرة السامية الأولى ثم تلتها الثانية في الألف الثانية ق.م. وحين قدم إليها اليهود في القرن الثاني عشر ق.م، كان فيها سكانها العرب الكنعانيون، وقد عرفت باسم أرض كنعان، وكانت فيها حضارتهم التاريخية العريقة ومدنهم الكنعانية التي سميت فينيقية وصفاً للكنعانيين، وتقول الروايات الدينية إن اليهود بقوا فيها سبعين عاماً فقط (والمفارقة أن المؤرخين اليهود اليوم ينذرون باقتراب نهاية إسرائيل وسط تشاؤمهم التاريخي من الرقم سبعين) وكان ذلك هو العهد اليهودي - الذي أصدقه شخصياً لمجرد أن داود وسليمان عليهما السلام مذكوران في القرآن الكريم- فأما الآثار فلم تقدم لنا أي دليل مادي على هذا الوجود اليهودي، وقد انهارت دولة اليهود الدينية وبقيت عروبة الأرض قائمة إلى اليوم وستبقى إلى يوم الأبد، والمفارقة الثانية أجدها في الحديث النبوي الشريف بما معناه (لا تزال عصبة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله، لا يغرهم من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة) وحين أتأمل هذا الحديث الشريف أجدني أفكر في السر الذي يجعل كبار قادة العالم اليوم يهتمون بقضية فلسطين ومستقبل إسرائيل أكثر من اهتمامهم بشؤون بلادهم، بل إن الرؤى الدينية الإيديولوجية عند

كثير من القادة الأمريكان دعتهم إلى التسابق لتحقيق الرؤى التوراتية مثل معركة هرمجدون التي ظن الرئيس بوش الأب أنها هي حين غزا العراق في حرب الخليج الأولى، ثم تابع ابنه بوش حربه على العراق نصرة لإسرائيل وإيماناً منه بأن الرب هو الذي أمره بأن يغزو العراق وهذا ما كرره الرئيس بوش الابن مرات، وعلى الرغم من أننا لا نريد الصبغة الدينية للحروب، وقد رفضها أسلافنا حين رفضوا أن تسمى الحملات الغربية على بلادهم مطلع القرن الحادي عشر باسم الحروب الصليبية وسموها حروب الفرنجة، واليوم يرفض المسلمون إصباغ الرؤى الإيديولوجية والمعتقدات الدينية على الصراع العربي الإسرائيلي، لأنهم ينزعون إلى السلام، وهذا يعني استعدادهم التاريخي لقبول كل الأديان السماوية في بلادهم، وقد نزلت كلها في أرضنا العربية، وتبدو الوثيقة العمرية أضخم شاهد على التسامح الديني الذي رسخه الإسلام في العقل العربي والمسلم، فلم يكن لدى الخليفة عمر (رضي الله عنه) أي مانع من تعايش اليهود والمسيحيين مع المسلمين في القدس، إلا أن رجال الدين المسيحي طلبوا من الخليفة عمر أن يضيف شرطاً إلى الوثيقة يقول (ألا يساكن المسيحيين في إيلياء – القدس – يهود) بينما لم يمانع المسيحيون في مساكنة المسلمين القادمين من يثرب ومكة، لأن المسلمين يؤمنون بالسيد المسيح ويجلونه ويؤمنون برسالته (إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ – وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ- قَالَتْ

رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ). الآية ٤٥-٤٦-٤٧ من سورة آل عمران.

والمسلمون يعتقدون بأن السيدة مريم هي المطهرة وهي التي اصطفاها الله وفضلها على نساء العالمين:

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ) الآية ٤٢ من سورة آل عمران. فأمَّا اليهود فهم لا يؤمنون بالسيد المسيح وهم ينتظرون مسيحاً آخر غير الذي يؤمن به المسيحيون والمسلمون، ولعلَّ هذا هو سبب طلب رجال الدين المسيحي من الخليفة عمر ألا يساكنهم في القدس يهود، ولم يكن المسلمون يطلبون أن يؤمن الآخرون برسالة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام، ولكنهم يعرضونها على الناس فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وكلمة الكفر تعني الإنكار وهي ليست وصف قيمة وإنما هي وصف حالة، وفي القرآن الكريم حوار يقدم ذروة من الاحترام بين المسلمين والكافرين (لكم دينكم ولي ديني) ولقد تعرضت القدس إلى غزوات عديدة في التاريخ القديم، فقد غزاها الفرس واليونان والرومان، ولكنها بقيت على الدوام عربية خالصة، ولا تنكر التوراة أن فلسطين أرض عربية فقد سميت فلسطين أرض غربة لإبراهيم واسحق ويعقوب، مع أن العقيدة الدينية الإسلامية مزجت آل إبراهيم بالعرب حين تزوج إبراهيم عليه السلام امرأة عربية فولدت له إسماعيل فبات جد العرب المستعربة، وهانحن أولاء المسلمين جميعاً نصلي في كل صلواتنا على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فهو أبونا الذي سمانا مسلمين والقرآن الكريم يجل سيدنا إبراهيم

ويعتبره وحده أمة (إن إبراهيم كان أمة) وقد أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يتبع ملة إبراهيم (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهِيمَ حَنِيفاً..). الآية ١٢٣ من سورة النحل.

وقضية غربة اليهود في أرض يبوس مؤكدة في سفر القضاء ومن طرائف ما تذكر التوراة قصة عن رجل يهودي يقول لغلامه (لا تمل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني إسرائيل هنا) ثم تروي التوراة عن إبراهيم قوله لابنه (لا تأخذ زوجة من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم بل اذهب إلى زوجتي وعشيرتي..إلخ) لقد أرسل إبراهيم ابنه اسحق إلى عشيرته كي يزوجه في (آرام النهرين) كما تقول الروايات التوراتية التي تذكر آية منها (وتغرب إبراهيم في أرض فلسطين أياماً كثيرة – وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان) وبوسع الباحثين أن يستغرقوا في البحث في التوراة، ونحن نحيل إليها لندحض أكاذيب الصهيونية بأن لليهود حقاً تاريخياً في فلسطين وفي القدس خاصة، ولسنا ننكر أنهم سكنوا فيها بضع سنين ولم تكن لهم لغة ولا ثقافة فقد نهضوا على تراث الكنعانيين، ولقد وجدت في المراجع العديدة المتنوعة ما يؤكد أن القدس من أقدم مدن الأرض، وهي أقدم من أور ومن نينوى، وكل الوثائق التاريخية تثبت أن اليبوسيين هم الذين بنوها، وهم بطن من بطون العرب نزحوا مع القبائل الكنعانية واستوطنوا أرض سورية وفيها أرض القدس، وكان ذلك هو العصر الذي يسميه الآثاريون البرونزي، ويقول المؤرخون إن أشهر ملوك الكنعانيين هو (ملكي صادق وسالم اليبوسي) وقد بنى ملكي حصناً يسميه الصهاينة اليوم حصن صهيون، وقد قاوم الملك

العربي آدوني صادق غزو العبرانيين، وطلب حاكم القدس من ملك مصر أخناتون أن يحميه ففعل وصارت المدينة تابعة للمصريين الفراعنة فترة من الزمن، وقد هاجر الكنعانيون في كل أنحاء سورية الكبرى، ولكن الأرض كلها بقيت باسمهم أرض كنعان وفيها مدنهم الشهيرة مثل أريحا التي تعود إلى الألف الثامنة ق.م، وأهم مدنهم هي تلك الممتدة على الساحل الكنعاني السوري، وتشير الروايات التاريخية إلى أنهم كانوا يؤمنون بالله الواحد مالك السماوات والأرض، ويقال إن الملك اليبوسي الكنعاني ملكي صادق هو الذي اتخذ بقعة من أرض يبوس هي موضع الحرم المقدس (الذي تمجده التوراة والإنجيل من موضع القبة والصخرة المشرفة، وقد قرأت أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم أجاب عن سؤال عن تاريخ بناء الحرم القدسي فقال إنه بني بعد بناء الحرم المكي بأربعين سنة.

ولست أبحث عن الشواهد المادية أو الدينية لأؤكد أن القدس لنا فهي للعرب والمسلمين بقوة الحضور المستمر عبر التاريخ، لأن عمر إسرائيل الحديثة لا يكاد يتجاوز ستة عقود، وقد احتلت القدس عام ١٩٦٧ وهذا الاحتلال غير معترف به من العالم كله، لكن ما تقوم به إسرائيل من تهويد للمدينة يهدف إلى الاحتيال على العالم، عبر فرض الأمر الواقع، وهي بذلك تستبق أية مفاوضات مستقبلية وتجعل العرب يفقدون حضورهم لتضطرهم إلى التنازل عن شعارهم (القدس عاصمة أبدية لفلسطين) لأن اليهود ينادون بالقدس (عاصمة أبدية لإسرائيل) وقد قاموا بحملات وحشية ضد العرب مسلمين ومسيحيين وأجلوهم بالقوة عن موطنهم التاريخي، ليصنعوا

لأنفسهم تاريخاً معاصراً فيها، وهذا ما يفسر إصرار إسرائيل على بناء كنيس قبالة المسجد الأقصى بعد أن بنت الجدار العازل، وطوقت الأحياء العربية، وعزلت القدس تماماً عن محيطها العربي الفلسطيني، ومن بقي من الفلسطينيين في القدس لم يعد بوسعه التواصل مع أشقائه في المناطق الأخرى، ونحن نذكر أن شارون قال في خطاب شهير إن القدس لنا ولن نسمح أن تكون ملكاً للأجانب (يقصد العرب) وأما بيريز فقد طالب بتهجير جماعي للعرب من القدس، وأصدقاء إسرائيل في الكونغرس الأمريكي يسعون منذ زمن بعيد للاعتراف بالقدس عاصمة أبدية للدولة العبرية، وما تزال في الولايات المتحدة نداءات من اللوبي الصهيوني القوي تطلق لنقل سفارة الولايات المتحدة إلى القدس، على الرغم من أن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وهو الأساس القانوني لعملية السلام يقضي بأن القدس الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزة هي من الأراضي المحتلة عام ٦٧ وينبغي أن تعيدها إسرائيل إلى أصحابها الفلسطينيين، وعلى الرغم من أن سيلاً من القرارات الدولية قضت بتفكيك المستوطنات مثل قرارات مجلس الأمن ٤٤٦ و٤٦٥ و٤٧١ وتقارير لجنة ميتشل فضلاً عن تقارير جيمس بيكر القديمة إلا أن إسرائيل لا تهتم لذلك كله، فهي ماضية في اقتلاع القدس من أصحابها العرب، وتسعى إلى انتزاع اعتراف دولي بكونها عاصمة للدولة العبرية، وإسرائيل تجهد نفسها في البحث عن جذور تاريخية، وهي لم تجد أي أثر إلى اليوم ولن تجد، رغم أنها حفرت وفرغت ما تحت المسجد الأقصى فبات مهدداً بالانهيار، وقبل ثلاثة أعوام نادى متطرفون إسرائيليون باقتحام المسجد الأقصى وهدمه

وبناء الهيكل الثالث مكانه، وقد بلغ الاستهتار الإسرائيلي بالعرب والمسلمين حده الأقصى في شهر تشرين الأول (أكتوبر ٢٠٠٨) حين أعلنت إسرائيل عن بناء الكنيس اليهودي أمام المسجد الأقصى، وقد بنته على وقف إسلامي معروف باسم (حمام العين) وهو يبعد بضعة أمتار عن المسجد المبارك في المنطقة الواقعة بين حائط البراق وسوق القطانين ويرتبط الكنيس مع محيط الأقصى ومع ما تم الحفر تحته بشبكة أنفاق وقد سمي الكنيس (أو هل يتسحاق).

وأعتقد أن إعلان القدس عاصمة للثقافة العربية يدعونا إلى التصدي بقوة لعدوان إسرائيل، والوقوف وقفة رجل واحد دفاعاً عن حقنا العربي الإسلامي والمسيحي، وأرجو أن تتنافس الدول العربية والمثقفون العرب في دعم القدس دعماً مادياً ومعنوياً، وتأكيد هويتها العربية التي تشوه وتمحى، وهذه مسؤولية قومية ودينية وإنسانية.







القدس، مدينة الزيتون

د. علي القيّم
رئيس التحرير

احتفاء بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩م، تقوم وزارة الثقافة بتنظيم مجموعة من الأنشطة والفعاليات والندوات والمؤتمرات الثقافية والفنية على مدار الربع الأول من هذا العام، احتفاء بهذا الحدث الثقافي الذي سيتم من خلاله استحضار عظمة هذه المدينة، عبر التاريخ، منذ بداية التاريخ الإنساني وحتى يومنا هذا..



لقد حملت القدس منذ الألف الثاني قبل الميلاد، أسماء متعددة تدل على قدمها وعلى مكانتها العظيمة في الحضارات القديمة، فهي «روشاليموم» في الكتابات المصرية التي يعود تاريخها إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، وهي «أورساليم» في مراسلات تل العمارنة المصرية التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي «أورشاليمو» في كتابات الملك «سنحاريب» الآشوري، في القرن السابع قبل الميلاد، وهي «هيروسوليما» في الكتابات والمصادر اليونانية والرومانية، وهي «بيت المقدس» و«القدس الشريف» و«المدينة المقدسة» في كتابات العهود العربية والإسلامية، ومن أسمائها أيضاً: مدينة الزيتون، ومدينة المسجد الأقصى..

ومعنى «أورساليم» يُعتقد أنه مركب من عنصرين لغويين، أي «مؤسسة الرب ساليم، وساليم في النصوص الأوغاريتية التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هو أحد الأرباب المعروفة في أساطيرها وهو رب الشفق والفجر، ويميل بعض العلماء إلى تفسير الاسم بـ«مدينة السلام» و«أرض السلام» وذهب بعضهم إلى إعطاء معنى مجازياً للاسم بمعنى «مدينة الله» و«مدينة العدل» و«مدينة الحق» وغيرها من المعاني..

في الكتاب المهم الذي أصدرته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإسيسكو» عن «القدس الشريف» بقلم الزميل الدكتور شوقي شعث عام ١٩٩٨م، تشير المعلومات الواردة فيه إلى استيطان إنسان ما قبل التاريخ القدس، ويعتقد أن

ذلك الاستيطان كان فوق البقعة التي كان يقوم فيها الحي اليوناني في أعلى وادي ريفايم، Rephaim، فقد عثر هناك على عدة لقى أثرية تعود إلى تلك الفترة، إضافة إلى قطع وأدوات صوانية يعود تاريخها إلى العصر الآشولي تحمل صفات مشتركة مع قطع وجدت في كهوف يبرود السورية، وتشير التنقيبات الأثرية إلى وجود مدينة القدس في العصر البرونزي القديم في الألف الثالث قبل الميلاد، وبقايا سور المدينة يعود تاريخها إلى /١٨٠٠/ قبل الميلاد، وخاصة تلك الحجارة الضخمة التي تقع أجزاء منها في السفح الشرقي للهضبة التي بنيت عليها المدينة.

لقد كانت مساحة القدس في عهدها الباكر، تحتل موقعاً تبلغ مساحته نحو /١١/ فداناً، وتحدثنا نتائج التنقيبات الأثرية عن بقايا العصر البرونزي الوسيط الباكر التي لم يبق منها إلا أشياء قليلة، وأن المدينة أصبحت مزدهرة في العهد البرونزي الوسيط والمتأخر أي بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، واستمرت بين تطور وازدهار وانحسار وضعف حتى خروج العرب المسلمين من الجزيرة العربية، يحملون عقيدة جديدة فيها خير للناس أجمعين، فاستطاعوا تحرير بلاد الشام كلها، ومن بينها مدينة القدس الشريف، حيث أصبحت منذ فتحها على يد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، مدينة عربية إسلامية، سنة ١٥هـ/٦٣٨م.



لقد كانت حادثة «الإسراء والمعراج» وما ورد فيها من آيات القرآن الكريم،

والأحاديث النبوية الشريفة، واتخاذ القدس أولى القبلتين، بداية اهتمام العرب المسلمين بهذه البقعة التاريخية من فلسطين والوطن العربي.. ثم كانت الخطوة الثانية حين حرر العرب المسلمون القدس الشريف من أيدي الروم البيزنطيين، وحضر الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب بنفسه ليشهد الفتح، ويزور الصخرة الشريفة، -صخرة المعراج- ويُعنى بها، ويقيم مسجداً إلى جوارها لا تزال آثاره ومعالمه باقية.. ثم جاءت الخطوة الثالثة التي عزّزت إلى الأبد مكانة بيت المقدس وحرمه الشريف في أنظار العالم الإسلامي، حين شيّد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان صرح المسجدين العظيمين، الأقصى وقبة الصخرة، وكان هذا العمل من الناحيتين العمرانية والمعمارية، وفق دراسة الزميل الدكتور عبد القادر ريحاوي، انطلاقة مبكرة، لم يعرفها تاريخ الحضارات من قبل، وسجّل تاريخ الفن والعمارة، بكل تقدير وإعجاب هذا الإنجاز العظيم لحضارة العرب والمسلمين.

لقد أولى خلفاء بني أمية القدس الشريف اهتماماً كبيراً، فقد أحبوا فلسطين والقدس لدرجة أن عبد الملك شغف بالإقامة في بيت المقدس، ودلّت نتائج التنقيبات الأثرية على بقايا القصور التي أقيمت في زمن بني أمية حول الحرم.. وتابع العباسيون هذا الاهتمام، حيث زارها الخلفاء، المنصور، والمهدي، والمأمون، وفي زمن العباسيين عاش المسلمون والمسيحيون في القدس في وفاق تام، وعندما ضعفت الدولة العباسية نتيجة النزاع على الخلافة، دخلت القدس وفلسطين في ولاية الطولونيين، وجاء بعدهم الاخشيديون، ثم أصبحت القدس في العهد الفاطمي

مزدهرة ومشهورة بخصب تربتها وزيتونها وزيتها ومؤسساتها التعليمية والطبية، يقول عنها المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: مدينة القدس في هذا العهد بنيانها حجر، ولا نرى أحسن منه، ولاأتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها.. لقد جمعت الدنيا والآخرة». كما وصف «ناصر خسرو» المدينة حين زارها عام ١٠٤٧م بقوله: «يحيط بالمدينة سور منيع، مبني بالحجارة، وللسور أبواب من حديد، يقطن فيها عشرون ألفاً من السكان، بينهم صناع كثيرون، ولكل صنعة سوق خاص بها».

لقد انتهز الإفرنج الخلافات والصراعات التي كانت قائمة بين الدولة الفاطمية والسلاجقة، فاغتصبوا مدينة القدس الشريف التي طالما سعوا إليها رغبة في تأمين طريق الحج المسيحي إلى الديار المقدسة -على حد زعمهم- وقد حاول الإفرنج أثناء حكمهم للمدينة تغيير معالمها، فوضعوا على الصخرة صليباً، وحوّلوا المسجد الأقصى إلى مقر لفرسان الداوية والاستبارية، وأقاموا عدداً من المباني الدينية، وعندما استردها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين شهدت المدينة رخاء وتطوراً كبيراً فأقيمت فيها المدارس والمعاهد والأربطة والمستشفيات، وانتعشت الحركة التجارية، كما حظيت باهتمام السلاطين في العهد المملوكي، وكان الظاهر بيبرس في طليعة السلاطين الذين اهتموا بالمدينة، فقد زارها مرتين، كما زارها السلطان قلاوون والناصر محمد والأشرف قايتباي، وأقاموا فيها منشآت علمية

كثيرة نجد بعضها لا يزال قائماً يدل على أنها كانت آية في الفن والعمارة..

وفي العهد العثماني رممت القلعة وبنيت منشآت معمارية كثيرة مثل: المساجد والتكايا والمدارس والسبل، بالإضافة إلى إعادة بناء قبة الصخرة وقيام العديد من الأبنية العامة، وجعلت القدس متصرفية مستقلة عام ١٨٧١م.



أهمية القدس التاريخية والدينية والعمرانية والمعمارية، دفعت المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» إلى تسجيلها في عداد الممتلكات الثقافية العالمية التي يجب الحفاظ عليها وصيانتها وترميمها، وقد درست هذه المعالم من قبل علماء ومؤسسات علمية عالمية منذ وقت مبكر في منتصف القرن التاسع عشر، حيث تمكنت البعثات من التعرّف عل سوار مدينة القدس القديمة والأنفاق والقنوات في وادي قدرون وقلعة القدس وغيرها..

لقد حظيت القدس بالاهتمام الكبير في جميع أنحاء العالم، ولم يكن هذا الاهتمام دينياً فقط، ولكنه اتسع ليشمل اهتمامات أخرى، حضارية وحضرية وثقافية واجتماعية وسياسية وغيرها، ورغم اختلاف الدوافع من زمن إلى آخر، إلا أن المدينة بقيت مسرحاً لأحداث عظيمة ما زالت موضع بحث وتقويم حتى اليوم، ومازالت مدينة تنبض بالحياة، لم ينقطع ماضيها عن حاضرها، ولا يتوقع لمستقبلها أن يفعل ذلك..

في دراسته عن «الثقافة العربية وعروبة القدس» يقول الباحث الفلسطيني

الدكتور إبراهيم الدقاق: «تواجه القدس اليوم مشكلات متعددة، يأتي في مقدمتها إعادة هيكلة المدينة، وهويتها على يد إسرائيل التي تسعى إلى إعطائها طابعاً هجيناً يجمع أسطرة الماضي اليهودي، بالقيم الغربية، وتشمل أيضاً تهديد هوية الفلسطينيين السياسية والثقافة واستمرارهم في الوجود في المدينة تحت الظروف القائمة الآن.. التي تخضع القدس لعملية تغريب واستلاب، وتخضع الهوية والثقافة الفلسطينية إلى عملية تفتيت مبرمج، ويتم ذلك من خلال إحداث طلاق كامل بين القدس كمدينة، وبين إنسانها الفلسطيني، وطلاق بين المدينة وتراثها وحضارتها، أي طلاق بين الجغرافية (السياسة المقدسية) التي استقرت عبر قرون طويلة، وبين هويتها وثقافتها التي أنتجتها».

تقوم إسرائيل منذ سنوات عديدة بتفريغ القدس من سكان العرب، وتقوم بعزل المدينة عن محيطها، وتحدث تشويهاً في تخطيطها الحضري، وتسعى مجموعات يهودية متعددة لهدم المسجد الأقصى والصخرة المشرّفة، وبناء هيكل يهودي مكانهما (الهيكل الثالث).. لذلك سكن الوجدان الفلسطيني منذ بدايات القرن الماضي هاجس الخوف على المدينة من الضياع بإيقاعه الرتيب المستنفر لأحاسيس التطيّر والقلق، وقد تعمّق هذا الشعور في عام ١٩٤٨ وبعد ذلك في عام ١٩٦٧، وهذا ما يفسّر جوهر الاهتمام الفلسطيني والعربي والإسلامي بالقدس، وهذه المشاعر تزداد تألقاً ووهجاً في كل لحظة يستشعر العرب والمسلمون خطراً أو تهديداً يحدق بالمدينة، ويعرّض كيانها ووجودها للضياع والاستلاب.

لقد تعرضت القدس العربية منذ احتلالها في عام ١٩٦٧ وحتى اليوم إلى سلسلة من الإجراءات التعسفية والأخطار المحدقة التي تهدف إلى إحلال تراث إسرائيلي هجين في المدينة بعيداً عن تاريخ وتراث وحضارة وفنون قديمة شهدتها منذ آلاف السنين..



منذ اللحظات الأولى للاحتلال الإسرائيلي للقدس الشريف، قامت إسرائيل بتدمير واجتثاث حارة المغاربة، بما فيها من نسيج معماري وحضاري وإنساني دون رحمة أو شفقة، وقامت بعزل المدينة العربية عن محيطها، وبنت داخل المدينة المسّورة ما يسمى بـ«الحي اليهودي» أو «حارة اليهود» على حساب حارة الشرف العربية التي لم تكن تتجاوز عقارات اليهود فيها بضعة دور، وتم الاستيلاء على مجموعة كبيرة من البيوت العربية في قلب المدينة بعدة طرق وأساليب ملتوية، تحولت إلى سكن لمجموعات دينية متطرفة، وتوّجت هذه الإجراءات التعسفية القهرية بإنشاء مجموعة من المستوطنات التي شكلت حزاماً عازلاً للقدس عن محيطها العربي في بقية أجزاء فلسطين، وبجدار فصل عنصري أشبه ما يكون بقفص..

يقول المهندس يوسف سعيد النتشه، المختص بالآثار الفلسطينية: «لقد بالغت إسرائيل باستخدام جميع الوسائل والطرق الثقافية من أجل تفريغ المدينة من تاريخها وتراثها، ومن أولى الوسائل التي استخدمت، كانت محاولة تسويق شرعية

الاحتلال الإسرائيلي عبر سلسلة من الحفريات الأثرية.. وشملت مواقع عديدة في أنحاء المدينة كافة، وخاصة حول المسجد الأقصى المبارك، على امتداد الجدار الجنوبي، وتم الكشف في هذه المنطقة عن مجموعة من القصور الأموية، وكان أخطر هذه الحفريات ماعرف مجازاً بحفريات النفق والتي جرت أسفل الجدار الغربي للمسجد الأقصى وموازاته، وقد تضررت المباني العربية الإسلامية الواقعة بمحاذاة الجدار الغربي من جراء هذه الحفريات»..

عمليات التهويد للقدس الشريف، دفعت منظمة اليونسكو ولجنة التراث العالمي إلى اتخاذ قرارات عديدة وإرسال بعثات دولية لدراسة أوضاع المدينة، ومنع التعديات على الآثار والأوابد الدينية المقدسة، والتراث الثقافي للبلدة، ولكن إسرائيل -كعادتها- ضربت عرض الحائط بكل المواثيق والقرارات، واستمرت بعمليات التهويد والتخريب للآثار العربية الإسلامية التي تحفل بها مدينة القدس..

في ظل هذه الأوضاع الحزينة والمؤلمة لمدينة الزيتون التي نحتفل بها عاصمة للثقافة العربية، ماذا يمكن عمله للمساعدة في النهوض الثقافي فيها؟!

إن ضخامة التحدي والجهود الكبيرة التي تقوم بها إسرائيل، لطمس معالم المدينة، يستدعي من الجهات العربية والإسلامية وضع خطة بعيدة المدى، للنهوض الثقافي بالمدينة، وحماية تراثها العربي والإسلامي مثل: إقامة المكتبات ودعم المتاحف والقيام بالتنقيب الأثري في المواقع المحيطة بالقدس، وترميم الأوابد

والمباني التاريخية والدينية والمدنية التي يعود تاريخها إلى عهود تمتد منذ بدايات الإسلام وحتى العهود المتأخرة، والقيام بتوثيق معالم المدينة عن طريق إنتاج الأفلام الوثائقية عنها، وإعداد النشرات العلمية، والكتب والدراسات عنها ونشرها عالمياً بلغات متعددة، وتشجيع الصناعات التقليدية والحرف التي كانت تشتهر بها مدينة القدس منذ زمن طويل مثل: صناعة التطريز والحفر على خشب الزيتون، وصناعة الخزف والنقش على الصدف وغيرها..

القدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، فرصة جيدة للثقافة علّها تعيد تجديد نفسها، عبر استعادة التراث الثقافي والحضاري لهذه المدينة المقدسة، لتصبح جزءاً من المعرفة، انطلاقاً من أن المعرفة هي قدرة إنسانية، تتصل بالنمو والعدالة، وتنتشر في جميع جوانب النشاط الإنساني.




الدراسات والبحوث

الدراسات والبحوث

أورسالم / القدس

د. علي أبو عساف *

تتجلى خصوصية القدس في كونها أُقيمت في بقعة بوسط كنعان تمر بها الطرق التجارية من مصر عبر غزة إلى وادي الأردن فحوض اليرموك وحوران شرقاً وإلى حاصور في الحولة شمالاً ومنها إلى دمشق أو إلى البقاع وإلى الغرب منها تتقاطع الطريق من النقب في الجنوب إلى الجليل ونابلس في الشمال ومن أريحا في الشرق إلى الساحل في الغرب عبر مجدو. تحيط بها الجبال: في الشمال رأس المشارف وفي الشرق جبل الزيتون /جبل الطور

* باحث ومنقب عن الآثار - مدير عام الآثار والمتاحف الأسبق.



وفي الجنوب رأس المكابر .ويحيط بالقدس العتيقة من الشرق وادي ستي مريم ومن الجنوب والغرب وادي الرباب وقد نشأت أور سالم القديمة فوق هضبة من الهضاب التي تقوم عليها القدس الآن وتتزود بالمياه من عين ستي مريم في السفح الشرقي للهضاب الجنوبية الشرقية وكذلك من نبع أيوب جنوبي بركة الحمرا .

وهي في هذا الموقع الحصين بين الجبال وفوق الهضاب التي تتوفر فيها المياه تتشابه مع مدن قديمة مثل عمون/عمان واذريعات/ درعا وقد منحتها الطبيعة عيون ماء جيدة تشهد على غزارة مياهها الوديان المتصلة بها وكذلك وصول الهواء الرطب الغربي إليها ونسبة عالية من المطر يساعد على نمو الأشجار حولها .

تعود الأخبار الأولى المتعلقة بأور سالم إلى عصر الأسرة الثانية عشر في مصر التي جاء دورها في الحقبة من ١٩٩١-١٧٨٦ق.م وقد سطر اسمها واسم أميرها في الوثائق المعروفة عند الباحثين الآثاريين"Aechtungs Texte" وهو الاسم الذي أطلقه لأول مرة الباحث الألماني سيت Seth عبر بحث نشره تحت عنوان:احتقار أمراء أجانب شعوب وأشياء سطرت في كسر أواني فخارية من عصر الإمبراطورية الوسطى وذلك عام ١٩٢٦أما الباحث البلجيكي بوسني Posener فقد نشر مجموعة أخرى من هذه الوثائق تحت عنوان «أمراء وبلدان أسيوية ونوبية» عام ١٩٢٠وقد اخترت لها عنوان نصوص الاحتقار واللعنة وقد سطرت في أواني فخارية أو دمى طينية تمثل أسرى وقد سطر فيها اسم الأمير واسم المدينة أو البلاد وحينما يحين الوقت ويأتي الغرض الذي صنعت من أجله يرميها الملك فتتحطم وذلك أثناء طقوس دينية ليعبر بهذا الفعل عن تغلبه على الأمراء والمدن المسطرة في تلك الأشياء حين غزوهم.

درس الباحثون هذه الوثائق ويهمنا هنا ما يتعلق ببلاد الشام الجنوبية من أسماء مدن وأمراء وتتوزع على مجالات جغرافية واسعة تمتد من سيناء والنقب في الجنوب إلى فتحة حمص من البحر حتى قطنة = المشرفة[1] لقد وسمت هذه النصوص بالاحتقار وتوجيه اللعنة للأمراء وأوطانهم بوساطة الأرباب فلماذا؟

وقعت بمصر وبلاد الشام والعراق أحداث وتحركات بشرية تركت بصماتها على حياة الناس فخلال المرحلة الوسيطة الأولى بتاريخ مصر حوالي ٢١٦٠-١٩٩٤تراجع النفوذ

المصـري في بلاد الشام وانتشـر العموريون فيهـا وفي العراق وأدخلـوا مفاهيم جديدة في ثقافة المنطقة تجلـت في الأمور الدينية والفنـون التشكيلية والمعمارية ونظم الإدارة وأثر وجودهـم في حركة التجـارة الدولية والمحليـة وقد أشارت الوثائـق المصرية إلى تعثر التجارة مع بلاد الشام في عبارة أن: «لا أحد يبحر شمـالاً إلى جبلا[٢]؟» وتدل هذه العبـارة على أن النشـاط المصري التجاري نحو بلاد الشام قد توقف ونظن أن الممالك الجديدة قد تولت هي نفسها تسيير القوافل التجاريـة في جميع الاتجاهـات وإلى مصر مما أغاظ ملوكها وتجارها فسعوا إلى الحد من نفوذهم واحتكارهم التجارة.

وتتوضح هـذه الصورة من خلال توضع المـدن التي ذكـرت في النصوص المصرية فقد لاحظ الباحثون أنها تتوزع على الطرق التجاريـة المنبعثة من مصر نحو بلاد الشام مـروراً بالساحل حتى جبـلا وعبر السهول والوديـان الداخليـة نحو البقـاع وحوران ودمشق.

وقد سميت مدينة أورشليم وكتبت روش ل م م =روشلم =اورشلم وكان أميرها وقتذاك يقرعمو=وقرعمـو وتعني عمـو الموقر وهو اسم أمير كنعـاني لمملكة مدينة كنعانية كان لها دورها الفعال والنشيط في ثقافة وتحضر بـلاد الشام وقد ذكرت بعد مدينة عسقلان الساحليـة ويرموتا أي أن هذه المدينة كانت تتعامل تجارياً مـع ميناء عسقلان لتصدير بضائـع المنطقـة عبره.ولاشـك أنها كانت على علاقات جيـدة أيضاً مع عشتروت إلى الشمال الغربي من درعا وبصرى في الشرق وهـي مدن ذكرت أيضـاً في تلك النصوص لأن لها مكانة اقتصادية تحيط بها السهول الخصبة ويعنى سكانها بتربية المواشي ومما يشير بوضـوح إلى مكانة أورسالم أنها ذكرت مـرة أخرى حين بـدأ حكم الأسـرة الثالثة عشر١٧٨٥-١٦٣٣فقـد نقـش الاسم هذه المرة في دمية طينية تمثل أميرها الذي تشوه اسمـه فأصبح مجهولاً. ومن المعلوم أن صنع دميـة للأمير دليل علـى مكانته في موطنه ودوره البـارز في مقارعة ملوك مصر وعدم الاعتراف بنفوذهم وفي إلقـاء الضوء على مكانة المدينة في القرن الثامن عشر نستعين بنتائج التنقيبات الأثرية المتعددة التي جرت في أماكن متفرقة مـن المدينة وذلك حسب مايسمح به الحال.واسمحوا لي هنا أن أدون مايردده الآثاريون بهذا الصدد فهم يجمعون علـى أن ما من مدينـة استحقت مثل هذا الاهتمام بالتنقيب فيها مثل القدس/ أورشالم

فقد بدأ التنقيب فيها عام ١٨٥٣واستمر حتى عام ١٩٩٤وجرت خلال هذه الفترة مئة وستة وعشرون ١٢٦عملية تنقيب كان أوسعها التي قام بها الإسرائيليون منذ عام ١٩٦٧وحتى عام ١٩٩٤والغرض منها التعرف على العصور التي تعاقبت على المدينة وما يهمنا هنا أن التنقيبات كشفت على جزء من سور المدينة الذي يعود إلى القرن الثامن عشر وكذلك جزء من شبكة المياه التي كانت تزود المدينة بها من نبع ستي مريم في الشرق ونبع أيوب في الجنوب جوار بركة الحمرا، ومدينة تتمتع بمثل هذه المرافق العامة تحميها الأسوار لاشك أنها كانت تحتضن السكان المبدعين الذين قاموا بهذه الأعمال[٣] ومعنى ذلك كله أن الأخبار المصرية عن عداوة أورشالم وأميرها لملوك مصر تدعمه الوقائع التي تدل على أن المدينة كانت محصنة يستطيع سكانها الدفاع عنها وعن مصالحهم.لم تحمَّل مصر هذه العداوة فآسيا بالنسبة لملوكها مجال حيوي هام تنظر بعين الرضى لقيام المملكة الحثية في آسيا الصغرى١٦٠٠-١٤٠٠تقريباً وأطماعها في بلاد الشام الشمالية وكذلك تأسيس الدولة الميتانية في شمالي العراق والجزيرة ١٦٠٠-١٣٥٠ق.م تقريباً وتطلعها نحو مد نفوذها إلى بلاد الشام الشمالية على الأقل.ليس هذا وحسب بل نشب صراع بين الحثيين والميتانيين وتسابقوا في مد نفوذهم على بلاد الشام الشمالية.

كان ملوك مصر ينظرون بقلق لكل هذه التطورات فقاد آموس١٥٥٢-١٥٢٧ حملة عسكرية تتبع بوساطتها ملوك الهكسوس في كنعان وأصبحت القوات المصرية وجهاً لوجه مع ممالك المدن الكنعانية فتنبه أمراؤها إلى الخطر المحدق بهم فهبوا لمجابهته بقيادة أمير قادش الذي جمع حوله عساكر من مختلف ممالك المدن الكنعانية الآمورية والتقوا في مجدو المدينة المحصنة القوية مع جيش مصر بقيادة تحوتمس الثالث ١٤٩٠-١٤٣٦ق.م الذي حاصر المدينة طيلة سبعة أشهر شن خلالها الغارات على مختلف المدن في أرض كنعان وأخيراً أثمر حصاره وغاراته عن عقد معاهدة بين الأمراء وملك مصر أقسم فيها الأمراء يمين الولاء للملك وامتنعوا عن محاربته[٤].

لقد حقق تحوتمس نصراً مؤزراً على ممالك بلاد الشام لجم بوساطته جموح أو تفكير أمرائها في مهاجمة الجيش المصري من الخلف أثناء زحفه على بلاد الشام الشمالية لطرد الميتانيين منها وذلك بوساطة

يمـين الولاء الذي أقسمـه الأمراء وتعهدوا فيه بالامتناع عـن مد يد العون لأعدائه ثم وهذا الأهم أنه أخضع بلاد الشام الجنوبية لإدارة مصريـة مباشـرة وأصبحـت كنعان ولاية مقرها غزة تتبع لها المدن كافة ومنها أورشالم طبعاً.

انتهـى الصـراع بـين مصـر وميتاني بعقد معاهدة بين تحوتمـس الرابع١٤١٢-١٤٠٣ملك مصر وارتاتاما ملك ميتاني وبذل امنوفس الثالث/اخناتـون١٤٠٣-١٣٤٦كل جهـد ممكـن في الحفاظ علـى الاستقرار والسلم في بلاد الشـام والعراق.وقد عُرف عهده وعهـد سلفه(عصر العمارنة)نسبةإلى تل العمارنـة الذي يحوي أطـلال عاصمة أخناتون=امنوفس الثالث وفيها كشف على أرشيف تضمـن الرسائل المتبادلة بينه وبين ملوك المنطقة ومنهم أمراء كنعان.

ويستـدل من هـذه الرسائـل أن بعض أمراء مدن كنعان وخاصة أمير شخيم لابابا بالقـرب من نابلس قد أخـذ يضم المدن المجـاورة لمنطقته وهذا مافعلـه شووَرْدات ملك حيبرون/الخليل الذي أراد ضم أورشالم له فوقـع الصدام بينه وبين اردخيبا ملكها. لم يفلـح شووَرْداتا في الاستيلاء على أورشالم فتحالـف مع مَلْكي أمير جيزر بين عسقلان ويافا ضد ارادخيبـا الذي تمكن من انتزاع مدينة كيللتي مـن يده وهي الآن خربة قلي شرقي أورشـالم ثم استعادهـا شووَرْداتا ثم خسرها مرة أخرى لصالح ارادخيبا.لم يكف مَلْكي وشوورداتـا عن مهاجمة ملك أورشالم آرادخيبا فهاجموا مدينة ريودا غربي أورشالم التابعـة له ويساعدهـم في ذلك والي مصر على كنعان الدايه.وقـد انتزعوا منه مدينة بيت نينورتا=بيت لحم،لم تدفع هذه الأحداث ارادخيبـا للتخلي عـن علاقاته الجيدة مع ملوك مصر انسجاماً مـع تعهد أسلافه في الحفـاظ علـى علاقات جيـدة معهم وقد بذل كل جهـد في سبيل مـرور القوافل في أورشالم بسلام وأمان.وفضلاً عن ذلك أرسل ارادخيبـا عشرة عبيد وإحدى وعشرين فتاة وثمانين أسـيراً إلى أمانوفس الثالث والتزم بتقديم الزيوت للقـوات المصرية وربما هو زيـت الزيتون الـذي اشتهرت بـه أورشالم وكذلك جمـع لهم قافلة مـن الدواب لنقل المؤن لصالح الجيش المصري.

لقـد جاءت التنقيبات الأثرية في المدينة بنتائـج معمارية تؤكد أن المدينة كانت أيضاً محصنة ومزدهرة في القرنين الرابع والثالث عشـر ق.م وقـد كشف على جـزء من هذه التحصينـات وأطلق عليه اسـم المدرج(٥)

الذي أقيم على السفح المطل على وادي ستي مريم وكان يعلوه حصن حصين وينسب أحياناً إلى اليبوسين الذين غزاهم داوود في القرن العاشر ق.م.

ويحكى أن داوود (صموئيل الثاني الإصحاح٥آية ٦-٩) لم يدخل المدينة أورشالم بل بقي في حصن صهيون خارج المدينة الذي بناه اليبوسيون وسماه مدينة داوود. لماذا لم يدخل داوود المدينة؟ليس لدي جواب بل ربما لأنه اعتاد على حياة الغزو والتنقل والرعي!! وقد نجد في حكاية بناء قصر له ما يشير إلى ذلك: يروى أن أحيرام ملك صور قد أرسل له معلمي البناء مع الخشب وكافة المستلزمات لبناء القصر.وقد بني من الخشب (راجع صموئيل الثاني الإصحاح ٥: آية ١١-٢١) ولم يعثر على بقاياه أثناء التنقيب.ونرجح أن داوود ما أحب بناء القصور فبقي متمسكاً بالخيمة جرياً على التقاليد البدوية.

هذه هي باختصار حكاية بناء القصر أما حكاية بناء المعبد التي وردت في سفر صموئيل الثاني الإصحاح السابع فقد فكر داوود في أن يضع تابوت الرب الذي كان يتنقل مع الأتباع من مكان إلى آخر،في بيت ثابت فاستشار الحكيم ناتان الذي خاطبته الملائكة ناهية أباه عن تنفيذ هذا العمل،ولما أبلغ داوود بالأمر تراجع وهو الذي يؤمن بتعاليم الرب ويتمسك بها.

يتفق الباحثون على أن سليمان قد حكم من عام ٩٦٥-٩٢٦ق.م خلفاً لداوود والده ويحكى أنه هو الذي بنى المعبد (سفر الملوك الأول الإصحاح ٦ والإصحاح ٧ آية١٣-١٥) بعد أن تراجع داوود عن فكرته وترك الأمر له.

وحينما اعتلى سليمان العرش أدى الصلاة أمام التابوت داخل الخيمة (راجع أخبار الأيام الثاني: الإصحاح الأول آية ١-٦). إذن لم يكن لداوود معبد أو هيكل في أورشالم؟! كما أثبتت التنقيبات الأثرية ذلك أيضاً.

وقد دونت حكاية بناء الهيكل في سفر الملوك الأول الأصحاح السادس والسابع والثامن وآياتها متعددة ومتنوعة وغير متزامنة ولا تنطبق معظم آياتها مع الحكاية المدونة في سفر أخبار الأيام الأول الإصحاح الأول والثالث حيث حددت هنا البقعة على جبل موريا على بيدر أورنان اليبوسي (الآية ١-٢).خارج أورشالم التي لم يدخلها داوود واستقر في حصن صهيون ولم يعثر على آثار تعود لعصره وعصر خليفته سليمان(٧).

ليس هذا وحسب بل إن عدداً من الباحثين المشهورين يشكون في صحة روايات أسفار كتاب العهد القديم التي تروي حكايات عن داوود وسليمان لعدم ذكرهما في آية وثيقة أخرى معاصرة سطرتها الممالك المجاورة. ويتفق الباحثون على أن وصف هيكل سليمان الذي ورد في سفر الملوك الذي ذكرته أعلاه هو نقل عن أوصاف معابد انتشرت في بلاد الشام إبان النصف الثاني للألف الثانية ق.م والنصف الأول للألف الأولى ق.م.وكان بعضها متهدم جزئياً لذلك جاء وصفها في سفر الملوك كما ذكرت أعلاه مبهماً وغامضاً[8].

وفضلاً عن ذلك اتهم سليمان بعبادة الأصنام في سفر الملوك الأول الأصحاح أحد عشر فقد تزوج فتيات من مصر وعمون وموآب وصيدا وبنى لهنَّ معابد. وبغض النظر عن رأي الباحثين في هذه الحكاية فإننا نعرف من الوثائق التاريخية أنه كان يوجد معبد لبعل وعشتار في أور شالم[9] وربما أيضاً لرب موآب كاموش ورب عمون مَلْكم.فهم جيران أورشالم.

ونرجح أن مدينة أورسالم التي بقيت لليبوسيين ولم يدخلها داوود وسليمان كانت تضم معابد لآلهة المنطقة اعتاد الناس على إقامة طقوسهم الدينية فيها حتى في عهد داوود وسليمان وربما أقدم هذا الأخير على العناية بها وسمح للسكان بممارسة عباداتهم فيها فإنهم بعبادة الأصنام والانحراف عن التقيد بتعاليم يهودا وعدم الاستماع إلى نصائح كهنته، ونظن أن معبداً من هذه المعابد التي كانت في أورشالم وحولها كان متميزاً فنُسب بناؤه إلى سليمان كما نُسبت إليها عجائب أخرى.

ويدعي الباحث الآثاري الإسرائيلي داوود وسِيشْكن أن جهوداً متواصلة بُذلت خلال مئة وخمسين عاماً بالتنقيب في أورشالم ولم تقدم أيَّ دليل على وجود طبقة استيطانية معمارية أو سور أو حتى كسر فخارية تعود إلى عصر المملكة المتحدة[10] وهو في ذلك يردد آراء القسم الأعظم من الباحثين في تاريخ المنطقة القديم الذين يزعمون أن كتاب العهد القديم لا ينظر إليه على أنه وثيقة مكتوبة متزامنة مع وقوع الحدث فأسفاره قد دونت في القرن الخامس ق.م بعد مرور قرونٍ على وقوعه ويمكن أن تكون الناس قد نسيته[11].

هذا شيء والشيء الآخر أن مدينة اليبوسيين التي تقع إلى الشمال من مايسمى مدينة داوود لم يذكر شيء عنها في كتاب

العهد القديم وأغلب الظن لأنها بقيت مدينة يبوسية وبقي الإسرائيليون في حصن صهيون. وهنا لابد من نظرة إلى الواقع التاريخي لبلاد الشام من خلال المشروع الآشوري في تكوين مملكة عالمية فقد دأب ملوكها منذ سلمانصر الثالث وحتى آشور باني بال أي القرن التاسع حتى القرن السابع ق.م على إخضاع ممالك المدن الشامية وإلزامهم دفع الجزية وفي عهد تجلات فلصر الثالث ٧٤٢-٧٢٧ق.م أصبحت المناطق الجنوبية من بلاد الشام ومنها كنعان تحت الإدارة الآشورية مباشرة ولم يكن لملوكها دور في شؤونها العامة وخاصةً الاقتصادية التي أدارها التجار زد على ذلك أن الضرائب المدنية والمعبدية التي كانت تدفع للملوك المحليين تحولت إلى خزينة آشور(١٢) والحدث الأهم في تاريخ أورسالم أن حاصرها سنحيرب عام ٧٠١وأجبر حزقيا على دفع الجزية.نظم سنحيرب البلاد في ولايات آشورية وضم أورسالم إلى ولاية أشدود(١٣) وهذا يعني أن المدينة قد انتزعت من السلطة اليهودية وأصبحت بيد سلطة أخرى (انظر ما سيأتي) ليس هذا وحسب بل أعاد ملوك آشور الهيبة والقدسية إلى أرباب كنعان ومعابدهم وفي أورسالم التي بقيت أربابها الكنعانية مقدسة حتى في عصر داوود وسليمان استمر الوضع فيها على حاله فمارس اليبوسيون طقوسهم الدينية وعباداتهم في معابدهم. وينسب إلى حزقيا حفر نفق للوصول إلى ماء نبع ستي مريم أثناء حصار سنحيرب لأورسالم عام ٧٠١ق.م والواقع أن النبع هو داخل السور الذي يعود إلى عصر الكنعانيين في القرن الثامن عشر والوصول إليه لا يحتاج إلى نفق علماً بأن الكنعانيين قد شيدوا برجاً عظيماً حصيناً قرب النبع كشفت عليه التنقيبات الأثرية(١٤) وآخر عند البركة الحمرا وامتدت القناة بينهما تحت الأرض وفوقها .إذن لا حاجة لنفق فهو موجود أصلاً وربما قام حزقيا بإصلاحه فقد عثر في عام ١٨٨٠على نقش كتابي في القدس مشوه ويتعلق بحفر قناة أو جزءٍ منها ولم يتفق الباحثون على نسبه ولا على عصره(١٥) وعلى أية حال لم يذكر الآشوريون أنهم قطعوا الماء عن المدينة أو حاولوا ذلك كعادتهم في مثل هذه الحالة. ويجمع الباحثون على أن الآشوريين لم يضغطوا على أورشالم مثلما حاصروا واحتلوا لخيش فهي المدينة الأكثر تحصيناً وأهمية.

مرة أخرى ظهرت مصر على مسرح الأحداث في بلاد الشام وذلك خلال القرن

السادس ق.م وعندما استولت عشيرة كلدو على السلطة في بابل وسقطت الإمبراطورية الآشورية سار ملك مصر نخو الثاني بجيش قوي نحو بلاد الشام وهزم جيش يوشيوه في مجدو واصطدم مع نبوخذ نصر في كركميش فانكسر الجيش وعاد إلى مصر وفرض الجزية على شيوخ يهودا ووضع على إدارة البلاد إيل ياخيم ولم يذكر أنه كان في أورشالم لأنها كانت قد سلخت عن الإدارة اليهودية منذ نهاية القرن الثامن ق.م.

بعد تراجع الجيش المصري لحق به نبوخذ نصر وفي كنعان أجبر يواخيم على الاعتراف بسلطته ودفع الجزية له ووصفه بأنه من يهودا ولما أصبح صدقيا شيخاً على يهودا أراد الانعتاق من نير بابل فامتنع عن دفع الجزية فأرسل نبوخذ نصر جيشاً عام ٥٨٩ق.م احتل أراضي يهودا وحاصر أورسالم ثم احتلها ونقل صدقيا إلى ربله جنوبي حمص مقر نبوخذ نصر ولم يذكر شيئاً عن أحوال أور شالم وفيما بعد أضيف إلى أخبار الحملة المدونة في سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٥ :آية ٨-٣٠أنه بعد مرور شهر على أسر صدقيا ونقله إلى ربله حضر القائد العسكري البابلي نبو سردان ودمر المدينة ؟! وهنا نتساءل لماذا تعامل البابليون مع أورشالم بهذه الطريقة والانتظار حتى مرور شهر؟ نحن نرجح أن هذا الخبر الذي لا تؤيده الأخبار البابلية قد حشر في الخبر الأساس.زد عل ذلك أن التنقيبات الأثرية لم تكشف عن آثار من عهد صدقيا؟!

بعد سقوط مملكة كلدو دخلت البلاد العربية من مصر حتى بلاد الشام والعراق ولأول مرة تحت سلطة أجنبية هي سلطة الأخمينيين.

ويقال أن كورش قد أمر بإعادة بناء الهيكل وعند انتشار الخبر في أواسط اليهود قامت المعارضة للفكرة بنشاط مجموع لمنع العمل بذريعة أن يهودا أرادت أن تنفرد بأعمال البناء و إبعاد الإسرائيليين عن المشاركة (عزرا الإصحاح ٤)وفي رأينا أن هذه المعارضة تعود جذورها إلى اعتراض اليهود على بناء هيكل للرب فهم اعتادوا على إقامة طقوس العبادة عند خيمته وأمام التابوت.ولم يعرف أنهم شيدوا معابد في أية مدينة والسعي إلى أورشالم مُجهد ومضني ففضلوا البقاء على طقوس عباداتهم البرية حتى في أور سالم كما أسلفنا .هنا يذكر السفر أن اليهود أعادوا بناء الهيكل أو بيت الرب ولم يذكروا أنهم أعادوا بناءه كما كان في عهد سليمان ! ربما لأن سليمان لم يأمر بتشييد

هيكل بل اكتفى بالسماح لسكان أورسالم بممارسة طقوسهم الدينية في معابدهم (انظر ماسبق) وجرى على هذا التقليد عزرا الذي أُتهم كما أُتهم سليمان من قبله بالسماح بالزواج من غير الإسرائيليين ذكور وإناث ونجد الإشارة هنا إلى أن عزرا قد اعترف بأن اليهود في البلاد أصبحوا أقلية يحيط بهم الغرباء من كل جانب (راجع عزرا إصحاح ٩ آية ١١)فهل استطاعوا إعادة بناء الهيكل؟!

ويتساءل الباحثون لماذا تبنى كورش بناء هيكل في هذه المدينة البعيدة عن مقره في بابل؟والواقع أن إعطاء التعليمات بإعادة بناء الهيكل لا يعني بالضرورة تنفيذ العمل كما أن وصف كورش بأنه نفذ أمر الرب فيه شكٌ كما ونرجح أنه لم يقدم شيئاً لإعادة البناء[١٦] ربما وفي سياق عهده بإعادة ماخربه نبوخذ نصر سمح للجميع ومنهم يهودا بممارسة طقوسهم الدينية من غير تفضيل واحد على آخر !ومما يدعنا للشك في صحة الخبر أن والي بلاد الشام الفارسي الذي كان يقيم في دمشق إبان عهد كورش الأول (عزرا أصحاح ٥ :آية ٣-٦) قد وجه سؤالاً إلى البلاط الفارسي يسأل عن صحة أمر كورش في إعادة بناء بيت الرب ولم تذكر الوثائق الأخيمينية شيئاً عن الجواب إنما ذكر في سفر عزرا أصحاح ٥ آية ٦ وما بعد والإصحاح ٦ حتى آية ١٢ نص أوامر كورش فقط ولم يتطرق إلى الجواب[١٧]!!

وفي العصر الهيلنستي بقيت الأقلية اليهودية في البلاد على دينها علماً بأن القسم الأعظم منها احتضن الثقافة الهيلنستية التي سادت المشرق وأخذ الطابع الديني المتأثر بالثقافة وطقوس العبادة الهيلنستية ينتشر وتبعته طبقات كثيرة من السكان وأصبحت المدارس الهيلنستية محط أنظار السكان أكثر من بيوت العبادة وخاصة في أورشالم[١٨] التي شهدت صراعاً بين الحاخامات على السلطة ،فانتصر الحزب الموالي للسلوقيين في عهد انتيوفس الرابع ١٧٥-١٦٣ وسار على قواعد الثقافة اليونانية.

وهنا لابد من التأكيد على نقطة هامة يجمع الباحثون على صحتها ودورها البارز في ثقافة المنطقة وتتمثل في أن اللغة الآرامية ومنذ القرن الثامن ق.م قد أصبحت لغة الناس في بلاد الشام والعراق وفي الدور الفارسي أصبحت لغة الدولة الرسمية تتخاطب بها مع إدارات البلاد . التي خضعت لها.

ويجمع الباحثون أن اللغة العبرية قد أصبحت لغة الكهنة فقط وعامة اليهود

يتكلمــون الآرامية – اليهودية وانخرطوا في ثقافة المنطقة.

وفي الختام نجمل ما قلناه أن فكرة بناء بيت للــرب في أور شالم قد اصطدمت على الدوام بمعارضـــة المتزمتين اليهــود الذين رغبوا في أن تكون طقوسهم الدينية ثابتة لا تتغير وهي الصـــلاة أمام تابوت الرب الذي نُقل معهم مما دعا داوود للتخلي عن الفكرة وترك أمر تنفيذهـــا إلى سليمان وقد امتنع سليمان عــن معاداة أرباب الشعوب الأخرى وبقيت معابدهـــم في أورسالم قائمة يدخلها بعضــن اليهود أيضـــاً (راجع الملــوك الأول إصحـــاح ١١) كمـــا أن احتـــلال الآشوريين للبلاد منذ القرن التاســع ق.م تبعه تحويل مناســـك العبادة المحليـــة إلى آشورية حسب مناســـك عبادة آشور ففقدت المعابد المحلية استقلاليتهـــا وتحولـــت إلى آشوريـــة عنـــد الجميع بمـــا فيهم اليهـــود ولم يتغير الحال في دور البابليـــين والفرس.وفضلاً عن ذلك نرى أن عبادات الأرباب الكنعانية والمشرقية القديمة إيـــل وبعل وعشتـــار وشمش وسن بقيـــت معابدها في كل مـــكان واتهم اليهود بعضهم لبعض في عبادتها.

وقد حـــوَّل العـــرب الاســـم أورسالم إلى القدس عندما أصبحت أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين انسجاماً مع معنى الاسم القديم وهو المكان المقدس.

الهوامش

-1- W. Helck . Die Beziehgen Aegiptens zu Vorderasien im 3. Und . Jahrtausend V. Chr، 1962 p. 4968-

-٢- **المصدر السابق ص ٦٥**

-3- Biblical Archaeology Review 2004.Vol . 30 No.6 p . 20 ff

-4- W .Helek المصدر السابق ص 121-127

-5- Biblical . Archaeology 1997، Vol . 23 No. 5 p . 52

-6- Biblical Archaeology 2004، Vol . 30 No .6 p. 2031-

-٧- **المصدر السابق ص ٢٦**

-8- Biblical Archaeology 2000 ،Vol . 6 No . 3 p . 44

-9- Worterbueh der Mytology 1 . Abteilung ، 2 . liefrung p . 258،260

-10- Biblical Archaeology 2004، Vol 30 No . 6 p . 20

-11- Biblical Archaeology 1997 Vol . 23 No . 4 p . 43

-12- H . Metzger ، Grundriss der Geschichte Israels 1997، p. 121122-

-13- The Aneient Near East Textes Relating to the old Testament 1969، Historicl Textes

-14- Biblical Archaeology 1999، Vol 25 No . 6 p . 24

-١٥- **انظر المصدر المذكور في الهامش ١٣ ص ٣٢٧**

-16- M. Noth، Geschiehite Israels 1954 ، S 277278-

-17- M . Metzger المصدر السابق ص 152-151

-18- M . Noth المصدر السابق ص 324- 326



الدراسات والبحوث

صورة القدس في أشعار الجهاديات

د.عمر الدقاق*

القدس.. هذه المدينة العريقة المقدسة، ذات الوهج المتميز بين سائر المدن في تاريخ البشرية، والمتألقة عبر العصور، مدينة الأنبياء والمرسلين، والمحجة الكبرى للمسيحيين، والقبلة الأولى للمسلمين، المدينة التي تحتضن كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة.. هذه المدينة الخالدة باقية أبدا في ضمير الأجيال وذاكرة الإنسانية، برغم شراسة الحقد وفداحة الجور ومحاولات الطمس والتشويه، والتزوير والتهويد.. إن آفاق القدس لا تحد، ومجال القول فيها لا ينفذ..

* أستاذ بجامعة حلب وعضو في مجمع اللغة العربية بدمشق.



حرصت في دراستي هذه - تبعا لطبيعة موضوعها - على أن تكون نسيجا متلاحماً من معطيات الأدب ووقائع التاريخ، إذ الشعر ألق الحياة المتوهجة، يصور مناحيها، وينفعل بحوادثها، ويحمل - على وجه من الوجوه - أجلى ملامحها.

وإذا كانت مقولة «التاريخ يعيد نفسه، أو أن هذه الليلة شبيهة بالليلة البارحة» صحيحة ولو إلى حد ضئيل، فإن حال وطننا العربي اليوم في مواجهة الخطر الصهيوني في إبان القرن الحادي والعشرين شبيه إلى حد كبير بما كانت عليه حال البلاد العربية الإسلامية في أواخر القرن الحادي عشر وخلال القرن الثاني عشر إبان الغزو الصليبي الآتي من الغرب، ثم الغزو المغولي الآتي من الشرق. إذ العرب موزعون شيعاً وطوائف، ومفرقون دويلات وإمارات. فقد كان الحكام في واد وشعوبهم في واد آخر، وكان بأسهم فيما بينهم شديداً وتصارعهم على السلطة قد بلغ المدى. مع فارق بين الأمس بطابعه القومي السائد، الإسرائيلي - العربي. غير أن الغزو غزو في كل حال، والنزوع إلى التحرر هو أيضاً في كل حين.

لقد كان للأدب العربي إبان الغزو الصليبي لبلاد المشرق الإسلامي حيز هام في ضمير الأجيال العربية السالفة التي قدر لها أن تعيش حرارة تلك الأيام، بكل ما انطوت عليه من معاناة وقهر، ومن محن وآلام، وكذلك بكل ما حفلت به من مباهج ومسرات وانتصارات..

فقد واكب الأدباء، شعراء وكتاباً وخطباء، الأحداث الجسام في ذلك العصر، ولا سيما عبر القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، وبدا صوتهم أكثر جلاء وأعلى دوياً في ظل هذا المثلث القوي من الحكام العرب، عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين. فهم القادة العظام الذين قدر لهم أن يشهدوا المد الصليبي في بلاد العرب كما شهدوا انحساره، وأن يعاصروا أهم تلك الأحداث، بل أن يكونوا إلى حد كبير هم صانعيها.

على أن ما كان بالأمس، ليس في نظر العرب اليوم حقبة مضت وأياماً انقضت، وإنما هو ماض حي يسري نسغه في كيان الأمة، فتعيش على وهجه وتنتشي بألقه. ومن طبيعة الأمم أنها في فترات نهوضها تلوذ بماضيها، وتستوحي أمجادها السالفة، وتعيش على نشوة ذكرياتها الغابرة. والنهضة العربية الحديثة شأنها في ذلك شأن النهضة

الأوروبية قبلها، كانت ترمي منذ البداية، إلى بعث الماضي العريق، وإحياء التراث الغابر.

إن الأحداث يذكر بعضها ببعض، ولاسيما حين تكون قوية بعيدة الأثر في حياة الناس. فمن طبيعة الأمور أن يذكرنا الغزو الصهيوني الحديث لفلسطين وما جاورها من أرض العرب، بالغزو الصليبي القديم للمنطقة نفسها في المشرق العربي لاسيما أن كلا الغزوين ذو طابع استيطاني، وأنهما كليهما وفدا من الغرب، واستمدا بأسهما ومقومات بقائهما منه، فضلا عن تشابه عجيب في كثير من الوقائع والمواقف والملابسات والظروف التي اكتنفت الغزوين، فإذا هما في حصيلة الأمر من طبيعة واحدة.

ولئن كان من الآثار التي ترتبت على الغزو الصهيوني للوطن العربي أن ظهر في أدبنا الحديث شعر ونثر في مقاومة الغزاة، فقد كان من الآثار التي ترتبت على الغزو الصليبي كذلك أن ظهر عند أسلافنا أدب يقاوم الغزو ويلتحم بالأحداث ويصور المطامح والآلام..

كل ذلك ينم بوضوح على أن العدوان باق، والمعركة مستمرة، وأن الأدب في الأمس واليوم مواكب للحياة، مادامت هذه الحياة نابضة في جسد الأمة، مضطربة بين جوانحها.

صدمة الاجتياح وضرام الشعر

كان الهجوم الصليبي في البدء اجتياحا مفاجئا لبلاد الشرق الإسلامي لم يسبق له مثيل من قبل في التاريخ، فإذا الصدمة قوية والمفاجأة مذهلة، ولم يكن العرب، في حالهم تلك، يستطيعون شيئا تجاه أعدائهم. وهكذا أخذت مدنهم تتهاوى تباعاً كلقيمات سائغة دون عناء كبير لدى الغازين. إنها مرحلة المباغتة التي بدا العرب في إثرها وكأنهم يترنحون، فاختل فيهم التوازن و رانت عليهم البلبلة. حقا لقد كانت مقاومة عفوية ومعارك آنية، ولكنها آلت في معظمها إلى الإخفاق، وانتهى أكثرها إلى الهزيمة..

كانت هذه الضربة الأولى من العدو في واقع الأمر ذكية، فضلاً عن كونها صاعقة، فقد أدرك الصليبيون منذ البداية أن الطريق إلى القدس لا بد أن يمر أول الأمر عبر طريق متعرج طويل، فاختاروا لغزوهم جهة مأمونة وزاوية بعيدة، بحيث يكون ذلك في أقصى الشمال، وأيضا إلى قدر معلوم نحو الداخل في اتجاه الشرق، ومن

ثم النـــزول إلى سواحل الشام والهيمنة على الموانئ والثغـــور لتبقى الخطوط متصلة مع الأوطان الأوروبية.

كان الهدف الأول احتلال الرها (أورفة)، وهـــي إمـــارة مسيحية كانـــت عهدئذ تابعة للدولة الإسلامية، وكانت تعد خامس المعاقل الدينية للنصارى، «وهذه الرها - كما يقول صاحب كتاب الروضتين - من أشرف المدن عنـــد النصارى وأعظمهـــا محلاً، وهي أحد الكراسي عندهـــم، فأشرفها البيت المقدس، ثـــم أنطاكية، ثـــم رومية، ثـــم قسطنطينية، والرهـــا»، وقد أضاف هـــذا المؤرخ إلى ذلك قوله «وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرهـــا شر عظيـــم». فقد كانـــت استباحة الصليبيـــين للمدن في أعقـــاب كل احتلال، وتقتيل أبنائها وتخريب بيوتها أمرا لا محيد عنه. فامتلأت القلـــوب هلعا، وكانت أهوال وكانـــت أحزان، كذلك كانـــت أشعار غزيرة تنضح بالأسى وتطفح بالمرارة.

ولعل جانباً من حال الطغيان والفوضى انعكـــس أول الأمر لـــدى شاعر لا نعرف له اسماً، ساقه ذلك الخطب الفادح إلى تصوير معانـــاة قومه بعبـــارات تنم علـــى الفجيعة وتضج بالاستغاثة:

أحـل الكفـر بـالإسـلام ضيماً
يطـول عليـه للديـن النحيب
فـحـق ضـائـع ودم مـبـاح
وسـيـف قـاطـع ودم صبيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا
أجـيـبـوا لله ويـحـكـم، أجـيـبـوا

وتوالـــت النكبـــات، وهـــام الكثيرون من سكان القدس وبعض مدن الساحل في الشام على وجوههم من وطأة الاحتلال الصليبي، حتى لاذ بعضهم بالعراق، وراحوا يروون في بغداد ما لقيه قومهم من أهوال، وكيف قاوم حمـــاة بيت المقدس الحصـــار شهراً كاملاً، حتى تهدمت أسوارهـــم، ونفدت مؤو نتهم، وقلت ذخيرتهـــم، فاضطـــروا إلى التسليم. واندفـــع الغـــزاة يهيـــج رؤوسهـــم الغيـــظ، وتضطرب نفوسهم بالحقد، وتلعب بعقولهم نشـــوة الانتصار، فذبحـــوا كل من لقوه من أهـــل المدينة المقدسة نساء وأطفالاً وشيوخاً فضلاً عـــن المحاربين. وذكر ابـــن الأثير أن الفرنج لبثوا أسبوعا يقتّلون ويذبّحون، حتى إنهم فتكوا بعدد كبير ممـــن لاذوا بالمسجد الأقصى برغم أنهـــم منحوهم الأمان الذي طلبـــوه، ولم يرع العدو لهم ذمـــة ولا عهداً. فبكى الكثيرون في بلاط الخليفة وفي محافل

بغداد ما ناب إخوتهم من ضيم وهوان. غير أن أولي الأمـــر ببغداد لم يزيـــدوا شيئاً على تذراف الدموع السخيـــة.. وكانت صيحات في واد لم تلـــق ما تستحقـــه من نخوة وطنية ولا دينيـــة ولا إنسانية. وفي تلك الغمار نظم الشاعر الأبيوردي وهـــو في العراق قصيدة مؤثـــرة إثر سماعـــه تلك الأنبـــاء الفاجعة فقال:

مزجنا دماء بالدموع السواجم

فلم يبق منا عرضة للمراحم

وأدان الشاعر في بغـــداد ظاهرة البكاء وبـــين أن الدمـــوع لا تجدي نفعـــاً ولا ترد وطناً:

إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

فشر سلاح المرء دمع يفيضه

وعلـــى معهـــود أقوال الشعـــراء في مثل هذه الأحوال عمد الشاعر إلى إبراز فظاعة الهول ومن ثم راح يستصرخ ضمائر قومه :

وكيف تنام العين ملء جفونها

على نكبات أيقظت كل نائم

وإخوانكم في الشام يضحي مبيتهم

ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

دعوناكم والحرب تدعو ملحّة

إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تـراقـب فيـنـا غـارة عـربـيـة

تطيل عليها الروم عض الأباهم

فالملاحـــظ أن الشاعـــر يعـــزف لحنـــه الحماســـي الشجي علـــى وترين ركينين من القومية والدين، أو من العروبة والإسلام.

وكان لا بـــد للمسلمـــين أن يفيقـــوا من الصدمة، ليدركوا هـــول ما تعرضوا له وما صـــاروا إليه. وما لبثـــت الأحداث أن أنبتت من كان عليه أن يتصدى لهذا الأمر الجلل، فقـــد جاد الزمن على الأمـــة عهدئذ برجل ذكـــي شجـــاع ذي نظر وبأســـ، اسمه عماد الديـــن زنكـــي. وكان يحكم باســـم الخليفة أقاليم البصرة وواسط في العراق. لقد أعلن عمـــاد الدين في مجلسه رفضـــه واقع قومه المهين وقال على ملأ من سامعيه وهو ممتلئ غيظاً وحمية: «قـــد ضجرنا مما نحن فيه، أفي كل يوم يملك البلد أمير؟».

وكان أن ندبه السلطان محمود السلجوقي في أعقـــاب تفاقم خطر الفرنجة ليتولى أمر الشـــام ويزحف إليهـــا، بعـــد أن رآه أصلب رجاله عوداً وأشدهم بأساً.

وهكـــذا كان عمـــاد الدين هـــو البطل المنتظر الذي التمع كالشهاب في دنيا الإسلام والعروبـــة المتخبطـــة في ظلمـــات التفرقة

ووسط رياح التصارع على المغانم. لقد بدأت حملاته تتكلل بالنجاح ضد المنتفعين والخونة والمتخاذلين، وفي الوقت نفسه ضد الغزاة الطامعين والأعداء المحتلين. فعلى يديه بدأت حملات التحرير والاسترداد. على أن أهم نصر حققه عماد الدين في حياته هو تحرير الرها، قاعدة أول إمارة أقامها الصليبيون في الشرق الإسلامي. ويبدو أن فتح الرها أهاج قرائح الشعراء، ورأى فيه ابن القيسراني فتح الفتوح:

فتح الفتوح مبشراً بتمامه
كالفجر في صدر النهار الآيب
لله، أية وقفة بدرية
مطرت سحائبها بأيمن صاحب

وهذا التطلع اللاهف نحو التحرر المنشود كان يتجلى بعد كل نصر يحققه العرب على الفرنجة، كما يبدو في كل قصيدة مدح ينظمها شاعر، وفي كل سطر تهنئة يخطه كاتب. وأغلب الظن أن الناس تفاءلوا بفتح الرها، ورأوا أن الاستيلاء على هذا الثغر سوف يقود إلى استرداد القدس وعكا وسائر الساحل في بلاد الشام. وهذه الرغبة العارمة التي عبر عنها بعض الشعراء لم تكن عارضة عابرة أو فردية محدودة بل كانت أمنية جماعية تراود نفوس الجميع الذين كانوا يعيشون على أمل رؤية ذلك اليوم الموعود. ومثل هذا الربط بين هذا اليوم والغد، أو بين حاضر الأيام ومستقبلها عبّر عنه شاعر الزنكيين ابن القيسراني إذ قال:

فإن يك فتح الرها لجة
فساحلها القدس والساحل

ورأى أن الفرنجة الدخلاء الغاصبين لابد أنهم آخر الأمر راحلون:

فهل علمت علم تلك الديار
أن المقيم بها راحل..

ثم وقع المقدور وحم القضاء، ولفظ عماد الدين الشهيد آخر أنفاسه في قلعة جعبر على ضفة الفرات بين يدي ولده اليافع نور الدين. وكأن القدر قد اختار هذا القائد الجديد لينهض بالأمر بعد أبيه، ويتسلم من بين يديه تلك الشعلة الوهاجة، ثم ليمضي قدماً في مسيرة التحرير.

تحت لواء التوحيد

لقد هيأت الأقدار للحاكم الفذ والقائد الشجاع نور الدين محمود رجلاً آخر من هذا الطراز أو أعظم منه يكون لزعيمه عضداً ولأمته سنداً. إنه صلاح الدين الأيوبي، الذي راح ينفذ سياسة مولاه نور الدين، ويمضي

بها إلى أبعد مدى على صعيد توحيد الشمل وتحرير الأرض. إذ استطاع صلاح الدين أن يؤسس دولة جديدة في مصر بعد أن أطاح بخلافة الفاطميين.

ولعل قصيدة ابن سناء الملك في هذا الصدد ذات أهمية بارزة بين أمثالها، فهي فضلاً عن جمال معانيها وقوة مبانيها تنطوي على الشعور القومي الطاغي الذي كان يتعاظم يوماً بعد يوم، ويزداد اضطراماً كلما رفده زيت جديد في إثر فتح مبين. ومما يكسب قصيدة ابن سناء مزيدا من الشأن على هذا الصعيد أن ناظمها شاعر مصري فاضت نفسه بهذه المشاعر الإسلامية – العربية. فقد ذاب في ضمير الشاعر العامل الجغرافي وتلاشت المسافات في إثر نصر باهر انعقد لواؤه لصلاح الدين، حين دخلت مدينة حلب في حوزته، هذه المدينة الرابضة في أقصى الشمال من العالم الإسلامي، والقصيدة تقارب الستين بيتاً قال فيها :

وفي زمان ابن أيوب غدت حلب

من أرض مصر،وصارت مصر من حلب

ويشيد الشاعر المصري بهذا الحدث الذي انجلى عن النصر الخالص الناصع من خلال رايات صلاح الدين الصفراء الخفاقة، حيث جموع المقاتلين بحر زاخر، والسيوف تتدافع كالموج، والخوذات تبرق كحبات الزبد :

تبدو الفوارس منه في سوابغها

بين النقيضين، من ماء ومن لهب

وحل من حولها الأقصى على فلك

ودار من برجها الأعلى على قطب

ولعل من أهم ما تفصح عنه تلك القصائد الحماسية هو إعرابها يومئذ عن ضمير الأمة، وتصويرها ما امتلأت به نفوس العرب من استبشار وأمل في سبيل تحرير القدس واستكمال أسباب النصر المبين والفتح القريب، حيث يقول ابن القيسراني:

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب

يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب

واستبشر المسلمون باسترداد مدن الساحل والداخل، واستعادة بيت المقدس، وأيقنوا أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة وأنه لا يطهر ربوع القدس التي دنسها الغاصب سوى الدم الغزير، وقد عبر عن ذلك ابن القيسراني بقوله في قصيدة أخرى :

كأني بهذا العزم لا فل حده

وأقصاه (بالأقصى) وقد قضي الأمر

وقد أصبح (القدس) المقدس طاهراً

وليس سوى جاري الدماء له طهر

وكان أن مضى أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين على رأس جيش إلى القاهرة سنة ٥٥٩ هـ. وهكذا أصبح العرب في الشام ومصر تحت قيادة واحدة قادرة على أن تطبق بكماشتها على إمارة القدس الصليبية، واستطاع صلاح الدين بعد ذلك أن يحقق هدفاً كبيراً لا بد منه لبلوغ النصر الحاسم وهو توحيد شمل البلاد العربية، فدانت له مصر والشام والموصل وبلاد الجزيرة وديار بكر والحجاز واليمن وجزء من بلاد المغرب، وتدفق عليه المجاهدون من جميع تلك الأرجاء، وانصبت موارد الأمة في سبيل حركة الجهاد.

وكان من طبيعة الأمور أن يواكب الأدب تلك الأحداث الجسام وينفعل بما تنطوي عليه من انتصارات باهرة، كانت تهز ضمير الأمة، وتلهب قرائح الشعراء، وتشحذ ألسنة الخطباء. وقد ذكر بعض الدارسين زهاء خمسين شاعراً، منهم المصري والشامي والعراقي.. كانوا يقدمون إليه حيث كان، فيبادرون إليه مهنئين، وينشدون الأشعار مادحين وممجدين. وقد وصف العماد الأصفهاني بعض هذه المحافل من مثل ما أعقب سلسلة انتصاراته السابقة، وذلك قبل معركة حطين واسترداد القدس ببضعة عشر عاماً فقال: «كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل فحضر الشاعر سعادة الضرير – وهو من أهل حمص – ووقف ينشد هذه القصيدة في العاشر من شعبان سنة إحدى وسبعين وخمسمئة، وقد استهلها بالغزل:

حيتك أعطاف القدود بيانها

لما انثنت تيهاً على كثبانها

وذكر العماد أنه في اليوم التالي احتفل الحفل، بحضور أهل الفضل، فأنشد الشاعر بين يدي صلاح الدين:

لا يقعدنك ما حلوا وما عقدوا

هم الذئاب، وأنت الضيغم الأسد

وكان ممن قصدوا إلى دار العدل أيضاً بدمشق البهاء السنجاري، وهو من الموصل فأنشد قصيدة مطلعها:

جردت من فتكات لحظك مرهفا

وهززت من لين القوام مثقفا

وكان صلاح الدين دائب الحركة كثير التنقل، لا يكاد يستريح به جواده في أرض حتى ينهض إلى أخرى. وحين بلغ حمص مرة وعسكر بالعاصي، قصد الناس إلى خيمته مرحبين، وفيهم الشاعر مهذب الدين الموصلي حيث قال من قصيدة:

وما خضع الفرنج لديك حتى
رأوا مالا يطاق من الكفاح
ملأت بلادهم سهلا وحزنا
أسوداً تحت غابات الرماح

وكثيرا ما أرسل الشعراء بقصائدهم إلى صلاح الدين وهم بعيدون عنه يقرئونه التحيات ويقدمون له التهاني عبر قصائد مطولة، كما فعل سبط بن التعاويذي من بغداد، وأبو علي الحسن الجواني من مصر.. وقد ضاع الكثير من هذا الشعر الغزير، بل لم يبق من معظمه سوى القليل روت بعضه أو مطالعه كتب الأدب وكتب التراجم، مثل كتاب الروضتين، وجريدة القصر، ومثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان.. وكثيرا ما يرد ذكر لشعراء مدحوا صلاح الدين دون أن نعثر لهم في ذلك على شعر.

وربما يكون الشاعر أسامة بن منقذ أمير شيزر وفارسها من أشهر الذين أرسلوا إلى صلاح الدين إشادة ببأسه وحسن تدبيره، وقد بعث إليه بجملة من القصائد، الواحدة بعد الأخرى، في إثر بعض الأحداث التي كانت تستجد عهدئذ بين الحين والحين، من ذلك قصيدتان داليتان وثالثة ميمية وغيرها..

وكثيرون هم الشعراء الذين عاشوا في إبان القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وعاصروا أحداث عصرهم وواكبوا حياة صلاح الدين الحافلة بجلائل الأعمال وروائع الانتصارات، فبالإضافة إلى الذين سبق ذكرهم كان لعمارة اليمني شعر حسن في صلاح الدين حينما أشاد بجيشه الجرار الذي آخره في مشارف دمشق وأوله في ضفاف النيل.

على أن استرجاع الأرض ولا سيما بيت المقدس من أيدي الصليبيين كان الهاجس الملح أو الأمل الكبير الذي كان يضطرب في نفوس العرب ويتجلى على ألسنة أدبائهم، ومن أمثلة ذلك ما نجده في قول العماد الأصفهاني مخاطباً صلاح الدين وحاضاً إياه على مهاجمة القدس وقصم ظهر الفرنج :

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا
لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الإفرنج سوط عذابها
بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا

إلى أن يصل إلى بيت القصيد مطالباً بفتح بيت المقدس:

ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا

والذي يعنينا في هذا المجال المحدود من شعر العماد الأصفهاني وغيره من الشعراء المعاصرين لصلاح الدين هو تعبيرهم - كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا - عن هذا الهم الدفين الذي كان يعتلج في نفوسهم بل في ضمير العرب والمسلمين كافة، إنه استعادة بيت المقدس ومسجده الأقصى وصخرته المشرفة، وهذا ما نجده أيضاً في قصيدة أخرى للعماد الأصفهاني إذ يقول مناجياً الملك الناصر:

فسر وافتح القدس واسفك به
دماء متى تجرها ينظف
وخلّص من الكفر تلك البلاد
يخلصك الله في الموقف

وحين غزا صلاح الدين ساحل فلسطين واستعاد غزة وعسقلان سنة ٥٦٦هـ انتعشت الآمال واشتدت العزائم، وأخذ الجميع يتطلعون بلهفة واستبشار إلى المرحلة التالية ونهاية المطاف.

وفي رأي عمارة اليمني أن هذا الفتح لمدن الساحل لم يكن لصلاح الدين سوى سلم نحو تحقيق الهدف الكبير، حيث يتطلع كل مسلم تطلع المشوق اللاهف إلى ما بعده وهو فتح بيت المقدس الذي طال انتظاره:

وهيجت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه إليك التشوق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه
قريباً، وإلا رائد ومطرّق
هو البيت إن تفتحه، والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق

لقد كان الهدف واضحا أمام القائد صلاح الدين منذ أن امتلك زمام الملك وتولى زعامة الأمة. غير أن الأمور مرهونة بأوقاتها، إذ كان لا بد من تحقيق جملة من الأعمال قبل خوض المعركة الفاصلة، وهكذا وبعد سلسلة من المعارك والغزوات تم خلالها اقتحام حصون وقلاع واسترداد قرى وبلدان، انعطف صلاح الدين إلى تدعيم الدولة وبنيانها.

وفي يوم مشهود توقف صلاح الدين في أعلى جبل المقطم بالقاهرة وهو على صهوة جواده عند مدخل القلعة (التي عرفت بعدئذ بقلعة صلاح الدين) ومن حوله أشد المحاربين بأساً وأعظم الفرسان شأناً، خرج الناس لتوديعه وقد غلبهم التأثر، واستبدت بهم الحماسة، وعلت ألسنتهم بالدعاء له، فاستمع في سرادقه إلى الخطباء والشعراء، آملين الخير على يديه حتى يظهره الله

على أعدائه. ثم مضى إلى دمشق ليستكمل استعداده متخذا منها قاعدة لجنده ومركز تجمع للمتطوعة والمجاهدين من سائر بقاع الشام والجزيرة.

الشعر في موكب النصر

في نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ، ١١٨٧ م خرج صلاح الدين بجيشه من دمشق واتجه جنوباً، ثم انعطف قليلاً إلى جهة الغرب قاصداً إلى مدينة طبرية، فتمهل على سطح الهضبة ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا في أعداد كبيرة بمرج صفرية بأرض عكا، ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم، إذ انقسموا بين محبذ لمهاجمة صلاح الدين، ومؤثر بقاء جيشهم متمركزا في موقعه ليحسن التصدي للعرب.

ولم يطل بهم الأمر كثيراً، إذ قام صلاح الدين بهجوم مباغت على مدينة طبرية، واقتحمها في ساعة واحدة. وخلال نهارين من الهول تشتت شمل الفرنجة وراحوا يرجعون القهقري. فتبعهم العرب وأحاطوا بهم من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، ثم حملوا عليهم بالسيوف. واعتصمت أعداد كبيرة منهم في اليوم الثاني بتل حطين فضايقهم العرب أشد المضايقة. ويروي المؤرخون أن بعض الأشداء من جند صلاح الدين عمدوا إلى إفساد مياه آبار الأعداء، كما أشعلوا النيران في الأعشاب اليابسة المحيطة بمواقعهم، فزاد هذا من ارتباكهم، على حين كانت ضربات الجيش العربي تنهال عليهم دون هوادة، فتصدع كيانهم وانفرط عقدهم، واكتظت الأرض بقتلاهم، وعندئذ لم يجدوا بداً من الإقرار بالهزيمة، فاستسلموا للأسر بجموع كبيرة خوفاً من القتل. وكان في عداد الأسرى الناجين الملك (غود فري) وأخوه الملك (بلدوين) و(أرناط) حاكم الكرك والشوبك.

لقد كانت معركة حطين شديدة الوطأة على الصليبيين، ولم يسبق أن ذاقوا مثلها منذ قدموا من ديارهم غازين. وقد هزموا هزيمة نكراء كما تحطم جيشهم الجرار، فراحوا بين قتيل وأسير. وكان يوم تاريخي أغر في حياة المسلمين بات مقروناً على صعيد واحد بأمجادهم الكبرى أيام بدر والقادسية واليرموك..

وانطلق صوت الشعر يومئذ مهللاً لهذا النصر العظيم، وتكاثر الشعراء بباب صلاح الدين مهنئين، وتوالت عليه القصائد من

كل حــدب وصوب، وكلها رضى واستحسان، وسعادة واستبشار. ومن هذا القبيل قصيدة لعلي بن الساعاتي يقول فيها بنشوة عارمة:

جلت عزماتك الفتح المبينا
فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الإسلام لما
غدا صرف الزمان لها ضمينا
فيا لله كم سرت قلوبا
ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبرية إلا عروس
ترفع عن أكف اللامسينا
قضيت فريضة الإسلام منها
وصدقت الأماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا
وترضي عنك مكة والحجونا
فلو أن الجماد يطيق نطقا
لنادتك: «ادخلوها آمنينا»
ففي (بيسان) ذاقوا منك بؤسا
وفي (صفد) أتوك مصفدينا
فلا عدم الشآم وساكنوه
ظبي تشفي بها الداء الدفينا
وقلب القدس مسرور، ولولا
سطاك لكان مكتئبا حزينا

ويطيب للشاعر ابن الساعاتي أن يستلهم في قصيدتــه الطويلة مواطــن الإشراق في تراثــه العريق، فيضمن أبياتــه حيناً بعض آيات القــرآن الكــريم، إذ همت الجمادات بأن تقول (ادخلوها بسلام آمنين)، أو ينسج قوله على غرار بائية بشار مستعيراً صورته الذائعــة التــي تشــير إلى أن السيــوف في المعركة هي التي كانت تنير قتامة النقع حين أخذت تتهاوى كالكواكــب، فيهتدي ببريقها الفرسان:

يكاد النقع يذهلها فلولا
بروق الماضيات لما هدينا

وفي موكب الفــرح الغامــر، إثر معركة حطين، ينظم الشاعــر فتيان الشاغوري ما حــدث في ذلك اليــوم، فيصــف جانباً من تفصيلات المعركة وجزئيات القتال على نحو قلمــا التفت إلى مثله الشعــراء في نزوعهم المعهود إلى الاقتضاب في الوصف والإسهاب في المديــح، ففــي قصيدة له نــرى طلائع المحاربــين الصليبيين بخيولهــم، المطهمة، يعتليها فرسانهم الأشداء وهم يتنادون لقتال العرب، ويطلقون صيحات الحرب:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم
يتذامرون على متون الضمّر
أوردت أطراف الرماح صدورهم
فولغن في علق النجيع الأحمر

وهذا القول يشير إلى ما كان من حقيقة قــوة الصليبيين ومــدى استعدادهم لملاقاة العرب، ومنحى الشاعر في الوصف هو عدم التهويــن من بأس العدو بــل إنصافه وبيان قدراته، وهذا يعيد إلى أذهاننا ما درج عليه كثير من شعراء الحماســة عند العرب، ولا سيما ما عمــد إليه عنترة في معلقته. وتأثر الشاعر هنــا بالشاعر الجاهلي واضح على صعيــد الألفــاظ والمعاني، بصــدد تصوير منازلتــه لخصمــه العنيــد ،أو ما نجده في بائية بشار خلال وصفه لجيش العدو الذي كان في انتشاره كجنح الليل، وفي عدده كعدد الحصى، وفي كثرة سلاحه كغابة الشوك، أو مــا كان أخيراً من إشــادة المتنبي في ميميته بجيش الروم الذي زحمــت أطرافه الآفاق وبلغت زمامه أذن الجــوزاء.. ومع ذلك بدا اليوم من ســير معركة حطين أن الصليبيين على قوتهم لا قبل لهم بإيقاف المد الإسلامي، وليس بوسعهم قهر العرب الذين طالما أعدوا لهذا اليوم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيــل يرهبون به عدوهــم. وهكذا استعر لهيــب القتــال، وانبرى المجاهــدون العرب يذيقون أعداءهم الأهــوال، فلا يغادرونهم كما يقول فتيان الشاغوري إلا بعد أن ترتوي رماحهم السمر من دماء الفرنجة الحمر.

وفي المقاطــع التالية من القصيدة أيضاً أن أكثر ما كان يرى في زحمة الالتحام، حيث يفغر فاه الموت الــزؤام، رؤية مجاهد عربي وهــو ينقض كالشهاب في إثر مقاتل صليبي يركض بخفة أمامــه ركض العفاريت عساه ينجو بجلده من القدر المحتوم:

فهناك لم يـر غير نجـم مقبل
في إثـر عفـريت رجيـم مدبـر

وفي إثر ذلــك استطاع القائــد العربي اقتحام مدينة الكرك الحصينة ومن بعدها مدينة نابلس، والاستيــلاء على الكثير مما في ربــوع فلسطين من مواقــع وقلاع. وكان ابن سناء الملك شاعــر صلاح الدين يواكب هذه الأحداث ويصف هذه الانتصارات، ثم يصف مــا كان بعد ذلك تهاوى ما تبقى من مدن الشام تحت ضربات جيش صلاح الدين وقذف الحصون المعادية بمجانيقه:

فنـابلـس لما أن نـزلت بربعها
أقامت بهم حق الضيافة والنـزل
وقد رجمتها المنجنيقات إذ رمت
لشيخ لعين كافر جاهل رذل..

وكان أن تابع القائد صلاح الدين زحفه المقدســ، فيمم وجهه شطــر بيت المقدس،

فبلغ أبواب المدينة يوم الأحد، الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ، ١١٨٧ م. وكانت القدس مدينــة حصينة تحيط بهــا أسوار منيعة، فحاصرها العرب من جميع جهاتها، ونصبوا المجانيق لدك أبراجها. وقد احتمى الصليبيــون في داخلها بعد أن عقدوا العزم علــى الدفاع عنها. غير أنهم بعد أن تحملوا الحصار نحواً من سبعة أيام أدركوا أن لا قبل لهم بذلك الجيشــ الظافر وقوته الضاربة، ولا سيما بعــد أن خضدت شوكتهم، ووهت عزيمتهــم، وتحققت في حطــين هزيمتهم. فــرأوا من الخير حقن دمائهــم، وقر رأيهم علــى رفع رايات التسليم، وجرت مفاوضات على شروطه. وكان صلاح الدين كدأبه شهماً متسامحاً مع أعدائه ولم يتكبر أو يتجبر.

وفي يوم الجمعة السابــع والعشرين من رجب عــام ٥٨٣ هـ، الموافق لمنتصف تشرين الأول مــن عام ١١٨٧ م دخل الناصر المظفر المدينــة المقدسة. وصادف ذلك أن المسلمين احتفلوا في تلــك الليلة أيضــاً بذكرى ليلة الإسراء. وكان نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً.

وفي إثر ذلك المنعطف التاريخي الحاسم طار صيت الناصر صلاح الدين، وعم الفرح والابتهــاج جموع العــرب والمسلمين، فدوت أخبــار انتصــاره في كل الأسماع، وانغمرت بمحبتــه كل القلــوب، وغدا رجــل الساعة وبطل الأبطال.

وما إن بلغت البشرى الجديدة بفتح بيت المقدس بعــد حطين، أرضــ الكنانة، حتى هلل الناس وكــبروا، وانطلقت ألسنة كتابهم وشعرائهــم تتبارى في التعبــير عن نشوتهم بهــذا الفتح المبــين، وكان صــوت ابن سناء الملك مــن مصر صوتاً مدويــاً ومنتظراً في عالم الأدب، وقصيدته كمــا هو شأن الكثير من أمثالها تجمع بين المديح والحماسة، إنه يخاطب البطل الأيوبي مرة أخرى اليوم بعد أن خاطبه بالأمس القريب في قصيدة سينية سالفة، حين حط ببأسه يومئذ على حطين، فيقول:

لست أدري بــأي فتح تهنا
يا منيل السلام ما قد تمنى
قد ملكت الجنان قصراً فقصرا
إذ فتحت الشآم حصنا فحصنا
وجــرت منهم الــدمــاء بحاراً
فجرت فوقها الجزائر سفنا
قد ملكت البلاد شرقا وغربا
وحويت الآفــاق سهلا وحزنا

كذلك بادر علي بن الساعاتي من جديد وبتساؤل المذهول المفتـون، إلى تصوير وقع النبأ العظيم الذي جل عن أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب:

أعياً، وقد عاينتم الآية العظمى
لأية حال نذخر النثر والنظما

وكان طبيعيـا في موكب الشعر أيضا أن يكون للعماد الأصفهاني شاعر صلاح الدين وكاتبـه ما يقوله في هـذه المناسبة، مشيدا بنصر مليكه العظيم، وما كان له على العرب والمسلمـين مـن فضل عميم. وقـد استهل قصيدته بالإعراب عـن أساه لمفارقة مولاه منذ أن غادر ذلـك القائد أرض الكنانة في حملته الكبرى مجاهـدا لتحرير الوطن من دنس الاحتلال، فقال:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا

ومن مصر أيضا صـور نقيب الأشراف شـرف الدين الجواني ذلك الفرح الغامر في إثـر انتصارين خالديـن : حطين والقدس، يكاد المرء لا يصدق أخبارهما فقال :

أتـرى منـامـا مـا بعيـنـي أبـصـر
القدس يفتح والفرنجة تكسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبّحوا واستغفروا
فتح الشآم، وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
حيث الرقاب خواضع، حيث العيون
خواشع، حيث الجباه تعفّر
ملك غدا الإسلام من عجب به
يختال، والدنيا به تتبختر

وتعكس القصيـدة مشاعر الأمة يومئذ حين أتتها البشرى بتحقيـق الأمل المنشود، بعد أن غلـب التشاؤم علـى النفوس، وكاد النـاس يستسلمون لليأس، فـلا غرابة بعد ذلك أن يقر لدى المؤمنين بأن ما حدث كان نصرا مـن الله ووفاء بما وعد بـه رسوله، وأن تنطـوي الأبيات على العديد من المعاني الدينيـة المعهودة في مثل هـذه الأحوال من التسبيـح والاستغفار، ومن التطهر والقيامة والحشر..

وكان فخـر الكتـاب الحسـن بن علي الجويني قد صـور انفعاله بتلك الأيام الغر فقال من قصيدة طويلة :

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء، وما
له سوى الشكر بالأفعال أثمان

ولعل من أهم ما يورده الشاعر في قصيدته أيضاً، فيما يقارب النزعة التوثيقية، إشارته إلى بعض الحقائق التاريخية، بل رصده للواقع السياسي والاجتماعي والنفسي لحال العرب عهدئذ قبل أن تكتحل عيونهم بمرأى ذلك الفتح المبين:

تسعون عاما بلاد الله تصرخ
والإسلام أنصاره صم وعميان

ومن هذا القبيل من ميل الشاعر إلى النزعة التوثيقية قوله بعد ذلك مبينا الطابع السريع بل الصاعق للمعارك الكبرى التي استطاع بفضلها صلاح الدين أن يحسم الصراع إلى حد كبير بين العرب والفرنجة:

في نصف شهر غدا للشرك مصطليا
فطهرت منه أقطار وبلدان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزلت فيه آيات وقرآن

وما أجمل المبالغة في هذا البيت الأخير.

وأنه لما يسترعي النظر في هذا الغمار من الخطب والأشعار أن تطير أخبار الفتح المبين إلى أقصى المعمورة وتلامس أسماع أبناء العمومة العرب في الأندلس، فتهز نفوسهم وتخفف عنهم بعض ما كانوا يعانونه من غفلة حكامهم ووطأة أعدائهم. ونحن واجدون صورة لهذه المشاعر في قصيدة نظمها ابن جبير الأندلسي الرحالة الشاعر وأشاد فيها بمواهب الناصر صلاح الدين :

أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
ثأرت لدين الهدى في العدا
فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى
فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا
فلله أجرك من صابر
فتحت المقدس من أرضه
فعادت إلى وضعها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر

وكان بيت القصيد في قصيدة ابن جبير قوله، وكأنه القرار في نهاية النشيد السعيد:

وأدبر ملكهم في الشآم
وولى كأمسهم الدابر

وإذ تعود القدس إلى حوزة العرب، تشتد اللهفة على استعادة ما تبقى من مدن الساحل وفي مقدمتها صور، وبدا ذلك في قول فتيان الشاغوري يخاطب صلاح الدين:

فانهض (لصور) فهي أحسن صور
في هيكل الدنيا بدت لصور

كذلك يثير العماد الأصفهاني قضية صور وسائر مدن الساحل على هذا النحو من الاهتمام، ولا سيما بعد تحرير القدس، وهو الذي واكب بشعره معظم ما سلف من أحداث:

قل للمليك صلاح الدين، أكرم من
يمشي على الأرض، أو يركب الفرسا
من بعد فتحك يوم القدس ليس سوى
(صور)، فإن فتحت فاقصد (طرابلسا)
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه
من العداة ومن في دينه نكسا



ثم كانت وفاة القائد العظيم صلاح الدين حدثا فاجعا، ولم يحدث لدويه نظير منذ وفاة الخلفاء الراشدين. وقد ارتاع له الشعر، فرثاه أحر الرثاء، وندب فيه تلك الخلال السمحة التي جعلته حبيبا إلى القلوب، أثيرا لدى النفوس، ورمزا للدفاع عن حمى الدين وربوع الوطن. وإن ما قيل من شعر ومن نثر أعقاب هذا النبأ الأليم كان شديد الغزارة، ويكاد في معظمه يبكي العظمة والقوة، والحزم والشجاعة، والعزة والكرامة، والتقوى والسماحة. ولعل قصيدة واحدة كقصيدة العماد الأصفهاني تصلح لأن تكون صورة للمشاعر المريرة في ذلك اليوم الحزين، كما أن كون أبياتها بلغت مئتين واثنين وثلاثين بيتا يشير إلى مدى انغمار النفوس بمشاعر الأسى والإجلال:

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء، وأقلعت حسناته



الجهاديات في ميزان النقد:

وصفوة القول أنه كان للشعر العربي دور هام في أحداث هذا العصر، ولاسيما عبر القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وذلك في ظل المثلث القوي: عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين، وهم القادة العظام الذين عاصروا المد الصليبي في ديار الإسلام ثم انحساره، كما واكبوا الأحداث الجسام وكانوا في كثير من الأحوال هم صانعيها.

وغدا الشعر عهدئذ ترجمانا قويا لما كان يضطرب به ذلك العصر من وقائع وأحداث، بعد أن كانت مضامينه ضحلة محدودة. وإن في مواكبة القصائد لأحداث عصرها، وجعلها من القوافي مرايا لما حولها.. كل ذلك

أعطى الشعر سمة الحياة وطابع الصدق، وغدا هذا الشعر الموروث عن تلك الحقبة سجلا ذا أهمية معرفية في وصف الكثير من الأحوال والملابسات، بل تأريخ ما لا يستطيع التاريخ النهوض به من تصوير منازع الأمة ورصد ضميرها ومشاعرها. وكان الشعر يحفز القادة والحكام على العمل، ويقوي فيهم العزم على الجهاد، ويزيد في نفوسهم الشعور بالثقة والبأس. ومعلوم أن كثيراً من الشعر العربي، ولا سيما هذا الشعر الملتحم بالأحداث، شعر محفلي يلقى إلقاء في المساجد، أو ينشد إنشادا في المجالس، حيث يحرص كل حاكم أو قائد على أن يقع في نفوس القوم الموقع الذي يريدون.

ومن جهة أخرى، كان كل حادث سعيد من تسلم زمام الأمور أو قهر خصم، أو تحقيق انتصار على عدو.. حافزا يهيج قرائح الشعراء ويضاعف نظمهم، فتلتئم في إثر ذلك المحافل، وتنطلق الألسنة على المنابر.. ويكون لذلك كله وقع في إمتاع العامة وإرضاء الخاصة، حيث تغدو للأدب مهمة إعلامية ودعائية بالغة الأثر في تهيئة النفوس وتوعية العقول وتعبئة المشاعر.

وكان الحكام، ولا سيما القادة في هذا العصر، يحرصون على حضور هذه المحافل الحاشدة أيام الجمع والأعياد وفي أعقاب تولي الأمور وتحقيق الانتصارات، فيطربون لما يسمعونه من حمد وثناء، ويجودون على الشعراء بما يكون لديهم من فضل وعطاء.

وعلى صعيد آخر حرص الشعراء على ذكر مجموعة من أسماء القادة الأعلام والأمراء الحكام الذين ارتبطت شخصياتهم بالأحداث، وكذلك إيرادهم أسماء البلدان والمواقع والحصون التي كانت مسرحا لتلك الأحداث.. كل ذلك كفيل بان يضفي على تلك القصائد سمة واقعية بارزة.

وإن استقراء الأشعار التي تجاوبت فيها أصداء الغزو الصليبي يشير بجلاء إلى أن محورها كان صورة البطل، وما ينطوي عليه من الخصال والفعال، ومن ثم تمجيده ونسبة الفضل إليه، وهذا منحى يمكن تقبله وفهم دواعيه لأن الانعطاف الذي تحقق بخروج العرب من عهد الضعف والتمزق إلى عهد المنعة والتلاحم إنما مرده إلى همة أفراد بعينهم جاد بهم الزمان على الأمة بعد طول قحط واحتباس، فكان أن أنجبت تلك الأيام قادة عظاما مثل عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأمثالهم، الذين ألفوا القلوب

المتنافـرة وجمعوا الجهود المبعـثرة، ورأبوا الصدع، ووحـدوا الشمـل.. وكان كل ذلك إيذانا بنصر من الله وفتح قريب..

ومع ذلـك وبرغم التركيز علـى صورة البطـل الفرد ومـا تنطوي عليـه في أغلب الأحيـان من مبالغات معهودة، فإن الشعراء لم يغفلوا دوما المجهود الجماعي للمجاهدين وسائـر المقاتلين في الجيوشـ المظفرة، لأن هؤلاء في حقيقة الأمـر هم الذين يجودون بالأرواح ويصنعون النصر، ومثل هذا المنحى ظاهر في قول ابن القيسراني :

وجـنـد كـالصـقـور علـى صقور
إذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخـفـوا مكيـدتـهم أخـافـوا
وإن أبـــدوا عـداوتـهـم أبـادوا

واعتمـادا علـى هـذه المعطيـات اتكأ الشعـراء في تصويـر معـارك ممدوحيهم على الأوصاف السائدة في الشعر الحماسي الموروث، ولا سيما قصائد أبي تمام والمتنبي، وذلك لعدد من الأسباب، أولها منزلة هذين الشاعريـن ومالهما من هالـة في النفوس. ومنها أيضا قرب العهد من هذين الشاعرين العباسيين، كذلك تشابه الظروف والمواقف والمعارك تجاه عدو واحـد بالأمس واليوم، وهو الفرنجة : روما وصليبيين..

لقـد كان النمـوذج الشعري في كثير من الأحيـان ماثلا في الأذهان، وسرعان ما كان الشـيء بالشيء يذكر، فتقفـز إلى الذاكرة روائع شعرية حافلـة بالملامح الملحمية مثل بائيـة أبي تمام في (عموريـة) المعتصم، أو ميميـة المتنبي في (حدث) سيـف الدولة.. فيكـون لشعراء الحقبـة الصليبية من ذلك معين ثر يتكئون عليـه، ويغترفون منه. ومع أن هذا المنحى يغري بالتباري ويحض على التجويد إلا أنه في الوقت نفسه يبقي الشاعر دائرا في فلـك الشعراء الآخريـن، يستمد مـن معانيهم ويمتح مـن صورهم على حين ينأى بشعرهم عن سمـات الإبداع وملامح الأصالة. وقلما كانـت قصائد ذلك العصر تتجـاوز السـرد والنقل في إطـار الوصف المعهود.

وأخيرا، لعل من أهـم أسباب عدم تألق كثير من الشعر الـذي قيل في ظل الحروب الصليبية،غلبـة المنحـى اللفظـي وسيادة الزينـة البديعية على الـذوق الأدبي العام، فقد غدت عناصر السجع والجناس وغيرها مـن الزخارف الأسلوبية تيـارا فنيا طاغيا قلمـا برئ منه كاتـب أو شاعر. .. وطبيعي أن هذا يعني طغيـان الشكل على المضمون

في الأدب ومن ثم افتقاد التعبير الفني في كثير من الأحيان لمقومات العبارة المتوثبة والصورة الحية.

وقد يكون في نهاية المطاف من أهم سمات الشعر في ذلك العهد من الوجود الصليبي في أرض العرب أن ذلك العصر لم ينجب شعراء كبارا في مستوى الفحول المتقدمين بحيث يكونون قادرين بما أوتوا من مواهب أن يعبروا عن أحداث عصرهم الجسام وانتصاراته العظام. لقد كانت قرائحهم كليلة، لم تسعفهم على أن يرقوا في فنهم إلى مستوى تلك الأحداث المتفاقمة ومعانقة نبضها المتسارع.

إن ما نهض به الأفذاذ كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين من أعباء جسام ومهام عظام، في ظل واقع سياسي مضطرب ممزق، إنما يفوق إلى حد كبير ما قام به بعض الخلفاء العباسيين ثم القادة الحمدانيين. . ولكنهم برغم ذلك لم يحظوا بشعراء مبدعين على النحو الذي جاد بهم الدهر على أسلافهم. لقد كانت أجنحة الشعر في ذلك العصر أوهى من أن تنهض بتلك الأمجاد والبطولات. وهذا ما يجعل المرء يتساءل بحسرة : ماذا كان يمكن أن يكون عليه حال أدبنا العربي لو أن القدر أتاح لعباقرة الحرب والفروسية إبان الصراع العربي الصليبي شعراء كبارا يوازون عظمتهم بما يقابل ذلك من مواهبهم، ويكونون في مستوى الفحول المتقدمين الذين جاد بهم الزمان في العصور العربية السالفة مثل بشار وأبي تمام ومثل أبي الطيب وأبي فراس..

مصادر البحث:

١- **الأدب في العصر الأيوبي – د. محمد زغلول سلام. القاهرة ١٩٦٨**

٢- **تاريخ الشعوب الإسلامية – كارل بروكلمان، الترجمة العربية.**

٣- **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية – د. أحمد أحمد بدوي – القاهرة.**

٤- **خريدة القصر وجريدة العصر – العماد الأصفهاني. دمشق ١٣٧٥هـ.**

٥- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين – شهاب الدين أبو شامة. القاهرة ١٩٦٢.**

٦- **ابن سناء الملك – محمد إبراهيم نصر. القاهرة ١٩٧١.**

٧- **صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني – د. محمود إبراهيم. دمشق – عمان ١٩٧١.**



٨- صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه - د. أحمد أحمد بدوي. القاهرة ١٩٦٠.

٩- ضياء الدين بن الأثير - د. محمد زغلول سلام. القاهرة.

١٠-فوات الوفيات - ابن شاكر الكتبي. القاهرة ١٩٥١.

١١-الكامل في التاريخ - عز الدين ابن الأثير. القاهرة ١٩٤٨.

١٢-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ابن تغري بردي. القاهرة.

١٣-نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة - نعيم الحمصي. اللاذقية ١٩٧٩.

وفيات الأعيان - ابن خلكان. القاهرة ١٩٤٨.



الدراسات والبحوث

الشعر وتحرير القدس من الفرنجة

د.أحمد فوزي الهيب *

القدس العربية، بيت المقدس القِبلة الأولى للمسلمين قبل الكعبة المشرفة، فيهـا المسجد الأقصى الذي باركه الله تعـالى، وبارك ما حوله، ومن حوله، وأسرى إليه – لعظيم فضله – بالرسول العربي الأعظم من البيت الحرام في مكة المكرمة، والذي أخبر الرسول (ص) أن منزلته تأتي بعد منزلة الحرمين الشريفـين وحـثّ المسلمين على زيارته بقوله: لاَ تُشَدُّ الرحـال إلا إِلَى ثَلاَثَة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام،

* باحث وأستاذ جامعي سوري.

والمسجد الأقصى[1]. وفي القدس أيضًا الصخرة المشرفة التي انطلق منها الرسول الأعظم في معراجه إلى السماوات العُلا وسِدْرة المنتهى والخالق العظيم سبحانه وتعالى.

القدس العربية فتحها عمر بن الخطاب من الروم عام ١٥هـ سِلمًا، وكتب لمن فيها عهدًا، سُمِّي بالعُهْدَة العُمَرِيّة، أمّنهم فيها على أنفسهم وأموالهم ودُور عبادتهم إلى أبد الآبدين، الأمر الذي جعلها مدينة السلام، يرتفع فيها الأذان من المآذن وصوت أجراس الكنائس في إخاء ومحبة وتسامح وأمان وسلام.

بقيت نسائم الأمن والأمان تسري فوق ربوع القدس، تجذب إليها العُبَّاد والزُّهّاد والمتصوفة والحُجّاج من كل حدب وصوب، ومن جميع الأديان إلى أن أتاها الإعصار الفرنجي بحملاته المتلاحقة، والتي سمّاها زورًا وبهتانًا وتضليلاً بالحروب الصليبية، وادعى كاذبًا أنه يريد تحرير القبر المقدس من أيدي المسلمين، ليخفي بذلك أطماعه الحقيقية المادية الرخيصة، وليستغل روح الإيمان لدى بسطاء الناس والعامة.

زحفت حملات الفرنج كالجراد – حملةً بعد حملة قرونًا عدّةً – تنشر الدمار والقتل والخوف بين المسيحيين والمسلمين على حدٍّ سواء مستغلةً حالة الضعف والفرقة التي كان يرزح تحتها المسلمون في ذلك الزمن ببلاد الشام ومصر الفاطمية وغيرهما.

احتل الفرنجة الرُّها وأنطاكية ومعرة النعمان وطرابلس وغيرها، وارتكبوا من المجازر والفظائع ما تترفّع عنه الوحوش، حتى وصلوا إلى أسوار القدس، فحاصروها أكثر من شهر، وتخاذل الفاطميون في التصدي لهم ومقاومتهم وحماية القدس ومَدِّ يد العون لها على الرغم من أنهم كانوا يحكمونها آنذاك، وكانوا مسؤولين عن حمايتها، وحينما انسحبت حاميتها الفاطمية إلى قلعتها أيقن أهلها من مسلمين ومسيحيين بسقوطها، فلاذت – كما يفعل الضعفاء – جموعُهم بالمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة المشرفة، ولكن ذلك سهّل على الفرنجة احتلال القدس، فاندفعوا كالسيول الجامحة يهوون بسيوفهم الثقيلة على الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وحتى على الدواب، وسرعان ما صاروا يمشون على أكوام من الجثث في دروب القدس، وقد زادتهم مناظر الدماء هياجًا في القتل، وحينما اقتحموا المسجد الأقصى كان الهياج قد بلغ حدّ الجنون، فقتلوا كلَّ

حيٍّ فيه، فقتلــوا الزُّهّاد والعُبَّــاد كما قتلوا النساء والأطفال، وقتلوا المحاربين كما قتلوا العجزة، وكتبوا للبابا في روما أننا نخوض في دماء المسلمين إلى الركب، وقد كان لهذا دوي عظيم في قلوب العرب والمسلمين، وتألموا ألمًا كبيرًا، ولكن !.

بلغ عــدد القتلى - كما قُــدِّر - سبعين ألفًا، ولم يستطــع الهرب إلا القليل، وفرغت المدينــة من الســكان. ثم فاوضــ الفرنجة الحامية الفاطمية على تسليم قلعة القدس والانسحــاب، فقبلــت وانسحبت تجر ذيول الخــزي والعار.(٢) واستمــر ظلام احتلال القدس هذا إحدى وتسعــين سنة، من سنة ٤٩٢حتى تحريرها سنة ٥٨٣هـ.

سقــوط القدســ كان صاعقــة كبرى أصابت العرب والمسلمين جميعًا، كما أصابت الشعــراء بالذهول، فلــم يستطيعوا التعبير عمــا في نفوسهم من حزن وألم، أو كأنه كمم منهم الأفواه لأنه حــدثٌ جللٌ، لم يستطيعوا أن يوفّوه حقّه، أو كأنهم لم يجدوا بين أولئك الحكام الضعفاء آنذاك واحدًا مِنَ الممكن أن تثير أشعارهم حميته، ومع ذلك فثمة شعراء تحدثــوا عن سقوط القدســ بألم دامٍ وحزن كبــير مثل أبي المظفر الأبيوردي الذي سجل هذه المأساة في قصيدة طويلة مطلعها(٣):

مزجنا دماءً بالدموع السواجم
فلمْ يبقَ منا عُرْضَةٌ للمراحم

ومنها:

وَكَيفَ تَنامُ العَينُ ملءَ جُفونِها
عَلى هَفواتٍ أيقَظَتْ كُلَّ نائِمِ
وإخوانُكم بالشامِ يُضحي مَقيلُهُم
ظُهورَ المَذاكي أو بُطونَ القَشاعِمِ
يَسومهُمُ الرومُ الهَوانَ وَأنتُمُ
تَجُرّونَ ذَيلَ الخَفْضِ فِعْلَ المُسالِمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دُمًى
تُواري حياءً حُسنَها بالمعاصم
بحيثُ السيوفُ البيضُ مُحمَرَّةُ الظُّبا
وسُمْرُ العَوالي دامياتُ اللهازم

وحاول الشاعر أن يستثير حمية السامعين الدينية والقومية لــدى العرب وغيرهم من الشعوب المسلمة على السواء فقال:

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ
تظلُّ لها الولدانُ شِيبَ القوادمِ
يَكادُ لَهُنّ المُستَجنُّ بطيبةٍ
يُنادي بأعلى الصَوتِ يا لَهاشِمِ
أتَرضى صَناديدُ الأعاريبِ بالأذى
وَيُغضي عَلى ذُلٍّ كُماةُ الأعاجِمِ
دعوناكمُ والحربُ ترنو مُلِحَّةً
إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً يعربيةً
تُطيل عليها الرومُ عضَّ الأباهم

كما قال شاعر آخر في ذلك أيضًا قصيدة يستصرخ بها ويستنجد، منها[٤]:

أحلَّ الكفرُ بالإسلامِ ضيمًا
يطولُ عليه للدينِ النحيبُ
فَحَقٌّ ضائعٌ وحِمًى مباحٌ
وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صَبيبُ
فقلْ لِذَوي البصائرِ حيث كانوا
أجيبوا اللهَ وَيْحَكمُ أجيبوا

ولكن هذه الصيحات وأمثالها لم تذهب سُدًى، وإن تأخر عليها الجواب، فمثلما يشقُّ ظلمات الليل المدلهمة فجرٌ يطرد نورُهُ جحافلَ الظلام شيئًا فشيئًا، وينير ما بين المشرق والمغرب، ظهرَ عمادُ الدين زنكي، ثم ابنه نور الدين محمود، وبعدهما صلاح الدين الأيوبي الذي تمَّ على يديه تحرير القدس واسترجاعها.

وقبلَ فجْرِ عمادِ الدين زنكي، كانت ثمة شُهُبٌ أضاءت بعض جوانب الظلمات، وخففت من غلوائها، ومن هذه الشهب محمد بن ملكشاه السلجوقي سلطان سلاجقة فارس والعراق، ورجالاته العظام، مثل مودود وسكمان وإيلغازي بن أرتق، ثم قسيم الدولة آقسنقر البرسقي الحاجب حاكم الموصل، والذي ساعده في جهاده، وأتمَّه من بعده ابنه المجاهد الكبير الشهيد عماد الدين زنكي.

كان عمادُ الدين زنكي أكثر وأكبر من قائد أو سلطان أو ملك، لأنه مؤسسَ المشروع التوحيدي التحريري النهضوي الاستراتيجي الذي كان يرمي إلى توحيد بلاد الشام ومصر والعراق، لأنه -أي العراق- العمق الاستراتيجي للشام، وكان في الوقت نفسه يهدف أيضًا إلى طرد الفرنجة إلى أوربا التي أتوا منها مدحورين. ولعل هذا المشروع - بشكل أو بآخر- لمّا يزل صالحًا لطرد الصهاينة من فلسطين وتحرير القدس ثانية في الزمن الحاضر.

ولئن لم يسعف العمْرُ عمادَ الدين زنكي ليتمَّ مشروعه، ويحرر القدس فإنه استطاع أن يحرر الإرادة العربية والإسلامية، ويفجِّر العزيمة، ويضفي عليهما الصدق، فمحا بذلك الشعور بالهزيمة والعجز، وطَرَدَ روح الخوف من الفرنجة الذي كان مسيطرًا على كثير من القلوب، فمهّد بذلك الطريق لابنه نور الدين محمود ثم لصلاح الدين الأيوبي من بعده، ليكملا مشروعه النهضوي التوحيدي التحريري الاستراتيجي العظيم، وهو تحرير القدس وغيرها من البلاد التي استعمرها الفرنجة.

ضمَّ عماد الدين حلب إلى ملكه عام ٥٢٢ هـ، فرحب به أهلها ترحيبًا يليق به

قائدًا عظيمًـــا من جهة، ويليـــق بها مدينة عربية أصيلة مجاهدة، وكان ذلك أول خطوة في مشروعه الكبير، واستطاع بعدها في عام ٥٣٢هـ أن يطـــرد الفرنجة من الرُّها، الأمر الـــذي كان له أثـــره الكبير في تحطيم الروح المعنوية لدى الفرنجة وتعزيز تحرير الإرادة وتفجير العزيمة لدى المسلمين.

بيد أن يد الغدر استطاعت أن تصل إلى عمـــاد الدين زنكي، وهو يحاصر قلعة جعبر عـــام ٥٤١هـ، إذ اغتاله أحد غلمانه، وبذلك انقسمت مملكته إلى قسمين:

- قسم شرقي، عاصمته الموصل بيد ابنه سيف الدين غازي.

- قسم غربـــي، عاصمته حلب بيد ابنه نور الدين محمود.

تابـــع نور الدين محمـــود مشروع والده الاستراتيجـــي من عاصمته حلـــب الشهباء، فضم دمشق إليه، لأنها الطريق إلى القدس، بعدما تخلص مـــن ملكها مجير الدين الذي كان يتعـــاون مـــع الفرنجة، ثـــم أتبع تملّك دمشـــق بتحرير الحصـــون المنيعة التي كان الفرنجة قـــد احتلوها من قبـــل مثل حارم وبانياســـ ودلوك ومعـــرة النعمـــان والبارة وغيرها، الأمر الذي جعل مملكتي آل زنكي الشرقية والغربية تمتدان من دجلة والموصل شرقًا حتى نهر العاصي ودمشق غربًا.

ولقد شجع هذا نورَ الدين ليخطو الخطوة الثانيـــة في طريق تحرير بيت المقدس، وهي ضم مصر إلى سلطانـــه، والتي كان حكامها الفاطميون وكثير من رجالاتهم يتعاونون مع الفرنجة، وبعد محاولات حثيثة جادة مخلصة شجاعة نجح في ضمها إليه عام ٥٦٤هـ على يد قائـــده البطل أسد الديـــن شيركوه وابن أخيه صلاح الديـــن الأيوبي الذي تفرّد بعد مـــوت عمه أسد الدين في حكم مصر وإدارة شؤونها، فكان وقْـــعُ ذلك كله على الفرنجة كالزلـــزال داخل القدس المحتلة وفي غيرها، بل في الغرب الأوربي كله.

ولكـــن المنية لم تمهل نـــور الدين ليحقق مشروعه الاستراتيجي، إذ اختاره الله تعالى لجواره عـــام ٥٦٩هـ، فحمل الراية من بعده بعـــزم وتصميم تلميذه وابنه الروحي صلاح الديـــن الأيوبي، واستكمل المشروع الذي كان قـــد بدأه عماد الدين، وتابعـــه فيه ابنه نور الدين، لأنه - أي صلاح الدين الأيوبي - كان مؤمنًا به وركنًا مهمًا - هو وعمه أسد الدين شيركوه - من أركانه.

ولكـــنّ الطريق إلى ذلـــك لم تكن ممهدة سهلـــة، إذ قامت مشـــكلات كبيرة كثيرة بعد

وفاة نـور الدين، فابنه الملـك الصالح كان صغـيرًا في الحاديـة عشرة مـن عمره، لا يقوى على تحمل الأعباء الضخمة التي كان يحملها والده نـور الدين محمود، فطمع به الطامعون، وكلهم يدّعي الإخلاص، وهو منه براء، فانقسمت مملكة نور الدين في الشام، وكاد أن يفشـل مشروع عمـاد الدين زنكي، والـذي سار فيه نـور الدين سـيرًا حثيثًا، وتضيع التضحيات العظمى التي بذلت فيه سُدى لـولا أن أتى صـلاح الدين من مصر إلى الشام، ليصحح المسـير، فاستلم دمشق وحمص وحماة وحلب، واستطاع بعد خمسة عشـر عامًا من العمل المضنـي الدؤوب أن يقيم جبهة متحدة قوية يشد بعضها بعضًا، تمتد من الموصل شرقًا حتى بُرقة غربًا، ومن حلـب شمالاً حتى اليمن وبلاد النوبة جنوبًا ممهدًا بذلـك الطريق القويمة لتحرير بيت المقدس.

وكانت معركة حطين قـرب طبرية عام ٥٨٣هـ، والتي حقق فيها صلاح الدين نصرًا مؤزرًا على الفرنجة أكـثر وأكبر من معركة منتصرة، إذ كانت في حقيقـة أمرها بشيرًا بنجـاح المسلمين على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى[٥]، ولقد أشـار أبو شامـة إليها بقوله: هـذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة ولمعاقد النصر وقواعده مُبرِمة مُحكِمة[٦].

وبعـد حطـين انطلـق صـلاح الدين بسرعـة لا تعـرف الراحة والتريـث ففتح عسقـلان ومـا جاورها، ثم اتجـه إلى بيت المقدس ليحاصره، ولما رأى الصليبيون قوته وإخلاصه وتصميمه، أيقنوا أنهم على وشك الهزيمة، فطلبوا منه الأمان، وبعد مداولات ومفاوضات وافق صـلاح الدين أن يعطيهم الأمان، ودخل بيت المقدسـ محررًا مطهرًا يوم الجمعـة في السابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ في ذكرى الإسراء والمعراج[٧].

وثمة - في القـديم والحديث - من لام صـلاح الدين علـى قبوله بذلـك الصلح، وأنـه لم ينتقم ويفعل بهم كمـا فعلوا هم في أهـل القدس عندمـا اقتحموها قبل واحد وتسعين عامًـا، والحق أنَّ جانـبَ الداعيةِ المتصـوف الزاهد المتسامـح المُخْبِتِ لله في صلاح الدين تغلّب فيـه على جانب القائد العسكري المنتقم، فقَبِـلَ بما قَبِلَ، وسار في ذلك على خطى الرسـول عندما دخل مكة المكرمـة، وقال لأهلهـا أعـداء الأمس: لا تثريب عليكم اليـوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء. الأمر الـذي جعل صلاح الديـن يسطِّر في تاريخ البشرية صفحات نقية بيضاء ودروسًا

لا تُنسى في التسامح والإنسانية، وجعل مؤرخي الغرب يمتدحونه ويثنون عليه ثناء عظيمًا، فقال رنسمان: المسلمون الظافرون اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما خاض الفرنج عند اقتحامهم القدس في دماء ضحاياهم، لم تتعرض - في أثناء دخول صلاح الدين لها - دارٌ من الدُّور للنهب، ولم يحلَّ بأحد مكروه، إذ صار رجال الشرطة بناءً على أوامر من صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على الفرنجة، والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة الفرنجة في أثناء احتلالهم للقدس[٨].

وكان للشعر دوره المهم الفعال في فتح بيت المقدس، وكان كثير من الشعراء مدركين لدورهم في معركة تحرير القدس، وفي كل خطوة تحريرية سبقتها، وأدّت إليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فاغتنموا كل ما يمكن اغتنامه ليذكروا القدس، ويذكّروا بها، ويتحدثوا عنها، ويحثوا على استرجاعها في قصائدهم التي وصفوا فيها المعارك الجهادية ضد الفرنجة، أو التي رثوا فيها الأبطال الذين استشهدوا في ساح الجهاد، أو تهنئة القادة بالمناسبات المتنوعة أو غيرها، وأكثروا في ذلك إكثارًا لافتًا للنظر، الأمر الذي جعل من أشعارهم وثائق لتأريخ تلك الفترة، تكمل ما جاء في كتب المؤرخين من القدامى والمحدثين على حدٍّ سواء.

وصف الشعراء جميع معارك تلك المرحلة، بدءًا من سقوط القدس حتى تحريرها، ومدحوا أبطالها عماد الدين وابنه نور الدين ثم صلاح الدين وغيرهم من القادة والأبطال، والأمثلة كثيرة جدًا، لذلك سنكتفي بذكر بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر، حتى لا نطيل.

فمما مُدح به عماد الدين زنكي قصيدة مدحه بها القيسراني عند فتح الرُّها، أولها[٩]:

هو السيفُ لا يُغْنيكَ إلا جِلادُهُ
وهل طَوّقَ الأملاكَ إلا نِجادُهُ
سمَتْ قبّةُ الإسلام فخرًا بطوله
ولم يكُ يسمو الدين لولا عِمادُهُ
لقد كان في فتح الرُّهاء دلالةٌ
على غير ما عند العُلوج اعتقادُهُ
فيا ظفرًا عمَّ البلادَ صلاحُهُ
بِمَنْ كان قد عَمَّ البلادَ فسادُهُ
فلا مُطلَقٌ إلا وشُدَّ وثاقُهُ
ولا مُوثَقٌ إلا وحُلَّ صفادُهُ
ولا منبرٌ إلا ترنّحَ عُودُهُ
ولا مصحفٌ إلا أنارَ مِدادُهُ

ولم يكن فتح عماد الدين زنكي للرُّها إلا خطوة في مشروعه الاستراتيجي و مقدمة لفتح القدس وتمهيدًا له، وقد أشار ابن القيسراني إلى ذلك، فقال[10]:

فإنْ يكُ فتحُ الرُّها لُجَّةً
فساحلُها القدسُ والساحلُ

ومن مثل ذلك ما مدح به ابنُ القيسراني أيضًا نورَ الدين محمود بعدما تملك دمشق، قال[11]:

لكَ اللهُ إنْ حاربتَ فالنصرُ والفتحُ
وإنْ شئتَ صلحًا عُدَّ من حَزمك الصلحُ
إذا ما دمشقُ ملَّكتكَ عنانَها
تيقّنَ مَنْ في إيليَا أنّهُ الذبْحُ

وكذلك نجد ابن القيسراني يحضُّ نورَ الدين على فتح القدس عندما فتح حصن (إنّب) شمال حلب بعد معركة حامية الوطيس بقوله من قصيدة[12]:

هذي العزائمُ لا ما تدّعي القُضُبُ
وذي المكارمُ لا ما قالتِ الكتبُ
فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لَجَبٍ
يوليكَ أقصى المنى فالقدسُ مُرتقَبُ

واستمر الشعراء في التذكير بالقدس وفي الحضّ على فتحها مع صلاح الدين الأيوبي أيضًا كما كانوا مع سابقَيْه عماد الدين ونور الدين، فلما فتح صلاح الدين حلب، وكان ذلك في شهر صفر من عام ٥٧٩هـ، مدحه القاضي محيي الدين بن زكي الدين الدمشقي بقصيدة، منها[13]:

وفتحُكمْ حلبًا بالسيف في صفرٍ
مُبَشِّرٌ بفتوحِ القدسِ في رجبِ

فوافق فتح القدس كما ذكره القاضي ابن زكي الدين نقلاً عن الفقيه مجد الدين ابن جهبل الحلبي، فكأنه كان إلهامًا من الله.

ومن ذلك أيضًا قصيدة للعماد الأصفهاني مدح بها صلاح الدين الأيوبي في مصر عام ٥٧٢هـ، منها[14]:

فَسِرْ وافتحِ القدسَ واسفكْ بهِ
دماءً متى تُجْرِها يَنْظُفِ
وخلّصْ من الكفر تلك البلادَ
يُخلِّصْكَ اللهُ في الموقفِ

ومدح الشعراء أيضًا أمراء الزنكيين والأيوبيين، وذكروهم كذلك بالقدس واسترجاعها، ومن هؤلاء الشعراء عمارة اليمني الذي مدح صلاح الدين الأيوبي قبل أن يصير سلطانًا للبلاد عام ٥٦٤هـ، وذلك عندما كان في مصر عاملاً لنور الدين محمود،قال عمارة اليمني[15]:

فالقدسُ قد أذَّنَ إغلاقُهُ
على يَدَيْ يوسفَ بالانفتاحْ

كما ذكَّرَ العمادُ الأصفهاني بفتح القدس

أيضًا أسدَ الدين شيركوه عندما استلم الوزارة في مصر عام ٥٦٤هـ مدركًا أنها خطوة مهمة في طريق استرجاع القدس، فقال(١٦):

بالجِدِّ أدركتَ ما أدركتَ لا اللعبِ
كم راحةٍ جُنيتْ من دوحةِ التعبِ
فتحتَ مصرَ وأرجو أن تصير بها
مُيَسَّراً فتْحَ بيتِ القدس عن كثبِ

كما حرص نصر بن الحسن الهيتي الدمشقي على أن يذكر اسم القدس دون سواها عندما مدح شمس الدين صدِّيق بن جاولي أمير بُصرى الشام ، وذكر أن انتصاراته على الفرنج في حوران كانت بأرض القدس، ولم يسمِّها بأسمائها، فقال(١٧):

ولهُ بأرض القدس فيهم وقعةٌ
سَلبَتْ مليكَهمُ لذيذَ منامِهِ

ولا شك في أن ذكر القدس هنا – وكان من الممكن أن يستعيض عنها بذكر غيرها – يدل على منزلتها لديه، ولدى ممدوحه، ولدى سامعيه على السواء، وعلى الإيحاءات التي يتركها ذكرها هذا.

وأكد الشعراء أن أي انتصار كان يتحقق هو – في حقيقته – خطوة نحو تحرير القدس، الأمر الذي جعلهم يشعرون بابتهاج القدس وفرحها لذلك، وبخاصة إذا كان الانتصار هو فتح صلاح الدين لمدينة طبرية المهمة القريبة من القدس عام ٥٨٣هـ، قال علي بن محمد الساعاتي(١٨):

جَلَتْ عزَماتُكَ الفتحَ المبينا
فقد قرّتْ عيونُ المؤمنينا
تَهُزُّ معاطفَ القدسِ ابتهاجًا
وتُرضي عنك مكةَ والحَجُونا
فقلبُ القدس مسرورٌ ولولا
سُطاكَ لكان مكتئبًا حزينا

وأما التعازي بوفاة الأبطال فقد كانت مناسبات مهمة للتذكير بالقدس وضرورة تحريرها، فهذا العماد الأصفهاني يرثي نور الدين محمود، ويسأله عن وعده بتحرير القدس، وكأنه بذلك يُذَكِّر صلاح الدين بإنجاز المشروع الكبير الذي بدأه عماد الدين، وسار فيه نور الدين خطوات راسخة، وما ينبغي أن يتوقف بعد وفاته، قال العماد الأصفهاني(١٩):

الدّينُ في ظُلَمٍ لغَيْبةِ نُورِهِ
والدهرُ في غُممٍ لفقْدِ أميرِهِ
أوَ ما وعدتَ القدسَ أنكَ منْجزٌ
ميعادَهُ في فتحِهِ وظهورِهِ
فمتى تُجيرُ القدسَ من دنسِ العدا
وتقدِّسُ الرّحمنَ في تطهيرِهِ
يا حاملينَ سريرَهُ مَهْلاً فمنْ
عجبٍ نهوضُكمُ بحمْلِ ثبيرِهِ(٢٠)

وتشبهُ أبياتَ العماد الأصفهاني السابقة - في تذكيرها بالقدس والحض على تحريرها - أبياتُه التي يعزي بها صلاح الدين في عمه العظيم أسد الدين شيركوه الذي توفي في مصر عام ٥٦٤هـ وكان وزيرها والحاكم الفعلي لها وأكبر قادة نور الدين محمود وركنًا مهمًا من أركان مشرع تحرير القدس[٢١]:

ولا تهملوا البيتَ المُقدَّسَ واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البِكْرا
تديمون بالمعروف طيِّبَ ذكركمْ
وما المُلْكُ إلا أن تديموا لكم ذِكْرا

ولم يقف الشعر عند حد التذكير والحض والتحريض، وإنما تجاوز ذلك إلى التبشير بفتح القدس، وكأنه قَدَرٌ محتوم من الله تعالى، يُرى بالعين، ينتظر وقته المُقَدَّر له، وهو قريب، قال العماد الأصفهاني بعدما استعاد نور الدين مدينة منبج شمال حلب من صاحبها غازي بن حسان الذي ساءت أحواله[٢٢]:

بشرى الممالك فتحُ قلعةِ منبج
فَلْيَهْنِ هذا النصرُ كلَّ مُتوَّجِ
أبشِرْ فبيتُ القدْسِ يتلو مَنبجًا
ولَمنبجٌ لسواه كالأنْموذج
فانهدْ إلى البيت المقدَّس غازيًا
وعلى طرابُلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ

وكان ثمة أبطال آخرون من المرتبة الثانية يشاركون الأبطالَ الملوكَ أصحاب المرتبة الأولى الآنفي الذكر أمانيَهم في استرجاع القدس، مثل الوزير المصري الفاطمي طلائع بن رزّيك في قصيدة له بعثها إلى الأمير العربي والفارس الأشهر والشاعر العالم أسامة بن منقذ، قال[٢٣]:

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمرُ
ولو طار في أفْق السماء به النَّسرُ
ونرتجعُ القدْسَ المطهَّرَ منهمُ
ويُتلى بإذن الله في الصخرةِ الذّكرُ

ووجد الشعر أيضًا في المناسبات الدينية مناسبة طيبة لمدح الأبطال والتذكير ببيت المقدس، مثل قصيدة ابن منير الطرابلسي في تهنئته لنور الدين بشهر رمضان، ومنها[٢٤]:

فداكَ من صامَ ومن أفطرا
ومن سعى سعيَكَ أو قصَّرا
أبقاك للدنيا وللدين مَنْ
خَلّاك في ليلهما نَيِّرا
حتى نرى عيسى[٢٥] من القدس قد
لجا إلى سيفك مُستنصِرا

ولم يكتــفِ الشعراء بالتحريض على فتح القدس فقط، وإنما حرّضوا على تملُّك البلاد وتوحيدها تنبيهًا منهم - وهم محقون - على أنه لا يمكن الوصول إلى فتح القدس من غير ذلك، فهذا ابن منير الطرابلسي يحرّض نور الدين على تملك دمشق وإدخالها في دولته، ويعرّض بصاحبها مجير الدين بقوله،(٢٦):

دمشقَ دمشقَ إنما القدسُ سَرْحةٌ
ومركزُها صَرْحٌ عليها مُمَرَّدُ
حموها لكي يحموا وقد بلغ المدى
بهم أجلٌ حَتْمٌ وعُمْرٌ مُحَدَّدُ
متى أنا رَاءٍ طائرَ الفتح صادحًا
يرفرف في أرجائها ويغرِّدُ

واللافت للنظر في الأبيات الآنفة الذكر التوكيد الذي نجده في البيت الأول منها، ثم ذلك الاستفهام في بيتها الأخير، ولكليهما دلالاته النفسية على الرغبة في تحقيق أي خطوة في طريق تحرير القدس، ولا شك في أن دمشق كانت من أكثر الخطوات أهمية في ذلك.

وفضلاً عن ذلك كان الشعراء يفيدون من قدسية بيت المقدس عند الله، الأمر الذي يجعل الثواب أضعافًا مضاعفة بغير حساب، قال ابن عساكر مؤرخ دمشق الأكبر يمدح نور الدين، ويهنئه بضم مصر إلى ملكه عام ٥٦٤هـ(٢٧):

وإنْ بذلتَ لفتح القدس محتسباً
للأجر جُوزيتَ أجراً غيرَ مُحتسَبِ
والأجرُ في ذاك عند الله مُرتقَبٌ
فيما يثيب عليه خيرُ مُرتقَبِ
والذكر بالخير بين الناس تكسبُهُ
خيرٌ من الفضة البيضاء والذهبِ

ثم طالبه في ختام قصيدته بتحرير القدس، ليظفر برضا الله تعالى ثم رضا الناس، قال:

فطهِّر المسجدَ الأقصى وحَوْزَتَهُ
من النجاسات والإشراك والصلبِ
عساكَ تظفرُ في الدنيا بحُسنِ ثنًا
وفي القيامة تلقى خير مُنقلَبِ

وفضلاً عما تقدم من ذكر للقدس وتحريره نجد أن شابًا دمشقيًّا من العامة - غفل التاريخ عن ذكر اسمه - كان أسيرًا في سجون الفرنجة بالقدس بثَّ الحياة في بيت المقدس، وشخَّصه وجعل منه إنسانًا شاعرًا، استصرخ صلاح الدين الأيوبي، لينجده وينصفه ويرفع عنه ما حاق به من ظلم، إذ إن جميع المساجد قد طُهِّرتْ ما عداه، فقال(٢٨):

يـــا أيــهـــا المــلــكُ الــذي
لـمـعـالم الـصـلـبـان نـكَّـسْ
جـــاءت إلــيــك ظُـلامــةٌ
تـسـعـى مـن الـبـيـت المـقـدسْ
كـــلُّ المـســاجـدِ طُـهِّـرتْ
وأنـــا عـلـى شـرفِي مُـنَـجَّـسْ

ومثلما كان الشعر مواكبًا لجميع الخطوات المؤدية إلى بيت المقدس، يدفع إليها، ويغتنمها، ويستلهمها، ويدفع بها ومنها الأبطال إلى الوصول إلى الهدف المنشود، إلى مدينة السلام، ليعاد إليها السلام الذي افتقدته يوم احتلها الغزاة المتوحشون الحاملون لأحقادهم وأطماعهم، الآتون من الغرب الأوروبي البعيد، نقول: مثلما كان الشعر مواكبًا لكل ذلك، كان حاضرًا مع الناصر صلاح الدين الأيوبي وجيشه المتسلح بالإيمان والشجاعة والعُدَّة أمام أسوار القدس، فقد نضجت الثمرة وحان قطافها، وها هو ذا صاحبها، وهؤلاء جنده جند السماء، وهو وهم أفضل الناس جميعًا، قال العماد الأصفهاني، وذلك بعد الفتح[٢٩]:

رأيتُ صلاحَ الدين أشرفَ من غدا
وأفضل من أضحى وأكرم من أمسى
جنودُكَ أملاكُ السماء وظنَّهُمْ
عُداتُكَ جنَّ الأرض في الفتك لا الإنسا
فلا يستحقُّ القدسَ غيرُكَ في الورى
فأنت الذي من دونهم فتحَ القدسا
ومن قبلِ فتحِ القدس كنتَ مُقدَّسًا
فلا عَدمتْ أخلاقُكَ الطهرَ والقدسا
نزعتَ لباس الكفر عن قدْسِ أرضِها
وألبستَها الدِّينَ الذي كشفَ اللَبْسا

ومن البديهي أن يكون لفتح بيت المقدس ولمحرره ولجنده النصيب الأوفر والأوفى من الشعر والشعراء، فهو الحلم الذي طال انتظاره إحدى وتسعين سنة من السنوات العجاف الملأى بالجهاد كرًّا وفرًّا وصبرًا وبطولات، ففتَّق القرائح وألان القوافي وأطال القصائد، فأنشد الشعراء القصائد الكثيرة صادقة طويلة مجلجلة، ولم يمنع من لم يستطع الوصول من الشعراء أن يرسلوا قصائدهم من الآفاق لتنشد أمام صلاح الدين، فلا عبرة بالأشباح وبُعْدِها، إذا كانت الأرواحُ قريبة ظمأى، وهي حقًّا قريبة قريبة جدًّا مهما بعدت المسافات، وهي ظمأى من أكثر من تسعين سنة تريد الرِّيَّ، ووجدته في القدس المحررة، وفي المسجد الأقصى المبارك، وفي مسجد صخرة معراج الرسول الأعظم، وفي كَفَّيِّ صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى - كما وصفه البير شاندور المؤرخ الفرنسي المعاصر في كتابه العظيم

المنصف، وجعل هذا الوصف عنوانًا لهذا الكتاب[٣٠].

وبعد فتح القدس جلس السلطان للتهنئة على هيئة التواضع وهيبة الوقار، ووجهه بنور البشر سافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وهابته تروع، وأخلاقه تضوع و... والقرّاء يقرؤون ويرشدون، والشعراء يُنشدون ويَنشدون[٣١].

ومن هؤلاء الشعراء الذين تحدثوا عن الفتح الأعظم أبو علي الحسن بن علي الجويني، قال[٣٢]:

هذي الفتوحُ فتوحُ الأنبياء وما
لها سوى الشُكر بالأفعال أثمانُ
أضحتْ ملوك الفرنج الصِّيْدُ في يده
صَيْدًا وما ضعفوا يوماً وما هانُوا
تِسعون عاماً بلادُ الله تصرخ والـ
إسلامُ نُصَّارُهُ صُمٌّ وُعميانُ
فالآن لبَّى صلاحُ الدّين دعوتهم
بأمرِ مَنْ هو للمعوان مِعوان
للنّاصر ادُّخرت هذي الفتوحُ وما
سَمَتْ لها هِمَمُ الأملاك مُذْ كانوا
حَبَاهُ ذو العرش بالنَّصر العزيز فقا
لَ الناسُ داودُ هذا أم سليمان
لو أنَّ ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزّلتْ فيه آياتٌ وقرآنُ
فالله يُبقيك للإسلام تحرسه
من أن يضام ويُلفى وهو حيرانُ
إذا طوى اللّه ديوانَ العباد فما
يُطوى لأجرِ صلاح الدين ديوانُ

ومن الشعراء أيضًا ابن جُبير الأندلسي، ومما قاله في هذه المناسبة العظمى[٣٣]:

فتحتَ المُقدَّسَ من أرضه
فعادت إلى وصفها الطاهرِ
وجئتَ إلى قُدْسه المُرتضى
فخلَّصتَهُ من يد الكافرِ
لكُمْ ذَخَرَ اللّهُ هذي الفتوحَ
من الزمنِ الأوّلِ الغابرِ
وخصَّكَ من بعد فاروقِه
بها لاصطناعك في الآخرِ
فكم لك بالشرق من حامدٍ
وكم لك بالغرب من شاكرِ

ومثلما ذكر الشاعر السابق ابنُ جبير عمرَ بن الخطاب مع صلاح الدين في هذا المقام، لأنهما كليهما قد شرفهما اللّه تعالى بفتح القدس، ذَكَرَ أيضًا الجَوَّانيُّ الحسيني محمد بن سعد نقيب الأشراف بالديار المصرية عمرَ بن الخطاب وشبَّهَ صلاحَ الدين به، وفي هذا تشريف لصلاح الدين وربطٌ واعٍ مستنير لحاضر الأمة بماضيها التليد، فقال من قصيدة له[٣٤]:

أتُـرَى منـامًا مـا بعيني أُبـصِـرُ
القدسُ تُفتَحُ والفرنجةُ تُكسرُ
ومليكُهم في القيد مصفودٌ ولم
يُـرَ قبـلَ ذا لهمُ مليكٌ يُـؤسـرُ
فُتِحَ الشآمُ وطُهِّرَ القدسُ الذي
هو في القيامةِ للأنـامِ المحْشرُ
يا يوسُفُ الصِّدّيقُ أنتَ لِفَتحِها
فـاروقُـها عُـمَـرُ الإمـامُ الأطـهـرُ

وكذلك فعل ابن الساعاتي أيضًا، فذكر عمر بن الخطاب، ولكن بعدما ذكر الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكيف أن هذا الفتح قد سُرَّ به الرسول (ص)، فقال من قصيدة[٣٥]:

وقد ساغَ فتحُ القدسِ في كلّ منطقٍ
وشاع إلى أنْ أسْمَعَ الأَسَلَ الصُّمَّا
حَبَا مكّةَ الحُسنى وثنّى بيثربٍ
وأطربَ ذيَّاك الضريحَ وما ضمّا
فليتَ فتى الخطّابِ شاهدَ فتحَها
فيشهدَ أنَّ السيفَ من يوسُفٍ أصْمَى

ومـن الشعراء أيضًـا الرشيد بن بدر النابلسي الذي هنّأ صـلاح الدين بقصيدة طويلة – شأنه في ذلك شأن الآخرين – جعل هذا الفتح أعظم الفتوح طُرًّا، ووصف حالة الفرنج بعده، فقد صيّرهم قصةً من قصص الماضي البائدة، منها[٣٦]:

بمثل ذا الفتح لا واللهِ ما حُكِيتْ
في سالف الدهرِ أخبارٌ ولا سِيَرُ
اللهُ أكبـرُ صـوتٌ تقشعرُّ له
شُمُّ الذُّرى وتكاد الأرضُ تنفطرُ
أضحى بنو الأصفرِ الأنكاسِ موعظةً
فيها لأعدائكَ الآياتُ والنُّذُرُ

وابـن المُجاوِر الذي مـدح صلاح الدين بقصيدة، منها[٣٧]:

مَـلِـكٌ إذا أمَّ المـلـوكُ جـنـابَـهُ
لاذوا بـأكـرمِ مَـنْ يُـؤَمُّ وأشـرفُ

وثمة شعراء كثيرون جدًا، وقصائد طويلة كثيرة جدًا، من جميع بلاد العروبة والإسلام، الأمـر الذي يـدل علـى أن الفرحة كانت واحـدة عامة شاملة، كمـا كان الهمُّ واحدًا عامًا شامـلاً، وقد أشار إلى ذلك أبو شامة في قولـه: وكَثُرَ مدحُ الفضلاء للسلطان عند فتح القدس، كما ذكر العماد الأصفهاني في نهايـة كتابه (البرق)[٣٨] جملة منها[٣٩]، وقد ضمّتها كتب التاريخ بين جوانحها، وجمعَها بعض المحدثين في كتب مستقلة، حاولتْ أن تكون سجـلاً ذا أهمية معرفية في تأريخ ما لم يستطـع التاريخ النهوض بـه من تصوير منازع الأمة ورصد ضميرها ومشاعرها[٤٠]، وأن تعبر عن الفرحـة العظمى بهذا الفتح العظيم، كما حاولـت أيضًا أن توفّي صلاح

الدين ورجالاته بعض حقهم، فإن لم ترقَ إلى مستوى قصائد أبي تمام والمتنبي وأمثالهما من حيث الجـودة والإبداع فلـمْ تَقِلَّ عنها – إن لم نقـل: قد تفوقـت عليها – من حيث صـدق العاطفة وحرارتهـا وجَيَشانها. ومع ذلك فقد كانت بحَقٍّ أفضل قصائد عصرها قاطبة من حيث المضمون والشكل.

وبعـد، وإن استُعيـدت القدس فإن حـروب الفرنجة لم تنتهِ جميع فصولها بعد، وإن انتهى أهمها، لأنه كان لها ذيول وفصول أخرى، نرجو أن يكون لها حديث آخر.

أهم المصادر والمراجع

- أصداء حطين وصلاح الدين في الشعر العربي. عمر الدقاق. اتحاد الكتاب. دمشق ١٩٩٢.
- الأنس الجليل. العُليمي المقدسي. مكتبة المحتسب. عمان١٩٧٣.
- البداية والنهاية. ابن كثير.ت: أبو ملحم ورفاقه. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٥.
- خريدة القصر.العماد الأصبهاني. ت: شكري فيصل.مجمع اللغة العربية. دمشق ١٩٥٥.
- ديوان طلائع بن رزّيك. جمعه أحمد بدوي.نهضة مصر ١٩٥٨.
- الروضتين. أبو شامة،ت: إبراهيم الزيبق. الرسالة.بيروت ١٩٧٧.
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب. الحنبلي. ت: ناظم رشيد. وزارة الثقافة. بغداد ١٩٧٨.
- صحيح مسلم. دار الجيل ودار الآفاق الجديدة. بيروت.
- الفتح القسي في الفتح القدسي. العماد الأصبهاني.ت: محمد محمود صبيح. الدار القومية. القاهرة ١٩٦٥.
- مفرج الكروب. ابن واصل الحموي.ت: جمال الدين الشيال. مطبعة الجامعة. القاهرة ١٩٥٣.
- من معارك الجهاد في الإسلام. شاكر مصطفى.دار طلاس. دمشق ١٩٩٦.
- النجوم الزاهرة. ابن تغري بردي.وزارة الثقافة، مصر ١٩٦٣.
- الكامل في التاريخ. ابن الأثير.ت: خيري سعيد. المكتبة التوفيقية. مصر بلا تاريخ.

الهوامش:

١- صحيح مسلم ١٢٦/٤.

٢- من معارك الجهاد في الإسلام لشاكر مصطفى ٢٠٠.

٣- البداية والنهاية ١٢/ ١٦٧والنجوم الزاهرة ١٥٠/٥.

٤- النجوم الزاهرة ١٥١/٥.

٥- الحركة الصليبية ٨٠٦/٢.

٦- الروضتين ٧٥/٢.

٧- أفدنا في ما تقدم من عدد من المصادر. منها مفرج الكروب والروضتين والفتح القسي والبداية والنهاية والكامل والنجوم الزاهرة.

٨- تاريخ الحروب الصليبية ٢/ ٢٩٠ و ٧٥٢ و ٧٥٣.

٩- الروضتين ٤٦/١.

١٠-خريدة القصر. قسم شعراء الشام ١١٠/١ .

١١-الروضتين ٧٠/١.

١٢-مفرج الكروب١٢١/١.

١٣-الكامل١٢٥/١٠.

١٤-الروضتين ٤٥١/٢.

١٥-الروضتين ٨٠/٢.

١٦-الروضتين ٦٦/٢.

١٧-خريدة القصر. شعراء الشام ٢٣٥/١.

١٨-الروضتين ٣٠٥/٣-٣٠٦.

١٩-الروضتين ٣٦٨/٢-٣٧٠.

٢٠-ثبير جبل عظيم في مكة المكرمة. معجم البلدان ٧٣/٢.

٢١-الروضتين ١٧٩/١.

٢٢-الروضتين ٣٣/٢ والكامل ٣٢٩/١١.

٢٣-ديوان طلائع بن رزيك ٨١.

٢٤-الروضتين ٢٠٢/١-٢٠٣.

٢٥-أي أتباع عيسى على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه عوضًا منه.

٢٦-الروضتين ٢٦٣/١.

٢٧-خريدة القصر. شعراء الشام ٢٧٧/١.

٢٨-الأنس الجليل ٣١٨/١-٣١٩.

٢٩-شفاء القلوب١٥٠.

٣٠-طبع في دار طلاس في دمشق عام ١٩٩٣.

٣١-الفتح القسي ١٣٠.

٣٢-الروضتين ٣/٣٦٩-٣٧٠.

٣٣-الروضتين ٣/٣٧٢-٣٧٣ .

٣٤-الروضتين ٣/٣٧١.

٣٥-الروضتين ٣/ ٣٧٣.

٣٦-الروضتين ٣/٤٠٩.

٣٧-الروضتين ٣/٣٦٦

٣٨-اسمه البرق الشامي. طبع بتحقيق فالح حسين في مؤسسة عبد الحميد شومان، الأردن ١٩٨٧.

٣٩-الروضتين ٣/ ٣٦٤.

٤٠-أصداء حطين وصلاح الدين في الشعر العربي ٩١.



الدراسات والبحوث

من أعلام القدس
الدكتور إسحق موسى الحسيني
١٩٠٥م - حوالي ١٩٩١؟

د.عبد الكريم الأشتر ❁

-١-

كان معهد الدراسات العربيــة العليا (معهد البحوث والدراسات العربية اليــوم)(❋) الذي انتسبتُ إليه في منتصــف الخمسينيات من القرن الماضي يشغــل بناءً عريقاً في حــي من أحياء القاهرة، سكنــه، على ما يبدو، بعض رجال الاحتلال الانجليزي يُعرف بحي (جاردن سيتي) على مقربة من مشفى (قصر العيني)(١) الذي يعود بشهرته، في ميدان الطب، إلى أيام محمد علي.

❁ أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري.



وقد أنشأ المعهد الأستاذ ساطع الحصري، فأنشأ إضافة إلى غرف البناء قاعة كبيرة في الحديقة، جعلها مـــدرَّج المعهد الكبير ليسع طلبة المعهد، في فروع الدراسة كلها.

ما أزال إلى اليـــوم، بعد أكثر من نصف قرن، أتمثَّل أرى الأستاذ الحصري، الطاعن في السن، وقد بسط على الحائط، من وراء المنبر، خريطة كبيرة للعـــالم العربي، ووقف، وبيـــده قضيب قصـــير، يشـــير إلى المواطن التـــي يتناولها الدرس، لا يعوقه عن الحركة شـــيء، مأخـــوذ بفكرتـــه وبما يدعـــو إليه الطلبة المجتمعين في درسه، في قاعة المعهد الكبيرة.

علـــى أنه كان، حينذاك، تخلَّى عن إدارة المعهد إلى مؤرخ مصر الكبير الأستاذ محمد شفيق غربال، المغربي الأصل، من تونس. وكان هذا الأستاذ يخطـــو بيننا في هدوء وجلال وسعة في الفكر، يقرر في درسه أن السياسة الخارجية في كل بلد، ترسمها حقائق تكوينه الإنساني، التاريخي والجَغرافي، فإذا حادتْ عنها رجَعتْ إليها، آخر الأمر.

وكان قسم البحـــوث والدراسات الأدبية والنقدية الذي انتسبـــتُ إليه، يرأسه ويدير شؤونه الدكتـــور إسحق موســـى الحسيني، صاحب «مذكرات دَجاجة» التي نشرتها دار المعارف في سلسلة (اِقرأ)[٢]، واكتسبت شهرة واسعـــة، وقرأها له أناســـ كثيرون منا. وكنا نعرف أنه مـــن فلسطين، ومن إحدى أسرها العريقة في بيت المقدس، ونعرف أنها قادت فيها حركة النضال ضد الحركة الصهيونية. وكان بعضنـــا لا يخفي اطلاعه على ما كان يطفو على سطح الأحداث فيها، من نزاع آل الحسيني وآل النشاشيبي، في بعض مراحل النضال وزعامته السياسية.

كان الدكتور الحسينـــي دقيق السمات، نبيل الطلعـــة، ربع القامـــة، أنيس الخطو، جميل الحضور، تولى تدريس الأدب في عصر النهضة الحديثة، في المرحلة الأولى من عمله في المعهد، مع إجمالٍ لأهم خصائص الأدب في الفكر الحديث، وعرْضٍ لأهم خصائص الفنون الأدبية. ووقف، من بعد، على أديبين ومفكريـــن كبيرين معاصرين فلسطينيين من القدس همـــا: خليل السكاكينـــي، وإسعاف النشاشيبي[٣].

وبـــدا منذ ساعاتـــه الأولى حريصاً على رد قولة المستشرق (جب) التي رددها بعض مؤلفينا وكتَّابنا، عن أثر غزوة نابوليون مصر (١٨٩٧) في هتك حجاب الجمود الذي فصل

العالَم العربي عن الحياة الأوروبية الحديثة، وأخرجها من حياة القرون الوسطى، وهيأها لدخـول عصر النهضة، بتأثـير أوروبة على نظمها الاجتماعية والسياسية.

وكان ردُّه، يومـذاك، يقـوم علـى كلام الأستـاذ ساطع الحصـري(٤)، في الردِّ على هـذا الزعم، وتفنيد حججه، والوقوف على غايـة الحملـة الاستعماريـة، وإثباتها عن طريق تقاريـر نابوليون نفسه، عن «امتلاك مصـر إلى الأبـد»، وتقاريـر الجَبَرْتي عن تعذيب المصريين على أيديهم بعد أن تحطم الأسطـول الفرنسي في (أبـي قير). وانتهى إلى القـول: إنَّ القائلـين بتأثير هذه الحملة في النهضة، يشبهون مـن يقول: «إن صياح الديك هو السبب الموجب لشروق الشمس»!

وانتهى الدكتور إسحق موسى الحسيني، في محاضراتـه، بعدهـا، إلى العوامل التي صانت الأدب العربي في عصور الانحطاط، ومنهـا تفتُّح البـذور التـي أُلقيت في عهد المماليك، في العصر التركي، وانحسار حكم الأعاجـم عن بعضـ البلاد العربيـة، وأثر الإسـلام والقـرآن الكريم في حفـظ اللغة العربية، وقوة الـتراث العربي الذي أثر في الفاتحين، وغلبهم على أنفسهم.

وعرض الحسيني بعدها للعوامل الفعالة في تجديـد الأدب العربـي: طاقتِـه الفنية القوية، واستجابته لعوامل الحياة الحديثة، وحركـة النهضة في عهد إسماعيل، وإرسال البعثات، واستقدام الخبراء، وتنشيط حركة الترجمة، وإنشـاء مدرسة الألسن والمدارس الأجنبية، إلى جانب انطلاق حركة الطباعة، وإنشـاء الصحـف والجمعيـات والأندية والجامعـات، إضافـة إلى اليقظة القومية، وتطور أجهزة الإيصال.

ووقف على المسالك والمناهج التي اتُبعت في دراسة الأدب الحديث، مثل المنهج الفكري في دراسـة الاتجاهات، والمنهـج التاريخي في دراسـة مظاهـر التطور عـبر المراحل التاريخية، ووصَلَ هذه المناهج بالكتب التي اتبعتها: مثل «الاتجاهـات الأدبية في العالم العربي الحديث» لأنيسـ المقدسي و«تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجي زيدان، ولم يغفل عن نقد مسلك الأب لويس شيخو اليسوعي، في كتابـه «شعـراء النصرانيـة» لميلـه عن استقامة المنهج. واستمر في عرض اختلاف الأدبـاء حـول تحديد المراحـل التاريخية، ورجالهـا، وتفصيـل خصائصها، في مصر وسورية ولبنـان خاصة. وسمَّـى الصحف

والمجـلات التـي أنشئت فيهـا، ونصَّ على ظهـور بعض الفنون الأدبيـة الحديثة التي رافقت إنشاءها، وسمَّى بعض أعلام رجالها ومؤسسيها على اختلاف مناهجهم، وتعاقب الأدوار التاريخية التي عملوا فيها.

ووقـف على الفنون الأدبيـة، فدعا إلى كتابـة فهارس شاملـة بيوغرافية لما صدر، مـن الكتـب، في كل فن أدبـي، في الأقطار العربية، قطراً قطراً. ونبَّه إلى ضرورة قراءة مقدمات هذه الأعمـال لتبيين مفهوم هذه الفنـون عندهم، وما كتبـه الغربيون فيها، لتحديـد مدى التأثر بآدابهـم التي سبقونا إليهـا. وعدَّد فنون الأدب شعـراً ونثراً مثل «الملحمـة»، و«القصيدة» وأحوالها، وما طرأ على صورتها ومضمونها، وأوصى بالاطلاع على المناهج الغربية في النقد الأدبي. وأفرد أدب المهجر بالدرس، واستخلص خصائصه الشعرية الفريدة.

ولحظ تأثر بعض أدباء المرحلة الأخيرة بالغـرب تأثـراً بالغاً خرج بهـم عن حدود الاحتفـاظ بالأصالـة، على حـين أساغه بعضهم إساغة قرَّبتهم منها.

ثـم إنـه جمع بعضـ تفصيـلات هذه الموضوعات في كتابٍ صغير، طبعه في المعهد، بعد سنـوات (١٩٦٣)، سمَّـاه «المدخل إلى الأدب العربي المعاصر».

والذي ننتهي إليه هنا: هو قدرة الدكتور الحسينـي الملحوظـة على الجمـع والفرز والتقسيـم، في كل مادة أقبـل على درسها. وإني لأنظـر اليوم في بعضـ دفاتري التي كتبتُها، وأنـا أستمع إليه في محاضراته التي ألقاهـا علينا، فتتوزَّعنـي خواطر أعيا في لمِّهـا، ويدركني عندهـا إحساس عميق بما صرف صاحبها، من وقتٍ وجُهد، في جمعها وحصرهـا والتنسيق بينها، وبما حمَّل نفسه من ثقل التبعات عنـد مَن وقف نفسه على تخريج الأجيال الجديدة التي كان يرجو أن تحمل الرسالة، من رجـال الفكر والبحث، في تلـك المرحلة الصعبة التـي أدركتُ، بعد انضمامـي إليه، في العمل، في القسم، مدى مرارة ما كان يضع فيها من نفسه، بعد ضياع الوطـن والبيت، وذهـاب النفس معهما إلى حيث تضيع معاني الحياة والموت جميعاً.

.٢.

وإلى جانب هذا الذي أجملتُ الكلام عليه، أقام درسَه على التطبيق أيضاً، فتناول معنا بعض نصوص الشعر الحديث لأعلام شعراء

تلك المرحلة التي كنا فيها، من المعاصرين، مضموناً وصورةً، يريد أن يستطلع معنا اتجاهات هذا الشعر. وقد لاحظ حاجتنا إلى معرفة بعض شعراء الأقطار العربية، من غير مصر وسورية ولبنان والعراق: في الجزيرة العربية مثلاً، وفي اليمن، والبحرين والكويت، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وأقطار إفريقية العربية. ولاحظ أن دراستنا لبعض النصوص، من شعر هؤلاء الشعراء، وسيلة من وسائل تحقيق الصلة بين شعراء العالم العربي، من المُحدَثين.

وكان يتولى، معنا، نقد بعض هذه النصوص، على نحو ما فعل في دراسة قصيدة بشارة الخوري (الأخطل الصغير) التي سمَّاها «جهاد فلسطين»، ونظمها سنة (١٩٣٥ – ١٩٣٦)، وألقاها في حمص، في حفلة أقيمت فيها، في أعقاب قيام الثورة الفلسطينية (١٩٣٥ – ١٩٤٠)، وحاولتْ حكومة الاحتلال الفرنسي يومها، منع إقامة الحفل، فنُشرت القصيدة في بيروت.

وقد رأى الدكتور الحسيني أن قارئ هذا النص قلما يحظى بأفكار واضحة ومعانٍ مجردة، وقال: إن العرب اعتادوا قراءة الشعر دون التمعن في معانيه، لهذا كان الشعر العربي غنائياً في أغلبه، يفتقر إلى التأمل العميق. على أن معظم الشعر العربي الحديث، في رأيه، شعر سطحي، لأن أصحابه لم ينصرفوا إلى تثقيف أنفسهم، باستثناء شعراء المهجر.

ثم إن الشاعر (الأخطل الصغير) لم يحفل بالعنصر الإنساني في جهاد الفلسطينيين، إلى جانب العنصر القومي، وكان يلزمه أن يثير في القارئ العربي غيرته، بصفته إنساناً، إلى جانب صفته القومية العربية، عدا عن تأثير النص حينئذٍ، حين يُترجَم إلى لغاتٍ أخرى، في القراء من غير العرب.

وكان عليه أيضاً، في رأيه، أن يثير في المسيحيين العرب غَيْرتهم، ويعي معنى افتقادهم غيرة المسيحيين في الغرب. كان عليه إذن أن يوفر في النص العنصر الإنساني واللغوي والديني جميعاً.

هذا مثَلٌ من درسِهِ بعض النصوص الشعرية، ينطبق على نصوص أخرى للشاعر نفسه، مثل رثائه الملك فيصل، فقد أهمل فيه عنصر المضمون

Le continent واهتم بالشكل La forme ، فاضطر أن ينفخ فيه حتى يتسع. على أن أجمل ما فيه عنصر التصوير،

فصوره برغم تفككها، مثيرة، ولغته تطاوعه في تناولها.

وكان الدكتور الحسيني يقدم لدرس هذه النصوص بأسطر قليلة تضم بعض المعلومات عن حياة الشاعر، يستعين، من بعد، في أحكامه الفنية، بالرجوع إليها، على نحو ما لاحظنا في درس بعض نصوص إبراهيم طوقان، مثل نص (الفدائي) ونص (الشهيد)، إذ كانت الصور فيها قوية منتزعة من البيئة. والموضوع موحَّد لم يُسبق إليه. هذا فضلاً عن حساسية اللغة التي رجع فيها إلى معاناة الشاعر الطويلة من المرض (القرحة)[٥] وأحوال النضال القومي في فلسطين من حوله، وبُعْدِه معها، بُعداً تاماً، عن نزعة التكلف

وانتهى إلى ميخائيل نعيمة وتجديده في مضامين شعره، وبعده عن استغلال المناسبات فيه وإحاطته بالصور، وربطه بين العالم الخارجي من حوله، وعالمه الداخلي. وجعل من قصيدته (الطمأنينة) مثَلَه في درسه:

سقفُ بيتي حديدْ
ركنُ بيتي حجرْ
فاعصِفي يا رياحْ
وانتحبْ يا شجرْ

وعلى هذا النحو أيضاً تناول بالدرس موضوعين آخرين: «النقد الأدبي المعاصر» و «الأدب والقومية العربية».

ففي الموضوع الأول تتبع الرعيل الأول من هؤلاء النقاد، والعوامل التي دعتهم إلى إعادة النظر في القيم الأدبية المألوفة. وعرض للنظريات التي أتَوا بها، وحللها وردَّها إلى أصولها، وبيَّن أثر النقد في الأدب المعاصر، وألمَّ بأهم آثاره وأشهر أعلامه.

وعدَّ هذا البحث جزءاً من دراسة الأدب الحديث. وهو الموضوع الأول الذي حمَّل نفسه تبعة درسه، فضلاً على أن دراسة النقد الحديث تتيح التعرف إلى أهم كتبه، وتصنيفها حسْب ظهورها، ليبدو التطورُ التاريخي فيها.

وعلى هذا النسق تمَّ الرجوع إلى أثر مدرسة الإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي واللغوي، التي قادها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وأثرها في الأدب العربي الحديث، وعرض بعدها لكتاب روحي الخالدي «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب» و «مقدمة الإلياذة» لسليمان البستاني الذي تصدى لترجمة إلياذة هوميروس شعراً، وكتاب «منهل الورَّاد

في علم الانتقاد» لقسطاكي الحمصي. وخرج بعدها إلى كتاب «الديوان» الذي أصدره العقاد والمازني، و «الغربال» لميخائيل نعيمة، و «ثورة الأدب» لمحمد حسين هيكل.

ورأى أن تناول هذا الموضوع، على النحو الذي اختاره، يكفي في تبيُّن أثر النقد العربي الحديث في الحركة الفكرية الأدبية، في المجتمعات العربية قاطبة، فاستغنى بهذا عن كتابة خاتمة للكتاب الصغير الذي طبعه له المعهد سنة ١٩٦٧ بهذا العنوان!

أما الموضوع الثاني «الأدب والقومية العربية» الذي تناوله أيضاً في صورة المحاضرات التي ألقاها على طلبة المعهد، في أقسامه كلها، قبل أن يجمعها في كتاب طبعه له المعهد أيضاً سنة ١٩٦٦، وعدَّ إلقاءها على الطلبة «بقصد تثقيفهم ثقافة أدبية عامة» يقضي بها وجوب «اطلاعهم على ما ينبغي أن يطلع عليه كل مثقف في شؤون الأدب واللغة».

وقد دعا الطلبةَ في مقدمة الكتاب إلى توسيع اطلاعهم على ما نُشر من البحوث في موضوعه، وترديد النظر فيه وألا يكتفوا بما سمعوه من محاضراته عنه، أو بما يقرؤونه في الكتاب المطبوع.

وأعتقد أن مثل هذه الإشارة تفي باستكمال صورته التي طلع بها على طلبة المعهد، صورة المربي الواسع الاطلاع على حقيقة ما يقع في ميدان التربية والتعليم من قصور في المجتمع العربي كله، متمثلاً في الوقوف عند حد الحفظ والترديد، والعجز عن تجاوزهما إلى حدود الفحص والمساءلة، وتكوين الرأي الذاتي الخاص.

وتدور هذه المحاضرات المنشورة التي تلمُّ بأحوال العالم العربي، وتقف على نواحي القوة والضعف فيه، وما تقتضي معرفتنا بها من العمل على «تأدية واجبنا نحوه»، وحث الطلبة على الرجوع إلى كتب الأستاذ ساطع الحصري، وقسطنطين زريق، وعبد الرحمن البزاز، والأمير مصطفى الشهابي، للنهوض برسالة المعهد القومية: «أن يكونوا دعاة القومية العربية في مختلف بلدانهم».

ولهذا تمت مراجعة الصلة بين الأدب والقومية العربية. ودور اللغة في صونها وتقويتها. وما تعاني الأمة العربية اليوم من غلبة المحكيَّات العربية المفرّقة وصراعها مع الفصيحة الجامعة. على أن لهذه القضية وجوهاً مختلفة عرضنا لها في مواضع أخرى[٦].

وفي قضايا الصلة بين اللغة العربية وتقوية الانتساب إلى الأمة التي تتكلمها، قضية استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وقضية المصطلح، وقضية شيوع الأمية في الأساس، والشكاة من التزام الحركات الإعرابية، ومثبِّطات تيسير اللغة في الإجمال.

.٣.

تمت مناقشة رسالتي لنيل درجة الماجستير، من المعهد، أواخر سنة ١٩٦٠، واخترت الدكتور محمد مندور، للإشراف عليها، فوافقت إدارة المعهد على اختياري. وحضر الأستاذ محمد شفيق غربال، مدير المعهد، جلسة المناقشة. ثم استدعاني إليه بعدها، وعرض عليَّ أن أبقى في المعهد، ويُجَدَّدَ إيفادي إليه، لتحضير رسالتي لنيل درجة الدكتوراه. واستُحدثت في المعهد وظيفة جديدة باسم «المعيد» على أن يكلَّف هذا المعيد بإلقاء محاضرات فيه.

كانت الغرفة التي خُصصت لي، مجاورة لغرفة رئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية، لصلتي فيه بدراسات المحاضرين في المعهد. هيأتُ نفسي للعمل برئاسة الدكتور إسحق موسى الحسيني. وأحببتُ أن تتمَّ موافقته على موضوع المحاضرات التي أُلقيها، فترك لي حق الاختيار، ولكنه نصح بأن تكون محاضراتي الأولى في موضوع «النثر المهجري» الذي نلتُ فيه شهادة الماجستير.

ثم لم أره بعدها يسألني عن المحاضرات، وأحسست برغبته في أن يراني دائماً صاحب الحق في اختيار ما أختاره لنفسي. صورة نادرة للمربين ما كنتُ أنتظر أن أرى مثلها في مؤسساتنا الثقافية.

وكان، في بعض الأيام، يصطحبني في طريقه إلى محطة المواصلات التي كان يستقل إحدى عرباتها إلى بيته في «مصر الجديدة». فنقطع معاً الطريق إليها من «جاردن سيتي»، ونخرج من محيط المعهد إلى رحاب الصلة الإنسانية الطلقة التي تنتفي عندها رسوم العمل فيه. وكان يحدثني في هذه الطريق أحياناً، عن حياته في فلسطين وبيته(٧) الذي خلَّفه فيها، في القدس، بعد احتلالها، ومكتبته الضخمة التي ضُمَّت بعد رحيله إلى مكتبة الجامعة العبرية. وكان حين يذكرها، يذكر معها ما انتهت إليه كتب أسامة بن منقذ فارس حروب الإفرنج «الحروب الصليبية» الذي سطا الإفرنج

في البحر على كتبه «أربعة آلاف مجلّد من الكتب الفاخرة» وخلَّفوا في نفسه، كما يقول في كتابه «الاعتبار»[8]: «حزازةً صَحِبَتْهُ إلى آخر العمر!»

وما أدري كيف انعطف بنا الحديث يوماً، فقال في أسىً: «لم أكن أريد الرحيل أبداً، ولكن بعض اليهود الشرقيين كانوا يهتفون إليّ، ويختارون، في خطابي، أحط صياغات العربية الدارجة: اِرحل فنحن قادمون إليك، نريد.. زوجك وابنتك. فركبني الخوف ولم يبق أمامي إلا طريق الرحيل».

أذكر أني عندها انعطفتُ به إلى مشهد رأيناه في الطريق، فقد أحسستُ أنه يتفطَّر، وإن حرص على أن يُظهر التماسك!

كان حنينه إلى القدس يملك عليه نفسه، ويتمنى أن يعود إليها ليُمضي ما تبقى من حياته فيها. وقد عاش عمراً مديداً قارب فيه التسعين (ت ١٩٩١؟). وسمعتُ منه أنه كان صبياً يقف في جانب الطريق التي مرَّ منها الجنرال الإنجليزي (اللنبي) حين دخل القدس، في نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٧)[9].

وفي هذه الطريق أيضاً نقل إليَّ صورة حية من صور دراسته في جامعة كامبريدج: أمسك به أستاذ العبرية في الجامعة يوماً، وهو يعرف مكان أسرة الدكتور الحسيني في فلسطين، وكان من أحبار اليهود، فقال له: «إن علينا، نحن وأنتم، أن نتحد في مواجهة أَكَلَة لحوم الخنازير».

على أني، في المعهد، ما أذكر يوماً دعاني فيه إليه، للنظر في أمر من أمور القسم مهما علا شأنه. كان إذا عرض ما يدعو إلى البحث فيه، يحمل أوراقه ويقرع عليَّ الباب، ويدخل، فيجر كرسياً إلى مكتبي، ويقعد إلى جانبي يبادلني الرأي. كنتُ أقول لنفسي عندها: ما أكرمَه! ما أجلَّه! ما أنبلَ الأصل الذي يعود إليه!

كان يصحبُني في جولات طويلة، نزور فيها بعض أصدقائه من رجال الفكر الفلسطينيين. وزرنا يوماً المرحوم محمد علي الطاهر أعلم الناس بالخريطة العمرانية والبشرية لفلسطين، وكان يعمل في بحث صعب يتصل بأخبار اليهود في القرآن الكريم، فكان يريد أن يثبت أن القرآن، في آيات بعينها، حكى، من أخبارهم، ما يحكونه هم عن أنفسهم، ورأيتُ الدكتور الحسيني يتسع صدره للنقاش اتساعاً يحتكم فيه إلى العقل، وإلى واقع النصوص. وجلستُ أستمع

إلى النقاش وقد خلبني فيه هدوء الحسيني وحرارة روحه ووضوح عقله. وما تزال هذه المسألة إلى اليوم تثيرني ذكراها.

ثم أخذتُ أزوره في البيت أحياناً، فأجده على حال من أحوال النفس التي تعصرها آلام الغربة والوحشة والضياع. زرته يوماً فرأيته يستعيد بعض صور القضية، وكان وحيداً في البيت، فرفع يده يلوِّح بها في معنى من معاني الصبر والتصميم. ثم هدأ وهو يقول: «ولكنَّ الأمر مهما طال، فمفتاحه، في النهاية، في أيدينا، والتاريخ يسير إلى جانبنا».

كان بالغ الحساسية، يقرب فيها أحياناً من درجة التطيُّر، لما عانى وما كان يعاني من ضغط الاستقرار.

ثم إني أنهيتُ عملي في المعهد، وعدتُ إلى دمشق. ولكني كنت أزور القاهرة، فأزوره وأستطلع رأيه في بعض ما يسألني فيه من شؤون الدرس والتدريس في جامعة دمشق. وأذكر أني، وأنا أتناول بعض أدب النكبة بالدرس، طالعني موقف العرب من قضيتهم قبل أن تقع النكبة بسنوات قليلة، فما رأيته موقفاً يرقى إلى الإحساس بخطرها العظيم الماثل في حياتنا، منذ مطلع القرن العشرين.

وذكرت فجأة كتاب الدكتور الحسيني (مذكِرات دَجاجة) وكنت قرأته سنة صدوره (١٩٤٣)، قبل وقوع النكبة بسنوات قليلة جداً، كانت نذرها مجتمعة فيها، فأذهلني أن أجد كاتبها فرَغ فيها للتأمل في مسائل كثيرة[١٠] جعل معها القضية الكبرى مسألة بين المسائل. وخيِّل إليّ، وأنا أقرأ هذه المذكرات، أن الدكتور الحسيني اختار فيها حلاً وجدتُه عميق الدلالة، إذ تدخلت «الدجاجة الحكيمة» في «مجلس الدجاج»، فدعت إلى أن تعلو الحكمة فوق القوة، في الدفاع عن المأوى الذي احتلته أسرة أخرى من الدجاج غريبة عن أسرتها. وطلبت من أفراد أسرتها أن يكونوا من دعاة «المحبة والعدل والمساواة».

وكنت سنة (١٩٧١) في زيارة للقاهرة، فلقيت الدكتور الحسيني فسألته رأيه آنذاك فيما دعت إليه «دجاجته الحكيمة» وقد احتلت الأسرة الغربية مأوى أسرتها كله، وطردت أكثر أهله، وتجاوزته إلى ديار أخرى! فرفع الدكتور الحسيني يديه إلى أعلى ما وصلتا إليه، وقال وهو ينتفض: «إني، وأنا أدون المذكرات، لم تخطر لي القضية ببال، ولم أردْها فيما كتبته فيها». ثم سكت قليلاً

وقال بعدها: «علــى أني لا أعفي نفسي من اللوم. فمثل هذا الكلام يستدعي أن يُدرَس قبل أن يُكتبَ»[11].

كان عمق إيمانه بقضيته مثلاً يستحق أن يُضــرب للناس. وكان في سمو خُلُقه ووضوح رؤيتــه وانحيــازه، في أحكامــه، إلى العقل، رجلاً قلَّ شبيهه في الرجال.

الهوامش:

١- نسبة إلى أحد رجال المماليك كان يملك القصر، أو يقيم في مكانه.

٢- العــدد ٨ مــن السلسلــة. وقــد قــدَّم لها الدكتــور طه حســين، فوقف طويــلاً عند دجاجــة الدكتور الحسيني، وسمَّاها باسم «دجاجة فلسطين».

٣- نُفردُهما بالكلام، من بعد، في عدد مفرد من (المعرفة).

٤- انظر كتابه: (آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع) ص ٥٠.

٥- من طبيب إلى طبيبٍ فقبحاً لحياةٍ، على الأطباء وقْفُ

٦- انظر كتابنا «العربية في مواجهة المخاطر» المكتب الإسلامي ببيروت ٢٠٠٦.

٧- كان هــذا بيتــه الأول الذي بنــاه في القدس الجديدة. ثم إنه، وهــو في القاهرة، جمع ما يمكِّنه من بنــاء بيــت آخــر، في القدس القديمة، ليعود إليــه. ولكن الاحتــلال سطا عليه أيضــاً سنة (١٩٦٧) وتمكَّن الحسيني، في آخر الأمر، أن يسكن جانباً منه، بعد عودته إلى القدس.

٨- انظر كتاب «الاعتبار» من تحقيقنا وتقديمنا ص٩٦ (المكتب الإسلامي ببيروت ٢٠٠٦).

٩- أظن أنه ذكر يومها أن ميلاده كان سنة ١٩٠٥.

١٠-انظــر كتابنــا: «من أدب النكبة» المنشور ضمن كتابنــا «تعريف بالنثر العربي الحديث» ص ٣٦٨ – ٩ (مطبعة ابن حيان بدمشق ١٩٨٢).

الحواشي:

(×) سَهِــر، في أيامــه الأخيرة في القاهــرة، على إنشاء هيئةٍ علمية للقدس، وضــع لها نظامها الأساسي، وجعــل من معهد البحــوث والدراسات العربية (اشارع الطلمبات بجــاردن سيتي – القاهرة) مقراً لهــا، وسلَّمنــي يومــذاك، في زيارتي للقاهرة (١٩٧١) نسخةً من نظامهــا الأساسي المطبوع في كرَّاسة صغيرة. وفيما يلي صورة لأهم بنوده، قدَّم لها بهذه الكلمات:

«إنَّ مدينـة (بيـت المقدس) من أقدم مدن العالم، وأعظمها قدسيةً، وأغناها بالآثار الحضارية والدينية والمدنية، حتى ليصحُّ القول: إنها، بكاملها، متحف منقطع النظير.

وشاءت إرادة الله أن يخصَّ المدينة المقدسة بعنايته، فجاء إليها وانطلق منها ومما جاورها وسرى إليها، أنبيـاء ورسـل يدعون إلى الأخوَّة بين الناس، والمحبة والعدل والسلام، الأمر الذي يُلحَظ في اسمها الأقـدم «أور سـالم» واسمهـا الأحدث «بيت المقدس»، ومـا تخللهما من أسماءٍ وثيقـة الصلة بالسَّلم والقدسية.

وانساق الإنسان، بإرادة الله، فأقام فيها المعابد والكنائس والمساجد، يؤمُّها العابدون من شعوب الأرض، أقصاها وأدناها، حتى أضحت بحق «العاصمة الروحية» لمعظم سكان العالم.

وتفـنن المؤمنـون في التعبـير عـن حبهم لهذه المدينـة، وتعلقهم بهـا، وتفانيهم في خدمتهـا، فزخرفوا وزينوا وجمَّلوا وأبدعوا ما شاء الله لهم أن يفعلوا، دون حسابٍ لجهدٍ أو مال. وحسبنا أن نشير هنا إلى مـا ذكـره المؤرخون من أنَّ الخليفة عبد الملك ابـن مروان أنفق على بناء قبة الصخرة وحدها، خـراج مصـر لسبع سنوات. ثمَّ تبارى الخلفاء والأمراء والحكام ورجال التقوى والصلاح، في إنشاء المعابـد والمساجد والمدارس والزوايا والتكايا والبيمارستانات والأديرة، حتى اجتمع في المدينة ما لم يجتمع في غيرها من آثارٍ فنية غايةٍ في الروعة والإتقان.

وهـذه القدسيـة، وهـذا البـذل، جعـلا المدينـة المقدسة، طـوال التاريـخ الإسلامي، في وضـع خاص لا يبيـح لأحـد أن يستقلَّ بملكيتهـا، والاستئثار بمقدساتها، ناهيك عن سلـب كنوزها وتغيير معالمها التاريخية. وقد أجمع الرأي العام الدوري، متمثلاً في قرارات هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومنشورات الهيئات الدينية والثقافية العليا، على وجوب احترام مشيئة الله تعالى المتجلِّية في كل شبر من أرض المدينة المقدسة وكل حجر من حجارتها، وكل ذرة من ترابها.

وقـد هـزَّ الاعتداء علـى المدينة الجديـدة، سنة ١٩٤٨، وعلـى المدينة القديمة ١٩٦٧، ومـا تلا ذلك من تصريحـاتٍ عدوانيـة عنصرية، الضميرَ الإنساني، ولاسيَّما علمـاء التاريخ والآثار، وخشُوا أن يكون ذلـك بدايـةً = = لحركة من التدمير والتخريب، تعود بالإنسان القَهقَرى، إلى زمنٍ بدائيَ كانت فيه القبائل تتناحر في سبيل أهواءٍ وأساطير ما أنزل الله بها من سلطان.

إنَّ الإنسـان تعلَّـم، علـى مرِّ الزمـن والمحن، أن مَن يدَّعـي أنَّه أقرب إلى الله من غيره هـو أبعد عنه من غـيره، وأن مَـن يدَّعـي أنه مثال الكمال الإنساني هو أبعد عـن الكمال من غيره. ولقد انقضى زمن الشعوبية بجميع أشكالها، من عنصريةٍ وفاشستية، إلى غير رجعة.

ومـن أجـل دعم هذه المثُل العليا التي تمسَّكت بها أمتنا، بحكم عقيدتها، ومن أجل أن يسود السلام في «مدينـة السـلام»، ومـن أجل ردع مَن سوَّلت له نفسُه الاعتداء على الآثـار الحضارية التي خلَّفتها الأديـان السماويـة، تداعـى نفرٌ من علماء التاريـخ والآثار إلى تأليف هيئة علميـة تضطلع بهذه المسؤوليـة، تمتـد عضويتهـا حتى تشمل كلَّ عـالِمٍ مؤمن بتحقيـق هذه الأهـداف، ارتبط بالمدينة المقدسة بسببٍ من الأسباب.

وقـد اجتمعـت الهيئة التأسيسيـة في مدينة القاهرة، صباح الأربعاء ٤ مـن ذي القعدة ١٣٩١هـ الموافق ٢٢ ديسمبر

(كانـون الأول) ١٩٧١م، وانتخبـتْ تسعة أعضـاء لمجلس إدارتها، ووضعتْ دستـوراً لعملها آزرتْه الهيئات المختصة:

١) دكتور أحمد صدقي الدجاني، أستاذ في التاريخ الحديث.

٢) دكتور إسحق موسى الحسيني، عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة.

٣) دكتـور باهـور لبيب، مدير المتحـف القبطي سابقاً، وعضو المجلس الأعلـى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية حالياً.

٤) دكتور حسن ظاظا، أستاذ كرسي العلوم اللغوية في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

٥) المهندس حسين شافعي محمـد صدقي، وكيل وزارة الإسكان سابقاً، والمستشار الفني لوزارة الإسكان والتشييد، وكبير المهندسين المعماريين للمكتب المعماري الهندسي لإصلاح وإعمار الصخرة المشرَّفة والمسجد الأقصى المبارك.

٦) دكتـورة سعاد ماهـر، وكيلة معهد الآثار بجامعـة القاهرة، وأستاذة الآثـار الإسلامية بمعهد الآثار بجامعة القاهرة.

٧) دكتور عبد المنعم أبو بكر، عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً، وأستاذ الآثار المصرية بمعهد الآثار بجامعة القاهرة حالياً.

٨) السيـد محمـد شيـت خطـاب، عضو المجمـع العلمـي العراقـي، وعضو مجمـع اللغـة العربية في القاهرة.

٩) دكتـور ناصـر الديـن الأسد، رئيس الجامعـة الأردنية سابقـاً، والرئيس المساعـد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ويسعـد الهيئـة أن تقدِّم نظامها الأساسي لمن يطلبه، وأن تستنفـر علماء التاريخ والآثار لمساعدتها في

أداء رسالتها على الوجه الأكمل. النظام الأساسي لهيئة القدس العلمية

الباب الأول: كيان الهيئة وأغراضها وشعارها

مـادة (١) تنشأ في القاهـرة هيئة علمية ذات شخصية اعتبارية مستقلـة باسم «هيئة القدس العلمية» وتكون مدينة القاهرة مقراً لها.

مادة (٢) أغراض الهيئة:

- دراسة تاريخ مدينة القدس وآثارها دراسة علمية.
- العمل للمحافظة على الشخصية العربية للمدينة، وآثارها الحضارية والدينية التي هي جزء لا يتجزأ من التراث الإنساني.
- تتبُّع ما يُكتب عن المدينة، وجمعه، وبحثه، وتفنيد ما يخالف الحق والواقع منه.
- إعداد البحوث والكتب عن تراث المدينة، والتعريف به، باللغة العربية واللغات الأجنبية.
- إصدار نشرةٍ دورية تتضمن أنباء المدينة.

١١-مادة (٣) شعار الهيئة:يكون شعار الهيئة صورة مصغَّرة لقبة الصخرة.



الدراسات والبحوث

مشاهد مقدسية من القرن السابع الهجري

د. بغداد عبد المنعم*

كم ثمة حقائق مختبئة طوتها حكمةُ التاريخ ربما لتترك الحاضرَ في واقعيته ولحظته ومشكلته..!

غيرَ أنَّ ما يقدمهُ التاريخُ هذه المرة يصلح أن يشكل نقداً لواقعٍ وجغرافيةٍ جديدة نسبياً إذ إن ما يقدمه هو تاريخ لبلاد الشام في القرن السابع الهجري.. ففي هذا الجزء المهم والنادر من كتاب الأعلاق الخطيرة يكونُ المؤرخُ المُجَدِّد ابنُ شداد قد حَطَّ رِحَالَهُ وأقلامَهُ في لبنان والأردن وفلسطين

* باحثة في التراث العربي (فلسطين)

ليقـــدمَ الخارطةَ السياسيـــة والطبوغرافية للمدن الشامية في القرن السابع الهجري.

وكانَ قدَّم في جزئه الأول بقسميه تاريخ جنـــد قنسرين وجند حمصـــ وجند دمشق وتـــارخ مدينة دمشق.. لكنـــه في هذا القسم موضـــوع هذه الدراسة يقـــدمُ بالتأكيد (مع بقيـــة المـــدن الشامية) مدينـــةَ القدس منذ ثمانمئة سنة ضمن الخارطة التاريخية لذلك الزمان، وفي تأريـــخ معماري تناول تكويناتٍ مـــن المدينـــة.. في حركيـــة تأريخيـــة مثيرة كان من بين مضموناتهـــا توصيف التشكيل المعمـــاري المقدسي الـــذي كان يتغير نسبياً خلال الحروب الصليبية والفتوح الصلاحية والأيوبية للمدينة.

فكأنَّـــا نحـــاول التقـــاطَ هـــذه اللحظة (لحظة القـــرن السابع الهجـــري) من عمر القدســـ الذي دنـــا من أربعـــة آلاف عام.. عِتّقٌ طويل قبـــل هذه اللحظة وتاريخٌ شاسع بعدها.. تكويناتٌ معماريـــة عَلَتْ وتحاورتْ وربما تهـــاوى بعضُها ثم أُعِيدَ بناؤها مراتٍ عديدة لتُشَكِّل تاريخَهَـــا ليس من حجارتها فقط، ولكنْ من جغرافية مكانها الجبلي بين كتلتـــي جبال الخليل ونابلس اللتين تفوقانها ارتفاعاً، غَيْرَ أنهـــا في الموقع الأكثر حصانةً وأهميةً.

(الكامل !) في تاريخ بلاد الشام.. عدة تحقيقات

وضع ابنُ شداد عز الدين المتوفى سنة / ٦٨٤ هـ / كتابَ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. وبالرغم من أن هذا الكتاب المهم بأجزائه قد تحول إلى التحقيق وطبع بكامل أقسامـــه – في حدود معرفتي – فإن ذلـــك لم يتم دفعة واحدة.. ولا بعملية تحقيق واحـــدة ومحقق واحـــد.. فالدكتور سامـــي الدهان يتحدث عن تجربته – والتي تعـــود إلى خمسينيات القـــرن الماضي- من خـــلال تحقيقه للجـــزء الثاني مـــن الكتاب بقسميه: تاريخ دمشق، ثم تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. فهو يقول في مقدمة القسم الثاني من هذا الجزء «ولكن أجزاءه تفرقت نسخها في أطراف المعمورة، فاستلبتْ كلُّ خزانة من خزائن الشرق والغرب جزءاً من كتابه الكبير وقام الدارسون بوصف مخطوطات الأجزاء الثلاثة.. وظلـــوا يتحدثون عنها منذ ثلاثين عاماً في المجلات والمؤتمرات..» (١)

ولكنْ، سنحاول أن نتابع أبعد التحقيقات والإصـــدارات في هذا الكتـــاب كيما نصل إلى خلفيـــة واضحة عن المصـــدر التاريخي الـــذي نستنـــد إليـــه. كان أول المحققين في كتاب الأعلاق المستشرق الفرنسي دومينيك

سورديــل Sourdel. D وذلــك بإصــداره القسم الأول من الجزء الأول المتعلق بمدينة حلب وقام بنشره المعهد الفرنسي للدراسات العربيــة بدمشــق سنــة ١٩٥٣ م. ثم حقق الدكتور سامي الدهان الجزء الثاني بقسميه مــن الكتاب وصــدرا عن المعهــد الفرنسي بدمشــق أيضاً بفاصل زمنــي كبير نسبياً.. فصدر القســم الأول المتعلق بمدينة دمشق سنة ١٩٥٦م والأقســام التالية (جند دمشق – جنــد الأردن – جند فلسطين – المزارات في الأجنــاد الثلاثة) فقد صــدرت في عام ١٩٦٢م. ثم حقق الأستاذ يحيى زكريا عبارة الجزء الثالــث (تاريخ الجزيــرة والموصل) وصــدر عن وزارة الثقافــة بدمشق بقسميه في سنــة ١٩٧٨م. وكانت آخــر التحقيقات للأستاذ يحيــى زكريا عبارة، تحقيق الجزء الأول مــن الكتــاب بقسميــه الأول المتعلق بتاريخ مدينة حلب والقسم الثاني (ما اشتمل على جند قنسرين وبــلاد العواصم والثغور وبلاد حمص) وصدرا عن وزارة الثقافة في دمشــق في عام ١٩٩١م. وقــد أعادت وزارة الثقافة طباعــة هذا الجــزء بقسميه سنة ٢٠٠٦ بمناسبــة احتفاليــة حلــب عاصمة للثقافة الإسلامية. وهكذا نكون قد حصلنا على وصف لعمليات التحقيق وسنوات النشر لهذا الكتاب المهم الــذي ما زال ينقصه أن يصــدر في طبعة واحدة بكل أجزائه ليشكل أهــم تاريــخ كامل لبــلاد الشــام ليس من الناحية التقليديــة فحسب، بل من الناحية المدنيــة والمعمارية. وليكون متاحاً للعمليات البحثية التاريخية عن بــلاد الشام ومدنها وخارطتها في القرن السابع الهجري.

(جنـد دمشـق – جنـد الأردن – جند فلسطين) الخارطة السياسية القديمة

هو القسم الثاني مــن الجزء الثاني من كتاب الأعــلاق، وهو من أكثر أجزاء الكتاب أهمية وندرة

«.. لا يقع القــارئ على تاريخ للبنان في مدنه وقراه، ولا يقع على تاريخ للأردن كما جاء هنا، ولا يكاد يجد تاريخاً لفلسطين منذ الفتح الإسلامي حتى القرن السابع الهجري يحوي المــدن والأصقــاع، ويشمل الحديث عــن الأماكن الإسلامية والمسيحية كما أورد ابن شداد في كتابه هذا فهذا كتاب تاريخي وحده يضم تاريــخ فلسطين والأردن ولبنان على صعيد واحد» [٢]

كانــت بلاد الشام حتــى عهد ابن شداد تخضــع لنظام الأجنــاد في تقسيماتها منذ الفتح الإسلامي والأجنــاد الشامية خمسة (جنــد قنسرين وفيها حلــب وجند حمص

وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين).

وجند دمشق كانت تضم (حوران وبصرى وأذرعات وعمان وبعلبك وصيداء وبيروت وطرابلس ومدن وقرى تتبعها)!! وجند الأردن وفيها (طبريا وبانياس وصفد وشقيف أرنون والسواد وبيسان وصور وعكا وحيفا) وجند فلسطين وفيها (الرملة وأرسوف والقدس والخليل ونابلس وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة).

بن هورين.. وطلب المخطوطة من مكتبة ليدن

في بحثهم المهووس عن نقطة من التاريخ يستندون إليها في وجودهم كدولة في أرض فلسطين، ومن واقع حملة قديمة – جديدة يقوم بها المستشرقون اليهود أو المتصهينون.. نشهدُ التسارعاتِ (البحثية) و(التنقيبية) تفتعل البحوثَ والدراسات للتقليل من الأهمية العربية والإسلامية للقدس وتسطيحها وتضخيم وافتعال وجود يهودي – صهيوني واستخراجه من تحت التراب أو من فوقه، أو من ورقة قديمة أو من تأويل أو من تحميل أو من تآمرٍ بحثي..!! ذلك ما يُشرعِنُ ويؤدلِجُ لممارسات الكيان الصهيوني الدؤوبة والمستمرة لتهويد القدس.

ذهب هؤلاء المستشرقون طويلاً وعريضاً.. غير أنهم اهتموا اهتماماً أكبر بفترة (الحملات الصليبية) وهي الفترة التي وضع ابنُ شداد فيها كتابه المذكور سابقاً.. وكانوا في ذلك يحاولون أن يجدوا دوراً لليهود في مقاومة الصليبيين على أن القدس هي مدينتهم !! ولأنه لا دليل على مثل هذا الأمر فقد ذهبوا في تجريح وتسطيح الوجود العربي الإسلامي فذكر أحدهم (يمانويل سيفان) بأنَّ المسلمين لم يأبهوا للاحتلال الصليبي للقدس.. وإذ قالوا ذلك !! فإنهم شرعوا في البحث والتنقيب (كي يجدوا) شيئاً يساعدهم على التدبيج الأولي لحضور تاريخي لليهود في القدس، ليس ذلك فقط، بل وتسطير وترسيم مقاومة أبداها (اليهود) في مواجهة الصليبيين.. تُدَاني أو تشابه تلك المقاومة المستمرة التي أبداها العربُ والمسلمون.. لكنَّ اليهود لم يكن لهم أدنى حضور سياسي مذكور في تلك الفترة، بل لم يكن هناك مثل هذه

المسألة الغريبة !!

وقد ركَّزَ هؤلاء المستشرقون الشغِفُون على الناحية الديموغرافية للقدس وأنها بقيت طوال العهود الإسلامية مدينة مُهملة بلا هوية عربية إسلامية.. ومع أن هذا كلاماً ليس علمياً ولا يستحق الرد عليه، غير

أني أقول لكتيبة المستشرقين هذه أن البعد المعماري في مدينة القدس وحده يُشَكِّلُ موسوعةً في تاريخ العمارة والفن المقدسي الإسلامي والمسيحي أيضاً وبالاعتماد على المرجعيات التاريخية العربية فقط.

وهكذا ونظراً لتأكيد المستشرقين على أهمية هذا الجزء من الأعلاق الخطيرة، فقد حاولَتْ الطلائعُ الأولى من المستشرقين اليهود الذي وصلوا إلى فلسطين الحصول على نسخة منه بغية نشره. حدث ذلك بشأن هذه المخطوطة بالذات منذ سنة ١٩٤٧م (قبل أن تبدأ التحقيقات العربية وغير العربية للكتاب) في جامعة القدس المحتلة ومن قبل المستشرق (بن هورين).. فقد استلمت مكتبة ليدن طلباً بتصوير هذا الجزء من الكتاب عن النسخة المخطوطة لديها منه وكان هذا الطلب من فلسطين بتاريخ ١٣ / ٣/ ١٩٤٧م وقد أجابت بالموافقة. وكان هذا الاهتمامُ المبكر من العدو بالكتاب يبغي إلى نشره وترجمته، ولكنَّ هذا المستشرق مات قبل أن يحقق أي شيء من هذا. غير أننا نضم اعتقادنا إلى ما ذهب إليه سامي الدهان في مقدمة التحقيق من أن بن هورين كان يبحث عن مرجع يشير إلى وجود يهودي في هذه المناطق فكأنه حَسِبَ أن يرى عند ابن شداد إحصاءً بعدد اليهود في كل مدينة.. غير أنَّ ابن شداد لم يذكر في تاريخه أيَّ شيء من هذه الإحصاءات.. إذ أنَّ منهجيته التاريخية كانت بعيدة كل البعد عن أن تهتم بهذا الأمر الطائفي للغاية والجزئي للغاية.. ويبدو أنَّ الأمر الذي حَفَّزَ المستشرقَ اليهودي بن هورين للاهتمام بذلك أن بعض الرحالة اليهود كانوا يذكرون مثل هذه الإحصاءات، ولعله توسم أن يجدها عند مؤرخ مسلم مرموق مثل ابن شداد لكنَّه ما وجدها! لا شكَ أنَّ مدينة القدس غَدَتْ هدفاً أوروبياً مباشراً منذ سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦م [٣] استند بعنف إلى الشغف الديني.. وعلى امتداد هذه الفترة نشطَ الرحالة والمستكشفون الأوروبيون والذين شكلوا في بعض الأحيان فرعاً استشراقياً رفد الخطة الأوروبية العامة في تحميل الشرق على مشروعاتهم!

كانت البنية الأوروبية غير المتكافئة والمستندة في حروبها على الشرق الإسلامي إلى سبب ظاهري وحيد!! أدّلَجَ لها مشروعيةَ هذه الحروب وجعلها (مُقَدَّسة). كان في هذه البنية عدةُ جيوب يهودية مافتئَتْ تُظهِرُ هويتُها بعزلتها الشديدة (الغيتو) وتُظهِرُ

رغبةً (استشراقية خاصة!) داخل الرغبة الأوروبية العريضة والفصيحة يحدوها بعنفٍ.. بل بوحشية مرضية (تشاغفٌ ديني).. وأيضاً إلى بيت المقدس..

كان (الجيب الأندلسي اليهودي) مندمجاً إلى حدٍ حضاري وإنساني في المجتمع الأندلسي المسلم حتى إنَّ هؤلاء اليهود الأندلسيين هاجروا بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢م هرباً من محاكم التفتيش وانساحوا في البلاد العربية والإسلامية.

ويبدو أنَّ رحلة الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي [٤] التي ابتدأها سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥م من الأندلس إلى المشرق وزار خلالها فلسطين وذكر عدد اليهود في كل المدن المشرقية الإسلامية التي زارها فهو يذكر أن عدد اليهود في عكا كان ٢٠٠ يهودي وفي اللد يهودي واحد!! وفي نابلس لا يوجد يهود أبداً وفي الرملة ٣٠٠ يهودي.. ويبدو أنَّ مثل هذه الإشارات هي التي حَفَّزَتْ (بن هورين) للاهتمام بمخطوطات أخرى عَلَّها تُشرعن تاريخياً حضورَ دولة الكيان الصهيوني الغريب كزراعة لإمكانيةٍ أوروبية جديدة في الشرق الإسلامي في ذلك العام الحرج والإشكالي قبيل النكبة (١٩٤٧).

خطأٌ قديم.. بدءا من كارل بروكلمان

احتملَ هذا الكتابُ ومنذ أن كان ما يزال مخطوطاً خطأً أضاف إليه تشتتاً غير تشتت مخطوطاته بأجزائها وأقسامها. وهذا الخطأ ناشئٌ من الخلط بين مؤرخين تشابها في الشهرة وتقاربا في الزمن.. فثمة مؤرخان حملا شهرة (ابن شداد) والغريب أنَّ كلاً منهما ألف كتاباً في السلطان الذي عاصره. ابن شداد بهاء الدين الذي عاش في زمن وكنف صلاح الدين الأيوبي وضع فيه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وهو كتاب مشهور وسيرة عرفها الناس وبها غطى على ابن شداد عز الدين الذي جاء بعده بحوالي خمسين سنة (ولد بهاء الدين ابن شداد في حلب سنة ٥٣٩ هـ وتوفي بها سنة ٦٣٢ هـ. أمَّا عز الدين ابن شداد فقد ولد بحلب سنة ٦١٣هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٦٨٤ هـ) عاش عز الدين ابن شداد في زمن السلطان الظاهر بيبرس وألف فيه كتاب (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) وهي على ما أعتقد ما تزال مخطوطة. وحتى كارل بروكلمان – توفي سنة ١٩٥٦م – في كتابه الشهير المرموق (تاريخ الأدب العربي) خلط بين الاثنين ونسب أحد أجزاء كتاب الأعلاق الخطيرة ولعله المتعلق بتاريخ حلب لبهاء الدين ابن شداد [٥].

مشاهد مقدسية من القرن السابع الهجري

لن أجري مسحاً تاريخياً مكانه وموضوعه مدينة القدس بل سألتقط بضعة مشاهد، منها مشاهد سياسية تاريخية، وقليلٌ منها معمارية مدنية كتلك المتعلقة بالعمارة وتزويد المدينة بالمياه.

مشهدٌ عام لمدينة القدس في القرن السابع الهجري

يقدم ابنُ شداد وصفاً بانورامياً للمدينة بتوضعها وأبوابها، فهي مدينة ممتدة طولانياً على جبل يُصعد إليها من كل جانب، ويذكر لها أبواباً أربعة في الجهات الأربعة : في الغرب باب المحراب وعليه قبة داود، في الشرق باب الرحمة وكان يظل مغلقاً في زمن ابن شداد لا يفتح إلا في عيد الزيتون إلى مثله، وفي الجنوب باب صهيون وفي الشمال باب الغراب فإن الداخل من باب المحراب يتوجه من الغرب إلى الشرق في درب ضيقة فيغدو في كنيسة القيامة.. ويصف ابنُ شداد عمارتها بأنها من عجائب الدنيا[٦] أمَّا الآن فلمدينة القدس سبعة أبواب مستعملة وثلاثة مغلقة، والسبعة المستعملة هي، باب العمود أو باب دمشق وهو في منتصف الحائط الشمالي لسور القدس، ثم باب الساهرة ويقع في الحائط الشمالي لسور القدس، وباب الأسباط الذي يقع في الجزء الشرقي من السور ثم باب المغاربة وباب النبي داود (صهيون) وهما في الحائط الجنوبي لسور القدس وباب الخليل في الحائط الغربي والباب الجديد الذي افتتح في نهاية القرن التاسع عشر عند زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لمدينة القدس. والأبواب المغلقة ومنها باب الرحمة والباب المزدوج والباب المثلث.. ويعتقد أنها جميعاً قائمة منذ العهد الأموي. إذن تغير عدد الأبواب وأماكنها وتغــيَّرَتْ نسبياً أسماؤها.. وحديثاً أضاف الحضورُ التأريخي والسياسي الغربي اسماً رومانياً لبعض الأبواب ف باب الساهرة عندهم هو باب هيرودوس، وباب الأسباط هو باب أسطفان.. !

المقدمةُ من مشهد قديم رفيع.. العُهدة العمرية

نقل ابنُ شداد النص التاريخي[٧] المتعلق بفتح القدس عن البلاذري ولعله أحد النصوص المشهورة جداً «قدِمَ أبو عبيدة على عمرو بن العاص وهو يحاصر إيلياء سنة ستة عشرة، فطلب أهلها من أبي عبيدة الأمان والصلح على ما صُولِحَ عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج على أن يكون متولي

العقد لهم عمر بن الخطاب بنفسه. فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك. فسار عمر رضي الله عنه حتى نزل بالجابية من دمشق، ثم صار إلى إيلياء فأنفذ صلح أهلها. وكتب لهم بذلك وذلك في سنة سبع عشرة.

وهذا المشهد المقدسي القديم يوردهُ ابنُ شداد لألقه الشديد.. مشهدٌ يساوي بين كبرياء المنتصر وعدلِه !! ذلك حين تَصْدُرُ الأشياءُ عن قوةٍ عميقة لها جذورُها ومُعَادِلاتُها الحضارية، بل الثقافية، بل الأخلاقية.. تغدو هذه الأشياءُ متساويةَ الوجوهِ والقيمة، وتَحِلُّ كلمةُ الشرف محل حربٍ ومعركة ويَحِلُّ أقوى الخلفاء محل الرِّقة والعدل.. الرِّقة العربية في مدينةِ إيلياء !

حالةٌ نموذجية جمَعَتْ السياسةَ إلى العدالة الرفيعة.. في هذه الحالة ارتحلَ الخليفةُ القوي العادل صاحب المنجزات التأسيسية والاستراتيجية للدولة.. ارتحل عمر بن الخطاب صوبَ بيتِ المقدس لينجزَ الصُلحَ بنفسه مع أهل إيلياء في نَصٍ عُرِفَ بالعُهْدَة العُمَرية.. ولكن أين تكمنُ العدالةُ الرفيعةُ في هذا المشهد؟ إنها تكمنُ أولاً، في حضور الخليفة نفسه ملبياً رغبة الأهالي وذلك بُعَيد الانتصار الكبير الذي حققهُ المسلمون في معركة اليرموك.. وكان في المنطقة حينذاك عددٌ غيرُ قليل من قادة المسلمين كان بإمكانهم القيام بهذه المهمة.. وثانياً، في كون الخليفة رفض أن يُصلي في كنيسة القيامة حتى لا يصبح ذلك تقليداً إسلامياً بعد حين ويُظْلَمُ المسيحيون في مكان عبادتهم.. وثالثاً،الاحترام العميق لهذه المدينة الحضارية العريقة.. وإذن كان سلوكُ الخليفة ينتمي إلى بُنية سياسية مُنتصرة ذات محتوى ثقافي وأخلاقي جازمٍ في عدله المطلق..

مشهدُ استرداد بيت المقدس وعمارة الفتح

ينْصَبُّ حديثُ ابنُ شداد على الأحداث التي ألَمَّتْ بمدينة القدس قبيل الفتح الصلاحي للمدينة واستردادها من الصليبيين فيبدأ من خارج أسوار القدس : نَصَبَ صلاح الدين يوسف بن أيوب المنجنيقات «وسلط على سوره النقوب، مما يلي وادي جهنم – الذي يقع في الجنوب والجنوب الغربي للقدس – إلى أن تسلمه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان وثمانين» [٨] أي في سنة ٥٨٨ هـ.

ثمة رسالة [٩] قيّمة يوردها ابن شداد للقاضي عبد الرحيم بن علي البيساني [١٠]

في فتح القدس وسوف أستند إليها لأنها تقدم شرحاً مفصلاً يتحول في النهاية إلى شرح معماري وفني. ولن أتناولها بشكل كامل بل سأجتزئ منها ما يشرح حادثة الفتح ذلك الشرح الميداني فهو يذكر الأماكن والإجراءات..

القدس مخزن فوضوي للفرنجة ومرتزقتهم.. قبيل الاسترداد الصلاحي.

ليست المدينة إلا بأبعاد أساسية، منها البعد الديموغرافي في ذلك الذي يشي بحركيتها ومقدار ما يمكن أن يصدر عنها من فعل عسكري أو مدني.

وهكذا عَبَّرَ القاضي عن هذه القضية في مبدأ رسالته، فهذا الوضعُ لا بد وأن الدولة الصلاحية قد بحثته بجدية خلال التحضيرات العسكرية وغير العسكرية لعمليات استرداد المدن والأراضي من الفرنجة القادمين من أوروبة «ولما لم يبقَ إلا القدس اجتمع إليها منهم كل شريد طريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إليه شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتآلفت على الموت فنزلت بعرصته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته» (١١)

يقدم النص السابق معلومة مهمة تؤكد أن مدينة القدس قبيل استردادها من قبل صلاح الدين / ٥٨٣ هـ - ١١٨٧م/ كانت ملجأً فوضوياً للفرنجة والجيوش المرتزقة التي انضوت تحت شعارات دينية عريضة، فتذهب إلى الموت في سبيل ذلك. وبالرغم من تحول المدينة إلى معسكر شاسع مشبع بالرغبات التطرفية التي أنتجتها أوروبة في هذا الوقت المبكر ودفعت بها خارج أرضها تنشر إرهاباً كبيراً في المشرق العربي الإسلامي.. وذلك قبل زمن طويل جداً من الصعود الضوئي لهذا المصطلح وفعالياته الإعلامية (والحقيقية!) في فاتحة القرن الحادي والعشرين.

غير أنَّ صلاح الدين ببنيته الجادة ومنظوماته العاملة الدقيقة تُظهِرُ إدراكه للهشاشة التي بلغتها هذه التجمعات المعسكراتية الصليبية.. وتُوصِلُهُ كذلك إلى أن هذه المساحة الجبلية الصغيرة (مدينة القدس) هي النقطة الوحيدة التي بقيت لهم وبقوا فيها.. فما كان أمامه إلا الحصار والاستمرار في دك الأسوار.. وإن هو إلا زمنٌ لن يكون طويلا..

المعاينة والاستطلاع الميداني لمحيط المدينة

ينتقل القاضي بعد ذلك في رسالته ليسجل المعاينة الميدانية التي قام بها صلاح الدين ـــ وبالطبع فريقُ مستشاريه العسكريين والسياسيين أو منظومات دولته – لمحيط مدينة القدس قبل أن يضع خطةَ وآلية الحصار «فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة. ولجج وعرة غريقة. وسور قد انعطف عطف السوار. وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار. فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها مُعَرَّج. وللخيل فيها مُتَوَلَّج» (١٢) رسم هذا الاستطلاع كما ورد في النص طبوغرافية المنطقة المحيطة بالمدينة وكذلك وضَعَ تصوراً عن أشكال التحصينات ونسبة منعتها ومقاومتها ويتم اختيار النقطة الأكثر ضعفاً والمواتية لبدء الحصار ومن ثم الهجوم.. فقد أسفر الاستطلاع عن مدينة جبلية تحيطها الأودية العميقة، كما ارتفعت حولها تحصينات رصينة مكونة من عناصر العمارة العسكرية التقليدية في ذلك الزمان (الأسوار والأبراج).

بدء الحصار وآلياته

يتقدم النصُ في الحدث الذي يقوم بتسجيله على نحو متنوع ومثير إلى حد ما، مما يسمحُ لنا بمقارباتٍ من خلاله تعطيه ملامحَ إعلامية واضحة: «فنزل عليها وأحاط بها، قرُبَ منها وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه. ويزاحمه السورُ بأكتافه. وقابلها ثم قاتلها. ونزل عليها ثم نازلها. وبرز إليها ثم بارزها. وحاجزها ثم ناجزها. فضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح. وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد من الصَّفْح. فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة. وقصدوا نظرة من شدة وانتظار النجدة. فعرفهم الخادم في لحن القول. وأجابهم بلسان الطَّوْل» (١٣).

في آلية الحصار الصلاحية للقدس التمترس قريباً جداً من الأسوار ومن مرمى أسلحة الفرنجة، واستطلع المدينة وتمكن منها نظرياً ثم موقعياً (قابلها، نزل عليها، برز إليها، حاجزها) وهي الأفعال الأولى من الجمل الثنائية التي ذكرها في النص السابق والتي تدل على الفعل التالي التنفيذي الذي يليها (قاتلها، نازلها، بارزها، حاجزها) ولعلها دقة لفظية توازي دقة الفعل والتنفيذ.. من ثم كسر التجمع

الدفاعي المواجه.. وعن ذلك يميلُ الفرنجة إلى المناورة والخداع بطلب مهلة، وأما صلاح الدين فلم يكن ليميل معهم هذه الميلة ولديه سجل طويل من تحقيــق الأهداف المتوالية وكانت آخرها هذه المدينة المهمة.

آليــة الهجـوم وأدواتــه.. وفسيفساء الحدث

يواصل القاضي نصه، ولئن كان الأسلوب الأدبي القائم على السجع قائماً بجلاء غير أن القاضـــي جعله وسيلـــةً جذابة وإلى حد ما ليســت مملة ولا ممجوجة لفرز تفاصيل الحدث وتقديمه في جمــل قصيرة واضحة يرصفهـــا ليشكل منهـــا فسيفساء الحدث.. فكأنه يقـــدم لقطات متوالية من عدة نقاط متقاربــة «وقَــدَّمَ المنجنيقات التـــي تتولى عُقُوبات الحصـــون عصيُها وحبالها. وأوتر لهم قسيِّها التي تضــرب ولا تفارق سهامَهَا نصالُها. فصافحــت السور فإذا سهلمله في ثنايا شرفاتها سِواك. وقدَّم النصر نَسْراً من المنجنيــق يُخْلِدُ إخــلاده إلى الأرض، ويعلو علوه إلى السِّماك» (١٤)

فكانت المنجنيقات هي الصفُ الأول من الجيش الصلاحي المواجــه مباشرة لأسوار القدســ، وحينـــذاك بدتْ كم هـــي صغيرة هذه السهام فوق لوحة السور والأبراج. وإنَّ النصَــ ليشُفَّ عن وصــف دقيق لآلية عمل المنجنيــق ومقذوفاته التي تعلــو إلى ارتفاع شاهــق لتهبط بتسارع كبير فــوق هدفها.. فتبــدو من أجزاء هذه الآلــة العسكرية من زمن الدولــة الصلاحية (العصي – الحبال – الأوتــار – القسي – السهــام – النصال) ونلاحــظ الشُرفــات كعنصر معمـــاري من تكوين السور والأبراج.

نقب السور ودك حجارته

يسير حدث فتح القدس بصورة متنامية ويحدث الانتقال من الحصـــار إلى الهجوم ثم انهيار التحصينات ودخول المدينة «فَشَجَّ مدارعَ أبراجها. وأسْمَعَ صوتَ عجيجها صُمَّ أعلاجها. ورفع مُثار عَجَاجها. فأخلى السورَ من السيارة. والحَــرْبَ من النظارة. فأمكن النَّقَاب. أن يُسْفِر للحرب النِّقاب. وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب. فتقدم إلى الصخــر فمضغ سَـرْدَه بأنياب معوله. وحَــلَّ عَقْدَه بضربــه الأخرق الــدال على لطافة أنْمُ. وأسمع الصخرة الشريفة حنينَه باستقالتــه. إلى أن كادتْ ترقُ لمقالته. وتَبَرَّأ بعضُــ الحجارة من بعضــ. وأخذ الخرابُ عليها مَوْثِقاً فلن يبرح الأرض»(١٥)

أعتقـــد أنَّ أسلوبية النص التي قد تبدو غريبــة أو مصنوعة هـــي إلى الدقة أقرب،

وإنمـا يبقى لـكل زمن طرائقـه.. ومبدئياً يمكن أنْ نطلق على هذه الأسلوبية الكتابية: الأسلـوب التأريخي الكلاسيكـي إن أحببنا امتطـاء القالبية المصطلحيـة الغربية فهو يُشكل نصه تشكيلاً رصيناً مليئاً قوياً.. وهو بالعمق أسلوبٌ أدبـي فاستخرج من حجارة السور (حنيناً ورِقـةً).. على كل فإن أسوار القدس بدأت بالتداعي وكان في هذا المشهد سقوط أبراج السـور سقوطاً مريعاً بصوت هائل وانتثار غبار الانهيار والتفتت.. وهذا الضجيج الصوتـي والهوائي والخطر أبعد السائريـن والناظريـن مـن الفرنجة فوق الأسـوار، وحدثـت فجوة في السـور ودُكَّتْ الحجـارةُ حتى تحولـت إلى شكلها الترابي الأول، ولعل النَّقَاب (أداة من المنجنيق) هي التي تابعت تكسـير الصخور بحديدة كبيرة مـزودة بأسنان مدببة (أنيـاب). ولا ننسى مقدار المرح في هذا النص وهو مايدل على قوة تعبيرية تعكس ثقة وهدوءاً ويقيناً وتمكناً عسكرياً.

دخول القدس.. ومفاوضات التسليم

هـذا الحصـار الـذي ظهـرت فيـه المنجنيقـات وظهرتْ دقةُ تنفيـذه فتح باباً إلى المدينـة «وفتح من السـور باباً. سدَّ من نجاتهـم أبواباً. وأخذ يفت في حجره. فقال عنده الكافر :ياليتني كنت تراباً. فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور. كما يئس الكفار من أصحاب القبـور وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور» (١٦) وهـي ليست مفاوضات بالمعنى الدقيق بل محاولات من قبل الفرنجة للتقليـل من الخسائـر والقتلى.. وقد طلب ذلك مـن المسلمين قائدهم (ابـن بارزان!) ولكـن المسلمـين كانوا دومـاً مبتعدين عن العنف في كل مواجهاتهم التاريخية.. وكانت هـذه إحدى المـرات التي اشتُهـرتْ بذلك، وبالفعل فـإن الأمراء في الجيش الصلاحي أشاروا إلى الابتعاد عن العنف وتوفير الدماء لأن فتح المدينة قد تمَّ.

الشكل المعماري للقدس حين الفتح الصلاحي / نصٌ في تاريخ العمارة

ويبدو أنَّ الاهتمام بالمدينة وتكوين نصٍ يصفهـا ليؤرخ لهـا شَكَّل اهتمامـاً محورياً لكلٍ مـن ابن شـداد والقاضـي البيساني، والأخير يصفها حـين انتُزعت من الفرنجة «حَمَوْهـا بالأَسَل والصِّفَـح. وبنوها بالعَمَد والصُّفَّـاح. وأودعـوا الكنائـس بها وبيوت الدَّيويـة والاستباريـة منهـا كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه. ولا ينطرد لألآؤه. قد لطـف الحديدُ في تجزيعـه. وتفنن في توشيعـه. إلى أن صار الحديـدُ. الذي فيه

بأسٌ شديد. كالذهب الذي فيه نعيم عتيد. فما ترى إلا مقاعدَ كالرياض لها من بياض الترخيم رَقْراق. وعمــداً كالأشجار لها من التنبيــت أوراق»[١٧] وأقيمــت أول صــلاة جمعــة في المسجد الأقصى في ٤ شعبان من نفس سنة الفتــح[١٨]. والأسَل والصفح هي الرماحُ والسيوف، وأما العمارة فكانت رفيعة ومنمقــة فتشكلت من الأعمــدة والجدران التي كُسيت بالحجر الرقيق العريض الأبيض (الصفــاح) وكانت هذه المــواد تتردد في كل التكوينات المعمارية التي أقامها الصليبيون في القدســ.. واستخدمت مادة الرخام على نطاق واسع.. كما يشير النص على استخدام الحديــد المشغول على نحــو واسع فامتدت إليــه إيحــاءاتٌ زخرفية مثلمــا امتدت إلى تيجان الأعمدة فخرجــت الأوراقُ والأزهار مــن صمت الحجــر وحوَّلَــتْ الأعمدة إلى أشجار.. إلى كائن حي مُصَدِّرٍ للجمال.

علينــا أن نشهــد بقوة هنــا كيف هذا التجردُ والعدل عند هذا القاضي الذي دعاه إلى وصــف (عمارة الأعــداء) هذا الوصفَ الراضــي الرائق فيكشف ذلــك عن خبيئة نفسية نقية وخالية من العقد والتطرف تنظر إلى العمارة نظــرة مؤنسنة مُشبعة بتحسس الجمال والبحث عنــه.. بعيداً جداً عن أي إغراضــ أو افتعال أو توتــر.. وهي حقيقة رافقتْ التاريخَ العربي الإسلامي العسكري والحضاري فكان أقرب إلى الرحمة والعدل ولو مع الأعداء القادمين من قارة أخرى.

قدس ما بعد الفتح.. ودويلات الأمراء الصلاحية.. عودة الصليبيين

وقــد تناولتْ البــلادَ (الشــام ومصر) خلافاتُهم الحادة وحروبهم معاً.. بعد الفتح أقطع صلاح الدين البلاد بين أولاده وكانت القدس لعز الدين جُرْديك النوري.[١٩]

كان مــن هــؤلاء الأمــراء العزيــز أخو الناصــر صلاح الدين عماد الدين أبو الفتح عثمــان وكانت له الديار المصرية. ثم اتفقوا علــى أن تبقــى فلسطين للعزيــز، والأردن للأفضل وعــاد العزيز إلى مصــر[٢٠].. ثم تحدثُ مجموعة جديدة من الخلافات تبدأ بأن الملك العادل لما ملك مصر أقطع دمشق والأردن وفلسطين لولده الملك المعظم شرف الدين عيسى. واستمرت كذلك إلى حين وفاة الملك العــادل في سنة ٦١٥ هـ، وخلال نفس هذه الفــترة وصل الصليبيــون إلى دمياط وحاصروها فطلب الملــك الكامل أخو الملك المعظم صاحب فلسطين من أخيه أن يعطيه القدس وكوكب والطور ليعطها للفرنج مقابل دمياط[٢١]!! ثم حدثت المفاوضات بين الملك

الكامل والصليبيين وكانوا قد وصلوا إلى عكا وقائدهم فردريك فطلــب من الملك الكامل أن يسلمــه القدس وجميــع ما فتحه صلاح الدين [٢٢] وبعد أن تشاور الملك الكامل مع أمرائه سلم القدس إلى الإمبراطور الصليبي وكان ذلــك في سنــة ٦٢٦ هــ وانسحب هو وجيشه وأمــراؤه إلى تل العجــول بين عكا والعائديــة.. وتبقى القدســ بيدهم إلى أن يتوفى الكامل بدمشــق سنة ٦٣٥ هـ وتغدو دمشق بيد الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مــودود ابن الملك العــادل وتحصل بينه وبين الملــك الصالح نجم الديــن أيوب ابن الملك الكامل مقايضات وهذه المرة مقايضة دمشق بسنجار ! فيصل دمشق ومن ثم نابلس سنة ٦٣٧ هـ ويقبض الملك الناصر على الملك الصالح ويحبسه في الكرك، ثم يجمعُ جيشاً عظيماً يحاصرُ به القدس من جديد في نفس السنــة.. وكان الفرنج قد قاموا بتحصينات إضافية في أســوار القدســ فأقاموا برجاً جديــداً أطلقــوا عليه اسم (بــرج داود) !! وحصنوه لكن الملك الناصر دكه بالمنجنيقات وفتح القدس مجدداً..[٢٣]

رسالةُ الناصر إلى المستنصر بشأن القدس.. رسالة في تكنولوجيا العمارة !

الناصرُ فاتح القدس ثانية (الناصر داوود بن عيسى) والمستنصر هو الخليفة العباسي المستنصر بالله أبــو جعفر المنصور الظاهر بأمر الله.. أمير المؤمنين توفي سنة ٦٤٠ هـ.. هــو الخليفة العباسي ما قبل الأخير، ويبدو أنَّ هذا الخليفة كان متنوراً ومختلفاً وإن كان في زمــن صعب ومتشابــك فغدت بغداد في عهده مدينة عظيمة وهو الخليفة الذي بنى المدرسة المستنصرية الشهــيرة.. لكنَّ التتار داهموا بغداد في عهده أيضاً.

وأما هذه الرسالــة المهمة فقد ذكر ابن شداد أن الناصر كتبها بيده وهي من إنشائه، وكونه فعل ذلــك بنفسه فإن ذلك يدل على أمــر ذاتي وأمر عام بآن معــاً، وأمَّا الذاتي فغبطــة وفرحة عارمــة سكبَــتْ الحماسةَ في قلــب الناصر ليكتــب (رسالة الفتح) إلى الخليفــة المتميز (المستنصر) في زمن اجتمع فيــه فوق أرض المشرق العربــي الصليبيون والتتــار.. كتبَ له هذه الرسالــة ليُعْلِمَه بأن الجناح الغربي من دولة الخلافة غدا مُؤَمَّناً ومُسَيْطَراً عليــه بمدينته المركزية (القدس) التي بقيت سلطتُها القائمة تدل على الوضع والحالــة السياسية القائمــة في بلاد الشام كلها.

وبعد مقدمة الرسالة الرصينة والمجيدة يبــدأ الناصــر باطلاع الخليفــة على وضع

مدينة القدس عبر تحليله للأحداث «.. طالعَ المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها. وانفساخ عقدتها. وعند ذلك أخلى الفرنج – خذلهم الله – القدس الشريف من سكانه وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ما صيَره من أوطانه وأقام به كند من كُنُودهم – جمع كند أي كونت Comte تخريج عربي للكلمة استخدمه المؤرخون العرب وهو أمير الجيش – ومقدم من جنودهم. وهو فارس مشهور من فرسانهم.. كان قد عَمَّرَ قلعة القدس في مدة الهدنة وحصنها. وملأها بالعدد والآلات وشحنها. ووصلها ببرج يقال له «برج داود» النبي عليه الصلاة والسلام ابتناه لنفسه مسجداً. واتخذه لخلوته معبداً»[٢٤]

أهم ما في الرسالة ذكره للتطورات المعمارية العسكرية التي طرأتْ في المدينة من قبل الفرنجة أي إعادة ترميم القلعة وبناء برج عال على الأسوار ووصله بالقلعة بواسطة نفق.. ومما يلفت الانتباه أنَّ الناصر يتابع بعد ذلك وصف البرج كأنه المهندس أو المعماري !!«وهو برج عظيم المقدار والحجم. مُبَار في المنعة الجبل.. قد بُني بالصُّفَّاح والعَمَد.. وهو من أسفله إلى ثلثه قد صُب فيه الحجرُ والكلس صباً. ورُدِم بقوة..»[٢٥]

وهو إذ يقدم هذا الوصف القوي الجليل فإنما ليذكر بعد قليل كيف أنه استطاع تدمير هذه الأسوار واختراق مناعاتها وحصاناتها وينتصر على الجموع الرهيبة التي احتشدت له خلف الأسوار وقاتلته[٢٦] غير أنّ لنا قراءةً إضافية في هذا النص وهي القراءة المدنية أو المعمارية ومواد البناء وآلية التعمير. كان من مواد البناء المذكورة في الرسالة الملكية : الصُّفَّاح وهي البلاطات الحجرية الرقيقة التي تستخدم في التكسية الخارجية، ومن العناصر المذكورة أيضاً (الأعمدة) فيشرح الملك الناصر أنَّ البرج تشكَّلَ من أساس ذي ارتفاع كبير جداً وصل إلى ثلث العمود والمتشكل من الكلس المغموس فيه قطع من الحجر والذي نظراً لسيولته ولدونته تم صبه صباً بغرض تنفيذ أساس مليء متجانس وصلب وكبير الأبعاد.. ويشرح الدائرة الخارجية للبرج بتشكلها من تناوب الأعمدة والجدران التي جرى تكسيتها بذلك البلاط الرخامي الرقيق والمتين (الصفاح).

ويُتابع الملك الناصر في رسالته شرح الآلية التي اتبعها في دك الأسوار المُحصَّنَة المُجددة، بأنه نصب صفاً طويلاً ومتقدماً من المنجنيقات، وكان في جيش الناصر فريقٌ اسمه (النقابون) متخصصون بنقب الأسوار

والآليــات اللازمــة لذلــك، وفريــقٌ اسمه (الزراقون) متخصصــون بتحضير القنابل المشتعلة وإرسالهــا إلى الأسوار والأستار[٢٧] ويسجــل الناصــر في رسالتــه الملكية كيف استمر الهجوم والاقتحام حتى تجسد الفتحُ «وأخذ العبدُ القلعةَ وتسَلَّمَها. وافترع ذروتها العليا وتسنمها. وتبرجتْ له أبراجها المصونة وتجلَّتْ..».[٢٨]

وأما العبد فهو الملك الناصر.. وأما القلعة العروســ المتجلية فهي لُــبُّ القدس ومركز قيادتها. لا يفــوتُ الناصر ذكر مبادئ سرت في الحضور العسكري العربي الإسلامي تلك مبــادئ الرحمة واللــين والإنسانية.. وذلك ممــا حدث بالفعل بُعَيد فتحه القدس، حين لجأ عدد من أفراد جيش الفرنجة إلى (برج داود) في سور القدس خوفاً وطمعاً بالخروج بأرواحهم وأسلحتهم.. غير أن الناصر يُسجل في رسالتــه أنه لم يوافق علــى ذلك بل وَجَّه النقابيين لإيجاد نقوب في جدران البرج ومن ثم إحراقه من الداخل.. فلما وجد اللاجئون ذلك طلبــوا الخروج بأرواحهم فقط فأُخلي سبيلهــم [٢٩].. وبعــد ذلــك وكأنــه يسائل الخليفــة أو يستشيره بين أن يهــدم القلعة أويبقيها موئلاً للمسلمين[٣٠] وأمَّا برج داود فقد اتخذ فيــه قراراً بأنْ «يغضُ من طَرْفه ويجدع أنفه. ويقلل من ارتفاعه. ويسهل من امتناعه. ويجعله مسجداً للركوع والسجود. لا معقلاً للجموع والحشــود. ومعبداً يلتزم بمــزاره. لا حصناً يُعتصَــم بأسواره..» [٣١]

والناصر هنا ينهــي الحالةَ العسكرية لمدينة القدس ويحولها إلى مدينة (مدنية) ويجسد من خــلال ما ذكره في رسالته بضعة مبادئ كانت باعتقادي تشــكل الإطار العام للهوية المعماريــة الإسلامية، كان في هــذه الهُوية الابتعاد عــن التطاول والارتفاعات الفارغة في البناء، ويمكــن أنْ نلاحظ بسهولة كيف أن البنــاء الوحيد المرتفع في المدينة العربية والإسلامية القديمة هــو (المئذنة).. فليس لبنــاء بحد ذاته تكبر وترفع.. والملك الناصر يريد أن يغض من طرف (البرج) وأن يجدع أنفــه وفي النهاية أنْ يحولــه إلى مسجد في مدينة حقيقيــة وليس إلى تحصين عسكري في معسكر. وبهذه المبادئ المعمارية الإنسانية يختم الناصر رسالتــه إلى الخليفة العباسي المستنصر.

ثم.. بيبرس وعمارةٌ في القدس

بقيــت القدس بيد الملــك الناصر حتى حدثتْ دورةٌ جديدة من الاتفاقات والمهادنات بين أمراء الأيوبية والفرنج.. فدخل الفرنجُ القدسَــ مُجــدداً وبقي الأمــر كذلك حتى

الفتح الخوارزمي للمدينة بالاتفاق مع الملك الصالح نجم الدين وهو الفتح الثالث للقدس في فترة الحمـلات الصليبية سنة ٦٤٢هـ.. لكـنَّ ثمة انتصـار عريض يجتـاحُ المشرقَ العربي حينَ ينكسر الاجتياحُ التتري في عين جالـوت (٦٥٨ هـ - ١٢٥٩م) ويكون موقعُ المعركة في تخـوم القدس، وتكـون القيادة لمظفر الدين قطز.. وتغدو البلاد في النهاية بما فيها القدس بسلطـة السلطان الظاهر ركـن الديـن بيبرس الذي سرعـان ما يبدأ بعمارتها.. ففي سنـة ٦٥٩ هـ يضع بيبرس خطة ماليـة ومشروعات للاعتنـاء بعمارة الحرم النبوي في المدينـة المنورة والقدس.. لكنه اهتـم أيضاً بالعمـارة الخدمية التي تعيد للمدينـة حيويتها الاجتماعية ورونقها الحضـاري، فكان من التكوينـات المعمارية التي بُنيت في عهده الخان الذي جعله خارج المدينة ووراء أسوارها ووضع له باباً نقله من القاهرة، وبنى أيضاً فرناً وطاحوناً.

مشهد (زيارات القدس)

يوردُ ابنُ شـداد مصطلـحُ (الزيارات) للتعبير عـن العمارة المهمة دينياً التي عكف الناسُ على زيارتها، ولعله مصطلحٌ مستحدث في زمـن ابن شداد، وقد يكـونُ ذلك بسبب نشوء حالة كثيفة من العمارات التي تُزار.

أولى الزيـارات التـي يذكرها الصخرة المشرفة وبعـد أن يشرح قداستها وما عرف عنهـا يقدم وصفهـا الهندسـي والأبعادي «وعلوهـا مقدار ذراعين ودائرها يزيد على أربعـة أذرع.. وتحت القبة مغـارة الأرواح، ذكـروا أنَّ أرواح المؤمنين يجمعها الله فيها، وينـزل في هـذه أربع عشرة درجـة، ويقال أن بهـذه المغارة قـبر زكريا عليـه الصلاة والسلام»(٣٢) .

ويذكـر أن الرواق المحيـط بالصخرة يقوم على ستة عشر عموداً رخامياً، وثمانية أركان لهـا أربعة أبواب من الحديد ويحيط بالصخرة نفسها درابزين من الحديد ارتفاعه قامتان. يعتـبر نص ابن شداد المختصر عن الصخرة مهماً لأنه وصفَ الصخرةَ في زمن الاحتلالات الصليبيـة المتوالية والفتوحات الأيوبيـة المتوالية أيضاً. فهـو يقدم عمارة إسلاميـة من القرن الهجـري الأول تحمل دلالـةً عظمى.. فـكل الاختبـارات الأثرية التي أجريت علـى عمارة القبـة أكدَّتْ أنَّ عمارة الصخـرة بكامل أساساتها وجدرانها الخارجيـة هي من إنشـاء الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (بدأ بناءَها سنة ٦٨ هـ / ٦٨٨م واكتمـل سنة ٧٢ هـ / ٦٩١م) وهي بناءٌ متجانسـ لا يضم أي بقايا بناء قديم×

ومــازال بناء القبة قائمــاً بشكله وواجهاته الأمويــة في ساحة الحــرم القدسي جنوبي شرقــي القدس.. بجدرانه المثمنة الخارجية وبالسقف المحيط بزنار القبة والمائل باتجاه الجــدران الخارجية. مــن العناصر المهمة في القبــة تلك الفسيفســاء.. نثاراتٌ دقيقة من الزجــاج والحجر والصــدف الخضراء والزرقاء على خلفيــة جدارية ذهبية.. تلك الزخرفــة التجريدية الرفيعــة تُشَكِّلُ خطاً منسجمــاً رفيعاً في تاريخ الفــن الإسلامي الخالص والمبكر.

ثــم ينطلق المــؤرخُ مباشــرة إلى المسجد الأقصى ويذكر أن محراب عمر بن الخطاب لم تغــيره الفرنج[٣٣] ومن قبة الأقصى يبدأ ويخبر عن آخر تجديداتهــا المعمارية بأنها تمت سنة ٤٢٦ هـ في عهد الإمام ابن العزيز (الظاهر لإعزاز دين الله) صاحب مصر .. والقبة نُفذَتْ تكسيتُهــا بالفصوص المذهبة وكذلك الكتابة والنقوشــ ويذكر ابن شداد أنها بقيت كما هي لم تغيرها الفرنج.. والحق مــا ذكره ابن شداد عن هــذا المسجد الذي بُنــي للمــرة الأولى في عهد عبــد الملك بن مــروان في سنة (٧٢ هــ /٦٩١م) وثمة قول آخــر أن الذي بناه هو الوليد بن عبد الملك.

وعلى كل حال هو من عمارة القرن الهجري الأول أيضاً مثل قبة الصخرة غير أنَّ معالمه تغــيَّرَتْ مــراتٍ عديدة.. ومــع الاحتلالات الصليبية أقام الفرنجة في جانب منه كنيسة وفي الجانــب الآخــر مقــراً للاسبتارية×× ومستودعــاً للأسلحــة في جهتــه الغربية.. ومــع التحرير الصلاحي للقدس أُعيد بناؤه وجُدِّدَ المحــراب ووضع المنبر النوري الشهير الــذي صنعــه نــور الدين زنكــي في حلب (٦١٤هـ).. وبشكل عام يعتبر الشكل الحالي للمسجد الأقصى هو شكله الأيوبي مساحته الداخلية (٨٠×٥٥) وفيه سبعة أروقة أوسط وثلاثة في كل من الجانبين الغربي والشرقي، وما زالتْ الأروقــة الغربية للمسجد محكمة وشامخــة تمتد مــن الجنــوب إلى الشمال والقبــة تتصدر بيت الصلاة وللمسجد أحد عشــر باباً. ولقد بقــي المسجد الأقصى في مكانة سامقة عند المسلمين فقد شكل وحتى ١٩٦٧ مقــراً تدريسياً واحتفاليــاً وسياسياً عربياً وإسلامياً.

ومن هــذه الزيــارات يذكر ابــنُ شداد مغارةً يُقال لها مهد عيسى. وهي عند السور القبلــي وأحد أروقة المسجد الأقصى. ××× وقبة السلسلة[٣٤] وهي شرقي قبة الصخرة



وملاصقة لهـا، سداسية الرقبة وهي أيضاً عمارة أمويـة وكانت تستخدم لحفظ أموال المسلمين كمـا هي الحال في قبـة المال في صحن المسجد الأموي في دمشق.

ويتابع عن أهم عمارات القدس: كنيسة اليعاقبة، ويذكر أن بها بئر، يقال أن المسيح عليه الصـلاة والسلام اغتسل منها، وآمنت السامـرة على يـده عندهـا »[٣٥] وحالياً مقر هـذه الكنيسة في القدسـ (اليعقوبية أو السريانيـة الأرثوذكسيـة) في كنيسـة مرقسـ. ومن الكنائس يذكـر أيضاً كنيسة السَّلِيق ويُذكـر أن مقولة كانت دارجة تفيد بأن المسيح عليه الصـلاة والسلام رُفع إلى السمـاء من موقع هذه الكنيسة [٣٦] ويذكر أيضاً كنيسة صهيـون يقال أن المائدة نزلت علـى عيسى والحواريين بهـا [٣٧] ثم وادي جهنـم وبه قبر مريم أم عيسى ينزل إليه في ست وثلاثين درجة وفيه الأعمدة الرخامية المنيعة الصلبة»[٣٨]

وخارج القدس زيارةٌ أيضاً (عين سلوان) يقـال أن ماءها مثل مـاء زمزم وأنها تخرج من تحت قبة الصخرة وتمر بالوادي جنوبي القدسـ [٣٩] كانت (سلـوان) قريةً مجاورة لسور القدس من الجهة الجنوبية ولا يبتعد عنـه إلا بضعة أمتار، لكنها اليوم من أحياء القدس، وعيون مائها (عين أم الدرج – بركة سلوان – البركة التحتانية – بئر أيوب – عين اللوزة) المصدر الوحيـد للمياه في القدس. ولعل اليبوسيين أقدم مَنْ جَرَّ مياه سلوان عبر نفق إلى داخل مدينة القدس.

أخيراً:

لقد كانت تلك بضعة مشاهد مقدسية من لحظات القرن السابع الهجري، اعتماداً على مصدرٍ كُتب في ذلـك القرن المليء بضجيج المعارك.. حيث كانـت القدس عاصمةَ تلك المواجهات وعاصمةَ ذلك القرن، فهي المدينةُ التي حملت أهم حدثين عالميين في تلك الفترة: الاندحار الصليبي وإيقاف الاجتياح المغولي.. كانت في كلا الحدثين عربية وإسلامية في صنـع الأحداث وفي تشكيـل المدينة. ولئن لهث المستشرقون اليهود للإيحاء بأن القدس بقيت زمنَ الاحتلالات الصليبية مدينةً ذات طابع عالمي (كوسموبوليتي) !! فتلك بالنسبة إليهم خطوة مهمة في مشروعهم الدائم لمحو الملامح العربية والإسلامية من وجه المدينة وروحها.. فبالنسبـة إليهم أن تكون القدس ذات طابـع عالمي أو حتى بيزنطي خيرٌ ألف مرة من أن تكون ذات طابع عربي إسلامي.

هوامش ومراجع البحث:

١- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد عز الدين. تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. تحقيق سامي الدهان. المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢ م. م (١٥).
٢- الأعلاق الخطيرة ج٢ق٢. من مقدمة المحقق م (١٦).
٣- استغرقت الحروب الصليبية ما بين سنتي (١٠٩٦ – ١٢٩١م / ٤٩٠ –٦٩٠ هـ). وهي عبارة عن ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبية
٤- رحلة بنيامين التطيلي.ترجمها إلى العربية عزرا حداد – بغداد – ١٩٤٥ م
٥- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي. نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار. جامعة الدول العربية. دار المعارف – مصر – ١٩٧٧م – ج٦ ص ١٢ وص ١٣.
٦- المصدر السابق ص١٩٨-١٩٩ .
٧- البلاذري، فتوح البلدان. نشر في مصر – ١٩٠١ – ص ١٤٥.
٨- الأعلاق، مصدر سابق ص ٢٠٣.
٩- وردت هذه الرسالة في الأعلاق، المصدر السابق من ص ٢٠٤ إلى ص ٢١٠.
١٠-ولد القاضي عبد الرحيم بن علي البيساني في عسقلان وتوفي سنة ٥٩٦ هـ ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ١/ ٢٨٤ والسبكي في طبقات الشافعية ٤/ ٢٥٣.
١١-الأعلاق، المصدر السابق ص ٢٠٤.
١٢-المصدر السابق ص ٢٠٥.
١٣-المصدر السابق ص ٢٠٥.
١٤-المصدر السابق ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .
١٥-المصدر السابق ص ٢٠٦.
١٦-المصدر السابق ص ٢٠٧. ص٢٠٨. كان القائد العسكري الصليبي في القدس عند الفتح الصلاحي : غي دي لوزينيان.
١٧-المصدر السابق ص٢٠٨ – ص٢٠٩.
١٨-المصدر السابق ص ٢٠٩.
١٩-المصدر السابق ص ٢٢١ .وهو الأمير عز الدين جُرديك صاحب القدس من مماليك السلطان نور الدين ولقبه النوري صحب أسد الدين شيركوه إلى مصر.
٢٠-المصدر السابق ص٢٢٢.
٢١-المصدر السابق ص ٢٢٣.

٢٢-المصدر السابق ص ٢٢٣.

٢٣-المصدر السابق ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

٢٤-المصدر السابق ص٢٢٦ وص ٢٢٧.

٢٥-المصدر السابق ص ٢٢٧.

٢٦-المصدر السابق ص ٢٢٧ –ص ٢٢٨ – ص ٢٢٩ .

٢٧-المصدر السابق ص ٣٣.

٢٨-المصدر السابق ص ٢٣٠.

٢٩-المصدر السابق ص٢٣٠- ص ٢٣١.

٣٠-المصدر السابق ص ٢٣٢.

٣١-المصدر السابق ص ٢٣٣.

٣٢-المصدر السابق ص ٢٨٦.

انظر : - ريتشموند، قبة الصخرة المشرفة. أكسفورد – ١٩٢٤.

- كرسول، فن العمارة الإسلامية المبكرة، أكسفورد – ١٩٦٩.

- الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية – دمشق – ط١ – ١٩٨٤ – مج٣.

٣٣-المصدر السابق ص ٢٨٦.

×× الاسبتارية منظمة أسسها الصليبيون في السنة التي احتلوا فيها القدس(٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) جمعتْ بين الرهبنة والعسكرية، أنشأت المشافي للاعتناء بالمرضى والحجاج المسيحيين، وأصبح لها نفوذاً واسعاً في جميع أوروبا. والداوية أو (فرسان الهيكل) مثل الاسبتارية.

٣٤-××× ذكر الداعية المسيحي يوستين مارتير أنَّ مريم ولدت المسيح ووضعته في مزود في مغارة قريبة جداً من القرية. في سنة ٣٣٠م بنى الإمبراطور قسطنطين الروماني كنيسة فوق المغارة دعيت بكنيسة القديسة مريم، ثم أعاد بناءها جوستنيان بشكلها الحالي وأصبحت تدعى كنيسة المهد.

٣٥-و(٣٦) المصدر السابق ص ٢٨٧.

٣٦-و(٣٧) و(٣٨) المصدر السابق ص ٢٨٨.



الدراسات والبحوث

أطباء وبيمارستان القدس في الحضارة العربية الإسلامية

د. محمد ياسر زكور *

كما هي القدس مهد الأديان، فهي مهد الحضارات والعلوم التي ازدهرت كثيراً في ظل الحضارة العربية الإسلامية، ولاسيما في عهد صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فامتلأت البلاد العربية بالعلماء والأطباء، كما انتشرت فيها دور الاستشفاء، أو ما كان يدعى بالفارسية البيمارستان (بيمار= مريض، ستان= مكان)، ومن بين تلك البيمارستانات كان بيمارستان القدس الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي

* باحث في تاريخ العلوم الطبية. عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم.



إضافة إلى العديد من البيمارستانات التي أنشأها في البلدان العربية منها القاهرة وعكا والإسكندرية وغيرها.

ومن القدس نشأ العديد من أعلام الطب العربي، وتوافد إليها الكثير ممن خدموا بصناعة الطب وعلّموا فيها، فمن هؤلاء كان على سبيل المثال لا الحصر:

جَبرائيل بن عبد الله بن بختَيْشوع

(٣١١-٣٩٦هـ/٩٢٣/١٠٠٥م)

الطبيب المشهور من عائلة كان أكثر أفرادها أطباء في بغداد، خدم المقتدر العباسي، وزار القدس ثم عاد إلى بغداد.[١]

يوسف النصراني

(كان حياً عام ٣٧٣هـ/٩٨٣م)

كان طبيباً عارفاً بصناعة الطب، فاضلاً في العلوم، صار بطريرك بيت المقدس زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي- أبو منصور نزار ثاني خلفاء الفاطميين بمصر، وذلك في السنة الخامسة من خلافته الذي تولى بين عامي (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥- ٩٩٦م)، وأقام في الرئاسة مدة ثلاث سنين وثمانية أشهر، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي فيها ودفن في كنيسة مار ثوادرس.[٢]

محمد بن أحمد بن سعيد التميمي

(توفي ٣٨٠هـ/٩٩٠م)

طبيب كجده سعيد، ماهر في تركيب الأدوية، ولد بالقدس ونشأ فيها، درس الطب في مجلس الراهب أنبا زخريا بن ثوابه، زار عدة مدن ثم استقر بمصر ودخل في خدمة العزيز بن المعز الفاطمي، وصنف له كتاباً كبيراً في عدة مجلدات أسماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء».

ولما كان التميمي ببلده البيت المقدس معايناً لصناعة الطب وإحكام التركيبات، صنف وركّب ترياقاً سماه «مخلّص النفوس» وقال فيه: هذا ترياق ألّفته بالقدس وأحكمتُ تركيبه، مختصر، نافع الفعل، دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوبة في الأبدان، بلسع ذوات السم من الأفاعي والثعابين وأنواع الحيّات المهلكة السم، والعقارب.. ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه في كتابه المسمى «مادة البقاء». ولما كان بمصر صنّف جوارشاً[٣] وركّبه وأسماه «مفتاح السرور من كل الهموم ومفرح النفس» ألّفه لبعض إخوانه بمصر، وذكر صورة تركيبه وأسماء مفرداته، وكان منصفاً في مذكراته، غير رادّ على أحد إلا بطريق

الحقيقة، وكان التميمي هذا موجوداً بمصر في حدود سنة سبعين وثلاثمئة. وله مؤلفات أخرى غير ذلك.

وبالإضافة إلى ما أبدعه التميمي في الترياق والدخن الطارد للأوبئة، يُعَد أول واضع لمبدأ مصفاة (شامبرلين) لتصفية الماء بالخزف، وذلك بوضع عدة طبقات من الخزف، أطلق عليها التصفية بالخزف المخلخل، كما ورد في كتابه «مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء»، وشرح فيه أسباب العدوى أيضاً.[٤]

البرّاق

(كان حياً سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م)

طبيب سوري، كان الطبيب الخاص لحاكم طرابلس الشام، الكونت ريموند، الذي أرسله لمعالجة ملك القدس بلدوين الثالث من مرض ألمّ به أثناء اجتيازه طرابلس في طريقه إلى بيت المقدس، غير أنَّ حالة بلدوين ازدادت سوءاً، ومع ذلك مضى في طريقه حتى بلغ بيروت فمات بها في ١٠ فبراير سنة ١١٦٢م. وكان ينعم بصحة سليمة ورجولة فائقة، فاعتقد الناس أن عقاقير الطبيب البرّاق هي التي أدت إلى موته متأثراً بالسم. لم يتجاوز بلدوين الثالثة والثلاثين من عمره عند وفاته، واشتد حزن رعاياه لموته، بل إن الفلاحين المسلمين هبطوا من التلال لإظهار الاحترام لجثمانه عند تشييع جنازته إلى بيت المقدس.[٥]

الحسن بن الظّثْر[٦] الفارسي أبو علي المعروف بالظهير

(توفي ٥٩٨هـ/١٢٠١م)

ولد بقرية النعمانية بفارس، فقيه لغوي، طبيب، فلكي، رياضي، وكان يحفظ في المنطق أرجوزة ابن سينا، وكان قيماً بمعرفة قانون الطب، وعارفاً باللغة العبرانية. أقام مدة بالقدس فاجتاز به الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف فعرف منزلته من العلم، فضمه إلى صحبته وسافر معه إلى القاهرة، وتوفي فيها.[٧]

عبد اللطيف بن يوسف البغدادي موفق الدين

(٥٥٧-٦٢٩هـ/١١٦١-١٢٣١م)

العالم الموسوعي الطبيب الكيميائي، عالم بالتشريح والنبات والفلك والمنطق، موصلي الأصل، ولد ببغداد، وزار معظم البلاد العربية، وحدّث في بغداد والقدس وحران وبلاد الروم وملطية والحجاز، وكان قد اعتنى كثيراً بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها.

ويروي قصة ذهابه للقدس بقوله:

وشاع أن صلاح الدين هادن الفرنج وعاد إلى القدس، فقادتني الضرورة إلى التوجه إليه، فأخذت من كتب القدماء ما أمكنني، وتوجهت إلى القدس، فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة، والقلوب محبة... وأصحابه يتشبهون به، يتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى: «ونزعنا ما في صدورهم من غل»، وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم، يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع، وكان مهتماً في بناء سور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه.. فكتب لي صلاح الدين بثلاثين ديناراً في كل شهر على ديوان الجامع، وأطلق أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مئة دينار. ورجعت إلى دمشق وأكببت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع..

ثم أقام عبد اللطيف البغدادي بالقاهرة وكان له الرتب والجرايات من أولاد الملك الناصر صلاح الدين، ولما ملك السلطان العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، توجه الشيخ موفق الدين إلى القدس، وأقام بها مدة، وكان يتردد إلى الجامع الأقصى، ويشتغل الناس عليه بكثير من العلوم، وصنف هنالك كتباً كثيرة..(٨)

داود بن أبي المنى أبي فانه أبو سليمان

(كان حياً سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م)

كان من أهل القدس، وكان فاضلاً في الصناعة الطبية، خبيراً بعلمها وعملها، متميزاً في العلوم، وهو الذي ركَّب الترياق الفاروق بالبيت المقدس لمعالجة ابن الملك ماري من الجذام. ثم انتقل إلى الديار المصرية، وحين حرر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٨٣هـ كان أبو سليمان داوود قد بشره بذلك، فأكرمه واعتنى بأولاده حسب طلبه وما تمناه على السلطان. وخلفه من أبنائه أيضاً في الطب مهذب الدين أبو سعيد، وموفق الدين أبو شاكر، وأبو نصر، وأبو الفضل.(٩)

رشيد الدين بن يعقوب القدسي أبو سعيد

(توفي ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)

طبيب من نصارى القدس، درس الطب في مجلس رشيد الدين علي بن خليفة في دمشق، وكان متميزاً في صناعة الطب، خبيراً بعلمها وعملها دخل في خدمة ملوك الأيوبيين المعظم والكامل والصالح في مصر ودمشق وتوفي فيها .له من الكتب :

عيون الطب، وتعاليق على كتاب الحاوي للرازي.(١٠)

عبد السلام بن أحمد المقدسي المعروف بابن غانم

(توفي ٦٧٨هـ/١٢٧٩م)

طبيب فيلسوف، توفي ولم يبلغ الخمسين. من آثاره كتاب «كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» وله «رسالة في تشبيه الإنسان بمملكة كاملة البنيان».(١١)

عبد الرحمن بن أبي بكر الحنبلي المعروف بابن داوود

(٧٨٢-٨٥٦هـ/١٣٨٠-١٤٥٢م)

كيميائي عنده خبرة بالأدوية المفردة، والنبات والأحجار والحيوان، وخاصة منافع لحوم الحيوان، ولد بدمشق ونشأ بها، عمل على مصالح البيمارستان القيمري بدمشق، ثم رحل إلى القدس وتوفي فيها. من كتبه «تسلية الواجم في الطاعون الهاجم».(١٢)

محمد بن عيسى الصفدي المعروف بابن حامد

(٨٠٨-٨٨٧هـ/١٤٠٥-١٤٨٢م)

طبيب، ميقاتي، فقيه، ولد بصفد ونشأ فيها، ودرّس بدمشق، زار القدس ومكة، ثم عاد إلى صفد وتوفي فيها ودفن في مدرسة أرقطاي.(١٣)

عبد الباسط بن خليل الغرسي المعروف بابن الوزير

(٨٤٤-٩٢٠هـ/١٤٤٠-١٥١٤م)

طبيب، فقيه، مؤرخ. ولد في ملطية، دخل المغرب فأخذ دروساً في النحو والكلام والطب، تولى عدة نيابات في حماة وصفد والقدس والإسكندرية. من كتبه: «كتاب في الطب»، ورسالة في طبيعة الأفيون وتأثيراته العامة وآراء بعض الأطباء في طبيعته وتأثيراته.(١٤)

كانت تلك لمحة تعرفنا فيها على بعض من خدموا بصناعة الطب من الأعلام العرب القدماء، منهم من كان له موطن عمل في القدس، أو نشأ فيها. وسوف نتحدث الآن عن بيمارستان القدس وأهم الأطباء الذين خدموا فيه.

بيمارستان القدس

رحل السلطان صلاح الدين إلى القدس في اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٨٣هـ وأمر بتشييد أسوارها، وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصَنْد حَنَّة (Sainte anne) يذكرون أن بها قبر حَنَّة أم مريم عليها السلام، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الإفرنج القدس، ثم لما ملك

الإفرنج القدس سنة ٤٩٢هـ أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، ولما فتح السلطان صلاح الدين القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شدَّاد، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الأشبيتار بقرب حمّامه مارستاناً للمرضى، ووقف عليها مواضع، وخصص أدوية وعقاقير غزيرة، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع أبي تميم.(١٥)

وأشار ابن القفطي(١٦) إلى بيمارستان القدس بقوله: إن يعقوب بن صقلاب النصراني أقام على حالته بالقدس في مباشرة البيمارستان إلى أن ملكه المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦١٥هـ.

وكتب الأستاذ العالم عادل جبر بك مدير المتحف الإسلامي ودار الكتب بالقدس الشريف قبل عام ١٩٣٩م عن هذا البيمارستان برسالة إلى الدكتور أحمد عيسى بك بالقاهرة صاحب «تاريخ البيمارستانات في الإسلام» فقال(١٧): إن بالقدس حارة تسمى الدباغة، والمشهور المتداول على ألسنة الناس أن البيمارستان الصلاحي (نسبة إلى صلاح الدين) كان في هذه الجهة، ثم أدركه الخراب، كما أدرك غيره من الآثار، ثم حدثت زلزلة في سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م فجعلته أثراً بعد عين، فعفيت آثاره واختلست أرضه، وتصرف فيه الحكام وغيرهم من الناس بالبيع والهبة، فوهب السلطان عبد الحميد قسماً من خراباته إلى الدولة الألمانية لمناسبة زيارة ولي عهدها للقدس الشريف سنة ١٨٩٦م فبنى فيه الألمان كنيسة افتتحها الإمبراطور غليوم الثاني سنة ١٨٩٨م وقال إنهم عثروا في خراباته على حجارة مكتوبة ناطقة باسم صلاح الدين وخلفائه من بعده.

نستنتج من ذلك أن هذا البيمارستان ظل قائماً حوالي ثلاثة قرون، ولا شك أن الكثير من الأطباء الذين كانوا بالقدس، خدموا المرضى فيه، غير الذين ذكروا في الكتب المختصة.

الأطباء الذين خدموا بصناعة الطب في بيمارستان القدس

قلت لا بد إنهم كثر، ولكن من أشهر من ذكر وخدم في هذا البيمارستان هما؛ يعقوب بن صقلاب النصراني المقدسي، ورشيد الدين الصوري.

يعقوب بن صقلاب(١٨) موفق الدين

(توفي ٦٢٥هـ/١٢٢٨م)

النصـــراني المقدسي المشرقي (أي شرقي القدســ) الملكي، مولـــده بالقدس الشريف، قرأ فيه الحكمة والطب، وأقام سنين طويلة، وكان صاحـــب رأي وتدبـــير. وصفه العمري بقولـــه[١٩]: حكيم أطاح طبُّـــه رداء السقم، وأطار عن الأعضاء لوثة السأم، وكان كأنما خلق من طينة أفلاطـــون وجالس جالينوس حتى اخترمته المنون.

نشأتـــه وشيوخـــه: قـــرأ على تـــاذوري الفيلســـوف الأنطاكي نزيـــل القدس، وكان هذا الفيلسوف أخذ علوم الأوائل بأنطاكية وغيرها، واستوطن القدســ وجعل داره بها شكل كنيسة (دير السيق)، كان خبيراً بالعلم الطبيعـــي، متقناً للهندســـة وعلم الحساب، قوياً في علم أحكام النجوم والاطلاع عليها، وكانت له أحكام صحيحة، وإنذارات عجيبة، يقول ابن أبـــي أصيبعـــة: وأخبرني الحكيم يعقـــوب عنه معرفته للحكمة وحسن فطرته وفطنتـــه شيئاً كثـــيراً، وتبتل للعبـــادة وأقرأ العلـــوم إلى حدود سنة ٥٨٠هـــ، وقرأ عليه يعقوب هذا شيئاً من أوائل هذه الصناعة.

واجتمع أيضاً الحكيم يعقوب في القدس بالشيـــخ أبـــي منصور النصـــراني الطبيب، وتتلمـــذ عليـــه، وباشر معه أعمـــال صناعة الطب وانتفع به. وأبو منصور النصراني[٢٠] كان طبيبـــاً مشهوراً عالمـــاً، حسن المعالجة والمـــداواة، وخـــدم بصناعة الطـــب للملك الناصر صلاح الدين بـــن أيوب وبقي سنين في خدمته.

منزلته ومآثره:

أقام يعقـــوب بالقدس علـــى حالته في مباشـــرة البيمارستـــان إلى أن ملكه المعظم عيسى ابن الملك العـــادل أبو بكر بن محمد ابـــن أيوب فاختص به، وكان حسن المعالجة بالتجربـــة البيمارستانية، ثـــم نقله المعظم عيسى إلى دمشق وأقام إلى أن توفي فيها.

وقـــال عنه ابن أبـــي أصيبعـــة[٢١]: كان أعلم أهل زمانـــه بكتب جالينوس ومعرفتها والتحقيق لمعانيهـــا، والدراية لها، وكان من كثرة اجتهاده في صناعة الطب وشدة حرصه ومواظبتـــه علـــى القـــراءة والمطالعة لكتب جالينوســـ، وجودة فطرته وقـــوة ذكائه، أن جمهـــور كتب جالينوســـ وأقواله فيها كانت مستحضرة لـــه في خاطره، فكان مهما تكلم به في صناعـــة الطب على تفاريق أقسامها، وتفـــنن مباحثهـــا، وكـــثرة جزئياتهـــا، إنما ينقـــل ذلك عن جالينوســـ، ومهما سئل عنه في صناعـــة الطـــب من المسائـــل والمواضيع

المستعصية وغيرها لا يجيب بشيء من ذلك إلا أن يقول قال جالينوس، ويورد فيه أشياء من نصوص كلام جالينوس، حتى كان يتعجب منه في ذلك، وربما أنه في بعض الأوقات كان يذكر شيئاً من كلام جالينوس، ويقول: هذا ما ذكره جالينوس في كذا وكذا ورقة من المقالة الفلانية من كتاب جالينوس، ويسميه ويعني به النسخة التي عنده، وذلك لكثرة مطالعته إياها وأنسه بها. ومما شاهدته في ذلك من أمره أنني كنت أقرأ عليه في أوائل اشتغالي بصناعة الطب ونحن في المعسكر المعظمي - وكان أبي أيضاً في ذلك الوقت في خدمة الملك المعظم رحمه اللّه - شيئاً من كلام أبقراط حفظاً واستشراحاً، فكنت أرى من حسن تأنيه في الشرح، وشدة استقصائه للمعاني - بأحسن عبارة وأوجزها وأتمها معنى - ما لا يجسر أحد على مثل ذلك ولا يقدر عليه، ثم يذكر خلاصة ما ذكره وحاصل ما قاله حتى لا يبقى في كلام أبقراط موضع إلا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة، ثم إنه يورد نص ما قاله جالينوس في شرحه لذلك الفصل على التوالي إلى آخر قوله، ولقد كنت أراجع شرح جالينوس في ذلك فأجده قد حكى جملة ما قاله جالينوس بأسره في ذلك المعنى، وربما ألفاظ كثيرة من ألفاظ جالينوس يوردها بأعيانها من غير أن يزيد فيها ولا ينقص، وهذا شيء تفرد به في زمانه.

وكان في أوقات كثيرة لما أقام بدمشق يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب، فكان الشيخ مهذب الدين أفصح عبارة، وأقوى براعة، وأحسن بحثاً، وكان الحكيم يعقوب أكثر سكينة، وأبين قولاً، وأوسع نقلاً، لأنه كان بمنزلة الترجمان المستحضر لما ذكره جالينوس في سائر كتبه من صناعة الطب.

فأما معالجات الحكيم يعقوب فإنها كانت في الغاية من الجودة والنجاح، وذلك أنه كان يتحقق معرفة المرض أولاً تحقيقاً لا مزيد عليه، ثم يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر.

وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث أنه كان إذا افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرضاً عرضاً، وما يشكوه مما يجده من مرضه حالاً حالاً إلى أن لا يترك عرضا يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره، فكانت أبداً معالجاته لا مزيد

عليها في الجـودة، وكان الملك المعظم يشكر منه هذه الحالة ويصفه ويقول: لو لم يكن في الحكيم يعقوب إلا شدة استقصائه في تحقيق الأمراض حتـى يعالجها على الصواب، ولا يشتبه عليه شيء من أمرها.

وكان الحكيـم يعقـوب أيضـاً متقنـاً للسان الرومي خبـيراً بلغته ونقل معناه إلى العربـي، وكان عنده بعض كتـب جالينوس مكتوبة بالرومي مثـل «حيلة البرء» و«العلل والأعراضـ» وغير ذلك، وكان أيضاً ملازماً لقراءتها والاشتغال بها.

وكان الحكيم يعقوب من أتم الناس عقلاً، وأسدهم رأياً، وأكثرهم سكينة، ولما خدم الملك المعظـم عيسى بن أبي بكر ابن أيوب، وصار معـه في الصحبة كان حسـن الاعتقاد فيه، حتـى إنه كان يعتمد عليه في كثير من الآراء الطبية وغيرها فينتفع بها ويحمد عواقبها، وقصـد الملك المعظـم أن يوليه بعض تدبير دولتـه والنظر في ذلك، فمـا فعل، واقتصر على مداومة صناعة الطب فقط.

وكان قـد عرضـ للحكيـم يعقوب في رجليـه نقرس، وكان يثور به في أوقات، ويألم بسببه، وتعسـر عليه الحركـة، فكان الملك المعظـم يستصحبه في أسفاره معه في محفة ويفتقـده، ويكرمـه غاية الإكـرام، وله منه الجامكية (مرتب) السنية والإحسان الوافر، وقـال له يومـاً: يا حكيم لم لا تـداوي هذا المرض الذي في رجليك؟ فقال: يا مولانا[٢٢] الخشـب إذا سوسـ ما يبقـى في إصلاحه حيلـة. ولم يـزل في خدمتـه إلى أن تـوفي الملـك المعظم، وكانت وفاته (رحمه اللّه) في الساعة الثالثة من نهار يوم الجمعة سلخ ذي القعـدة سنة أربع وعشرين وستمئة بدمشق، وملك بعده ولده الملـك الناصر داود فدخل إليه الحكيـم يعقوب، ودعا له وذكره بقديم صحبته، وسالف خدمته، وأنه قد وصل إلى سن الشيخوخة والهرم والضعف وأنشده:

أتيتكم وجلابيب الصبا قشب
فكيف أرحل عنكم وهي أسمال
لي حرمة الضيف والجار القديم ومن
أتـاكـم وكـهـول الحـي أطـفـال

وهـذا الشعر لابـن منقذ رحمـه اللّه، فأحسـن إليه الملك الناصـر إحساناً كثيراً، وأطلق له مالاً وكسوة وأمر بأن جميع ما قد كان له مقـرراً من الملك المعظم يستمر، وأن لا يكلف لخدمة، فبقي كذلك مُدَّة، ثم توفي بدمشـق في عيد الفصـح للنصارى، وذلك في شهـر ربيع الآخر سنـة خمس وعشرين وستمئة.

رشيد الدين بن الصوري

(٥٧٣-٦٣٩هـ/١١٧٧-١٢٤١م)[٢٣]

هو أبو المنصور بن أبي الفضل ابن علي الصوري، قد اشتمل على جمل الصناعة الطبية، واطلع على محاسنها الجلية والخفية، وكان أوحداً في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها، وتحقيق خواصها وتأثيراتها.

وصفه العمري في مسالك الأبصار بقوله: «رجل تهادته الملوك، وهادنته الأيام لحسن السلوك، وكان الحظّ معه حيثما خيّم..».

نشأته وشيوخه:

ولد ابن الصوري بمدينة صور في لبنان ونشأ بها، ثم انتقل عنها واشتغل بصناعة الطب على الشيخ موفق الدين عبد العزيز ابن عبد الجبار بن أبي محمد السلمي بدمشق (توفي ٦٠٤هـ)[٢٤] ، وقرأ أيضاً على الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، وتميز في صناعة الطب، وأقام بالقدس سنتين، وكان يطبب في البيمارستان الذي كان فيه. وصحب الشيخ أبا العباس الجياني[٢٥]، وكان شيخاً فاضلاً في الأدوية المفردة متفنناً في علوم أخرى، كثير الدين، محباً للخير، فانتفع بصحبته له، وتعلم منه أكثر ما يفهمه.

منزلته ومآثره:

اطلع رشيد الدين بن الصوري على كثير من خواص الأدوية المفردة حتى تميز على كثير من أربابها، وأربى على سائر من حاولها واشتغل بها، هذا مع ما هو عليه من المروءة التي لا مزيد عليها، والعصبية التي لم يسبق إليها، والمعارف المذكورة، والشجاعة المشهورة، وكان قد خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر ابن أيوب في سنة اثنتي عشرة وستمئة لما كان الملك العادل متوجهاً إلى الديار المصرية واستصحبه معه من القدس، وبقي في خدمته إلى أن توفي الملك العادل رحمه اللّه، ثم خدم بعده ولده الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، وكان مكيناً عنده وجيهاً في أيامه، وشهد معه مصافات عدة مع الفرنج لما كانوا نازلوا ثغر دمياط، ولم يزل في خدمته إلى أن توفي المعظم رحمه اللّه؛ وملك بعده ولده الملك الناصر داوود بن الملك المعظم فأجراه على جامكيته، ورأى له سابق خدمته، وفوض إليه رئاسة الطب، و بقي معه في الخدمة إلى أن توجه الملك الناصر إلى الكرك، فأقام هو بدمشق، وكان له مجلس للطب وجماعة يترددون إليه، ويشتغلون بالصناعة الطبية، وحرر كثيراً في أيام الملك المعظم، وتوفي رشيد الدين بن

الصوري (رحمه اللّه) يوم الأحد أول شهر رجب سنة تسع وثلاثين وستمئة بدمشق.

من أهم مؤلفاته: «فوائد ووصايا طبية» أهداه لابن أبي أصيبعة فشكره بقصيدة في رسالة:

لعلم رشيد الدين في كل مشهد
منار علا يأتمّه كل مهتدي
حكيم لديه المكرمات بأسرها
توارثها عن سيد بعد سيد
حوى الفضل عن آبائه وجدوده
فذاك قديم فيه غير مجدد
تفرد في ذا العصر عن كل مشبه
بخير صفات حصرها لم يجدد
أتتني وصاياه الحسان التي حوت
بنثر كلام كل فصل منضد
وأهدى إلى قلبي السرور ولم يزل
بإحسانه يسدي لمثلي من يد
وجدت بها ما أرتجيه وإنني
بها أبداً فيما أحاول مقتدي
ولا غرو من علم الرشيد وفضله
إذا كان بعد اللّه في العلم مرشدي

وله أيضاً «كتاب الأدوية المفردة»، وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم، وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون، وكان يستصحب مصوراً، ومعه الأصباغ والليِّق[٢٦] على اختلافها وتنوعها، فكان يتوجه رشيد الدين بن الصوري إلى المواضع التي بها النبات، مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات فيشاهد النبات ويحققه، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها، ثم إنه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً، وذلك أنه كان يري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريه إياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه أيضاً في وقت ذواه (ذبوله) ويبسه، فيصوره، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه في الكتاب، وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه في الأرض فيكون تحقيقه له أتم، ومعرفته له أبين.

المصادر والمراجع:

ابـن أبي أصيبعـة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: عيـون الأنبـاء في طبقـات الأطباء، شـرح وتحقيق نزار رضـا، منشورات دار مكتبـة الحياة- بيروت، ١٩٦٥م.

حميـدان، زهـير: أعلام الحضـارة العربية الإسلامية في العلـوم الأساسية والتطبيقيـة، وزارة الثقافة- دمشق ١٩٩٦م، ٦ مجلدات.

رَنسيمـان، ستيفـن: تاريـخ الحـروب الصليبية، نقلـه إلى العربية البـاز العرينـي، دار الثقافة- بيروت ١٩٦٨م.

الزركلي، خير الدين: الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلم للملايين بيروت. ٩ مجلدات.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج: تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٩٧م.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ١٩٩٣م. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، (١١ مجلد).

العمري، ابن فضل الله، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيـق محمـد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى عقلة ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠١م.

عيسى، أحمد: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي بدمشق ١٩٣٩م.

عيسى، أحمد: معجم الأطباء، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، ١٩٨٢م.

القفطي، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ: كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبي- القاهرة.

كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م. (٤ مجلدات).

الهوامش

١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٢١٣. حميدان: أعلام الحضارة ج١ ص٢٧١.

٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٥٤٥. حميدان: أعلام الحضارة ج٢ ص٥٨١.

٣- الجوارش: نوع من المعجون يعطى عن طريق الفم.

٤- القفطي: إخبار العلماء ص٧٤. ابن أبي أصيبعة ص٥٤٦. حميدان: أعلام الحضارة ج٢ ص٢٦٣.

٥- ستيفن رَنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٥٨٣. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص١٧٤.

٦- الظئر: المرضعة لولد غيرها، ويضرب في قيمة الإلفة والتثبت بها.

٧- عيسى: معجم الأطباء ص١٦٤. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص٢٠٦.

٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٨٣. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٤٨.

٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٥٨٧- ٥٩٠. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص٢٢٧.

١٠-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٥٩٩. كحالة: معجم المؤلفين ج١ ص٧١٨. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص٢٣٧.

١١-ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٦٣٢. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٣٥٥. كحالة: معجم المؤلفين ج٢ ص١٤٥. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٢٨.

١٢-ابن العماد: شذرات الذهب ج٩ ص٤٢٢. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص١١.

١٣-كحالة: معجم المؤلفين ج٣ ص٥٧٢. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٢٩٣.

١٤-عيسى: معجم الأطباء ص٢٤٥ عن بدائع الزهور لابن إياس. حميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٦. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٢٧٠. كحالة: معجم المؤلفين ج٢ ص٤٠.

١٥-عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٣٠. عن نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، وعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني.

١٦-ابن القفطي: إخبار العلماء ص٢٤٨.

١٧-عيسى: تاريخ البيمارستانات ص٢٣١.

١٨-صقلاب: الرجل الأبيض. وقيل الأحمر. وترجمته في القفطي: إخبار العلماء ص٢٤٨. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٢٢. (وفيهما اسمه بالنون: صقلان). ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٩٨. الأعلام للزركلي ج٨ ص ١٩٨ (وهو فيه بالسين: سقلاب). وعيسى: معجم الأطباء ص٥٢١، وتاريخ البيمارستانات ص٢٣٢. وحميدان: أعلام الحضارة ج٤ ص٥٠٤.

١٩-العمري: مسالك الأبصار ج٩ ص٣٩٥.

٢٠-ترجمته في ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٦١.

٢١-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٩٧.

٢٢-في رواية معجم الأطباء (ياخُوَنْد). عيسى: معجم الأطباء ص٥٢١. عن الوافي بالوفيات للصفدي

وتاريخ مختصر الدول لابن العبري. خُونْد = أمير، مخدوم. بالفارسية (المعجم الذهبي).

٢٣-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٩٩. العمري: مسالك الأبصار ج٩ ص٣٩٧. عيسى: تاريخ البيمارستانات ص٢٣٢. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٢٣. حميدان: أعلام الحضارة ج٣ ص٢٣٤. قطاية: شخصيات الطب العربي ، ص بدون رقم.

٢٤-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٧١.

٢٥-لعله عبد المنعم الجلياني (وفي فوات الوفيات لابن الكتبي: الجياني) قدم من الأندلس واستوطن دمشق (توفي ٦٠٣هـ). عن حميدان: أعلام الحضارة ج٥ ص٣٣٠، ينظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص٦٣٠.

٢٦-اللِّيق: بالكسر، شيء أسود يجعل في الكحل. والليقة: صوفة الدواة، أو إذا بلّت. (المعجم الوسيط).



الدراسات والبحوث

القدس مركز صراع حضاري وثقافي لا تلغيه تسويات إرغام مفتعلة

د. خير الدين عبد الرحمن ❋

يمثـل الاحتفال بالقدس واستذكارها والتذكير بها، أيا كان المساق أو الإطار: دينياً أو حضارياً، تاريخياً أو تراثياً، ثقافياً أو فنياً تحدياً لاحتلالها من قبل الغزاة الصهاينة الذين تتصاعد إجراءاتهم لتهويد المدينة المقدسة وتهجير أهلها المتشبثين ببقائهم فيها في ظل ظروف أمنية واقتصادية وسياسية تجعل هذه الإقامة بحد ذاتها رباطا شجاعا ومقاومة صلبة وجهادا لا يدانى.

❋ باحث وأديب سوري



تنفـرد القدس بوضـع وخصائص تميزها عـن أي مدينة أخرى في العالم: إنها مدينـة الأنبياء والرسـل، ومهبط الديانات السماويـة الثلاث. مما جعل قداستها عامة لجميع أتباع الرسالات السماوية،على الرغم من سعي مغتصبيها المفسدين في الأرض إلى ادعاء احتكارهم إياهـا وتثبيته عبر وقائع شملـت بناء عشرات آلاف المباني التي تشوه المدينة وتزيـف وجهها المشـرق، واستقدام مئات الآلاف مـن لصوص الأرض والتاريخ من شتى أنحاء العـالم للإقامة فيها بحماية ترسانة حربية ورؤوس نووية،على أنقاض بنيتهـا المجتمعية والثقافيـة الطبيعية، في مسعى إلى إحلال الوهم والأكذوبة الصهيونية مـكان الإرادة الإلهيـة والتواصـل البشري للمقدسيين على امتداد آلاف السنين، وهما ما جعـل القدس من أهـم المراكز الروحية وأبرز مراكز التوحيد في العالم.

ليس الغزاة الصهاينة أول غزاة القدس، فهي مدينـة الحرب والسـلام التي حملت علـى كاهلهـا تاريخا حافـلا يناهز حوالي الستـة آلاف عام، تعرضت فيه لما لم تتعرض لـه أي مدينـة أخرى من غـزوات وحروب وأدعياء حـق باحتكارهـا.. وظلت القدس لألـف وأربعمئة سنة، على الرغم من الغزاة والمحن، موئلا لثقافة التسامح والمحبة، وقبلة للمؤمنـين كافة، مسلمـين ونصارى ويهود، يحجون إليهـا، ويطمحـون للإقامة فيها، كمـا سعى إليها طلبـة العلم من شتى الأمم والبلدان للدراسـة في مدارسها ومساجدها وأديرتها ومعاهدهـا الدينية والعلمية التي رفـدت الإنسانية بـآلاف الأئمـة والعلماء ورجـال الفلك والأطباء والعلـوم الإنسانية والطبيعية.

كانت القدس بحق مهدا لأقدم الحضارات وأعرقها .وظلـت حتـى في أحلـك فـترات محاولات الغزاة اغتصابها وانتهاك قدسيتها مشعلاً وزادا للثقافـة العربية ومنارة للفكر الإنساني، وهمزة وصل بين الحضارات. إنها المدينة التـي عاشت أوج ازدهارها ومجدها على امتداد الحكم الإسلامي لها الذي امتد زهـاء ثلاثة عشر قرناً. إنها المدينة التي بلغ ما قد كتب عنها ستة آلاف مجلد وكتاب. بل زاد عدد العلماء البارزين الوافدين إليها في عهد المماليـك وحدهم الذين امتد حكمهم زهاء (٢٥٠ عاماً) عـن ٨٠ من أهم العلماء الذيـن أقاموا فيها وراحوا يدرِّسون في أكثر مـن ٤٠ مدرسة مـن مدارسها.. جاء هؤلاء إلى القدس من اثنين وعشرين بلدا، مكرسين عالمية هـذه المدينة. لكن عالميـة القدس لم

تخدش يوماً أصالتها المتمثلة بكونها مدينة عربية التأسيس والجذور والبناء والتاريخ والانتماء. صحيح أنها لم تكن يوماً عاصمة رسمية للدولة العربية/ الإسلامية، شأن المدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة وغرناطة، لكنها ظلت عاصمة روحية للأمة، ودرة الوطن العربي، و وموئل التشبث بتسمية فلسطين (سورية الجنوبية) والتجسيد الأبرز للامتداد والتواصل التاريخي للثقافة العربية والتراث العربي، حتى عندما عانت خيانة حكام قايضوا الغزاة الفرنجة أكثر من مرة على دعم عروشهم البائسة في مقابل تخليهم عن القدس، على نحو ما يتكرر مجددا تحت وطأة جائحة الغزاة الصهاينة. حتى عندما بكت القدس مأساة غدر أولي القربى لم يترددوا في التخلي عنها والتفريط بها وعزلها عن محيطها العربي، ظلت وفية لذاتها العربية. لله درك يا قدس.. كم تشبثت بعروبتك في زمن عبث آخرون ممن تقمصوا دور يوضاس بانتمائهم.

تئن القدس اليوم حزنا وألما من شدة وطأة الاحتلال الصهيوني العنصري عليها وإمعانه في تشويهها بتهويد الحجر والإدارة والوجه، وإذاقة أهلها العرب شتى صنوف الظلم والقهر والحصار والقمع والتجويع لتهجيرهم. جدران وأسوار إسمنتية تطوقها، وأسيجة وأسلاك شائكة وحواجز عسكرية تبعد أهلها عن مقدساتهم وأسواقهم، وأطواق متتالية من أحزمة بنايات شاهقة لغزاتها المدججين بالسلاح لتغيير وجه المدينة وإبعادها عن الذاكرة الوطنية للفلسطينيين في باقي أراضي وطنهم المغتصب، ولإحكام عزلها ومنع تواصلها مع باقي جسدها الفلسطيني والعربي. كما تفننت سلطات الاغتصاب الصهيوني في أساليب ووسائل محاربة المؤسسات الوطنية والمجتمعية والثقافية والاقتصادية والدينية - الإسلامية والمسيحية- وكادت تجعل الدخول إليها للصلاة والتعبد فيها مستحيلا، لا للقاطنين في مدن وقرى فلسطين الأخرى فحسب، بل لسكان القدس أنفسهم، ممن تواصلت إقامتهم فيها قرونا، جيلا في إثر جيل. وضيقت على الساعين لزيارتها ومشاهدة آثارها ومعالمها، لطمس جوهر القدس العربي وخنق مؤسساتها الدينية الإسلامية والمسيحية التي تلاحقت الإجراءات الصهيونية لإخفاء حقائق مقدساتها وانتهاك حقوقها، وحقوق أهلها القانونية، عبر التخريب والهدم والحفريات والتزوير والتعتيم وتشويه تراث القدس،

وتغيير معالمها، وقتل هويتها الوطنية، وإزهاق روحها الثقافية، وتسطيح مناهجها وحياتها التعليميــة، وتدمير روابطهـا الاجتماعية، وتمزيقها ديموغرافيــاً وجغرافياً وقضائياً وإدارياً وخنقها اقتصادياً.

وبقدر ما لفلسطين من أهمية استراتيجية وجغرا- سياسيــة وتاريخيــة ورمزية، فإن أهميتهــا الدينية كمركــز روحي باركه الله وأطلق منــه الأديان السماويــة وربطها به، وجعــل أكثر الأنبياء يولدون فيها أو يعيشون فيها أو يمرون بها، تكرس ما جاء بشأنها في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، باعتبارها مركز الصــراع الرئيس، وباعتبــار القدس بالذات قلبها وجوهرها. وقد كانت القدس مركز استقطاب وجــذب وإشعاع منذ بناها العرب الكنعانيون قبل نحو سبعة آلاف سنة. جاء في الحديــث القدسي الذي نقله النبي محمــد عن الله عز وجل قولــه عن القدس وما حولها:«أنت جنتي وقدسي وصفوتي من بــلادي، من سكنك فبرحمة مني، ومن خرج منك فبسخط مني عليه». وعن الصراع على فلسطين وفضل المرابطين فيها دفاعا عنها – وعن ودرتها القدســ – قال النبي محمد صلى الله عليه وسلــم: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهــم ولا ما أصابهم من البــلاء، حتى يأتيهم أمــر الله وهم كذلك»، فلما سألوه أين هم، قــال:«في بيت المقدس وأكناف بيــت المقدس» (رواه أحمد) وكذلك فقد قــال: «لا تقــوم الساعة حتــى يسوق الله خير عباده إلى بيــت المقدس فيسكنهم إياه». وهو قد قال أيضاً: «لنعم المصلى بيت المقدس، هــو أرض المحشــر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فــإن الصلاة فيه كألف صلاة، وليأتين على الناس زمان والقيد سوط، قوس الرجــل حيث يــرى منه بيــت المقدس خير لــه وأحب إليه من الدنيــا جميعا» (أخرجه البيهقــي). وكذلك قال فيه: «مــن أراد أن ينظر إلى بقعة من بقــاع الجنة فلينظر إلى بيت المقدســ». وقال أيضاً: إن الجنة لتحن شوقــا إلى بيت المقدســ، وبيت المقدس من جنة الفردوس، وهو سرة الأرض».

لعل هذا يفســر حرص هرتسل، مؤسس الحركة الصهيونيــة السياسية المعاصرة، أن يشــدد القول، على الرغم من كونه علمانيا، وغير متدين: «إذا حصلنا يوماً على القدس وكنــت لا أزال حيا، فســوف أزيل كل شيء ليســ مقدســا لليهود فيها، وســوف أحرق الآثــار التي مرت عليها قرون». وقال ديفيد بن غوريون، أبرز قائد صهيوني بعد هرتسل،

الذي كان بــدوره علمانيا غــير متدين، بل ويحتقر اليهــود المتدينين علنــا: «لا معنى لإسرائيــل بــدون القدس».هــذا بالضبط ما جعــل خمسا وعشرين منظمــة إرهابية يهوديــة تنشــط في الوقــت الراهن لتدمير المسجد الأقصــى وتفريغ القدس من أهلها العرب الفلسطينيين، فمصير مشروع الغزو الصهيــوني لفلسطين وما حولها يرتبط إلى حــد بعيد بمصــير الصراع علــى القدس، المدينــة التي شكل اسمهــا كلمة سر سحرية استخدمتهــا شبــكات صهيونيــة ويهودية لاستقطاب تبني ودعم عدة كنائس مسيحية غربية لمشروع غزو فلسطين.

لم تبدأ المحنة مع استكمال احتلال القدس في حزيــران ١٩٦٧، ولا باحتــلال أحيائها الجديــدة وضواحيهــا الغربيــة في العــام ١٩٤٨، ولا حتى ببدء الغزو الاستيطاني لها في سيــاق المشروع الصهيــوني عقب المؤتمر الصهيوني الأول في بــال. لقد بدأت المحنة عندما ركز سدنــة الاستعمار الأوروبي على استهداف الوطن العربــي تجديدا لغزوات الفرنجــة التــي اتخــذت الصليــب ستاراً يخفــي أحقادهــا وأطماعها، وهــو تركيز ضاعفه شــق قناة السويــس وظهور بواكير الاكتشافات النفطية في المشرق العربي. كان تقرير لجنة كامبل بنرمــان الذي تم وضعه في العــام ١٩٠٧ واضحــاً في مقاصــده، إذ جــاء فيه تحذير شديد للــدول الغربية من وحدة العرب ونهوضهم، بالقول: «إن الخطر على كيان الإمبراطوريات الاستعمارية كامن في هــذه المنطقة: في تحررهــا، وفي توحيد توجهــات سكانها، وفي تجمعهــا واتحادها حول عقيدة واحدة وهدف واحد». وتضمن هذا التقريــر البريطــاني في قسمه الثالث دعوة صريحة إلى جميع الدول الاستعمارية ذات المصالح المشتركة بضرورة «العمل على استمرار وضع المنطقة المجزأ، المتخلف، كما هو، وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك، وجهــل، وتأخر، وعلى محاربة اتحاد جماهير المنطقة، ومنع ترابطها بأي نوع من الترابط: الفكري، أو الروحي، أو التاريخي، وعلى إيجاد الوسائل العملية القوية لفصلها عن بعضهــا ما أمكن..». قدم تقرير اللجنة مقترحاتــه العملية على النحو التالي: «لدرء الخطر عن الاستعمــار العالمي والعمل على فصــل الجــزء الأفريقي مــن المنطقة عن الجزء الآسيوي وإقامــة حاجز بشري قوي وغريــب على الجســر البري الــذي يربط آسيــا بأفريقيا، بحيث يشــكل قوة صديقة للاستعمــار وعدوة لســكان المنطقة..» (1).

هكذا جاءت اتفاقية سايكس- بيكو في العام ١٩١٦ التي فتتت المنطقة إلى دويلات عديدة مفتعلة، وتصريح بلفور في العام اللاحق ١٩١٧ الذي أسس لفصل الجزء الآسيوي من العالم العربي عن الجزء الإفريقي عبر إقامة حاجز بشري قوي عازل محمي من القوى الاستعمارية على أرض فلسطين، التي هي أرض الاتصال البري الوحيد بين آسيا وأفريقيا، مركز وحدة العالم العربي أرضا وبشرا، وبؤرة التجزئة التي ما زالت تحميها وتكرسها القوى التي فرضتها في أوائل القرن الماضي.

ألقى السناتور الجمهوري من ولاية ماساشوستش الأمريكية هنري كابوت لودج مثلا، حين كان رئيسا للجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس الأمريكي، خطاباً في شهر حزيران ١٩٢٢ بمدينة بوسطن، أثناء انتفاضة فلسطينية ضد الانتداب البريطاني وموجات الهجرة والاستيطان الصهيونية التي اتسعت وتكثفت بحماية سلطات الانتداب وجيشه، مفسراً حماسه في استصدار قرار من مجلس الشيوخ الأمريكي، في نفس الأسبوع، قضى بتبني وتأييد تصريح وزير الخارجية البريطاني بلفور في العام ١٩١٧ الذي أعلن التزام بريطانيا دعم تحويل فلسطين إلى «وطن قومي لليهود»، والذي صادق الرئيس الأمريكي وودرود ويلسون عليه في رسالة بعث بها إلى الحاخام ستيفي وايز زعيم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة آنذاك. قال هنري كابوت لودج: «إنني لم أحتمل يوما فكرة وقوع القدس وفلسطين المقدسة تحت سيطرة المحمديين.. إنها لطخة في جبين الحضارة من الواجب إزالتها»[٢].

يشير هذا التصريح إلى جملة حقائق. فهو يدلل على انتشار النفوذ الصهيوني وتنسيق جهوده على امتداد العالم، ويشير إلى تركيز المشروع الصهيوني على الاستثمار الأقصى للعامل الديني وما تفرع عنه من خرافات وأساطير وصراعات، وبشكل خاص استثمار الأحقاد التاريخية التي دفعت إلى الغزوات الصليبية المتكررة لمشرق العالم العربي ومغربه، والتي كرستها الحركة الاستعمارية لاحقا، إضافة إلى استثمار الاختراق الذي نجح ناشطون يهود في إحداثه في عدة كنائس مسيحية في الغرب على أصعدة العقيدة والطقوس والتحالفات منذ نجحوا في غواية دمج العهد القديم (أي التوراة بعدما حرفوها) بالعهد الجديد (أي الإنجيل بصيغه السبعة) على الرغم

مـن أن الحركة الصهيونيـة كانت علمانية في فكرها وقياداتها وارتباطاتها. كما يشير إلى مـدى عمق هذا الحقـد التاريخي على العرب والمسلمين لدى أوساط غربية فاعلة، ومدى جهل تلك الأوسـاط بحقائق التاريخ والجغرافيـا وسطحية تفكيرهـا من ناحية أخرى، ويؤكـد أن الصراع حضاري وقومي وديني في الوقت نفسه، وأن القدس بالذات مركزه الرئيس.

وهكذا، نستذكر أنه عندما دخل الجنرال البريطـاني اللنبي القدس يوم ١٩١٧/١٢/٩ على رأس جيش كبـير، تنفيذا لوعد قطعه على نفسه أمام رئيس وزراء بريطانيا آنذاك، لويد جورج، بأن يقدم له القدس هدية عيد الميلاد في ذلك العام، وتأسيسا لتنفيذ تصريح بلفور الذي صدر قبل خمسة أسابيع بفرض إقامـة وطن يهـودي في فلسطين، قال ذلك الجـنرال: الآن انتهت الحروب الصليبية!.. فالقدس تظل محركا لصراع مصيري شامل لا يوقفـه احتلالها، بل يؤججـه، ولا تلغيه اتفاقيات إذعان يوقعها هذا الحاكم أو ذاك، بل توسع مداه. لم تنته الحروب الصليبية وإن جرى الابتعاد بساحاتها الساخنة عن القدس غرباً إلى البوسنة، وشرقاً إلى الشيشان. إنها حرب مستمرة تثبتهـا الوقائع على الأرض والإعلانات الصريحة للقيـادات الصليبية المتهودة..»[٣]. إن «النجاح اليهودي المعاصر في بسط الهيمنة ومـد الأذرع الأخطبوطية في معظـم أنحاء عالمنـا، والتحكم بالنظام الاقتصـادي العالمي وبالأوضـاع السياسية لـدول كثـيرة كـبرى وصغـرى وبالحيـاة الاجتماعيـة والثقافيـة نشـرا للفوضـى والقيم المادية والفردية والإفساد الأخلاقي والإداري، مـن أجـل تحطيـم المجتمعات وجعلهـا سلسة الانقيـاد، مطواعة، بهيمية النزوات والشهوات، مخدرة العقول، قد جعل الكثـير من الأوساط يتسـاءل عن سر قدرة أربعـة عشر مليون يهودي علـى بسط مثل هـذه السيطرة، وتحقيق مثـل هذا التحكم الهائـل في مقدرات العـالم. إن المسألة أكثر تعقيدا من حصرها بمدى انتشار الماسونية وواجهاتها، أو مدى نفوذ اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة والمافيا اليهودية في روسيا، أو السيطـرة اليهودية التقليدية على أسواق المال والذهب، أو التغلغل اليهودي في الكنائس الغربيـة..كل هـذه عوامـل معروفـة ولها وجاهتها، لكن ما يعيشه العالم اليوم حصيلة تراكمـات تاريخية طويلـة لجهود قرون، لا سنوات معـدودة، تم خلالها تهويد حضارة

مهيمنة بأكملها، وبالتالي تهويد مجتمعات كثيرة بوعيها أو من غير وعي..» [٤].

كتب مارتن لوثر، مؤسس الحركة البروتستانتية، حرفيا: «إن اليهود هم أبناء الرب ونحن الضيوف والغرباء.. وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها» ! وهكذا اعتبر المهاجرون البروتستانت الأوائل إلى ما سمي لاحقا القارة الأمريكية أن أمريكا هي «أورشليم الجديدة» وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء، وشبهوا من أسموهم الهنود الحمر، أي سكان أمريكا الأصليين الذين أباد المستوطنون الأوروبيون غالبيتهم الساحقة، بعرب فلسطين القدامى الكنعانيين، وإذ بالاستعمار الصهيوني لفلسطين يصبح في عرف مستعمري أمريكا استمراراً وإتماماً لرسالة «سماوية وحضارية»، بعدما صبغ البروتستانت البيوريتانيون الأوائل أمريكا حين استوطنوها بصبغة مسيحية يهودية، تطورت إلى مسيحية صهيونية (رضا هلال، المسيح اليهودي ونهاية العالم: المسيحية السياسية والأصولية في أمريكا، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠). بهذا نستطيع تفسير قول جيمس بولدين، عضو الكونغرس الأمريكي لدورة ١٩٣٤-١٩٤٩: «قدر الهندي (الأحمر) الذي يواجه الأنجلو ساكسوني مثل قدر الكنعاني الذي يواجه الإسرائيلي: إنه الموت»[٥]. ذلك أن فكرة أمريكا، فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة عبر الاجتياح المسلح وبمبررات غير طبيعية هي محور فكرة إسرائيل التاريخية.

بل إن كريستوفر كولومبوس الذي ساقته الرياح إلى الأرض التي بات اسمها أمريكا وهو يظن أنه ذاهب إلى الهند قد أوضح بجلاء الغرض الرئيس من رحلته تلك، إذ جاء في مذكراته أنه دعا في صلاته لدى بدء الرحلة التي أراد أن يعود منها وقد ملأ سفنه ذهبا: «فليساعدني المولى برحمته على أن أحظى بهذا الذهب»، أما سر توقه لاحتضار تلك الكميات الهائلة من ذهب الهند فشرحه قائلا: «كان ذلك بنية الذهاب إلى مولانا الملك ومولاتنا الملكة (إيزابيل) لتوسل إليهما من أجل أن يتخذا قرارا بإنفاق العائدات التي يمكن أن يجنياها من الهند لاستعادة القدس» [٦].

كذلك كان نداء نابليون بونابرت الشهير إلى يهود أوروبة يوم ٥/٢٢ /١٧٩٩ للالتحاق بجيشه لدى بدء حصاره الفاشل لمدينة عكا الفلسطينية صريحاً بقوله أنه قد جاء بجيشه إلى فلسطين ليقيم مملكة لليهود في القدس.

لقد استعصت عكا على الجيش الغازي على الرغم من المذابح الجماعية التي ارتكبها والمجاعة التي تسبب بها، فارتد نابليون إلى مصر، وكان أول ما فعله افتتاح محفل ماسوني في القاهرة وآخر في الإسكندرية أناب في افتتاحه مساعده الجنرال كليبر، معتبراً أنه بهذا يعد إعدادا أفضل لجولة قادمة من غزوة صليبية – يهودية في فلسطين عنوانها الرئيس احتلال القدس.(٧).

الغريب هنا هو تجذر نتائج التضليل الذي مورس على الأوروبيين، وامتدادهم البشري في شمال أمريكا وأستراليا وسواهما، في سياق استغلال العامل الديني، على الرغم من الإقرار الصريح لمئات من القادة اليهود والصهاينة بحقيقة مقاصدهم. كتب الحاخام بينا نوزيغ مثلا: «الصهيونية هي المحك.. فاليهودي لن يقنع بإخراج الناس من النصرانية، وإنما عليه تهويدهم، فهو يهدم الإيمان الكاثوليكي والبروتستانتي، وينشر اللامبالاة، ويفرض فكرته العالمية وطريقة حياته على الذين أتلف إيمانهم، بينما هو يعمل على تحقيق رسالته التاريخية، وهي إبادة ديانة المسيح».

اختار فاروق مردم بيك وإلياس صنبر عددا من النصوص والشهادات التاريخية والدراسات الباحثة في المشروعية والحق العربي في القدس وارتباط العرب التاريخي والروحي بهذه المدينة على مر العصور، بعدما جرى تشويه المعاني الروحانية للتعلق الوجداني للمسلمين والمسيحيين بالقدس عبر ادعاءات صهيونية باطلة تحتكر الارتباط بالقدس، يجري تكريسها بالقوة العسكرية الغاشمة، منذ احتلال الجزء الغربي الحديث من المدينة سنة ١٩٤٨، ثم إعلان ذلك الجزء عاصمة لإسرائيل سنة ١٩٥٠، ثم احتلال المدينة القديمة سنة ١٩٦٧ وإعلان توحيدها تحت الإدارة الإسرائيلية وقوانينها، ثم إعلان المدينة موحدة عاصمة لإسرائيل انتهاكا لقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة التي ترفض تغيير وضع القدس القانوني وفرض أمر واقع إسرائيلي من جانب واحد بقوة الاحتلال. تم جمع تلك المختارات في كتاب بعنوان (القدس بين المقدس والسياسي JE'RUSALEM: Le Sacre'et le Politiqe) صدر بالفرنسية سنة ٢٠٠٠. من المشاركين في الكتاب مونيك شومبير جوندرو وبيير أوبي ويواكيم مباركي وشمس الدين بن عبد الله المقدسي الذي ترجم نصوصه أندريه ميكائيل أستاذ الأدب العربي في الكوليج دي فرانس، وصلاح

ستيتيه وخليل عثمانيا وعادل مانع وإبراهيم دقـاق. قالـت سعاد الوحيـدي في عرضها للكتاب [٨] إن أبشع ما صاحب «الاعتداءات التاريخية بحق المشروعية العربية في الأرض والتاريخ، وبحـق الشعور العربـي، والأمن العربـي، والاستقـرار العربي، هـو تصور الصهاينة لعدوانهم هذا بأنه واجب ديني تنص عليه التوراة نفسها، ومبارك من الرب الذي اختارهم على شعوب الأرض جميعا! أي على نفس النحو الذي تصور معه الصليبيون في حملاتهم المشابهة ضد فلسطين بأنهم كانوا مأمورين من الإنجيل للنهوض بمهمة جهادية ! والـذي لن يلغي بأي حـال حجم الإشكال القائم فيمـا يتعلق بحـق الفلسطينيين في أرضهم، وأن حقيقـة المسألة إنما تكمن في مطلبهم الشرعي الطبيعـي: ضرورة العودة لأرضهـم واسـترداد حقهـم الطبيعـي في الحيـاة الكريمة على ترابهـم». هنا تجدر الإشـارة إلى حقيقـة أن غالبيـة الصهاينة الذين هاجروا إلى فلسطين واستوطنوا فيها على مـدى السنوات المئـة الماضية، وبشكل خاص على مدى السنوات الأربعين الماضية، لا يشعـرون برابط روحي تجـاه القدس أو فلسطين، شأنهم شأن كل القادة التاريخيين للمشروع الصهيـوني والغالبية الساحقة من الذين قاتلـوا في سياقه. بلغ الأمر بالباحث الإسرائيلي جدع جيـلادي أنه قد أقسم في كتابـه (إسرائيل نحو الانفجـار) على أنه لم يلتـق يهوديا واحدا يؤمن بـالله حقا! وأكد استطـلاع لمجلـة نيوزويـك الأمريكية أن «أكثريـة اليهود الإسرائيليـين اليوم يقولون إنهـم لا يؤمنون بـالله، ويصفـون أنفسهم بالعلمانيين» [٩].

كان ديفيد بن غوريـون (نبي) المشروع الاستيطـاني الصهيوني لاغتصاب فلسطين شديد الوضوح عندما قـال: «الدين وسيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقـت فقـط، لا كل الوقت». وهو قد قـال أيضا: «إن حيـاة اليهود لو تركت للحاخامات لظلوا حتى الآن كلاباً ضالة في كل مكان يركلهم الناس بالأقدام» [١٠].

قبل بن غوريون تعمـد ثيودور هرتسل، مؤسـس الصهيونيـة السياسيـة المعاصرة انتهـاك الطقوس والشعائـر اليهودية لدى زيارته القدس ليؤكد تميز نظريته اللادينية عن العقيـدة الدينيـة. وكان ماكس نورداو (١٨٤٩- ١٩٢٣) الكاتـب الألمـاني والزعيم الصهيوني صديق هرتسـل المقرب، ملحدا يجهـر بالإلحـاد، وكان يـرى أن التـوراة «تعتبر كعمل أدبي أقل من أعمال هوميروس

والكلاسيكيات الأدبية»، وأنها «طفولية كفلسفة، ومقززة كنظام أخلاقي»، بل إنه وصل إلى حد القول بأنه «سيأتي يوم يأخذ فيه كتاب هرتسل- دولة اليهود- وضعاً مساوياً للكتاب المقدس، حتى لدى خصوم المؤلف من المتدينين» [11].

لقد اعتاد يهود المعازل (الغيتوات) في أوروبة أن يرددوا في أعيادهم «العام القادم في القدس»، بحيث باتت هذه الجملة تتكرر تلقائيا ولا شعورياً على امتداد السنين والقرون، إلى أن استطاع تحالف الحركة الصهيونية السياسية مع الحركة الاستعمارية الأوروبية، ثم مع الإمبريالية الأمريكية الجديدة، تحويل هذه الجملة المتداولة أوتوماتيكيا بين أولئك اليهود إلى أمر واقع معزز بمئات الرؤوس النووية وأسلحة الدمار الشامل الأخرى في الترسانة الإسرائيلية، وبحماية وحصانة أمريكية مطلقة تعتبر أن المحافظة على نتائج الاغتصاب الصهيوني لفلسطين وتعزيزه، ودعم الدور الوظيفي للكيان الإسرائيلي أهم من أي اعتبار آخر، ولو احتاج الأمر إلى شن الولايات المتحدة حروبا ضد العرب والمسلمين.ولكن هل القدس غاية بذاتها للاستيطان الصهيوني، حتى في رؤية المتدينين اليهود؟ الجواب واضح في النص التالي الذي جاء في خطاب ألقاه الياهو سويسا، وزير شؤون القدس في الحكومة الإسرائيلية، أثناء اجتماع في مركز هراقط للتعليم الديني،إذ قال حرفيا: «سوف نستمر في توسيع الاستيطان في القدس وحولها حتى تصل مستوطناتنا إلى دمشق»[12]. إن القدس بالنسبة لمشروع الغزو الاستيطاني الصهيوني لفلسطين دجاجة تبيض ذهبا، وسبيل سهل لاستنزاف التبرعات والدعم ولاستقطاب المقاتلين والأنصار، لكنها ليست هدفا بذاتها. إن أطماع المشروع الصهيوني الذي يستغل بريق اسم القدس ويركز على الاستثمار الأقصى لمكانة المدينة وتأثيرها على المؤمنين هي أطماع شديدة النهم والاتساع، تتجاوز فلسطين إلى ما حولها، بل وتتجاوز حتى حلم الهيمنة الصهيونية على العالمين العربي والإسلامي إلى إطار كوني تجاوز الطمع به حدود الحلم إلى وضع البرامج والخطط وتشكيل مؤسسات وشبكات ومنظمات سرية وواجهات علنية. ألم يقل دزرائيلي، أول يهودي تولى رئاسة الحكومة البريطانية، إن الذين يحكمون فعلا ليسوا هم أولئك الذين يظهرون على المسرح، وإنما اليهود الذين يجلسون خلف الستار ممسكين بالخيوط التي تحرك هؤلاء؟

القدس مركز الصراع الرئيس المستمر، هذا ما أكدته مراحل الصراع ومعطياته ونتائجه المتوالدة والمتواصلة. كذلك خلصت غالبية الدراسات والمتابعات بشأن هذا الصراع إلى تأكيد هذه الحقيقة. لعل من بين أبرز تلك الدراسات دراسة موثقة للدكتورة فكتوريا فالتس Waltz Victoria الأستاذة في كلية تخطيط المدن بجامعة دورتموند الألمانية، أنجزتها بعدما أمضت عدة سنوات في فلسطين، ونشرتها في كتاب(تحديات القدس: مدينة في ملتقى الدين والسياسة، نشر أسندوف، مونستر، ألمانيا، ٢٠٠٠)، والذي ترجمه للعربية د. شاكر علي.

لقد أوضحت التطورات المريرة الدامية أن الصراع من أجل فلسطين، ومركزه الرئيس الصراع من أجل القدس، هو صراع حضاري ومصيري، تتحد فيه بالنسبة لأكثر من عشرة ملايين فلسطيني الأبعاد الدينية والقومية والوطنية والمجتمعية، ويتوقف على نتائجه المصير الجمعي، وكذلك المصير الشخصي لكل فلسطيني، سواء كان مشردا في المنافي، أم خاضعاً للاحتلال على أرض وطنه منذ العام ١٩٤٨،لا تنهيه أوامر من دولة عظمى، ولا استسلام من يستسهلون الإذعان وتغليب تشبثهم بمكاسب فردية أو فئوية عابرة صغيرة على حقوق ومصالح الأمة ومصيرها، ولا تلغيه تمنيات من أصابهم الوهن ممن يتذرعون بفهم سقيم لمقولة الواقعية السياسية، متغافلين عن حقيقة أن الأمر الواقع الذي فرضه الاغتصاب قابل للنقض بأمر واقع آخر تفرضه إرادة التحرير لدى الأمة. إنه صراع لا تحسمه أوهام من صدقوا أنهم أسياد العالم، مهما تمتعوا بدعم قوى كبرى وبنفاق قوى أصغر شأنا، ومهما استثمروا أحقادا تاريخية متراكمة وأطماع راهنة بنهب نفط العرب. ذلك أنه فوق القدس بالذات يحوم السر الإلهي الذي يدير الامتحان والمحنة، ويوجه مسار التطورات، ليميز الخبيث من الطيب، ويستنفر صحوة عربية/ إسلامية دفع الدم الفلسطيني ضريبة قدومها، لتبدأ نهضة حضارية متجددة طال انتظارها. أدرك الحاخام اليهودي جاكوب نيوسنر هذا عندما قال يائسا: «وعدت الصهيونية بأن تكون الدولة اليهودية مركزاً روحياً للشعب اليهودي.. لكنها ورطت اليهود وتقودهم إلى حتفهم الأكيد، وربما الأخير.. إسرائيل الآن هي جحيم اليهود لا جنتهم»[١٣]..هذا ما يقوله أيضا حاخامات ومتدينون وعلمانيون وملحدون، صهاينة ومعادون للصهيونية على

حد سواء، ومراقبون ومفكرون من مجتمعات شتـى. وهذا قبل كل شيء وعد الله القاطع لعباده المؤمنين.

لقد شهدت القدس عدة موجات استيطان صهيوني على امتداد المئة عام الأخيرة، لكن الدعـوة إلى هذا الاستيطان بدأت قبل ذلك بزمن طويل، وتحديدا عندما زار الفيلسوف اليهودي الربي موسى بن ميمون القدس في العـام ١٣٢٧فلم يجد فيهـا سوى اثنين من اليهـود فقط، وقرر عندئذ دعوة اليهود إلى استيطان القدس وفلسطين (١٤).

نذكر هنـا كيف وجه نابليـون بونابرت نـداء إلى يهود أوروبة للالتحاق به عند بدء حصاره الفاشل لمدينة عكا الفلسطينية، فقد دعاهم للحضور من أجل بناء مملكة يهودية في القدس، مما جعل بعض الكتاب يعتبر أن نابليون بونابرت هو الرائد الأول لمشروع الغزو الاستيطاني الصهيوني لفلسطين. فشل الحصار رغـم المذابح الجماعيـة العديدة التي ارتكبها جيش نابليون حول عكا، ورغم المجاعة التي تسبـب بها على امتداد شهور الحصار الستة، وارتد نابليون خائبا بجيشه، فتحـول إلى مصر. انقلـب بونابرت وعادى اليهود في أواخر حياته بعدما خذلوه (١٥).

عند محاولة إلغاء فلسطين بإعلان إقامة إسرائيل دولة على معظم الأرض الفلسطينية في العـام ١٩٤٨، دون تحديـد حـدود لها، وعلـى الرغم مـن أن قـرار الأمم المتحدة في العام السابـق بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية قد أوصى بوضع خاص للقدس تكون فيه تحـت إدارة دولية، سعت القيادة الصهيونيـة إلى إقناع أكبر عدد من المهاجرين اليهـود باستيطان مناطق غربي القدس وضواحيهـا، حيث أقيمـت أحياء يهوديـة جديدة. لكن بقـاء المدينة القديمة (الشرقية) في أيـدي العرب آنذاك، وضمها مع ما قد نجـا من الاحتلال الصهيوني من أرض فلسطـين التي باتت تسمـى الضفة الغربية لنهر الأردن إلى إمارة شرقي الأردن لتشكلا معا المملكة الأردنية، قد جعل معظم اليهود يـترددون في الاستيطان هناك. وظل الهاجس السائد لـدى اليهـود قوياً لنحو عشريـن سنة بأن الجيوشـ العربية تستعد لتحريـر فلسطين واسترجاعها، وأن التركيز الأكـبر للهجـوم العربي سـوف يكون حول القدس.. لكن الانتصار العسكري الصهيوني الساحق في حرب حزيـران١٩٦٧، قد خلق وقائع جديدة مختلفـة تماما إلى حين. فهو وإن فجر التناقضات البنيوية لمجتمع الغزو الصهيـوني لاحقا وعجل بتفاعـل أمراضه

الكامنــة، على نحو مــا بدأ يظهــر بشكل خاص بعــد هزيمة الجيشــ الصهيوني في لبنــان سنــة ٢٠٠٦، إلا أنه قــد فجر على نحو فوري ومباشــر أوهام التفوق الفطري وغطرســة القوة والاستعــلاء العنصري في مجتمع الغزو الصهيوني الذي خضع آنذاك لوهم انتحاري بالقدرة على صنع الخوارق. وهكــذا لم تتردد الحكومــة الإسرائيلية بعد ثلاثــة أسابيع فقــط من احتــلال القدس القديمة والضفة الغربية، أي يوم ٢٨/ ٦ / ١٩٦٧، في إعلان ضم القدس الشرقية التي انتزعت من الجيش الأردني إلى أحياء القدس الغربية اليهودية، واعتبــار المدينة عاصمة موحدة لإسرائيل تخضــع للقوانين والإدارة الإسرائيليــة، على الرغم مــن الاعتراضات الدوليــة وقرارات مجلســ الأمن والجمعية العامة لــلأمم المتحدة برفض هذا الإعلان الإسرائيلي واعتباره باطلا لانتهاكه القوانين الدولية. عندئذ صــار التركيز شديدا على الاستيلاء على بيوت الفلسطينيين وأراضيهم في القدســ وحولها بوسائل شتــى، لتعزيز الوجود البشري في المدينة وحولها. ولم تلبث الحكومة الإسرائيلية أن وسعت حدود بلدية القدس عدة مــرات، بحيث ضمت عشرات القرى والبلــدات الفلسطينية إليها، وراحت السلطــات الإسرائيلية تحول أراضي أملاك الدولة التي تمثل تاريخيا أكثر من تسعين في المئة من أراضــي فلسطين، وكذلك ما تقوم بمصادرته من الأراضــي الخاصة المملوكة من قبــل مواطنين فلسطينيين بذرائع أمنية أو سواهــا، إلى عدة أحزمة من المستوطنات تحيط بمدينــة القدس. فقــد أقيمت سبع وثلاثون مستوطنــة في منطقة القدس حتى العــام ١٩٩٠، وتم جلب ١٢٤ ألف مستوطن يهــودي حتى ذلك الحــين إلى ثمانية أحياء استيطانيــة جديدة في القدســ هي رامات أشكول والتلة الفرنسية ونفي يعقوب وجيلة وراموت وتلبيــوت الشرقية والحي اليهودي في المدينــة القديمــة وحــي في قرية صور باهــر جنوب القدســ [١٦]. وقد لوحظ أنه بعدمــا كسر تكتــل الليكود احتــكار حزب العمل (تكتل المعــراخ) للحكومة الإسرائيلية لنحو ثلاثــين سنة، راح التكتــلان يتناوبان السلطة، ويتشاركانها أحياناً، وصارت إقامة مستوطنات جديدة، وخاصة في القدس، أبرز حقول التنافس بينهما والتقرب إلى الناخبين، وكذلك استثارة المتبرعــين والمستثمرين من يهــود العالم الذين يعزفون عــن الهجرة إلى فلسطــين ويعوضون عزوفهم بدفع الأموال، إذ ترتفع مساهمات أكثر هؤلاء عندما تكون القدس مدخلا لمخاطبتهم.

اقتضت ظروف استراتيجية أو عملية نقل تركيز الاستيطان إلى مناطق أخرى أحيانا. فعندما اختل التوازن الديموغرافي في مناطق الجليل مثلا، الجزء الشمالي مما اغتصب من أرض فلسطين في العام ١٩٤٨، والذي تشبث بعض الفلسطينيين من أهله بأرضهم آنذاك وقاوموا الاقتلاع والتهجير الذي وقعت غالبية السكان (نحو ٨٦٪) ضحية له، وبات عددهم يفوق المليون نسمة اليوم نتيجة ارتفاع معدلات توالدهم، بحيث انخفضت نسبة اليهود في تلك المناطق الخصبة والاستراتيجية إلى ٥٧٫٦ ٪ في العام ١٩٦١ ثم إلى ٥١ ٪ في العام ١٩٨٦، في ظل نمو حركة التحرر والثورة الفلسطينية وتصاعد كبير لنشاطها العسكري والسياسي آنذاك، داخل وخارج فلسطين، وخاصة في لبنان وسورية اللتين تحيطان بمنطقة الجليل، تم وضع خطة طوارئ لاستيطان يهودي مكثف في الجليل يضمن أغلبية سكانية يهودية. فقد وصل التخوف الصهيوني حد مناقشات علنية لهواجس احتمال إعلان السكان الفلسطينيين في الجليل استقلالهم أو ضم مناطقهم إلى سورية. شملت خطة الطوارئ تلك تعزيز الاستيطان اليهودي في مرتفعات الجولان السورية التي احتلها الجيش الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧ وأعلنت الحكومة الإسرائيلية لاحقا ضمها إلى دولة إسرائيل وتطبيق القانون الإسرائيلي عليها وفرض الجنسية الإسرائيلية على العدد القليل المتبقي من سكانها السوريين. قضت الخطة برفع عدد المستوطنين اليهود في الجولان إلى ثلاثين ألف مستوطن بحلول العام ١٩٨٧، وتشجيع هذا الاستيطان بتقديم امتيازات ودعم مالي كبير للمستوطنين في الجولان، لكن العدد لم يتجاوز ٨٧٠٠ مستوطن في ذلك العام، ليقين غالبية اليهود بأن حربا قد تنشب ذات يوم مع سورية، وأن تلك المرتفعات سوف تعود إلى سورية سواء بعد حرب مدمرة أو نتيجة مفاوضات تسوية. إزاء هذا الفشل الاستيطاني في الجليل والجولان، عاد التركيز الاستيطاني مجددا على القدس وما حولها بهدف تحويلها إلى عاصمة كبيرة Metropolis تمتد ما بين مدينة رام الله شمالاً وبيت لحم وغوش عيتسيون جنوباً ومتسبيه يريحو شرقا ومبسيرت تسيون غرباً، بحيث تقضم جزءاً كبيراً من مناطق قلب الضفة الغربية المحتلة، تكريسا لادعاءات دينية وقومية يهودية، وبحيث تصبح القدس قلعة معززة بثلاث حلقات

استيطانية متتاليــة (١٧). وقد جاءت موجة تصاعد هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي مع انتصــاف عقد الثمانينيــات من القرن الماضي نتيجة ضغوط الولايات المتحدة ونمو النفوذ اليهودي في الاتحاد السوفييتي- الذي بدأت بوادر انهيــاره وتفككه عمليا آنذاك- لتعزز عملية استيطان القدس بشكل خاص علــى نحو غير مسبــوق في التاريخ. إذ فاق عدد المهاجرين من الاتحــاد السوفيتي إلى فلسطــين المحتلة – يهــودا وغير يهود – في تلك الموجة الجديدة المليــون مهاجر، وكان فيهم مئات الآلاف مــن أصحاب الكفاءات العلميــة الهاربــين مــن الفوضــى والأزمة الاقتصاديــة لدى تفكك الاتحاد السوفيتي. وصف اسحق شامــير، رئيس حكومة العدو آنذاك،موجــة الهجــرة والاستيطان الكبرى تلك بمعجزة السماء العظمى!

بعد فترة أكثر من عقدين من السنين كان الجزء الأكبر من الكفاح الفلسطيني خلالها ينطلق من خــارج فلسطين، جاءت انتفاضة الحجــارة في العام ١٩٨٧ وما نجم عنها من اشتراك الشعب الفلسطيني داخل فلسطين بأكملــه في الكفاح ضــد الاحتلال فخلقت وقائع جديدة علــى الأرض، وخاصة عندما استمرت بزخم شديد متجدد لأكثر من سبع سنــوات، متحديــة القمــع الوحشي لقوات الاحتــلال. عندئذ واجه أكــثر الإسرائيليين ساعــة الحقيقة، وأدركــوا أن القضاء على الشعــب الفلسطينــي بالإبــادة الشاملة أو باستكمال الاقتلاع والتهجير الكلي أو بإدامة احتلالــه واضطهاده أمر غير وارد، وبالتالي لا بد من حــل سياسي تستثمر إسرائيل فيه ميزان القــوى الإقليمي والدولي المختل كليا لمصلحتهــا، بحيث تحصل علــى أقصى ما يمكن من مكاســب استراتيجية واقتصادية وسياسيــة، وبحيــث تفرض سريعــاً وقائع جديدة على الأرض لرفع سقف هذه المكاسب في فلسطــين وخارجهــا إلى الحد الأقصى الممكــن. وهكذا جــاءت مفاوضــات أوسلو عقب حــرب الخليج الثانيــة التي خاضتها الولايات المتحدة وثلاثــون دولة أخرى ضد العــراق، والتــي جاهر الرئيســ الأمريكي جورج بوش الأب آنذاك أنه يخوضها أساساً لحماية إسرائيل وتكريس تفوقها نهائياً على العرب مجتمعــين. نجم عن تلك المفاوضات الاتفاق المائع الملتبس غامرت قيادة منظمة التحرير الفلسطينيــة بقبوله آملة في جعله نقطة ارتــكاز لتحسين شــروط التسوية في المستقبل، بعدما بدا لها الأفق مسدوداً. لكن المفاوضــات العقيمة اللاحقــة لم تؤد سوى

إلى فرض إسرائيل شروطها أكثر في إطار هدفها الاستراتيجي: إنهاء الصراع وتطبيع العلاقات مع الدول العربية وتصفية القضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني الثابتة في مقابل فتات قليل من أرض بلا سيادة حقيقية لجزء من الفلسطينيين.

بلغ عدد المساكن التي بنيت للمستوطنين اليهود الجدد في العام ١٩٩٧ على أراض انتزعت من أصحابها العرب أكثر من أربعين ألف مسكن. بل إن فترة المفاوضات التي بلغت ذروتها في عهد حكومة ايهود باراك برعاية الرئيس الأمريكي بيل كلنتون قد شهدت أعلى معدلات بناء المستوطنات وتوسيعها في الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٦٧ التي كانت المراوغة الإسرائيلية تروج أنها على وشك أن تعاد للفلسطينيين. فقد ازداد عدد المستوطنين اليهود في العام ١٩٩٩ لوحده بنسبة ٥ر١٢٪، ووصل عددهم في تلك الأراضي إلى ١٩٣٦٨٠ مستوطناً [١٨]. لقد تسارعت عملية فرض أمر واقع عبر تكثيف الاستيطان الصهيوني في القدس وحولها بما يحقق تقطيع أوصال التجمعات السكانية الفلسطينية الكثيفة والسيطرة الإسرائيلية الدائمة على المعابر ومحاور المواصلات والمياه الجوفية والمرتفعات الجبلية في الضفة الغربية، مما يمنع وحدتها الكيانية وتواصلها المجتمعي وتطورها الاقتصادي.. وهكذا وافق كثيرون على ما رآه يزكيل لين، الباحث في منظمة بيتسليم الإسرائيلية إذ قال: «نحن نقف على أعتاب شيء ضخم، فليس من الواضح الشكل الذي سيبدو عليه الوضع النهائي للمستوطنات، لكن ضم معظم الضفة الغربية إلى إسرائيل يبدو مؤكدا»[١٩]. هذا ما أكده قرار الحكومة الإسرائيلية بناء جدار ضخم محصن يبتلع نحو ستين في المئة من أراضي الضفة الغربية بذريعة حماية التجمعات السكانية الإسرائيلية والمستوطنات من هجمات شبان الانتفاضة الفلسطينية الثانية، انتفاضة الأقصى التي انطلقت في العام ٢٠٠٠ وأثارت رعب الصهاينة بعملياتها الاستشهادية الكثيفة واستخدام صواريخ وقذائف هاون بدائية مصنعة محليا.

على الرغم من تأكيد قرار محكمة العدل الدولية في لاهاي بحسم عدم شرعية هذا الجدار المقام على أراض فلسطينية محتلة، والذي يغتصب مساحات هائلة من تلك الأراضي ويضمها إلى إسرائيل، ويضر بمصالح وحياة وحقوق ومستقبل الشعب الفلسطيني ويمنع التواصل الطبيعي بين

مدنه وقراه، وبين مئات آلاف الفلسطينيين وممتلكاتهم ومزارعهم ومواقع عملهم ومؤسسات الخدمات الصحية والتعليمية التي تخدمهم، فإن الحكومة الإسرائيلية تابعت بناء الجدار، وقررت في الذكرى السنوية الأولى لصدور قرار محكمة العدل الدولية الذي رفضته وتحدته استكمال بناء الجدار في محيط القدس بالذات وفق مخطط توسعها الجديد يوم ٢٠٠٥/٩/١. وبهذا يتم جعل مخيم شعفاط للاجئين الفلسطينيين المقام منذ العام ١٩٤٨ وقرية كفر عقب في الجهة الغربية من الجدار، فيعزلان عزلاً نهائياً عن القدس التي ارتبطت معيشة السكان كليا بها، مقدمة لسلسة من خطوات إسرائيلية ترمي إلى إخراج أكبر عدد ممكن من الأحياء الفلسطينية من المدينة، بينما يضم الجدار كافة الأحياء. بل المدن. الاستيطانية الصهيونية التي تم بناؤها في القدس الشرقية بشكل ينتهك القوانين الدولية منذ احتلالها في العام ١٩٦٧. كما يضم الجدار كل المستعمرات اليهودية المجاورة للقدس التي أقيمت على أراض قرى فلسطينية تمت مصادرتها واغتصابها، مثل جفعات زئيف ومعاليه أدوميم. قال الخبير الفلسطيني خليل التفكجي، مدير إدارة الخرائط في جمعية الدراسات العربية في القدس أن «ما يجري في القدس إنما هو مقدمة للمخطط الإسرائيلي المطروح للعام ٢٠٢٠، وهو أن تكون هناك أقلية عربية في داخل القدس، وأن يتم تطهير البلدة القديمة من الكثافة السكانية العربية.. إن إسرائيل تهدف من خلال عزل القدس عن باقي التجمعات الفلسطينية في الضفة الغربية تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية هي، أولاً: قضية الديموغرافيا التي ترى الحكومة الإسرائيلية بأنها يجب أن تحسم لصالح إسرائيل.. أما القضية الثانية فهي إقامة القدس الكبرى بالمفهوم الإسرائيلي وذلك بضم مستعمرتي جفعات زئيف ومعاليه أدوميم اللتين اصطلح على تسميتهما بالكتل الاستيطانية الكبرى. أما الهدف الثالث فهو أن يكون الفلسطينيون داخل حدود بلدية القدس الغربية أقلية تسهل السيطرة عليها من جميع النواحي» [٢٠].

لقد حاول شارون أن يجعل الانسحاب الإسرائيلي الاضطراري من قطاع غزة، والذي عرضته وتمنته عمليا كافة الحكومات الإسرائيلية السابقة للتخلص من أعباء احتلال هذا الشريط المزدحم بالفلسطينيين والملتهب بالمقاومة، غطاء لتمرير هجمة



استيطانية جديــدة في القدس وحولها وفي مواقع استراتيجية أخــرى يزمع أن يربطها بالكتل الاستيطانية الكبرى التي راح يوسعها حول القدس. ويعــرف معظم الإسرائيليين جيــدا أن هذه الهجمة تقلص إلى ما يقارب الصفر إمكانية قيــام دولة فلسطينية قابلة للحيــاة والاستمــرار. كما تعــرف الإدارة الأمريكيــة والأوســاط الأمريكيــة المهتمة بشــؤون منطقتنــا أن خطــة الطريق التي أطلقها الرئيس بوش الابن لتسوية الصراع، والتي تعكــس التحيز الأمريكــي التقليدي لإسرائيل في معظم بنودها ، لن تجد سبيلا إلى التطبيق مع توسيع الاستيطان الصهيوني في القدســ وقلب الضفــة الغربية بدلا من إنهائــه. لذلك كان مــن السذاجة أن تفسر مقالــة في صحيفة واشنطــن بوست تعقيبا على قــرار الحكومــة الإسرائيليــة توسيع مجمع معاليه أدوميم الاستيطاني بأن «رئيس وزراء إسرائيــل لم يفهم على ما يبدو أن هذا العهد الجديد من الأمل في الشرق الأوسط يحتاج منــه إلى كبح غرائــزه الاستيطانية» [٢١]، فشارون يعــرف جيدا ما الذي يفعله، ويجاهر بأنه لن يكف عن توسيع الاستيطان في القدس والضفة الغربيــة. بل إن مسحا جويا قد أثبت أنه في الشهر الأول الذي تلا توقيع الرئيس بوشــ خارطة الطريق جرى توسيــع ثلاث وسبعــين موقعــا استيطانيا صهيونيــا في الضفة الفلسطينيــة المحتلة [٢٢]. نشــير هنــا إلى أن التوســع في مجمع معاليه أدوميــم الاستيطاني الذي يضم ١٥ مستوطنة قد قــرره وأعلنه رئيس الحكومة السابق ايهــود باراك الذي صورته الولايات المتحــدة رجل ســلام، حيث قــرر في العام ١٩٩٩ مصادرة اثنــي عشرة ألف دونم من أراضي فلسطينيي البلدات والقرى المجاورة لإنجــاز هذا التوســع الاستيطاني ومده إلى مدينة القدســ. وأكد الوزيــر حاييم آرون في اجتمــاع للحكومة يوم ١٩٩٩/١١/١٧ أن لديه وثيقة من قيادة الجيش الإسرائيلي عن نشاطات جارية آنذاك لتوسيع إحدى وستين مستوطنة، في الوقت الذي تطلق تصريحات رسميــة إسرائيلية تتحدث عــن الاستجابة لطلبات الرئيــس الأمريكي كلنتون بتجميد الاستيطــان لتسهيل المفاوضــات! تذرعت المراوغــة الإسرائيلية مــراراً بــأن التوسع الاستيطاني يتــم لمواجهة «النمــو السكاني الطبيعــي في المستوطنات»، لكــن افتضاح هــذه الكذبــة كان مدوياً ومتكــرراً عندما أثبتت وثائــق رسمية أن نسبا كبيرة متفاوتة من الوحدات السكنية في معظم المستوطنات

خالية من السكان وتنتظر استجابة مهاجرين جدد لمناشــدات المنظمة الصهيونية العالمية والحكومــة الإسرائيلية والوكالــة اليهودية لهم بالهجــرة. أكد المعلق الصحفي اليميني المتطرف (الياكيــم هعتسني) هذا بقوله إن الاستيطان والتوسع فيه لا علاقة لهما بالنمو السكاني، فكثــيرا ما يــترك أناس فيلاتهم الفاخرة في المدن ليعيشوا بضعة أسابيع في كرافانات (سيارات متنقلة) تتوقف في مواقع فلسطينيــة، لتعلنها مستوطنات جديده، ثم تأتــي وزارة الإســكان أو مؤسســات أخرى لتبني مساكن ثابتة وتقيم بنية تحتية بذريعة أن تلــك مستوطنات قائمة. وكتبت صحيفة هآرتس أن «اتخــاذ النمو السكاني الطبيعي ذريعة لعدم وقف الاستيطان أكذوبة كبرى.. يجب قول الحقيقــة للجمهور.. هناك أكثر مــن عشرين ألــف شقة سكنيــة فارغة في المستوطنات حاليا، ومع ذلك يتلاحق تنفيذ برامج لا تنتهي لبنــاء المزيد بذريعة تغطية احتياجات النمو الطبيعي..»[٢٣]. وكتب ايتان هابر، المسؤول الحكومي المهم السابق مقالا قال فيــه: «المستوطنون هم العقبة، وشارون أسير مواقف مجلس رؤساء المستوطنات»[٢٤]. وقد تحــدث داني روبنشتاين في المقابل عن استمرار جيش الاحتلال الإسرائيلي في هدم آلاف البنايــات السكنيــة وتشريد أصحابها الفلسطينيين في العراء، وقتل وجرح عشرات الآلاف من الفلسطينيين[٢٥].

لقد توافق أكثر السياسيين والمحللين إلى حد بعيــد في تقييمهم لأهــداف الهجمات الاستيطانية الصهيونية المتصاعدة في القدس وحولها. فكتب د. أسعد عبد الرحمن بشأنها يقــول: «مصير عملية الســلام لن يتقرر في غزة بــل في القدس.. إن العقبــة الرئيسية وجوهر مشكلة الســلام ستبقى القدس بلا منازع. وفي الفترة الأخــيرة، قامت إسرائيل باتخاذ عدة خطوات وإجراءات داخل المدينة وحولهــا لتشديد قبضتها بعــد ضم أراض جديدة إلى داخل حدود بلديتها. ومن ضمن هذه الإجراءات توسيع الحدود البلدية لمدينة القدســ وضــم أراض جديــدة إليها، وبناء مستعمرات إضافيــة حولها، وتوسيع القائم منها. وقــد أدت هذه الإجــراءات جميعها إلى خلق مدينة أكبر بعدة مرات من مساحة المدينة التي احتلتها إسرائيل في عام ١٩٦٧. وتهــدف المستعمــرات التي بنتهــا إسرائيل خارج الحــدود البلدية الأصلية للمدينة إلى تطويق المدينة وعزل الجهــة الشرقية منها عن باقي الضفة الغربية، لخلق واقع جديد يمنــع التواصــل الجغرافي ما بــين الضفة

والقدس الشرقية، بحيث تستحيل إقامة دولة فلسطينية متواصلة جغرافيا وقابلة للحياة... حقا، لقد كان شارون في منتهى الوضوح عندما قال إن الانسحاب من غزة سيقابله ضم أراض جديدة في القدس وحولها وكذلك في الضفة.. بناء المستوطنات.. كان سياسة متفقا عليها، ولو ضمنيا، بين الحزبين الرئيسيين في إسرائيل..إلا أن ما يقوم به شارون حاليا هو اتباع سياسة أكثر تركيزا ومنهجية هدفها الأخير الخنق التدريجي للقدس الشرقية عن طريق إحاطتها بسور من المستوطنات الإسرائيلية الكبيرة وزرع بؤر استعمارية صهيونية بداخلها بهدف تجزئتها وتقسيمها. ومن المؤكد أن قرار تعديل مسار جدار الفصل العنصري الذي اتخذته الحكومة الإسرائيلية سيسهم عند الانتهاء منه في ظهور مدينة القدس الكبرى.. ويبدو أننا سنواجه بعد الانسحاب من غزة مرحلة طويلة تتميز بالصراع، لكن أيضا بالجمود السياسي».[٢٦]

من ناحية أخرى، قال تقرير صدر عن الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية إن الحكومة الإسرائيلية تسعى حالياً إلى إزاحة حدود بلدية القدس لضم مزيد من قرى مناطق الضفة الغربية، في مزج لرؤية أمنية بالرؤية السياسية الصهيونية، تحقيقا للأهداف التالية:

١- تحسين الدفاع الصهيوني عن القدس في حالة مواجهة عسكرية أو أمنية.

٢- تحقيق نظرية القدس الكبرى استهواء لليهود خارج فلسطين ليضاعفوا تبرعاتهم المالية.

٣- خنق تطور ضواحي القدس الفلسطينية (العيزرية وأبو ديس) التي كانت السلطة الفلسطينية تأمل في جعلها جزءا رئيسا من عاصمة الدولة الفلسطينية.

٤- ضم الكتل الاستيطانية الصهيونية الكبرى معاليه أدوميم وجبعات زئيف وسائر المستوطنات الواقعة خارج بلدية القدس، بحيث يؤثر ضم سكانها إلى مدينة القدس الكبرى على المعادلة السكانية لصالح اليهود، بعدما بينت الدراسات الحديثة أن الفلسطينيين يشكلون اليوم ٣٥٪ من مجموع سكان القدس بشقيها الغربي والشرقي معا.

٥-إخراج قرى عربية فلسطينية (كفر عقب، منطقة مطار القدس) من حدود بلدية القدس، وبالتالي التخلص من سكانها.

قامت الخطة الإسرائيلية على الإجراءات التالية:

١- تعزيز الجهود الأمنية والاستيطانية الإسرائيلية في أحزمة مدينة القدس الثلاث التالية:

أ- حزام قلنديا (عطورات جبع)، مستوطنتي كوخاف يعقوب وبسجوت ومجمع جبعات زئيف.

ب- حزام جبع، عناتا، بما فيه مستوطنات آدم، علمون، ومجمع معاليه أدوميم.

ج- حزام جبل أبو غنيم الذي صودرت أراضيه قبل سنوات، ومستوطنة جيلو.

٢- إنشاء لواء عسكري خاص يكون مسؤولا عن إغلاق القدس عند الحاجة.

٣- فصل مناطق فلسطينية كثيرة عن القدس ومحيطها بحواجز عسكرية للجيش،لا الشرطة.

٤- إغلاق جميع المؤسسات الفلسطينية الموجودة في القدس.

٥- إبعاد شخصيات فلسطينية قيادية وفاعلة من أبناء القدس عن المدينة.

٦- سحب البطاقات الشخصية الإسرائيلية الخاصة بسكان القدس من فلسطينيي أحياء القدس وضواحيها التي تقرر استبعادها من حدود البلدية الجديدة، أي قلنديا وبيت حنينا وكفر عقب، مع إبقائهم تحت السيطرة الإسرائيلية.

٧- اعتقال العاملين في أجهزة السلطة الفلسطينية من أبناء القدس وإبعادهم عن حدود بلديتها، وإغلاق مكاتب السلطة الفلسطينية في العيزرية وأبو ديس.

٨- تقليص نسبة سكان القدس الفلسطينيين إلى أقل من ١٢ ٪ بدل النسبة الحالية البالغة ٣٥ ٪ عن طريق إجراءات أمنية واقتصادية تضطرهم إلى الرحيل.

٩- استعجال إنجاز الأنفاق التي تشق حالياً في جبل المشارف، جبل الزيتون، لربط حزام القدس الشرقي بالقدس الغربية، تحاشيا للمرور في الأحياء العربية.

١٠- ربط المستوطنات اليهودية البعيدة عن حدود القدس بمستوطنات داخلها (آدم، نفي يعقوب).

١١- إقامة حواجز عسكرية معززة بالمدرعات في المعابر المؤدية إلى أحياء القدس المكتظة بالفلسطينيين، وخاصة الشمالية منها (شعفاط، حاجز الزعيم، المسالك المؤدية للعيزرية، أبوديس) وتحصين الحواجز الرئيسة في الرام وقلنديا بتجهيزات مراقبة إلكترونية وإسمنتية.

١٢- زيادة البؤر الاستيطانية في أحياء القدس العربية، وإنشاء ٢٠٥ وحدات سكنية

على الفور في رأس العمود لاسكان اليهود فيها، وبناء حي استيطاني يهودي جديد في جبل المكبر.

١٣- فصل كهرباء البؤر الاستيطانية اليهودية عن شركة كهرباء محافظة القدس الفلسطينية وربطها بالشبكة الإسرائيلية العامة.(٢٧).

إن الأساليب المتعددة التي يتم بها تنفيذ الهدف الاستراتيجي الإسرائيلي المتمثل بتهويد القدس وطرد معظم أهلها قد أخذت أشكالا متعددة مما يعتبرها القانون الدولي جرائم حرب في الأرض المحتلة وجرائم تهجير جماعي للسكان تحت الاحتلال. أصدر مهندس بلدية القدس الصهيوني مثلا قرارا في مطلع شهر حزيران ٢٠٠٥ قضى بهدم حي البستان في بلدة سلوان، وهي من ضواحي القدس الشرقية المتصلة بالمدينة، وتحويل هذا الحي إلى حديقة، بعد هدم مساكنه التسعين وتشريد أصحابها الفلسطينيين. الذريعة التي أوردها نص قرار الهدم هي أن تلك المساكن لم تحصل على ترخيص ببنائها من الإدارة الصهيونية لبلدية القدس، وبالتالي اعتبرها غير شرعية. لكن واقع الأمر- إضافة إلى أن القانون الدولي يعتبر تلك الإدارة الصهيونية محتلة وغير شرعية - هو أن تلك المساكن مبنية أصلا قبل الاحتلال الصهيوني للقدس القديمة وما حولها، وأن تراخيص بنائها قد صدرت من السلطة الأردنية التي كانت تدير القدس الشرقية وسائر أراضي الضفة الغربية حتى يوم ٦/٧ /١٩٦٧، وبالتالي فهي قانونية وشرعية. أدرك رئيس بلدية القدس الصهيوني لوبليانسكي أن الذريعة التي استند عليها قرار مهندس البلدية بهدم حي البستان في سلوان مهزوزة ومطعون بها بسهولة، فأضاف من عنده «شفهيا» ذريعة بالغة السخف إذ قال وفق ما نشرته الصحف الإسرائيلية أن هدم الحي هو لمصلحة سكانه وحرصا على حياتهم من الغرق فيما لو تحولت مياه الأمطار إلى سيول ذات يوم، ونسي رئيس البلدية الصهيوني أن القدس ليست واقعة في أوروبة التي ترعرع فيها، وبالتالي فإن أمطارها قليلة نسبيا ولا تتحول إلى سيول تهدم حيا بأكمله. كما أن المفترض برئيس البلدية من حيث المبدأ – لو كان أمر السيول وارداً وجدياً – هو تعزيز شبكة صرف مياه الأمطار والبنية التحتية عموما، وحتى ترميم وتقوية المهدد من جدران المنازل التسعين وأسقفها، لا هدمها وتشريد نحو ألف ساكن فلسطيني. إن هذا

الهدم واحد من آلاف الإجراءات الهادفة إلى اقتلاع غالبية باقي الفلسطينيين من القدس خاصة، ومن وطنهم فلسطين عامة، واستكمال تهجيرهم في المنافي. المفارقة هنا هي أن قرار مهندس في البلدية تشكل إدارة غير شرعية بهدم تسعين مسكنا أقامها أصحابها على ترابهم الوطني، وفوق أراض يمتلكونها شرعيا وقانونيا، ولم يغتصبوها من أحد، ولا سرقوا حق أحد أو اعتدوا عليه، قرار صار نافذاً بمجرد توقيعه من ذلك الفرد الذي يمثل احتلالاً غير شرعي بموجب القانون الدولي. أما عندما تقرر تقليص الخسائر البشرية والمادية الإسرائيلية بإخلاء المستوطنين الصهاينة من مستوطنات أقيمت بشكل غير شرعي في غزة على أراض محتلة بالقوة، وفوق ممتلكات خاصة جرت مصادرتها اغتصاباً وعدواناً من أصحابها، فقد احتاج الأمر إلى قرار من الحكومة الإسرائيلية، ثم إلى قرار برلماني من الكنيست، ثم إلى قرار قضائي قاطع من المحكمة الإسرائيلية العليا، إلى جانب تعويض ساكن كل مسكن في تلك المستوطنات الصهيونية غير الشرعية التي تقرر إخلاؤها وهدمها بمبلغ ثلاثمئة ألف دولار أمريكي، رغم أن تلك المستوطنات قد بنيت أصلا من أموال التبرعات والمساعدات الأمريكية !

تجدر الإشارة إلى تأكيدات متكررة جاءت على لسان رئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك أرئيل شارون، وعدة مسؤولين آخرين، بأن إخلاء مستوطنات غزة التي كان الإسرائيليون يتمنون الابتعاد عنها سريعاً على امتداد السنوات الأربعين الماضية لقسوة ما عانوه من مقاومة عنيفة لاحتلالهم، إنما يهدف إلى تعزيز الاستيطان في القدس وحولها. زاد في هذه القسوة شن واحد وعشرين ألفا وثمانمئة هجوم فلسطيني في قطاع غزة وحده ضد قوات ومستوطنات إسرائيلية خلال سنوات انتفاضة الأقصى، أي السنوات الخمس الأخيرة، وفقا لتقارير رسمية صادرة عن الجيش الإسرائيلي. يضاف إلى هذا أن إبقاء قطاع غزة تحت الاحتلال يفاقم الاختلال الديموغرافي للمشروع الصهيوني، حيث أن في هذا الشريط الساحلي الضيق من الأرض في الزاوية الجنوبية الغربية من فلسطين أعلى كثافة سكانية في العالم. وبالتالي فالتخلص من العدد الكبير من الفلسطينيين في غزة يعدل الميزان لصالح أكثرية يهودية في فلسطين المغتصبة التي احتلت سنة١٩٤٨، والضفة الغربية ودرتها القدس، أي ما احتل سنة ١٩٦٧.

تستهدف هجمات الاستيطان الصهيوني المتلاحقة في القدس وحولها تحقيق الحلم الدائم بتهويد القدس، سبيلا إلى تكريس تهويد فلسطين بأكملها، على أمل حسم الصراع الذي بدأ مع بداية الغزو الاستيطاني الاستعماري العنصري الاقتلاعي التوسعي لفلسطين.

تكمن المشكلة الرئيسة لقادة المشروع الصهيوني وسدنته في استعصاء حقائق الصراع على إدراكهم، إذ إن ما نجح فيه مشروع استيطان شمال أمريكا عندما قام على جثث الأمم التي عاشت لآلاف السنين على تلك الأرض، إلى أن أبادها المستوطنون الأوربيون متذرعين برسالة سماوية ورسالة حضارية وتفوق فطري للإنسان الأبيض يبيح له قتل الآخرين للاستيلاء على أرضهم، لن ينجح استنساخه الصهيوني في فلسطين التي لا يزال شعبها يقاوم هذا الغزو دون كلل لأكثر من قرن، مثلما قاوم غزوات عديدة على امتداد التاريخ ودحرها مدعوما بأمته. إن ظروف العالم قد اختلفت اليوم عنها قبل أربعة قرون. وفوق كل هذا، فإن نتيجة الصراع على فلسطين محكومة بوعد الهي قاطع أوضح مسار ومآل الصراع على المسجد الأقصى الذي بارك الله ما حوله، أي القدس وأرض فلسطين كلها، بل وما وراءها أيضا. ذلك هو قول الله عز وجل:

«وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً(٤) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً(٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً(٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً(٧)» (الإسراء: ٤-٧).

الهوامش:

١- **نصر شمالي، العودة إلى تقرير كامبل بنرمان، حوار، دمشق، ٢٠٠٣/٣/٤، ص ٢٤.**

٢- **ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ترجمة أحمد عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٥ ص ٢١٨.**

٣- **د. خير الدين عبد الرحمن، القوى الفاعلة في القرن الحادي والعشرين، دار الجليل بدمشق ودار**

إشراق بعمان، ١٩٩٦، ص ٢٩٨-٢٩٩.

٤- المصدر السابق، ص ٣٠٠.

٥- د. منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية، دار رياض الريس، بيروت، ٢٠٠٢.

٦- غزو أمريكا - مسألة الآخر، تزفيتان تودوروف، ترجمة عبد الكريم حسن وسميرة بن عبو، مجلة «الوحدة»، العدد ٩٦، الرباط، سبتمبر ١٩٩٢، ص ١٣٠.

٧- د. خير الدين عبد الرحمن، مستقبل الحروب الصليبية، قيد النشر.

٨- الاتحاد، أبو ظبي، ٥/١١/ ٢٠٠٠، ص١٥.

٩- Newsweek، ١٩٨٥، ١١، ٣٠.

١٠-د. رشاد الشامي، القوى الدينية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، الإصدار ١٨٦، حزيران ١٩٩٤، ص٥٤.

١١-أمنون روبنشتاين، من هرتسل إلى جوش ايمونيم ذهابا وعودة، دار نشر شوكن، تل أبيب،١٩٨٠، ص٢٠ -٢١، في: المصدر السابق، ص ١٩-٢٠.

١٢-مجلة كول هازمان الإسرائيلية،٢٦/ ٥/ ٢٠٠١.

١٣-Herald Tribune، ١٩٨٧، ٣، ١٠

١٤-رشاد الشامي، القوى الدينية، م.س.ذ، ص ٩٥.

١٥-د.خير الدين عبد الرحمن، مستقبل الحروب الصليبية، م.س.ذ.

١٦-(د. أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو، الغزو الصهيوني وحلقات الصراع السياسي الإجلائي الديموغرافي في فلسطين ١٨٨٢ - ١٩٩٠، الحلقة السادسة، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠/٥/١٩٩٠).

١٧-علاء سالم، هجرة يهود الاتحاد السوفييتي وديموغرافية الاستيطان في فلسطين، مجلة شؤون فلسطينية، مركز الأبحاث الفلسطيني، نيقوسيا، العدد ٢١٥-٢١٦، شباط- آذار ١٩٩١، ص ٧٣.

١٨-هآرتس، ٢١/٢/٢٠٠٢.

١٩-الاتحاد، أبو ظبي،١/٧/٢٠٠٢، ص ٢٩.

٢٠- د. أسعد عبد الرحمن، شارون: خطاب السلام المراوغ..، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٩/٧/٢٠٠٥، ص ٢١.

٢١-The Washington Post، ٢٠٠٥، ٣، ٢٣

٢٢-د.عادل الصفتي، خرق الاتفاقيات الهشة، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٣/٦/٢٠٠٥.

٢٣-هآرتس، ١٥/٥/٢٠٠١.

٢٤-يديعوت أحرونوت، ٢٠٠١/٥/١٣.

٢٥-هآرتس١٤/٥/٢٠٠١.

٢٦-أسعد عبد الرحمن، القدس: برميل بارود يهدد بتفجير عملية السلام، الاتحاد، أبو ظبي ٢٠٠٥/٨/١٩، ص ٢١.

٢٧-حسين شويخ، جدار الفصل..، حوار، ملحق صحيفة البعث، دمشق،٢٠٠٥/٣/١.



الدراسات والبحوث

القدس وكتاب العهد القديم

د. أحمد أرحيم هبو*

كتاب العهد القديم هو كتاب اليهود المقدس في المقام الأول، وهو أحد قسمي الكتاب المقدس الذي يمثل قسمه الثاني كتاب العهد الجديد المعروف بالأناجيل الأربعة. ويتألف كتاب العهد القديم من ثلاثة أقسام هي: التوراة، والأنبياء، والمكتوبات.

وينقسم كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة إلى إصحاحات، ويسمي اليهود هذه الأقسام نسبة إلى الحروف الأولى (تنخ) اختصاراً، فالتاء (توراة)

* كاتب وباحث في التراث القديم - جامعة حلب.



أي «الشريعة والقانــون» الذي أتاهم موسى عليه السلام به بحســب اعتقادهم، والنون أول حروف(نبيئيم) أي «أنبياء»، وهم أنبياء اليهــود الكثر، والخاء هي في الكتابة (كاف) لكنها تلفظ خــاء بحسب قواعد لفظ اللغة العبريــة، وتعني اختصــاراً (كْتوبيم) بمعنى النصوص المكتوبة مــن تاريخ وشعر وأمثال وحكم وتاريخ. أما التوراة فتتألف من خمسة أسفار، والسِفْر، كما في العربية يعني الكتاب، والأسفار الخمسة هي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية. وينســب اليهود التــوراة إلى النبي موســى عليه السلام، ولذلــك تدعى أسفار موسى الخمسة، كمــا يقال لها في اليونانية (بنتاتوك) Pentateuch، مع أن مضمونها يشير في بعض مواطنه إلى أنه ليس واضعها. و تتضمن أسفار التوراة أحداثاً تاريخية مر بها العبرانيون - كما كان أبناء إبراهيم عليه السلام من ابنه اسحــق يُدْعَون- ثم صاروا يدعــون إسرائيليــين (بني إسرائيــل) نسبة إلى إسرائيــل الذي هو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم نفسه. وبنــو إسرائيل هم الأسباط الاثنا عشــر، أي القبائــل الإسرائيلية التي غــزت فلسطين واتخذتها موطنــاً لها، كما تروي أسفــار العهد القديم، ولاسيما أسفار التوراة وأسفار الأنبياء.

وتتحــدث أسفــار الأنبيــاء ومنها سفر يشوع، وسفر القضاة، وسفرا صموئيل، وسفر الملوك الأول والملوك الثــاني عن تاريخ بني إسرائيل بعد وفاة موسى، وقيام يشوع قائداً لهم من بعده، وعن تاريخهم في عهد القضاة (شيوخ القبائل) الذيــن حكموا الشعب بعد وفاة يشوع، وعن ملكية شاؤول الذي كان أول ملــك حكم على بني إسرائيل، ثم عن وصول الملك داوود إلى الحكم الذي استغرق حكمه بحسب رأيهم أربعين سنة، ثم ابنه سليمان من بعده الذي حكم أيضاً أربعين سنة، ثم ينتقل الحديث في سفر الملــوك الثاني إلى انقسام الدولــة إلى مملكتــين: واحــدة في الجنوب وعاصمتهــا أورشليــم، ويتكــون شعبها من سبطي يهوذا وبنيامين، وشمالية وعاصمتها السامرة (عند نابلــس اليوم)، وشعبها بقية الأسبــاط. كما يجري الحديث عن الحروب بين الدولتين، وحروبهما مع الآراميين الذين أسسوا ممالك لهــم في سورية، وفي البقاع، ودمشق وحمــاة وغيرها، وصاروا يضغطون على بني إسرائيــل، وأخضعوهم لنفوذهم، كمــا عاد المصريــون للتدخــل في شؤونهم، وعند ظهور الآشوريين الذين سادوا مناطق

الشــرق الأدنى القديم، وفرضــوا سيادتهم عليهم، وضايقوا الإسرائيليين، وقضوا على مملكة الشمال، ثــم حاول ملكهم سنحاريب الاستيلاء على أورشليم، ثم تراجع عنها. ثم ينتقل الحديث أخــيراً إلى سيادة الكلدانيين (الدولــة البابليــة الجديــدة) الذين دمروا هيكل سليمان بقيــادة ملكهم «نبوخذ نصر الثــاني»، وسبوا الشعب اليهــودي إلى بابل. ويتوقف الحديث في هذه الأسفار عند هذه الحادثة المأساوية عند اليهود الذين صاروا يدعون بهذه التسمية نسبة إلى دولة يهودا.

أمــا أسفــار المكتوبات فيُعنــى بعضها ولاسيمــا سفــر أخبار الأيــام الأول، وسفر أخبار الأيام الثاني برواية تاريخ الإسرائيليين منــذ الخليقــة حتى عهــد قورشــ، ملك الفرســ، الذي سمــح لليهود بالعــودة إلى فلسطين لإعادة بناء هيــكل سليمان ويعنى كذلك خاصــة باستيطانهــم فلسطين التي تسميها أسفار العهد القديم «أرض كنعان». ويــرى المختصون بالدراســات التوراتية أن الإسرائيليين غزوا «أرضــ كنعان» في نهاية العهــد البرونزي وبدايــة العصر الحديدي، أي في نهايــة القــرن الثالث عشــر وبداية القرن الثاني عشر قبــل الميلاد، وهو تاريخ يقدّرونــه من دون أن تكــون هناك قرينة أو حجــة تاريخية موثقــة تؤكد هــذا التاريخ الافتراضي.

وإذا عدنــا إلى المصــادر التاريخيــة الأساسية التي ترفدنا بالمعلومات الصحيحة عن هذه الفــترة التاريخية وعن الفترة التي سبقتها، فإننا نجدها عزيزة، قليلة، وتتمثل في ما يعــرف باسم رسائل تل العمارنة التي عثر عليهــا مكتوبة باللغــة البابلية والخط المسماري ويعود تاريخهــا إلى القرن الرابع عشر قبل الميــلاد في صعيد مصر، وتعطينا معلومــات عن أوضاع فلسطــين المضطربة وضعف نفوذ الفراعنة فيها. والمصدر الآخر هــو النصوص التي عثر عليها علماء الآثار في ختّوشا (بوغازكوي اليوم في تركية) التي كانت عاصمة الحثيين، وهي منقوشة باللغة الحثية، وباللغة الأكدية. أما المصدر الثالث فيتمثــل في أخبار فراعنة الأســرة التاسعة عشــرة سيتــي الأول (١٣٠٨- ١٢٩٠ق.م) وابنه رعمسيســ الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) عن حملاتهما المتكــررة على سورية لإعادة النفوذ المصــري إليها، ثم حفيــده مرنبتاح (١٢٢٤- ١٢١٤ق.م).

ثم تكف المصادر المصرية عن الحديث عن فلسطين وإيراد ذكرها - كما كان الحال من قبل- وذكــر مدنها، ولاسيمــا أورشليم

حقبة من الزمن إلا لماماً، وذلك لأن مصر دخلت بعد رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ق.م)، آخر ملوك الفراعنة المشهورين، والذي ذاد عن مصر ونأى بها عن خطر شعوب البحر القادمين من جهات بحر إيجة الذين دمروا المناطق القريبة من سواحل البحر المتوسط الشرقية بكاملها، وقضوا على دولة الحثيين التي كانت تنافس مصر في الشرق وتقف أمامها وتهدد سيطرتها على سورية، ووصلوا إلى مصر حوالي عام ١١٧٥ق.م عن طريق البر، وعن طريق البحر. ومن بين الجماعات المقاتلة قوم يدعون باسم «الفلسط» (في العبرية فلسط)، وهم الذين استقروا بعد هزيمتهم على يد رعمسيس الثالث على الساحل الشمالي لفلسطين التي يعود اسمها «فلسطين» إليهم، وهم الفلسطينيون الذين وقفوا للقبائل الإسرائيلية بالمرصاد عند دخولهم «أرض كنعان» وجعلوها رهن سيطرتهم، ومارسوا ضغطاً كبيراً عليهم، وحاربوهم، كما تذكر أسفار العهد القديم، حتى في عهد ملك بني إسرائيل الأول شاؤول الذي اضطر إلى طلب مساعدة الفتى الراعي داوود المقاتل البارع لردع الفلسطينيين وإيقاف تهديداتهم المتواصلة بعد انتصاره الأسطوري على بطل الفلسطينيين المسمى «جوليات»[1].

إذاً لم تعد المصادر المصرية تذكر فلسطين بإسهاب كما كانت من قبل لأن مصر دخلت في حقبة من الضعف بعد عهد رعمسيس الثالث والأسرة العشرين، لم تعد بعده إلى سابق قوتها، فانكفأت على نفسها، واضطربت أحوالها الداخلية الإدارية والمعاشية، وترددت سمعتها الخارجية طوال عهود الأسر الحاكمة التالية التي انقسمت في أثنائها إلى دولتين شمالية وجنوبية، بل ووصلت إلى الحكم أسرة حاكمة ليبية الأصل (الأسرة ٢٢)، اشتهر منهم مؤسس الأسرة «شيشنق» الذي حاول أن يعيد لمصر نفوذها في سورية، فوصل أورشليم حوالي عام (٩٣٠ق.م) فدمرها في عهد ملكها « رحبعام «- كما يذكر سفر الملوك الأول[2]- و غنم كنوز داوود وسليمان. ثم خلف الأسر الليبية الأصل أسرة نوبية أيضاً. هي الأسرة ٢٥، وعاصرت الأسرة ٢٤ في الشمال، واشتهر من أفرادها الملك «شاباكا» الذي وحد البلاد، وأخوه «شبتكا» الذي عاصر الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٥- ٦٨١ق.م) وسعى إلى مساعدة ملك يهوذا «حزقيا» على الآشوريين الذين حاصروا أورشليم، وأرسل

أخاه «طاهرقا» الـذي خلفه في حكم مصر مـن بعد. و لكن الآشوريين هزموا المصريين واليهـود معـاً فدفـع ملك يهـوذا الجزية مضاعفـة للآشوريـين وأهـداه معها بناته وحظايـاه وموسيقييه، كما تذكـر المصادر الآشورية[٣].

أما كتـاب العهد القديم فيذكر رواية أخرى كذلك: «ولما رأى حزقيا أن سنحاريب قـد أتى علـى محاربة أورشليـم تشاور هو ورؤسـاؤه وجبابرتـه.. بعـد هـذا أرسـل سنحاريـب ملك آشور ووجهـه وعبيده إلى أورشليـم.. إلى حزقيا ملـك يهوذا وإلى كل يهوذا الذين في أورشليم يقولون: هكذا يقول سنحاريب.. على مـاذا تتكلون في الحصار في أورشليـم.. أليس حزقيـا هو الذي أزال مرتفعاتـه ومذابحـه (مذابح الـرب) وكلم يهوذا وأورشليم.. أمـا تعلمون ما فعلته أنا وآبائي بجميع شعوب الأراضي. فهل قدرت آلهة أمم الأراضي أن تنقذ أرضها من يدي.. والآن لا يخدعنكم حزقيا ولا يغوينكم هكذا ولا تصدقـوه. لأنه لم يقدر إله أمة أو مملكة أن ينقذ شعبه من يديّ ويد آبائي.. وصرخوا (أي عبيد سنحاريب) بصوت عظيم باليهودي (أي باللسـان العـبري) إلى شعـب أورشليم الذين على السور (سور أورشليم) لتخويفهم وترويعهـم.. وتكلمـوا على إلـه أورشليم.. فصلـى حزقيا الملك وإشعيـاء النبي لذلك وصرخـا إلى السماء، فأرسـل الرب ملاكاً فأبـاد كل جبار بأس ورئيس وقائد في محلة ملـك آشور. فرجـع (أي سنحاريب) بخزي الوجـه إلى أرضه. ولما دخـل بيت إلهه قتله هناك بالسيف الذيـن خرجوا من أحشائه. وخلصـ الرب حزقيا وسـكان أورشليم من سنحاريب ملك آشور»[٤].

ولكن سفـر الملوك الثـاني يذكر: «وفي السنـة الرابعة عشرة للملـك حزقيا صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور إلى لخيش يقول قد أخطأت. ارجع عني ومهما جعلت علي حملته. فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضـة وثلاثين وزنة من الذهب. فدفـع حزقيـا جميع الفضـة الموجودة في بيت الرب وفي خزائـن بيت الملك. في ذلك الزمان قشر حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه لملـك آشور. وأرسل ملك آشـور.. إلى ملك حزقيـا بجيش عظيم إلى أورشليم»[٥].

كتاب العهد القديم مصدر تاريخي ؟

يلاحظ قارئ كتاب العهد القديم أنه كتاب وضعه أكثر من مؤلف، وكل واحد ينتمي إلى مدرسة تتميز عن الأخرى، أي مصدر له خصوصيته. وقد ميَّز الباحثون ولاسيما في التوراة أربعة مصادر هي: «اليهوية» نسبة إلى اسم الإله «يهوه» التي تستخدم هذا الاسم، وهو اسم علم لله عندهم، ويقدر الباحثون تاريخ هذا المصدر ما بين٩٥٠ - ٨٥٠ ق.م. والمدرسة التي تستخدم عبارة «إلوهيم» علماً على الله ويمكن اشتقاقه وفهم معناه من العبرية (الكنعانية) ومعناه «آلهة» اسم جمع من حيث الصيغة، ويؤوَّل بأنه لفظ الجلالة أي«الرب، الإله»، ويبدو أن القبائل الإسرائيلية (الأسباط) العشرة التي استقرت في شمالي فلسطين هي التي اختارت استخدام هذه التسمية دون القبيلتين «السبطيتين» الباقيتين يهوذا وبنيامين، ويقدر الدارسون أن تاريخ هذا المصدر للتوراة يعود إلى ما قبل عام ٧٢٢ ق.م، وهو العام الذي يقال إنه سقطت فيه السامرة بيد الآشوريين ولم تقم لها بعد ذلك قائمة.

ويعتقد الباحثون أن هاتين المدرستين أو المصدرين قد يكونان أقدم من المصادر الأخرى - كما نوهنا - وهما يتفقان من حيث الموضوع في كثير من المسائل ويتصفان بأسلوبهما القصصي. وربما خلط اليهود بينهما من بعد، كما يتضح من الآيات التي تذكر الاسمين معاً، يهوه إلوهيم. والمدرسة الثالثة هي التي عنيت بالتشريع اليهودي، ويتجلى اتجاهها في السفر الأخير للتوراة، سفر التثنية، الذي تنسب إليه المدرسة، ويعتقد أنه أضيف إلى أسفار موسى الخمسة في زمن لاحق، ربما في الربع الأخير من القرن السابع قبل الميلاد فصار جزءاً من كتاب التوراة. ويرمز الباحثون التوراتيون لهذه المدرسة بالحرف اللاتيني D[٦] الذي يختصر اسم السفر باللاتينية Deuteromoium، أي «القانون الثاني» أما المدرسة الرابعة فهي التي تمثلها حواشي الكهنة وتفسيراتهم، ويرمز الباحثون التوراتيون لها بالحرفP، وهم يعيدون تاريخ ظهورها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد أضيفت إلى التوراة في عهدي عزرا و نحميا، أي إلى الزمن الذي تلا عودة اليهود من السبي البابلي، ويبدو فيها تأثير الأفكار الدينية البابلية، ولا سيما ما يتصل بقصة الخلق(التكوين)، وقصة الطوفان[٧].

ويعود تاريخ تدوين هذه الأسفار جميعها بعد تركيبها وصوغها في عهد الكاهن الأكبر عزرا الذي ينسب إليه شكل أسفار موسى الخمسة بالصيغة التي نعرفها إلى حوالي عام (٤٠٠) ق.م أو إلى القرن الرابع على أبعد تقدير.

إن تنوع المصادر والتوجهات التي تمثلها المدارس الأربع التي ميّزها الدارسون التوراتيون جعل النص التوراتي مضطرباً من حيث وحدة الموضوع، إذ إن لكل طرف وجهة ورؤيا مختلفة، وإن اتفقت المدرستان الأولى (اليهوية) والثانية (الإلوهيمية) على الموضوع من حيث الجوهر، ولكن كل واحدة منهما كان لها أسلوب خاص، ولاسيما في سرد الأحداث، فيظهر الاختلاف في التفاصيل. ومثال ذلك كثير قد أشار إليه الدارسون، ومنه الآية الأولى من الإصحاح الأول التي تذكر «في البدء خلق الله السموات والأرض». ثم يرد في الآية الثالثة «وقال الله ليكن نور فكان نور».. «وفصل الله بين النور و الظلمة، ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً..» (الآيتان ٤-٥) وهذا في اليوم الأول للخلق، ولكن النص لا يذكر مصدر النور الذي يجب أن يكون الشمس والقمر، فالشمس والقمر بحسب النص سيكون دورهما في الخلق في اليوم الرابع وليس في اليوم الأول كما رأينا، وكذلك خلق الإنسان، إذ نرى أن الإنسان (آدم) باقتضاب قد خلق في اليوم السادس، وهو اليوم الأخير، وهذا منطقي، ولكن الآية (٢٧) تنص على أن الله خلقه «ذكراً وأنثى». بينما يرد في الإصحاح الثاني (الآية٧): «وجبل الرب الإله (يهوه إلوهيم) تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية». ثم بعد ذلك بزمن «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم» (الآيتان ٢٢-٢٣ من الإصحاح الثاني نفسه). ففي الرواية الأولى نجد الإنسان يخلق ذكراً وأنثى مباشرة، بينما نجد في الرواية الثانية أن الله خلق الرجل أولاً لوحده، ثم خلق حواء بعد زمن ليس بقصير عن طريق أخذ ضلع من ضلوع الرجل وتكوينها بعد ذلك، وذلك لأن الله رأى أنه ليس «جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له معيناً نظيره..» (الآية١٨ من الإصحاح الثاني).

ونرى مثل هذا الاضطراب النصي، وتعدد الرواية في قصة الطوفان، حيث يطلب الإله «يهوه» من نوح أن يأخذ معه «من كل حي..

اثنــين من كلٍ تدخــل إلى الفلك لاستبقائها معك.تكــون ذكــراً وأنثــى» (الإصحاح ١٩، ٦). والمقصــود بذلــك - كمــا يتضــح من النصــ - أن يأخــذ نوح معــه زوجاً من كل نوع من الحيوانات، الواحد ذكر والثاني أنثى ليستمر الجنس أو النوع في البقاء على وجه الأرض. لكننا نقرأ بعــد ذلك في الإصحاح نفسه حديثاً آخــر يتصل بعدد الحيوانات. ففي الآيتين (٢-٣) مــن الإصحاح(٧) يرد: «مــن جميــع البهائم الطاهــرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثــى. ومن البهائم التي ليســت بطاهرة اثنــين ذكــراً وأنثى . ومن طيــور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى لاستبقاء نسل على وجــه كل الأرض». إذن المطلوب زوج من الحيوانات، ثم يتغير العدد فيصبح سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة وزوجاً واحداً من الحيوانات غير الطاهرة. كما يلاحظ أن عدد أيام الطوفان غير موحد في النص، حيث نقرأ في الإصحاح نفسه(٧) الآية (١٧): «كان الطوفان أربعين يوماً على وجــه الأرض». ثم بعد ذلــك في (الإصحاح نفســه٧ الآيــة٣٤): «وتعاظمــت المياه على الأرض مئة وخمسين يومــاً. وهذا يعني أن عدد أيــام الطوفان ليس محدداً، فلا نعرف ما هو العدد الحقيقي».

هذه الأمثلة من سفر التكوين الذي ينسب -كما ذكرنا- إلى النبي موسى (عليه السلام) تؤكد اضطراب النص التوراتي وتعدد روايته بما لا يقبل الشك، بــل يفقد النص عنصر الترابط الضروري لفهــم واستيعاب الرواية والحــدث الذي هو شــرط لا غنى عنه، ولا سيما في موضوعات بأهمية النص التوراتي الــذي يمثل الكتــاب المقدس عنــد اليهود، ويرقى لأن يكون بمثابة القرآن الكريم عند المسلمين والإنجيل عند المسيحيين.

ويضــاف إلى مــا سلف ذكــره أن هذا الاضطراب في النصــ وتعدد الرواية يؤدي إلى تكــرار الموضوع والألفــاظ، بحيث تبدو الجمــل في النص والأفــكار المكررة سقيمة وتبعث علــى السأم والضجــر. وهذه صفة تلازم سفــر التكوين بخاصة في إصحاحاته وآياته كافة، وأحياناً في الآية نفسها، ومثال ذلك: (سفــر التكويــن١١، ١): «وقال الإله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبذر بذراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه..فأخرجت الأرض عشبــاً وبقلاً بــزراً كجنسه وشجــراً يعمي ثمراً..كجنســه». وفي (١،١٦):» فعمــل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكــم الليل والنجوم. الآية

(١٨): «(وجعلهـا الله).. لتحكم على النهار والليل».

الآية (٢٤): «وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية لجنسها. بهائم ودبابات.. كأجناسها..» الآية (٢٥): «فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها..»

الإصحاح الثاني، الآية (٢): «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل..» الآية (٣): «..وبارك الله اليوم السابع وقدسه. لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل..» ويبدو التكرار للأفكار والألفاظ في هذه الأمثلة وغيرها مما لا مجال لسرد ه هنا أمراً مألوفاً في أسلوب النص التوراتي حتى صار صفة ملازمة له.

وثمة أمر لافت يتصل بنسبة التوراة إلى النبي موسى (عليه السلام)، وهو لأنه أمر يستحيل الإقرار به وتمريره، وذلك لأنه ما من كاتب يذكر في نص كتابته أنه مات ودفن. ففي سفر التثنية الذي يمثل السفر الأخير من حيث ترتيب أسفار التوراة نعلم أن موسى قد وصل إلى نهاية الرحلة وأنه سينطق آخر كلماته إلى بني إسرائيل ويدعو لهم، (الإصحاح ١، ٣٣): «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته»، ثم يذكر كل سبط باسمه، ومن ثم في الإصحاح التالي (١، ٣٤) نقرأ: «وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نَبُو إلى رأس الفِسْجَة الذي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان..»

الآية (٤): «وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم واسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر». الآية (٥): «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب.» الآية (٦): «ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فَغُورَ ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم». الآية (٧): «وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات». ويبدو لنا بوضوح من قراءة ما سبق، ومن متن النص التوراتي نفسه أن موسى لا يمكن أن يكون كتب هذا السفر وما سبقه، إذ لا يعقل أن يحدد الإنسان زمن موته وبصيغة الماضي، ولا عمره والسنوات التي عاشها، ثم مكان القبر الذي لا يعلمه أحد حتى اليوم، ولا يستطيع أحد أن يفهم معنى «حتى هذا اليوم».

إن هذه الأمثلة التي سقناها وغيرها كثير مما لا يعد ولا يحصى والتي يقع عليها المرء تدلل على أمر واحد هو أن كتاب التوراة

بخاصة، وكل أسفار كتاب العهد القديم، لا تحمل أية مصداقية، أي ليس بمقدور المرء أن ينظر إليها نظرة الواثق والباحث في مصدر أو مرجع يركن إليه في المعلومات التي يبحث عنها في أية مسألة تاريخية، قل شأنها أو عظم. فهو كتاب تعدد كتبته ومؤلفوه، وحتى زمن تأليفه لا يمكن لأحد أن يحدده. وكذلك عندما تُنسب أسفار التوراة الخمسة إلى النبي موسى لا يستطيع أحد أن يؤكد هذه الشخصية. فهو شخصية غير تاريخية، ولم يرد في أية وثيقة تاريخية لا في مصر، حيث ولد وكبر وتلقى الدعوة من الله لهداية بني إسرائيل المضطهدين، كما تصف التوراة، ولا في أية وثيقة تاريخية عُثر عليها في البلاد المجاورة لمصر، في سورية مثلاً أو ما يجاورها أيضاً ذات صلة بمصر. حتى اسمه، أي موسى، لا تفسير له في اللغات المعروفة بالسامية، فهو يجب أن يكون من العبريين، بني إسرائيل، وهؤلاء ساميون بحسب الاصطلاح، ويتكلمون لغة كنعانية وهي اللغة العبرية، وهي إحدى اللغات السامية. كما هو معلوم. إننا لا نجد اشتقاقاً للاسم موسى في اللغة العبرية نفسها ولا في إحدى اللغات السامية. وهذا ما أشار إليه عدد من الباحثين الغربيين الذين تعمقوا بدراستهم عن كتاب العهد القديم، ولاسيما التوراة. ويعتقد بعضهم أن للاسم «موسى» علاقة باللغة المصرية القديمة التي فيها ما يشير إلى علاقة الاسم بالماء، أو «الطفل المُنْتَشل من الماء»؟[8] استناداً إلى الإصحاح (٢) الآية (١٠) من سفر الخروج حيث يرد في صدد الحديث عن قصة موسى الطفل على لسان ابنة فرعون أنها سمته «موسى (مُوشِه) لأنني من الماء انتشلته». وتثير لفظة «انتشلته» في العبرية، كما فسرها التوراتيون هنا مشكلة إذ أنها اللفظة الوحيدة في العبرية التي تدل على معنى «انتشل»، ولا تتكرر في موضع آخر من كتاب العهد القديم، وكأنها فُصِّلت تفصيلاً على الاسم موسى. ولدى المقارنة مع اللغة العربية نجد أن مادة «مسا» تعني بالفعل «إدخال اليد في رحم الناقة (أو الفرس) لاستخراج الماء منه إذا سطوت عليها فنُقِّيت الرحم كراهةَ أن تحمل، وكل استلال مَسْيٌ.[9] وهذا معنى مطابق صوتاً ومعنى للفعل العبري اليتيم - كما نوهنا- وهو فعل « مشا».

ولكن سيغموند فرويد، الباحث اليهودي والطبيب النفساني الشهير، الذي تطرق إلى اسم وشخصية موسى يرى أن موسى كان مصرياً لأسباب منها: أن اسم موسى لم يرد

في أسمــاء الساميين جميعاً مــن قبل، وأن اشتقاق الاسم موسى- كما بيّنا- من العبرية فيه تكلف، إضافة إلى أن صيغة «موسى» من الناحية الصرفية تعني اسم فاعل «المُنْتَشِل» أي «المُنْقِــذ» وليس «المُنْتَشَــل» أو الذي يتم انتشالــه ويُنْقَذ (من الماء). ثــم لماذا تدعوه ابنة فرعــون التي ربته في قصر أبيها، وهي مصريــة ولا تعــرف العبريــة، باسم عبري، وأبوها يعتبر العبريين (الإسرائيليين) أعداءه ويأمر بقتل كل مواليدهم وأطفالهم.

ومــن هنا فــإن فرويد يشــك باشتقاق الاسم موســى من اللغة العبريــة، ويرى أن اللغة المصرية تعــرف اللفظة «مُس» بمعنى «الطفل، الغــلام، الابن» وهي عبارة يشتمل عليها اسم «تحوتمس» أي ابن (الإله) تحوت، و«رعمسيس»، أي «ابن (الإله) رع. كما يرى فرويــد وغيره من المشككــين بدعوة موسى إلى التوحيــد أن هذا إنمــا استوحى دعوته من فكر الملك المصــري أخناتون (أمنحوتب الرابع، أمينوفيس الرابع ١٣٦٤-١٣٤٧ق.م) الذي سبقــه بالدعوة إلى وحدانية الإله، ولم يوفّق إلى نشــر فكرته ـــ كما كان يريدـــ فجاء موسى من بعده لنشر الفكر التوحيدي بين المصريين، فخاف فرعون مصر آنئذ من تلك الدعوة التي رفضها المصريون، وحارب كهنتهــم صاحبها، وعرقلــوا نشرها، إلى أن مات أخناتون، وانقلب الجميع عليها وعادوا إلى عبادة آمون والآلهة الآخرين، ولذلك قرر الفرعون اجتثاث فكرة التوحيد من أصلها، والقضاء على كل مــن يُشَكّ في تبنيه فكرة التوحيد والترويج لهــا، وإن كانت التوراة لا تشير إلى ذلك، بل تذكر خشية الفرعون من بنــي إسرائيل الذين كانوا يتكاثرون أكثر من المصريين، أصحاب البــلاد أنفسهم، وغدوا يشكلون خطراً على البلاد، ويُخشى بأسهم.

كما يرى فرويد أن قوم موسى كان أكثرهم من الطارئين على مصر من الساميين البدو من عبريــين وأدوميين وبابليــين وكنعانيين وغيرهم، ومن غــير الساميين النازحين من جنــوب مصر ووادي النيــل، ومن الصحراء الغربية ومن بحر إيجة والبحر المتوسط فهم أخــلاط من البشر ممــن لا تربطهم بمصر صلــة[١٠]، ويذكــر أنهم من أبنــاء إسرائيل وحدهــم، ويدلل على ذلــك ما تشتمل عليه التوراة من القصص والشرائع التي اقتبسها كَتَبَتَهــا مــن الأمم الأخــرى، ولا سيما من البابليين الذين عاشوا أسرى بين ظهرانيهم عندمــا سباهم نبوخذ نصــر الثاني(٦٠٥-٥٦٢ق.م)، سرجــون الثــاني قبلــه (٧٢١-٧٠٥ق.م).

ومن المعروف أن تدوين التوراة لم يتم قبل الكاهن عزرا وعودته من السبي البابلي مع وجهاء اليهود في عهد أرتاكسريس (أرتحشتا في التوراة) بعد دفعتين من العائدين اليهود بترخيص من الملك الفارسي (الاخميني) قورش الثاني لأول مرة بعد دخوله مدينة بابل عام ٥٣٩ق.م بمدة ليست بالطويلة، ولا سيما في عهد خليفة الملك الفارسي داريوس (٥٢٢-، ٤٨٦ق.م) الذي اكتمل في عهده بناء هيكل سليمان من جديد حوالي عام ٥١٦ ق.م وعزرا الكاهن هو الذي ثبت نص كتاب التوراة، أي أسفار موسى الخمسة، والتوراة تعني - كما ذكرنا من قبل- «الشريعة، والقانون «أي شريعة موسى وذلك بعد أن تمّ تركيبها وتأليفها، ووافق الشعب على صيغتها بعد قراءتها عليه، أي على الشعب(بني إسرائيل) في أورشليم[١١]. في احتفال عظيم، وذلك حوالي عام (٤٠٠ق. م) ومن المؤكد أن نص التوراة الذي وافق الشعب عليه لقي بعد ذلك على يد الكهنة تغييراً وتعديلاً، ولاسيما ما يتصل بالأحداث التي يُزّعم أنها تاريخية، وكذلك ما يتعلق «بالعادات والتقاليد القديمة وأعطوها مفاهيم ومعاني تتناسب مع متطلبات نظام الإدارة التيوقراطي»[١٢].

ونخلص مما ذكرنا عن نص كتاب التوراة، من نقد وتنويه نتيجة لدراسات وأبحاث توراتية متعمقة نجدها في كثير من المؤلفات ذات الاهتمام بكتاب العهد القديم، نخلص إلى أن هذا الكتاب لا يمكن الاعتماد عليه في كتابة تاريخ جدي لبني إسرائيل، فلا وثائق تاريخية محلية أو خارجية تشير من قريب أو بعيد إلى ذلك التاريخ التوراتي القديم، ولاسيما الذي يقع قبل تدخل الأشوريين في عصر دولتهم الحديثة في أحداث المنطقة، وتطرق ملوكهم إلى ذكر المواقع الفلسطينية، ومنها السامرة والقدس، وفرض سيادته على سورية بكاملها، حينئذٍ فقط يأتي ذكر ما يدعى باسم ملوك إسرائيل «سامريا ويهوذا»، وحملهم على دفع الجزية للدولة الآشورية. وكذلك في سياق العلاقات العدائية بين مملكة دمشق الآرامية وإسرائيل، تلك الدولة التي يرد ذكرها في وثائق الشرق القديم وكانت حول مدينة السامرة (قرب مدينة نابلس اليوم). ثم تظهر مدينة أورشليم حاضرة لدويلة تدعى يهوذا. وكما تسقط السامرة على يد الملك الآشوري سرجون الثاني حوالي عام(٧٢٠ ق.م)، سقطت كذلك أورشليم على يد الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني في عام

(٦٨٧ق.م)، مــن بعد، ودمــرت وسيق أهلها أســرى إلى بابــل. وفي كلتــا الحالتين كانت مصر المناوئة للسيــادة الآشورية ثم للسيادة الكلدانيــة في سورية بلاد الشــام بكاملها) وراء تمرد السامرة وأورشليم الذي كان سبباً لدمارهما والقضاء عليهما كلية.

ومــن هنا فإن مصداقيــة كتاب التوراة تبقــى بعيــدة كل البعد عن الحــد الأدنى لمصداقية المصــادر التاريخية، لأن التاريخ لا يُعتَمــد عليــه بغــير الوثائــق المعاصرة للأحــداث التاريخية، وهــذه تكون معتمدة وذات مصداقية عندنــا تتقاطع مضامينها مع مصــادر أخرى من المناطــق المجاورة. وفيمــا يتصــل بالتاريــخ التوراتــي لا بدَّ من وجــود وثائق تاريخية تذكــر الأحداث التوراتية مصدرها مــن سورية التي قامت فيها دويــلات الأموريــين في قطنا وماري وحلب (يمحاض) ودويلات الكنعانيين على الساحل الســوري، من مثل أوغاريت وجبيل وصيــدا وصور، تلك الدويلات التي يفترض أن تكــون معاصرة لبدايــة التاريخ التوراتي في عهد الآبــاء إبراهيــم وإسحق ويعقوب، ثــم امتداد ذلك التاريخ وقيام دولة إسرائيل الموحدّة في عهد شــاؤول وداوود وسليمان. وسوريــة التي تعد فلسطين جزأها الجنوبي هي أقرب المناطق إلى فلسطين حيث يفترض أن تكون الأحداث التوراتية قد وقعت فيها. وكذلك مصــر التي لا ذكر فيهــا لإبراهيم وذريته من بعده، وصولاً إلى يوسف وموسى، وإلى داوود وسليمــان اللذيــن تُصوّر أسفار العهد القــديم دولتهما التي حكماها بأبهى وأعظم ما توصف الدول العظمى.

حتى الحفريــات الأثرية التي جرت في الشرق الأدنى، وفي فلسطين نفسها لا تقدم شاهداً واحداً على وجــود مثل تلك الدولة الموّحدة، مملكــة داوود وسليمان التي كانت أورشليم عاصمتها.

كانت التوراة وكان كتــاب العهد القديم بمعلوماتــه التاريخيــة يعد المصــدر الأول لكتابة تاريخ الشرق القديم، وتاريخ فلسطين بخاصــة، إذا لم يكن من سبيــل آخر لمعرفة ذلك التاريــخ القديم قبل قــراءة الكتابات التاريخيــة التــي تم العثــور عليها في بلاد الرافدين ومصر وسوريــة وآسية الصغرى، وفي شبــه الجزيــرة العربية وإيــران، وهي الوثائق التي تعــود إلى بداية ظهور الكتابة بأشكالهــا المتتالية: التصويريــة والمقطعية المسمارية، والألفبائيــة. وقبل قيام البعثات الأثرية العلمية الجادة التي كشفت عن آثار الإنسان القديم ولاسيما في العصر الحجري

الحديث والكالكوليتي، وعصر البرونز بفتراته المختلفة، وفي عصر الحديد.. ليس هذا فحسب ما وضع حداً لأهمية كتاب العهد القديم، بل الأبحاث العلمية الرصينة الكثيرة التي ظهرت في مؤسسات علمية عالمية، ويقوم بها باحثون وعلماء مختصون في علوم الشرق القديم ولغاته. ونتيجة لذلك توصل عدد من الباحثين منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى أن مصدر التوراة الأساسي هو الحكايات الشعبية والقصص الخيالية التي كانت تتناقلها أجيال بني إسرائيل عبر الزمن إلى أن تمّ تدوينها في وقت يختلف الباحثون حوله، خلال وجود أحبار اليهود ووجهائهم في الأسر البابلي أو بعده حين جمع الكاهن عزرا أسفار العهد القديم، كما ذكرنا. أو ابتدأ في أثناء وجود أولئك في الأسر البابلي ولكنه اكتمل في بداية العصر الفارسي ..والفارق هنا ليس كبيراً. ولكن بعض الباحثين الآخرين يرون أن التدوين لم يتم قبل مطلع العصر الهلنستي، وهو العصر الذي وقعت سورية فيه تحت الحكم السلوقي بعد إقامة الإسكندر المقدوني إمبراطوريته في الشرق وحلول خلفائه محل المملكة الفارسية الأخمينية، أي بعد زمن طويل من عودة اليهود من الأسر البابلي إلى أورشليم. ومهما تباينت الآراء، وتعددت الأسباب فإن مصداقية التوراة وما يليها من أسفار العهد القديم، ولا سيما سفر يشوع وسفر القضاة التي يبدو أنها تكمل الحديث عن تاريخ بني إسرائيل وإقامتهم دولة تضم كل القبائل الإسرائيلية على أرض كنعان، تلك المصداقية التي هي- كما عبّر بعضهم عنها – إنما هي أخيولة أدبية وقصة نسج خيوطها كهنة بني إسرائيل، ونسبوا أحداثها الأسطورية إلى موسى الذي يشكك عدد كبير من الباحثين في شخصيته، وفي وجوده أصلاً. وقد ذكرنا أن كل ما يرد في نصوص التوراة (ويشوع و القضاة) لا وجود لما يدعمه لا في الوثائق التاريخية ولا في المكتشفات الأثرية. ونتيجة لذلك ما عاد للتوراة من الوجهة التاريخية أية قيمة علمية، وسقطت من بين المصادر لكتابة تاريخ الشرق القديم(١٣).

وأرى أن مهمة الكتاب المقدس ليست التأريخ للأحداث بقدر ما يجب أن تركز على الدين والشريعة. وإذا تطرق الكتاب المقدس إلى أحداث ومسائل تاريخية فمن باب العظة والاعتبار، كما هو معروف من القرآن الكريم.

اسم مدينة القدس في المصادر

حملت مدينة القدس عبر تطورها التاريخي عدة تسميات، لعل أقدمها هي تلك التسمية التي وردت في نصوص اللغات المصرية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، بصيغة روشاليموم، وهي نصوص يعود تاريخها إلى آواخر أيام حكم الأسرة الثانية عشرة في مصر، حين تردت الأحوال الإدارية والاقتصادية في البلاد، وصارت تتهددها الأخطار الخارجية، ومنها من جهة جنوبي سورية بعض المدن الفلسطينية(١٤).

ويظهر في اسم المدينة اسم الإله (شَلِم) الذي تتأكد عبادته في فلسطين منذ ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد، ويؤكد عبادة ذلك الإله ومعرفة الناس له في الشرق من خلال اسم ابن الملك الآشوري أدد نيراري الأول حوالي (١٣١٠-١٢٨٣ق.م) وهو شُلْمانُ- أشَرِد، ويعني الاسم: «شُلْمانُ هو الأول»، وتظهر هنا الصيغة الاسمية إلحاق المقطع (آن) به. وربما يتضمن اسما ابني داوود (أبْشَلُوم) و(شْلُمو) (أبسالوم وسليمان) اسم الإله نفسه، وكذلك اسم ملك مؤاب شَلَمانُ الذي يذكره الملك الآشوري تجيلات بيليصر الثالث. كما يرد اسم الإله (شلم) في اسم العلم الأوغاريتي (صدق شلم)، مع اسم إله آخر هو صدق. ويعرف الإله شلم في أغاريت مع قرينه (شَحِر) حيث يوصفان بالرحمة والود(١٥)، ويذكر الاسمان متلازمين مع بعضهما. وهذا يعني أن الإله (شلم) كان من معبودات الشرق، ولاسيما الكنعانيين، المعروفة، ومن الواضح أن اشتقاق الاسم لغوياً يعود إلى مادة (سلم) التي تشترك بمعناها في اللغات السامية كلها، وهي التي تشتمل على معنى السلام والسلامة.

ويرد اسم (أُرُشَلِم) في رسائل تل العمارنة المصرية التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي الرسائل التي كان يبعثها حكام الشرق الأدنى مدونة بالخط المسماري وباللغة البابلية إلى الفرعونين أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (أخناتون)، وتذكر رسائل بعض حكام المدن الفلسطينية (الكنعانية) تعرضهم للغزو والأذى على يد الخبيرو(١٦) وبعض الحكام الطامعين بالتوسع على حساب جيرانهم والمناوئين للحكم المصري.

كما يرد الاسم بصيغة (أُرُشَلِمُّ) في نصوص الملك الأشوري سنحاريب التي يتحدث فيها عن حملته على سورية الجنوبية حيث كان المصريون يؤلبون سكان اليهود بخاصة وأرسلوا ضباطاً وجنوداً للوقوف إلى جانب

اليهود في أورشليم كما فعلوا مع سكان عدد من المدن الفلسطينية الأخرى، ولاسيما عقرون، فوصل سنحاريب إلى أورشليم وحاصرها، ولكن ملكها حزقيا بادر إلى دفع الجزية بعد أن رأى أن لا مهرب أمامه بعد أن جرده سنحاريب من المناطق القريبة . ويذكر سنحاريب أنه هاجم مملكة يهوذا التي استنجدت بالمصريين، فاجتاح المنطقة وضرب الحصار على أورشليم، فاضطر ملكها حزقيا تحت وطأة الحصار، وإزاء ما أصاب النجدة المصرية من هزيمة ساحقة على يد الآشوريين، إلى أداء الجزية مضاعفة إلى الملك الآشوري، كما ذكرنا.

أما نص (سفر الملوك الثاني ٣٥، ١٩) فيذكر أن الجيش الأشوري حلّ به الموت الإلهي، وحام ملاك الرب فوقه ليلاً، وفي الصباح أصبحوا جثثاً. فانصرف سنحاريب، وذهب إلى عاصمته نينوى مهزوماً.

كما يذكر الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني أورشليم بالصيغة نفسها التي ذكرها الأشوريون، وذلك عندما يتحدث عن حملة مشابهة لحملة سنحاريب الأشوري لإخضاع سورية الجنوبية وجباية الجزية من حواضرها، وطرد المصريين الذين عادوا إلى تحريض السكان ضد الكلدانيين، ولا سيما أورشليم. فنجح في هزيمة القوات المصرية وملاحقة فلولها، ثم عاد إلى أورشليم، فحاصرها للمرة الثانية، واستغرق حصاره لها هذه المرة [١٧] شهراً حتى اقتحمها بجنوده حوالي عام (٥٨٧ أو٥٨٦ ق.م)، ودمرها، وأحرق الهيكل ونقل خزائنه، ونفى أربعين أو خمسين ألفاً من أهلها «لينوحوا عند مياه الفرات» بحسب قول التوراة. وأطلق اليهود على هذا النفي اسم «السبي البابلي الثاني». وكان الحصار الأول زمن الملك يهوياكين عام ٥٨٩ق.م، وبعده عيّن نبوخذ نصر الثاني صدقيا ملكاً على أورشليم بعد أن اقتاد معه إلى بابل (٣٠٠٠) يهودي.

وكما رأينا تدعى المدينة في العبرية الكنعانية أورشليم أيضاً، ولكن كتاب العهد القديم يجعل بداية الاسم ياء، فهي يِرُشَلِيم، أو يِروشَلِيم بإمالة اللام أو بفتحها ثم بكسر الياء، وكأن الصيغة إنما هي صيغة الاسم المثنى الذي ينتهي- بحسب قواعد اللغة العبرية – بالياء المكسورة وقبلها فتح ثم بالميم، كما تحرك عبارة السماء (شَمَيِم)، وعبارة (عَينَيِم) أي (عَينَين في العربية)، وعبارة (شَنَيِم) بمعنى (اثنين). وهذا اللفظ يعود طبعاً إلى نظام الحركات الذي وضعه علماء اللغة العبرية آواخر القرن السابع

وأوائل القرن الثامن الميلادي، للحفاظ على اللفظ الصحيح للكلمات العبرية الواردة في كتاب العهد القديم مستفيدين من نظام الحركات عند السريان والعرب.

ولكن تبقى مشكلة الياء في بداية الكلمة التي تبدو كياء المضارعة في الفعل المضارع من دون شك، وكأن لفظة (يِرُشَلِيم) تتكون من جزءين: الجزء الثاني اسم الإله (شَلِم)، أما الجزء الأول فيبدو لنا أنه صيغة فعلية من الجذر(يرى) في العبرية، أي أن فاء الجذر حرف علة، كذلك ولامه لفيف مفروق ويعني «رمى» وضع حجر الأساس «ويتبنى بعضهم المعنى» تأسيس، ويدخل في الاسم المركب يروشليم كما يرد في أسماء العلم (يِرُوإل) و(يِرِييّا) و(يِري إل)(١٧). وبذلك قد يعني الاسم أورشليم / يروشليم «المدينة التي أسسها التي هي من تأسيس(الإله) شلم». ويرد الاسم أورشليم في الكتابات النبطية، كما يرد في اللغة السريانية أُورشْلِم بإمالة اللام، كما في الصيغة العبرية[١٨].

ومن هذه الصيغة الأخيرة جاءت التسمية في مختلف اللغات Jerusalem. ويحتمل أن يكون الاسم مركباً من ثلاثة مقاطع (كلمات) هي (أُور) بمعنى «مدينة» في السومرية، ثم (شَ) أدلة إضافة، أو اسم موصول، ثم اسم (الإله) لِمْ المعروف عند الأموريين، مثل الاسم زِمْري لِمْ، يَخدُن لِم، يجيد لِمْ.. في مملكة ماري. وعبارة (شَ) رُكِّبَت بها أسماء أمكنة أخرى في المنطقة، مثل: أورشَ إِمْريشو، أي مدينة الحمير..

وإذا تمعنا في ما ورد في التوراة عن أورشليم فإننا لن نجد الاسم، ولكننا نعثر على ما يشير إليها من دون ذكرها صراحة، بل يرد حديث عن المكان الذي اختاره الرب لإقامته وهو مدينة أورشليم، وهذا يصبح مؤكداً عندما يأمر الرب الملك داوود ببناء بيت لسكنه، لأنه منذ خروج بني إسرائيل من مصر لم يسكن في بيت بل كان يسير في خيمة[١٩].

والمطلوب هو بناء لتابوت العهد. أما الذي أنجز المهمة وبنى بيتاً (هيكلاً) للرب فكان ابن داوود الملك سليمان، وقد ساعده في البناء ملك صور الفينيقي حيرام الذي أرسل إليه الخشب والنجارين والبنائين[٢٠].

وبذلك يبدأ ذكر اسم المدينة يتكرر كثيراً، منذ أن اتخذها داوود عاصمة لملكته، حتى هذا الوقت هي مدينة كنعانية، على الرغم من حديث سفر القضاة (١، ١- ٨)عن انتصار سبطي يهوذا وشمعون على الكنعانيين والفرزيين، وهرب أدوني بازق (أو

أدوني صــادق) الذي يبدو أنه ملك أورشليم الكنعــاني. ويدل على ذلــك ما يرد في سفر القضاة (١١، ١٩-١٢)، وفيما هم عند يبوس (أي أورشليم).. قال الغلام لسيده نميل إلى مدينــة اليبوسيين هذه ونبيــت فيها. فقال له سيده لا نميــل إلى مدينة غريبة حيث لا أحــد من بني إسرائيل هنا.. «والحديث هنا عن رجل لاوي مرّ بالمــكان» وفي تلك الأيام حين لم يكن ملك في إسرائيل..»[٢١]. وبحسب النصوص التاريخية في أسفار العهد القديم كانت أورشليم في المنطقة التي غزاها سبطا يهوذا وبنيامين واتخذاها موطناً لهما. ونقرأ في سفر صموئيــل الأول (٥٤، ١٧) أنه كان لداوود خيمة في أورشليم، حيث قصدها من قبل الفلسطيني جوليات حاملاً رأسه بيده، أي إنه لم يكن يقيم في أورشليم، فهو من بيت لحم وكان يرعى غنم أبيه هناك.

وكانــت أورشليــم تدعــى إذن يبوســ أيضــاً، وقد رأينا كيــف ذكر الاسم في سفر القضاة(١١، ١٩)، الــذي مرّ ذكره. والاسم كان أصــلاً اســم سكان المدينــة. ونعلم من سفر يشوع، الإصحاح (١٥) أن موطن سبط يهوذا كان علــى حدود أورشليــم التي هي يبوس حيث نقــرأ الآية (٨): «وصعد التخم في وادي ابن هيّــوم إلى جانب اليبوسي من الجنــوب هي أورشليم. وصعــد التخم إلى رأس الجبل الذي قبالة وادي هيّوم غرباً..» وفي الآية(١٨) يذكــر سبط بنيامين المجاور ليهوذا في الشمال وتمــر حدوده أيضاً على اليبوسيين. أما اسم يبوس واليبوسيين فهو يدل على فرع من الكنعانيين أصحاب الأرض الأصليــين الذين تذكــر التــوراة والأسفار التاريخية في كتاب العهد القديم أن القبائل الإسرائيليــة احتلت بلادهــم بناء على وعد الرب (يهوه) لها بإعطائهــا أرضاً موعودة، وتذكر معهم فروعاً أخــرى من الكنعانيين، ومنهم اليبوسيــون و العموريون والفرزيون والجرجاشِيون والحوريون[٢٢].

ويذكر سفر أخبار الأيام الأول، الإصحاح (٤، ١١) :«وذهــب داود وكل إسرائيــل إلى أورشليــم أي يبوســ . وهنــاك اليبوسيون سكان الأرض.. الآية(٥) فأخذ داوود حصن صهيون . وهي مدينة داود، الآية (٦) وقال داود إن الذي يضــرب اليبوسيين أولاً يكون رأســاً وقائــداً»، ويفهم من ذلــك أن داود لم يستطــع أن يهــزم اليبوسيــين، بل اكتفى باحتلال الحصن، واستمر سكانها اليبوسيون في سكــن مدينتهم، ولم يغادروها إلى أن جنح الطرفان إلى السلم، وأمن الطرفان بعضهما، واتخذهــا داوود عاصمة لملكته، كما تذكر

الأسفار التاريخيــة في كتاب العهد القديم، ومــن بعده ملوك يهوذا بعد انفصال المملكة المتحــدة بوفاة الملك سليمان مباشرة، إلى أن دمرها نبوخذ نصر الثــاني صاحب السبي البابلي.

ويفهــم ممــا سبــق ذكــره أن القدس/ أورشليــم، لم يكن لها شأن في تاريخ فلسطين (أرض كنعــان كما تسميهــا التوراة) حتى صارت عاصمة للمملكــة اليهودية، على يد الملــك داود، ولكن ما جعلها تتبــوأ منزلتها الساميــة عند اليهــود هو اتخاذهــا مقراً لتابــوت العهد، وبناء هيكل متميز خاص به زمن الملك سليمان. ومنذئذ أضحت أورشليم مدينــة مقدســة لــدى اليهــود فعظموها وأحاطوهــا بهالــة من الإجــلال حتى بعد زوال مملكــة يهوذا، وسقــوط أورشليم بيد الكلدانيين، وعودة اليهود من السبي البابلي، حيث كانوا يبكون علــى أنهار بابل ويتعزون بأورشليم، كما يعبر المزمور (١٣٧). وحتى بعد تدمير الهيكل على يد الرومان في العام(٧٠) الميلادي، ثم أنزلها المسيحيون مكانة سامية إذ صار كتــاب العهد القــديم يمثل القسم الأول مــن الكتاب المقدســ عندهم. ويعبر الإصحــاح (٢١) من سفر رؤيــا يوحنا عن هذه المكانة المقدسة أصدق تعبير وهو يصف أورشليم السماوية. ثم جــاء الإسلام ليعزز مكانة أورشليم المقدسة، فكانت المدينة أولى القبلتين، وسماهــا المسلمون القدس؛ وبيت المقدس، والقدس الشريف. وكان العرب من قبل يطلقون عليها اسم أوريشَلم، كما قالوا: أوريسلم/ أوريشلوم/ أوريشلَّم بتشديد اللام. وأوراسَلم / أورى سَلِم، ورأى فيها اللغوي أبو عبيــد اسماً عبرانياً معربــاً . كما ورد اسم إيليــاء، أي «بيت الله» وسميــت إيلياء باسم بانيها وهو إيليا بن إرم بن سام بن نوح، كما يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان[٢٣].

المصادر والمراجع:

١- سفر صموئيل الأول ، الإصحاح ١٧.

٢- الإصحاح ١٢، ١٦-٢٠.

3- Luckebill.The Annals of Sennacherib 1924; Ancient Records II.233f. .

كتابنا : تاريخ بلاد الرافدين ، حلب ٢٠٠٣ ،ص ٢٤٥.

٤- سفر الأيام الثاني، الإصحاح ٣٢، ١-٢٤.

٥- سفر الملوك الثاني، الإصحاح ١٣-١٧.

٦- حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودي، دمشق ١٩٨٧، ص٢٧.

- G. Stemberger، Geschichte der jüdischen Literatur، München 1977، p. 12f .

٧- المرجع السابق **Stemberger** ، ص١٤.

٨- انظر قاموس اللغة العبرية الخاص بكتاب العهد القديم:

- Gesenius ، Hebraisches und Aramaisches Handworterbuch über das Alte Testament. . 17. Auflage ، Berlin ، Gottingen ، Heideleberg 1962. S. 466;M. Noth ، G eschichte Israels، 2. Aufl . Berlin. 1954. S. 45ff.

٩- لسان العرب ، مادة « مسا».

١٠- انظر : حسن ظاظا ، مرجع سابق ،ص ١٨.

Klines Bibellexikon، 3. Aufl، Konstanz 1964. S. 232f . -

وكذلك ليوتاكسيل،كتاب مقدس أم جمع من الأساطير . ترجمة حسان اسحق ، ص١٦٨؛ دوغلاس ريد، الجدل حول صهيون . ترجمة : أديب فارس ، دمشق ٢٠٠٥- ص ١١ -١٣ .

١١- سفر نحميا ٨، ١-١٣.

١٢- دوغلاس ريد ، الجدل حول صهيون ، مرجع سابق ص ٧٠.

١٣- للاطلاع على مزيد من الآراء حول هذا الموضوع ومن خاض فيه من الباحثين الذين شككوا في تاريخية التوراة انظر: توماس طمسن ، الماضي الخرافي، التوراة والتاريخ . ترجمة عدنان حسن، دمشق ٢٠٠١،ص ٣١-٣٤ ؛ ٣٥- ٣٧ ، عن الأصل الإنكليزي.

Thomas Thompson، The Bible in History، How Writers Create a Past ،London 1999. -

- G. Garbini، History and Ideology in Ancient Israels (Translated from the 1986 Italien version)، London 1988.

J. van Seter، Abraham in History and Tradition، New Haven 1975. -

Hayes and Miller، ed. Israel and Judaen History . Philadelphia 1977. -

١٤- نصوص اللعنات **Execration texts** هي دعوات كتبها الكهنة المصريون بالمداد الأحمر على أوان من الفخار الأحمر وتماثيل صغيرة من الطين تمثل أعداء مصر، يفترض أن يصب الكهنة عليها اللعنات ثم يحطموها في حفل خاص ، أملاً في أن يؤدي تحطيمها إلى تحطيم عزائم المذكورين عليها ، وينفي عن مصر خطرهم ويقيها من شرّ أعمالهم ونواياهم، انظر كتابنا : تاريخ

الشرق القديم(٣) مصر، صنعاء وبيروت ١٩٩٥، ص ١٧٩.

15- M . Pope.in : GÖtter und Mythen im Vordern Orient، WÖrterbuch der Mythologie . Band I، Stuttgart 1965، S. 306307-.

١٦- الخبيرو جماعة لا انتماء لأفرادها، كانوا يعيشون على الغزو والقتال، ويؤجرون أنفسهم لعمل ما يطلب منهم مجتمعين أو فرادي ، وذكرتهم المصادر المصرية و الأغاريتية، ونصوص ماري و ألالاخ وقطنا وإيمار وشوبت إنليل. انظر كتابنا : تاريخ سورية القديم، حلب ٢٠٠٤، ص ٢٧٣، الحاشية ١٦.

17-G esenius، Hebraisches.. Worterbuch ، S. 318

١٨- المرجع السابق نفسه. وفي سفر التكوين ١٤،١٨ إشارة إلى المدينة عند ذكر اسم ملكي يدعى صادق ، كان ملكاً على شاليم ، انظر أيضاً سفر المزامير ٣،٧٦.

١٩- سفر صموئيل الثاني ٧، ١-٦. ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان (الجزء الخامس، ص١٦٧) في هذا السياق: رُوي عن أُبيّ بن كعب قال: أوصى الله تعالى إلى داوود ابنِ بيتاً. قال يا رب وأين من الأرض ؟ قال: حيث ترى الملك شاهراً سيفه فرأى داوود ملكاً على الصخرة واقفاً وبيده سيف، بناه داوود وابن سليمان معه»

٢٠- سفر صموئيل الثاني ٥، ١١.

٢١- سفر القضاة ١،١٩.

٢٢- انظر كتابنا: معالم حضارة الساميين وتاريخهم في سورية وبلاد الرافدين ، حلب ٢٠٠٣، ص ١٧٩.، وما بعد.

٢٣- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، الجزء الأول، ص ٧٩.



الدراسات والبحوث

هوامش مقدسية

يوسف الخطيب *

-١-

بيت المقدس.. بيت القصيد

عندما طلب إليَّ رئيس تحرير «المعرفة» الأخ الدكتور علي القيم، أن أتقدم بمثل هذا الإسهام المتواضع حول مدينة القدس، بمناسبة اختيارها «عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩»، فلقد قفز إلى الذهن فوراً ما كنت مسكوناً به، في الوعي، واللاوعي، ومنذ أمد بعيد، من أن هذه الحاضرة الجنوبية من إقليم الشام الكبير هي الأكثر أهلية وجدارة، لا لأن تتقلد الصفة

* شاعر وأديب فلسطيني



الثقافية وحدهـا، ولسنة عابرة وحسب، بل ولأن تكتسب مرةً واحـدةً وإلى الأبد، صفة «العاصمـة الفخرية» لهذه القـارة العربية المترامية الأطراف من المحيط إلى الخليج، لا لأية أسباب عاطفيـة، أو أهواء شاعرية، كما قد يتبادر للذهـن للوهلة الأولى، ولكن لأن أيـة نظرة علمية نافـذة في تاريخ هذا الجزء من كوكبنـا الأرضي عبر ثلاثة آلاف سنـة، ستؤكد لنا بما لا يقبل الشك أن «بيت المقدس» هذه هي «بيت القصيد» في مجمل ذلك التاريخ..

فلقد كانت، وما تزال، وربما ستبقى إلى أمدٍ غـير منظور، بؤرة التصـادم والصراع الدمـوي المستميت ما بـين الوطن العربي، بإقليمـه الشامـي الكبـير في المقدمة على الدوام، وبـين أعدائه وغزاتـه التاريخيين علـى اختـلاف مآربهـم ومشاربهم، بحيث أصبحت علـى مَرِّ الأجيال وتعاقب العصور مِحَكَّ اختبـار عافية الأمة العربية وشبابها، من سُقمها وهزالهـا واحتراقها في كثيرٍ من الأحيان على هيئة طائر العنقاء الأسطوري، إيذاناً واقتراباً من جلجلة بعث جديد..

إذ هكذا كانت في تخوم القرون الميلادية الأولى تعبيراً حياً وصارخاً عن بعثرة الأرومة العربيـة المركزيـة الواحـدة علـى ممالك وحضـارات موضعيـة متنافـرة، أو حتـى متناحرة، سرعان مـا انسحقت تماماً تحت هيمنة الروم والفرس علـى اتساع رقعة ما بـين وادي النيـل وما بين النهريـن، إلى أن استردت تمـام عافيتها القوميـة والروحية بتلك السرعة القياسيـة شبه الفلكية، سواءً أَقُلنا بفضـل الفتوحات الإسلاميـة الأَشَدِّ نظافةً والأغنى حضارةً في كل ما تعيه ذاكرة الإنسـان من فتوحـات، أو بفعـل استعداد الأمة العربية الكامن والكامل في ذلك الزمن المحمدي الفريد لتحقيق انبعاثها التأسيسي الأعظم على مر جميع العصور..

ثم هكذا كانت في أواخر القرن الميلادي الحادي عشر دعوة صريحة ومفتوحة لملوك أوروبـا وأمرائها لاجتياح كامل رقعة المشرق العربي بسبيل التمركز في قلبها الفلسطيني، فالمقدسـي على وجه التحديـد.. ويقيناً أن مواعظ بطرس الناسك ودموعه المسفوحة من أجل استنقاذ قبر سيدنا المسيح بالقدس، من أيدي «السراسنة» - أي العرب والمسلمين في لحمـة واحدة - مـا كانت لتجـد آذاناً صاغية في طـول أوروبـا وعرضها لولا أن الدولـة العربية الإسلاميـة في ذلك الحين كانـت في حالة مزرية من الضعف والتفكك وانصـراف كل ولاية، أو حتى مدينة أحياناً،

إلى الاهتمـــام بأوضاعهـــا الخاصة في شبه استقـــلال، أو حتى انسلاخ عن جسد الدولة العـــام، مما جعل سقـــوط القدس من أيدي مماليكها الأرتقيين عـــام ١٠٩٩ لقمة سهلة وسائغة لغزاتها الصليبيين..

ثم هكذا أيضاً كانـــت القدس في مطلع القـــرن الفائـــت، العشرين، أشبـــه ما تكون بالعنـــوان البارز الكبير لمـــا انتهت إليه حالة الشعب، والوطن، العربيين تحت ليل الحكم العثماني الظلامي الثقيل، في وقت كانت فيه القوة «(الصهيونيـــة/ الصليبية)» في لحمةٍ واحـــدة متماسكة بانتظـــار أن يلفظ الرجل التركي المريض أنفاسه الأخيرة بسبيل اقتسام تركتـــه العربية المتراميـــة الأرجاء، وإنما مع التركيز بوجهٍ خاص على جوهرة هذه التركة التي هي القدســـ وأكنافها الفلسطينية من إقليـــم الشام الكبير.. وعلـــى نحو ما كانت ذريعـــة «استنقـــاذ قـــبر السيـــد المسيح» في الصليبيـــات الغابرة مجـــرد أكذوبة تاريخية كبرى بهدف استلاب خيرات المشرق العربي، فكذلـــك أيضاً هـــي ذريعـــة «الصهيونية/ الصليبيـــة» المعاصرة بـــأن لأتبـــاع الديانة اليهودية حقوقاً تاريخية في أرض فلسطين، لم تكـــن في حقيقـــة الأمر أكثر مـــن أكذوبة أخرى بسبيل السيطرة على مقدرات الوطن العربي بأكمله، عن طريق الإمساك به بقوة من عنقه الفلسطيني الضعيف، والمكشوف، بحيث لا تجديه نفعاً جميع محاولات انعتاقه إلا بحركة انبعاث قومي شامل وعميق..

فعلى هذا المتن المقدسي الأعظم والأشد زَخَماً، ربمـــا على المستوى العالمـــي بأسره، سأكتفي الآن في هذا الإسهام المتواضع، بأن أُعلِّق بعضاً مـــن الهوامش المختلفة، ولكنها التي تشـــكل بالنتيجـــة نوعاً مـــن الإضاءة الكافيـــة، لا لمركزية مدينة القدس كعاصمة شرفٍ فخرية للوطن العربي وحسب، وإنما، وبالقـــدر نفسه، لموقعها المركـــزي أيضاً في صميم أطمـــاع غزاتـــا التاريخيين، ضمن هـــذا التحالـــف الشيطـــاني الرجيم ما بين ورثة الروح الصليبية الغابرة، وغلاة الحركة الصهوينية الفاجرة..

-٢-

«الصليبية الصهيونية».. لماذا؟!..

علـــى أن ما تجدر الإشارة إليه، والتأكيد عليه بقـــوة، هو أن استخدامنـــا هنا لمفردة «الصليبية» أو حتى «الصهيونية/ الصليبية» في صيغـــة واحـــدة، لم يكـــن، ولـــن يكـــون بهـــدف المزيد من استعـــداء العالم المسيحي ضـــد قضايانا العربيـــة بعامـــة، والقضية

الفلسطينية منها بوجه خاص، لا ولا بقصد إثارة المشاعر والخواطــر ضد أعدادٍ هائلة من أتبــاع الديانة المسيحية علــى المستوى العالمــي، ممن يــكاد البعض منهــم يتفهم قضيتنا المركزية الفلسطينية هذه، ويتعاطف معهــا أيضاً، ربما أكثر مــن عربٍ ومسلمين كثيريــن، يَدلُّــون علــى أنفسهــم بأنفسهم، ولا حاجــة إلى الإشارة إليهــم في مثل هذا السياق.. وإنمــا الذي يُحتِّم علينا استخدام هاتــين المفردتين.. «الصليبيــة – والصهيو صليبية».. هو أن أعداءنا أنفسهم لا يريدون أن يستخدمــوا أي بديل لهما على مَرِّ مئات السنــين.. إذ علــى الرغم مــن أن أجدادنا العــرب الطيبين، سواءً مــن عامة الناس أو من طبقة العلماء والمؤرخين، قد حرصوا في الماضي على توصيف أعدائهم «بالفرنجة»، لا «بالصليبيين»، كنوعٍ من الترفع عن إقحام الصليــب، أو الديانة المسيحية بجملتها، في أُوار ذلــك العدوان الهمجــي البغيض، إلا أن الغــزاة القدامى مع ذلك قد أصرُّوا على ابتــذال «قداسة صليبهــم» بأنفسهم عندما رسموه على دروع صدورهم، علامةً، وشعاراً، وعنوانــاً، لأبشع مامرَّ بذاكــرة الإنسان من صنوف العدوان..

ومع أن هذا التعصب الديني «الصليبي» الأعمــى ضد رقعة مشرقنــا العربي بأكمله ليست له أدنى صلة بجوهر المسيحية السمحاء التي هي في الحقيقة بنت هذا المشرق نفسه، وإحدى عطاءاته الحضارية العظمى لنوعنا البشــري -(فالمسيح مسيحنــا.. والمسيحية أولى دياناتنــا على العهــد الآرامي)- إلا أن المحرضين على مثــل هذا التعصب المرذول في المجتمعــات الغربيــة بعامــة، من رجال دين مهووسين، أو أمــراء أو قادة عسكريين مغامرين، أو طغمات بشرية مرتزقة وطامعة حتى الجنون في خيرات الشرق، لم يجدوا في جميع اندحاراتهم المريرة في جملة حروبهم الصليبيــة الأولى ما يمنعهم مــن البَياتِ أو الكُمون تحت السطح في محاولة استعدادهم وانتظارهــم لفرصــة اندفاعــات عدوانية جديدة، يكونون هم فيهــا أشد قوة ونظاماً وأكثر عدةً وعتاداً وتنسيقاً مما كانوا عليه في عهــد البابا أوربان الثاني، وبطرس الناسك، ووالــتر الملفس، ومن شاكلهــم.. بينما يكون مشرقنا العربي بالمقابل، في حالة أشد جهلاً وتخلفــاً وظلماً وتجزئة ممــا كنا عليه حتى في عهد ولاة القدس وفلسطين من المماليك الأرتقيــين.. وما حدث في حقيقة الأمر هو أن هذه الفرصة قــد توفرت لهم في أفضل حالاتها في مطالع القرن الفارط العشرين..

فهـا نحن نرى ذلك الجـنرال الفرنسي البغيض حقـاً «غورو» وهو يـردد مأثورته الجبانـة الحاقـدة فوق قبر صـلاح الدين الأيوبي في دمشق: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين»!!.. مـن قبيل التأكيد على «الطبيعة الصليبية» الخالصـة لاحتلال هذا الشطر الرئيسي من إقليم الشام الكبير..

ثـم ها نحن نـرى أيضاً ذلـك الجنرال الإنكليـزي اللئيم هو الآخـر «أللنبي»، وهو يخاطب المقدسيين خصوصاً، والفلسطينيين عمومـاً، في الشطـر الجنوبي مـن الإقليم نفسـه، ومن علـى درج قلعـة القدس على مدخل باب الخليـل: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»!!

ثم ها نحن أخـيراً، وليس آخراً، نستمع إلى راعي البقر الأميركـي الأحمق الرئيس جورج بوشـ -(وفي مطلع القـرن الحادي والعشريـن هذه المـرة)- وهو يُعبِّـئ شعبه وحلفاءه في حربه التدميريـة المجنونة ضد عراقنا الذبيـح بوصفها «حرباً صليبية»!!.. فيما يستمتع البعض من أعراب هذا الزمان بتأبط ذراعه ومراقصته «رقصة السيف» في قلب جزيرتنـا العربية!!.. فأي حالٍ يا تُرى قد مرَّ بنا عبر تاريخنا الطويل أسوأ من هذا الحال؟!..

بـل ما جـدوى أن يحـاول البعض من كتابنا وأدبائنا، وحتى مفكرينا السياسيين إن وُجِدوا، أن يُجرِّدوا جميع هذه الحروب من «روحهـا الصليبية» الكامنة في أعماقها؟!.. ولكنها هذه المـرة ليست الصليبية المتذرعة بحماية قبر السيد المسيح.. بل تلك الصليبية العجائبيـة الملتحمة عضويـاً «بصهيونية» أعداء السيد المسيح!!..

فعلى ذلـك آمل أن يكون واضحاً تماماً، وغنيـاً بالتالي عـن أية حاجـة للمزيد من التفسـير - ناهيك عن التبريـر - ما الذي أعنيـه علـى وجـه الضبـط «بالصليبية المعاصـرة»، إذ هـي في أبعـد موقـع على الإطلاق عن جوهر النصرانية النقي، بينما هي في الوقت نفسه في حالة استبطان عميق لأبشع ما في «الصهيونية» من شرور وأحقاد ضد بني الإنسان..

-٣-

في البدء كانت يبوس..

كانـت القدس عربيـة «يبوسيـة» منذ نشأتهـا الأولى، أي منذ أول حجر اتكأ فيها على حجـر.. فلقد بناها الملـك «الصادق» الـذي كان يُكنَى بملك «السلام» قبل حوالي ألفي سنة من ميلاد السيد المسيح..

ومــن هنا وصفت المدينــة في أول الأمر بمدينــة «سالم».. ثم لما طغــى عليها الطابع الكنعاني، أضيفت إليها كلمة «أورو» الكنعانية التــي تعني (المدينة) فأصبــح اسمها بذلك «أورو-سالم».. ومن هذه التسمية (اليبوسية – الكنعانية) أي العربيــة السحيقة.. اشتق فيما بعد اسمهــا التوراتي بالرطانة العبرية «أور- شاليــم» وهو الذي يعتقــد البعض، خطأ أنه عبري الأصل..

والمعلوم لدينا حتى الآن بموجب الرواية الدينيــة التوراتيــة، وليس استنــاداً إلى أية حقيقة تاريخية ثابتة، أن النبي إبراهيم كان هو الذي قــاد أول موجــة «عبرانية» -(أي غــير يهودية ولا إسرائيلية)- في التاريخ إلى أرضــ فلسطين.. بينما كانت مدينة القدس (حتى بهذه الروايــة ذاتها) قائمة قبل ذلك بزمــن غير معلوم.. فلقــد خرج ملك سدوم لاستقبالــه، وملكي صادق ملك شاليم، (كما في الإصحــاح ١٤ من سفر التكوين).. وبعد ذلــك التاريخ لا قبله حدثــت مسألة الوعد الإلهــي الموهــوم، حيــث تَدَّعــي الخرافة التوراتية أن الرب خاطب إبراهيم قائلاً:

«لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (الإصحاح ١٥ من السفر نفسه)..

وبعد تلك الحادثة بما يقل عن قرن من الزمــان وقع الخروج العــبراني الشامل من أرض كنعان إلى أرض مصر، على حين بقيت البلاد قرابــة ألف سنة بعــد ذلك الخروج محتفظة بطابعها الكنعاني، ومن ثم الآرامي، أي العربي السحيق على الحالين..

ثــم في القرن الثاني عشــر قبل الميلاد، تمكن النبي موسى من أن يتزعم قومه اليهود هــذه المرة، أو الإسرائيليــين ، المطاردين في مصــر، ولكنهم ليسوا مــن «عبرانيي» النبي إبراهيم بأي سند تاريخي على الإطلاق، في حملة لغزو فلسطين، فخرج بهم من مصر إلى سيناء حيــث تلقى الوصايا العشر على جبل الطــور، ولكنه خلال أربعــين سنة لم يتمكن مــن مواصلة الزحف شمــالاً، إلى أن قضى نحبه في قلب سيناء، وخلفه قائده العسكري يشــوع بن نون، الذي دخل أريحا حوالي عام ١١٨٠ق.م «وأحرقــوا المدينــة بالنار مع كل مــا بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديــد جعلوهــا في خزانة بيــت الرب» (الإصحاح ٢٤ من سفر يشوع).. ولكن هؤلاء الغزاة اليهود، الآن، وليس العبرانيين أحفاد إبراهيم، لم تستتب لهم السيطرة الفعلية على بعض المدن الفلسطينيــة الأخرى، وخاصة القدســ، إلا في أواخــر القــرن التالي عام ١٠٤٩ ق.م.

فخلال هــذا الزمــن الطويــل كله من بداية التاريخ الفلسطيني القديم كانت صلة اليهــود مقطوعة تماماً بأرض كنعان، مع ما قد تدعيه بعضــ الروايات دون سند علمي موثوق مــن أنه قد سبق لهــم الاتصال بها خلال القــرن الرابع عشر بموجب وثائق تل العمارنة.. ومهما يكن من شأن تلك الرواية، فإن البلاد ظلت خلال هذا الزمن المديد كله محتفظة تماماً بطابعها العربي القديم، دون أن يقوم أي شاهدٍ تاريخي على أنها اختلطت قبل ذلك بالتأثير اليهودي أوالإسرائيلي من قريب أو بعيد..

وكما أن العلامــة اليهودي «تشومسكي» يُحــذِّر قراءه من اعتماد الروايات – ناهيك عــن الخرافــات الدينية- كمصــدر لكتابة التاريــخ البشــري، لأن «التأريخ» علم عقلي يستلــزم التدقيق والتحقيــق، وليس مجرد «إيمــان» أعمى بما صَنَّفَــه كَتَبَةُ التوراة من حكايات، فــإن كامل علاقــة اليهود الأولى بأرض كنعان، فلسطين، وعلى قشرة السطح الخارجي لتاريخ هــذا الشطر الجنوبي من إقليم الشــام الكبير، تــكاد تنحصر ما بين القرون الأربعــة الأولى الممتــدة من القرن الحادي عشر إلى القرن السابع قبل الميلاد، حيث استطاعــوا أن يحققوا لأنفسهم نوعاً من السلطــة الزمنية علــى مواقع متفرقة مــن أرض فلسطين، خاصة على عهد النبي داوود، فَولَــدهِ النبــي سليمــان، وذلك من خلال ما تعارف عليه المؤرخون اليهود باسم «المملكــة المتحدة» التي سرعان ما انشطرت في سنة ٩٧٥ قبل الميلاد، ليس إلى مملكتين اثنتين كما تحب الروايــة التوراتية أن تؤكد علــى ذلــك، وإنمــا إلى شبــه «مَشْيَخَتين» دينيتــين، عدوتين، متناحرتــين، إلى درجة التلاشي والاضمحلال.. أولاهما هي «مملكة يهوذا» التــي اتخذت «أورو- سالم» الكنعانية (المرطونة عبرانياً بلفظة «أورشاليم») مقراً لهــا.. والثانية هي «مملكــة إسرائيل» التي لَطَــأَتْ إلى الشمال منهــا في مدينة نابلس المعروفة آنــذاك باسمهــا الكنعاني القديم «شكيم»

وهكــذا، وبعــد أن اجتــث الآشوريــون والبابليون هاتــين «المملكتين – المشيختين» مــن جذورهمــا ما بــين القرنــين السابع والسادس قبل الميلاد، فإن أرض كنعان ظلت هي نفسها أرض كنعــان، بكامل مأهوليتها البشرية من جانب مواطنيها العرب الأصلاء المستديمــين على مَــرِّ جميــع العصور، في حين يرغب المــؤرخ اليهودي العادي بنزعته التقليديــة في تزوير كل ما يقع بين يديه من

أوراق العملة حتى حقائق التاريخ، في تصوير الوجود السطحي، والطارئ، والعابر، لنوعه اليهودي في ذلك الزمن المحدود، وكأنه يُشكِّل كامل التاريخ الفلسطيني القديم، عن طريق إغفال، أو إسكات، أو حتى تحريم كل ما هو غير يهودي من ذلك التاريخ!!.. واستعاضوا عنه بذلك الكمِّ الهائل من خرافات أسفار التوارة التي سرعان ما أصبحت بمنزلة «التاريخ المقدس» الذي ينبغي على قارئ «العهد القديم» يهودياً كان، أم مسيحياً مُتهوِّداً كما في الطائفة البروتستنتية مثلاً أن يؤمن به على إطلاقه، وبدون أية محاكمة عقلية له من قريب أو بعيد، إلى ما يماثل دعوى «الهولوكوست» المعاصرة التي يستحيل على أعظم المفكرين العالميين أن يتعاملوا معها حتى بمنهج الشك «الديكارتي» الموصل إلى اليقين، وإلا دفعوا حياتهم، أو حريتهم، ثمناً لذلك أمام قوس العدالة الفرنسية مثلاً، وتحت سطوة قانون «فابيوس / غيسون»!!..

وعلى أية حال، فإن أي وجود لهذا النوع اليهودي في أرض فلسطين، خاصة من بعد أن أطلق الملك الفارسي «أحشويرش» سراحهم من الأسر البابلي.. ثم من بعد أن انقلبوا على منقذهم الفارسي هذا باصطفافهم إلى جانب خصمه الأقوى «الإسكندر الكبير» (كما في الإصحاح الثامن من سفر دانيال).. ثم من بعد أن اقتلع الرومان شوكتهم بصورة شبه جذرية في خربة «مسعدة» على الكتف الجنوبي الغربي للبحر الميت، فيما يعرف عالمياً بعقدة «المسادا».. فإن أي وجود لهم في أرض فلسطين عبر كل هذا الزمن المديد لم يزد عن كونه شبه وجود غجري، عابرٍ، وسطحي، وغير محسوس..

وهكذا إلى ما بعد قرابة ألفي سنة.. مع انعقاد مؤتمر «بال» عام ١٨٩٧.. فمؤتمر «كامبل بنرمان» عام ١٩٠٦.. فوعد «بلفور» عام ١٩١٧.. فإعلان بن غوريون لإقامة دولته «الإسرائيلية» عشية الليلة البارحة فقط في عام ١٩٤٨.. وكل ما عدا ذلك من ادعاء بالوجود اليهودي المستديم في فلسطين، ما هو إلا قبضُ الريح، وباطل كل الأباطيل!!..

-٤-

لا يسكن معهم أحدٌ من اليهود!!

ها قد مر الآن ما يزيد عن عشرين قرناً على تأسيس مدينة القدس على يد الملك العربي اليبوسي «الصادق ملك السلام»، فيما هي الآن بانتظار أن تتشرف، ويتشرف

معها العالم كله، بميلاد سيدنا المسيح على مرمى الحجر منها، في مغارة بيت لحم.. وخلال هذا الدهر المديد كله، كانت مدينة القدس، أكثر من أي موضع آخر في رقعة العالم القديم مركزَ المثلث الحضاري المتساوي الأضلاع تقريباً، والذي ترعرعت الحضارة الفرعونية في زاويته الجنوبية، والحضارات الآشورية والبابلية والفارسية في زاويته الشمالية الشرقية، والحضارة الهيلينية – وريثة الحضارة الإغريقية – في زاويته الشمالية الغربية..

لقد كانت القدس، في زمن السلم، نقطة تمازجٍ وتفاعل ما بين هذه الحضارات التي تؤلف تاريخ العالم القديم.. وأما في زمن الحرب، فلقد كان احتلالها بمثابة العلامة القياسية لزحف إحدى زوايا هذا المثلث على زاويتيه الأخريين.. ولعل باستطاعة المؤرخ الآن أن يصنف، على أساس وضع مدينة القدس في ذلك الزمن السحيق، الأوضاع العامة لتلك الأثافيِّ الحضارية التي كانت سائدة في تلك الأزمنة..

في عام ٦٣ قبل الميلاد، احتل القائد الروماني «بومبي» مدينة القدس، وفرض على الأقلية اليهودية المقيمة فيها أن تقدم ذبيحة يومية أمام الهيكل باسم قيصر روما عوضاً عن الرب اليهودي.. «يهوه»

أما وأن معظم المراجع التاريخية، المتداولة، عن هذه الفترة، متأثرة إلى حد كبير بمنجزات المدرسة الأوروبية «النهضوية» في علم التاريخ.. ثم على اعتبار أن هذه المدرسة غالباً ما تستقي مادتها عن هذه المنطقة من مصادر دينية، ذات جذور يهودية توراتية بطبيعة الحال.. فإن ما قد يتراءى للقارئ العادي، للوهلة الأولى، هو أنه لم تكن هنالك أقوام أخرى تسكن القدس في هذه الفترة غير اليهود!!.. بل إن مؤرخاً عربياً ذائع الصيت، هو الدكتور «فيليب حتي»، يعطي قارئه الانطباع عن هذه الفترة، وهو يتحدث عن سورية الجنوبية، بأن اليهود هم جسدها الحقيقي، وليس السكان الأصليون في محور اهتمامه بأكثر من جماعات ثانوية تعيش على هامش الوجود اليهودي في فلسطين !!.. بل إن هذا المؤرخ العربي عينه، إذ يتحدث عما عدا القدس من المدن الفلسطينية القديمة، فإنه ينسب بناء مدينة «طبرية» إلى اليهود مع أننا نعلم بصورة علمية قاطعة، أن الذي بنى المدينة هو «طيباريوس» الروماني، الذي جاء اسمها من اسمه.. «طبرية»..

ثم ها هي القدس الآن على أبواب فجر الدولة العربية، ولكن اسمها كان قد تغير في العهد الروماني اعتباراً من منتصف القرن

الثاني بعد الميلاد، فأصبح «ايليا كابيتولينا»، ومن ثم «إيلياء».. وفي هذه التسمية الأخيرة يقول الفرزدق:

وبيتانِ.. بيتُ اللّه نحنُ ولاتُهُ
وَقصرٌ بأعلى إيلياءَ مُشَرَّفُ

والحقيقة أنه لم يكن في دخول القدس في ظل الدولة العربية ما تختلف فيه عن سائر المدن السورية والعراقية والعربية الأخرى، إذ كان ذلك «تحريراً وطنياً خالصاً» من ربقة احتلالٍ أجنبي، فارسي وروماني ذميم، ولم يطلق عليه أجدادنا القدامى صفة «الفتح» بمعنى القهر، أو العدوان على قومٍ آخرين، وإنما بمعنى الفاتحة لمرحلة جديدة في تاريخ هذه الأمة المجيدة.. إلا أن ما امتازت به القدس عن غيرها في حركة التحرير تلك، كان «وثيقة الأمان» التي منحها الخليفة عمر بن الخطاب لأهل المدينة، ومعظمهم من نصارى شعبنا الفلسطيني العربي في ذلك الحين، مع أقلية محدودة جداً من النصارى الإغريق..

تقول وثيقة الأمان هذه.. أو «العهدة العمرية» بتسميتها الغالبة:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

«هذا ما أعطى عبد اللّه عمر، أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان».

«أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، سقيمها، وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من خيرها، ولا من صُلُبِهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارُّ أحد منهم، ولا يَسكنُ بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود»..

«وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزيةَ كما تُعطي أهلُ المدائن، وعليهم أن يُخرِجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، وَيُخلي بِيَعَهُم وصُلُبَهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعِهِم وصُلُبِهِم حتى يبلغوا مأمنهم، فمن شاء منهم قعد، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يُؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم».

«وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ اللّه، وذمةُ رسوله، وذمةُ الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. كتب سنة ١٥ للهجرة»

وهنا لا يستطيع الدكتور فيليب حتي، ومن موقع المؤرخ والأستاذ الجامعي الأميركي،

أن يَمُـرَّ بهذه العهـدة ، الوثيقة، التي يصح اعتبارها مثلاً قياسياً أعلى للعدل والتسامح والتواضع، من دون أن يُـذَرذر عليها بعضاً من توابلـه التوراتية الحاقـدة، حيث يؤرخ لتحرير المدينة على كل هذا القدر من النبل والشهامـة والفروسيـة، بإقحامه القسري المكذوب لمثل هذه النادرة التافهة:

«إن دخول الخليفة المسـن إلى القدس، راكبـاً جمـلاً، لابساً رثَّ الثيـاب، وكان في استقباله صفرونيوس حامي الكنيسة المعسول اللسـان. قيل إنه التفـت إلى أحد مرافقيه وكلمه قائلاً: حقاً هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال، ورآه قائماً في المكان المقدس» !!..

لقد جهـل الدكتور «حتّـي»، أو تجاهل الحقيقة العظمى، والأسمى، في أمر تحرير القدس على هـذه الشاكلة الحضارية التي لا أظـن أن لها نظـيراً في دلالتها الإنسانية السامية، وهي أنـه كان في مقدور الخليفة ابن الخطـاب أن يأذن لأيٍ مـن قادة جند الشـام العظام، خالـد، أو شرحبيل، أو أبي عبيدة، او ابن العاص، بـأن يأذن أيٌّ واحد من هؤلاء لنفرٍ محـدودٍ من رجاله باقتحام مدينـة القدس عنـوة، وفي لمح البصر، ومن دون الوقـوع في أية محاذير عسكرية من أي قبيل، ولكنه، وبرغم ذلك كله، (خَفَضَ جناح الـذُلِّ مـن الرحمـة) لأولى القبلتين وثالث الحرمـين، مسرى محمد وموئل المسيح، فما إن اتصل به «صفرونيوس» بسبيل أن يُسلِّمه المدينـة يداً بيـد حتى رأينا فـاتح المشرق، والمغرب، وهـو يسعى إليه عن طيب خاطر، وعلى سنام ناقة تتـاوب امتطاءها مع أحد مرافقيـه عبر مئات الأميـال!!.. فهذه، في اعتقادي، هي الأمثولة الإنسانية العليا التي كان ينبغـي لفيليب حتـي، أو غير حتي، أن يشدد التركيز عليهـا في مثل هذا السياق.. وبعيداً جـداً عن نبوءة «دانيال» أو غيره من كَتَبَةِ التوارة!!..

علـى أن ما ينبغـي أن يستوقفنا طويلاً في نصِّ «العهـدة العمرية»، وربما في سياق لاحق، هـو مطلـب «صفرونيوس» الحري والمُحـدَّد من الخليفة ألا يسكن مع نصارانا الفلسطينيـين القدامى في القدس أحد من اليهود.. ولهذا الأمر ما له من دلالة عميقة تستحـق مزيداً مـن الإشبـاع في غير هذا المجال!!..

-٥-

يهود هذا الزمان!!..

عاشـت القدس عصرهـا الذهبي حتى أواسـط العهد العباسي، ثـم أخذت تدخل

تدريجياً (مع اضمحلال الشخصية العربية) في الإطار الفضفاض للدولة الإسلامية..

لقد كان خطأ الدولة العباسية الذي لا يمكن اغتفاره تاريخياً، هو ابتعادها بمركز الدولة العربية من دمشق إلى بغداد على تخوم العناصر القومية الأخرى، وتحت تأثيرها بالضرورة، وذلك من حيث كان يجب في كرسي الخلافة أن يتوسط قلب الدولة، لا أن يلطأ بأطرافها البعيدة، خاصة في دولة كبرى مترامية الأطراف، وفي زمن يافع فقير المواصلات.. أما وأننا لا نستطيع أن نعيد صناعة الماضي، فلا أقل من وعيه وإدراك مغازيه..

ولكن، وفي أواخر هذا العصر الذهبي (من بعض جوانبه)، بدأت أوصال الدولة العربية تتفكك تدريجياً إلى أن ظهر في فلسطين عيسى بن الشيخ الشيباني الذي استقل بها عن بغداد المتهالكة آنذاك، وما إن أقبل القرن العاشر الميلادي حتى دخلت مصر والشام في ظل الدولة الإخشيدية، واعتباراً من ذلك التاريخ دخلت القدس، مع غيرها، تحت جنح الليل الشعوبي البغيض.. وهكذا.. لم يكن القرنان العاشر والحادي عشر، على طولهما، بأكثر من مقدمة تاريخية ستؤدي حتماً إلى تفتح الأطماع الأوروبية في الوطن العربي.. وخلال هذين القرنين من التعبئة والاستعداد على متسع البلدان الأوروبية، كانت الصورة العامة للقدس تدعو إلى الأسف والرثاء.. فلقد أخذت المدينة تتنازعها أيدي القادة العسكريين، وأشباه الخلفاء، إلى أن تقلبت خلال ما لا يزيد عن مئة وستين سنة على عدة عهود متناحرة، هي العهد الإخشيدي، فعهد الفاطميين، فعهد السلجوقيين، فعهد الأرتقيين عام ١٠٧٧.. هذا الأخير الذي أسلمها لقمة سائغة لأفواه الصليبيين عام ١٠٩٩..

على أننا، في أواسط هذه الفترة، تقريباً، سنقف عند نقطتين جديرتين بالملاحظة، أولاهما تُصَوِّر حالة الازدهار والرخاء العام التي بلغتها مدينة القدس في ظل الدولة الفاطمية.. والثانية النقيضة لها، وفي العهد الفاطمي نفسه، تسجل انتقال النفوذ اليهودي من فلسطين كلها، وإحداقه بكرسي الخلافة في القاهرة..

فمن جهة أولى، يقدم لنا «المقدسي» هذا الوصف لمدينة القدس، في قوله:

«بيت المقدس ليس في مدائن الكور

أكبر منها.. ليســت شديدة البرد، وليس لها حر، وقلما يقع بها ثلج.. تلك صفة الجنة.. بنيانها حجر، لا تــرى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف مــن أهلها ، ولا أطيب مــن العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها.. عنبها خطير وليس لمعتقتها نظير، وفيها كل حاذق وطبيــب، وإليها قلــب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب!!»..

وأمــا من الجهة الأخــرى، المغايرة، فإن الشاعر الرضيِّ (ابن البواب على الأغلب)، يصــور لنا بغير قليلٍ مــن السخرية المرة ما قد بلغــه النفوذ اليهودي مــن سيطرة على الخليفة الفاطمي وبطانته في القاهرة:

يَهُودُ هذا الزمانِ قد بَلَغُوا
غايةَ آمالِهم وقـد مَلَكوا
العِزُّ فيهم ، و المـالُ عندهُمُ
ومنهـمُ المستـشـارُ والمَـلِكُ
يا أهل مصر لقد نصحتُ لَكُم
تَهُودوا ، قد تَـهَـوَّدَ الفَلَكُ

وعند ذلك تماماً – أي مع تغلغل النفوذ اليهودي في السلطــة الفاطمية– كانت نذر الحــرب الصليبية الأولى تقــرع بشدة على الأبواب..

-٦-

إذاً، ماذا يريد الشيطان؟!..

ما إن انتهى البابا «أوربانوس الثاني» من إلقاء خطابه الشهــير في كليرمونت بفرنسا عام ١٠٩٥، حاثّاً دهماء أوروبا على استعادة قبر السيد المسيــح (من أيدي الغاصبين!!)، حتــى دوت في أوروبا كلهــا صيحة الحرب المسعورة:

«هكذا يريد الله.. هكذا يريد الله»!!..

وغنــيٌّ عــن الذكــر أن هــذه الصيحة انطلقت في آن معاً من أفواه بعض المتدينين السُــذَّج، ولكن، وفي الوقــت نفسه من أفواه جميع التجــار، واللصوص، وقطاع الطرق، والأمراء المغامرين..

ومــا هــي إلا سنوات أربــع، حتى كانت الجيوشــ التي استجابت لنفــير البابا تدك أسوار القدس، وتجتاحهــا كيوم الطوفان.. وتذكــر حتــى المصــادر اللاتينيــة نفسها أن النظــر كان يقع على أكــوام من الرؤوس والأيــدي والأقدام في الطرق وفي الساحات العامــة« .. وعلــى الفور من تلــك المذبحة الهائجة، والشاملة لأهل القدس كافةً، بعث (منقذو قبر السيد المسيح رسالة إلى قداسة باباهم) يبشرونه فيها »بأن خيولهم في باحة

المسجد الأقصى كانت تخوض حتى الركب في بحرٍ من دماء المسلمين» .. ولعل مما يقع في قناعة القارئ العادي، وإلى مرتبة اليقين، أن تلك اللطخة الصليبية الأشد سواداً في مجمل تاريخنا البشري، حاشا أن تكون من»إرادة الله«الرحمن الرحيم، إذ في مثل هذه الحالة، المستحيلة، ماالذي كان يمكن أن يريده الشيطان نفسه أفظع مما كان!!..

ولكن، ولئلا يقع عقلنا العربي والإسلامي في نفس الخطأ، للمرة الألف، فإن الضحايا الذين استهدفهم أولئك البرابرة الصليبيون لم يقتصروا في أي يوم من الأيام على العرب والمسلمين وحسب، وإنما كان مسيحيو المشرق العربي، وجُلُّهم من رأس النبع المسيحي الأورثوذكسي، على نفس تلك الدرجة من الاستهداف، والشواهد التاريخية على ذلك أكثر بكثير من أن تحصى، ولعل من أوجب الواجبات على مفكرنا العربي الأورثوذكسي المعاصر أن ينفض الغبار بقوة عن مثل هذه الحقيقة الصارخة، كي لا يكون من السهل مطلقاً على العديدين جداً من ضحايا الجهل والتخلف والتعصب الأعمى في بعض أوساطنا أن يضعوا (جميع النصارى) في نفس سَلَّةِ الحروب الصليبية بصفة جامعة مانعة، وعلى العكس تماماً مما أوصى به الله في قرآنه الحكيم!!..

وإلا، فما الذي يعنيه مثلاً مؤرخ الحملة الصليبية الفرنسية على مصر، «جان دوجوانفي» -(وبالاقتطاف من أنطولوجيا «رجال في الحرب» لإرنست همنغواي - ص٧٣)- عندما يهاجم بسخرية سمجة «من يدَّعُون أنهم مسيحيون في الأراضي المقدسة، ومع ذلك فإنهم يحملون اعتقاداً شبيهاً باعتقاد البدو هناك، من أنه لا يمكن لرجل أن توافيه المنية قبل أجله المعلوم!!»..

وتلك في اعتقاده هي الهرطقة الصُراح!!..

أو، مثلاً أيضاً، ما الذي يمكن أن يستخلصه القارئ من مصاحبته للعلامة «ستيفن رنسيمان» في كتابه الموسوعي بعنوان «تاريخ الحروب الصليبية- مج١ - ص ١٨٩»، وهو يصاحب بدوره تحركات القطعان الصليبية كذئاب جائعة في البر التركي، ليقول:

«وفي منتصف سبتمبر، أوغل بضعة ألوف من الفرنسيين في المغامرة حتى بلغوا أبواب مدينة «نيقية».. فقتلوا»السكان المسيحيين في وحشية بشعة، وجرى القول إنهم قاموا بشواء الأطفال على السفافيد!!..

وكائنةً ما تكون الإجابة على مثل هذه التساؤلات المحقة، فلست أظن أن جائحة عدوانية أخرى وقعت على سطح كوكبنا

الأرضي هذا قد اتصفت بمثل تلك الهمجية القياسية التي اتصف بها احتلال الصليبيين القدامى لمدينة القدس.. وها هم حتى يوم الناس هذا، وفي أكثر من ألف دير ياسين متلاحقة حول القدس وفي أكنافها، وبشعار النجمة هذه المرة لا بشعار الصليب، يعاودون إدعاء إرادة الله لكل ما يقترفونه من أفاعيل الشيطان.. والرئيس جورج بوش في (حواراته الروحية مع ربه الخصوصي) أقرب، وأبشع مثال على ذلك!!..

-٧-

إيهاً بني الإسلام!!..

ولكن، وقبل أن نكتفي حالياً بهذا القدر من مثل هذه الهوامش المقدسية المفتوحة بطبيعتها على ألوف الخواطر والأفكار، بطول عمر المدينة، وبأهميتها المركزية الاستثنائية، فلعل ما ينبغي لنا أن نلاحظه بوجه خاص، وربما بمغزى عميق أيضاً، هو ما كانت عليه حياتنا الثقافية العربية من خُواءٍ مريع، وفقر إبداعي مدقع في تلك المرحلة اللعينة بحق معنى الكلمة، حتى إننا نكاد لا نجد حَيِّزاً محسوساً في خزانة التراث العربي لأية «استجابات» أو انعكاسات إبداعية عربية، على مستوى الشعر، أو حتى على مستوى النثر، بما يمكن أن يتكافأ من قريب أو بعيد مع حجم «التحدي» الصليبي الذي اكتسح رقعة المشرق العربي في ذلك الزمان كجائحة طاعون جهنمية مهلكة للحرث والنسل.. لا ولن نعثر أيضاً، من بعد اندحار تلك الصليبيات بحد السيف، ما يحكى لنا، وبمستوى إبداعي آبدٍ على مَرِّ الزمان، قصة انتصاراتنا الظافرة تلك، ابتداءً من «حطين» صلاح الدين في دفع الغائلة الأوروبية الصليبية.. «فعين جالوت» الظاهر بيبرس في دفع الغائلتين المغولية والصليبية معاً..

وعلى أية حال، لقد استوقفني يوماً شاهدان تراثيان في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، أحدهما سردي تأريخي يلتقط فيه صورة جانبية سريعة لدخول الإفرنج لمدينة القدس.. والثاني المتصل به مباشرة شاهد شعري لابي المظفر الأبيوردي حول الواقعة نفسها.. ولا شك أن لكلٍ من هذين الشاهدين دلالته الخاصة التي يستطيع إيصالها، حتى للقارئ العادي، بمنتهى السهولة واليسر -(أو ربما السخرية أيضاً)- فيما يتعلق بمأساة «إفطار الصائمين» في عاصمة الخلافة بغداد، من جراء ما سمعوه عن مأساة اجتياح القدس!!..

يقول ابن الأثـير (في كامله في التاريخ- مج٨ - ص ١٨٩):

«وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعـين ألفاً، منهـم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين»وعلمائهم وعُبَّادهم وزُهَّادهم، ممن فـارق الأوطان وجـاور بذلك الموضع الشريـف -(وأظن أن «مـا يعنيه المؤرخ هنا هو حيَّ المغاربة اللصيـق بالحرم القدسي، والغاصُّ منذ مئات السنين»بعشرات الألوف من أهلنا المغاربة

ثم، مـن بعد أن يعـدِّد المـؤرخ قناديل الذهـب والفضة وما إلى ذلـك من نفائس المسجـد التي انتهبها اللصوص الصليبيون، يستكمل قائلاً:

«وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد.. فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا واستبكوا، وذكروا مـا دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال، وسَبْي الحريم والأولاد، ونهب الأموال.. فلشدة ما أصابهم، أفطروا!!»

وأما عن الشاهـد الثاني الشعري، لأبي المظفـر الأبيـوردي، وتالياً مباشـرة لنادرة إفطـار رمضـان الآنفة الذكـر!!.. فلست أتـردد في الاعتقاد بأنه مـن أطيب ما قد رشح لنا من بـين قصائد عصر الانحطاط الأدبـي ذاك، بل ولعلـي أيضاً أجد فيه من القيمة الشعرية العالية، نسبياً، ما يؤهله لأن يكون نصاً مدرسياً ثانوياً يضيف إلى ثقافة التلميذ العربي مَلْمحاً بارزاً عن وجوه الشبه ما بين فاجعة القدس بالأمس.. وفاجعتها الماثلة اليوم..

ومن القصيدة

مَزَجنا دماءً بالدموعِ السواجِمِ
فلم يَبقَ منَّا عرصةٌ للمَراحِمِ

وَشَرُّ صلاحِ المرءِ دمعٌ يُفيضُهُ
إذا الحربُ شَبَّت نارُها بالصوارمِ

فإيهاً بني الإسلامِ إن وراءكم
وقائعَ يُلحِقنَ الذرى بالمناسمِ

أتهويمةٌ في ظلِّ أمـنٍ وغِبطةٍ
وعيشٌ كَنُـوَّارِ الخميلةِ ناعمِ

وكيف تَنام العينُ ملء جفونها
على هَفَواتٍ أيقظتْ كُلَّ نائمِ

وإخوانُكم بالشام يُضحي مَقيلهُم
ظهورَ المذاكي أو بطونَ القَشاعِمِ
تَسومُهُمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ
تَجُرُّونَ ذيلَ الخفضِ فِعْلَ المُسالمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ ومن دُمَىً
تُواري حَياءً حُسنَها بالمَعاصِمِ
وتلك حروبٌ من يَغِبْ عن غِمارها
لِيَسلَمَ يَقْرَع بعدَها سِنَّ نادِمِ
أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى
ويُغضي على ذُلٍّ كُماةُ الأعاجِمِ
فَلَيتَهُمُ إذ لم يَذُودوا حَمِيَّةً
عن الدينِ، ضَنُّوا غيرةً بالمَحارِمِ
وإن زَهِدُوا في الأجرِ إذ حَمِيَ
فَهَلَّا أتَوْهُ رغبةً في الغنائمِ
دَعوناكُمُ والحربُ تَرنُو مُلِحَّةً
إلينا بألحاظِ النُسورِ القشاعِمِ
تُراقِبُ فينا غارةً عربيةً
تُطِيلُ عليها الرومُ عَضَّ الأباهِمِ



الدراسات والبحوث



من وثائق القدس

حسين العودات*

اخـتـرت (٢٧) وثيقة تتعلق بمدينـة القدس معظمها قـرارات اتخذتها الجمعيـة العامـة لـلأمم المتحـدة والمنظمات التابعـة لها وهـي إذ تؤكد حقـوق العرب في فلسطـين، تدل على الصلف الإسرائيلـي المتمثل بتجاهل الشرعية الدولية بـل الاستخفاف بها وإهمالها وعدم تنفيذ قراراتها وتشير إلى عجـز الجمعية العامـة ومجلس الأمن والدول الأعضـاء إلزام إسرائيل بالامتثال لها.

* كاتب وباحث سوري.



لقد استمــر العــدوان الإسرائيلي على القدس منــذ قيام دولة إسرائيــل، ثم أخذ يتنامى سواء بهدم أحياء عربية أم بالاعتداء على الأماكن المقدسة، والأهم بضم القدس واعتبارها عاصمة لدولــة إسرائيل، وأخيراً بهــدم الأحياء العربية حياً بعد آخر وتوسيع نطاق المدينة بعد إلحاقها تحت اسم (القدس الكبرى) ثم إغراقهــا بالمستوطنات، وبديهي أن الهدم والضم والاستيطان أعمال عدوانية تخالف الشرعيــة الدولية التي . رغم ذلك . مازالــت تتفرج على هــذه الأعمال دون أن تلوي على شيء.

تؤكــد الوثائق بما لا يقبــل الشك عدم اعــتراف أحد بهــذه الأعمــال الإسرائيلية الشائنة واستنكار المجتمع الدولي لها، وتدل علــى استخفاف إسرائيــل بالقانون الدولي وإهانة الشرعية الدولية.

وثيقة رقم (١)

العهد العمري

وثيقــة الأمان التــي بعث بهـا الخليفة عمر بن الخطاب

لبطريرك النصارى صفرونيوس سنة ٦٣٧م، ١٥ هـ

الحمد لله الذي شرفنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمــان ورحمنا بنبيه محمد (ص) وهدانا من الضلال وأنقذنا به مــن التهلكة ووحد قلوبنــا، ونصرنا على الأعــداء وثبت أيدينا وجعلنا أخوة متحابين فاحمدوا الله يا عباد الله على هذه النعمة.

أمــا بعد فهــذا عهد مني أنــا عمر بن الخطاب أعطــي للشيخ الوقــور بطريرك الأمة الملكية صفر ونيوس على جبل الزيتون بمقــام القدس الشريــف في الاشتمال على الرعايــا والقسوس والرهبــان والراهبات حيــث كانوا وأيــن وجدوا أن يكــون عليهم الأمــان لأن الذمي إذا حفــظ أحكام الذمة وجب له الأمــان والصون منا نحن المؤمنين وإلى من يتولى بعدنــا ولتقطع عنهم أسباب جوانحهــم كحســب ما قد جــرى منهم من الطاعــة والخضــوع وليكن الأمــان عليهم وعلــى كنائسهم ودياناتهم وكافــة زياراتهم التي بيدهم داخــلاً وخارجاً وهي: القيامة وبيت لحــم مولــد عيسى (عليــه السلام) الكنيسة الكبرى المغــارة ذات الثلاثة أبواب قبلي وشمالي وغربي وبقية أجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من الإفرنج والقبط والسريان والأرمــن والنساطــرة واليعاقبــة والموارنة تابعــين للبطريرك المذكور ويكــون متقدماً عليهم لأنهم أعطوا من حضرة النبي الكريم

والحبيب المرسل من الله وشرفوا بختم يده الكريم وأمر بالنظر إليهم والأمان عليهم كذلك نحن المؤمنين نحسن إليهم ويكونون معافين من الجزية والغفر الواجب ومسلمين من كافة البلايا في البر والبحر وفي دخولهم للقيامة وبقية زياراتهم لا يؤخذ منها شيء. وأما الذين يقبلون إلى الزيارة إلى القيامة يؤدي النصراني إلى البطريرك درهماً وثلثاً من الفضة وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطاناً أم حاكماً أم والياً يجري حكمه في الأرض غني أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات. وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم من الصحابة الكرام عبد الله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وبقية الأخوة الصحابة الكرام. فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به ويبقى في أيديهم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل.

في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٥ للهجرة النبوية. وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن إلى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الحبيب باغضاً.

وثيقة رقم (٢)

اقتراح هرتزل للسلطان عبد الحميد بإنشاء جامعة يهودية في القدس

١٩٠٢/٥/٣

لي الشرف أن أتقدم لحكمة جلالتكم المتناهية بالاقتراح التالي: إني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شبان تركيا لتتلقى التعليم في الخارج وما يتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية مما يجعل الحكومة أمام أحد أمرين. إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العلمي أو أن تعرضهم إلى مخاطر الغوايات السياسية. على أن هناك حلاً للمشكلة. وأنا أسمح لنفسي بكل تواضع أن أقدم لحكمة جلالتكم هذا الحل.

إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم والأساتذة اليهود يملؤون جامعات البلدان كما أن هناك عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول التعليمية لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم ولتكن في القدس مثلاً عندها لن يضطر الطلاب العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج بل يبقون في بلادهم

ويتلقـون فيها أفضـل التدريب وهم ضمن أحـكام بلدهـم، والجامعـة اليهودية تقوم بتقديم أفضل مـا تقدمه أحسن الجامعات ومدارس التدريب المهني ومدارس الزراعة. ولن تقـدم مثل هـذه المؤسسـة إلا ما هو أفضل وعندها تقوم بدورها في خدمة العلم والطلاب والبلاد.

وثيقة رقم (٣)

لجنة التحقيق العسكرية (الإنجليزية) للتحقيق في أسباب الاضطرابات التي وقعت في القدس

في ٢٠ أبريل سنة ١٩٢٠[١]

قام الثائرون من العرب في مدينة القدس بهجـوم (وحشي) على اليهود وأموالهم وقد قتل خمسة من اليهود وجرح ٢١١ وقد أعيد الأمـن إلى نصابه بتدخل كتائب من الجيش البريطاني وكان عدد القتلى من العرب أربعة والجرحى ٢١.

وقد قررت لجنة التحقيق العسكرية ((لم يطبـع تقريرها)) أن أسبـاب الاضطرابات هي ما يأتي:

أ. خيبـة أمل العرب لعدم تنفيذ الوعود باستقلالهم التي يدعـون بأنها سنحت لهم أثناء الحرب.

ب. اعتقاد العرب بأن وعد بلفور يتضمن إنـكاراً لحق مصيرهم وخوفهـم من إنشاء الوطن القومي الذي يعني الزيادة الهائلة في الهجرة اليهودية التي ستؤدي إلى إخضاعهم لسيطرة اليهود الاقتصادية والسياسية.

ج. ازدياد حدة الشعـور بسبب الدعاية التـي تبث من خـارج فلسطـين مصحوبة بإعلان الأمير فيصل ملكاً على سورية التي أعيدت لهـا وحدتها وتنمو فكـرة الاتحاد العربـي والاتحـاد الإسلامـي مـن ناحية وبسبب نشـاط اللجنـة الصهيونية مؤيدة بمـوارد ونفـوذ اليهود في أنحـاء العالم من الناحية الأخرى.

وثيقة رقم (٤)

من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين

(المتعلق بالقدس) ١٩٤٧/١١/٢٩

الأماكـن المقدسـة والمبـاني والمواقـع الدينية

١. إن الحقوق القائمة بما يتعلق بالأماكن المقدسـة والمباني والمواقع الدينية لا تنكر أو يعفى عليها.

٢. يجب ضمان حرية الوصول والزيارة والعبـور (ترانزيـت) بقدر مـا يتعلق الأمر بالأماكـن المقدسة، وفقاً للحقـوق القائمة وذلك لجميع القائمين والمواطنين في الدولة

الأخــرى وفي مدينة القدس والغرباء كذلك، دون مــا تمييــز في الجنسيــة مــع مراعاة احتياجــات الأمــن الوطني والنظــام العام واللياقة، كمــا تضمن حرية العبــادة وفقاً للحقوق القائمة مــع مراعاة صيانة النظام العام واللياقة.

٣ ـ يجب صيانة الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينيــة. ولا يسمح بعمل من شأنه أن يضــر بأي وجه بصفتهــا المقدسة. وإذا ظهــر للحكومــة في أي وقــت أن أي مكان مقدســ معــين أو مبنى أو موقــع ديني في حاجــة للإصلاح، فيجوز للحكومة أن تدعو الطائفة أو الطوائف ذات الشأن للاضطلاع بمثــل هــذا الإصــلاح، ويجــوز للحكومة نفسهــا أن تضطلع به على نفقة الطائفة أو الطوائف المختصة إذا لم يتخذ إجراء خلال وقت معقول.

٤ ـ لا تستــوفى ضريبــة عــن أي مكان مقدســ، وكل مبنــى أو موقــع دينــي كان مستثنــى من دفــع الضريبة بتاريــخ إنشاء الدولــة ويجب أن لا يقع تغيير في عبء مثل هــذه الضريبة يؤدي إمــا إلى الإجحاف في المعاملة بين مالكي وشاغلي الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينيــة. أو أن يقع هؤلاء المالكــون والشاغلون في مركــز أقل ملاءمة بالنسبة لعبء الضريبة العام مما كانوا عليه وقت تصديق تواصي الجمعية العامة.

٥ ـ لحاكم مدينة القدس الحق في أن يقرر ما إذا كانت أحــكام دستور الدولة الخاصة بالأماكن المقدســة والأبنية والمواقع الدينية الموجــودة داخل حــدود الدولــة والحقوق الدينيــة المتعلقــة بهــا مطبقــة ومحترمة على الوجــه الأكمل، وأن يتخــذ بالاستناد إلى الحقــوق القائمــة جميــع القرارات في حــالات المنازعات التي قد تنشأ بين مختلف الطوائف الدينية أو بشأن الطقوس الدينية لطائفــة ما بالنسبة لهــذه الأماكن والأبنية والمواقع. ويجب أن يلقــى تعاوناً كاملاً وأن يتمتع بالمزايا والحصانات الضرورية للقيام بمهام منصبه في الدولة.

وثيقة رقم (٥)

قــرار مجلس الوصــاية رقــم ٣٣ تــاريخ ١٩٤٨/٣/١٠

الطلب إلى الأمين العام توفير اعتمــادات متعلقــة بمشــروع نظــام القدس[٢]

إن مجلس الوصايـة:

وقد أحاط علماً أن الجمعية العامة قد نصــت بقرارها الذي صــدر في ٢٩ تشرين الثــاني (نوفمبر) حــول حكومة فلسطين في

المستقبــل، أن تدار مدينـــة القدس من قبل الأمم المتحـــدة بموجب نظـــام دولي خاص، واختارت مجلـــس الوصاية ليضطلع بالنيابة عـــن الأمم المتحـــدة بمسؤوليـــات السلطة الإدارية بالنسبـــة إلى المدينة، ويضع نظاماً مفصلاً للمدينة ويوافق عليه.

١ ـ يحيـــط علماً بالتقريـــر الذي رفعه حول مضامـــين الميزانيـــة المتعلقة بمشروع نظام مدينة القدس (وثيقة t/١٤١ ، وبتقرير الأمين العام بموجب القاعدة ٦٥ من قواعد ســـير العمل للمجلس والنظام ٣٨ من أنظمة الجمعية المالية المؤقتة (وثيقة t/١٤٢).

٢ ـ يطلب من الأمين العام توفير الأموال اللازمة خلال عـــام ١٩٤٨ للنشاطات التي يجيزها مجلس الوصاية على أساس الجزءين الأول والثـــاني مـــن تقرير لجنـــة مضامين الميزانية المذكورة أعلاه.

٣ ـ يقرر، بغية إعـــداد توصيات متعلقة بالميزانيـــة ليعرضها مجلـــس الوصاية على الجمعية العامـــة في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨، الطلب إلى الأمين العام، آخذاً بعين الاعتبار مشـــروع نظام مدينـــة القدســـ ومضامين الميزانية الناشئة عنه، كما هو وارد في الوثيقة (t/١٤١) إعـــداد تقديـــرات بنفقـــات سنة ١٩٤٩ اللازمة لضمـــان القيام بمسؤوليات الأمم المتحـــدة تجاه مدينـــة القدس، لينظر فيها مجلس الوصاية في اجتماعه في حزيران (يونيو).

تبنى المجلـــس هذا القـــرار، في جلسته رقم٣٥.

وثيقة رقم (٦)

قرارات مؤتمر القدس

٣١ يناير سنة ١٩٤٩[٣]

١ ـ تأكيد عروبة فلسطين ووحدتها تبعاً لحق أهلهـــا الأصليـــين في تقرير مصيرهم وعـــدم الاعتراف بـــأي حـــال يخالف هذا المبدأ.

٢ ـ تأكيد حق أهـــالي القدس ومنطقتها المذكـــورة في قرار الأمم المتحـــدة بأكثريتهم العربية في تقرير مصيرهم. ورفض الانصياع لأي حل يسلبهـــم حريتهم ويخضعهم لنظام حاكم دولي رفضاً باتاً.

٣ ـ دعـــوة الدول العربيـــة وكل مفاوض عربي، وكل رئيس دينـــي إلى التمسك بهذا المبدأ والدفاع عنه.

٤ ـ دعوة الدول العربية إلى عدم التعاون

مع لجنة التوفيق الثلاثية في أمر من الأمور قبل تأمين حقوق النازحين العرب.

٥ ـ نشر كتاب أسـود لتنوير الرأي العام العالمـي عن عـدوان اليهود علـى الأماكن المقدسة.

٦ ـ الدفـاع عن القدس حتـى النهاية، والاستعداد لاستئنـاف القتال مع المحافظة على حالة الحـرب مع اليهـود واستئنافها حتى الإنقاذ التام.

٧ ـ الإبـراق إلى ملوك العـرب ورؤساء حكوماتهم بالدعـوة إلى الاتحاد والتضامن وإلى عقـد مؤتمـر عربي عـام مستعجل، لتنظيم التعاون العربـي على أسس جديدة جديـة صادقـة، ولوضع الخطـط اللازمة للدفاع عن القدس ولاستئناف الجهاد العام لإنقاذ فلسطين.

وثيقة رقم (٧)

قرار من مجلس الوصاية

دعـوة إسرائيـل إلى إبطـال نقـل بعض الدوائر والوزارات إلى القدس[٤]

إن مجلس الوصاية:

إذ يساوره القلق من نقل بعض الوزارات والدوائـر المركزية في حكومـة إسرائيل إلى القدس.

وإذ يعتـبر أن مثل هـذا العمل يتجاهل ويتعارضـ مع أحـكام الفقـرة ٢ من قرار الجمعية العامة رقم ٣٠٣ (الدورة ٤) الصادر في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩.

١ ـ يـرى أنه من الأرجح أن عمل حكومة إسرائيل سيؤدي إلى جعل تنفيذ نظام القدس الـذي عهد بـه إلى المجلسـ بموجب قرار الجمعية العامة الصـادر في ٩ كانون الأول ديسمبر ١٩٤٩ أكثر صعوبة.

٢ ـ يطلب من رئيس مجلس الوصاية:

أ ـ أن يدعـو حكومة إسرائيل إلى تقديم بيان خطي حول المسائـل التي تناولها هذا القـرار وإلى إلغاء تلك الإجراءات والامتناع عن أي عمل مـن شأنه أن يعيق تنفيذ قرار الجمعية العامة الصـادر في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩.

ب ـ أن يبقـى على صلة وثيقة بتطورات الأمـور في القدس حينما لايكـون المجلس منعقداً.

٣ ـ يطلب مـن الأمين العام إيصال هذا القـرار فوراً إلى جميع الـدول الأعضاء في الأمم المتحدة.

تبنى المجلسـ هذا القرار فـي جلسته رقم ٨.

وثيقة رقم (٨)

مذكرة الحكومة الأمريكية إلى حكومة إسرائيل

بشأن نقل وزارة خارجية إسرائيل إلى القدس

(٩ يوليو ١٩٥٢)

لقد نظرت الحكومة الأمريكية بعين القلق إلى القرار الذي أعلنته حكومة إسرائيل في ٤ مايو الماضي بشأن نقل وزارة خارجيتها إلى القدس.

والحكومة الأمريكية لا تزال تتمسك. كما كانت في الماضي. بوجوب اتباع نظام دولي خاص في القدس يكفل ليس فقط حماية الأماكن المقدسة بل كذلك إرضاء إسرائيل والأردن فضلاً عن بقية دول العالم.

ولما كانت مشكلة القدس لا تزال تحتفظ بأهميتها الدولية، فإن الحكومة الأمريكية ترى من الواجب إعطاء فرصة للأمم المتحدة لإعادة النظر في المسألة بغية وضع نظام للقدس يحفظ بطريقة مرضية مصالح دول العالم والدول التي يهمها الأمر مباشرة.

والولايات المتحدة . بناء على ذلك . لا تنظر بعين الارتياح إلى نقل وزارة خارجية إسرائيل إلى القدس.

وتود الحكومة الأمريكية كذلك أن تبلغ الحكومة الإسرائيلية أنها لا تنوي . تمشياً مع الموقف الذي نرى اتخاذه بشأن القدس . نقل السفير الأمريكي وموظفي السفارة الأمريكية في إسرائيل إلى القدس.

وثيقة رقم (٩)

مذكرة الحكومة الفرنسية إلى الحكومات العربية

بشأن وضع القدس كعاصمة لإسرائيل[٥]

سبتمبر سنة ١٩٦٦

إن موقف الحكومة الفرنسية بالنسبة للقدس مازال كما هو وإن حضور ممثليها إليها لا يعني بأي حال من الأحوال اعترافاً بضم أي جزء من منطقة القدس سواء للأردن أو إسرائيل، وأنها تعتبر القدس جغرافياً وقانونياً منطقة دولية حسب قرارات الأمم المتحدة وإن القنصل الفرنسي في القدس مستقل عن السفارة الفرنسية في عمان وتل أبيب، وإن اتصاله المباشر هو بوزارة الخارجية الفرنسية في باريس. ولهذا السبب لا يقوم خطاب التعيين لدى الحكومتين، وتنحصر دائرته القنصلية باختصاص حاكم القدس العربية وحاكم القدس المحتلة.

أما بخصوص دعوة إسرائيل سفراء

الـدول المعتمـدة لديها لحضـور الاحتفال بافتتـاح مبنى الكنيست، فلقد تلقى البرلمان الفرنسـي هذه الدعـوة. وفي حالة تلبيتها، فإن ذلك لا يعني اعـتراف فرنسا بالقدس عاصمة لإسرائيل. والاعـتراف لا يكون إلا بانتقـال السفير الفرنسي مـن تل أبيب إلى القدس، وبإغلاق القنصليـة الفرنسية في القطاع الإسرائيلي من تلك المدينة.

وثيقة رقم (١٠)

مذكـرة الحكومـة اليابانيـة إلى الحكومات العربية

بشأن وضع القدس كعاصمة لإسرائيل سبتمبر سنة ١٩٦٦(٦)

إن الوفـد الياباني الـذي حضر افتتاح الكنيسـت لا يمثل الحكومـة اليابانية وإن اليابان متمسكة بقرارات الأمم المتحدة حول القدس. وهذه الزيارة لا تعني بأي حال من الأحوال تراجع اليابان عن موقفها واعترافها بالقدس عاصمة لإسرائيل، وإن رئيس المجلس النيابي الياباني قبل الدعوة التي وجهها إليه البرلمـان الإسرائيلي بحسن نية ودون معرفة بالإشـكالات والتعقيدات التي قد تنجم عن مثل هـذه الزيـارة. وقد طلبـت الحكومة الإسرائيلية من رئيس الوفد الياباني أن يغرس شجـرة أمام مبنى الكنيسـت باسم اليابان، إلا أن الحكومـة اليابانية أرسلت برقية إلى السفـارة اليابانية في إسرائيـل تطلب فيها عدم القيام بهذا الإجراء. وفعلاً لم يقم به.

وثيقة رقم (١١)

مذكـرة الحكومـة البريطانيـة إلى الحكومات العربية

بشأن وضع القدس كعاصمة لإسرائيل سبتمبر سنة ١٩٦٦(٧)

إنـه لو فرض أن السفـير البريطاني قد حضـر الاحتفال المذكـور، فهـذا لا يعني اعترافاً مـن قبل بريطانيا بالقدس عاصمة لإسرائيل. وعلى كل فإن الاعتراف بالقدس كعاصمـة لإسرائيـل ليسـ وارداً بتاتـاً في سياسـة بريطانيا في الشـرق الأوسط. وإن السفـير البريطـاني في إسرائيل كثـيراً ما يدعـى إلى حفلات تقام في القدس من قبل الحكومة الإسرائيلية أو من قبل أفراد وليس مـن المعقول أن تعتبر الـدول هذه الزيارات اعترافاً ضمنياً من قبـل بريطانيا بالقدس كعاصمة لإسرائيل.

وقد حضر رئيس مجلس العموم البريطاني حفل افتتـاح الكنيست إلا أن ذلك لا يحمل أي مغزى سياسي نظـراً لأن المذكور حضر الحفل بصفته الشخصيـة، هذا إلى جانب

أن تقاليـــد البرلمان الإنكليزي لا تمنح رئيس مجلس العموم أية صفة سياسية.

وثيقة رقم (١٢)

إبـداء الأسـف للتدابير التـي اتخذتها إسرائيل

لتغيير وضع مدينة القدس[٨]

إن الجمعية العامة:

إذ تشـــير إلى قرارها ٢٢٥٣ (د ١ ـ ط ـ ٥) المتخذ في ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧.

وقد تلقــت التقرير المقــدم من الأمين العام.

إذ تحيــط علماً مع أشــد الأسف وأبلغ القلق بعدم التزام إسرائيل بالقرار ٢٥٣ (د ١ ط ـ ٥).

١ ـ نأسف جداً لتخلف إسرائيل عن تنفيذ قرار الجمعية العامة ٢٢٥٣ (د ١ ط ـ ٥).

٢ ـ ونكــرر الطلــب الــذي وجهتــه إلى إسرائيل في ذلك القرار بإلغاء جميع التدابير التي صار اتخاذها والامتناع فوراً عن إتيان أي عمل من شأنه تغيير مركز القدس.

٣ ـ وتطلب من الأمين العام إعلام مجلس الأمــن والجمعية العامة عــن الحالة وعن تنفيذ هذا القرار.

تبنــت الجمعية العامة هــذا القرار، في جلستهــا العامة رقــم ١٥٥٤ ـ بــ٩٩ صوتاً مقابل لا أحد وامتناع ١٨.

وثيقة رقم (١٣)

تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة

المرفـوع إلى الجمعيـة العامـة بشأن توحيد القدس

بنـاء علـى تقريـر ممثلـه الشخصـي أرنستو تالمان

أكتوبر سنة ١٩٦٧[٩]

قد اتضــح بما لا يدع مجــالاً للشك أن إسرائيل ماضية في اتخــاذ كافة الخطوات اللازمــة لوضع الأجزاء التــي لم تكن تحت سيطرتها من قبل تحت سيادتها.

كما جاء علــى لسان أرنستــو تالمان في التقرير المذكور:

أكدت السلطــات الإسرائيليــة بإصرار أن عملية التوحيــد لا رجوع فيها ولا يجوز التفاوض بشأنها؟

أما ممثلوا العــرب في المدينة المقدسة، فقــد أبانــوا للممثل الشخصــي عن وجهة نظــر قانونية ومشروعة جديــرة بالاعتبار، علــى الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أنهم أدلوا إليه بوجهة نظرهم في منطقة خاضعة للسلطــة العسكريــة الإسرائيليــة، وأنهم لم يكونوا مــن العاملين في الميادــن المختلفة أسوة بمن لاقاهم مــن الإسرائيليين، وأنهم

يفتقــرون إلى أي تنظيم سياســي أو إداري يجمع كلمتهم ويعبر عنها.

فقـد أوضحـت الشخصيـات العربية للممثل الشخصي أن العرب يقرون بالسلطة الفعلية للاحتلال العسكري في ضوء طبيعته المؤقتـة، ويعارضون أي نوع مـن أنواع نقل السيـادة الإسرائيلية علـى القدس العربية عن طريق ضمهـا أو توحيدها داخل نطاق إسرائيل خلافاً للقانـون الدولي العام وجاء هذا على لسان الممثل الشخصي في تقريره حيث يقول:

((إن العـرب يقـرون بنظـام الاحتلال العسكـري كما هـو، وإنهم علـى استعداد للتعـاون مع ممثل هذا النظـام في معالجة القضايـا الراهنة الخاصة بشـؤون الإدارة والإنعاشـ العام. ولكنهـم يعارضون الدمج الإداري في نظـام الدولة الإسرائيلية، الذين يرون فيه خرقاً للقاعـدة القانونية الدولية المستقـرة التي تحرم علـى سلطة الاحتلال النظام القانوني والإداري في الإقليم المحتل، وتعطي السكان في الوقت نفسه حق احترام ملكيتهـم الخاصـة وحقوقهـم وحرياتهم الشخصية)).

كما جاء في هذا التقرير، أن الشخصيات العربية قد أكـدت للممثل الشخصي مراراً وتكراراً أن سكان القسم الشرقي من القدس لم تتح لهـم الفرصة في أن يعربـوا عما إذا كانوا راغبين في الحياة ضمن مجتمع الدولة الإسرائيلية أم لا، وعبروا عن وجهة نظرهم في أن هـذا يمثل انتهاكاً لحق تقرير المصير كما جاء في ميثـاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وأوضـح معظـم العرب الذيـن قابلهم الممثل الشخصـي ((إن السـكان المسلمين قـد صعقـوا لمـا قامـت بـه إسرائيل من أعمال الانتهـاك لقدسية الأماكن المسيحية والإسلاميـة وأنهـم يعتـبرون قيـام كبير حاخامي الجيشـ الإسرائيلي ومعه آخرون بالصـلاة داخل الحرم الشريـف استفزازاً مدبراً للمسلمين)).

((كمـا تركـت البيانات التـي صدرت عـن المسؤولين الإسرائيليـين والشخصيات اليهودية عن إدعـاءات اليهود ومخططاتهم في منطقة الهيـكل آثاراً مفزعة وآثار نسف نحـو ١٣٥ منـزلاً في حي المغاربـة المقابل لحائط المبكى وتسويتها بالجرارات مشاعر القلـق البالغ. فقد أدى هذا العمل إلى طرد نحـو ٦٥٠ مسلمـاً من الفقـراء والمتدينين من مساكنهم القريبـة من المسجد الأقصى المبـارك ومسجد عمر وكانـت هذه المنازل

التي ضمت بينها مسجدين صغيرين من أملاك الوقف الإسلامي (وقف المجاهد أبي الغوث) وبعض الأهالي من العرب)). واتهمت الشخصيات العربية السلطات الإسرائيلية أيضاً بأنها قد انتزعت الحي اليهودي القديم وأخرجت من سكانه نحواً من ثلاثة آلاف ساكن بعد فترة إنذار محدودة، هذا إلى جانب اختيارها إحدى مدارس البنات الحكومية، وتضم مسجداً، على مقربة من الأقصى لتكون مقراً لمحكمة الحاخامين العليا، دون استشارة إدارة الأوقاف التي تتبعها هذه المدرسة. وفضلاً عن كل ذلك فقد ادعت السلطات الإسرائيلية صلاحيات تشمل المحاكم الشرعية الإسلامية، ومراجعة الخطب التي تلقى من منبر المسجد الأقصى في صلاة الجمعة وقامت بحذف بعض الآيات القرآنية منها، بما يخالف تعاليم الدين والشرع الإسلامي.

وأشار تقرير الممثل الشخصي للسكرتير العام إلى القلق الذي أعرب عنه ممثلو الطوائف المسيحية وإحساسهم الخفي بالنسبة للمستقبل وما قد يحمل في طياته من اضطرابات أخرى، لو أن الأماكن المقدسة بقيت تحت سيطرة دولة واحدة. تشد نفسها إلى ديانة واحدة، لم تخف قط ما تراه من أن أهدافها السياسية بالنسبة للقدس تتفق وأهدافها الدينية.

وأخيراً فقد أكد المواطنون العرب على اختلاف طوائفهم للممثل الشخصي أن المزيد من الانتهاكات الإسرائيلية للأماكن المقدسة وحقوق الإنسان لابد وأن يؤدي إلى اضطراب عنيف، يسفر عن نتائج جد خطيرة.

وثيقة رقم (١٤)

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بالقدس[١٠]

٤ يوليو ١٩٦٧

في ٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٦٧ وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية ٩٩ صوتاً دون اعتراض وامتناع عشرين دولة عن التصويت، على مشروع قرار باكستاني (بالاشتراك مع غينيا وإيران ومالي والنيجر وتركيا) خاص بمدينة القدس. جاء في نصه: ((إن الجمعية العامة، إذ تشعر بقلق شديد إزاء الموقف السائد في القدس نتيجة الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع المدينة)).

١ - تعتبر هذه الإجراءات غير مشروعة.

٢ - تدعو إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التي اتخذت والامتناع عن اتخاذ

أي عمل من شأنه تغيير وضع القدس.

٣ ـ ترجو السكرتير العام أن يقدم تقريراً إلى الجمعية العامة ومجلس الأمن حول الموقف وحول تنفيذ هذا القرار في موعد لا يتجاوز أسبوعاً واحداً من تاريخ اتخاذه.

وثيقة رقم (١٥)

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بالقدس(١١)

١٤ يوليو ١٩٦٧

عادت الباكستان، بالاشتراك مع أفغانستان وغينيا وإيران ومالي وماليزيا والصومال وتركيا، إلى التقدم بمشروع قرار جديد يؤكد القرار الأول ويدعو مجلس الأمن إلى القيام على تنفيذه. ولكن ظهر في المناقشات أنه يصعب أن يفوز هذا المشروع بأغلبية الأصوات إذا بقيت فيه الفقرة الخاصة بدعوة مجلس الأمن إلى تنفيذه. وعلى هذا الأساس وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧ على مشروع القرار الآتي:

إن الجمعية العامة

إذ تذكر بقرارها رقم ٢٢٥٣ (الدورة الطارئة الخامسة) الصادر في ٤ تموز (يوليو).

وقد تلقت التقرير المقدم من السكرتير العام. وإذ تأخذ علماً مع الأسف والقلق الشديدين بعدم التزام إسرائيل بالقرار رقم ٢٢٥٣ (الدورة الطارئة الخامسة).

١ ـ تستنكر فشل إسرائيل في تنفيذ قرار الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ (الدورة الطارئة الخامسة).

٢ ـ تكرر دعوتها إسرائيل في ذلك القرار إلى إلغاء جميع الإجراءات التي اتخذت والامتناع عن اتخاذ أي عمل من شأنه تغيير وضع القدس.

٣ ـ ترجو السكرتير العام تقديم تقرير إلى مجلس الأمن والجمعية العامة حول الموقف وحول تنفيذ هذا القرار.

وقد وافت الجمعية العامة على هذا القرار بأغلبية مئة صوت ضد لاشيء. مع امتناع ثماني عشرة دولة عن التصويت.

وثيقة رقم (١٦)

دعوة إسرائيل إلى إلغاء جميع إجراءاتها لتغيير وضع القدس(١٢)

إن مجلس الأمن:

إذ يستذكر قراري الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة الخامسة) الصادر في ٤ تموز يوليو ١٩٦٧، والقرار رقم ٢٢٥٤ ((الدورة الاستثنائية الطارئة الخامسة)) الصادر في ٤ تموز يوليو ١٩٦٧.

وقد نظر كتاب ممثل الأردن رقم (٨٥٦٠/ S) حول الوضع في القدس وتقرير الأمين العام رقم (٨١٤٦/(S.

وقد استمع إلى البيانات التي ألقيت في المجلس.

وإذ يلاحظ أنه منذ تبني القرارات المذكورة أعلاه. فقد اتخذت إسرائيل المزيد من الإجراءات والأعمال التي تتنافى مع هذه القرارات.

وإذ يذكر الحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل، وإذ يؤكد رفضه الاستيلاء على الأراضي بالفتح العسكري.

١ . يأسف على فشل إسرائيل في الامتثال لقرارات الجمعية العامة المذكورة أعلاه.

٢ . يعتبر أن جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية، وجميع الأعمال التي قامت بها إسرائيل بما في ذلك مصادرة الأراضي والأملاك التي من شأنها أن تؤدي إلى تغيير في الوضع القانوني للقدس، هي إجراءات باطلة ولا يمكن أن تغير وضع القدس.

٣ . يدعو إسرائيل بإلحاح إلى أن تبطل هذه الإجراءات وأن تمتنع فوراً عن القيام بأي عمل آخر من شأنه أن يغير وضع القدس.

٤ . يطلب من الأمين العام أن يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن حول تنفيذ هذا القرار.

تبنى هذا القرار في جلسته رقم ١٤٢ بـ ١٣ صوتا مقابل لا شيء وامتناع ٢.

وثيقة رقم (١٧)

خطاب وزير خارجية إسرائيل
إلى السكرتير العام للأمم المتحدة بشأن القدس[١٣]

١١ سبتمبر ١٩٦٧

هناك حقيقة بارزة عن الحياة الراهنة في القدس، وهي الحاجة الطبيعية إلى ضمان الحقوق المتساوية والفرص المتكافئة لجميع سكان المدينة، عن طريق تزويدهم بنفس الخدمات والتسهيلات العامة. ولن يخدم فرض التجزئة والسدود بالمدينة أية مصلحة دولية أو غيرها. بل سيؤدي ذلك إلى المزيد من التوتر وإلى خلق التمييز ولا يمنع ذلك التسوية النهائية لبعض الجوانب ذات الأهمية في وضع القدس والتي تكمن أصولها وقواعدها في الاهتمام الدولي بالمدينة، وأشير هنا إلى الحاجة إلى التغيير الصحيح عن المصلحة الخاصة للديانات الكبرى الثلاث في القدس، ونحن جد راغبين في تحقيق هذا الهدف بالتعاون مع المصالح الدولية المعنية. وإني لواثق أنه يمكن تحقيق

التقدم نحــو هذا الهدف في جو من الهدوء الدولي وهو ما لم يتحقق بصورة محددة حتى الآن.

وثيقة رقم (١٨)

قرار مجلس الأمن بشأن إلغاء إسرائيل لضم القدس إليها

٢١ مايو سنة ١٩٦٨[١٤]

في ٦ أيار (مايــو) استأنف مجلس الأمن بحــث الموقف في القدس حيــث أدان بعض الأعضــاء (باكستان والاتحــاد السوفييتي) الإجراءات الهمجيــة التي ترتكبها إسرائيل ضد العرب في الأراضي المحتلة.

وبعد مشاورات طويلة ومعقدة، تقدمت الــدول الأفريقيــة والآسيويــة واللاتينيــة بمشــروع قرار إلى مجلســ الأمن صباح يوم ٢١ أيار (مايو) وافــق عليه المجلس بأغلبية ١٣ صوتــاً، وامتناع دولتين عــن التصويت هما الولايات المتحدة وكندا. وينص على ما يلي:

إن مجلس الأمن:

بعــد الإشــارة إلى القراريــن اللذيــن اتخذتهمــا الجمعية العامة لــلأمم المتحدة يومي ٤ و ١٤ تموز (يوليو) عام ١٩٦٧.

وبعد الاطلاع على رسالة مندوب الأردن الدائم عن الموقــف في القدس (س/٨٥٦٠) وتقرير السكرتير العــام (س/٨١٤٦).وبعد ملاحظة أنــه منذ اتخــاذ القرارين المشار إليهما اتخذت إسرائيل مزيداً من الإجراءات والأعمال المنافية لهذين القرارين.

وآخذاً بعين الاعتبار الحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل.

وبعد التأكيد أن الاستيلاء على الأراضي بالغزو العسكري أمر غير مقبول.

١ . يأســف لعدم امتثال إسرائيل لقراري الجمعية العامة المشار إليهما.

٢ . يعتــبر أن الإجــراءات والأعمــال التشريعية والإدارية التي قامت بها إسرائيل. ومن بينها نزع ملكية الأراضي والممتلكات، التــي تهدف إلى تغيير الوضــع القانوني في القدس هــي إجراءات وأعمــال باطلة، ولا يمكن أن تغير هذا الوضع.

٣ . يدعــو إسرائيــل إلى أن تلغي بصورة عاجلة جميع الإجراءات التي اتخذتها فعلاً. والامتنــاع عن اتخاذ أي إجــراء يهدف إلى تغيير الوضع في القدس.

٤ . يطلب من السكرتير العام تقديم تقرير عاجل إلى مجلس الأمن عن الإجراءات التي تتخذها إسرائيل لتنفيذ هذا القرار.

وثيقة رقم (١٩)

دعوة إسرائيل مجدداً إلى إلغاء جميع الإجراءات

التي من شأنها تغيير وضع القدس(١٥)

إن مجلس الأمن:

إذ يشير إلى قراره رقم ٢٥٢ الصادر في ٢١ أيار (مايو) ١٩٦٨. وقراري الجمعية العامة رقم٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة. ٥) الصادر في ٤ تموز (يوليو ١٩٦٧. ورقم ٢٢٥٤ الدورة الاستثنائية الطارئة .٥) الصادر في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧. المتعلقين بالإجراءات والأعمال التي تقوم بها إسرائيل والتي تؤثر في وضع القدس.

وقد استمع إلى البيانات التي أدلى بها الفرقاء المعنيون بهذا الموضوع.

وقد لاحظ اتخاذ إسرائيل مزيداً من الإجراءات التي أدت إلى تغيير معالم القدس وذلك بعد اتخاذ القرارات المذكورة أعلاه.

وإذ يؤكد المبدأ القائل بأن الاستيلاء على الأراضي بواسطة الفتح العسكري غير مقبول.

١ . يؤكد قراره السابق رقم ٢٥٢ (١٩٦٨).

٢ . يأسف على فشل إسرائيل في أن تظهر أي احترام لقراري مجلس الأمن والجمعية العامة المذكورين أعلاه.

٣ . يشجب بشدة جميع الإجراءات المتخذة لتغيير وضع مدينة القدس.

٤ . يؤكد أن جميع الإجراءات التشريعية والإدارية والأعمال التي اتخذتها إسرائيل من أجل تغيير وضع القدس، بما في ذلك مصادرة الأراضي والممتلكات، هي أعمال باطلة ولا يمكن أن تغير وضع القدس.

٥ . يدعو إسرائيل مرة أخرى وبإلحاح إلى أن تبطل جميع الإجراءات التي تؤدي إلى تغيير وضع مدينة القدس، كما يطلب منها أن تمتنع عن اتخاذ أية إجراءات مماثلة في المستقبل.

٦ . يطلب من إسرائيل أن تخبر مجلس الأمن دون أي إبطاء عن نواياها حول تنفيذ بنود هذا القرار.

٧ . يقرر أنه إذا أجابت إسرائيل سلباً أو لم تجب على الإطلاق، فإن مجلس الأمن سيعود إلى الاجتماع دون تأخير للنظر في الخطوات التي يمكن أن يتخذها في هذا الشأن.

٨ . يطلب من الأمين العام أن يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن حول تنفيذ هذا

القرار.

تبنى المجلس هذا القرار في جلسته رقم ١٤٨٥ بإجماع الأصوات.

وثيقة رقم (٢٠)

قرار مجلس الأمن بمطالبة إسرائيل بالرجوع

عن كل إجراءاتها لضم مدينة القدس[١٦]

٤ يوليو ١٩٦٩.

مجلس الأمن:

إن مجلس الأمن بعد الاطلاع على قراره رقم ٢٥٢ الصادر في ٢١ مايو عام ١٩٦٨، وعلى القرارين السابقين الصادرين عن الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ و ٢٢٥٤ بتاريخ ٤و١٤ يونيو ١٩٦٧ على التوالي المتعلقين بالإجراءات والأفعال من جانب إسرائيل والمؤثرة على الوضع القانوني لمدينة القدس وبعد أن استمع إلى بيانات الأطراف المعنية في المسألة.

وإذ يلاحظ أنه منذ صدور القرارات السابق ذكرها اتخذت إسرائيل إجراءات أخرى ترمي إلى تغيير الوضع القانوني لمدينة القدس.

وإذ يؤكد المبدأ الوطيد القائل بأن اكتساب الأراضي بالغزو العسكري أمر لا يمكن الاعتراف به.

١ . يؤكد من جديد قراره رقم ٢٥٢ (١٩٦٨).

٢ . يأسف لعدم إبداء إسرائيل أي اعتبار لقرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن السابق ذكرها.

٣ . يستنكر بأشد العبارات كل الإجراءات المتخذة لتغيير الوضع القانوني لمدينة القدس.

٤ . يؤكد أن كل الإجراءات والأفعال التشريعية والإدارية التي تتخذها إسرائيل والرامية إلى تغيير الوضع القانوني لمدينة القدس . بما في ذلك مصادرة الأرض والممتلكات . غير مشروعة ولا يمكن أن يتغير ذلك الوضع.

٥ . يدعو إسرائيل مرة أخرى على وجه السرعة إلى الرجوع عن كل ما اتخذته من إجراءات يكون من شأنها تغيير الوضع القانوني لمدينة القدس وأن تمتنع في المستقبل عن كل الأفعال التي من شأنها أن تؤدي إلى مثل هذه النتيجة.

وثيقة رقم (٢١)

ملاحظة الغضب العالمي الذي سببه عمل تدنيس المسجد الأقصى

ودعوة إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات

التي من شأنها تغيير وضع القدس[١٧]

إن مجلس الأمن:

إذ يعبر عن حزنه للضرر البالغ الذي ألحقه حريق بالمسجد الأقصى المقدس في القدس يوم ٢١ آب (أغسطس) تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي.

وإذ يدرك الخسارة التي لحقت بالثقافة الإنسانية.

وقد استمع إلى البيانات التي ألقيت في المجلس والتي تعكس الغضب العالمي الذي سببه عمل التدنيس في أحد أكثر معابد الإنسانية قداسة.

وإذ يتذكر قراريه رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) الصادر في ٢١ أيار (مايو)، ورقم ٢٦٧ (١٩٦٩) الصادر في ٣ تموز يوليو ١٩٦٩ والقرارين السابقين للجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة ـ ٥) الصادر في ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧، ورقم ٢٢٥٤ (الدورة الاستثنائية الطارئة ـ ٥) في ١٤ تموز (يوليو) . وجميعها تتعلق بالإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتؤثر بوضع مدينة القدس.

وإذ يؤكد مبدأ عدم قبول الاستيلاء على الأراضي بالفتح العسكري.

١ ـ يؤكد القرارين رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) والقرار ٢٦٧ (١٩٦٩).

٢ ـ ويعترف بأن أي تدمير أو تدنيس للأماكن المقدسة أو المباني أو المواقع الدينية في القدس. وأن أي تشجيع أو تواطؤ للقيام بعمل كهذا يمكن أن يهدد بحدة الأمن والسلام الدوليين.

٣ ـ يقرر أن العمل المقيت لتدنيس المسجد الأقصى يؤكد الحاجة إلى أن تمتنع إسرائيل عن خرق القرارات المذكورة أعلاه وأن تبطل جميع الإجراءات والأعمال التي اتخذتها لتغيير وضع القدس.

ـ يدعو إسرائيل إلى التقيد بدقة بنصوص اتفاق جنيف وبالقانون الدولي الذي ينظم الاحتلال العسكري، كما يدعو إلى الامتناع من إعاقة المجلس الإسلامي الأعلى في القدس عن القيام بمهماته، بما في ذلك أي تعاون يطلبه ذلك المجلس من دول أكثرية شعوبها من المسلمين أو من مجتمعات إسلامية بما يتعلق بخططها من أجل صيانة وإصلاح الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس.

٥ - يديــن فشــل إسرائيــل في الالتزام بالقــرارات المذكــورة أعــلاه ويدعوها إلى تنفيذ نصوص هذه القرارات.

٦ - يكرر تأكيــد الفقرة العملية السابعة من قرار رقــم ٢٦٧ (١٩٦٩) القائلة أنه في حــال إجابة إسرائيل سلبــاً أو في حال عدم إجابتهــا على الإطلاق، سيعود مجلس الأمن إلى الاجتماع دون عائق لينظر في الخطوات التي يمكن أن يتخذها في هذا الشأن.

٧ - يطلــب من الأمين العام أن يتابع عن كثب تنفيذ هذا القرار، وأن يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن في أقرب وقت.

تبنى المجلس هذا القرار، في جلسته رقم ١٥١٢ بـ ١١ صوتاً مقابل لاشيء وامتناع ٤.

وثيقة رقم (٢٢)

إدانة حريق المسجد الأقصى (من قبل اليونسكو)(١٨)

إن المجلس التنفيذي:

١ - وقــد أحزنــه كثيراً الضــرر الواسع الذي ألحقه بالمسجد الأقصى المقدس تحت الاحتــلال العسكــري الإسرائيلــي، حريق مفتعل في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٦٩.

٢ - وإذ يــدرك الخســارة التي مني بها تراث البشرية الحضاري.

٣ - وقد استمــع إلى بيانات ألقيت أمام المجلســ تشهد على السخــط العالمي الذي أثاره هذا العمل المدنس للمقدسات.

٤ - يديــن الحريق الإجرامــي للمسجد الأقصى كما يدين جميع المسؤولين عنه.

تبنى المجلس التنفيــذي هذا القرار في جلسته رقم ٨٣.

وثيقة رقم (٢٣)

قرار المؤتمر العام لليونسكو حول تغيير معالم القدس(١٩)

وإذ يلاحــظ من تقريــر المدير العام في الوثيقة (٢٠م/١٩) أن إسرائيل لم تغير موقفها من قرارات الأمم المتحدة واليونسكو المشار إليها أعــلاه، ولم تتعهد بالامتناع عن القيام بالحفريات.

وإذ يسترشــد بالقــرارات السابقة التي اعتمدهــا المؤتمر العام منــذ دورته الرابعة عشــرة (القــرارات ١٤م/١١، ١٥م/١٢، ٩و١٤، ٩، ١٦م/٨، ١٧م/١٠،١٠، ١٨م/ ٤٢٧، ٣، ١٩/م ١٢٩، ٤).

١ - يقــدم الشكر العميــق للمدير العام علــى جهوده لتطبيق القرار (١٢٩، ٤) الذي اعتمــده المؤتمر العــام في دورتــه التاسعة عشرة.

٢ - يؤكــد من جديد القــرارات السابقة الصــادرة عن المؤتمر العــام لليونسكو فيما

يخص مدينة القدس، ولاسيما القرار (١٨م/٤٢٧، ٧٣) ويصر على ضرورة تطبيقها.

٣ ـ يدين سلطات الاحتلال الإسرائيلية لمخالفتها القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة واليونسكو، واستمرارها منذ الاحتلال وحتى الآن في تغيير معالم القدس التاريخية والثقافية وتهويدها.

٤ ـ يوجه نداءاً عاجلاً وحازماً إلى إسرائيل لكي تتوقف نهائياً وفوراً عن الحفريات غير المشروعة وعن مواصلة اتخاذ التدابير التي تغير من طابع مدينة القدس ومن وضعها.

٥ ـ يطلب إلى المدير العام تقديم تقرير عن تنفيذ هذا القرار إلى المجلس التنفيذي في دورته السابعة بعد المائة.

الوثيقة رقم (٢٤)

الأسف لعدم احترام إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة

الخاصة بإجراءاتها لتغيير وضع القدس[٢٠]

إن مجلس الأمن:

إذ يشير إلى قراريه رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) ورقم ٢٦٧ (١٩٦٩) وقراري الجمعية العامة السابقين رقم ٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة ـ ٥) الصادر في ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧، ورقم ٢٢٥٤ (الدورة الاستثنائية الطارئة ـ ٥) في ١٤ تموز (يوليو) فيما يتعلق بالإجراءات والأعمال التي تقوم بها إسرائيل لتغيير وضع القطاع الذي تحتله إسرائيل من القدس.

وقد نظر في رسالة مندوب الأردن الدائم حول الوضع في القدس (S/١٠٣١٣) وفي تقارير الأمين العام (S.٨١٤٦) (S).٩٥٣٧) (٨٠٥٢) (١andz.s .and add ١٠١٢٤/(s s/ ٩١٤٩/dd١.١.) وقد استمع إلى بيان الفريقين المعنيين بالأمر.

وإذ يؤكد مجدداً المبدأ القائل أن حيازة الأرض بالفتح العسكري غير مقبولة.

وإذ يلاحظ بقلق عدم امتثال إسرائيل للقرارات المذكورة أعلاه.

وإذ يلاحظ بقلق أيضاً أنه منذ اتخاذ القرارات المذكورة أعلاه اتخذت إسرائيل إجراءات تقصد بها تغيير وضع وصفة القطاع المحتل من القدس.

١ ـ يؤكد مجدداً قراري مجلس الأمن رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) ورقم ٢٦٧ (١٩٦٩).

٢ ـ يأسف على تخلف إسرائيل عن احترام القرارات السابقة التي اتخذتها الأمم المتحدة فيما يتعلق بإجراءات وأعمال

إسرائيل التي تؤدي إلى التأثير في وضع القدس.

٣ . يؤكد بأوضح العبارات الممكنة أن جميع الأعمال التشريعية والإدارية التي قامت بها إسرائيل لتغيير وضع مدينة القدس ومن ضمنها مصادرة الأراضي والممتلكات، ونقل السكان، والتشريع الذي يهدف إلى ضم القطاع المحتل، لاغية كلياً ولا يمكن أن تغير ذلك الوضع.

٤ . يدعو إسرائيل بإلحاح إلى إلغاء جميع الإجراءات والأعمال السابقة وإلى عدم اتخاذ خطوات أخرى في القطاع المحتل من القدس الذي قد يفهم منه تغيير وضع المدينة أو قد يجحف بحقوق السكان وبمصالح المجموعة الدولية، أو بالسلام العادل الدائم.

٥ . يطلب من الأمين العام أن يقدم بالتشاور مع رئيس مجلس الأمن. استعمال الوسائل التي يختارها ومن ضمنها ممثل أو بعثة تقريراً إلى مجلس الأمن كما يرى ملائماً وعلى أي حال خلال ستين يوماً من تنفيذ القرار.

تبنى المجلس هذا القرار في جلسته رقم ١٥٨٢ بـ ١٤ صوتاً مقابل لا شيء. وامتناع صوت واحد.

وثيقة رقم (٢٥)

رسالة إلى الرئيس كارتر من الرئيس السادات

(من الرسائل المتبادلة في اتفاقية كامب ديفيد)

أكتب إليكم لأعيد تأكيد موقف جمهورية مصر العربية بشأن القدس.

١ . تعتبر القدس العربية جزءاً لا يتجزأ من الضفة الغربية ويجب احترام وإعادة الحقوق العربية والشرعية والتاريخية في المدينة.

٢ . إن القدس العربية يجب أن تكون تحت السيادة العربية.

٣ . إن من حق السكان الفلسطينيين في القدس ممارسة جميع حقوقهم الوطنية المشروعة بوصفهم جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني في الضفة.

٤ . عن القرارات الصادرة من مجلس الأمن وخاصة القرارين رقم ٢٤٢ ورقم ٢٦٧ يجب أن تطبق بشأن القدس وتعتبر كافة الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع المدينة لاغية وغير قائمة ويجب إبطال آثارها.

٥ . يجب أن تتوافر لجميع الشعوب حرية الوصول إلى القدس وممارسة الشعائر

الدينية وحق زيارة الأماكن المقدسة بدون أي تمييز أو تفرقة.

٦ . يجوز وضع الأماكن المقدسة لكل دين من الأديان الثلاثة تحت إدارة وإشراف ممثلي هذا الدين.

٧ . ينبغي ألا تقسم الوظائف الضرورية في المدينة، ويمكن إقامة مجلس بلدي مشترك يتكون من عدد متساو من كل من العرب والإسرائيليين للإشراف على تنفيذ هذه الوظائف وبهذه الطريقة فإنه لن يتم تقسيم المدينة.

وثيقة رقم (٢٦)

رسالة إلى الرئيس السادات من الرئيس كارتر:

لقد تسلمت رسالتكم المؤرخة في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ والتي توضح الموقف المصري بشأن القدس. وقد أرسلت نسخة من الرسالة إلى رئيس الوزراء مناحم بيغين لإحاطته علماً بها.

إن موقف الولايات المتحدة الأمريكية بشأن القدس يظل هو نفس الموقف الذي أعلنه السفير جولد بيرج أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٤ يوليو عام ١٩٦٧ وهو ما أكده من بعده السفير بوست أمام مجلس الأمن في أول يوليو ١٩٦٩.

وثيقة رقم (٢٧)

رسالة إلى الرئيس كارتر من رئيس الوزراء بيغين:

يشرفني أن أبلغكم يا سيادة الرئيس بأن البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) أصدر قانوناً في ٢٨ يونيو ١٩٦٧ يقضي بأن يكون في سلطة الحكومة عن طريق مرسوم تصدره إخضاع أي جزء من أرض إسرائيل الكبرى للقانون والقضاء والسلطة الإدارية للدولة على النحو المبين في المرسوم.

وقد قامت حكومة إسرائيل على أساس هذا القانون بإصدار مرسوم في يونيو ١٩٦٧ ينص على أن القدس مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم وأنها عاصمة لدولة إسرائيل.

الهوامش

١- من كتاب يقظة العرب، جورج أنطونيوس.

٢- قرار رقم ٣٣ الدورة ٢، بتاريخ ١٠ آذار (مارس) ١٩٤٨.

٣- عن كتاب كارثة فلسطين، عبد الله التل.

٤- قرار رقم ١١٤ (الدورة الاستثنائية ـ٢) تاريخ ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩.

٥- عن كتاب قضية فلسطين في محيط العلاقات الدولية للدكتور عز الدين فودة.

٦- عن كتاب ((قضية فلسطين في محيط العلاقات الدولية)) للدكتور عز الدين فودة.

٧- عن كتاب ((قضية فلسطين في محيط العلاقات الدولية)) للدكتور عز الدين فودة.

٨- قرار رقم ٢٢٥٤ (الدورة الاستثنائية الطارئة . ٥) تاريخ ١٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧.

٩- عن كتاب ((قضية القدس في محيط العلاقات الدولية)) للدكتور عز الدين فودة.

١٠-القرار ٣٢٥٣ . الدورة الطارئة الخامسة.

١١-القرار ٣٢٥٤ . الدورة الطارئة الخامسة.

١٢-قرار رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) تاريخ ٢١ أيار (مايو) ١٩٦٨.

١٣-قرار رقم ٢٥٠ (١٩٦٨) تاريخ ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٦٨.

١٤-القرار رقم ٢٥٢ تاريخ ١٩٧٨.

١٥-قرار رقم ٢٦٧ (١٩٦٩) تاريخ ٣ تموز ١٩٦٩.

١٦-جريدة الأهرام تاريخ ١٩٦٩/٧/٥.

١٧-قرار رقم ٢٧١ (١٩٦٩٩ تاريخ ١٥ أيلول ١٩٦٩.

١٨-قرار رقم.٨٣ EX/ ٤،٣،١،١ - ١٩٧٠.

١٩-قرار رقم ٢٠/م/٦/٧ تاريخ ١٩٧٨/١١/٢٨.

٢٠-قرار رقم ٢٩٨ (١٩٧١) تاريخ ٢٥ أيلول ١٩٧١.



الدراسات والبحوث

تاريخ القدس المسيحية قبل الإسلام

موسى ديب الخوري ❊

مقدمة تاريخية

كانت سورية قد خضعت منذ عام ٤٩ ق.م لاضطرابات وآثار الحرب الأهلية الرومانية الكبرى. ومع ذلك استطاع هيروذوس تحقيق فترة ازدهار خلال حكمه، وذلك بسبب ولائه لروما، وتثبيته لشريعة المملكة وتقوية جيشها. كما أسس مدناً جديدة مثل قيصرية وحصوناً مثل مسعدة. وفي أورشليم أنشأ قلعة أنطونيا إلى جانب الهيكل للمراقبة وحماية الثياب المقدسة التي لا يستطيع رئيس الكهنة عمل شيء دونها.

❊ باحث وكاتب ومترجم سوري



كذلك حاول هيروذوس الهليني التطلع إثارة الحمية الوطنية والدينية عند اليهود، هذا على الرغم من المظاهر الهلينية التي اتسم بها مثل سك نقود لا تحمل سوى أساطير يونانية وبناء هيبودروم ومسرح في أورشليم لا بل وتشجيع العبادة الإمبراطورية، في بعض مدنه. لكن مسعاه لم ينجح، وفي السنوات الأخيرة من حكمه اضطرمت الصراعات في عائلته وظهرت المعارضة الفريسية بقوة مجدداً. لكن هذه الثورة لم تبلغ مداها على المستوى الشعبي، ويبدو أن العامة أدركوا أهمية الانفتاح وضرورة وجود مثل هذا العاهل المنفتح. والحق إن القوة الدينية التي كانت تحرض اليهود على التمسك بإرث غير قابل للتغير كانت قد ضعفت كثيراً، وخاصة مع تفاقم صراع الأحزاب على السلطة.

عند موت هيروذوس عام ٤ ق.م. تقاسم ورثته مملكته. لكن أرخيلاوس الذي كان يفضله هيروذوس كان لا يزال فتياً ولا يستطيع مقاومة الانقلابات التي كانت تثار ضده. ولهذا لجأ إلى أخيه هيروذوس أنتيباس سيد الجليل، بمواجهة الذين كانوا يفضلون إدارة رومانية مباشرة وبمواجهة المدن ذات النظام اليوناني. وإذا كان أوغسطس قد أكد الميثاق مع هيروذوس، لكنه لم يترك لأرخيلاوس سوى لقب ملك. وترافقت هذه الأزمة مع ازدياد الاضطراب الذي تطلب التدخل المباشر للرومان، وتم تشجيع المتشددين. وهكذا رُفعت شكوى ضد أرخيلاوس إلى روما كونه لم يستطع إعادة السلام، فخلع عام ٦ ميلادية.

كانت اليهودية والسامرة خاضعتين في ذلك الحين لسلطة المفوض الإمبراطوري في سورية الذي كان يمثله وال أو حاكم يقيم في قيصرية. ومنذ ذلك الوقت لم يعد في أورشليم سلطة وطنية قادرة على موازنة السلطة الأجنبية. وباتت رئاسة الكهنوت بيد ممثلي روما. ومع ذلك، عمل هؤلاء بحذر، فلم يفرضوا العبادة الإمبراطورية على أورشليم. غير أن الولاة الرومان الذين كانوا يتعاقبون بسرعة في البداية لم يفكروا بغير الثراء. وقوى ذلك حركة معارضة وجدت في الموضوع التوراتي لملكوت الله التعديل الفكري والإيديولوجي للحقد على القيصر. وبرزت في تلك الفترة الحركة الزيلية. ويلخص يوسيفوس فلسفة يهوذا الناصري رئيس هذه الحركة بـ: «التوق إلى الحرية مع الاعتقاد بأن الله هو الإله الوحيد» (الآثار اليهودية٢٣، ٦، I، XVIII).

ونلاحظ مع حلول حكم تيبيروس في

روما تحسناً ملحوظاً للإدارة الرومانية ممثلة بشخص بيلاطس البنطي الذي أقام عشر سنوات في قيصرية وجمع بين الفعالية والشدة. وسمح الهدوء الذي حققه لفيتيليوس حاكم سورية، الذي استقبل بحرارة في أورشليم خلال عيد الفصح عام ٣٧ ب.م، بتخفيض الرسوم قليلاً والسماح للكاهن الأكبر بامتلاك الثياب المقدسة الضرورية لوظيفته. وعندما حدث انقلاب كاليغولا، ثم كلوديوس عام ٤٠ ب.م، انتهز أغريبا حفيد هيروذوس الفرصة لإعادة بناء المملكة لفترة وجيزة. وعرف أكثر منه كيف يؤجج الوطنية الشعبية بتشجيعه كما هو متوقع للديانة القومية وباستمالة الفريسيين.

وعادت الاضطرابات بعد موت أغريبا عام ٤٤ ب.م، ورأى الرومان إشارات عصيان في بعض أعمال العنف فقرروا التدخل العسكري. وبعد هزيمة تعرضت لها الفرق التي أرسلها حاكم سورية، اعتقدت أورشليم أنها حققت استقلالها بقيادة كاهنها الأكبر وقائدها العسكري. لكن لعبة الأحزاب مزقتها. وقرر نيرون إرسال فسباسيانوس الذي استطاع تحقيق نجاح أولي أدى إلى هيجان الزيليين. وفي تلك الفترة انضم عدد من اليهود المنفتحين، الذين كانوا يرون في الإمبراطورية الرومانية ملجأ حقيقياً لإبقاء الوحدة السياسية والدينية لليهود، إلى الرومان، وكان أشهرهم فلافيوس يوسيفوس. وفي عام ٦٩ ب.م ترك فسباسيانوس القيادة لابنه تيتوس، الذي أصاب أورشليم بالضربة القاضية عام ٧٠ ب.م. وانتهى ما عرف بالحرب اليهودية عام ٧٤ ب.م بسقوط مسعدة.

نرى مع هذا العرض التاريخي المختصر جداً إلى الإطار السياسي والديني الذي ظهرت فيه عدة دعوات تحاول الخروج عن الإطار اليهودي التقليدي، ومنها الحركة الزيلية، والأسينية، والمعمدانية، وكذلك المسيحية. إن الصراعات التي حكمت المنطقة كانت تهيىء أرضاً خصبة لانتشار الدعوات إلى سلام روحي عميق لا تهزه الاضطرابات.

لقد عملت جماعات وفدت إلى المنطقة، مثل جماعات كثيرة كانت موجودة فيها، لاعتماد الثقافة الحضرية المتقدمة للأهالي المحليين، فأخذت عنهم مهارات الكتابة والحساب والزراعة والبناء والتجارة لا بل والفكر الديني العميق. لكن اليهود، الذين استمدوا من روحانية المنطقة بعداً كان جديراً برفعهم إلى معان وقيم إنسانية نبيلة،

لم يستطيعوا تصور الارتقاء فيه وبه دون إمكانية بناء دولة أرضية. وهكذا وقعوا في مطب عقدة الهوية التي لا ترجع فقط إلى عدم قدرتهم على بناء الكيان السياسي، بل في الجوهر إلى عجزهم عن تمثل المعنى العميق للإرث الحضاري الذي حملوه، والذي يتجاوز القوة السياسية أو الزمنية. ولهذا قال لهم المسيح، «أخذتم مفاتيح الحكمة، ولم تدخلوا، ولم تدعوا غيركم يدخل»!

وإذا أردنا أن نوجز الوضع الإداري في القدس وفلسطين عموماً في بداية العهد المسيحي، فقد كانت فلسطين إقليماً تابعاً للرومان (منذ عام ٦٣ قبل الميلاد). وأصبحت مقاطعة رومانية قنصلية بعد عام ٧٠ للميلاد. ونحو عام ٣٥٨ حصل أول تقسيم لها: فأصبح القسم الجنوبي منها (النقب وشبه جزيرة سيناء) ولاية، وكانت عاصمتها إلوسا، ثم البتراء. ونحو عام ٤٠٠ قسمت المقاطعة الشمالية، فشكلت اليهودية والسامرة والمناطق الساحلية المقاطعة الفلسطينية الأولى (وكانت عاصمتها قيصرية)؛ وشكلت الجليل والجولان وقسم من تجمع المدن العشر فلسطين الثانية (وعاصمتها سكيثوبوليس)؛ أما فلسطين الجنوبية فأصبحت فلسطين الثالثة (وعاصمتها البتراء). ودام هذا الوضع حتى عام ٦٣٨. وفي عام ٦١٤ هز الاجتياح الفارسي عدة مدن فلسطينية ومنها القدس وقيصرية وليدا وغيرها. وبعد عام ٦٣٨ انتهى الحكم البيزنطي مع وصول العرب إلى المنطقة.

يسوع وبدايات المسيحية في القدس

كان اسم يسوع اسماً شائعاً في اليهودية القديمة، وهو اسم مشتق من لفظة عبرية تعني «الله يخلّص». ومن المدهش أن لفظة مسيح اليونانية، «كريستوس»، مشتقة من لفظة تعني «الممسوح»، وهي تشير إلى مسح ملكي، أو إلى مسح متعلق بالنبوة، وهي تحمل المعنى نفسه لكلمة مسيح المشتقة من جذر عبري يعني «المسح». ونذكر من بين المصادر القديمة بعض المراجع التي ذكرت يسوع وكانت لكتاب غير مسيحيين، مثل تاكيتوس في Annales (III، ١٥، ٤٤) والمؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس في الآثار اليهودية (XVIII، ٣، ٣: XX، ٩).

تعد رسائل القديس بولس التي تعود إلى العام ٥٠ للميلاد من أقدم الوثائق التي تشير إلى موت وقيامة المسيح، إضافة إلى الأناجيل الأربعة التي تعترف بها الكنيسة، وهي تسرد أقوال وأفعال يسوع وتروي

معجزاتــه، بدءاً من الناصرة وحتى القدس. وكانت هــذه الأناجيل قد كتبــت باليونانية بعد استشهاد بطرس وبولس في عهد نيرون. وتعــود أقــدم مخطوطــات الأناجيل، حيث حفظت أجــزاء منها حتــى أيامنا هذه إلى أواخــر القرن الميلادي الأول، مشكلة أساساً تاريخياً صلباً، بحيــث تسمح لنا مع دراسة تاريخ الأدب المسيحي واليوناني . والروماني في المنطقة في ذلك الوقت، إضافة إلى عدد مــن الاكتشافات الآثارية الحديثة، بالتعرف على بعض ملامح شخصية يسوع التاريخية وفكــره وأعماله. غــير أن بعضــ المسائل المتعلقة بالترتيب الزمني لا تزال عالقة، وإن كانــت تعتبر غير ذات أهميــة كبرى بالنسبة لكتابة التاريخ القديم.

وفق متــى ولوقا، ولد يســوع قبل فترة وجيــزة من مــوت الملك هيرودوســ الأكبر، الذي مات في العام ٤ قبل الميلاد. وقد ولد في بيت لحــم، مدينــة داوود، في اليهودية، ثــم أقام في الناصــرة في الجليــل. ويشهد بولســ على نسبه إلى داوود (رومية، ١، ٣). وقام المسيح بالتبشير لسنتين ونصف تقريباً قبل صلبه على أيــدي الرومان الذي يمكن أن يــؤرخ حوال عــام ٣٠ للميــلاد، عشية يــوم سبت في إطار الفصــح اليهودي. وكان بيلاطس البنطي الحاكم الروماني لليهودية قد أصدر حكم إعدامه، وكتب سبب الإدانة على الصليــب: «ملك اليهود» (مرقس، ١٥، ٢٦). لقد جعــل هذا الاتهــام الساخر من يســوع خصماً ومعارضاً لسلطة قيصر. لكن في الحقيقة فإن أسباباً دينية الطابع وتتعلق بشكل خاص بموقع يسوع اتجاه هيكل القدس هي التي لعبت دوراً أساسياً خلال الدسائس التي قامت بها السلطات الكهنوتية اليهودية التي سبقت الحكم الروماني. ذلك أن نقاطاً عديــدة كانــت تجعــل المسيح علــى طرف النقيضــ مــع سلطات الهيــكل. والحق إن يســوع الناصري كان علــى صلة مع جماعة يوحنــا المعمدان، ولا نعلــم إلى أي حد كان قريبــاً من الكتبــة ذوي التبعية الفريسية – حيث كان يؤكد مثلهم علــى العناية الإلهية وعلى قيامــة الموتى- لكنــه بالمقابل كثيراً مــا كان ينتقدهم، بل إن يســوع كان يبدي تحرراً غريباً تجــاه شريعة موسى والموروث اليهــودي القديم. وفي الحقيقة فإن تحريره للإنسان طــال جميع الملل التي كانت تنادي آنذاك بالتجدد الدينــي أو بالأصولية على حــد سواء. وكثــيراً ما جــرى الحديث عن مقاربة حياته من حيــاة الأسينيين، ونسبت الفترة التي لا نعــرف الكثير عن حياته إلى

عزلة أمضاها في جوارهم. لكن في الحقيقة لا نستطيع عند التمعن في التعاليم التي خصصها للتلاميذ وفي مواعظه إلا أن نميز قدرته على الانعتاق من نير الميراث الفكري الضيق إلى قوة روحية حقيقية. وكان الذين يعاشرونه ويظلون قريبين منه يدهشون بل ويصدمون من قوة شخصيته ومن تصرفاته تجاه المنبوذين. ولعله لم يلجأ كثيراً إلى لقب المسيح في خطبه وأحاديثه، وكان هذا اللقب غامضاً جداً في ذلك الوقت، لكن صلته بالذي كان يشير إليه على أنه أباه الذي في السماء كان يدهش حتى تلاميذه المقربين. وفي صبيحة يوم الفصح تعرف عليه تلاميذه حياً بينهم واعترفوا به وآمنوا أنه ابن لله وإلههم.

يعد هذا الحدث، حدث ظهور المسيح لتلاميذه بعد قيامته هو المنعطف الذي تشكلت على إثره حركة صغيرة من المؤمنين الذين بدأوا يجاهرون في الأوساط اليهودية والرومانية آنذاك، وإن بصورة مبسطة وغير علنية تماماً، بإيمانهم بإله يختلف عن كل ما عرف حتى ذلك الحين في المشرق بل وفي العالم. إله جاء ليخلص الإنسان ويعيد صلته بالله ـ الآب. لكن هذا الموقف الفلسفي في المسيحية الناشئة لم يكن بمثل هذا الوضوح، وكانت أورشليم في ذلك الحين مرتعاً، كما كان الشرق نفسه، لتيارات تأملية وعرفانية كثيرة، وكانت الملل والجماعات الدينية كثيرة في نواحي فلسطين وبلاد الشام عموماً. وكانت الصراعات القائمة مع قوى كبرى في الشرق لا تمنع بل على العكس تشكل أحد أسباب تسرب وترسخ بعض المعتقدات ذات الأصول البعيدة القادمة من بلاد ما بين النهرين أو من فارس وحتى من الهند. وفي ظل انتشار دعوات كانت قد بدأت تختبر تأملات روحية كبرى، فإن الوثنية التي كانت سائدة في بلاد الشام لم تكن بالوثنية الساذجة، ناهيك عن التأثيرات التي نلمسها بوضوح فيها من فلسفات المنطقة نفسها أو القادمة من اليونان ومصر أو من فارس. لقد جاء يسوع وسط هذا المخاض للمنطقة ليقول كلمته. وقد رسخت هذه الكلمة في نفوس أبناء المنطقة، وسرعان ما قبلت على خلفية المعتقدات التي كان الكثير منها يرجع في رمزيته وسرانيته إلى قرون بل وآلاف السنين. ولا شك أن التحول الكبير الذي أدى إلى انتشار المسيحية كان اعتمادها كدين رسمي للدولة الرومانية. لكن ذلك تم لا شك على خلفيات سياسية واستراتيجية للحفاظ على قوة الإمبراطورية.

الكنيسة المقدسية

يمكن القول إذاً إن أولى بوادر تشكل الجماعة المسيحية في القدس تعود إلى نحو العام ٣٠، عندما اجتمعت فيما عرف بالعنصرة جماعة من اليهود الذين كانوا يتشاركون إيمانهم بيسوع المسيح المنتصر على الموت والمنبعث بعد بقائه في القبر لثلاثة أيام. تشكلت هذه الجماعة حول التلاميذ الاثني عشر الذين كانوا قد تبعوا يسوع وعرفوه عن قرب خلال عدة سنوات. وكانت جماعة القدس مكونة بمعظمها على ما يبدو من دارسي العبرية، وكان يهود فلسطين يستخدمون الآرامية بسهولة إذ كانت لغة التواصل في كامل الشرق الأدنى، غير أن قسماً كبيراً منهم كانوا قادرين على فهم اليونانية أيضاً. وكان ذلك مدخلاً أساسياً للتلاقح الفكري مع التراث اليوناني خلال الفترة اللاحقة.

وعلى الرغم من الانفتاح الذي أثبتته الكنيسة فقد ظهرت الانشقاقات بسرعة في مجتمعات القدس، حيث كانت الأقلية الهلينية تقدر أن حق أرامل مجموعتهم كان مغبوناً في توزيع الأرزاق المشتركة. وعندها قرر الرسل الاثنا عشر تعيين نواب، يعادلون الحزانيم في الكنيس، وذلك لمساعدتهم في مهامهم على المستوى الدنيوي. لكن ما حصل أن هؤلاء النواب كانوا من المتهلنين اليهود الذين فسروا على طريقتهم الوصايا الموسوية. ولهذا رفعت شكوى ضدهم حول هذه النقطة إلى المحكمة العليا. وأثارت خطبة النائب اسطفانوس غضب المجلس حتى إنه لم يتمكن من إصدار الحكم، إذ اقتادت الجموع النائب اسطفانوس ورجمته خارج الأسوار. وفي هذه المرة لم يكن غملائيل قد تدخل، وكان تلميذه شاول، العلامة الشاب في الشريعة، والمعتز والمعضد بثقة المحكمة العليا، يحرس ثياب الجلادين أثناء تنفيذ الحكم بالموت.

كان ذلك بداية أول اضطهاد للمسيحيين المتهلنين. وقد تفرقوا في اليهودية والسامرة حيث وجدوا ملاذاً لهم في الكنائس. وكان ذلك حال بطرس وفيليبوس اللذين قاما باتصالات في السامرة مع اليهود المتهلنين، ومع أعضاء من الملل المعمدانية، ومع أشخاص حتى في غاية الغرابة مثل الساحر سمعان، الذي رأت فيه الأجيال التالية مؤسساً للغنوصية والذي طارده بطرس بحسب التقليد حتى روما.

على الرغم من إعدام اسطفانوسوس والتلميذ يعقوب (أعمال ٨٠، ١؛ ١٢، ١-

١٩). لكــن هذه الجماعــة استمرت وكبرت وكانــت تتألــف من اليهــود فقــط الذين استمــروا في ممارســة طقوسهــم اليهودية وعاداتهــم القديمة، وترأسهــا بعد عام ٤٤ (وحتى موته في عــام ٦٢) يعقوب المعروف بأخــي يســوع المسيح. في عــام ٤٩ حصل اجتماع بين التلاميذ والقدماء من الجماعة حــول مسألــة حساسة لم يكــن أحد يعرف الأبعاد التي يمكن أن تصل إليها، وهي تتعلق بالفروض والشروط التــي يجب أن تفرض على الوثنيــين المهتدين: وهذا الاجتماع هو الذي سمي بمجمع القدس (أعمال الرسل، ١٥، ٢ – ١٢). بــين عامي ٦٠ و ٧٠، وخلال الاضطرابات اليهوديــة الأولى التي عرفت بالثورة اليهودية، تركت هذه الجماعة مدينة القدس إلى بيلا (لكن هذه الهجرة التي ذكرها عوسيــب لا يقبل بها جميع المؤرخين). ومن المرجح أن العديد من أفراد الجماعة عادوا إلى القدس بعد عام ٧٠. وكانت الجماعة لا تزال تبدو في غالبيتها من أصل يهودي، هذا على الأقل إذا اعتمدنا على أسماء الأساقفة الذين نقلهم لنــا عوسيب (التاريخ الكنسي، IV، ٥). وبعــد الثورة اليهودية الثانية، أقام هادريانوســ في موقع القدس مدينة جديدة أسماها آيليا كابيتولينا (عام ١٣٥)، ولم يعد باستطاعة اليهود البقــاء في المدينة. ولهذا يبــدو أن الجماعة المسيحيــة أصبحت هي الغالبة وكانت قد أصبحت تتألف في غالبيتها من الوثنيــين المهتدين، كما يشهد على ذلك أيضاً أسماء الأساقفة فيها (المرجع السابق، V، ١٢).

في بداية القرن الرابع كانت مدينة القدس قد أصبحت مجرد مدينة صغيرة في مقاطعة فلسطــين الرومانيــة، طالمــا أن عاصمــة المقاطعة كانت في قيصرية، لكن مجمع نيقيا اعــترف لأسقف القدس بــ «شرف» خاص، علــى الرغم مــن أنه كان خاضعــاً لأسقف العاصمة. وأدى تطور بناء الأماكن المقدسة والعناية بها إضافة إلى سلسلة من الأساقفة المميزين لإبــراز قيمة المدينــة دينياً. وكان مكاريوســ (٣١٤ ـ ٣٣٣) الموجــود في نيقيا قد اكتســب فيها ثقة قسطنطين الذي كلفه بالعمل علــى إبراز قيمــة الأماكن المقدسة والعنايــة والاهتمام بها. وتــلاه مكسيموس (٣٣٣ ـ ٣٤٨)، وكان أحد المجاهرين القدماء بالعقيدة خلال اضطهاد ديوقلسيان. وأثناء الأزمــة الأريوسيــة أصبح أحــد مناصري أثناسوس، بعــد أن كان قد وقع على إدانته في مجمع صور في عام ٣٣٥. وعرف كيريلوس (٣٤٨ ـ ٣٨٦) بتعاليمــه الدينية؛ وكان أحد

المشاركين أيضاً في أكثر من مرة بالأزمة الأريسوسية (ونفي ثلاث مرات). أما يوحنا (٣٨٦ ـ ٤١٧)، وهو بلا شك صاحب ومؤلف تعاليم الأسرار، فهو أحد أوائل ممثلي الأزمة الأوريجنيسية الأولى: فقد عارض إبيفانوس وجيروم، وكذلك فقد أسهم في الجدل حول بلاجيوس، ومنحه الغفران من تهمة الهرطقة في أحد الاجتماعات في القدس ثم في مجمع ديوسبوليس عام ٤١٥. وقد اتهمه جيروم بأنه يطالب أو يدعي لكرسيه أو لمنصبه في القدس لقب «الكرسي الرسولي». ومع ذلك فباسم هذا المبدأ إنما حصل الخلف الثاني ليوحنا، وهو جوفينال (٤٢٢ ـ ٤٥٨) من مجمع خلقيذونية (٤٥١) على أن يصبح لكرسيه سلطة على مقاطعات فلسطين الثلاث، مما شكل بالتالي البطريركية الكبرى الرابعة في الشرق.

غير أن هذا المجمع بالذات أثار اضطرابات في كنيسة القدس. فقد كان جوفينال في البداية أحد مؤيدي ديوسقورس الاسكندراني، وأدى قبوله بالصيغة الخلقيذونية إلى معارضة الكثير من المؤمنين والأتباع، والرهبان بشكل خاص. فلم يستطع جوفينال العودة إلى فلسطين، وانتخب الراهب ثيودوسوس ليخلفه، وكان لا بد من دعم الجيش لكي يمكن وضعه على الكرسي الأسقفي للقدس. غير أن التحالف بين مختلف فرقاء المقدس لم يكن أمراً سهلاً، بل على العكس تماماً، فلم يكن من الممكن القبول بهذا الفرض الأسقفي المدعوم من الجيش. وظلت معظم الأديرة في القدس وفي محيطها معارضة. وهكذا فقد ظل أساقفة القدس (أناستازيوس ومرتيريوس وسلوستيوس) على موقف واحد حتى نهاية القرن الخامس الميلادي، وهو القبول بالخلقيذونية في حدها الأدنى، وظلوا متسامحين تجاه القائلين بالطبيعة الواحدة. وفي عام ٤٨٧ وقع مرتيريوس على مبدأ الواحدية، كما فعل من بعده سلوستيوس وإيليا (٥١٦). ولم يمنع ذلك من عزل هذا الأخير لأنه رفض الاعتراف بسفيروس الأنطاكي. لكن خلفه يوحنا (٥١٦ ـ ٥٢٤) عاد إلى الخلقيذونية حيث أصبحت الكنيسة المقدسية منذ ذلك الحين فصاعداً أحد أهم وأصلب داعميها في الشرق: فكانت كنيسة القدس إحدى أوائل الكنائس التي أيدت الإصلاحات الخلقيذونية ليوستينوس (٥١٨) خلال المجمعين اللذين عقدا في آب وأيلول. وقد رفض البطريرك بطرس في عام ٥٤٣ التوقيع على «الفصول الثلاثة» لأنه رأى

أنها مخالفة للخلقيذونية. وعند موته في عام ٥٥٢ انتخب الأوريجنيون في فلسطين واحداً منهم لخلافته، وهو مكاريوس، لكن جوستينيانوس أبدله بإفتوخيوس الذي كان قد شارك في إدانة القائلين بالأوريجينية في عام ٥٣٣، والذي رأى بالتالي أنه مكلف بتطبيق هذه الإدانة على أتباع أوريجينس في فلسطين.

إن هذا التاريخ المتسارع من التقلبات المذهبية في القدس يعكس في الواقع حال المشرق كله في القرون القليلة الأولى من العهد المسيحي. ولا بد أن هذه الأحداث بالذات التي كانت تتم في جنوبي المشرق تحديداً وخاصة في القدس وبعض العواصم المسيحية الكبيرة جنوبي سورية مثل دمشق وبصرى، كانت تتصل بالتطورات اللاحقة لتاريخ المنطقة الديني.

ولا بد لنا أن نذكر هنا أن أحداثاً سياسية كبرى كانت وراء تغيرات كبرى في تاريخ الكنيسة المشرقي. ولا بد أيضاً من القول إن بعض القرارات الكبرى التي اتخذت لتحويل الإمبراطورية الرومانية إلى دولة مسيحية كانت تأخذ بعين الاعتبار الانتشار السريع والواسع للعبادة الميثرائية في كافة أنحاء الامبراطورية وفي الجيش الروماني نفسه. فكان اعتماد ديانة مثل المسيحية رداً على التغلغل القادم من فكر فلسفي فارسي. وعلى هذا الإثر كانت رحلة (القديسة) هيلانة إلى القدس واكتشاف الصليب وقبر المسيح، ومن ثم بناء الكنائس والأديرة، وتكريس الأعياد والطقوس، ووفود الحجاج إلى القدس كمحطة روحية في قلب الشرق، وفيها الموروث المشرقي كله، من ملل وأفكار وأديان، بل ومن طقوس ورموز وشعائر كانت تمارس في الكثير من العبادات الوثنية المحلية والوافدة. ويعطينا هذا السرد المختصر إضافة إلى ذلك فكرة تحتاج إلى التوسع دون شك حول التأثيرات المتبادلة التي كان يمكن أن تتم بين المسيحية الناشئة وتراث المنطقة الفلسفي والديني. ومن جهة أخرى، فإننا ندرك حجم الافتراق الذي حصل بين المسيحية واليهودية، في القدس نفسها، وفي بدايات الكنيسة المسيحية، عندما نلاحظ القدرة المسيحية على قبول الخبرات الروحية والتأملية في تراث المنطقة مقابل ضعف اليهودية المتقوقعة على ذاتها.

الكنائس والأديرة في القدس

أما فيما يتعلق بالأعمال الأساسية من بناء وعمارة للمواقع الدينية المسيحية في القدس، فقد بدأ ذلك منذ عهد قسطنطين،

وسرعان ما أصبحت القدس هي المدينة المقدسة بامتياز، ومركز الحج الأهم في العالم المسيحي كله. وبعد اكتشاف أجزاء من الصليب قرب الجلجثة وقبر المسيح (عام ٣٢٥)، خلال رحلة قامت بها الأوغسطه هيلانة، بنيت بفضل سخاء قسطنطين بازيليكة الشهادة (حيث تم وضع الصليب المكتشف، في جوار الجلجثة) وكذلك الكنيسة المقببة فوق قبر المسيح، وكذلك بازيليكة إيليونا على جبل الزيتون (فوق المغارة التي كان يجتمع فيها المسيح مع تلاميذه ويعلمهم ويحاورهم). وخلال القرن الرابع، شيدت أيضاً بمبادرة من أساقفة القدس وعدد من الأغنياء المتبرعين كنائس على جبل صهيون (في موقع تجلي المسيح بعد القيامة وموقع نزول الروح القدس، والذي اعتبر أيضاً فيما بعد موقع العشاء الأخير)، وفي جثسيماني (في موقع الآلام)، وعلى قمة جبل الزيتون (في موقع صعود المسيح إلى السماء بعد القيامة). وفي القرن الخامس الميلادي بنيت كنائس كثيرة في أنحاء متفرقة من القدس على مواقع نسبت إلى مشاهد من حياة من المسيح، ومنها قصر قيافا الذي أصبح كنيسة القديس بطرس، ومقر ومحكمة بيلاطس (كنيسة القديسة صوفيا)، وقبر العذراء مريم، وبركة سلوة، وبركة الغنم، وقبر لعازر في بيت عنيا ومواقع أخرى أقل أهمية. وبنت الأوغسطا أفدوكيا كنيسة أخرى ضمت رفاة القديس اسطفانوسوس المكتشفة في عام ٤١٥. وفي القرن السادس، بنى جوستينيانوس كنيسة القديسة مريم البتول الجديدة حيث وضع فيها بعضاً من ذخر العذراء مريم. وفي جوار هذه الكنائس بنيت أيضاً مضافات وخانات مخصصة للحجاج. وتضاعف كذلك في المدينة المقدسة عدد الأديرة، وخاصة على جبل الزيتون. ومنها دير ميلانيا الكبرى عام ٣٧٢ ودير ميلانيا الصغرى عام ٤١٧. وفي عام ٤٥٠ رممت الامبراطورة إفدوكيا التي كانت تقيم في القدس سور المدينة وفق المسار الأوسع له بحيث ضمت جبل صهيون داخل السور. وكان عدد المسيحيين قد أصبح هو الأكثرية في القدس، وكان اليهود ممنوعين من الدخول إليها، إلا في ذكرى دمار الهيكل، وخلال العهد القصير الذي حكم فيه جوليانوس (٣٦١ . ٣٦٣)، حيث جرت محاولة لإعادة بناء الهيكل إنما باءت بالفشل. وكان عدد الحجاج الوافدين من كل أنحاء العالم القديم كبيراً جداً. وعبر هؤلاء الحجاج أثرت الطقوس المقدسية بكنائس

كثيرة في أرجاء العالم. ومن آثار ذلك ما نشهده حتى اليوم في الرابع عشر من أيلول في عيد الصليب، وهو ذكرى تكريس كنيسة الشهادة أو الصليب في القدس، حيث أصبح مناسبة لاحتفال دولي في كنائس ومواقع كثيرة في أنحاء العالم كله.

في عام ٦١٤ استولى الفرس على المدينة بعد حصار طويل، وقتل عدد كبير من سكانها، ونهبت معظم معابدها وأحرقت. ودام احتلال الفرس لها حتى عام ٦٢٩، وفي السنة التالية أعاد هرقل المنتصر على الفرس ذخر الصليب الذي كان هؤلاء قد أخذوه معهم إلى سلوقيا طيسفون. وقام البطريرك مودستوس بترميم جزئي لعدد من الكنائس. ولكن لم يمض وقت كثير حتى كان العرب قد وصلوا لمحاصرة المدينة، وبعد حصار دام سبعة أشهر رضخت المدينة للخليفة عمر بن الخطاب وفق شروط متسامحة، فأعطيت الحرية المدنية والدينية مقابل جزية سنوية. وهكذا كان على كل سكان القدس من غير المسلمين دفع ضريبة مزدوجة (الضريبة الشخصية إضافة إلى الجزية).

الرهبنة في القدس

مما لا شك فيه أن المسيحية التي نشأت في فلسطين انتشرت فيها أولاً. وانطلقت من القدس نفسها حيث كان تبشير يسوع قد انتهى. والحقيقة أن كنيسة القدس نشأت منذ ذلك الحين واستمرت حتى اليوم دون انقطاع. وكان أعضاء هذه الكنيسة في البداية من اليهود، ثم تحولت شيئاً فشيئاً إلى كنيسة لغتها اليونانية والغالبية من أبنائها من الوثنية المهتدين، مع استمرار وجود جماعات من أصول يهودية ـ نصرانية. وفي ظل تطور هذه الكنيسة وتأثرها بما كان يحصل في كنائس المشرق، تطورت رهبنة واسعة وهامة في فلسطين وفي القدس منذ القرن الرابع الميلادي، وساهم في انتشارها وتطورها وجود الأماكن المقدسة في القدس إضافة إلى الأديرة والكنائس الكثيرة التي بنيت. وكان كثير من الحجاج الوافدين إلى القدس يتخلون عن حياتهم المدنية ليلتزموا بحياة الرهبنة في جوار الأماكن المقدسة. وساهم ذلك بالمقابل في توسع وتطور الأديرة التي كانت قائمة في القدس وبيت لحم وفي مواقع أخرى ذات صفة مقدسة، حيث كان الرهبان يؤمنون الخدمة الكهنوتية وإقامة القداس واستقبال الحجاج. غير أن رهباناً آخرين اختاروا الابتعاد عن مواقع

الحجيج، إنما في أماكن غير بعيدة عن المدينة المقدسة. وكان أحد أوائل الرهبان المعروفين في فلسطين والقدس هو شريتون، القادم من آسيا الصغرى، والذي استقر في فاران عام ٣٣٠ على بعد نحو ٢٠ كلم شمال شرق القدس، حيث جذب الأتباع والتلاميذ له. وسرعان ما أسس ثلاثة أديرة على نمط المعتزلات في منطقته، وكان الرهبان يأتون ليعيشوا فيها في خلايا معزولة طيلة أسبوع، ثم يجتمعون في نهاية الأسبوع في الأبنية المخصصة لهم والمتمركزة حول كنيسة. ونحو عام ٤١١، أسس إفتيموس في هذه البادية نفسها ديراً جديداً حيث كانت تتم فيه طقوس الحياة المشتركة. وكان ارتباط هذين النمطين من الحياة الرهبانية والمنشآت الدينية سمة أصبحت أصيلة في الرهبنة الفلسطينية في الصحراء، حيث كرس تلميذ وخلف إفتيموس نمط الحياة المتقشف والناسك للرهبنة. وفي هذا النمط كان يعود لفترات إلى حياة المعتزلات بل وكان يستمر في عزلة ووحدة كاملة لوقت طويل. غير أن بعض أنماط الرهبنة الفلسطينية وخاصة في القدس استلهمت أيضاً شيئاً من حياة الرهبنة المصرية في ذلك الوقت، كما يبدو الأمر في حال هيلاريون أو عموماً بالنسبة لرهبان القدس في عام ٣٩٠ عندما زاروا مصر (تاريخ رهبان مصر).

خاتمة

يعد تاريخ القدس المسيحي، وخاصة خلال القرون الأولى للميلاد، تاريخاً شائكاً، ومليئاً بالفجوات، وكثير المنزلقات. والحقيقة أن الوقائع التاريخية القليلة تفرض على الباحثين التريث والحذر في طرح الاستنتاجات والتفسيرات حول الأحداث وأسبابها. ولهذا حاولنا أن نقدم في هذه الدراسة الموجزة لمحة عن التسلسل التاريخي للأحداث المسيحية في القدس قبل الإسلام. وتحتاج نقاط كثيرة لم نتطرق إليها أو أشرنا إليها سريعاً إلى دراسات معمقة من المنظور التاريخي. ومنها تاريخ الرهبنة، وتاريخ الانشقاقات الكنسية وخلفياتها، وتاريخ الطقوس والأعياد وتأثرها بالموروث المحلي، والعلاقات المسيحية اليهودية وتأثيرها على تطور الفكر الديني في المنطقة في القرون التالية.

المراجع:

- تيكسيدور خ.و كانيفيه ب، الحياة الدينية في سورية قبل الإسلام، ترجمة موسى ديب الخوري، سلسلة أبجدية المعرفة، ١٧، دار الأبجدية دمشق ١٩٩٦.
- أندريه دوبون سومر (تحت إشراف)، مخطوطات البحر الميت، الجزء الأول كتب الأسينيين، ترجمة موسى ديب الخوري، مقدمة المترجم، دار الطليعة الجديدة، دمشق ١٩٩٩.
- Abel F.-M.، Histoire de la Palestine depuis la conquête d'Alexandre jusqu'à l'invasion arabe، Paris، Gabalda، 1952.
- Ovadiah A، Corpus of the Byzantine Churches in the Holy Land، Bonn، 1970.
- Vincent H. Et Abel F.-M.، Jérusalem، Recherches d'archéologie et d'histoire، II، Jérusalem nouvelle، Paris، 19141926-.
- Leclant J. (sous la direction)، Dictionnaire de l'Antiquité، Jérusaleme، puf، 2005.



الدراسات والبحوث

ملاحظات حول تاريخ القدس / أور-شليم

فايز مقدسي *

القدس أو أور- شليم كما هو اسمها الكنعاني القديم ويعني «حاضرة السلام» حيث أن الكلمة الأولى /أور/ سومرية – بابلية تعني مدينة. والثانية كنعانية وتعني السلام كما هو واضح. والإشارات التاريخية تشير إلى وجود هذه المدينة في الألف الثالث ق.م. فهي تكون بذلك واحدة من أقدم مدن الهلال الخصيب القديم. أما كون القدس أو أورشليم مدينة كنعانية الأصل فهذا من الأمور التي لا يرتقي إليها الشك. بدليل موقعها الجغرافي وبدليل

* باحث سوري مقيم في باريس.

أسماء المجموعات التي سكنتها منذ القدم وكلها مجموعات كنعانية مختلطة من أموريين ويبوسيين وحثيين وحوريين كما هو أمر أكثر الحواضر السورية القديمة التي كانت أشبه بحواضر عالمية /كوزموبوليت/. وأور شليم –القدس تشبه في ذلك/ أوغاريت كما كانت في الألف الثاني ق.م وإنطاكية/ عاصمة سورية الكبرى كما أضحت فيما بعد. حيث كانت تختلط الأقوام واللغات والثقافات ولكن يبقى العنصر المحلي مسيطراً عند عامة الشعب وأوضح صورة لذلك هي صورة المملكة السورية على عهد ملوك سورية الكبرى السلوقيين، ومن ثم على عهد الأمبرطورية الرومانية والبيزنطية ومن ثم الدولة الأموية التي كانت عاصمتها دمشق كما نعلم.

مدينة أورشليم التي لا نعرف الشيء الكثير عن تاريخها القديم لأسباب عديدة أهمها الاختلاط الذي حصل في تدوين تاريخ هذه المدينة التي تُعتبر مقدسة من وجهة نظر الديانات التي نسميها اليوم توحيدية: اليهودية والمسيحية والإسلام. والتي ليس هناك في الحقيقة ما يربطها مباشرة بهذه المدينة التي كانت موجودة وقائمة قبل وجود الديانات فلا اليهودية نشأت في القدس ولا المسيحية ولدت فيها ولا الإسلام ظهر على أرضها. بل إن هذه المدينة الحاضرة كانت، كما سوف نرى، مقدسة قبل كل الأديان التي ذكرناها، وحيث أن لقبها بمدينة مقدسة / قادش أو قدشو أو قاديشو/ قديم كما هو اسمها.

في الزمن الذي تقصه الروايات التوراتية /وسوف نفترض على صفحات هذا البحث أن كل ما هو مدون صحيح وتاريخي/ مع أن الحقيقة هي غير ذلك /هناك اسم يتردد كثيراً هو اسم /أرض كنعان/ وهي الأرض التي، ولأسباب مجهولة ودائماً حسب الرواية التوراتية المعروفة، وعد بها /يهوه إبراهيم. والحقيقة أن هذا الوعد الإلهي الشائع، والذي يعتبره الكثيرون، بمثابة حقيقة تاريخية، قد تم عقده مع إبراهيم حيث يتم منح أرض كنعان التي تفيض عسلاً ولبناً حسب الوصف التوراتي/ لإبراهيم ومن بعده لنسله. أما لماذا يمنح /يهوه/ هذه الأرض لشخص من بلاد ما بين النهرين / أور الكلدانيين/ (العراق اليوم) هو إبراهيم ولنسله من بعده فهذا أمر من الصعب الإجابة عليه. كما أنه من الصعب معرفة

الحكمة الإلهية من اختيار بلاد كنعان وليس غيرهــا وهي التي كانــت محاطة ببلاد كلها غنية و متحضرة.

ثم لماذا يستقــر إبراهيم في أرض كنعان التي وعد بها وبين سكانهــا الأصليين زمناً طويلاً كنازح لا يمتلك شيئاً حتى إنه يضطر إلى ابتيــاع مغارة لدفن زوجتــه بعد موتها وهو الموعود بكل هــذه الأرض. ولماذا يقوم إبراهيــم، وهو رجل تم اختيــاره على نحو إلهــي، بتقــديم فروض الطاعــة والتكريم والخضوع إلى ملك أورشليم الكنعاني الشهير /ملكي صادق/ الــذي يُوصف بأنه /كاهن الله العلي/ مما يــدل على المكانة الخاصة دينياً التي كانت للقدس آنذاك كما هو الأمر اليوم.

الأمر الثاني، وهــو بدوره معقد كما هو الأول، والوعد قد مُنح إلى من سيُطلق عليهم فيما بعد اســم العبرانيــين أو اليهود، يتم، ومــرة ثانية، اختيار شخص آخر هو ضابط في الجيشــ المصــري على زمــن الفراعنة ارتكب جريمة قتــل أحد المصريين واضطر إلى الفــرار هــو /موسى/ ليقــود الشعب المختار إلى أرض كنعان. ثم فبأية لغة خاطب /يهوه/ موسى على الجبل وأعطاه الوصايا العشر، وبأية لغة خاطب موسى /يهوه/ وهو الــذي لا يعرف سوى اللغــة المصرية وتربى في القصــر الملكي الفرعــوني؟ خاصة وأن مــا سوف يسمــى باللغة العبريــة لن يوجد سوى بزمن طويل بعد ذلك. أي بعد اقتباس الداخلين الجدد إلى كنعــان اللغة الكنعانية كما تدل العبارة الواردة على المتن التوراتي في اعتراف صريح حول اقتباس العبرانيين للغة الكنعانية: «اقتبســت شفة كنعان». ثم يجب على المرء أن يصدق أن البحر قد انشق ليتم العبور الذي سوف يعطــي اسمه للعبرانيين ثم ارتد على الجيشــ المصري ليغرقه. وأن يتم بعد ذلك اجتياز الصحراء باتجاه أرض كنعان ونحن نعلم اليوم ومن خلال الأبحاث العلمية الحديثة التي تعرضت للموضوع أن الطريق الذي يرسمه النص التوراتي للعبور وللدخــول إلى أرض كنعان لا يمكن أن يكون حقيقياً أو واقعيــاً، وأن كل الطرق المحتمل عبورهــا آنــذاك من قبل مجموعــة بشرية ســوف تؤدي إلى هلاك هــذه المجموعة في وقــت قليــل أو آن، وفي أحسن الاحتمالات، سوف لن يصل منها سوى قلة قليلة لا يسمح عددها بشــن حروب على الممالك الكنعانية القويــة والمتحضرة خاصــة أن هذه الممالك

كانت تتحالف فيما بينها كلما تعرضت لخطر خارجي أو لهجمات البدو الرحل.

ونحن نعلم مثلاً أن احتلال أورشليم من قبل اليهود (نذكر القارئ من جديد أننا انطلقنا من قاعدة أن كل ما ورد في الكتب الدينية والتاريخية هو صحيح وتاريخي وإن كان الأمر ينافي الحقيقة) لم يتم إلا على أيام الملك داوود الذي جعل من المدينة عاصمة لمملكته. أي بعد زمن طويل من دخول كنعان المفترض من قبل العبرانيين مما يدل على قوة ومنعة المدينة.

إذا تابعنا تاريخ المدينة نجد أن بناء المعبد أو الهيكل الذي ينسب إلى الملك سليمان، إن كان صحيحاً، لم يقم به العبرانيون أو اليهود، بل المهندس المعماري الكنعاني الشهير / حيرام/ من صور في لبنان. وللأمر دلالته ولنا عودة إليه.

في القرن السادس ق.م تم احتلال أورشليم وتدميرها من قبل الجيش البابلي وظلت لزمن طويل بمثابة أنقاض حيث تم إجلاء السكان اليهود إلى بابل كما هو معروف وذلك بعد الفتح الأشوري. ثم احتلتها جيوش الإسكندر المقدوني في أواخر القرن الرابع ق.م كما أنها خضعت للسيادة السورية على زمن الملك السوري السلوقي /انطوخيوس الرابع/ وبعد ذلك احتلها ودمرها القائد الروماني /تيتوس/ حيث خضعت المدينة للسيادة الرومانية ككل أنحاء الهلال الخصيب.

النصوص التوراتية تعطي للمدينة أهمية عظمى منذ اختارها الملك داوود كعاصمة لمملكته ثم بناء الهيكل المنسوب كما سبق إلى الملك سليمان /انظر للتوسع سفر الملوك ١-٢/. غير أن المدينة لا تكتسب دورها الكبير في اليهودية حقاً وكعاصمة مقدسة وعلى نحو مركز إلا بعد السبي ويبدأ اسمها يذكر في قصائد المراثي التوراتية التي تقلد أسلوباً شعرياً كان شائعاً في الأدب البابلي القديم.

الأناجيل المسيحية أكدت بدورها على مكانة أورشليم واعتبرتها أرض المسيحية مع أن القليل من الأحداث الأساسية في المسيحية وفي حياة المسيح تمت في القدس. حتى صلب المسيح لم يتم في القدس وإنما خارج المدينة. والكنيسة الأولى تأسست في أنطاكية في سورية وليس في القدس. والرؤيا الشهيرة برؤيا القديس بولس التي غيرت مجرى المسيحية وأطلقتها إلى العالم إنما حدثت في دمشق وليس في أورشليم. كما

أن، وللأمر دلالة هامة، العبارة التي وردت على لسان /اشعيا/ «ها أن العذراء تحمل وتلد ابناً يكون اسمه عمانوئيل» والتي تم اعتبارها كنبوءة عن ولادة المسيح، نعثر عليها حرفياً في قصيدة «أعراس القمر» الكنعانية /أوغاريت/ وهي ترد على النحو التالي: «ها أن العذراء تحمل وتلد ابناً». وكلمة عذراء في النصين هي نفسها /غلمت/ مؤنث/ غلم أو غلام. يعني الصبية. والأمر الآخر المثير للانتباه في عبارة /اشعيا/ أنه يستخدم اسم /إل/ الكنعاني/ وليس اسم /يهوه/ في تسميته للمولود القادم /عمانوئيل/ الذي يعني «الله معنا» أو /إل/ معنا. وكان من المنطقي أن يقول «يهوه معنا» خاصة وأن العبارة موجهة للملك /أخاز/ ملك اليهودية في الجنوب الذي كان يستعد، وهو متخوف، لمعركة مع ملك دمشق الآرامي. أما اسم الإله الذي خاطب إبراهيم ونوح فلا ندري من هو لأن اسم /يهوه/ لا يظهر إلا على زمن موسى. أما الإله الذي صنع الإنسان والعالم حسب التوراة /انظر تكوين/ فهو /إيلوهيم/ صيغة الجمع من اسم /إل/ الكنعاني.

حتى تتضح الأمور ينبغي البحث في أعماق التاريخ عن شخصية الملك الكاهن ملكي صادق ملك أورشليم- القدس الذي التقى به إبراهيم بعد عودته منتصراً من الحرب التي شنها مع رجاله ضد تحالف عدة ملوك محليين كنعانيين وعاد منتصراً ومحملاً بالغنائم التي قدم العشر منها لملكي صادق. ثم ينبغي طرح السؤال كيف استطاع إبراهيم بعدد قليل من جماعته الانتصار على جيوش عدة ملوك. ثم لماذا بارك ملكي صادق إبراهيم؟ ولماذا يحمل ملكي صادق من بين كل ملوك زمانه لقب كاهن وملك ومن أين جاءته سلطة المباركة ولماذا كان ينبغي تقديم العشر له؟ ثم ولماذا يختفي بعد ذلك اسم ملك أورشليم أو شاليم أو سالم من المدونات التوراتية فلا يعود إلى الظهور إلا على زمن القديس بولس، أي في بداية القرن الأول الميلادي، حيث يأتي ذكره على لسان بولس في واحدة من رسائله حيث يعلن بولس المسيح كاهناً على رتبة ملكي صادق الكنعاني وليس على رتبة إبراهيم أو موسى ومن المفترض أنهما من رؤوس شعب يهوه المختار؟

أسئلة كثيرة هنا تطرح نفسها.

لماذا أعلنت الكنيسة المسيحية الناشئة المسيح ابناً لداوود أو من نسله ومتحدراً

من إبراهيم وجاء ليكمل شريعة موسى ولم تعلنه وريثاً روحياً لملكي صادق الكنعاني كما فعل بولس وهو الأمر الذي تم التغاضي عنه عند آباء الكنيسة الأوائل الذين أصروا على اعتبار الرسالة التي جاء بها المسيح رسالة لا تخرج من نطاق اليهودية والكتب التوراتية. لماذا نبوءة اشعيا ها هي العذراء تحمل وتلد ابناً نبوءة عن مجيء المسيح ومن نسل داوود، أما عبارة ها هي العذراء تحمل وتلد ابناً الواردة على متن نص «أعراس القمر» الأوغاريتي والتي هي أقدم من العبارة التوراتية بكثير ليست نبوءة عن مجيء المسيح ومن نسل كنعاني؟ لماذا، وبعد اكتشاف وقراءة النصوص الرافدية والكنعانية بأكثر من قرن من الزمن لا ننتبه إلى أن لفظة «البتول» الواردة في النصوص الإنجيلية والتي هي لقب مريم أم المسيح نجدها في اللغة الكنعانية /أوغاريت/ كلقب للربة /انات/ رفيقة البعل؟

تقص التوراة /تكوين/ لقاء إبراهيم مع ملك أورشليم الكنعاني /ملكي صادق/ الذي كان ملكاً على القدس القديمة وكاهناً لله العلي /في الأصل «إل-عليون». ولقد قدم له إبراهيم أسمى آيات الإكرام والتبجيل مما يدل على المكانة السامية لهذا الملك –الكاهن الكنعاني. كما أن الأمر يدل على مكانة أور- شليم الكنعانية المقدسة منذ غابر الزمن عند الكنعانيين. والقدس كما نعرف اليوم، ومن الألواح التي عثر عليها، مدينة موجودة منذ الألف الثالث ق.م أي قبل ظهور العبرانيين على مسرح التاريخ بحوالي ٢٠٠٠سنة. غير أن الكتابات التوراتية المتأخرة جعلت منها مدينة يهودية وعاصمة روحية منذ القدم /انظر سفر المزامير وسفر أراميا وسفر الحكمة على سبيل المثال. وكل هذه الأسفار التوراتية دونت بعد النفي وبعد تدمير المدينة. وجدير بالذكر أن القديس / بولس/ جعل من المسيح كاهناً ليس على درجة إبراهيم أو موسى، وإنما على درجة ملكي صادق الكنعاني. ولهذا الأمر دلالة عظمى كما لا يُخفى. /انظر رسائل بولس. العهد الجديد/.

صعوبة الكتابات التوراتية الأولى أنها تطرح نفسها كنصوص تاريخية تسجل أحداثاً جرت في الواقع وتمت. والحقيقة أنها تسجل الأحداث كما يحلو لها أن تكون قد حدثت وبعد زمن طويل من حدوثها وعلى نحو يبدو اليوم، وعلى ضوء

الاكتشافات الأثرية الحديثة في المنطقة، غير مطابق للتاريخ القديم للهلال الخصيب الذي أصبح معروفاً حتى في أدق تفاصيله فإبراهيم، وعلى سبيل المثال، والذي يعتبر أبو اليهود، لم يكن ذات يوم يهودياً أو عبرانياً وإنما شخص من بلاد ما بين النهرين هاجر، كما كان يحدث دائماً، من أرضه / مدينة/ أور /إلى/ حرّان/ ومنها إلى أرض كنعان، ودائماً حسب الوعد الإلهي والرواية التوراتية التي تذكر عنه أنه آرامي «آرامياً تائهاً كان أبي» /تثنية/، نرى من خلال تحليل اسمه الأول /إبرام/ لغوياً أنه اسم ينتمي إلى لائحة الأسماء الأمورية. والوثائق التاريخية المسمارية تذكر وجود أو دخول الأموريون إلى بلاد ما بين النهرين منذ منتصف الألف الثالث ق.م أيّ منذ تأسيس / سرجون أو شاروكين للإمبروطورية الأكادية. وكان الأموريون في /أور/ يتعبدون على نحو خاص للربة /نين –جال/ (بالسومرية يعني الاسم السيدة الجليلة ونُقل إلى اللغة الأكادية على صيغة /شاراتو/ صيغة التأنيث لاسم /شارو/ أي الملك. ونين –جال كانت قرينة الإله /سين/ إله القمر أيّ إله مدينة حرّان التي توقف فيها إبراهيم أو أبرام كما كان اسمه في الأصل. لذلك نرى أن إبرام وزوجته سارا أو شارتو وجماعته يحملون جميعاً أسماء أمورية الطابع. أبرام يعني «الأب الجليل». لذلك فسارا زوجة أبرام هي في الأصل شارتو، أي الملكة أو الأميرة. ثم تحول اسم أبرام إلى إبراهيم /أي أبو الأمم أو الشعوب أو الشعب/ وشارتو إلى سارا أو ساراي. كما ودائماً على سبيل المثال لا الحصر، نجد مؤلف أو مؤلفي سفر التكوين التوراتي يفسرون اسم مدينة بابل على نحو خاطئ فيجعلونه من جذر /بلبل/ أي خلط بينما نعرف أن اسم بابل يعني /باب الله/.

وفي الحقيقة فالسرد التوراتي لدخول المجموعة العبرانية بقيادة موسى، ومن بعده يشوع بن نون إل أرض كنعان يأخذ غالباً صفة عقائدية، أي أن يهدف إلى تأكيد أمر معين ومحدد، بالنسبة إلى مؤلفيه الذين دونوا ما يقصونه من أحداث بعد حدوثها أو افتراض حدوثها بزمن طويل لذلك يصعب على الباحث أن يعتمد المدونات كوثائق تاريخية صحيحة. لقد حاول البحاثة الأثريون واللغويون في أوروبة ومنذ القرن التاسع عشر العثور، ومن خلال الحفريات والوثائق المسمارية، على آثار

تؤكد الدخول إلى كنعان أو «الأرض الموعودة التي تسيل عسلاً ولبناً»[1] والتي وعد بها /يهوه/ إبراهيم وذريته من بعده إنما راحت جهودهم سدى رغم الحفريات والتنقيب في أكثر المدن المذكورة في النصوص التوراتية التاريخية كأريحا وعاي وغيرهما. ولقد جهدوا لكي يعثروا في آثار أريحا ما يدل حقاً على احتلال يشوع بن نون المدينة وتدميره لها كما هو مذكور في التوراة غير أن الآثار لم تكشف عما يؤكد الرواية التوراتية. بالإضافة إلى ذلك وجد البحاثة أن أكثر آثار المدن المذكورة في التوراة لاتتطابق في حقيقتها مع الوصف التوراتي لها كما كانت في ذلك الزمن أيّ حوالي ١٢٠٠ق.م وعلى سبيل المثال فمدينة /حاصور/ التي حسب النص التوراتي أحرقها يشوع بن نون لم تكشف الحفريات التي جرت في أطلالها عن أي حريق تعرضت له المدينة في ذلك الزمن. وكذلك الحال مع سور أريحا الشهير الذي تقول الحكاية التوراتية أنه انهار على أصوات الأبواق التي نفخ فيها رجال يشوع بن نون الذي بينت الحفريات أنه يعود إلى الألف الثالث ق.م. وما من سور يعود إلى عهد الأحداث التي تقصها الرواية التوراتية.

وهناك عبارة أساسية ترد في الإنجيل على لسان المسيح يقول فيها: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كنت». أي، أن المسيح ينتمي إلى ثقافة هي ثقافة الهلال الخصيب والتي هي أقدم من إبراهيم والمرويات التوراتية بآلاف السنوات.[2]

صحيح أن الوثائق والألواح القديمة تشير إلى هجرات سكانية إلى كنعان حوالي ١٢٠٠ق.م. إنما كانت هذه الهجرات بمثابة نزوح من الأرياف والمناطق القاحلة الصحراوية إلى المدن والممالك العامرة كما كانت الممالك- المدن الكنعانية آنذاك حيث كان البدو الرحل الذين يعيشون على تربية الأغنام، وكما يحدث دائماً، ينتقلون إلى المدن وإلى المناطق الزراعية، ثم يستقرون فيها ويصبحون مع الزمن جزء من سكانها ويتحولون من بدوي متنقل إلى مزارع مستقر. ولعل العبرانيون /والاسم من جذر عبر أي مرّ، الذين جاؤوا مع موسى إلى كنعان/ موسى مات قبل الدخول إلى كنعان/ هم هجرة من هذه الهجرات التي اتخذت فيما بعد طابعاً دينياً قومياً. ونلاحظ أن التوراة التي تتحدث كثيراً عن حروب قبائل إسرائيل/ كما أصبح الاسم فيما بعد/

مـــع الكنعانيين. لا تذكر شيئـــاً عن احتلال المصريـــين لمدن كنعانيـــة في فلسطين وعلى مدى ثلاثة قرون ما بين ١٥٠٠ و١٢٠٠ق.م. أو أية مواجهة عسكرية مع الجيش المصري الفرعوني.

أضـــف إلى ذلـــك أن الوثائق العائدة إلى ذلـــك الزمن لا تذكر شيئاً عن ذلك الدخول الشهير إلى كنعان وحتى الملك الشهير داوود الـــذي جعل أورشليـــم أو القدســـ عاصمة لمملكته وخلفه ابنه سليمان الذي بنى الهيكل الشهير فـــإن الوثائق لا تذكـــر شيئاً عنهما رغم أنهما يمثلان العصر الذهبي لإسرائيل ولا يذكـــر أيضـــاً أن داوود كان ملـــكاً على القدســـ أو أورشليم مع أن الرواية التوراتية تؤكد أنه استـــولى على المدينة وقهر سكانها اليبوسيين.

إن المرء يتســـاءل، في نهاية المطاف، كما فعل أكثر من باحث في السنوات الأخيرة وبعد الاكتشافات الأثرية التي كشفت تاريخ الشرق القديم وألقت الضوء علـــى اقتباسات أكثر الكتب التوراتية عـــن الأساطير والحكايات والأدب الرافدي- الكنعاني كحكاية الطوفان الشهير الذي عثر عليه في أحد ألواح ملحمة جلجامشـــ وكتاب نشيد الإنشاد المنقول عن الشعـــر الكنعـــاني- الرافـــدي وقصة أيوب وسفر الجامعة وسفر الأمثال إلخ..، يتساءل المرء هل يمكن لمجموعة بشرية بدوية تاهت في الصحـــراء زمناً طويـــلاً أن تتغلب على تحالف الجيوشـــ الكنعانية المنظمة المدربة والقويـــة التابعة لممالك قويـــة وغنية وذات ثقافـــة عالية. وكيف يمكن لمجموعة بشرية، إذا صحت الروايات، استقرت في مصر أكثر من أربعة قرون أن تتذكر وبعد ٤٠٠ سنة أنها جاءت من مكان آخـــر وأن ترغب في العودة إليـــه مع شخصـــ مصري هـــو موسى ومن حاشية الفرعون يبشر بإله لم يكونوا يعرفونه وأنكروه أكثر من مـــرة وتخلوا عنه حتى في كنعان عندمـــا أصبح البعـــل الإله الكنعاني الشهير إلهـــاً لهم. وحتـــى إذا كانت حكاية بناء هيكل سليمان صحيحة فإن الذي وضع هندســـة هذا الهيـــكل كان مهندساً معمارياً كنعانياً هو حيرام الشهير في التاريخ. كما أن حكاية بناء الهيكل تبدو وكأنها نقلت في أكثر تفاصيلها عن القصيدة الكنعانية/ أوغاريت/ التي تحمل اسم /معبد البعل/ حيث يتم بناء المعبـــد على يد المهندس المعماري الكنعاني/ كوثر- خسيس/ ويتم استعمال خشب أشجار الأرز من غابات لبنـــان وسورية كما يرد في

نص القصيدة. وهذا تماماً ما يحدث أثناء بناء الهيكل المذكور في الكتب التوراتية.

الحــروب العبرانيــة ضــد الكنعانيــين والحثيــين والحوريين وباقي ســكان كنعان تذكرها الكتب التوراتية بتفصيل وهي تقص تفاصيل الدخــول إلى أرض كنعان الموعودة أحياناً على نحو معقــول وأحياناً على نحو غير معقول وذلــك حين يشارك /يهوه/ إلى جانــب القبائل العبرانيــة في هذه الحروب ويضــرب أعداء هــذه القبائــل. والمقصود بالأعداء هنــا هم الكنعانيــون والأموريون والحثيون الذيــن تحالفوا معاً كشعب واحد لصــد هجمات هذه القبائــل البدوية. كما تقص التوراة الحروب التي نشبت فيما بعد بين إسرائيل وبين الممالك السورية في العهد الآرامي وعلى نحو خاص مملكة دمشق. غير أنها بالمقابل لا تذكر شيئاً على الإطلاق عن حروب مع المصريين وكأن مصر اختفت من الوجود مع أن الوثائق تذكر الوجود المصري في فلسطــين في منتصف الألف الثاني ق.م. وهنــاك على سبيــل المثال لوح يعــود لسنة ١٢٠٠ق.م. يذكر فيــه الفرعون/مرنفتاح/ الذي حكم بعد /رمسيس الثاني/ أنه حارب إسرائيل وانتصر علــى الإسرائيليين وقضى عليهــم. غير أن النصوص التوراتية لا تذكر شيئاً عن هــذه الواقعة. (نص اللوح موجود في كتاب زمن التــوراة /بالفرنسية/ تأليف ب.بورديــل وف.شاتونيــه) إضافة إلى ذلك فنصوص التــوراة الأولى والتي تعتبر نفسها تاريخيــة نادراً ما تأتي علــى ذكر مدينة أو مملكــة أورشليم سوى إشارات عابرة لا تدل على اعتبارها مدينــة ذات صفة خاصة أو مقدسة كمــا سبق وأشرنا. مع أن القدس أو أورشليــم أو وأيضاً أورســالم كانت عاصمة روحية ومقدسة منــذ عهد طويل كما تدلنا حكاية ملكي صادق ملك المدينة وكاهن الله العلي /عليــون/. وكثيرون يعتقدون أن اسم القدس هو التسميــة العربية للمدينة بينما نعرف اليــوم أن الكلمة أو الجذر الكنعاني- الآرامي (ق-د-شــ) موجود كصفة للمدينة منــذ أقدم العهود. وكان يطلق على كل ماله علاقة بالآلهة والدين.

العلامة الشهير /ابن العبري ق.١٣ب.م/ يأتي على ذكر الملك ملكي صادق في حديثه عن إبراهيم في كتابه الشهير /مختصر تاريخ الدول/ حيث يقــول مانصه: «أخذ إبراهيم سارة امرأته وابن أخيه لوط وصعد إلى أرض كنعان وحارب ملوك /كدر لعمر/ وقهرهم.

وفي عودته من المحاربة اجتمع بملكي صادق الكاهن الأعظم وخر على وجهه بين يديه وأعطاه عشراً من السلب وباركه ملكي صادق. «وهي الحكاية المذكورة في التوراة. هناك اختلاف في أسماء الملوك واستعمال ابن العبري لكلمة /السلب/ التي يمكن أن تدل على غزوة بدوية. حيث أن سفر التكوين يذكر عدة ملوك مع /كدر لعمر ملك عيلام منهم/ /امرفل ملك شنعار/. واسم شنعار يعقد الأمور كثيراً لأن الأبحاث اليوم تميل إلى اعتبار /شنعار/ تحريفاً لاسم سومر.

أما انتصار إبراهيم، الذي يطلق عليه النص التوراتي هنا صفة عبراني وذلك قبل تاريخ العبور وقبل ظهور صفة عبراني بمئات السنين، على هذا التحالف القوي بعدد من الرجال يقدر بأقل من ٤٠٠ شخصاً، وانه لحق فلولهم إلى /حوبة/ التي عن شمال دمشق حسب السرد التوراتي فأمر من الصعب تصديقه تاريخياً. ثم تأتي حكاية المباركة: «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً. وكان كاهناً لله العلي. وباركه وقال مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والأرض. «هذه العبارة تبين أن إله ملكي صادق لم يكن إلهاً محلياً أو قومياً، بل رب الناس أجمعين. ويكفي هنا للتدليل على كنعانية أورشليم أن نذكر ما قاله «/حزقيال ١٥/ وهو يستنزل اللعنات على المدينة»: هكذا قال الرب لأورشليم: «مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك أموري وأمك حثية». وحتى التعبير الذي يخاطب به /يهوه/ حزقيال: «يا ابن أدم»/(٢) هو تعبير كنعاني تحفل به القصائد والنصوص الأوغاريتية الكنعانية ونتابع ما يذكره ابن العبري: «ومئة سنة مضت من عمر إبراهيم ولد له اسحق من سارا ولما حصل لأسحق تسع عشرة سنة أصعده إبراهيم لجبل نابو (المكان مشكوك فيه وتتنوع فيه الآراء) ليضحي به (...) قيل في تلك السنة أتم ملكي صادق بناء أورشليم».

ثم يعود ابن العبري إلى ذكر ملكي صادق: «اسحق بن إبراهيم ولد له يعقوب وعمره ستون سنة. (..) وبعد عشرين سنة من تزوجه حبلت /رفقة/ امرأته. ولأنها تألمت بالحبل مضت إلى ملكي صادق لتسأله عن حملها فدعا لها وبشرها بأن أمتين عظيمتين في أحشائك(..) وفي تلك الأيام بنيت مدينة أريحو/ أريحا من سبعة ملوك كل منهم بنى لها سوراً» (١)

رغــم كل المبالغات الموجــودة في النص وتداخل الأزمنة فإننا نرى بوضوح أن أورشيلم تذكر دائماً مع اســم ملكي صادق الكنعاني الــذي يأخذ هنــا صفة أخــرى تضاف إلى صفته ككاهن هي الطبيب والعارف فهو هنا أشبه بالأطباء السومريــين القدماء /آسو/ (والكلمة السومرية بقيت في العربية /آس/ أي الطبيب/ الكاهن. ومن الملفت للنظر أن اســم /يسوع/ هو بدوره مــن كلمة /آس/ الطبيــب واسمه القــرآني /عيسى/ كذلك. والأناجيل حافلــة بالقصص التي تدل على المسيح كطبيب يعالج المرضى ويشفيهم وحتى إنه يطرد الأرواح الشريرة ويحي الموتى وهو ما يفعله الأطباء السومريون القدماء /آسو/ كــم نعلم من النصوصــ المكتشفة. ولنتذكر أن القديســ بولس، وكما سبق، جعل المسيح كاهناً على رتبة ملكي صادق وليس على رتبة إبراهيم أو موســى أو داود. وهذا ما نقرأه أيضــاً في المزمور ١١٠: «جعلتك كاهناً على رتبة/ ملكي صادق». ونقرأ أيضاً في إنجيل متى: «وكان يســوع يطوف كل الجليل ويعلم مجامعهــم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرضــ وكل ضعف في الشعب فذاع خبره في جميع سورية». ولنلاحظ عبارة «كل سورية» وليس مثلاً كل إسرائيل أو اليهودية. وعبارة «يشفي كل مرض» ولاننسى أن المسيح عاش زمنــاً طويلاً في مدينــة /كفر ناحوم/ قرب بحيرة /طبرية/ وهي مدينة لم يسكنها اليهود علــى الإطلاق وكان بــين سكانها عدداً من محبــيّ المسيح بدليل أنه كثــيراً ما كان يلجأ إلى بيــت واحد منهم. وبحــيرة طبرية التي جعل المسيح العاصفــة على أمواجها تهدئ والتي مشى على مياهها وعلى ضفافها كثر الخبز والسمك كانت تدعى بحيرة سورية.

في نهاية هذا البحث المختصر ينبغي أن نشير إلى أن مدينة أورشليم الكنعانية لم تتخذ أهميتها الدينية وصفتها المقدسة عند اليهود إلا في وقت لاحق وبعد نشوء مملكة السامرة في الشمال ومملكة إسرائيل في الجنوب التي كان فيهــا داوود ملكاً والتــي حافظ الكهنة فيهــا على عبادة يهــوه، بينما شاعت عبادة بعل الكنعــاني في أرجاء السامرة التي كانت عاصمة غنية ومختلطة السكان بحيث أن أهل الجنوب نظروا إلى سكان السامرة /وخاصة على عهد الملكة الفينيقية الكنعانية إيزابيل حيث أصبــح الدين الكنعاني هــو الشائع/ كمارقين. وأفضل مثال على ذلك ثورة النبي (إيلي أو إيليا) ضد عبادة البعل حيث لم تبق سوى قلة قليلة تتعبد ليهوه. /انظر النصوص

التوراتية/. ومـن غرائب الأمور أن /إيلي/ الذي ثار ضـد انتشار الديـن الكنعاني في أوساط اليهود يحمل هـو نفسه اسم /إل/ الـرب الكنعاني. وعلى هـذا النحو رسخت صفـة المدينة المقدسة لأورشليم عند اليهود في وقـت متأخر[٣] والحقيقـة أن الموضوع تحتـاج معالجته إلى كتاب كامل إنما اكتفينا هنـا ببعض الإشـارات الهامـة التي تلقي الضوء على المتناقضات الأساسية، وببعض الملاحظات التي وضعناها في صيغة أسئلة.

الهوامش

١- هـذه العبـارة تـرد حرفياً وكما هي في قصيدة البعل وأنات الكنعانيـة التي عثر عليها في أوغاريت/ سورية حيث يرى الرب /إل/ في حلمه أن البعل إله الخصوبة قد عاد إلى الحياة وعادت الخصوبة إلى الأرض بعودتـه وصارت «السواقي تجري عسلاً والأرض تفيض لبناً». (انظر الترجمة العربية الكاملة للقصيدة في كتابي «بعل وعنات» دار الأبجدية دمشق).

٢- للتوسع راجع كتابي «الأصول الكنعانية للمسيحية» دار الأبجدية- دمشق.

٣- على نحو مشابه حدث في بداية تدوين الأناجيل خلط بين بيت لحم التي من المفترض أن المسيح ولـد في مغـارة فيها وبين بيت لحـم في الجنوب مدينة داوود. لأن بيت لحـم التي ولد فيها المسيح تقـع في الشمـال في الجليـل. ويجب أن لا ننسى أن المسيـح كشخص تاريخي هو من الجليل /وهي منطقـة غـير يهودية/. ويبدو أن أحد كتبة الأناجيل تعمد هـذا الخلط وجعل المسيح يلد في بيت لحم الجنوبية مدينة داوود حتى يؤكد أنه أي المسيح، من سلالة داوود وهو الأمر الذي نفاه المسيح كما نفى انتسابه إلى إبراهيم. ونلاحظ أيضاً أن المسيح على الصليب، وحسب الرواية، نادى /إل/ «إيلي، أيلي لما شبقتني» ولم يقل «يهوه».

المراجع

- التوراة.
- الأناجيل. رسائل بولس.
- مختصر تاريخ الدول. ابن العبري.
- Bordreul- Le temps de la Bible.
- Garelli& A. Lemaire- la Bible et ses personages.
- A. Caquot/ M. Szhycer/ A. Herdner- Textes ougaritiques.
- Pierre Debergé- Le proche- Orient asiatique let2.
- S. Cluzan- De Sumer ACanaan- Le monde de la Bible.



الدراسات والبحوث



شعراء العرب يمجدون بيت المقدس

حسن موسى النميري ❋

يَرَى الباحثُ في مَعاجِمِ اللُّغَةِ أنَّ مادَّةَ (ق د س) تُفيدُ شَيْئَيْنِ هُما: الطُّهْرُ والبَرَكَةُ.. وعلى هذا الأساسِ فَإنَّ بَيْتَ المَقْدِسِ تَعني: البيتَ المُطَهَّرَ؛ أي المَكان الذي يُتَطَهَّرُ بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ..كما أنَّهُ مُبارَكٌ.

والأرضُ المُقَدَّسَةُ عنــدَ مُعظَمِ المُفَسِّرينَ هي (مَدينَةُ القُدْسِ) وما حَولَها، وتَتَّسِعُ دائرَةُ الطُّهْرِ والبَرَكَةِ فَتَشمُلُ بِلادَ الشامِ، ومِصرَ، والحِجاز.

❋ كاتب باحث في التراث العربي (فلسطين)

والأرضُ المُقَدَّسَةُ طاهِرَةٌ في ذاتها، مُطَهِّرَةٌ لِغَيْرِها. وذَكَرَ الفَيْروز آبادي في المُحيطِ أنَّ بَيتَ المَقْدِسِ تُلفَظُ على شَكلَيْنِ؛ فَتَقولُ: بَيتُ المَقْدِسِ (كَمَجْلِس - بِفَتْحِ الميمِ وسُكونِ القاف وكَسْرِ السِّين). وتَقولُ: بَيتُ المُقَدَّسِ (كَمُعَظَّم - بِضَمّ الميمِ وفَتْحِ القافِ وتَشديدِ الدَّال المَفتُوحة). أمَّا إذا قُلتَ المُقَدِّس (كَمُحَدِّث - بِضَمّ الميم وفتح القاف وتَشديد الدال المَكْسورة) فهُوَ الرَّاهِبُ[1].

والقُدُّوسُ صِفَةٌ من صِفاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، تَعني الطَّاهِرَ المُنَزَّهَ عنِ العُيُوبِ والنَّقائصِ، قال العجَّاجُ يَمدَحُ أبا العبَّاسِ السَّفَّاح:

قد علِمَ القُدُّوسُ، مَوْلَى القُدْسِ

أنَّ أبا العبَّاسِ، أَوْلَى نَفْسِ

بِمَعْدِنِ المُلْكِ القَديمِ الكِرْسِ[2]

ورُوحُ القُدُسِ: جِبْريلُ عليهِ السَّلام. سُمِّيَ بِذَلكَ لأنَّهُ خُلِقَ مِنَ الطَّهارَةِ. قال اللهُ تَعالَى في صِفَةِ عِيسَى(المَسيح) عليهِ وعلى نَبِيِّنا الصَّلاةُ والسَّلام: ﴿وأَيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ[3]﴾

أيْ أيَّدْناهُ بِجِبريل عليهِ السَّلام. وفي الحَديثِ أنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال (لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِضَعيفِها مِنْ قَوِيِّها) أي لا طُهِّرَتْ، ولا بُورِكَتْ.

والنِّسْبَةُ إلى بَيتِ المَقْدِسِ: مَقْدِسِيٌّ، ومُقَدِّسٌ (كَمُحَدِّث).. قال امرؤ القيس يَصِفُ كِلابَ صَيْدٍ أشْلاهُنَّ الصَّيَّادُ على ثَورِ وَحْشٍ:

فَأَدْرَكْنَهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ والنَّسا

كَما شَبْرَقَ الوِلدانُ ثَوبَ المُقَدِّسِ[4]

ومِنْ قَولِ امرِئِ القيسِ هذا نَفهَمُ أنَّ نَصارَى العربِ،كانُوا قبلَ الإسلامِ يُعَظِّمونَ كُلَّ ما لَهُ صِلَةٌ بِبَيتِ المَقدِسِ. انْظر كيفَ تَجَمْهَرَ أطفالُ النَّصارَى وتَزاحَمُوا وتَدافَعُوا حولَ هذا الرَّجُلِ (الرَّاهب أو الحَبْرِ أو المُقَدِّس) يَتَمَسَّحُونَ بِهِ،ويَلمَسُونَ مَلابِسَهُ،يُريدونَ اكتِسابَ البَرَكَةِ والطَّهارَةِ، حتى (شَبْرَقُوا) مَلابِسَ المِسكينِ أي مَزَّقُوها وقَطَّعُوها، يَطمَعُ كُلٌّ مِنْهم أنْ يَحصَلَ على قِطعَةٍ مِن ثِيابِ هذا (المُقَدِّسِ) الذي حظِيَ (وحَظِيَتْ مَلابِسُهُ) بِزِيارَةِ بَيتِ المَقْدِسِ، فاكتَسَبَتْ هذهِ الثِّيابُ طَهارَةً وبَرَكَةً عَظيمَتَيْنِ.

وبَيتُ المَقدِسِ مَدينَةٌ، كُلُّ شَيءٍ فيها مُقَدَّسٌ عندَ المُسْلمينَ أيضًا؛ أرضُها مُقَدَّسَةٌ طاهِرَةٌ، وسماؤها مُقَدَّسَةٌ، الهواءُ فيها مُقَدَّسٌ،والماءُ والشَّمسُ والقَمَرُ والفَواكِهُ والسَّحابُ ووو..ففي القُرآنِ العظيمِ يَذكُرُ اللّهُ جَلَّ وعَلا مُتَحَدِّثًا عن النبيّ إبراهيم الخليل عليه السّلام ﴿ونَجَّيْناهُ ولُوطًا إلى الأرضِ التي بارَكنَا فيها لِلعالَمِين[5]﴾ولا يَشُكُّ

أحَـدٌ مِنَ المُسلمـينَ أنَّ الأرضَ التي (باركنا فيها) أيْ التي وضَـعَ اللّهُ بَرَكَتَهُ وطُهْرَهُ فيها هيَ أرضُ بَيتِ المَقْدِسِ، وتَتَّسِعُ دائرَةُ البَرَكَةِ والطُّهْرِ مِنْ مَركَزِ الدائرة(مدينة القُدس)إلى ما حَولَها مِنَ البُلدانِ بِاتِّجاهِ الشّامِ، ومِصرَ، والحِجازِ [٦].

وقال تعـالى أيضًا :﴿سُبْحانَ الذي أسرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِـنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأقْصَـى الذي بَاركنا حَوْلَـهُ[٧]..﴾ والعَبْدُ الذي أُسْـرِيَ بِهِ هُوَ نَبِينُـا مُحَمَّدٌ صلى اللّهُ عليْهِ وسلم، وقد أُسْرِيَ بِهِ بِرفقَةِ جِبْريلَ عليهِ السَّلام، مِنَ المَسجِدِ الحَـرامِ بِمَكَّةَ المُكرَّمَةِ إلى المَسجِـدِ الأقصَى بِبَيـتِ المَقْدِسِ، ومِن هُناكَ عُرِجَ بِهِ إلى السَّماواتِ السَّبْعِ،في رِحلَةٍ مَشهـورَةٍ في عَقيدَةِ المُسلمـينَ، وفي تُراثِهِم يُقالُ لَها رِحلَةُ الإسراءِ والمِعْراجِ.

وفي عقيدةِ المُسلمينَ أنَّ مَنْ يَزُرِ المَسجِدَ الأقصَى في بيتِ المَقدِسِ يَتَطَهَّرْ مِن ذُنُوبِهِ وآثامِـهِ، ويَعُدْ كمـا وَلَدَتْهُ أُمُّـهُ، خالِيًا مِن الذنـوبِ والخَطايـا والآثامِ، لـذا فالقُدْسُ مُعَظَّمَةٌ مُطَهَّرَةٌ عنـدَ جميعِ المُسلمينَ، تأتي قُدْسِيَّتُها في المَرتَبَةِ الثالثةِ، بعدَ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، والمَدينَةِ المُنَوَّرةِ حَرَسَهما اللّهُ تعالى. فالرَّسُولُ صلى اللّهُ عليْهِ وسلم، فَرَضَ ما يُشْبِهُ الحَظْرَ علـى الارْتِحالِ إلى أيِّ مَـكانٍ لِلحَجِّ، وطَلبِ المَغْفِرة، والتَّطَهُّـرِ مِن الذّنُوبِ، واسْتَثْنَى مِن ذلـكَ ثَلاثَةَ أماكِنَ، وهـيَ مَساجِدُ المُسلمينَ الرَّئيسَةُ الثَّلاثَةُ، وما ذلكَ إلاَّ لِكَونِها أشرَفَ المَساجِدِ وأفضَلَهـا؛ فقد رَوى البُخاري عن أبي سعيد الخدري أنَّ رسولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليْهِ وسلـم قال: (لا تُشَدُّ الرِّحالُ[٨] إلاَّ إلى ثَلاثَةِ مَساجِدَ: المَسجِدِ الحَرامِ[٩]، والمَسجِدِ الأقصَى[١٠]، ومَسجِدِي هذا).

إذًا فَمدينَـةُ القُدْسِ مَدينَـةٌ ذاتُ قَدْرٍ عَظيـمٍ ومُمَيَّزٍ في عَقيـدَةِ المُسلمـينَ، لذا فَهيَ المُحَبَّبَـةُ إلى قُلوبِهِم، القَريبَةُ المُلتَصِقَةُ بِمَشاعِرِهِم،فـإذا مـا ذُكِـرَتْ القُدسُ على مَسامِعِهِم، وجَدتَّ قُلوبَهم تَخفِقُ، وأحاسيسَهم تَهتَزُّ، إجْلالاً لِقَدْرِها، وتَعظيمًا لِمَكانَتِها.

ولِهذا السبـب تلقَى لاسْـمِ القُدسِ (أو بيتِ المَقدِسِ أو البيت المُقَدَّسِ) وقْعًا كبيرًا، وأثَـرًا واضِحًا بارِزًا في أقوالِ الشُّعراءِ، إنَّكَ تَجِدُهم يَستَعظِمونَ الحَديثَ عَنْها،ويَتَسابَقونَ لِذِكْرِهـا، ووَصْفِ جَلالَةِ قَدْرِهـا ومَكانَتِها المُمَيَّـزة، تَقَرُّبًـا إلى اللّهِ؛ فالحَديـثُ عــنِ المُقَدَّسِ يَكتَسِبُ نَوعًا مِنَ التَّبْجِيلِ والقَداسَةِ، أو يَتَعرَّضُ الشعراءُ لَها تَقَرُّبًا لِلمُجتَمَعِ الذي يَطلُـبُ الحَديثَ عـن بيتِ المَقْدِسِ إرْضاءً لِقُلوبِهِم التي تَهفو إليْها، وإراحَةً لِمَشاعِرِهِم التي تَنْجَذِبُ تُجاهَها..فَلا غَرابَةَ إذا وَجَدتَّ

أنَّ الــذي يَصِــفُ بيتَ المَقدِســِ أو يَتَعَرَّضُ لجانِبٍ من جَوانِبِ الحيــاةِ فيها رُبَّما يكونُ ذلك سَبَبًا في رَواجِ هذا الشِّعرِ، وشُهْرَةِ قائلِه، وتَبْجيلِ مَــنْ قِيلَ فِيهِ، وإعــلاءِ مَكانَتِهِ بينَ النَّاسِ.

وسَنَجعَــلُ هَمَّنا في الصَّفَحــاتِ التاليةِ مُنْصَبًّا على إيرادِ أمثِلــةٍ مُختارةٍ مُنْتَقاةٍ منَ الشِّعــرِ الذي يَصِفُ قائلــوهُ مَدينةَ القُدسِ، أو مَسجِدَهــا الأقصَى،أو ما لَــهُ صِلَةٌ بِهذهِ المَدينَةِ ذاتِ المَكانَةِ الخاصَّةِ، والقَدْرِ العظيمِ المَرموقِ، آمِلينَ أنْ نُوَفَّــقَ للوُصُولِ إلى أمثِلَةٍ من عُصُورٍ مُختَلِفَةٍ، ولِشُعراءَ تَبايَنَتْ مَشارِبُهم وانْتِماآتُهُم، وسَأجعُــلُ اهتِمامي مُتَّجِهًا إلى الشِّعــرِ الذي يُصَوِّرُ نِضــالَ الأُمَّةِ وكِفاحَها للصُّمُودِ بِوَجْهِ الطُّغــاةِ الغاصِبينَ، والفَجَرَةِ الطَّامِعــينَ، وكَثيرًا مــا كانَ طَمَعُهم مُصَوَّبًا باتِّجاهِ مَدينَــةِ القُدسِ ومَسجِدِها الأقصَى، وآمُــلُ أنْ تُعَبِّرَ أمثِلَتُنا عن تاريخِ هذهِ المَدينَةِ الباسِلَــةِ المُكافِحَةِ، وعن أحوالِ سُكَّانِها، وما تَعَرَّضُــوا لَهُ منْ أحداثٍ، وما لاقَوا من عَنَتٍ وعَناءٍ في كَثيرٍ من أيَّامِهِم، ونَرصُدُ أيامَ الفَرَحِ والسُّرورِ التي كانت فيما نُقَدِّرُ عَزيزَةً قَليلَةً، وذلكَ لأنَّ الشــيءَ الثَّمينَ يَكــثُرُ الطَّامِعونَ فيه، ويبْذُلُ الطُّغــاةُ الأقوياءُ ما يَستَطيعونَ لاقْتِنائِه والاسْتِحْواذِ عليْهِ، وهلْ هُناكَ ما هوَ أثْمَــنُ منَ القُدسِ؟ وأجَلُّ من قَدْرِها، وأعلَى من مَكانَتِها؟.

قال شاعرٌ قَديمٌ يَتَشَوَّقُ لأيَّامٍ لَهُ قَضاها في رُبُــوعِ بَيتِ المَقْدِســِ، يَصِفُ لَنــا أوقاتًا أنيسَةً، ويُعَبِّرُ عن شَوقٍ مُتَواصِلٍ مُستَمِرٍّ.

أُحَيِّي بِقاعَ القُدسِ ما هَبَّتِ الصَّبا
فتلكَ رِباعُ الأُنْسِ في زَمَنِ الصِّبا[11]
وما زِلتُ في شَوقي إليْها مُواصِلاً
سَلامي على تلكَ المَعاهِدِ والرُّبَى[12]

× كانَ آباؤنــا نحــنُ أبنــاءَ الشامِ حينَ يَذهبُ أحدُهم لأداءِ فَريضَةِ الحَجِّ،كانَ غالبًا ما يُعَــرِّجُ في طريقِ عَودتِه، فيَــزورُ المَسجِدَ الأقصَى (ذلكَ قبلَ أنْ يَقَعَ تَحتَ الاحتِلالِ) وكانُــوا يَقْرِنونَ الحَجَّ إلى الكعبَــةِ المُطَهَّرَةِ، بِزيارَةِ بيتِ المقدسِ، وكانُوا يُسَمُّونَ مِثْلَ هذهِ الحَجَّــةِ (حَجَّة بِتَقديسَة).. ويُمْكِنُ للمَرءِ أنْ يَقرأَ في الشِّعرَ ما يُشبِهُ ذلكَ، هذا المُعَلَّى بن طَريف مَولَى المَهْدي، يذكــرُ ما يُقارِبُ ذلكَ فيَقولُ:

يـا صـاحِ إنِّي قـد حَـجَـجْـتُ
وزُرتُ بـيـتَ المَـقْـدِسِ[13]
وأتَــيْــتُ لُـــدًّا عــامِـدًا
في عـيـدِ مـاري سـرجـسِ[14]
فَــرأيــتُ فـيــه نـسْــوَةً
مِـثـلَ الـظِّـبـاءِ الـكُـنَّـسِ[15]

وهــذا مَــروانُ بــنُ الحَكَم يَقــرِن بينَ مَكَّــةَ المُكَرَّمَةِ وبينَ بيــتِ المَقدِسِ، وجَعَلَهما مُتَساويَتَــيْنِ وذلــكَ أنَّ واشِيًا جــاءهُ وأساءَ للفَــرزدق (الشاعر المعــروف) وكان مروانُ وقتَها واليًا لِمُعاوية على المَدينَةِ، فَأَمرَ بِإبْعادِ الفرزدق عن المدينة، وقال في ذلك:

قُلْ للفَرزدقِ، والسَّفاهَةُ كاسْمِها
إنْ كنتَ تاركَ ما سألتُكَ فاجْلِسِ
ودَعِ المَـديـنَـةَ؛ إنَّـهـا مَحــذورَةٌ
والْحَقْ بمَكَّةَ أوببيتِ المَقْدِسِ[١٦]

×وممَّا يُنْسَبُ للحافِظِ ابنِ عَساكِر (صاحب تاريخ دمشق الشَّهير) قولُهُ يُحَرِّضُ نور الدين زِنكي ويَحُثُّــهُ على دَحْرِ الصَّليبيينَ، وتَطهيرِ المَسجد الأقصَى مِن بَغيِهِم:

فالجِدُّ والجدُّ مَقْرونانِ في قَرَنِ
والحَزمُ في العَزْمِ والإدراكُ في الطَّلَبِ[١٧]
وطَهِّرِ المَسجدَ الأقْصَى، وحَوزَتَهُ
مـــــــــن..................
عَساكَ تَظفَرُ في الدُّنيا بِحُسْنِ ثَنًا
وفي القيامَةِ تَلقَى حُسْنَ مُنْقَلَبِ[١٨]

وابــنُ القَيْســراني يَمــدَحُ نــورَ الديــن زنكي[١٩] لَمَّا قَتَلَ (البرنْس) صاحب أنطاكية عِندَ حِصْــنِ (إِنِّب)[٢٠] سنــة ٥٤٤ هـ فقامَ الشاعرُ يُهنِّــئُ المُجاهِدَ (نورَ الدين) بِالنَّصْرِ المُؤَزَّرِ ثم يَستَحِثُّهُ ويُرَغِّبُهُ بِمَزيدٍ مِنَ الإقْدامِ والنُّهُوضِ لِتَحْريرِ بيتِ المَقْدِسِ:

أغرَتْ سُيُوفُكَ بالإفْرَنْجِ راجِفَةً
فُؤادَ رُوميَّةَ الكُبْرَى لَها يَجِبُ[٢١]
فانْهَضْ إلى المَسجدِ الأقْصَى بذي لَجَبٍ
يُوليكَ أقصَى المُنَى فالقُدْسُ مُرتَقَبُ[٢٢]
وائذَنْ لِمَوجِكَ في تَطهيرِ ساحلِه
فإنَّما أنتَ بَحْرٌ لُجُّهُ لَجِبُ[٢٣]
يا مَنْ أعادَ ثُغُورَ الشام ضاحِكَةً
مِنَ الظُّبا من ثُغُورِ زانَها الشَّنَبُ[٢٤]
مازِلتَ تُلحِقُ عاصيها بِطائِعها
حتى أقَمْتَ وأنْطاكيَّةَ حَلَبُ[٢٥]

×وقال ابــنُ القَيسَـراني أيضًــا يَنتَظِرُ الخَلاصَـ (خَلاصَ الأُمَّــةِ الإسلاميّة) على يَدَيْ عماد الدين زنكي[٢٦] خاصَّةً وأنَّهُ أخذَ على عاتِقِهِ تَحريرَ بُلدانِ العالم الإسلامي مِن رِجْسِ الفرنْجة، قال ابنُ القَيْسراني:

كـأنِّي بِهذا العزم، لا فُلَّ حَدُّهُ
وأقْصاهُ بالأقصَى وقد قُضِيَ الأمْرُ
وقد أصبَحَ البيتُ المُقَدَّسُ طاهِرًا
وليس سِوى جاري الدِّماءِ لَهُ طُهْرُ
وصَلَّتْ بِمعراجِ النَّبيِّ صَوارِمٌ
مَساجِدُها شَفعٌ وساجِدُها وِتْرُ[٢٧]

وقــال شاعــرٌ اسمُــهُ نَصْرُ بــنُ حسن الهيتي[٢٨] يَمــدحُ أحدَ قــادةِ صلاح الدين الأيوبي، ويَصِفُ مَواقِفَهُ الجريئة:

وَلَهُ بأرضِ القُدْسِ فيهم وَقْعَةٌ
سَلَبَتْ مَليكَهُمُ لَذيذَ مَنامِهِ
كَم جَحْفَلٍ للشِّرْكِ هَمَّ بِحَربِهِ
فَأَحَلَّ صَدرَ الرُّمْحِ صَدرَ هُمامِهِ[٢٩]
فالليثُ في سِربالِهِ والغيثُ بَيْـ
ـنَ بَنانِهِ، والبَدرُ تَحتَ لِثامِهِ[٣٠]
قد جاءهُ جيشُ الفِرنْجِ مُنَظَّمًا
فَسَمَا إليهِ، فَحَلَّ عَقدَ نِظامِهِ[٣١]

وقال العِمادُ الكاتب (الأصفهاني)(٣٢) يرثـي نور الدين زنكي، ويأسَفُ على رحيلِهِ، ومُغادرَتِهِ للدُّنيا، قبلَ أنْ يُنْجِزَ وَعدَهُ بِتَطهيرِ بيتِ المَقدسِ منَ الغُزاةِ:

أَوَما وَعَدتَّ القُدْسَ أنَّكَ مُنْجِزٌ
ميعادَهُ؛ في فَتْحِهِ وطهورِهِ؟
فَمَتَى تُجيرُ القُدْسَ من دَنَسِ العدا
وتُقَدِّسُ الرَّحمانَ في تَطهيرِهِ؟
كم قد أقمْتَ منَ الشَّريعَةِ مَعلَمًا
هُوَ مُنذُ غِبْتَ مُعَرَّضٌ لِدُثُورِهِ
أنتَ الذي أحيَيْتَ شَرعَ مُحمَّدٍ
وقَضَيْتَ بعدَ وفاتِهِ بِنُشُورِهِ[٣٣]

وقـال ابنُ مُنير الطرابلسـي[٣٤] واضِعًا كامِلَ ثِقَتِهِ بِالمُستَقبَلِ، وواثِقًا مِنْ أنَّ أُسرَةَ آلِ زنكـي هيَ المُؤَهَّلَةُ لِتَحريرِ بيتِ المَقدِسِ، من رِجْسِ الفِرَنجَةِ الغازين، فهـا هو ذا يَدعو عِمادَ الدين زِنكي إلى بَذلِ كُلِّ جهْدٍ، والتَّأهُّبِ لاسْتِنْقاذِ بيتِ المَقدس:

وغَـدًا يُلقَى على القُدْسِ بها
كَلكَلٌ يَدرُسُها دَرسَ الدَّرينْ[٣٥]
بِكَ يا شَمْسَ المَعالي، رُدَّتِ الـ
ـرُّوحُ في المَيْتَيْنِ من دُنيا ودين[٣٦]

× وفي الفترةِ الزَّمنيّةِ ذاتِها تَقريبًا، جعلَ ابنُ القَيسَراني [٣٧] من فَتْحِ الرُّها [٣٨] على يَدِ المُجاهِدِ عِمـادِ الدين زِنكي مُناسَبَةً لِلتَّذْكيرِ بِضَياعِ بيتِ المَقدسِ، والتَّحريضِ على فَتْحِها وتَخليصِهـا مِن أيدي الغاصبـينَ الفِرنْجَةِ، وما فَتْحُ الرُّها إلاَّ مُقدمةٌ وبِشارَةٌ، لِفتْحِ بيتِ المَقْدِسِ، وسائرِ المُـدُنِ الواقعة على ساحلِ بَحرِ الشامِ (البَحر الأبيض المُتَوَسِّط).. قال:

أمـا آنَ أنْ يُـزْهَـقَ الباطِلُ
وأنْ يُـنْـجِـزَ العِـدَةَ الماطِلُ
فَـإنْ يَـكُ فَتْـحُ الرُّهـا لُجَّـةً
فَساحِلُها القُدْسُ والسَّاحِلُ
فَهل عَلمتْ علمَ تلكَ الدِّيارِ
بِـأنَّ المُقيـمَ بِهـا راحِـلُ[٣٩]

ونَتَقَدَّمُ مَعَ الزمنِ قليلاً، ويَتَسلَّمُ القِيادَةَ صلاح الديـن الأيوبي، ويَستَمِـرُّ على نَهجِ عِمـادِ الدينِ وابْنِـهِ نور الديـن في التَّطَلُّعِ إلى تَحريـرِ البِلادِ، وتَطْهيرِها مِنَ الغاصبينَ الفِرنْجَةِ، وتابَعَ مَسـيرَةَ تَقْريبِ الصَّالحينَ،

فجَعلَ العمادَ الكاتبَ وزيرًا لَهُ، فَكرَّسَ هذا الوزيرُ كُلَّ جُهودِهِ وطاقاتِهِ بِاتِّجاهِ الاسْتِمْرارِ في تَحريرِ البُلدانِ التي مازالت تحت سيطرَةِ الغاصبينَ، فها هو ذا العمادُ يَحُثُّ صَلاحَ الدينِ على الاسْتِمْرارِ في مُحاصَرَةِ الفِرنجةِ لإخراجِهِم منَ الحُصُونِ التي أقامُوها في بِلادِ العربِ..وها هي ذي الجُهودُ قد أثمَرَتْ فقد انهزَمتْ جُنودُ الغاصبين:

هَزَمتُمْ جُنُودَ المُشْركينَ بِرَبْعكُمْ
فلم يَلبَثُوا خَوفًا، ولم يَمْكُثُوا ذُعْرا
ولن يَرتَوي الإسلامُ حتى تُغادرُوا
لَكُمْ في دماءِ الغادرينَ بها غُدْرا
فَصُبُّوا على الإفرنْجِ سَوطَ عذابِها
بأنْ يقسمُوا ما بينَها القَتلَ والأسْرا
ولا تُهْملوا البيتَ المُقَدَّسَ واعزمُوا
على فَتْحِه غازينَ، وافْتَرعُوا البِكْرا
تُديمونَ بالمَعروفِ طَيِّبَ ذِكْرِكم
وما المُلكُ إلاّ أنْ تُديمُوا لكم ذِكْرا[٤٠]

ومدحَ العِمادُ الكاتبُ أيضًا صَلاحَ الدينِ سنة ٥٧٢ هـ وحضَّهُ على التَّحضيرِ لِفتْحِ بيتِ المقدسِ، فقد طالتْ غَيبَتُها عن أهلِها الشرعيين، وطالَ نَأيُهُم عنْها، وازدادَ شَوقُها إليْهِم وشَوقُهُم إليْها..

فَسِرْ، وافتَحِ القُدْسَ، واسْفكْ بِهِ
دِماءً، مَتى تُجْرِها يَنْظُفِ
وخَلِّصْ منَ الكُفْرِ، تلكَ البِلاد
يُخَلِّصْكَ رَبُّكَ في المَوقِفِ[٤١]

وأبو الفَضلِ الجُليانيّ[٤٢] وضَعَ على عاتِقِهِ تَمجيدَ بُطولاتِ مَنْ يُقَدِّمُ جُهْدًا لِتَحريرِ بِلادِ العربِ منَ الغاصبينَ الفرنجة، فهو يَستَحِثُّ الزعماءَ والقادةَ في العالَمِ العربي والإسلامي، ومِنهم صلاحُ الدينِ، مُرَغِّبًا إياهم بِتَوحيدِ جُهودِهم، ورَصِّ صُفُوفِهم، وجَمْعِ قُواهم وطاقاتِهم لِدَحرِ الغاصبين الفِرنجةِ، أولئكَ القَراصنة الذينَ عَبَروا البِحارَ غُزاةً حاقدينَ، ووَضَعوا هدَفًا لَهُم قَهرَ الشُّعوبِ الآمِنةَ، وسلبَ خيراتِ البِلادِ، واضطِهادَ العِبادِ، وجيَّشُوا لِذلكَ كُلَّ المارقينَ واللُّصُوصِ، وعَبَّؤوهم ومَلؤوا قُلوبَهُم حِقْدًا علَى المُسلمينَ، وحَسَدًا علَى سُكَّانِ الشَّرقِ العربي الآمِنينَ:

اللهُ أكبَرُ أرضُ القُدْسِ قد صَفِرَتْ
منْ آلِ أصفرَ، إذْ حَيْنٌ بِهِ حانُوا[٤٣]
أسباطُ يُوسُفَ من مِصْرَ أتَوا ولَهُمْ
من غَيْرِ تِيهٍ، بها سَلوَى وأمنانُ[٤٤]
لَهُم فِلسطينُ، إنْ يَخرُجْ عُداتُهُمُ
عَنْها، وإلاّ عَدَتْ بيضٌ وخُرصانُ[٤٥]
حتى بَنَيتَ رِتاجَ القُدْسِ، مُنْفرِجًا
ويَصعدَ الصَّخرَةَ الغرَّاءَ عُثمانُ[٤٦]

ولابْنِ أيُّوبَ في الإفْرنْج مَلحَمَةٌ
دلَّتْ عليْها أساطيرٌ وحُسْبانُ
ومَنْ أحقُّ بمُلك الأرض من مَلك
كأنَّهُ مَلَكٌ في الخَلقِ حنَّانُ؟[٤٧]

وقال ابنُ الساعاتي[٤٨] في إحدى قصائدهِ القُدسيَّةِ، يُمَجِّدُ جُهودَ صلاحِ الدينِ، ويُشيدُ بِفضْلِـهِ، لأنَّهُ أنقَذَ بيـتَ المَقدِسِ، وحرَّرها بِالسَّيفِ من أيدي الغاصبين الفِرنْجةِ:

هُوَ مُنقذُ البيتَ المُقَدَّسَ بَعدما
طالتْ، فَما وجَدَ الشِّفاءَ شَكاتُهُ
بيتٌ تَـأَسَّسَ بـالسُّكونِ، وإنَّمـا
عندَ الزّحافِ، تَحَرَّكَتْ سَكَناتُهُ
أمُشَتِّتَ الأعـداءِ، وهيَ جَحافِلٌ
عن شَمْلِ دينٍ جُمِّعَتْ أشْتاتُهُ[٤٩]
أُوتيتَ عَزْمًا في الحُروبِ مُسَدَّدًا
لا زَيْفُهُ يُخْشَى، ولا هَفَواتُهُ[٥٠]
أحسَنْتَ بالبيتِ العَتيقِ، ويَثْرِبٍ
ولَكَ الفَعالُ كَثيرَةٌ حَسَناتُهُ[٥١]
هـذي سُيُوفُكَ مُحْـرِماتٌ دونَـهُ
لِبُكائهِنَّ تَنَسَّمَتْ حُجُراتُهُ[٥٢]

ويَبْدُو لِلمُتَتَبِّعِ أنَّ ابنَ الساعاتي كأنَّهُ كانَ يَصطَحِبُ جُيُوشَ صلاحِ الدين، يُرافِقُها في غَزوِها، يُسايِرُ الفاتحينَ، ويُماشي المُحاربينَ، فيُسَجِّـلُ أدَقَّ مـا يَفعلـون، مُتَتَبِّعًا وقائعَهم ومُصَـوِّرًا مَواطِنَ انْتِصاراتِهِـم، ويرصُدُ ما يُلاقُـونَ مِـن عَقَباتٍ..ها هـو ذا يذكرُ لَنا فُتُوحاتِ صـلاحِ الدين، ويُسجِّـلُ بُطولاتِ جُيُوشِ المُسلمينَ:

جَلتْ عَـزَماتُـكَ الفَتْحَ المُبينا
فقـد قَـرَّتْ عُـيـونُ المُؤمنيـنـا
رَدَدتَّ أخـيـذَةَ الإسـلامِ لَمَّـا
غَدا صَرْفُ القَضاءِ بها ضَمينا[٥٣]
تَهُزُّ مَعاطِفَ القُدْسِ ابْتهاجًا
وتُرضي عَنْكَ مَكَّةَ والحَجُونا[٥٤]
فَلو أنَّ الجِهـادَ يُطيقُ نُطْقًا
لَنادَتْكَ: ادْخُلوها آمنينا[٥٥]
فَقلتُ: القُدْسُ مَسرورٌ، ولولا
سُطاكَ لَكانَ مُكتَئبًا حَزينا[٥٦]
أدَرتَ على الفِرَنْجِ، وقد تَلاقَتْ
جُمُوعُهُمُ عليْكَ رَحَى طَحُونا[٥٧]
ففي بيسانَ ذاقُوا منْكَ بُؤسًا
وفي صَفَدٍ، أتَوْكَ مُصَفَّدينا[٥٨]

ويُتابِـعُ ابنُ الساعاتـي مَنهَجَهُ في دَعوَةِ الخُطَباءِ والعُلماءِ والشعـراءِ مُطالبًا إيَّاهم أنْ يَجعَلـوا مِن هذا النَّصْرِ المُبينِ نَعني (فتْحَ بيتِ المَقْدِسِ)موضوعًـا لِخُطَبِهِم ودروسِهِم وقَصائدِهِـم، لِتَعُمَّ الفرحَـةُ، وتَصِلَ أخبارُ البُشْـرَى بِالفَتْحِ إلى مَشارِقِ بِـلادِ الإسلامِ ومَغاربِهـا، ويَتَمَنَّى لو أنَّ أميرَ المؤمنينَ عمرَ بنَ الخَطَّابِ رضي اللّهُ عنهُ،شَهِدَ هذا الفتْحَ

العظيمَ، وعلِمَ بهذا النَّصرِ المُؤَزَّرِ فإنَّهُ سيَشْهَدُ عندئـــذٍ بِجَلالِ هذا الفَتْــحِ وعَظَمَتِه، ويُقِرُّ بإخلاصِ الفـــاتِحِ وقُدرَتِهِ وسَيُثَمِّنُ تَصميمَهُ على الجِهادِ، والاسْتِمْرار في مُتابَعَةِ الفُتُوحِ.. قال ابنُ الساعاتي:

أَعَيًّا،وقدعاينْتُمُ الآيَةَ العُظمَى
لأيَّةِحالٍ نَدَّخَرُ النَّثْرَ والنَّظْما[59]
وقدساغَ فَتْحُ القُدْسِ في كُلِّ مَنْطِقٍ
وشاعَ إلى أنْ أسمعَ الأسَلَ الصُّمَّا[60]
فليتَ فَتَى الخَطَّابِ شاهدَ فَتْحَها
فيَشهَدَ أنَّ السَّهْمَ من يُوسُفَ أصمَى[61]
حَبا مَكَّةَ الحُسنَى، وثَنَّى بيَثْرِبٍ
وأطرَبَ ذَيَّاكَ الضَّريحَ وما ضَمَّا[62]
وأصبحَ ثَغْرُ الدين جَذلانَ باسِمًا
وألسنَةُ الأغمادِ تُوسِعُهُ لَثْما[63]
تَجاوزتَ ما أعيَا الجِبالَ مَنالُهُ
فَهل يَقْظَةً كانتْ مَساعيكَ أو حُلما[64]

وكانَ الشِّهــابُ الشاغــوري[65] علـــى صِلَــةٍ طيِّبَـــةٍ بِصلاحِ الدين، مَدحَـــهُ وأشادَ بمَواقِفِه، وثَمَّـــنَ أعمالَهُ الجَليلةَ في تَحجيمِ أمْـــرِ الصَّليبيـــينَ، ممَّا سَهَّلَ علـــى مَنْ أتَوا بعدَهُ اقْتِلاعَهم واسْتِئْصـــالَ شأفتِهم.. مَدَحَ الشاغوري صلاح الدين وهو في قلعةِ دمشقَ بعدَ أنْ مَنَّ اللهُ بفضْلِهِ على العربِ والمُسلمينَ بِالنَّصْرِ العظيم على يَدَيْ صلاح الدين:

أهدَى صَلاحُ الدين للإسلامِ إذْ
أرْدَى قَبيلَ الكُفْرِ ما لم يُكْفَرِ[66]
رَبُّ المَلاحِمِ لم يُـؤَرِّخْ مِثْلَها الـ
عُلَماءُ قِدمًا في قَديمِ الأعصُرِ
راياتُـهُ صُفْـرًا تَـرِدْنَ، وتَنْثَني
حُمْرًا، تَمُجُّ نَجيعَ آلِ الأصفَرِ[67]
لِمَ لمْ تدِنْ شُوسُ المُلوكِ لَهُ، وقَد
مَلَكَ السَّواحلَ في ثَلاثةِ أشْهُرِ[68]
واسْتَنْقَذَ البيتَ المُقَدَّسَ عَنْوَةً
من كُلِّ ذي نَجَسٍ بكُلِّ مُطَهَّرِ[69]
وأرَيْتَهم لَمَّا التَقَى الجَمْعانِ بالـ
بيتِ المُقَدَّسِ، هَولَ يومِ المَحْشَرِ
ورَددتَّ دينَ اللهِ بعدَ قُطوبِه
بالمَسجدِ الأقصَى بوَجْهٍ مُسْفِرِ[70]

والعِمادُ الكاتبُ الذي كانَ مُلازِمًا لِصَلاحِ الدينِ، باعتِبارِهِ كانَ وزيرَهُ ورفيقَ دَربِهِ، سَرَّهُ ما فَعَلَ صـــلاحُ الدينِ، وأثْلَجَ صَدرَهُ وصُدورَ جميعِ المُسلمينَ بِكافَّةِ فِئاتِهِمْ، فعَمَّتِ الفرحَةُ أرجاءَ العالَمِ الإسلاميِّ من مَشرِقِهِ إلى مَغرِبِهِ، واسْتَبْشَـرَ الناسُ خَيْرًا بِهـذا الفتْحِ الجَليلِ والانتِصارِ العظيمِ، فقال يُهَنِّئُ صلاحَ الدينِ، ويُشيدُ بِنِضالِهِ وتَمَسُّكِهِ بالحَقِّ، ويُؤَكِّدُ لَهُ أنْ لا أحَدَ يَستَحِقُّ أنْ يأتِيَ النَّصْرُ على يَدَيْهِ إلاَّ هُـوَ، لِطُهْرِ أخلاقِهِ، وعِفَّـةِ نَفسِهِ، ولا يَفتَحُ القُدسَ إلاَّ الطَّاهِرُ اليَدِ، العفيفُ النَّفْسِ:

رأيتُ صلاحَ الدينِ أفضَلَ مَنْ غَدا
وأشرَفَ مَنْ أضْحَى وأكرَمَ مَنْ أمْسَى
فَلا يَسْتَحِقُّ القُدْسَ غَيْرُكَ في الوَرَى
فأنتَ الذي من دُونِهم فَتَحَ القُدْسا
ومِن قَبْلِ فَتْحِ القُدْسِ كنتَ مُقَدَّسًا
فلا عَدِمَتْ أخلاقُكَ الطُّهْرَ والقُدْسا
نَزَعتَ لِباسَ الكُفْرِ عن قُدسِ أرضِها
وألبَسْتَها الدينَ الذي كَشَفَ اللَّبْسا
وعادتْ ببَيْتِ الله أحكامُ دينِه
فلا بَطْرَقًا أبقيْتَ فيها، ولا قَسَّا(٧١)
وقد شاعَ في الآفاقِ عنْكَ بِشارَةٌ
بأنَّ أذانَ القُدْسِ قد بَطَّلَ النَّقْسَا(٧٢)

ولَمَّا أفاءَ اللّهُ على العالَمِ الإسلاميِّ عَودةَ بيتِهِ المُقَدَّسِ، وأكرمَهُم بهذا الفَتْحِ العظيمِ، وأعَزَّ اللّهُ دينَهُ ونَصَرَ الحَقَّ، ودَحَرَ الباطِلَ، وارتَفَعَ صوتُ الأذانِ اللّهُ أكبَرُ اللّهُ أكبَرُ أرسَلَ صلاحُ الدينِ البِشارَةَ إلى الخَليفَةِ العباسي النَّاصر ببَغدادَ، والذي كانَ صلاحُ الدين يَعُدُّ نَفسَهُ سَهمًا من سِهامِه، وقائدًا من قُوَّادِ جُيُوشِهِ، وكانَ الخليفَةُ نَفسُه، يُعَدُّ رَمْزَ وَحْدَةِ الدولةِ الإسلاميَّة، والعَلَمَ الذي تَجتَمِعُ حولَهُ الشُّعوبُ الإسلاميَّةُ مُتآزِرَةً مُتكاتِفَةً.. وكانتِ البِشارَةُ للخليفةِ قَصيدَةً قُدسيَّةً من نَظْمِ العِمادِ الكاتبِ..وجَّهَهُ إلى نَظمِها وتَحْبيرِها صلاحُ الدين..قال العِمادُ يُخاطِبُ الخليفةَ:

أبْشِرْ بِفَتْحٍ - أميرَ المُؤمنينَ - أتَى
وَصيتُهُ في جميعِ الأرضِ جَوَّابُ(٧٣)
أحيا الهُدَى، وأماتَ الشِّرْكَ صارِمُهُ
لقد تَجَلَّى الهُدَى والشِّرْكُ مُنْجابُ(٧٤)
بِفَتْحِهِ القُدْسَ للإسلامِ قد فُتِحَتْ
في قَمْعِ طاغِيَةِ الإشراكِ أبوابُ
فَفي مُوافَقَةِ البيتِ المُقَدَّسِ للْ
بيتِ الحرامِ لَناتيهٌ وإعجابُ(٧٥)

وقال بدرُ الدينِ النابُلسي يُقَرِّظُ جُهودَ صلاحِ الدينِ، ويُشيدُ بِبُطولاتِهِ، ويُمَجِّدُ النَّصرَ العَظيمَ الذي أتى على يَدَيه، إذْ وفَّقَهُ اللّهُ وهيَّأ لَهُ فُرصَةَ هذا الفَتْحِ المُبينِ فَتحِ بيتِ المَقدسِ والمَسجد الأقصى وكسر عُنفُوانِ البُغاةِ الغُزاةِ من الإفرنجِ..وها هو ذا حُلُمُ المُسلمينَ الكبير يَتَحقَّقُ بِفتحِ بيتِ المَقدسِ، وها هي راياتُ النَّصرِ تَخفِقُ مُعلنَةً فَرَحَ الأُمَّةِ وسُرورَها وزَغاريدَ البِشْرِ تتَعالَى في جميعِ بُلدانِ العالمِ الإسلامي، بعدَ أنِ انْزاحَتِ الصَّخْرَةُ الثَّقيلةُ التي كانت ترزَحُ مُنطَبِقَةً على صَدرِ العالَمِ الإسلامي، والتي كانتْ تُؤَرِّقُ المُخلصينَ الشُّرفاءِ من أبناءِ الأُمَّةِ، وتَمنَعُ النومَ من زيارةِ أجفانِهِم..قال النابُلسي:

هذا الذي كانت الآمالُ تَنْتَظِرُ
فَلْيُوفِ للّهِ أقْوامٌ بِما نَذَرُوا

بمثْلِ ذا الفَتْحِ - لا واللهِ - ما حُكِيَتْ
فِي سالفِ الدَّهرِ أخبارٌ ولا سِيَرُ
يا بَهْجَةَ القُدْسِ إذْ أضحَى به عَلَمُ الـ
إسْلامِ من بَعدِ طَيٍّ، وهْوَ مُنْتَشِرُ
يا نُورَ مَسْجِدِهِ الأقصَى، وقد رُفِعَتْ
بعدَ العُيُوبِ به الآياتُ والسُّوَرُ
يا مالِكَ الأرضِ مَهِّدْها، فَما أحَدٌ
سِواكَ من قائمٍ للمَهْدِ، يُنْتَظَرُ
ما اخْضَرَّ هذا الطِّرازُ السَّاحليُّ ثَرًى
إلاَّ لِتَعلو به أعلامُكَ الصُّفْرُ[٧٦]

وقال أبو علي الحسَنُ بنُ علي الجُوَيني[٧٧] يَمدحُ صلاحَ الدينِ، ويَتَغنَّى بالفتْحِ (فَتْحِ بيتِ المَقدِسِ) مُعبِّرًا عن فَرحتِهِ وفرحَةِ الأُمَّةِ بعودةِ القُدسِ إلى أهلِها الشرعيين:

جُنْدُ السَّماءِ لهذا المَلْكِ أعوانُ
مَنْ شَكَّ فيهِم فهذا الفَتْحُ عُنْوانُ
هذي الفُتُوحُ فُتُوحُ الأنبياءِ، وما
لَها سِوى الشُّكرِ بالأفعالِ أثمانُ
أضحَتْ مُلوكُ الفرَنجِ الصِّيدُ فِي يَدِهِ
صَيْدًا، وما ضَعُفُوا يومًا وما هانُوا
للنَّاصرِ ادُّخِرَتْ هذي الفُتُوحُ، وما
سَمَتْ لَها هِمَمُ الأملاكِ مُذْ كانُوا
لو أنَّ ذا الفَتْحَ فِي عَصْرِ النَّبيِّ، لَقَدْ
تَنَزَّلَتْ فيهِ آياتٌ وقُرآنُ
إذا طَوَى اللهُ ديوانَ العِبادِ، فَمَا
يُطوَى لأَجْرِ صلاحِ الدينِ ديوانُ[٧٨]

وشاركَتْ مصرُ (كِنانَةُ العربِ) أبناءَ عُمومَتِها أهلَ الشامِ فَرحتَهم بالنَّصْرِ المُؤَزَّرِ، والفَتْحِ العظيمِ على لِسانِ نَقيبِ أشرافِها محمد بن أسعد بن علي بن معمر.. الحُسيني الجوَّاني:

أتُـرَى مَنامًا ما بِعَيْني، أُبْصِرُ
القُدْسُ يُفتَحُ والفِرَنْجَةُ تُكسَرُ
ومَليكُهُمْ فِي القيدِ مَصْفُودٌ، ولم
يُرَ قَبْلَ ذاكَ لَهُم مَليكٌ، يُؤسَرُ
قد جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ الذي
وُعِدَ الرَّسُولُ فَسبِّحُوا واسْتَغْفِروا
فُتِحَ الشَّآمُ وطُهِّرَ القُدْسُ الذي
هوَ فِي القِيامَةِ للأنامِ المَحْشَرُ

ولم تَكنْ بلادُ الأندلسِ (بالمَغربِ) بِمَنْأًى عن أفراحِ المُسلمينَ فِي المَشرقِ، فأغاريدُ الفرحِ المَشرقِيّ تَجاوَبَتْ أصْداؤها فِي أرجاءِ فَردَوسِنا المَفقودِ، فتَحَرَّكَتْ كَوامِنُ الشَّوقِ فِي أفئدَةِ ما تَبَقَّى مِنْ أهلِنا فِي المَغربِ، فانْطلقَتْ ألسنَتُهُم بِتَرديدِ نَشْوَةِ النَّصرِ بِعَودَةِ الأقصَى السَّليبِ، وطهورِهِ، فهذا أبو الحُسَيْنِ بنُ جُبَيْرٍ الأندلسي يُرَدِّدُ أناشيدَ الابْتِهاجِ وأُغنياتِ الانْتِصارِ المَشْرِقيَّةِ.. فيقول:

أطَلَّتْ على أُفْقِكَ الزَّاهِرِ
سُعودٌ، مِنَ الفَلَكِ الدَّائرِ

فَتَحتَ لِلقُدْسِ أبوابَهُ
فَعادَتْ إلى وصْفِها الطَّاهِرِ
وجِئتَ إلى قُدسِه المُرْتَضَى
فَخَلَّصتَهُ منْ يَدِ الكافِرِ
وأعليْتَ فيهِ مَنارَ الهُدَى
وأحيَيْتَ منْ رَسْمِهِ الدَّاثِرِ
لَكُمْ ذَخَرَ اللهُ هذي الفُتُوحَ
مِنَ الزَّمَنِ الأوَّلِ الغابِرِ
وخَصَّكَ مِنْ بَعدِ فاروقِهِ
بِها لاصْطِناعِكَ في الآخِرِ

أمَّا شاعرُ الأندلس الحكيم أبو الفضْل الجُليَاني الأندلسي فقد شاركَ المَشارقَةَ فرحتَهم، فغرَّدَ بِتَمجيدِ هذا الفتح العظيم، وأشادَ بِفضْلِ الفاتحِ، فقال:

يا فاتحَ المَسجدَ الأقصَى على دُهُمٍ
وقانصَ الجيشِ لا يُحصَى بِقَفزَتِهِ[٧٩]
أبشِرْ بمُلكٍ كظَهْرِ الشَّمْسِ مُطَّلعٍ
على البَسيطَةِ فتَّاحٍ بِنَشْرَتِهِ
حتى يكونَ لهذا الدينِ مَلحَمَةً
تَحْكي النُّبُوَّةَ، في أيامِ فَتْرَتِهِ[٨٠]

وإذا ما انْتقَلنا لِنُلقِيَ نَظرَةً على شِعرِنا المُعاصرِ،فإنَّنا نَجِدُ القُدسَ كامِنَةً خالِدَةً حَيَّةً في أفئدَةِ شُعرائنا المُعاصرينَ؛ يُمَجِّدونَ ذِكراها، ويُعْلونَ قَدْرَها، ويُجِلُّونَ مَكانَتَها.. هذا خير الدين الزركلي يُرَى كئيبًا مَقْهُورًا حينَ يُلاحِظُ ما حَلَّ بِالمَسجدِ الأقصى...ها هُوَ يُخاطِبُ الوليدَ بنَ عبدِ المَلك، ويُعْلِمُهُ أنَّ الأقصَى الذي بَناهُ تُراثًا ومُصَلًّى لِلعرَبِ والمُسلِمينَ، قد أصبحَ مَهْجورًا خَرِبًا، وقد طُرِدَ أهلُهُ منْهُ، فهذا بلفور جادَ بِما لا يَمْلِكُ، فَمنَحَ الأقصَى لِمَنْ لا يَستَحِقُّ، فضاعَ (مَعروفُ بِلفُور) ابْتَلَعَهُ شَعبٌ أنانِيٌّ جاحِدٌ، مَريضٌ مَهينٌ:

قُل (للوليد) وقد تَعالَى قَبْرُهُ
عن أنْ تُلِمَّ بهِ، فلستَ تَقولُ
المَسجدُ الأقصَى وأنتَ أقمْتَهُ
حَرمًا، خَلا محْرابُهُ المَأهولُ
أمسَتْ فِلسطينٌ مَناخًا لِلرَّدَى
وتُرابُها بِدِمائها مَجْبُولُ
في كُلِّ رابيَةٍ جُسُومٌ مُزِّقَتْ
وبِكُلِّ وادٍ أنَّةٌ وعَويلُ
بِلفُورُ مُوقِدُ نارِها، وعلى اللَّظَى
عدنانُ مَحمولٌ وإسْرائيلُ
أيُبادُ قَومٌ كي يَحِلَّ مَحَلَّهم
قَومٌ، ويَرعَى القاتِلَ المَقتُولُ
تَوراةُ مُوسَى تَشْتَكيكَ وتَحْتَمي
باللهِ، والقُرآنُ والإنْجيلُ[٨١]

ويصِفُ خير الدين الزركلي حالَ فلسطين والمسجدَ الأقصَى غَداةَ إرسالِ الأمم المُتَّحدة لَجنة التَّحقيقِ التي رأَسَها مِستر (بِل) والتي

لم يَكنْ لَهــا هَدَفٌ في الحقيقــة، إلاَّ إعطاء الغاصب فُرصَةَ ترتيبِ قُوَّاتِه، وتَهيئة الأجواء للانْقضاضِ من جَديدٍ على لُقمَةٍ أخرَى مِنْ أرضِ فلسطــين العربيّة..والأقصَى وسُكَّانُهُ الشرعيــون في هَمٍّ وغَــمٍّ، يصُبِحونَ على ما أمْسَوا عليْهِ مِنَ الهَمِّ والغَمِّ والحالِ السيِّئ:

صَرَخَتْ فلسطينُ الكليمَةُ صَرخَةً
تَشْكُو ظُلامَتَها فسالَ عَقيقُها[٨٢]
هـيَ شَهْقَةٌ حملتْ مَآسِيَ أُمَّـةٍ
بِشَبا الأسنَّة قد أُجيبَ شَهيقُها[٨٣]
لا بُـدَّ لِلمَحْزونِ مِـنْ تَـأويهَةٍ
وأشَـدُّ آهـاتِ الصُّدُورِ عَميقُها
لِلمَسجِدِ الأقصَى المُبارَكِ حولَهُ
نَظَراتُ هَمٍّ مُوجِعٌ تَحْديقُها[٨٤]

والشاعــرُ الفلسطينــي المُجاهِــدُ عبد الرَّحيم مَحمود، يُخاطِبُ أحدَ زُعماءِ العربِ، وقد جــاءَ يَزورُ المَسجدَ الأقصَى عام ١٩٣٥ والمُؤامَــرَةُ في ذِروةِ فُصُولِهــا، فرَحَّــبَ بِــهِ وخاطَبَهُ قائلاً:

سَهْلاً وطِئْتَ، ولو نَزَلتَ بِمُمْحِلٍ
يَومًا لأمْرَعَ مِنْ نُزولِكَ بَلقَعُهْ[٨٥]

لكنَّ نفسَهُ لم تُطاوِعْهُ على الاستمرارِ في الترحيبِ بالزَّائرِ الكريمِ، وفي نَفسِهِ أنَّ العربَ، كُلَّ العــربِ كانُــوا مُقَصِّرينَ بِحَــقِّ المَسجدِ الأقصى، وفلسطــين وشَعبِها، والمُستَعمِرونَ الغربيون (وخاصَّةً الإنجليز) الأخباث الذين كانُوا يحتلُّونَ فلسطين يُوهِمونَ زُعماء العرب أنَّهم يَقفونَ علــى الحِيادِ، وأنَّ مَواقِفَهم مِنَ القضيَّــةِ نَزيهةٌ، وهم في الحقيقــةِ يُؤَيِّدونَ الغُزاةَ المُهاجريــنَ اليهــودَ، ويَمدُّونَهم بِكُلِّ أسبــابِ القُــوَّةِ والبَطشِــ، ويُكَتِّفُــونَ أبناءَ فلسطــين ويَحْرِمونَهم مِن كُلِّ وسائلِ الدِّفاعِ عن النَّفسِ والعِرضِ والوَطَنِ.. فعبد الرحيم يُخاطِبُ الزائرَ الكــريمَ بِكلامٍ تُسيطِرُ عليْهِ مَــرارَةُ العِتابِ وغُصَّــةُ الألَمِ النابِعِ مِن قَلبٍ مُعَذَّبٍ جَريحٍ:

المَسجِدُ الأقصَى أتَيتَ تَـزورُهُ
أمْ جِئتَ مِن قبلِ الضَّياعِ تُوَدِّعُهْ
حُــرَمٌ تُـبـاعُ لِـكُـلِّ أوكَــعَ آبِـقٍ
ولِكُلِّ أفَّـاقٍ شَريـدٍ، أربُـعُـهْ[٨٦]
وغدًا-وما أدناهُ-لا يَبْقَى سِوَى
دَمْعٍ لَنا يَهْمي وسِنٍّ نَقْرَعُهْ[٨٧]

والشاعرُ المِصريُّ الكبيرُ علي محمود طه يَرَى أنَّ بَغْيَ اليَهودِ وظُلمَهُم قد تَجاوَزَ حُدودَ المَعقول؛ وأنَّهم طَغَوا وبَغَوا وأكثَروا في أرضِ العربِ الفَسادَ، وآنَ أوانُ تَحجيمِهم، وإيقافِ طُغيانِهم وجَبَروتِهِــم، وانْتِزاعِ مُقَدَّساتِنا من بين أيديهِم:

أخــي جــاوَزَ الـظَّـالِـمُـونَ المَـدَى
فَـحَـقَّ الجِـهـادُ وحَـقَّ الـفِـدَا

أخي إنَّ في القُدْسِ أُخْتًا لَنا
أعَدَّ لَها الذَّابِحونَ المُدَى
أخي قُمْ إلى قِبْلَةِ المَشْرِقَيْنِ
لِنَحْمي الكنيسةَ والمَسْجِدا
يَسُوءُ الشَّهيدُ على أرضِها
يُعانِقُ في جيشِهِ أحمَدا
فِلسطينُ يَفدي حِماكِ الشبابُ
وجَلَّ الفِدائيُّ والمُفْتَدَى
فلسطينُ تَحميكِ مِنَّا الصُّدُورُ
فَإمَّا الحياةُ وإمَّا الرَّدَى

والشاعرُ السوريّ المُعاصِر شَفيق جَبْري يَتَساءَلُ مُتَعجِّبًا مَشْدُوهًا مِن لَهْوِنا وتَسامُحِنا، واليَهودُ يَعيثُون بِبيتِ المَقدِسِ فَسادًا، كيفَ اجتَمَعُوا على باطِلِهم؟ وكيفَ نَتفَرَّقُ عن حَقِّنا؟جاؤوا مِن مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها،ومِنْ مُنحَدَراتِها وسَوافِلِها فاتَّحَدَتْ قُواهُم وتَآزَرَ أشرارُهم، بينَما نَحنُ ساهونَ لاهُونَ، وبِحَقِّنا مُتَهاوِنُونَ، وعنْهُ مُتَفَرِّقون.

أيَعيثُ اليَهُودُ في حُرَمِ القُدْ
سِ فَسَادًا، والنَّومُ يَأخُذُ مِنَّا
لَفَظَتْهُم جَوانِبُ الأرضِ، شُذَّا
ذًا، فَتاهُوا القُرونَ قَرْنًا قَرنا[88]
ضَجِرَتْ مِنْهُمُ الشَّياطِينُ والإِنْـ
ـسُ، فَأنَّى نَحْنُو عليْهِمُ أنَّى[89]
احْصُدوهم حصْدَ السَّنابِلِ حتى
تَتَداعى صُهْيُونُ رُكْنًا رُكنا[90]

والشاعرُ الكبيرُ بَدَوي الجبلِ يَرَى أنَّ الثُّكْلَ واليُتْمَ قد انتَشَرا في وطَنِنا، وهذهِ أنّاتُ الثَّكالَى، وتأوُّهاتِ اليَتامَى تشهدُ بِشَراسةِ الهَجمَةِ علينا، ويُؤكِّدُ أنَّ الاستِشْهادَ ذِروَةُ الإحسانِ، وأنَّ الجُودَ بِالروحِ في سبيلِ الوطَنِ أسْمَى درَجاتِ الكرَمِ والسَّخاء:

هل في الشّآمِ وهل في القُدْسِ والِدَةٌ
لا تَشتَكي الثُّكْلَ إعْوالاً وإرْنانا
تِلكَ القُبُورُ فَلو أنِّي أُلِمُّ بها
لم تَعدُ عَيْنايَ أحبابًا وإخوانا
يُعطي الشَّهيدُ،فَلا واللهِ ما شَهِدَتْ
عَيْني كإحسانِه في الكَونِ إحسانا
وغايَةُ الجُودِ أنْ يَسْقي الثَّرَى دَمَهُ
عندَ الكِفاحِ ويلقَى اللهَ ظَمْآنا[91]

وألقَى بدوي الجبلِ في ذكرَى عيدِ الجَلاءِ، بعدَ انْدِحارِ المُستَعمِرِ الباغي ببضعِ سنَواتٍ، وفي عهدِ الرئيس شكري القوتلي.. ألقَى قصيدَةً عَصماءَ لَمَّحَ فيها لِبعضِ قادَةِ العَربِ الأنانيين الإقليميين، الذينَ كانتْ مَسؤوليَّةُ بيتِ المَقدِسِ مَنُوطَةً بِهِم، يُجَعجِعونَ بِألفاظٍ ويُطلقُونَ تَصريحاتٍ ناريَّةٍ، لا هيَ حَمَتْ شَرَفَ القُدْسِ، ولا سانَدَ قائلُها جيرانَهُ في نِضالِهِم..فَحمَلَتْ بِلادُنا يومذاكَ هُمومَ

الأُمَّةِ على كاهِلِها، ووَقَفَتْ بِوَجهِ الغاصِبِ وقَفَةَ البَطَلِ العنيدِ المُتَمَرِّدِ المُدافِعِ عن حَقِّ أُمَّتِهِ، قال يُخاطِبُ الرئيس:

حَمَلتَ هُمومَ قَومِكَ، فاسْتَراحُوا
وغَيْرُكَ لا اسْتَراحَ ولا أراحا
بِطاحُ القُدْسِ دَنَّسَها مُغيرٌ
فَهل صانَتْ كتائبُهُ البِطاحا
ولم يَغضَبْ لَنا أيّامَ كُنّا
حِمًى نَهْبًا وشَعبًا مُسْتَباحا
ولا صَدَّتْ سَراياهُ عَدُوًّا
ولا هابَتْ حَميَّتُهُ كِفاحا
نُجابِهُ بالحَديدِ ونَحْنُ عُزْلٌ
فيُغْضي لا إباءَ ولا طِماحا
تَنَكَّرَ فهوَ لو كَشَّفْتَ عنْهُ
أسَفٌ مَجانَةً وهوَى مِزاحا(٩٢)

والشاعِرُ محمود حسن إسماعيل يُعلِنُ أنَّ قُبَّةَ الصَّخرةِ في بيتِ المَقدسِ فَقدَتْ نُورَها، وغادرَها ضِياؤها، مُنذُ أنْ سَيطَرَ فيها الغُرَباءُ، واضطرَّ أهلُها الشرعيون للنُّزوحِ عَنْها، فلا تَرتيلَ فيها ولا أذانَ.. حتى شارَكتْهم الحُزنَ طُيورُ المَساءِ، فعَزَّ عليْها أنْ يَفقدَ الأقصى بَهاءَهُ، وأنْ يَخبُوَ في أنحاءِ القُدسِ صَوتُ الأذانِ، ورنينُ أجراسِ الكنائسِ، فهيَ (أيْ طُيُورُ المَساءِ) تهتِفُ مُغَرِّدَةً مَعَ بيتِ المَقدسِ أشجانَ الحُزنِ، وتَرانيمَ الأَسَى والألَمِ، فتَقولُ:

يا قُدسُ يا حبيبَةَ السَّماءْ
قُومي إلى الصَّلاهْ
وباركي الحَيَاهْ
ورَدِّدي التَّسبيحَ في المَآذنْ
وأيْقظي الأجْراسَ في المَدائنْ
وكَبِّري للّهِ لا تُهادي
قُومي إلى الصَّلاهْ
وباركي الحَيَاهْ
لا تُوقِفي الدُّعاءَ للرَّحمانْ
مَهْما لَقيتِ من أذَى الشَّيْطانْ(٩٣)

والشاعرُ الكبيرُ الأخطلُ الصَّغيرِ جَعلَ جُرحَ فلسطين مُقَدَّسًا مُعَظَّمًا، يُقدِّسُهُ المُخلِصُونَ مَنَ العربِ، مُسلِموهم ومسيحيوهم، يَجعلونَ القُدسَ قِبْلَةً، يُكرِّمُونَها ويُجِلُّونَها ويَعدُّونَها مَوضوعًا لِصَلاتِهِم، وأدعِيَةً في تَسابيحِهِم، كي لا تَغيبَ عن أذْهانِهِم:

يا جِهادًا صَفَّقَ المَجْدُ لَهُ
لَبِسَ الغارُ عليْهِ الأُرْجُوانا
شَرَفٌ باهَتْ فلسطينُ بِهِ
وبِناءٌ لِلمَعالي لا يُدانَى

إنَّ جُرْحًا سالَ مِنْ جَبْهَتِها
لَثَمَتْهُ في خُشُوعٍ شَفَتانا
نَحنُ يا أختُ على العَهْدِ الذي
قد رَضِعناهُ مِنَ المَهْدِ كِلانا
يَثْرِبُ والقدسُ مُنذُ احتَلَما
كَعبَتانا وهَوَى العُرْبِ هَوانا(٩٤)

وأمَّا نِزار قَبَّاني وبَعدَ تَرَدُّدٍ مِنَ العربِ، وتَراخٍ مِنْهم، وتَلَكُّؤٍ في قَبُولِ الكفاحِ المُسَلَّحِ طَريقًا وحيدًا لاسْتِنْقاذِ الحُقُوقِ، واسْتِردادِ الهَيبَةِ والكَرامَةِ.. بعد كُلِّ ذلك يُؤَكِّدُ أنَّ مَشاريعَ السَّلامِ ما هيَ إلاَّ حُقَنُ تَخديرٍ لِلشُّعُوبِ، وأنَّ مَن يُثَرْثِرونَ بِالعَدْلِ ونَيْلِ الحُقُوقِ بِالوَسائِلِ السِّلمِيَّةِ، كُلُّ ذلكَ ما هُوَ إلاَّ إلْهاءٌ لِلأُمَمِ المَغلوبَةِ المَقْهُورَةِ، ولَعِبٌ بِعَواطِفِها.. وأنَّ الطَّريقَ إلى فلسطينَ وتَحريرِ المُقَدَّساتِ في بيتِ المقدِسِ، هو استِخْدامُ القُوَّةِ ولا شَيْءَ غَيْرُ القُوَّةِ.. قال نِزار:

يا أيها الثُّوَّارْ
في القدسِ، في الخَليلِ، في بيسانَ، في الأغوارْ
في بيتِ لَحْم.. حيثُ كنتُمْ، أيُّها الأحرارْ
تَقَدَّمُوا..تَقَدَّمُوا
فَقِصَّةُ السَّلامِ مَسْرَحِيَّةْ..
والعَدْلُ مَسرحيَّةْ.. إلى فلسطينَ طَريقٌ واحدٌ
يَمُرُّ مِنْ فَوهَةِ بُنْدُقيَّةْ..(٩٥)

ويَرَى عُمرُ أبو ريشة أنَّ مُقَدَّساتِنا المَسلوبة في بيتِ المَقدسِ، جَمَعتْ قُلوبَ العربِ ووَحَّدَتْ مَشاعِرَ المُسلِمِينَ مِنَّا والمَسيحيين، ووطَّدَتْ ما بينَنا مِنْ صِلاتٍ؛ رصَّتْ صُفوفَنا ومَتَّنَتْ روابِطَنا، وتَخَطَّتْ ذلكَ فشَدَّتْ مَشرِقَنا العربيَّ بِمَغرِبِهِ، وأعادَتِ اللُّحْمَةَ بينَ شامِنا وحِجازِنا، وعِراقِنا ومِصرِنا، وجميعِ أقطارِ بِلادِنا، لِتَقِفَ أُمَّتُنا طَودًا مَتينًا شامِخًا ثابِتًا، لا يَتَزَحزَحُ في وجهِ الغاصبينَ المُعتَدين:

يا روابي القُدْسِ يا مَجْلَى السَّنا
يا رُؤَى عيسَى على جفْنِ النَّبي(٩٦)
دونَ عَليائِكِ في الرَّحبِ المَدَى
صَهْلَةُ الخَيْلِ، ووهْجُ القُضُبِ(٩٧)
لَمَّتِ الآلامُ مِنَّا شَمْلَنا
ونَمَتْ ما بَيْنَنا مِنْ نَسَبِ
فَإذا مِصْرُ أغاني جِلَّقٍ
وإذا بَغدادُ نَجْوَى يَثْرِبِ
ذَهَبَتْ أعلامُنا خَفَّاقَةً
والتَقَى مَشْرِقُها بالمَغْرِبِ
كُلَّما انْقَضَّ عليْها عاصِفٌ
دَفَعَتْهُ في ضُلوعِ السُّحُبِ(٩٨)

ويُصَوِّرُ عُمَرُ أبو ريشة بيتَ المَقدِسِ زورَقًا سيِّئَ الحَظِّ لأنَّهُ يَمْخُرُ بَحْرًا مِنَ الدِّماءِ، لَهُ أشرِعَةٌ مُصاغَةٌ مِنَ الآثامِ والأوزارِ، تَمضي عليْهِ الليالي، وتَمُرُّ عليْهِ الأحداثُ، فتَقذِفُهُ

بِسِهامِهـــا، وترشُقُهُ بِنِبالِها، فليسَ مِنْ عَصْرٍ يَمُرُّ، أو زَمَنٌ يَفــوتُ إلاَّ ويَدَعُ في جَسَدِ هذا الـــزورَقِ جِراحًا ونُدوبًا تَظَــلُّ ماثِلَةً في هذا الجَسَدِ، حتى يأتيَ عليْهِ زَمَنٌ آخَرُ، فيُضيفُ هذا الآخَــرُ تَواقيعَ مِن جِــراحٍ حَديثَةٍ تُزادُ على جَسَدِ هذا الـــزَّورَقِ ذي الحَظِّ العاثِرِ. ولَعَــلَّ أبْرَزَ هذهِ الجِــراحِ، تِلكَ التي وضَعَها عَهْــدُ الصَّليبيـــينَ، فَما زالــتْ أنيابُ هذا العهدِ ماثِلَةً أمامَ أعْيُنِنا، ظاهِرَةً بارِزَةً، ومِمَّا يَزيدُهـــا بُروزًا ووُضُوحًا أنَّ بعضَ أبناءِ (أُمَّةِ القُدسِ)كانُوا مِـــنَ الفَجَرَةِ الغَـــدَرَةِ، الذينَ أظْهَروا مِن جَشَعِ دُنْياهم، وفَسادِ طَواياهم، ما مَسَخَ وَفاءهم ولَطَّخَ كِبْرياءَ نُفُوسِهِم..قال أبو ريشة:

والقُدْسُ، ما لِلقُدْسِ يَخْتَرِقُ الدِّما
وشِـــراعُــهُ الآثـــامُ والأوزارُ
أيُّ العُصُورِ هَوَى عليْهِ وليسَ في
جَـنْـبَـيْـهِ مِـنْ أنـيـابِـهِ آثــارُ
عَهْدُ الصَّليبيينَ لم يَـبْرَحْ لَـهُ
في مَسمَعِ الدُّنيا صَدًى دَوَّارُ
صَفَّ المُلوكَ فما اسْتَباحَ إباؤهم
شَرَفَ القِتالِ، ولا أهينَ جِوارُ
نامُوا على الحُلُمِ الأبيِّ فَنَفَّرَتْ
مِـنْـهُ الطُّـيُـوفَ بُـنُـوَّةٌ فُجَّـارُ
صَلَبُوا على جَشَعِ الحياةِ إباءهم
ومَشَوا على أخشابِهِ وأغارُوا[99]

وتَشغَـــلُ انْتِفاضَةُ الأقصَى (التي تَتَفاعَلُ أحداثُها في أيَّامِنا) بالَ شُعرائنا المُعاصِرينَ، وتُؤَرِّقُهُــم وتُقِضُّــ مَضاجِعَهم، لكــنَّ الفَألَ الحَسَنَ مَلأَ قُلوبَهم، فَجَعَلُوا هذهِ الانْتِفاضةَ رَمْزًا لِبَقاءِ أهلِنـــا في فلسطين، ودَليلاً على خُلُودِ حياتِهِم، وتَشَبُّثِهِم بأرضِهِم، وصَوَّروها لَنا أمَلاً يَجـــيءُ مَعَ حِجـــارَةٍ يُلقي بِها على دَبَّاباتِ العَـــدُوِّ فِتيانٌ أحداثٌ، يُحيُونَ الحُلُمَ الـــذي وُئِدَ طِفْـــلاً ويَبعَثُونَ تَباشـــيرَ الرَّجاءِ التـــي كادتْ تَمَّحي آثـــارُهُ، وتَمــوت.. هذا أحمد مفلح ابْنُ فِلسطين الذي جعل القُدسَ نِبْراسًـــا يَستَضـيءُ بِهِ، ويَستَعينُ بِشُعاعِهِ على نَظمِ قَوافيهِ، ها هو ذا جعلَ الانْتِفاضةَ نَبضَ قُلـــوبِ الجَماهير، وجعـــلَ المُنْتَفضينَ طُيُورَ الأبابيلِ،كَمـــا جَعَـــلَ حِجارَتَهم مِـــنْ سِجِّيلٍ، فَذَكَّرَنا بِنَصْرٍ قَديمٍ مِنَ اللّهِ، وغَوثٍ كَريمٍ مِن جَنابِهِ، نأمَلُ أنْ يَمُنَّ اللّهُ علينا بِنَفحَةٍ مُؤَيِّدَةٍ مِـــن نفحاتِهِ، ويَمُدَّنا بِهَبَّةٍ مِـــن نَسائمِ جُودِهِ وسَخائِهِ، فاللّهُ جَلَّ وعَـــلا بِقُدرَتِهِ وجَبَروتِهِ يُقَرِّبُ البَعيدَ، ويَجعَلُ المُستحيلَ مُمْكِنًا.. بعدَ أنْ تَكالَبَ علينا مِنَ الأعداءِ مَن لم نَكُنْ نَتَوَقَّعُ، ولم نَكُنْ نَحسبُ لَهُ حِسابًا.. قال المُفلح:

أرضٌ مُـقَـدَّسَـةٌ وصَـدْرٌ عـارِ
ودَمٌ يُـؤَجِّـجُ ثَـــورَةَ الأحْــرارِ

مِنْ قُبَّةِ الإسراءِ شَبَّ أُوارُها
وتَلاقَحَتْ في سائرِ الأمْصارِ[100]
هذا لَعَمْري الانْتِصارُ بعيْنِه
شِبْلٌ يُزَلزِلُ دولَةَ الأشرارِ
ما الانْتِفاضَةُ غَيْرَ نَبْضِ قُلوبِنا
ومَسيرَةِ التَّحْريرِ والإصْرارِ
لا يُدهِشَنَّكَ عَزْمُهُم وصَهيلُهم
فَحجارَةُ السِّجِّيلِ كالمِسْعارِ
مِنْ أجلِنا نَذروا الدِّماءَ زَكيَّةً
كَيما نَعيشَ بِعزَّةٍ وفَخارِ[101]

وهكذا نَرَى أنَّ بيتَ المَقْدِسِ التي كانتْ مَيدانَ الجِهادِ الذي تَتَلاقَى حَولَهُ جَميعُ أسلِحَةِ المُجاهِدينَ، وحُشُودِ المُناضلينَ ساعِيَةً لِتَحْريرِهِ وتَطْهيرِهِ، واقْتِلاعِ آثارِ المُعتَدينَ الغاصبين مِن جُذورِها، وقَذْفِها وراءَ أسوارِ المَدينَةِ المُقَدَّسَةِ، ظَلَّتْ مَيدانًا لِلمَعارِكِ بينَ الغُزاةِ الأغرابِ وأهلِ الدَّارِ، وأصحابِ الحَقِّ. والقُدسُ في نَظَرِ الجميعِ بُؤْبُؤُ العَيْنِ، ومُهجَةُ القَلبِ وبَلسَمُ الرُّوحِ، ونَبْضُ الجَسَدِ، حيثُ يَشعُرُ الناظِرونَ أنَّ هذا الجَسَدَ ما زالَ حيًّا وأنَّ الأُمَّةَ مازالتْ بِخَيْرٍ.. وسَتَظَلُّ القُدسُ مُحافِظَةً على قَدْرِها العَظيمِ، ومَكانَتِها الجَليلَةِ في قُلوبِ أبناءِ الأُمَّتَيْنِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، والمُحَرِّكَةِ لِمَشاعِرِ الغَضَبِ، وأحاسيسِ الحَنَقِ على المُعتَدينَ الغاصِبينَ وأعوانِهِم، ما دامَ جُنودُ العَدُوِّ يَغتالونَ حُرِّيَّةَ قُدسِنا، ويأسرونَ نَبْضَ أرواحِنا، ويَنْتَهِكونَ حُرُماتِ أهلِنا في أقدَسِ بِقاعِ وطَنِنا.

الهوامش:

١- انظر القاموس المُحيط للفيروز آبادي (قدس).

٢- لسان العرب لابن منظور، وأساس البلاغة للزمخْشَري (قدس) والكرسُ: أصْلُ البناءِ (أيْ هُوَ أولَى بالخلافَةِ).

٣- سورة البقرة الآية ٨٧.

٤- ديوانه ص٦٣. والبيتُ في اللسان والأساس (قدس) النَسَا: مُؤَخَّرَة الورك. شَبْرَقَ:مَزَّقَ.

٥- سورة الأنبياء الآية ٧١.

٦- انظر القدس بين رؤيتين ٤٢/٤٣ د. حسن الباش، وانظر تقويم بيت المقدس ص١٦٠ وما بعدها. د. عبد الفتاح عويس.

٧- سورة الإسراء الآية الأولى.

٨- الرِّحال: جمع رَحْل، والرَّحْلُ للجَمَلِ كالسَّرجِ للفَرَسِ، يُوضَعُ على ظَهْرِ البَعير. والرِّحالُ هُنا كِنايةٌ



عـن السَّـيْرِ والسَّفَرِ، والمُرادُ أنَّ هذهِ المَساجِد الثلاثة هيَ الوَحيـدَةُ التي تُقْصَدُ للعِبادَةِ والتَّقَرُّبِ إلى اللهِ تَعالى.

٩- المَسجِد الحَرام الذي بمَكَّةَ (الكعبة) وما يُحيطُ بها.

١٠-الأقصى الذي ببَيت المَقدِس.

١١-الصَّبا - بالفَتْح -: ريحٌ تَهبّ من الشرق.

١٢-معجم البلدان لياقوت الحَمْوي ١٧١/٥.

١٣-صاح: مُنادي مُرَخَّم؛ أصلُهُ (يا صاحبي).

١٤-لُدّ: مدينة قُربَ القُدس.

١٥-معجم البلدان ١٥/٥. الكُنَّس: اللاَّتي دَخَلنَ الكِناسَ، وهو بيتُ الظَّبْيِ.

١٦-معجم ياقوت ١٦٦/٥.

١٧-الجَدُّ -بالفَتح-: الحَظُّ. الجِدُّ -بالكسْرِ-: الاجْتِهادُ والعزيمةُ.

١٨-خريدة القصر / قسم شعراء دمشق ٢٧٧/١.

١٩-محمـود بـن زنكي المُلقّب بالمَلك العادل ٥١١- ٥٦٩ هـ= ١١١٨- ١١٧٤م من المماليك حكم جزءًا كبيرًا مـن الشـام ومصر وبعض المغـرب واليمن، وخُطِبَ لَهُ في الحَرَمَيْن، كانَ مُجاهـدًا، قاتَلَ الصَّليبيين، وبَنَى في دمشقَ عددًا من المدارس.

٢٠-إنِّب- بكَسْرَتَيْنِ وتَشديد النون - حِصْنٌ في ناحِيَة عزاز شمالي حلب.

٢١-الإفـرنج: الصَّليبيـون. راجِفـة: مُزَلزلة. رُوميـة: يَعني مدينةَ رومـا عاصمة البيزنطيـين. يَجِبُ: يَخْفق هَلَعًا وخَوفًا.

٢٢-ذو لجب:جيش كبير، كثير العدد.

٢٣-اللُّجُّ واللُّجَّةُ: مُعظَمُ الماءِ. لَجِب: مُضطَرِب.

٢٤-الظُّبَا: جمع ظُبَة؛ وهيَ حَدُّ السيفِ. الشنب: رِقَّةُ الأسنانِ وبياضُها.

٢٥-كتاب الروضتين لأبي شامة ٥٩/١ وانظر الأدب في بلاد الشام ٤٢٣. د. عمر موسى باشا.

٢٦-عمـاد الديـن زنكي: هو أبو نـور الدين الشهيد، وهـو أول مُلوك الأسرة الزنكيـة، كانَ عادِلاً رحيمًا بشَعبِهِ، قاتلَ الصليبيين واستردَّ منْهُم الرها وبعض المناطق الأخرَى.

٢٧-خريدة القصر ١١٣/١ وانظر الأدب في بلاد الشام ١٧١.

٢٨-قال ياقوت: هيت: قريةٌ في حوران (معجم البلدان ٤٢١/٥).

٢٩-الجَحفَل: الجيش الكثير العدَد. الهُمام:الرجل الشجاع السَّخيّ.

٣٠-سرباله: ثيابُهُ. بَنانُهُ: أصابِعُهُ.

٣١-خريدة القصر / قسم شعراء الشام ١/٢٣٥.

٣٢-عماد الدين الكاتب الأصبهاني، مؤرخ، عالم بالأدب، من أكابر الكتاب، ولد بأصبهان، وقدمَ بغدادَ حدَثًا = حيثُ تأدَّبَ وتَفَقَّهَ، ورحلَ إلى دمشقَ، فعمِلَ في ديوان الإنشاء لنور الدين زنكي، وبعدَ موت نور الدين عمِلَ وزيرًا لصلاح الدين، وبعد صلاح الدين لزمَ مدرستَهُ (العماديَّة) بدمشقَ وماتَ فيها، لَهُ مُؤلفات عديدة، لعَلَّ أشهَرَها خريدة القصر / انظر أعلام الزركلي ٧/٢٦.

٣٣-انظر الروضتين ١/٢٤٥ وأدب الدول المُتتابعة.د. عمر موسى باشا.

٣٤-أحمد بن مُنير الطرابلسي (٤٧٣- ٥٤٨هـ= ١٠٨٠ -١١٥٣م) شاعر من أهل طرابلس الشام، اتَّصلَ بنور الدين الشهيد ومدحَهُ بأبلغ قصائده، مات بحلب ولهُ ديوان مطبوع /الأعلام ١/٢٦٠.

٣٥-الكَلكَل: الصَّدر. الدَّرين: الحشيش اليابس.

٣٦-انظر الروضتين ١/٤٠ والأدب في بلاد الشام ص١٩٨.

٣٧-محمد بن نصر المخزومي الخالدي، شاعر حلبي الأصل ولد بعَكّا، وماتَ بدمشقَ، ونسبَتُهُ إلى قيسارية على ساحلِ بَحرِ الشام لأنَّهُ أقامَ بها زَمَنًا / الأعلام ٧/١٢٤.

٣٨-الرُّها:(بالمَدِّ (الرُّهاء) والقَصْرِ(الرُّها): مدينةٌ بالجزيرة بين المُوصِل والشام /انظر معجم ياقوت ٣/١٠٦.

٣٩-الروضتان ١/٤٠ والأدب في بلاد الشام ٤٢٢، وأرادَ بالرَّاحِلِ الفرنْجَةَ.

٤٠-الروضتان ١/١٧٩ والأدب في الشام ٤٢٦.

٤١-الروضتان ٢/٢٤٧ والأدب في بلاد الشام ٢٤٦.

٤٢-أبو الفضل الجلياني (٥٣١-٦٠٢هـ=١١٣٦- ١٢٠٥م) اسمُهُ عبد المنعم بن عمر، وهو من أهل جليانة بالأندلس، رحلَ إلى دمشق وأقامَ فيها، وهو طبيبٌ وشاعرٌ وأديبٌ، كانَ صلاح الدين يَحتَرِمُهُ ويُجِلُّهُ، ولَهُ فيه مدائح كثيرة.

٤٣-صَفِرَتْ: خَلَتْ. آلُ أصفَر، وبَنُو الأصفر: همُ الرومُ لِشُقْرَةِ ألوانِهم. الحَيْنُ: الهَلاك.

٤٤-يُشيرُ إلى مُساندَة القُوات المِصريَّة لأهلِ الشام. السَلوى: طائر السُّمانَى. أمنان: جمع مَنّ؛وهو غذاءٌ مُقَدّس كانَ يُنْزِلُهُ اللهُ معَ السَّلوَى لِمَنْ يَرضَى عَنْهم من عبادِهِ.

٤٥-البيضُ: السيوف. الخُرصان: الرماح.

٤٦-الرِّتاج: الباب.

٤٧-الأدب في بـلاد الشـام ٤٤٢ وانظر الروضتين ١١٦/٢ . المَلِك - بكسرِ اللام-: السلطان والحاكم. المَلَك - بفَتْح اللام -: واحدُ الملائكة.

٤٨-ابـن الساعاتي(٥٥٣-٦٠٤هـ=١١٥٨-١٢٠٨م) علي بن محمد.. بن هردوز، شاعر خراساني الأصل، ولد ونشأ بدمشق، عاصَرَ الأيوبيين، ومدحَ صلاح الدين.

٤٩-الجحافل: جمع جَحْفَل وهو الجيش الكبير.

٥٠-الزَّيفُ: الغشّ والرداءةُ والفَساد. الهَفَوات: جمع هفوة: الغلطة.

٥١-البيت العتيق: الكعبة المُشَرَّفة. يَثرب: المَدينة المُنَوَّرة.

٥٢-أدب الدول المتتابعة ٤٨٩/٤٩٠ وانظر الروضتين ١٠٧/٢.

٥٣-الأخيذة: الشيء المأخوذ (المَنْهوب) ويعني القُدسَ.

٥٤-مَعاطِف: جَوانب. الحَجون: جَبل بمكَّةَ .

٥٥-ادخُلوها آمنينا: عِبارَةٌ تُقالُ لِمَن يُكرَمُ بدخول الجَنَّة .

٥٦-سُطاك: قُواكَ (يُريدُ أعمال المُجاهد) .

٥٧-الرَّحَى: آلَةُ جَرشِ الحَبِّ وطَحْنَهُ، وأرادَ مَعرَكَةً طاحِنَةً .

٥٨-بيسان وصفد: مدينتان بفلسطين. البُؤس: الشِّدّة والمشقَّة.

٥٩-العيُّ: العَجزُ عن التعبير (عكس الفصاحة) .

٦٠-الأسَل: الرِّماح. الصُمّ: جمع أصَمّ؛ وهوَ المُصمَتُ (أيْ غير المُجَوَّف) .

٦١-يوسف: هوَ صلاح الدين(اسْمُهُ يوسف بن أيوب). أصْمَى: أصابَ مِنْ هَدَفِهِ مَقْتَلاً .

٦٢-حَبا: أعطَى. الضَّريح: يَعني قبْرَ النَّبيّ بيَثرب(المَدينة المُنَوَّرة) .

٦٣-ثَغـرُ الديـن: فَمُهُ. جَذلان: فرحان. الأغماد: جمعُ غِمْدٍ؛ وهوَ بيتُ السيفِ، وأرادَ بألسِنَتِها السيوف ذاتَها. اللَّثْمُ: التَّقبيلُ .

٦٤-الأدب في بلاد الشام ٢٦٨، وانظر الوضتين ١٠٦/٢ .

٦٥-اسْمُهُ فِتْيان بن علي الأسدي، مُعلِّم وشاعر من أهل دمشق، من حيِّ الشاغور، ولدَ في بانياس ومات في دمشق .

٦٦-أردَى: قَتَلَ (والردَى: الموت) قَبيل الكُفْر: جماعته. مالا يُكفَرُ:مالا يَقدرُ أحَدٌ على جُحُودِه.

٦٧-احمـرَّتْ راياتُـهُ مـن كَثرَةِ ما شَربتْ من دم الأعداء. تَمُجُّ: تَبصُقُ من كثرة الارتواء. النجيع: الدم. آل

الأصفر: الروم .

٦٨-شُوس: جمع أشوس وهو البطل الجريء .

٦٩-عَنوةً: قَسْرًا، بالقُوَّة .

٧٠-ديوانه ١٤٣/١٤٢ وانظر الأدب في بلاد الشام ٢٩٦ .مُسْفِر: مُشْرِق .

٧١-البَطرقُ والبَطركُ -بالقافِ والكافِ-: رُتْبة مِن رُتَب رجال الدين المسيحي. والقَسُّ والقِسِّيسُ: مِثْلُ ذلكَ .

٧٢-أدب الدول المُتَتابعة ٤٨٧ . الآفاق: نَواحي البِلاد. النَّقْس: الضَّربُ بالناقُوس، وهو جَرس الكنيسة.

٧٣-صَيتُهُ: سُمْعَتُهُ. جَوَّاب: مُنْتَشر (يَجوبُ أنحاءَ الدُّنْيا) .

٧٤-صارمُهُ: سَيفُهُ. مُنْجاب: مُنْحَسِر .

٧٥-المُوافَقَةُ: المُماثلة، يعني اجتماعَ القُدسِ ومَكَّةَ تحت سيطرة المُسلمين. تِيهٌ: فَخْرٌ.

٧٦-انظر الروضتين ١١٨/٢ والأدب في بلاد الشام ٤٤٨ .

٧٧-لم أصِلْ إلى تَعريفٍ لَهُ ويُنْسَبُ إلى جُوين وهي من أعمال خُراسان .

٧٨-انظر الروضتين ١٣٨/٢.

٧٩-دُهُم: يُريدُ خيلاً دُهمًا أيْ سُودًا .

٨٠-انظر الروضتين ١٠٣/٢ وأدب الدول المتتابعة ٤٩٧.

٨١-ديوان الزركلي ٢٣١/٢٣٠ .

٨٢-الكَليمة: الجَريحة. العقيق: السَّيْلُ .

٨٣-شَبا الأسِنَّة: طَرَفُها الحادُّ، والأسِنَّةُ: رؤوس الرماح .

٨٤-ديوانه ٢٣٥ .

٨٥-المُمْحل: المُجْدِب. أمرَعَ: أخصَبَ(وأمرَعَ عكس أمْحَلَ) البَلقَع: الأرض القَفْر.

٨٦-أوكع: أحمق. آبق: مِنْ أبقَ العبدُ: إذا هرَبَ من سَيِّدِه. الأفَّاق: الذي لا وَطَنَ لَهُ .

٨٧-ديوانه ١١٥/١١٤. وقَرعُ السِّنِّ: تَعبيرٌ عن النَّدَم .

٨٨-لَفَظَتْهم: مَجَّتْهم وبَصَقَتْهم (أيْ رَمَتْ بِهِم).

٨٩-أنَّى: كيف .

٩٠-الشعراء الأعلام في سورية ص٢٠٠ .

٩١-السابق ٢٥٦ .

٩٢-السابق ٢٦٨. .

٩٣-ديوانه ١٣٩٧/٣ وانظر أناشيد لها تاريخ للأستاذ خالد حمد ص١٤١ .

٩٤-أناشيد لَها تاريخ ص١٨٤.

٩٥-أناشيد لها تاريخ/ خالد حمد ٢٢٧/٢٢٦ .

٩٦-السَّنا: الضِّياء، ومَجلاهُ: مكانُ سُطوعِه .

٩٧-الوهج: البريق. القُضُب: جمع قَضيب وهو الرمح .

٩٨-الشعراء المعاصرون في سورية ٣٥٣.

٩٩-الشعراء الأعلام في سورية ٣٥٢.

١٠٠- شَبَّ: اشتعَل. الأُوارُ: لَهَبُ النار.

١٠١- ديوان (يا عيون الجليل)ص٣٩.



الدراسات والبحوث



كتابات قبة الصخرة وزخارفها

أحمد المفتي*

في الألف الثالث قبل ميلاد السيّد المسيح عليه السلام، نزح اليبوسيون مع من نزح من القبائل الكنعانية من جزيرة العرب -وهم بطن من بطونهم الذين استوطنوا هذه الديار- فابتنى ملكهم الصّادق مدينتهم (يبوس) التي عرفت بمدينة السلام (القدس).

ويحدّثنا المؤرخون وعلماء الآثار، أن سكّان مدينة القدس، والقرى المحيطة بها يرجعون إلى أصل كنعاني، وأن لغتهم الأصلية هي الكنعانية.

* باحث في التراث العربي (سورية).



ويقودنا ذلك إلى أن جـذور كتابتنا العربية التـي تطوّرت عبر الأنبـاط والآراميين، قد انحدرت عن الكنعانيـة الأمّ التي ولدت في هذه المنطقة من بلاد الشام، وظلّت محافظة على جذورها بالرغم ممّـا تعرضت له من محن وغزو وإبادة، ونمت بشكل طبيعي حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم.

لقد خضعت (القدس) واسمها الكنعاني (أورو –سـالم) أي مدينة السـلام للفراعنة المصريين منـذ (١٥٥٠ ق.م) زمن تحوتمس الأول كما في ألواح تـلّ العمارنة، وفي عهد تحوتمس الثالـث (١٤٧٩ ق.م) أقام عليها حاكماً مصرّياً، وظلّت كذلك زمن امنحوتب الثالث وإخناتون ورعمسيس الثاني (١٢٩٢ق.م) وكانت مصـدراً للأخشاب الثمينة. وفي سنـة (٧٣٠ق.م) غزاهـا الآشوريون بقيادة ملكهـم شلمنصـر، وفي سنـة (٥٩٩ ق.م) خضعت لنبوخذ نصـر وأصبحت مستعمرة بابلية، وفي سنة (٥٣٩ ق.م) خضعت لكورش الفارسـي، ثـم للاسكندر سنـة (٣٣٢ق.م) ثـم للرومان سنـة (٦٣ ق.م) ولبيزنطة سنة (٣٣٠م) ثمّ كان الفتح العربي الإسلامي سنة (١٥هـ- ٦٣٦م).

احتلّت القدس المكانة الرفيعة في قلوب المسلمين منذ بـدء الدّعوة الإسلامية، فهي القبلـة التي اتجه إليهـا نبيّهم محمد صلى الله عليـه وسلـم في صلاته قبـل المسجد الحرام في مكة وهي التي ولاها وجهه حين بنى مسجده في المدينة فاتجه نحو الشمال، وهي التي أسري إليها بعد وفاة زوجه وعمّه في مكة وربط البراق على حائط مسجدها، وأمّ بالأنبيـاء ثم عـرج إلى السموات العلا. وهـي التي قال بحقهـا: لا تشدّ الرّحال إلاّ لثلاثـة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى، وفيها نزلت الآيات الكريمـة: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ» ولمّا استقـرّت الدّولة الإسلامية في المدينة، وأصبح المسلمون على قدر من القوة لتبليغ الرّسالة والدعوة، توجّه النبـي صلى الله عليه وسلم لغزو الرّوم، إلاّ أن الأجل وافاه وَبَعْثُ أسامة لم يخرج بعد من المدينة، فأتمّ المهمّة أبو بكر الصديق، وأرسل إلى بلاد الشام الجيوش التي أقضّت مضجع الرّوم، وقهرت جيوشهم، وطردت هرقل من سوريـة إلى غير رجعة. وانتقـل أبو بكر إلى الدّار الآخـرة أثناء حصـار مدينة دمشق، وتولّى من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنهمـا، فأرسل إلى أبـي عبيدة بن الجراح يأمـره بفتح مدينة القدس. وسار أبو عبيدة

وحاصر المدينة مدّة أربعة أشهر فاستسلمت شرط أن يتسلم الخليفة عمر رضي الله عنه مفاتيحها من كبير أساقفتها البطرك (سفرونيوس) واتجه الخليفة إلى القدس، وكتب لأهلها وثيقة الأمان التي عرفت في التاريخ بالعهدة العمرية، وشهد عليها خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان. وكان أوّل مكان زاره كنيسة القيامة، وحان وقت الصّلاة وهو داخلها، فقال له سفرونيوس: مكانك صلّ، ولكنّه أبى، وصلّى على مقربة منها خشية أن يتخذ المسلمون صلاته ذريعة، فيأخذوا الكنيسة، وقابل النّصارى عمله هذا بالشكر، وقد بنى المسلمون فيما بعد مسجداً في المكان الذي صلّى عليه. وسأل الخليفة عن الصّخرة التي عرج النبي صلى الله عليه وسلم من فوقها، فرآها وقد أصبحت عبارة عن مكبّ نفايات، فراح يحفن التراب، وينحضه بكفيه، وحذا الصحابة حذوه، فنظّفوا المكان، وأبرزوا الصخرة، وأمر الخليفة عمر أن يبنى فوقها ظلّة من خشب، وهي التي استبدلها عبد الملك بن مروان فيما بعد بهذا التصميم المعماري المثمّن الفريد.

وتجوّل الخليفة عمر في شوارع المدينة المقدّسة، وغشي أسواقها، وكانت لاتزال تئن من الخراب الذي أحدثه الغزو الفارسي سنة أربع عشرة وستمئة ميلادية. الآخرة من سنة (٧٣هـ -٦٩٢م) قضى الحجاج على ابن الزبير بعد عشر سنين من الخصام تنازع فيها الخلافة خليفتان واحد في دمشق والآخر في مكة.

بناء مسجد قبّة الصخرة والمسجد الأقصى:

في سنة (٦٦هـ -٦٨٥م)، فكّر عبد الملك أن يستبدل ظلة الخشب التي فوق الصخرة والتي كان عمر رضي الله عنه قد أمر بها، كما أراد أن يظهر عظمة الإسلام من خلال البناء، وقد شاهد عظمة الأبنية البيزنطية والرومانية والكنائس، وكان لابد من بناء يليق بعظمة الدولة التي باتت رقعتها تمتد شرقاً وغرباً. فكلّف اثنين من رجاله بإدارة المشروع وهما: رجاء بن حياة بن جود الكندي، وهو أحد العلماء والفصحاء في صدر الإسلام- وذكره الزركلي في الإعلام بـ رجاء بن حَيْوَة ابن جرول الكندي- ويزيد بن سلام وهو أحد مواليه من مدينة القدس، ورصد للمشروع خراج مصر لسبع سنين، وشرع البناؤون في البناء في ذات السنة (٦٦هـ)، وفرغوا منه سنة (٧٢هـ- ٦٩١م)، ولما كان قد بقي من

المبالــغ المخصصــة للبناء مئــة ألف دينار، فقد أمر عبد الملك بها جائزة لرجاء ويزيد، فرفضاها قائلين: نحــن أولى أن نزيده من حلى نسائنا، فضلاً عــن أموالنا، فاصرفها في أحبّ الأشياء إليك، فأمر أن تسبك ذهباً وتفرّغ على القبّة والأبواب. ونقش اسم عبد الملك بن مــروان وتاريخ الفــراغ من البناء على قناطر التثمينــة الوسطى من الناحية الجنوبية الشرقية من الداخل.

ويزعــم اليعقوبي في تاريخــه أن سبب بناء قبّــة الصخرة هو خوف ابن مروان من ابــن الزّبير. ولقد نقل روايتــه كلّ من كتب عن الصّخرة مــن مستشرقين وعرب. يقول اليعقوبي:

«ومنع عبد الملــك أهل الشام من الحج، وذلــك أن ابــن الزبــير كان يأخذهــم، إذا حجّــوا، بالبيعة، فلمّــا رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخــروج إلى مكّة، فضجّ النّاس، وقالوا: تمنعنا من حجّ بيت الله الحرام، وهو فرضــ من الله علينا! وبعد عشرة أيام، قررّ العــودة إلى المدينة، ويروي المؤرّخون أنّه زار أبا عبيدة بن الجــرّاح، قبل رحيله في بيته، فلم يجد عنده ســوى لبد فرسه، وكان هذا فراشه، وسرجــه، ووسادته، وكسر يابسة في كــوّة بيته جاءه بها مع ملح جريش وكوز ماء من خزف فيــه ماء.. فنظر عمر رضي الله عنــه إلى ذلك.. وبكى وقبــل أن يغادر أقام على بيــت المقدس يزيد بن أبي سفيان على أن يأتمر بأوامر أبي عبيدة ثم مضى..

اجتــاح طاعــون مدينــة عمواس بلاد الشام، وقضى فيه يزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة، فولّى عمر أخا يزيد، معاوية ابن أبي سفيان ثمّ ضــمّ إليه الشام، كما ولاّه عثمان نفس العمل بعد مقتل عمر.

ضمّت القدس إلى الشام (٢١هـ- ٦٤١م)، وخضعــت لحكم معاويــة مؤسســ الدولة الأموية، فولّى عليها سلام بن قيصر، فأقام في المكان الذي كان يقوم عليه قصر هيرودس في عهد الرومان. وكان للقدس يومئذ سور، وكان علــى ذلك الســور ٨٤ برجاً، وله ستة أبواب، ثلاثة منهــا فقط يدخل النّاس منها ويخرجون: واحــد غربي المدينــة، والثاني شرقيهــا، والثالــث في الشمــال، وكان يؤم المدينة، في الخامس عشر من شهر أيلول من كلّ سنة، جماهير غفيرة من مختلف الأجناس والأديان للتجــارة، وكان فيها مسجد مربع الأضلاع، بني من حجــارة وأعمدة ضخمة نقلت من الأطلال المجــاورة، ويتسع لثلاثة آلاف مــن المصلــين، ويعتقــد أن هــذا هو المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب.

بعد وفاة معاوية (٦٠هـ- ٦٧٩م) تولى الخلافة ابنه يزيد، ثم معاوية الثاني ابن يزيد (٦٤هـ -٦٨٣م)، وانفصلت الحجاز بقيادة عبد الله بن الزبير عن جسم الدولة العربية الأموية، وتبعتها العراق واليمن فبايعته، وكذلك مصر، وانقسمت بلاد الشام إلى قيسيّة ويمانية، وكان نائل بن قيس الجذامي بفلسطين أن يميل إلى الزبير، وسارع مروان بن الحكم فأعاد مصر وقضى على نائل، ثم تولى الخلافة عبد الملك بن مروان في غرّة رمضان سنة (٦٥هـ -٦٨٤م)، وابن الزبير على الحجاز والعراق واليمن، وفي شهر جمادى فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدّثكم أن رسول الله قال: لا تشدّ الرّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها، لمّا صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الدّيباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية».

تلك هي رواية اليعقوبي، وفيها تضارب في الزمن والتاريخ، ذلك أنه قد ذكر في تأريخه أن عبد الملك قد أقام الحج في ولايته سنة ٧٢ الحجاج بن يوسف، وسنة ٧٣، وسنة ٧٤، وكيف لعبد الملك أن يمنع أهل الشام من الحج ويأمرهم بالمسير إلى الصخرة وهي لم يكتمل بناؤها بعد.. ولمّا اكتملت كان ابن الزبير قد قتل، وصارت مكّة في بيعته، فلماذا يأمرهم بالحج إلى القدس. إنه لمن المحزن أن يكتب تاريخ الأمويين بأيد أعداء الأمويين، وأن يضيع كل أثر للأمويين، وأن يكون جلّ تراثهم قد فقد وأحرق نتيجة الحقد السياسي والعشائري القبلي، وماندّ منه ووصل إلاّ نزر قليل لا يمدّنا بحقيقة الصورة التي كانوا عليها. كما يدلّنا على ذلك أيضاً التزوير الذي طال الكتابة التسجيلية التاريخية لبناء الصخرة، فقد جاء من بدّل اسم عبد الملك بالخليفة المأمون، وبقي تأريخ السنة ٧٢هـ كما هو، والمأمون جاء بعد هذا الزّمن.. وما رواية اليعقوبي إلاّ وهم وباطل يدحضه تأريخ سنة الفراغ من البناء..

لقد بنى عبد الملك مسجد قبة الصخرة ليضاهي في بهائه وسحره ما لكنائس النصارى من الروعة، ولا سيما كنيسة القيامة، فقد روى المقدسي أن عبد الملك عندما رأى قبّة القيامة، وكان المسيحيون

يحجون إليها مــن كل مكان، خشي أن تؤثر بفخامتهــا وروعتها على قلــوب المسلمين، فاعتــزم أن يبني في المقدس قبّــة مثلها أو أحسن –وقد فعل.

ترتفــع قبّة الصخرة التــي يبلغ قطرها ٢٠,٤٤ مــتراً علــى رقبــة عاليــة، تتخللها ست عشرة نافذة، وتقــوم على أربعة ركائز واثني عشر عمــوداً مرتباً على شكل دائري حول الصخــرة المشرفة، يحيط بها المثمنان المتوازيان، يبلغ محيط الأول ٤٢,٤٥متراً، في حين يبلغ محيط الثــاني ٢٠,٦٠ متراً حيث يؤلفــان رواقين. وتتميز التزيينات الداخلية بالفسيفساء التي تعدّ مــن أجمل آثار الفن الأموي. ويزين الجزء الأعلى وفوق الرّسوم النباتيــة شريط من الكتابــة الأموية بطول ٢٤٠مــتراً، ويعتــبر الشريط هــذا من أهم المصادر التي تصــوّر الحرف العربي الذي تطور مع الزمن ليصــل إلى حالته المبسطة زمن الأمويين.

لم يكن الخــط العربي قبل الإسلام، وفي صدره، فنّــاً من الفنون، وإنمــا كان وسيلة لتأريخ الأحداث والأمور المعاشية والأفكار، ولم يكــن العرب قد تذوّقــوا بعد جمال بنية الحــرف، وإنما ارتقــوا بحسهــم في نطق الحرف وتأثيره الموسيقــي على بنية الكلمة فحسب، ولم تكن الكوفة التي خطها سعد بن أبي وقاص بأمر من الخليفة عمر رضي الله عنهمــا سنة سبع عشرة للهجرة، والتي نسب إليها الخطّ، وأصبحــت زمن الخليفة عليّ رضي الله عنه موطن العلم والكتابة، لم تكن الكوفة هذه إلاّ موطن حرف تنازعت فيه مع البصرة أمــور الفقه والنحو والقراءات. أما جمال الحــرف العربي وفتنته وهيبته، فقد ولــد مع نشوء وتطوّر الحضــارة الإسلامية زمــن الأمويين، وإن شريــط الكتابة في قبة الصخرة الذي استخدم فيه الحرف العربي لأول مــرة بشكلــه الجليّ، لهــو دليل على طواعيته وبنيته الجمالية في زخرفة العمارة الإسلامية.

كما تشكل الآيــات القرآنية المنتقاة من ســورة آل عمــران في هــذا الشريط صورة الحــرف وأسلــوب الكتابة زمــن الأمويين وهـي من غير نقــط أو ضبط، وقد سطرت بالفسيفســاء الذهبيــة على أرضــ زرقاء غامقــة، وفي إملائها علــى الرسم العثماني تأثــير واضح بإمــلاء وكتابــة الأنباط، من حذف الألف الممدودة والتاء المبسوطة وغير ذلك. وثمّة كتابتان في الصخرة على النحاس (الباب الشرقــي والباب الشمالي) وهما من زمن عبد الملــك وذات التأريخ، وقد أضيف

اسم المأمـــون فيهما، وبدّل التاريخ في الباب الشرقي فجعله سنة (٢١٦هـ). أما الزخارف التي زينت فسيفســاء البناء وجعلته آية من آيات الفن الإسلامي، فيكفي أن نشير إلى ما قالته مرغريت فإن برشيم في كتاب القدس الإسلامية حيث تملكها العجب إثر الفحص الدقيق والعميق الذي قامت به:

«تملكنـــي العجـــب بذلك الفـــن الرائع لأولئـــك الفنانـــين، فبينما كنـــت أقف على سقالـــة أتفحص الأعمدة المثمنـــة، أو على سلّم عال يصل ارتفاعه إلى عشرة أمتار من الأرض، لاحظت عن كثب فنّ وأسلوب أولئك الفنانين الذين تفوّقـــوا على كل ما أنتج في هذا الميدان في الغرب. وقد قاد لي الفحص الدقيق إلى الاقتناع بأن هذه التحفة الفريدة التي تعـــود للعهد الأموي، كانـــت من صنع فنانين سوريين محليين، وليس كما ذكر بأنها من صنع فنانين أجانب أتوا من بيزنطة، وقد أيّد ذلك دراستي للنصوص العربية القديمة والقريبـــة من بناء قبة الصخرة. هنا ترتبط نباتات الأقنث والزخرفة الغصنية والكرمة والأشجار وأكاليـــل الزهور والفواكه وقرون الخصـــب وكلها ممثلـــة بشكلهـــا الطبيعي الرائـــع، أما التقاليد الشرقيـــة الملمح إليها فتمثلها الزهـــور على شكل زهرة اللوتس أو الزنبـــق، وكلّ هذه العناصـــر أعطت الحياة وأفاضت الخيـــال، وإذا نظرنا ملياً نلاحظ زخارف الجواهر المتلألئة التي تزين المثلثات المحصـــورة بـــين أقواس البوائـــك، وإذا ما تعرضـــت للضوء تتبين قيمتها الكاملة حيث نجدها مختبئة في غصون الأقنث فوق أعمدة نفس الأروقة، في حين نجدها تختفي تماماً في غصـــون الأقنث المتحركـــة الساكنة التي تلتف وتمتد في حركة مستمرة فوق المقدمة الخارجيـــة للـــرواق الدائري حيـــث تتلقى الضـــوء، وهنـــا يتأكد الإحساســ الزخرفي للفنانين، بهذا الترابـــط الرائع بين السطح المعمـــاري والزخرفة التـــي تغطيه، وتستمد الموضوعات الزهرية مثلاً قوتها من العمود الـــذي تنتشر فوقه ثـــم لا تلبث أن تكثر عند انحناء الأقواس ثم تعـــود لتقل عند قمتها، ولا توجـــد الرسوم التصويريـــة الآدمية في هذا الأثر الإسلامي حيث أن صور الإنسان وحتى الحيوان أحياناً كانت ممنوعة، ولذلك سمـــح لصناع الفسيفســـاء في قبة الصخرة باستعمـــال فـــن الزخرفة النباتيـــة بمهارة، ورغم أننـــا نلاحظ ابتعاد الفنـــان هنا عن الزخرفة الهندسية الجامـــدة، إلاّ أنه فيما بعد، في القرون اللاحقـــة، نجدها من أهم مميـــزات الزخرفة الإسلامية، ومن الجدير

ذكـره هنا أننـا لا نجد تكـراراً لموضوعات الزخرفـة، كمـا لا نجد شكلاً مـن أشكال الأقنـث أو الغصـون أو الأشجار أو المناظر تتشابه، ونلاحظ الإلهام المدهش الذي غذّى العمل الفني».

لقـد أصـاب مسجد قبـة الصخرة ما أصابه مذ بنـاه عبد الملك بن مروان بسبب الزلازال، والعواصف والأمطار، وقد حدثنا التاريـخ أنه ما من حاكم من حكام المسلمين حكم القدس إلاّ وكان له بعض الفضل في ترميمه، فـكان للمأمون يد فيـه، وللحاكم بأمر الله الفاطمي أيضاً عند سقطوط بعض أجـزاء القبة إثر زلزال، وحـوّل الصليبيون مسجد الصخرة لمّا احتلوا القدس (١٠٩٩م) إلى كنيسـة، وبنـوا على الصخـرة مذبحاً وكانوا يسمونها (Templum Domini) أي هيكل السيـد العظيم، وأنشؤوا الحاجز المصنوع مـن الحديد المشبـك، وهو الذي يفصل الصخرة عن المسجد، وكان قساوس النصـارى يقطعـون مـن الصخـرة قطعاً يحملونهـا إلى بلادهـم، فيبيعونهـا بوزنها ذهباً، وذلك مما جعـل الصليبيين يكسونها بالرخام. ولمـا فتح صلاح الديـن القدس، أزال مـا على الصخرة من معـالم الكنيسة، ومحا الصـور والتماثيل ورفع الرخام، وكسا الجـدران، وزيـن القبة بالنقوشـ الأيوبية الجميلة، ونلاحظ أثر الخط الجلي لأسلوب الثلث القديم في القبة وآية الكرسي، وحمل المنبر إلى المسجد الأقصى من دمشق، وكان قـد صنعه محمد الاخترينـي في حلب لنور الدين ليضعه في القدسـ بعد الفتح. وفيه من الخطوط والزخـارف ما يعجز الإنسان عن وصفه، وقد احترق سنة ١٩٦٩ بيد المكر والحقد الصهيوني.

كمـا عني ملـوك بني أيـوب بعد موت صـلاح الدين بمسجـد الصخـرة فكانوا يكنسونهـا بأيديهم ويغسلونهـا بماء الورد، وإن الحاجز الخشبي الذي يحيط بالصخرة نفسهـا مـن صنع الملـك العزيـز عثمان.. ولقد وضع صلاح الديـن وملوك بني أيوب شارة فـوق رؤوسهم وهـي (المكنسة) دلالة على خدمة الحـرم الشريف. واعتنى كذلك المماليك بقبـة الصخرة وعمـارة المسجد، فـكان الظاهـر بيبرس والملـك العادل زين الدين كتبغا المنصوري، والملك الناصر محمد بـن قلاوون الذي نقش اسمه في أسفل رقبة القبة مـن الداخل بعد الترميـم. وفي زمن الأشرف قاتيباي صنعت الأبواب النحاسية. وفي زمن الأتـراك العثمانيين كسا السلطان سليمان القانوني الجدران من الخارج، وكسا

قبــة السلسلة بالرخــام والقاشاني، وكذلك السلطان محمود وعبد المجيد وعبد العزيز وعبــد الحميد الثاني، ومــن الآثار الجميلة التــي تظهر أسلــوب تطور خــط الثلث في قبــة الصخرة ما خطه الخطاط شفيق سنة ١٢٩٣هـ- ١٨٧٦م من شريط القاشاني يحيط ببناء مسجد الصخرة، وقد سطّر فيه سورة يس بأسلوب مركــب بسيط مقروء لا تكلّف فيه وبلون أبيض على أرضية زرقاء.

إن مسجــد قبــة الصخرة آبــدة أثرية تحمل أساليــب وخصائص الفن الإسلامي في العمــارة والزخرفــة والخــط، وهو أثر غني لعصور إسلامية تميزت بطرز متعددة متنوعــة تعزي الباحث بالدروس والاستنتاج والتحليــل الــذي لم يدرس بعــد إلا وبشكل بسيط وجهود قام بها بعض المستشرقين.



الدراسات والبحوث



القدس بُؤْرة الإشعاع في الشعر العربي السوري المعاصر

محمود محمد أسد*

للقدس مكانة مقدسة لدى الديانات السماوية، ولها مركز البوح، وتمركز الأرواح. تحظى بالقدسية التي ما زالت تحافظ عليها لدى المسيحيين والمسلمين، وقد دافعوا عنها عبر العصور، وصانوا مقدساتها وكرامتها ووقفوا في وجه غزوات المغول والتتر والصليبيين والصهاينة الذين يعبثون بها وبمقدساتها، وفي القرون الماضية هُيِّئَ لها رجال مخلصون أعادوا لها وجهها وحريتها كصلاح الدين الأيوبي والزنكي ونور الدين محمود.

* أديب سوري



القدس في العصر الحديث تعرضت لوحشية الصهاينة الذين يحاولون بكل أساليبهم وأدواتهم طمس هويتها العربية والإسلامية، فأحرقوا المسجد الأقصى وحفروا الأنفاق تحت المسجد الأقصى، ونكّلوا بما تبقى فيها من آثار بناها الأمويون والعباسيون والطولونيون والفاطميون والأيوبيون والعثمانيون.

ولما تزلْ عرضة لسوء نواياهم وتخطيطهم على مرأى من العالم والعرب.. فالصهاينة راحوا يتطاولون على مقدساتها وآثارها دون رادع أخلاقي أو ديني أو قانوني، فبكاها الرجال والنساء والأطفال، واقترب من همها الشعراء العرب على مختلف انتماءاتهم وتياراتهم الأدبية، فكانت تفجعهم، فيؤلمهم سوء حالها ومآسيها، فذرفوا الدموع، وكشفوا الخطر، ودعوا إلى نصرتها، وأبانوا للعالم معاناتها من الاضطهاد والخراب، واستنجدوا بالرجال وحرضوهم للدفاع عنها، وقد خصها الشعراء بقصائد منفردة، أو ذكروها في معرض قصائد المناسبات وأطلق بعضهم عنوان دواوينهم للقدس، وهذه القصائد الكثيرة التي يصعب حصرها، وتضيق عنها ساحات الورق المعدة للكتابة، ولكنها على مختلف مدارسها الفنية وأشكالها تعكس مدى التحام الشاعر العربي الحديث مع هذه القضية المصيرية التي تشكل ركيزة من ركائز اهتمام الشعر العربي رغم جناية وتجنّي بعض الشعراء عليه، بخروجهم عن النص وتناسيهم القدس بعد التفاتهم إلى نزواتهم الخاصة وتنظيرات الشعر المحدثة.

في القدس ما يدفعنا للتعاطف والتلاحم ومن ثم المناصرة على مستوى الهوية القومية أو العقيدة ولذلك واقع القدس واقع مصيري، يمسّ شخصية الجميع إلا الذين انتابتهم حمى المروق. والحديث عن القدس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بفلسطين الأم والجوهر والدرة الثمينة..وجلّ القصائد التي قيلت في القدس أو توقفت عندها سريعاً مزجت بالدموع والألم والحسرة والأنين، فهي صرخات ألم يغيب عنها مسرح السرور والبهجة، لأنَّ شريطها الزمني يحكي سيرورتها الدائمة مع المآسي والآلام فلا عجب إن طغت الدموع والأنات واعتلى القصائدَ الصوتُ المباشر الذي يقرِّر، وخاصة قصائد الشعر العمودي التي تفاوتت مستوياتها وإلى جانبها قصائد التفعيلة التي مالت إلى الإيحاء والهمس مبتعدة عن المباشرة لحد معين.. هذه أحكام عامة تحتاج إلى شواهد تثبت صحة الأحكام وتكشف معارجها وزواياها الحانية.

إن اقتصار المقالة على الشعر السوري المعاصر لغزارة النتاج وتنوعه، ولصعوبة التصنيف والإيفاء بكل جوانبه. ولأن سورية تعتبر فلسطين في مركز القلب، وقضيتها عبر التاريخ قضية مصيرية لا جدال فيها، واقتران القدس بدمشق مرهون بالانتماء القومي الذي يزكو في ربوع الشام ويتنامى ولذلك خصها شعراء الشام وتحديدا سورية ولبنان بالكثير من قصائدهم، ومازالت في مركز الاهتمام المصيري الرسمي والشعبي، للقدس مركزية لا تضاهيها سوى مكة، فلا عجب من غزارة القصائد التي لامست قدس الأقداس حبّاً وتقديرا وارتباطا لا انفصام فيه وأسعفتني المجلات الأدبية والثقافية والدواوين المنشورة والكتب الأدبية والدراسات بالكثير مما قيل عن القدس ومعالمها وما انتابها، واكتفيت بالشعر المعاصر لتسهيل بسط البحث وهناك أبحاث مكملة للدراسة فالشاعر بدوي الجبل اقترب من جوهر القضية الفلسطينية فكان على مسافة قريبة من العقل والعاطفة في ملامسة القضية وكان كغيره يستغل كل مناسبة هامة ليتوقف عند القدس:

في قصيدته /يا وحشة الثأر/ الديوان ص ١٢٨ دار العودة وقالها في حفل تتويج الملك الفيصل الثاني:

دم بتونس لم يُثأَرْ له، ودم

بالقدس -هان على الأيام- لاهانا

وما لمحت سياط الظلم دامية

إلا عرفت عليها لحم أسرانا

ومع حلول النكبة يعري بدوي الجبل الواقع العربي وممارسات الغرب في أسواق النخاسة: فيقول ص ٣٢:

أَسْلَمَ القدس من يحج إلى القدس

ويتلو الإنجيل وِرْدا فوردا

مدن القدس كالعذارى سبوها

وأرادوا لكل عذراء وغدا

غيرة الله، أين قومي، وعهدي

بهمُ ينهدون للشر نهدا

بدوي الجبل يوظف لغته الجزلة، وصياغته المتينة في تأجيج المشاعر وتحريك النخوة التي استسلمت للنوم واليأس فيقول ص ٨٠:

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا

رقّ الحديد وما رقّوا لبلوانا

هل في الشام وفي القدس والدة

لا تشتكي الثكل إعوالا وإرنانا

قل للألى استعبدوا الدنيا بسيفهمُ

من قسم الناس أحرارا وعبدانا

ربط الشاعر بين دمشق (الشام) والقدس لأنه يعتبر المصاب والآلام واحدة ولذلك

بقي مهموما وفي نفسه غصّة بعد جلاء الإفرنسيين عن سورية، فلم تكتمل فرحته فيقول في قصيدته (عيد الجلاء) ص ٩٤:

يا فلسطين هوى مستعر
من ربى الشام ونصر وولاء
تمّ صفُو الدهر لولا محنة
في فلسطين، وبلوى وشقاء
يا ربى القدس، وما أندى الربى
دمنا فيها ربيع ونماء
انتزعنا الملك من غاصبه
وكتبنا بالدم الغمر الجلاء

ولا يخفي الشاعر بدوي الجبل ألمه لما آل إليه أمر القدس ومقدساتها فيذكر العرب والمسلمين بمقدساتها وينسبها إلى تخاذلهم ص ٩٦:

هل درتْ عدْنُ أنّ مسجدها
الأقصى مكان من أهله مهجور
أين مسرى البراق والقدس
والمهد وبيت مقدّس معمور
لم يُرتّلْ قرآن أحمد فيه
ويزار المبكى ويتلى الزبور
أين آي الإنجيل؟ فاح من
الإنجيل عطر وضوء الكون نور
يا الذلِّ الإسلام، والقدسُ نهب
هُتكتْ أرضه فأين الغيور

وكذلك كان حال الشاعر عمر يحيى الذي ابتهج بالجلاء ولكنه لم يرض إلا بتحرير فلسطين والقدس فيقول في قصيدته /الجلاء /الديوان /منشورات وزارة الثقافة ١٩٨٠ ومطلعها ص ٣:

شُقَّ جيب الليل عن بيض الأماني
فاخفقي يا رايتي بين المغاني

ثم يقول متأثراً ومذكراً:

يا فلسطين بما يرضى العلى
سوف نرضيك، وما يرضي التفاني
لك في كل فؤاد خفقة
وعيون يعربيّات رواني
شرف الأقصى نمانا مجده
وقلوب باديات العنفوان
لا تقولي: نام عنّي فتيتي
إن من نام عن الضيم لَوانِ

يرى الشعراء في القدس حسنَ الانتماء وحسنَ العبادة، ولذلك خصوها بالحب الصافي ولم يتوانوا عن ذكرها في كل مناسبة، فقد حضرت في كل مناسباتهم وقدموها مقدسة مباركة لها تاريخها ودورها وقدسيتها فالشاعر عمر يحيى في ديوانه وفي حفل تكريمه الذي جرى بمدينته حماه يقول في قصيدته /ذكريات بحماه/ ص ٥٣:

أيـن منـي مغنـى أويـت إليـه

أرشـف العلـم والـزمـانُ زمـانُـه

أيـن مني الأقصى ودار صلاح

ديـن درسا؟ وأيـن منّى مكانه؟

ستعـودين يـا فلسطين مهما

أبـرق السقط، أو نما طغيانه

حمــل الشعراء في سورية هــمَّ القضية كما حملها الثوار الذين ناضلوا واستشهدوا كسعيــد العاص وعز الديــن القسام وذهب الكثــيرون منهم إلى جيشــ الإنقاذ كالأديب الراحل عبد السلام العجيلي. وقد حضرت القدســ مرارا في قصائد عمــر أبو ريشة، وكان حضورهــا لافتــا ومؤثــرا فيقول في قصيدة /قيــود/ وفي ذكرى رحيل المجاهد إبراهيــم هنانــو، والديوان منشــورات دار العودة /المجلد الأول/ ومطلعها ص ٥٢٢:

وطـن عليـه مـن الـزمـان وقـار

الـنـور مـلء شـعـابـه والـنـار

ثم يقول متألما وعارضا شريط المآسي:

أقسى جراح المجد جرح لم تكن

تقوى على تضميده الأحـرار

والقدس ما للقدس يخترق الدما

وشـراعـه الآثــام والأوزار

أيُّ العصور هوى عليه وليس في

جـنـبـيـه مـن أنـيـابـه آثـار

عهـد الصليبيين لم يـبرح له

في مسمـع الدنـيـا صـدى دوّار

في حنايا القصيــدة وغيرها بوح موجع، ونجوى موجعة وذكريات أليمة وإبر موخزة، فيقول في قصيدة (هذه أمتي) ص ٥١٦:

وسلوا القدس هل غفا الشرق عنها

أو طـوى دونـهـا شـبـا مـرانـه

أيْ فلسطين، يا ابتسامة عيسى

لجـراح الأذى عـلـى جـثـمـانـه

يا تثنيّ البراق في ليلة الإسراء

والـوحـي ممـسـك بـعـنـانـه

لا تنامي خضيبة الحلم خوفا

من غريب الحمى ومن أعوانه

إن لـلـبـيـت ربــه، فـدعـيـه

رُبَّ حــاو رداه في ثـعـبـانـه

وكذلك في حفــل تأبين المجاهد الوطني سعــد الله الجابري يذكر فلسطين والقدس ص ٤٥٠:

أي فلسطين، مـا الـعـروبـة لولا

قـبـس مـن سـنـا الـنـبـوة هـاد

وينضم الشاعر عمر أبو ريشة إلى قافلة الشعــراء الذيــن فرحوا لجــلاء المستعمر الفرنســي، ولكــن فرحتهــم لم تكتمــل لأن فلسطين تعاني من الإنكليز والصهاينة فيقول في قصيدة /عروس المجد/ ص ٤٣٧:

ما بلغنا بعد من أحلامنا
ذلك الحلم الكريم الذهبي
أين في القدس ضلوع غضّة
لم تلامسها ذنابي عقرب؟
يا روابي القدس، يا مجلى السنا
يا رؤى عيسى على جفن النبي
دون عليائك في الرحب المدى
صهلة الخيل ووهج القضبِ

هذا الإحساس النبيل أنتج قصائد ترفل بالحب والإخلاص للقضايا القومية وفي مقدمتها فلسطين، فأبو ريشة في قصيدته /يا عيد/ يبدي تفاؤله بالعيد الكبير عيد التحرير ص ٩٣:

يا عيد ما افترّ ثغر المجد، يا عيد
فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد
يا عيد، كم في روابي القدس من كبد
لها على الرفرف العلويِّ تعييد
سينجلي ليلنا عن فجر معترك
ونحن في فمه المشبوب تغريد

ولذلك لا غرابة إن سمعنا نداء قاسيا وتنديدا يطرق العقول والآذان، فيقول في قصيدة (هكذا) وهي معروفة ص ٧:

بدوي أورق الصخر له
وجرى بالسلسبيل البلقع
فإذا النخوة والكبر على
نزف الأيام جرح موجع
والبطولات على غربتها
في مغانينا، جياع خشَّعُ
هكذا تُقتَحمُ القدس على
غاصبيها.. هكذا تُسترجعُ

فالشاعر لا يتوانى عن السخرية المقرعة، ولا يقصّر بإبداء غضبه واستنكاره، فيقول في قصيدة /حماة الضيم/ ص١٤:

عاتبته ونسيت طيب نجاره
وأبيت أن تصغي إلى أعذاره
المجد يخجل أن يجيل الطرف في
ما هدَّمَ الجبناء من أسواره
هل في روابي القدس كهف عبادة
تحنو جوانبه على أحباره
خشب الصليب على الرمال مخضّب
بدماء من نعموا بطيب جواره

وما زلت أتساءل: أين صوت أبي ريشة في حرق المسجد الأقصى وتهديمه والمجازر وقد كان على قيد الحياة، فهل كتب ولم ينشر ذلك، أم أنه فضل الصمت والتزم الوحدة التي آل إليها في آخر حياته، فأغلب قصائده التي ذكر فيها القدس وفلسطين تنتسب إلى مرحلة الشباب وهي مجرد إشارة واستفسار.

وفي ديوان /نوح العندليب/ للشاعر شفيق جبري ذِكرٌ ووقفة عند فلسطين والقدس، وقد ورد ذلك في قصيدة (بطولات العرب) والتي ألقاها في مهرجان الشعر العربي الأول دمشق /١٦/ أيار /١٩٥٩/ وجاءت في ديوانه ص ٨٧ :

يا دامي الجرح لا جرح ولا ألم

الجرح بعد انتفاض العرب ملتئم

امسح دموعك إن ماجت موائجها

فكل ثغر على الأيام مبتسم

ثم يتساءل تساؤل المستنكر ما يجري للقدس:

فهل تظل سفوح القدس ضائعة

فأين ما سلبوا منها وما غنموا

إذا ضحكنا فما في جدّهم ضحك

وإن عبثنا بهم فالعابثون هم

سيندم العرب إن طال الشقاق بهم

وليس ينفع عض الكف والندم

فالشاعر وضع يده على الجرح الدامي لأمتنا وهو جرح الخلافات والتمزق الذي سينهك الأمة ويضعفها ولشفيق جبري قصيدة بعنوان /تحية القدس/ وقد قيلت في إذاعة القدس ووردت في الديوان المذكور /نوح العندليب/ ص٩٦:

خاطرٌ مصبح وآخر مُمسِ

ذكَّراني السيوف من عبد شمس

ما نسيت العهود منهم، ولكن

موجة الدهر بالشدائد تنسي

يا نسيم الضحى على المسجد اللأق

صى لقد هجت ذكرهم ملء نفسي

ليس لي حاضر يقيني حماه

إنما حاضري نضارة أمسي

فالشاعر يمر بحالة إحباط ويأس من الحاضر ولا يجد علاجا أو بصيص نور إلا بربط الماضي مع الحاضر ليكون داعما للغد المأمول.

وهذا الشاعر سليمان العيسى الذي شغله الواقع العربي وما فيه ولكنه بقي متمسكا بمبادئه ومتماسكا أمام قسوة الواقع والمعاناة، فاستعان بالأمل والتفاؤل والإيمان بقدرة الأمة العربية على تجاوز محنها وما أكثر القصائد التي يتوقف فيها عند الهم القومي وتحديدا فلسطين، في قصيدة / نحن والعيد/ الواردة في ديوان /مع الفجر/ في المجموعة الكاملة من المجلد الأول ص ١٣٣، لا يستطيع أن يحلق بأجنحة الفرح والقدس أسيرة:

أي عيد أتلقاه وأغدو

مرحا أزهو على الكون وأشدو

وبــلادي ألــف جــرح يستبدّ
وثـرى القدس دم ما جف بعد
أي عـيـد أتـلـقـاه رغـيـد
وعــدوّي مُـديـةٌ فـوق وريـدي

وترتفع آهات الشاعــر وألمه عاليا لتعبر عن غضبه وثورته فيسكب موجا من الغضب والتقريع فيقــول في قصيدة عدنان المالكي بعــد عام علــى مصرعه وفي ديــوان رمال عطشى. المجموعة ص ٣٩١:

أمسِ، والشارع في القدس خضيب بالدماء
لحت ومضا يتحدى الموت في عيني رجاء
(رجاء حسين الشهيدة)
وأرنّــتْ ضحكة الفـارس في سمع الفنـاء
تقرع الخلد: أنِ افتحْ.. إن ركب الشهداء

وفي مــكان آخــر مــن الديــوان /رمال عطشى/ يبــدو متحدياً ومتفائلاً فيقول في قصيدة /الأردن الثائر/ وبلغة تمور بالسخط والغضب ص ٣٧٢:

يا ضحايانا.. وعَطَّرنا السماوات أضاحي
مـا تـعبنـا.. ولـقـد كلّت ميـاديـن الكفاح
يـا روابـي القدس، لن نهدأ من ساح لساح
أو يمور الوحي في جنبيك مزهوّ الجناح
يـا روابـي القدس، لن نهدأ من ساح لساح

شاعرنــا سليمان العيسى مــن الشعراء الذين أكثروا مــن النداء والتحدي والتقريع وزرع الأمل في سبيــل القضية الفلسطينية كعقيــدة قومية لا يأتيهــا الباطل فيقول / في عيد الوحدة/ وقــد ألقيت في المهرجان الكبير /١٩٥٨/ ووردت في المجلد الأول من المجموعة الكاملة ص ٥٤٤:

يـا ليـالي الضياع والقيـد زولي
نـحـن بـاقـون وحـدة لـن تـزولا

ثم يقول:

أين أهلي في القدس فوق الضفاف
الخضر ضجّتْ في صدرهم أشواقي
أين أهلي؟ فالعيد في كل صدر
زغــردات تـضــيء في الآفــاق

فالوحدة العربية وجود قومي وسبيل إلى التحريــر وعودة القدســ إلى أهلها العرب، ومازالت القدس تشغل الإنسان العربي الذي يتــوق إلى الحق والخــير، فاعتبرها مركزا دينيا ومرتكــزا للثوابت، وذكرُ القدس يعني فلسطين ويوحي بالسيرورة التاريخية العريقة لهذه المدينة وهذا البلد الآمن، فالشاعر نزار قباني من الشعــراء المعاصرين الذين رفعوا صوتهم مــرارا وفي مواقف مصيريّة وفي كل مناسبــة أو مهرجان أو اتفــاق أو انتفاضة أو مأساة، فشغلتــه فلسطين، وذكرها مرارا وعبّر عــن غضبه وإدانته للواقع وتقريعه لما يجري ورســم طريق الخلاصــ، وورد ذكر

فلسطــين والقدس والمــدن الفلسطينية في الأعمال السياسية في /طريق واحد/ وقالها بعــد النكسة ١٩٧٦ وهي مغنــاة بصوت أم كلثوم ص ٩٢٥:

يا أيها الثوار/ في القدس، في الخليل/ في بيسان، في الأغوار/ في بيت لحم، حيث كنتم، أيها الأحرار/ تقدموا.. تقدموا../ فقصة السلام مسرحية../ والعدل مسرحية../ يمر من فوهة بندقية.. /.

نــزار قباني كان واضحا وجليّ الفكر في وقفتــه الشعرية مع القضيــة الفلسطينية، فلا يخفي قلقه وحزنــه وثورته في قصيدة /حــوار مع أعرابي أضــاع فرسه/ والفرس لدى العربي يعني الكثير من وجوده ورجولته وفروسيته وكرامته. ص ٨٤٩:

/لو أن بحيرة طبرية../ تعطينا بعض رسائلها /

/لاحترق القارئ والصفحات../ لو أن القدس لها شفة/

/لاختنقت في فمها الصلوات../ لو أنَّ.. وما تجدي (لو أن) ونحن نسافر في المأساة.. /ونمد إلى الأرض المحتلة، حبلا شعريّ الكلمات../ ونمد ليافا منديلا طُرِّز بالدمع وبالدعوات../

إنه يضع يده على موطن الجرح والداء، فيوجه صوته إلى بؤرة الحدث ومركز الخلل وهذا نراه في قصيدة /الخطاب/ التي تبوح بما تعاني القدس وحجارتها وللعنوان دلالات كثيرة ص ٨٣٧:

/لم أعد أهضم حرفا من أكاذيب أمير المؤمنين/

صارت الألفاظ مطّاطا/ وصارت لغة الحكام صمغا وعجين/ خدّروني بملايين الشعارات، فنمت/

/واروني القدس في الحلم../ ولم أجد القدس، ولا أحجارها حين استفقت/

/فاعذروني، أيها السادة، إن كنت ضحكت/

/كان في ودّي أن أبكي.. ولكنّي ضحكت../.

وقدم الشاعر نــزار القدس وقد دنست وعريــت واستبيح طهرهــا في قصيدة/ من مفكــرة عاشق دمشقي/ ولكن الشاعر يميل إلى التحريض والتلميح وإثارة النخوة وهذا شــأن الكثير من القصائــد التي نحت هذا المنحى في التعبير والتصوير إلى حد المبالغة في التصوير وهذا يتنافى مع قدسية فلسطين والقدس والمقدسات تحديداً فيقول ص٨١٦ في مطلعها:

فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا

فيا دمشق، لماذا نبدأ العتبا

ثم يقول:

سقوا فلسطين أحلاما ملونة

وأطعموها سخيف القول والخطبا

وخلّفوا القدس فوق الوحل عارية

تبيح عـزة نهديها لمـن رغبا

أيا فلسطين، من يهديك زنبقة

ومن يعيد لك البيت الذي خربا

لم يتـوان الشاعر عن التعبـير وبأشكال مختلفة ولكنه بقي في فلـك المأساة وجوهر القضية التي نعتبرها قضية قومية مصيرية تخصّ كل عربـي ومسلـم، في قصيـدة (منشـورات فدائية على جـدران إسرائيل) يقـرع ويشـير إلى جريمـة حـرق المسجد الأقصى ص ٧٧٩:

المسجد الأقصى شهيد جديد

نضيفه إلى الحساب العتيق

وليست النـار، وليس الحريق

سوى قناديل تضيء الطريق..

ويـبرز الشاعر نزار مكانـة القدس بين الشرائع السماوية، فيسكب لوعته وحزنه لما آل إليها الأمر ويخصها بالتسمية (القدس) ص ٧٧٦:

في هـذه القصيدة تخمـد لغة المباشرة، وتشع لغة صافية موحية.

بكيت حتى انتهت الدموع..

صلّيت حتى ذابت الشموع..

ركعت.. حتى ملّني الركوع..

سألت عن محمد فيك، وعن يسوع

يا قدس، يا مدينة تفوح أنبياء

يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء..

يا قدس يا منارة الشرائع

يا طفلة جميلة محروقة الأصابع

حزينة عيناك، يا مدينة البتول

يا واحة ظليلة مر بها الرسول..

يا قدس يا جميلة تلتف بالسواد

من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة؟

صبيحة الآحاد..

من يحمل الألعاب للأولاد..

في ليلة الميلاد..؟

أرى أنّ هـذه القصيـدة (القدس) من أعمـق وأبلـغ القصائد التـي توقفت عند القدس في العصر الحديـث لغنى الإيحاء وحسن الدلالـة في كل لفظة توحي بالكثير من الأسى والحسرة.

وهذا ما يجعل الشاعر نزارا يتوجه إلى شعراء الأرض المحتلة وبعنوان (شعراء الأرض المحتلـة) يحضهـم على الثبـات، وبالمقابل يُحمِّل المثقفين رسالتهم ص ٧٧٤:

وننادي: يا رب الأرباب

نحن الضعفاء، وأنت المنتصر الغلاب

نحن الفقراء، وأنت الرزّاق الوهاب

نحن الجبناء، وأنت الغفّار الوهّاب

شعراء الأرض المحتلة

ما عاد لأعصابي أعصاب

حرمات القدس قد انتهكت

وصلاح الدين من الأسلاب

ونسمّي أنفسنا كتّاب..

هنـــاك الكثير من القصائـــد التي قالها نزار في فلسطين والقدســـ والواقع العربي وستبقى شاهدا على مرحلة عصيبة رصدها نـــزار في وقتها، وبروح ثائرة غاضبة لامست ضمائر الشارع العربي بأغلبيته.

هذه القدســـ المباركة كانـــت تعيش في وجـــدان الشعراء السوريـــين الذين هاجروا واستقـــروا بالمهاجر، ولكنهـــم بقوا معلقين بالوطـــن وملتصقـــين بالقضايـــا المصيرية، وهـــذا أمرٌ نعتزّ بـــه فالشاعر الياس قنصل يقول بعد احتلال القدس /١٩٦٧/ من قبل الصهاينـــة، ويبدي ألمـــه وحسرته من مرارة الواقع:

إنا خسرنا القدس وهي وديعة

في عهدنا من سؤدد الخلّاق

ما كان من وهن سلاح ضياعها

بل من شيوع الذلّ في الأخلاق

قـــدم شعـــراء المهجر حبهـــم لفلسطين ولأمتهم وآلمهم حال القدس والأمة وتعاضدوا مع الأعيـــاد الإسلامية وجلهـــم مسيحيون وهـــذا يبرز الوعـــي والنقـــاء والتآلف فهذا الشاعر نبيه سلامة وهو مغترب من حمص يقول مشيدا بالرسول في يوم مولده:

يا من يرون القدس في أحلامهم

وطنـا يهيمن فوق التلمود

لا تستفيقوا فالحقيقة مرة

بين الحقيقة والمنام حديد

لو أقبلت دول السماء لعونكم

هبَّتْ إلى ردِّ السماء أسود

قالوا: هذا وطن اليهود وليتهم

قالوا هنا للتائهين لحود

وقد حرموا من الصلاة والزيارة والحج إلى القدس فيقول جورج صيدح في قصيدة /نكبـــة فلسطين/ ما يُؤثّـــر في النفس التي حرمت من حقها الشرعي والإنساني:

عبثا يا طيف تبلو جلدي

ليس لي بعد فلسطين جلد

وطني ماذا على النازح إن

ذكر القدس فصلّى وسجد

لطم الأعـــداء خديك ولم
يسمعوا منك سوى شكوى الوتد

وهـــذه المقطوعة مـــن القصائـــد التي شخصت القدس وقدمتها كائنا يحس ويلطم ويتألم، ويتوجـــه الشاعر جـــورج صيدح إلى النبـــي العربي محمد صلـــى الله عليه وسلم في قصيـــدة (المولد النبوي) يستغيث ويرجو الخلاص:

يــا مــن ســريـت عـلـى الـبرا
ق وجــزت أشـــواط الـعـنـان
آن الأوان لأن تجّـــدد
لـيـلـة المـعـــراج آن
عـرج عـلـى الـقـدس الشريف
فـفـيــه أقـــداســـ تـهـان
ضـــج الـحـجـيــج بـــه ورِيـــ
ـــعَ ضـريـحُـه والمـسـجـدان

بـــارك جـهـاد المـؤمـنـيــ
ـــن الـنـافـريـن إلى الـطـعـان
الـضــارعـين إلـيـك بـاسـ
ـم الآل والـصـحـب والـغـران

بهذه البساطة والصـــدق، عبر الشعراء السوريـــون في المهاجر عـــن القدس وآلامها ومحنتها، فكان صوتهـــم صوت الحق بعيدا عـــن المبالغـــة والتكلف وهنـــاك الكثير من القصائد والمقطوعـــات التي يمكن التوقف عندها، فاكتفيت بما يدل ويوحي، وقد مالت القصائـــد إلى الاهتمام بالحدث والمضمون الذي شغلها أكثر من اهتمامها بالجانب الفني لدى بعض الشعراء، ومن الشعراء السوريين الذين أكثروا من التعاطف مع قضية فلسطين الشاعـــر جاك صبري شمـــاســـ، وربما يكون أغـــزر شاعر في معالجة قضية القدس وقد خصهـــا بعناوين دواويـــن /عروس المدائن/ وبقصائد مختلفـــة منها (الأقصـــى يناشد ضمائركم) و(القدس للعـــرب) و(واقدساه) و(الجهاد المقدس) و(القدس عروس المدائن) و(المسجد الأقصى) وغيرها الكثير، وفي كل كلمة يسكب ألمـــه ويدعو إلى اليقظة ونصرة فلسطـــين ويستدعي الأبطال كصلاح الدين ويذكّر بالمقدّسات، وفي هذه القصائد يتجلّى صدق الإحساس وعمق المعاناة ونبل المقصد وســـوف أكتفي ببعضـــ الشواهد مما قلته، في قصيـــدة (الأقصى يناشد ضمائركم) من ديوان (الحب النبيل) ص ١٣:

أيهوّد الأقصى الحبيب يهود
وبنو العروبة في الخطوب قعود
والجامع الأقصى رهين شراذم
تلهو وتعبث بالتقى وتسود

ماذا أسطّر؟ يا صلاح الدين قم
جثمت على صدر النخيل قيود
قم يا صلاح الدين وابعث نخوة
ليصول في ساح الجهاد أسود
وتؤوب للأقصى نضارة وجهه
ويفيء في القدس الحبيب خلود

إحساس الشاعر يتنامى مع أهمية الحدث، وهل هناك أقسى من معاناة القدس ومقدساته فيقول في قصيدة (واقدساه) المنشورة في ديوان (قصائد حب) ص ٨٥:

شموخك يا حبيبة ذو جلال
وطهرك ليس يُحصَرُ في مقال
فلسطينية شمخت وقارا
بأقدس موطن وأعز آل

ثم يشير إلى مقدساتها وما تكابده، وبلغة مؤثرة:

وذاك الجامع الأقصى منارة
ومعراج النبي إلى المعالي
أيسلُبُ غادرُ محرابَ قومي
وقومي أدمنوا عقم الفعال
ولو نادى قصيدي صُمَّ صخر
سمعت الصوت في ثغر الجبال
أيسلو مؤمن طهر الروابي
وأقدسَ بقعة ذات الحلال

ويلتفت الشاعر إلى واقع العرب والمسلمين وما جرى من مصائب دفعت ضريبتها القدس، فينادي وبصوت يكشف عما يعانيه من لوعة وأسى وذلك في قصيدته (القدس عروس المدائن) والمنشورة في ديوانه (عروس المدائن) ص ٣٢:

يا أمة الإسلام، ما جدوى امرئ
خلع الوقار معفّرا بتراب
فالقدس تزحف في رباها أرقم
والشعب يلظى من سياط عذاب
والجامع الأقصى سجين عصابة
عصفت بكل مبادئ وعقاب
والمسلمون مدى المدائن والقرى
شلوٌ تبعثر في فضاء مصاب
يا قدس ماذا تستعيد بلاغتي
والأهل طعمُ صوارمٍ وحراب
ماذا تفيد عروبة بثرائها
وضميرها رغم الغنى كسراب

وتبقى هذه القصائد شاهدا على مراحل عصيبة، وهي تؤرخ لوجع دفين راح يوخز بسطاء الناس الذين يرون في القدس شقيقة لمكة ويذكرونه في كل مناسبة دينية فالشاعر عبد الباقي عبد الباقي في مجلة نهج الإسلام العدد /٩٩/ ٢٠٠٥ وبمناسبة الإسراء والمعراج يبوح ويذوب شوقا وألما، وتتنابه الحسرة:

إسراء أحمد في دجى الظلمات
زكّاه رب الخلق في الآيات
سبحان من أسرى بخير عباده
ليلا إلى الأقصى وفي العتمات
فالمسجد الأقصى -تبارك ربنا-
قد خصه بالخير والبركات
ليكون مسجده وأول قبلة
ويكون قدس الأرض والروضات
ليكون للأديان مهدا للتقى
ومُجمّع الإيمان والرحمات

ثم يقول متحسرا:

والمقدس المعمور معرج أحمد
مهد المسيح يئن بالويلات
عذرا رسول الله، إن جموعنا
لم يعملوا للنصر والعزمات

ولا تستطيع الشاعرة نجوى صالح هنداوي إخفاء حزنها وتضرعها لله وهي تؤدي فريضة الحج فاستحضرت القدس وما تعانيه فتقول: مجلة الحج والعمرة تشرين الثاني ٢٠٠٤ وعنوان القصيدة (الأنوار المكية) ص ٨٦:

سار الحجيج وفاضت الدمعات
بأريج مكة طابت النسمات

ثم تقول متوسّلة:

يا ربنا أصلح جنوح نفوسنا
فاض الهوى، وتوالت الزلات
يا أمتي، ضمّي الصفوف توحّدي
هذا العدّو وراءه النكبات
فالقدس جرح قد توالى نزفها
في كل يوم للعلا هامات
فانصر إلهي كل حر صادق
أنت المجيب، وللقضا ساعات

في هذه الساعات المباركة عاشت الشاعرة محنة الواقع الإسلامي ورأت ما تكابده القدس، فالتجأت إلى الله بصدق وصفاء كَشَفا عمق الإحساس.

ولا يرى الشاعر مصطفى أحمد النجار في ديوانه (غنائيات عصرية) سوى الهم الإنساني وكان للقدس أكثر من قصيدة وذكر فيقول في قصيدة (فلسطين أم السيوف) ص ٨٣:

سلاما فلسطين أم السيوف
كتابا يعلّمنا الأبجدية
سلاما فلسطين أم الضحايا
وتبقين في القلب جرح القضية
سلاما عليك من الشعر كم
تستمد القصائد منك الحمية
ستبقين، والقدس رمز نهوض
وتبقين في القلب وهج القضية

وتأتي الذكرى الخمسون لنكبة فلسطين وما تحمله من آلام وصور مأساوية توحي إلى الشاعر عبد القادر الحصني في قصيدته (الضجيج) وقد وردت في كتاب (منتخبات شعرية) صدر عن اتحاد الكتاب العرب، وفي القصيدة استحضار للشهيد ص ٢٢٢:

سيحضر متشحا بالجبال ومؤتزرا بالسراب/ ويحضر بين يديه الجدود/ وسوف يكون شهيدا عليكم/ فما جاء إلا ليشهد هذا الشهيد/ سلام عليه/ سلام على الزعفران المندّى على شفتيه/ على القدس تهرق نور الألوهة في مقلتيه/ على قبة الصخرة المستريحة في راحتيه/ له يزدهي البيلسان/ ويأتلق المهرجان/ ويبتسم الأقحوان/ ويعبق في الأمسيات الأريج/ لعل شفيفا من الحزن يملأ قلب المكان/ فيخجل منه الضجيج../ ثقيلا يمر الضجيج/.

ويهمس الشاعر عبد الرحمن عمّار بلغة شفافة تعبر من خلالها أرقُّ المعاني لتشكل رافدا من روافد الحب المدعم بالعبق الروحي تجاه القدس في قصيدته /يا.. ناي مدي الصوت/ من ديوان (طيور اليمام) ص ٢٦:

يا ناي كوني الموج يحملني
ويمّدني بالحلم ناهده
للقدس أقصاه، فلا سكن
إلا بما نبضت مساجده
مرموز أمته منارته
وحنين ماضيه يناشده
سبحان من أسرى بسارية
للحق، بارقُةُ قلائدُه
من أجله انتفضت حواضره
ومضى إلى الأقصى مجاهده

هذا الدفء اللغوي يقابله حب وإيمان تجلّيا أيضا في قصائد الشاعر جلال قضيماتي وقد ذكره غير مرة ولكنه خصه بقصيدة حملت عنوان (القدس) من ديوانه (معارج الطين) واستنطق القدس وشخّصها فراحت تبث لواعج همومها وأساها ص ١٣٨:

ماذا أقول إذا عاد الربيع، فلم
يبصر سوى الريح والأشواك في طرقي؟
ترى، أقول: مضى من كان يغمرني
بالدفء والخير في ذاك المدى الأرق
ماذا أقول: أجفّ النهر أم حبست
عني السماء فعاث القحط في أفقي
أنا السجينة، لا أهل ولا وطن
مضى الجميع سوى الآلام والحرق

تحت الخيام أرى في كل منعطف
ظلَّ التشرد والأوهـام والقلق

ثم يجيبها الشاعر مُطمَئِنًا ومُطَمئناً:

مدينةَ الصحو، ما جفّت مرابعنا
لك الحياة برغم الموت والأرق
سترجعين إذا عاد الربيع ندى
يهمي على السنبل النامي، على الشفق
غـدا سيفتح (نـوار) أضالعه
وينقذ الكون من سرباله الخلق

أحســن الشاعر لغة الخطــاب واعتمد على التلميح والترميز بعيدا عن المباشرة ولم يخف الشاعر مطيع إدريس تفاؤله في عودة القدس إلى مكانتها وأهلها، وقد توجه إليها ثلاث مرات في ديوانــه (لن ينتهي الإبحار) فيقول متفائلا بالشعب الفلسطيني الصامد ص ٣٣:

هو الشعب الفلسطيني/ هو الآتي/ على صهوات يرموك وحطين/ هـو الحجـر المغير../ كل كفات الموازين/ غدا ستؤوب أسراب الحساسين/ غدا يا قدس../ تسقط كل أوكار الجوارح والغرابين/ غدا سيعود للأقصى/ بلال كي يؤذن للملايين/.

فالشاعــر مطيــع إدريــس تجــاوز لغة التقريــع واتجه إلى الأمــل وزرع الثقة بالله والشعــب وهذا منحــى تجــاوز البكائيات والاستســلام، فتشرق لغته كما يشرق عنوان الديوان وعنوان القصيــدة التالية (إشراقة الغضب) فيخاطب القدس ويضمّدُ جراحها بلغة تتماوج بين الرقة والعنف ص ١٣:

صبرا يا قدس على ليل/ وحشيٍّ سوف يبدده/ إشراق من شمس نهار/ من فجر ولادة حطين/ وسنا اليرموك وذي قار/ من دفق دماء ترشفها أعراق تزفر كالنار/ تتحدى مدية جزار/ فالمجد لأطفال الأقصى/ ولكل أباة أحرار/

وللشاعر مصطفى بدوي قصيدة موحية تحملها لغة راقية وخيال مرهف بالإحساس (أغنيــة للقدســ) من ديوانــه (متعب وجه المرايــا) فالشاعــر يطلق لشاعريتــه ورؤاه الأمــل فيتوجه إلى القدســ ملامسا وجعها ص ٢٧:

بكل انعطاف الرؤى إليك/ أرى المستحيل/ هـو الحب اجترح المعجزة/ وأسبر غور الزمن/ وأقتات بالأمل المرتجى/ وأصعد نحوك نسرا عزيز الجناح/ أنا الوجد والتوق والذكريات/ توغّلتِ في الجرح مني/ وأسرجت نحوي الرياح/ وهذا جناحي/ وصوتي الذي ما احتواه المدى/ رجوتك/ يا سدرة المنتهى/ بذلتُ لك القمح والأوردة/ ورحت أصلّي.. أصلّي/ أرشّ التعاويذ فوق

الحصار/ لعل السبيل إليك تلين/ وينبض بالحب قلب الصغار.. /

أرى قصائد التفعيلة عالجت قضية القدس بلغة موحية وبرؤية هادئة ومشعّة مزجت بين الواقعي والفني وتجاوزت لحد بعيد لغة الصفع والتقريع، وإن مالت إليها فإنها أحسنت التوظيف، فالشاعرة الطبيبة لميس حجة في ديوان (نشيد المحبين) وفي قصيدتها (القدس والمسكين) تبدي ألمها وتحدد مسؤوليتها أمام مدينة لها قدسيتها ومكانتها ص ٦٥:

لو أعترف/ أكبر مني هذا الشرف/ أكبر مني أنت يا قدس/ أكبر من عثرات مرامي/ أكبر من صمتي وكلامي/ أرفع من قدري يا قدس/ كيف يا قدس/ كيف سأقف/ قرب جلال الموت حين ترحّل/ يستأذنك ببعض/ شبابكْ/ كيف يا قدس، كيف سأنجو؟/ والمهد مسيح يبكي/ آه يا قدسي/.

وكان للقدس نصيب في شعر الشيخ المرحوم محمد جميل العقاد والديوان حققه وجمعه الأستاذ محمد عدنان كاتبي.

والشيخ جميل العقاد عبّر ببساطة وعفوية وبلغة بعيدة عن التعقيد وهي أقرب إلى النثرية يتوجه بها إلى المسلمين والعرب لإنقاذ القدس وتطهيرها ص ٢٩٤:

أنقذوا الأقصى وصونوا قدسه
ثم صدّوهم، عليهم كبّروا
فهمُ وهمٌ، وما همْ بالذي
تحسبوهم أنهم قد كثروا

وفي قصيدة (يا رمال القدس) يشيد بالصمود ورجال القدس ص ٤١٧:

أقوس النصر أم فوز مبين؟
حازه الأبطال في القدس الأمين
مهروا القدس نفوسا حرة
إنهم في الحرب حقا ماهرون
أنت يا قدس تراث خالد
وستبقى رمزنا في الخالدين
صانك (الفاروق) لما قد أتى
وبنوه ستراهم حافظين
يا رجال القدس أبطال العرين
إن تصونوا القدس تضحوا مالكين

من الطبيعي أن نجد التفاوت في مستوى النصوص، وأن تتمايز القصائد وتختلف الأساليب لأننا أمام موضوع مشترك يهمّ عامة الناس على مختلف تكوينهم وطباعهم ورؤيتهم فيشفع لهم نبل المقصد.

فالشاعر عبد الله يوركي حلاق يأبى السكوت والخنوع، ويشتاق للوثوب والمواجهة من أجل تحرير القدس وقد ألقى قصيدته (طفل فلسطين ثائر) في المؤتمر الأمريكي

العربي في فنزويلا ونشرت في ديوانه (عصير الحرمان) ص٨٧:

بيت لحم ولد الفادي بها
وجبال القدس معراج النبي
أوَ نرضى أن نراها مسرحا
للبغايا وعبيد الذهب
نحن في شوق إلى وثبتنا
يا جبال القدس ثوري واغضبي
ألف شعر لا يوازي طلقة
أفرغت في مهجة المغتصب
أين ترب القدس، هل تلثمه
شفتي في غدنا المرتقب
جدّتي قالت: إذا لم ترجعوا
وطني حَلّ عليكم غضبي

وللشاعر محمد منذر لطفي عدة قصائد يتغنى بها بأمجاد القدس ومكانتها ويدعو لنصرتها من خلال فرحته وتمجيده لحرب تشرين في مجلة نهج الإسلام العدد /٩٣/ ٢٠٠٣ يقدم ثلاثة مقاطع من كتاب تشرين جاء منها ص ٨٨:

تشرين أيقظت فينا ذكرياتِ علا
عاشت مع الدهر نبراسا ومعتقدا
أنت الذي رد للساحات هيبتها
أنت الذي منح الجلّى يدا ويدا
لا يُرجِعُ القدسَ إلا الساحُ يا وطني
فهاته فكرا ثوريا جددا
فلا يخفك (بقدس العرب) مغتصب
ولا يروعك ما أخفى وما حسدا
فهذه ثورة الأحجار شاهدة
أن الطفولة أمضى همة ويدا

وإني لأعتز بانتمائي العربي الإسلامي وأجل المقدسات، وقد حظيت فلسطين والقدس وما انتابهما من نكبات وأحداث بالكثير من قصائدي التي نشرتها في دواويني والمجلات وحظي بعضها بالدراسات فقد كتب الكاتب أحمد حسن الخميسي مقالة نشرت في مجلة صوت فلسطين العدد /٣٧٣/ ١٩٩٩ أخذت عنوانا (قضية فلسطين في ضمير الشاعر محمود محمد أسد) ولي شرف النشر في أغلب الدوريات العربية عامة والفلسطينية خاصة ومما قلته:

يا قدس كم عبث الأعداء كم هتكوا
والناس في نفق والحق كالزبد
بحر من الحزن والأرواح هائجة
نزف من الدمع لم يفلح ولم يعد

وأقول:

القدس نامت على ذل وقد وقعت
في الأسر، هل من رجال فيهم ذمم؟



وا لوعتي نحن أمسينا بلا أمل

أمات حسٌّ لنا أم أننا عنم؟

هبوا لإنقاذ شعب في العراء أوى

لحافه الثلج والأحلام تنهزم

وهناك قصيدة بعنوان (للقدس اعتذار) جاء فيها:

فالنائحات صراخُهنَّ مبدّد

والعرض يهتك، والغيور سقيم

القدس ما عادت عروس عروبة

والمسجد الأقصى سباه الروم

تأبى العروبة أن يكون سلاحنا

صبرا، فحمل الخانعين عقيم

أحببت نبض عروبتي ورجالها

إن المحب بمن يحب يهيم

وكذلك يتوجه الشاعر عبد المجيد عرفة إلى القدس في قصيدته (من وحي الإسراء والمعراج) في مجلة صوت فلسطين ك٢/ ٢٠٠٠/ وفيها ملامسة حارة للقضية:

وسمعت في الأقصى نداء (محمد)

عبر المآذن في أرقّ نداء

يا أمتي، وأنا الفداء لمقدسي

إن لم يعد بين الرجال فدائي

وخجلت من نسبي لدين محمد

وتفاخري بالأمة العرباء

يا صاحب المعراج هل من نظرة

للمسجد الأقصى وذاك رجائي

لنرى جسوم المؤمنين وقد بدت

مزقا على المحراب والأرجاء

يا أيها الفاروق هذي قدسنا

ترنو إليك بحسرة وبكاء

عبث الطغاة بها، وداسوا موطنا

رحل الرسول إليه في الإسراء

والمسجد الأقصى الطهور وقد أتى

شارون يدخله بنعل حذاء

أوردت الكثير من القصائد والشواهد التي تبرز مكانة القدس ومعاناتها فكانت القصائد صورة عن واقعها وواقع العرب فارتفعت الأصوات بالشكوى والألم والتذكير والتضرع والتقريع.. وبعضها همس بلغة شعرية راقية وكلهم يشفع لهم سمو المقصد، هناك قصائد كثيرة لم أستطع ولن أستطيع حصرها ولكنني اكتفيت بما يعبّر ويؤدي الغرض إلى حد ما، وهي قصائد لشعراء معروفين لهم مكانتهم الشعرية البارزة ولشعراء مغمورين ولمدارس مختلفة من الشعر القديم والحديث ولشعراء مسلمين ومسيحيين ولشعراء سوريين مقيمين في سورية ومغتربين وهذا كله لم يكن إذا لم يجدوا

للقدس هذا الموقع الهام من القلوب والأرواح فكانـت القصائد على مختلـف مستوياتها وتوجهاتها تنبض بالإحساس والصدق وتمور بالقلق وترفرف للخير والأمل..

المراجع:

- دواوين الشعراء التي ورد ذكرها في الدراسة.
- الدوريات العربية التي ورد ذكرها في الدراسة.
- الاتجاه القومي في الشعر الحديث د. عمر الدقاق.
- أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية جورج صيدح.



الدراسات والبحوث

التراث العربي المخطوط في بيت المقدس

إياد خالد الطباع*

إنّ المخطوطات عند أيَّة أمة هي الذاكرة المخطوطة للأمة، إذ تكون ذاكرة صخرية منحوتة، أو جلدية، أو بردية، أو ورقية.

وتُعدّ مخطوطات العرب المسلمين واحدة من أكبر مدونات ذاكرة هذه الأمة، فهي نتائج لعبقرية التدوين، والتي تجلت بتدوين القرآن الكريم، في لحظة مشقة من ذاكرة الإنسانية، ثم عصر التدوين لكل آدابهم وعلومهم، وهو نفسه عصر النهضة والتذكر والسيادة العربية.

وأيّ معركة للعدو أفضل من المعركة مع ذاكرة الأمة المدونة في سجلات

* باحث في التراث العربي



الذاكرة الخارجية؟ خصوصاً في فترة مرض هذه الأمة وإصابتها في الرأس، أو في الذاكرة الداخلية بتعبير آخر.

• تراث فلسطين المخطوط:

كانت المكتبات الأولى التي عرفتها فلسطين هي:

- مكتبات الأديرة المسيحية، وكان بعضها موجوداً في فلسطين قبل دخول الإسلام إليها.
- مكتبات الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا بعد الفتح العربي الإسلامي، وأقدم مكتبات المدارس مكتبة دار العلم الفاطمية في القدس التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القرن الخامس الهجري، على غرار مكتبة دار العلم الفاطمية في القاهرة.
- المكتبات الخاصة لدى الأفراد من العلماء ثم العائلات.
- المكتبات العامة، وقد ظهر أولها عام ١٩٠٠، وهي المكتبة الخالدية بالقدس.

وثمة جهود كثيرة بذلت في إنشاء مجموعات للمخطوطات في مؤسسات عديدة، تحتاج إلى تاريخ خاص بها، ومن الممكن أن نذكر في هذا السياق، ما قام به أحمد باشا الجزار في نهاية القرن الثامن عشر حين أنشأ في مدينة عكا ثلاثة آثار، هي المسجد، والسبيل، والسوق، وكان بالمسجد مدرسة، ومكتبة، ولم يبق من المدرسة سوى الأثر، أما المكتبة، وتسمى بالأحمدية، فما تزال بعض محتوياتها من المخطوطات موجودة حتى اليوم، وبعضها يحمل توقيع الجزار نفسه، وحظيت هذه المجموعة بفهرس مطبوع، هذه المجموعة موجودة الآن في الأرض المحتلة عام ١٩٤٨.

وفي بدايات القرن العشرين اهتم المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بإنشاء اثنين من دور الكتب الإسلامية في المناطق الفلسطينية، وهي:

- دار كتب المسجد الأقصى.
- دار الكتب الإسلامية في يافا عام ١٩٢٣، وهي مجموعة مخطوطات حفظت في مسجد النزهة في يافا، وتركت منسية، عددها ٣٣٩ مخطوطة، تمّ تصويرها على ميكروفيلم، وحفظت المخطوطات في مكتبة النادي الإسلامي في يافا، ومعظمها بالعربية، وقليل منها بالتركية، وأربع منها بالفارسية، ويعود أقدمها إلى القرن السابع الهجري.

وابتليت فلسطين بهجمة الصهيونية التي جمعت كل خصائص الاستعمار وفلسفاته، فكانت ضربة قاصمة للعالم العربي كله ما يزال يستشفي من آثار تدهور الدولة العثمانية والتخلف السياسي والاجتماعي والعلمي، ومن جروح الاستعمار الذي التهم غنائم السلطة الراحلة.

وحلـت الكارثة في عـام ١٩٤٨، فاحتلّ الصهاينة معظم فلسطين، ويمكن أن نلخص ما حدث في ما يلي:

١- سقطت في أيديهم مئات من المكتبات العامة وآلاف من الكتب والمخطوطات.

٢- دمَّروا كثيراً مـن المكتبات تدميراً كلياً نتيجة الحرب.

٣- سرقوا الكثير من المكتبات، ونهبوا ما فيها.

٤- صـادروا المقتنيـات التراثيـة في المدينـة المقدسة. ومنذ احتـلال الصهاينة للقدس عملـوا علـى سلـب المخطوطات والوثائق المتعلقـة بالقدس الشريف خاصة؛ تمهيـداً للاستيلاء عليـه في غياب الذاكرة العربية.

وقـد تمَّ إنقـاذ عدد ضئيـل من الكتب والمخطوطات التي نقلت بعد عام ١٩٤٨ إلى المدن الفلسطينية.

وإثـر حـرب ١٩٤٨ تعرضـت كثـير من المؤسسـات العربيـة الإسلاميـة وغيرهـا للتخريب والإهمـال، وسقطت مدن عربية هامة، مثل عكا ويافـا وغيرهما، وبما فيها مـن مخطوطات في يد الدولـة الصهيونية، وعلى الرغم من وجـود هذه المكتبات حتى في عكا ويافا، فقد نهبت إسرائيل منها قدراً كبيراً.

وكانت أول سرقة بعد ١٩٤٨ في فلسطين المحتلة، والثانية بعد نكسة ١٩٦٧ في الضفة الغربية وغزة، وبـدأ التطاول على مكتبات القدس الشرقية، ومنها المكتبة الخالدية.

وهكـذا لقيـت المخطوطـات على يد الصهاينة أنواعاً من العدوان تمثلت في:

- الإحراق والتدمير.
- النهب والاغتصاب
- التدخـل في تحقيـق بعضـ هذه المخطوطات بشـكل انتقائي، يخدم أهدافاً صهيونية كما سنرى.
- منع السلطـات الإسرائيلية ترميم المخطوطـات الإسلامية التـي يخشى أنها تتعرض للتلف يوما بعد يوم.
- إفقـار الشعـب الفلسطيني حتى أصبحت حالة كثير من المخطوطات في مكتبة المسجـد الأقصى ولدى كثـير من العائلات سيِّئة جداً، تعاني من سوء التخزين، ونقص الخبرات المؤهلة في المكتبات، وتهالك الأبنية، وكثير من المصائب الأخرى التي تترتب على الفقـر والتجويع والإحباط، تلك التي تدمر الإنسان والبيئة والذاكرة.

• المكتبة الخالدية[×] في القدس:

تقـع في طريق بـاب السلسلـة بالبلدة القديمة، وهـو من أبواب الحـرم الشريف الرئيسة، وهي على بعد مئة متر من الحرم،

كما تطل على حائط البراق (وليس حائط المبكى، كما يقول الصهاينة، وينقل عنهم العرب !).

وتعود النواة الأولى لهذه المكتبة إلى وقف للقاضي طه بن شرف الدين الخالدي عام ١٦٦٠، ثم تابع وقف الكتب محمد صنع الله الخالدي، منذ عام ١٧٢٠، وتراكمت عليها مجموعات من المخطوطات من أفراد الأسرة، من اختيار مشايخ العائلة جيلاً بعد جيل، كما ساهمت فيها بعض سيدات الأسرة بشراء مجموعات من المخطوطات وجعلتها الأسرة مكتبة عامة منذ عام ١٩٠٠، وخصص لها إيراد من أوقاف العائلة بالقدس.

وتوجد المكتبة الخالدية في مبنى أثري قديم، هو ثاني أقدم بناء مملوكي في المدينة المقدسة، وهو مقبرة لثلاثة من الأمراء الخوارزمية الذين جاؤوا لمحاربة الصليبيين، أولهم الأمير حسام الدين بركنخان، المتوفى في ٦٤١هـ. بعض أبنائه قد بنى مقر المكتبة عام ١٨٩٨ مكان بناء متهدم ملاصق لهذه المقبرة، وتشمل مجموعة المكتبة دوائر هامة من التراث: تراث القدس وفلسطين الحالي، ثم التراث العربي الإسلامي، في دوائر متسعة.

وتضمّ المكتبة أكبر مجموعة من المخطوطات العربية في فلسطين، تصل إلى ألفي عنوان تقريباً، إلى جانب عدة آلاف من الوثائق وغيرها، اكتشفت صدفة عام ١٩٨٧ تحت السقف القرميدي للمكتبة، أثناء عمليات الترميم، وبعضها وثائق رسمية عثمانية وأوراق شخصية.

وقد افتتحت رسمياً بكونها مكتبة عمومية عام ١٩٠٠ وطبع لها في العام نفسه فهرس بعنوان «برنامج المكتبة الخالدية العمومية» صنفه أبو الخير محمد الحبال البيروني مولداً (يلاحظ أن كلمة برنامج استخدمت قديماً بمعنى فهرس، ومنها برنامج الشيوخ مثل برنامج المجاري.. إلخ).

وكان عدد المخطوطات آنذاك ٦٨٠ مخطوطاً إلى جانب مئات من الكتب، ثم ضمت إليها في ما بعد مكتبات آل الخالدي الخاصة في موجات متتالية.

وبعد النكسة ١٩٦٧، واحتلال إسرائيل لمدينة القدس، تعرضت المكتبة لمحاولات متكررة من الإسرائيليين المحتلين للاستيلاء عليها.

وقاد غورين كبير حاخامي الجيش الإسرائيلي سابقاً حملة ضارية للاستيلاء على المكتبة، واحتل الطابق الأعلى فوقها، وجلب عدداً من تلاميذ مدرسة ياشيفا التلمودية، التابعة لحركة يهودية من الغلاة، تحت شعار إعادة بناء الهيكل في ساحة الحرم القدسي الشريف، وتصدرت له لجنة عائلة الخالدي عام ١٩٨٢ وجمعت هبات

من العرب والمسلمين والفلسطينيين وتحركت على محورين:

الأول: اللجوء إلى المحاكم المحلية لدرء أضرار الحاخام.

والثاني: ترميم المكتبة وما تحتويه من كتب.

وبعد فشل الحاخام في الاستيلاء على المكتبة بدأت محاولات بلدية القدس للاستيلاء عليها، وكذلك بدأت مضايقات الجيش الإسرائيلي والمستوطنين المسلحين، وتصدرت لهذه المحاولات الآنسة هيفاء حيدر كامل الخالدي (ت ١٩٩٣)، حتى صدر إذن من البلدية بالسماح بترميم المكتبة.

وفي عام ١٩٨٩ سجلت جمعية أصدقاء المكتبة الخالدية في الولايات المتحدة، وانضم إليهم بعض كبار المستشرقين في الولايات المتحدة وأوربة.

وأصدرت جامعة كولومبية في نيويورك دراسة كتبها الدكتور رشيد إسماعيل الخالدي، عن محتويات المكتبة الوثائقية حول الهوية الوطنية الفلسطينية في كتاب بالإنكليزية صدر عام ١٩٧٧.

ومن خلال قصة المكتبة يمكن أن نبرز أوجه الصراع والمقاومة ضد الاحتلال الصهيوني في ما يلي:

- استمرار اهتمام أهل القدس عبر القرون بالعلوم الدينية والتراث الإسلامي.
- إنشاء المؤسسات العلمية بجوار الحرم الشريف، وإدراكهم لوجوب تثبيت وجودهم من خلال مؤسسات علمية مجاورة للحرم.
- دور الأوقاف الإسلامية.
- القدرة على الصمود، على الرغم من كل ما تعرضت له بعد تشتت معظم أفراد العائلة، منذ أحداث عامي ١٩٤٨ – ١٩٦٧ المحزنة. ولم يبق منهم في القدس سوى عدد قليل.
- منذ عام ١٩٦٧ استولت إسرائيل على أوقاف عائلية عديدة مما قضى على معظم مصادر الإنفاق على المكتبة.
- كما بدأت منذ عام ١٩٦٧ محاولات الاستيلاء على الطابق العلوي من المكتبة ثم اتجهت إلى الطابق الأرضي، حيث توجد خزائن المكتبة، واستمرار ذلك أكثر من عشر سنوات.
- لجأت أسرة الخالدي إلى المحاكم، وأسست جمعية أصدقاء المكتبة وجمعت التبرعات لرعايتها وترميمها.
- ومن أهم عوامل المقاومة والاستمرار إتمام وضع فهرس جديد بمقتنياتها، بعد أن كان لها فهرس صدر عام ١٩٠٠، وفهرس آخر مخطوط باليد.
- وقد بدأ وضع الفهرس الجديد منذ عام ١٩٨٥ وهو الآن على وشك النشر، وتقوم

بنشره مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، صنفه الدكتور نظمي الجمعة من جامعة بيرزيت الفلسطينية.

- كما بدأ ترميم المخطوطات ومنذ عام ١٩٩٥ بدأت أعمال ترميم مبنى كبير من أوقاف العائلة في الجهة المقابلة لمبنى المكتبة، ليصبح ملحقاً توضع فيه الكتب المطبوعة ولتبقى المخطوطات في المبنى القديم.

- وتلقت المكتبة معونات من اليونسكو والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي ومن المملكة الهولندية إلى جانب معونات أهلية.

- في العام (٢٠٠٠) تحل الذكرى المئوية للمكتبة وسوف يكون نشر الفهرس الجديد مظهراً من مظاهر الاحتفال بها.

- ويقوم الدكتوروليد الخالدي المقيم في كمبردج ماشوسيتس (الولايات المتحدة) برئاسة مجلس أمناء جمعية أصدقاء المكتبة. وهو مصدر أي باحث لمعظم المعلومات حول المكتبة.

- وفي قصة هذه المكتبة تتكامل الجهود الخلاقة للعائلة والفرد. وتتجلى أصالة التاريخ الضارب بعمق الأرض.

- ومن الجدير بالذكر أن أحد أفراد هذه الأسرة، وهو يوسف ضياء الدين الخالدي، أرسل إلى تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية رسالة في مارس ١٨٩٩ عبر صديق هرتزل، وهو كبير حاخامي فرنسا (صدوق كاهن) يحذره فيها من مجيء اليهود إلى فلسطين، ورد عليه هرتزل في أربع صفحات بالفرنسية، يقول فيها: إذا لم يوافق السلطان عبد الحميد على المخطط، فإن الصهيونية ستتوجه إلى بلد بديل غير فلسطين. وربما كانت هذه الرسالة هي الوحيدة الموجهة من هرتزل إلى شخص عربي.

بعض مظاهر الصحوة:

حتى عام ١٩٤٨ كان التعريف بالمخطوطات في فلسطين نادراً وفي أوائل الثمانينيات من القرن العشرين نشط الفلسطينيون للعناية بتراثهم، بعد أن انشغلوا بالسياسة طوال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات.

وقد ساعدهم على الاهتمام بالمخطوطات من أوائل الثمانينيات بعض الجامعات الفلسطينية، مثل جامعة النجاح الوطنية في نابلس، وجامعة القدس العربية في قرية أبي ديس، على أطراف القدس الشرقية القديمة، وكانت تنفق عليها الكويت منذ نشأتها حتى فترة متأخرة.

وأسهم مجمع اللغة العربية الأردنية والجامعة الأردنية ومؤسسة آل البيت في عمان، ثم مؤسسة الفرقان في لندن، في نشر فهارس للمخطوطات في فلسطين.

وبعد أوسلوا وفي عهد السلطة

الفلسطينيــة أنشئــت وزارة للثقافة في رام الله وبهــا إدارة عامــة منبثقة عــن الوزارة للمكتبــات والمخطوطات، وهــي التي تتابع الآن أعمــال حصر المكتبــات الفلسطينية، وتزويدها بــالأدوات والإمكانيات، وتصوير المخطوطات ونقل المصورات خارج القدس.

كما أنشئــت في بيت المقدس عام ١٩٨٣ مؤسسة إحياء الــتراث والبحوث الإسلامية ، لحماية المخطوطــات مما تعرضت له من خطر الحروب والنهب.

ويقدر تقرير هذه المؤسسة أن مخطوطات فلسطــين كانت نحو خمسين ألف مخطوطة أصلية، لم يبق الآن إلا نحو ثمانية آلاف.

وقد جمعت مؤسسة بيت المقدس ستمئة مخطوطــة أصليــة، نحــو ٣٥٠٠ مخطوطة مصورة، ونصف هــذه المخطوطات مصاب بالأرضة وبالرطوبــة لسوء حفظها، وتحتاج إلى فهرسة.

ولعلَّ من أهم علامــات الصحوة حصر مجموعــات المخطوطــات في فلسطــين، وقــد أصــدرت الإدارة العامــة للمكتبــات والمخطوطــات بــوزارة الثقافــة بالسلطــة الفلسطينية في حزيران ٢٠٠٠ دليلاً لمكتبات المخطوطات ومراكزها في فلسطين، حصرت فيــه اثنتين وعشريــن مكتبة، وقــد أعدته الإدارة، استجابــة لطلب أ.عصام الشنطي، وقــد استعانت بمصادر أخــرى للتدقيق في هــذا الحصر ، فوصل العدد إلى ٢٧ مكتبة، منها اثنتــان توجدان في فلسطــين المحتلة عام ١٩٤٨، وهما المكتبة الأحمدية في عكا، والإسلامية في يافــا. وكان أهم مصدر هو قائمــة بفهارســ المخطوطات صــادرة عن مؤسسة آل البيت بالأردن.

وفي ما يلــي قائمة بما أمكن حصره من هذه المكتبات:

- مكتبــات المخطوطات في فلسطين التي أمكن حصرها

مكتبــات في المناطق تحت يــد السلطة الفلسطينية:

في القدس (المدينـة القديمـة) الشرقية:

١- المكتبــة الخالديــة (لهــا فهارس مطبوعة، وفهرس حديث قد طبع الآن عام ٢٠٠٠).

٢- دار إسعاف النشاشيبي (في القدس الشرقية، ولكن خارج السور)

٣- مكتبة الخطيب.

٤- المكتبة البديرية (لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٧)

٥- مكتبة المسجد الأقصى (لها فهرس مطبوع من ثلاثة أجزاء)

٦- مكتبة الأنصاري.

٧- مكتبــة جامعــة القدســ (صدر

فهرس لمكتبة الدعوة وأصول الدين بجامعة القدس)

٨- مكتبة مؤسسة إحياء التراث (تابعة للسلطة الفلسطينية) وهي مصورات وقليل من الأصول.

٩- مكتبة إسحاق موسى الحسيني (لها فهرس بخط اليد ١٩٧٥)

١٠- مكتبة جمعية الدراسات العربية

في نابلس

١١- مكتبة نمر النابلسي (لها فهرس مطبوع ١٩٨٣).

١٢- مكتبة مركز التوثيق والمخطوطات (في جامعة النجاح).

١٣- مكتبة تفاحة (لها فهرس) ولها مصورات في جامعة النجاح.

١٤- مكتبة آل الجوهري (أو المكتبة الجوهرية) لها فهرس مطبوع عام ١٩٩٠.

١٥- مكتبة القمحاوي لها فهرس مطبوع عام ١٩٩٢.

١٦- مكتبة الصمادي لا فهرس.

١٧- مكتبة بلدية نابلس العامة.

١٨- مكتبة آل صوفان.

في الخليل:

١٩- مكتبة الحرم الإبراهيمي لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٣

٢٠- مكتبة جامعة الخليل.

في غزة

٢١- مكتبة الجامع العمري.

٢٢- مكتبة الجامعة الإسلامية.

في جنين

٢٣- مكتبة أوقاف جنين في قرية برقين مسجدان بهما مخطوطات.

٢٤- مكتبة آل جرار.

في البيرة (ملاصقة في رام الله)

٢٥- مكتبة الأرشيف الصحفي والوثائق (إنعاش الأسرة) توجد بها مصورات مخطوطات فقط.

في فلسطين المحتلة ١٩٤٨

٢٦- المكتبة الأحمدية في عكا لها فهرس مطبوع ١٩٨٣.

٢٧- المكتبة الإسلامية في يافا لها فهرس مطبوع عام ١٩٨٤.

٢٨- حيفا فيها بعض المكتبات الخاصة لم نعرف عنها شيئاً.

٢٩- الناصرة أديرة

ومن الدليل الذي أعدته الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات بالسلطة الوطنية الفلسطينية، يتضح أن أكبر هذه المكتبات من حيث عدد المخطوطات يحتوي على ألفي عنوان تقريباً وأن بقية المكتبات يحتوي على مئات العناوين. وبعضها الآخر يحتوي على أقل من مئة ومن أمثلة ذلك:

١- المكتبة الخالدية وبها ٢٠٠٠ عنوان

ويدخل فيها محتويات المجاميع.

٢- مكتبة المسجد الأقصى وبها نحو ١٦٠٠ عنوان ويدخل فيها محتويات المجاميع.

٣- مكتبة دار إسعاف النشاشيبي وبها نحو ١٢٣٨ عنوان ويدخل بها محتويات المجاميع.

أما المجموع النهائي لعناوين المخطوطات شاملاً العناوين داخل المجاميع التي يحتوي المجموع منها على أكثر من عنوان. وبعضها رسائل صغيرة - فيصل حسب التقدير إلى نحو ٩ آلاف عنوان.

ومن بين هذه المكتبات نحو ثلاثة عشر مكتبة تمت فهرستها، ونشر لاحقاً اثنا عشر فهرساً، أحدها في ثلاثة أجزاء (مكتبة الأقصى) وثمة فهرس لا يزال مخطوطاً، وهو فهرس مكتبة إسحاق موسى الحسيني في القدس.

هناك بعض لمظاهر الثراء في جهود الفهرسة يُمكن إجمالها في ما يلي:

١- المكتبة الخالدية في القدس

- صدر لها عام ١٩٠٠ عندما أعلنت مكتبة عمومية «برنامج المكتبة الخالدية في القدس . القدس: مكتبة جورجي حبيب حنانيا»

- صدر لها عام ١٩٦٧ مخطوط يشمل الكتب المخطوطة والمطبوعة.

- فهرس المكتبة الخالدية في القدس، تحت الطبع في مؤسسة الفرقان في لندن

٢- مكتبة المسجد الأقصى في القدس:

٣- «فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى»: وجاء في ثلاثة مجلدات حتى الآن وكلها من إعداد خضر إبراهيم سلامة كما يلي:

- الجزء الأول: صدر في القدس: دائرة الأوقاف العامة في طبعتيه الأولى ١٩٨٠ والثانية ١٩٨٣.

- الجزء الثاني: عمان الأردن مؤسسة آل البيت ١٩٨٣.

- الجزء الثالث: لندن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٩٩٦.

ويلاحظ أن إنشاء الفهارس يمتد تاريخياً إلى الوراء إلى بداية القرن العشرين عام ١٩٠٠ . تاريخ ظهوره أقدم فهرس وهو برنامج المكتبة الخالدية في القدس.

أمَّا أحد عمل أمكن الاطلاع عليه فيعود إلى عام ،١٩٩٦ وهو تاريخ نشر الجزء الثالث من فهرس مكتبة المسجد الأقصى، بمعرفة مؤسسة الفرقان في لندن.

وإذا استثنينا فهرس الخالدية الأول عام ١٩٠٠ فإننا نلاحظ أن الفهرس إنما صدرت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين أي في حدود عشرين عاماً.

وقد حظيت بعض هذه المجموعات بدراسات وصفية وببليوغرافية بلغ عددها خمساً تناول بعضها مخطوطات في موضوع معين، مثل:

١- مخطوطات فضائل بيت المقدس: دراسة وببليوجرافيا تأليف د.كامل جميل العسلي. عمان: مجمع اللغة العربية الأردنية ١٩٨١.

٢- فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة د.محمود إبراهيم الكويت: معهد المخطوطات العربية ١٩٨٥

وهناك بعض الدراسات الببليوجرافية التي تناولت مخطوطات فلسطين مع الاتجاه الانتقائي لجانب أو لآخر، ويعود أقدمها إلى عام ١٩٢٤ وهي كما يلي حسب التسلسل التاريخي:

١- خزائن الكتب العربية: وصف بعض المخطوطات في خزانة بيت الجوهري في مدينة نابلس والكتب موقوفة، ووصف كتاب في خزانة آل صوفان في نابلس/ محمد عزة دروزة مجلة المجمع العلمي العربي مج ٤، ١٩٢٤.

٢- مجموع نادر: مقالة بقلم عبد الله مخلص. مجلة المجمع العلمي العربي دمشق، مج ١٠، ١٩٣٠.

٣- دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها / محمد أسعد طلس. مجلة المجمع العلمي العربي دمشق مج ٢٠، ١٩٤٥ مج ٢١، ١٩٤٦.

٤- المخطوطات العربية في فلسطين: أبحاث جمعها وقدم لها د. صلاح الدين المنجد بيروت، دار الكتب الجديد ١٩٨٢.

وهناك دراسة حديثة تناولت مخطوطات فلسطين بشكل عام مع بعض التحليلات الإحصائية وهي:

٥- مخطوطات فلسطين واقع وطموح: بيت المقدس/ فؤاد عبيد القدس، منشورات مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني ٢٠٠٠.

ويلاحظ أن هذه أول دراسة تصدرها مؤسسة تابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية وهي بادرة تدل على اهتمام ووعي بأهمية هذه المخطوطات على المستوى الرسمي.

٦- قام مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني بإجراء دراسات ومسوحات خلال الأعوام الماضية بعد قيام السلطة الفلسطينية شملت تسع مكتبات فقط في مدينة القدس وهي:

مكتبة النشاشيبي – مكتبة مؤسسة إحياء التراث – مكتبة الأنصاري – مكتبة الخطيب – مكتبة الدراسات العربية- مكتبة المسجد الأقصى – مكتبة جامعة القدس – المكتبة الخالدية – مكتبة البديري.

• **دَور بعض المؤسسات والعائلات في حفظ التراث المخطوط:**

- **مجمع اللغة العربية الأردني:**

قام المجمع بدور كبير في لم شتات التراث الوطني الفلسطيني المتناثر عن طريق تصويره وفهرسته ونشر هذه المدارس.

وتبنى منذ عام ١٩٨٢ طباعة فهارس المخطوطات العربية التي قام بتصويرها مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية وبشكل خاص المخطوطات الموجودة في مدن فلسطين، من المكتبات والمساجد والمتاحف.

- **الجامعة الأردنية:**

أسهم مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية في تصوير عدد كبير من المخطوطات من المكتبات العائلية والمساجد والمتاحف وقام بتكليف عدد من المفهرسين بفهرستها وكانت هذه الجهود في عدد من المدن الفلسطينية وشمل التصوير أيضاً مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا التي أنشأها أحمد باشا الجزار (١٧٢٠ - ١٨٠٤) وهي الآن في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨.

- **مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن (ويمبلدون)**

أسهمت المؤسسة في خدمة مخطوطات فلسطين بعملين هما:

- نشر الجزء الثالث من فهرس مكتبة المسجد الأقصى وكان الجزآن الأول والثاني قد نشرا من قبل.

- تبني نشر فهرس المكتبة الخالدية، وهو يشمل مخطوطات هذه المكتبة التي يبلغ عددها ألفي مخطوطة تقريباً أي ما يقرب من ربع المخطوطات الباقية في فلسطين كلها، حسب التقديرات الحالية وسوف ينشر هذا الفهرس قريباً ويمكن أن يقع في مجلدين أو ثلاثة.

- **عائلة الخالدي،**

سبق الحديث عن الصراع الطويل الذي خاضه بعض أفرادها. محاولات الاستيلاء على مبنى المكتبة القريب من حائط البراق وهو الموقع الذي تتركز فيه أطماع الصهيونية سعياً لتحقيق فكرة الهيكل الذي تحلم ببنائه، بعد تدمير كل ما يقع في المكان.

إن تضحية هذه العائلة بممتلكاتها وأموالها وجهود أبنائها للحفاظ على مجموعات المكتبة عمل يستحق كل التقدير والتسجيل في صفحات التاريخ وقد نشرت مشكورة أقدم فهرس للمخطوطات في فلسطين عام ١٩٠٠ عندما جعلت المكتبة مكتبة عمومية.

هـ-المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت في عمان،

حيث أسهم المجمع في نشر الجز الثاني

من فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس

- إدارة الأوقاف العامة مكتبة الأقصى:

نشرت ثلاثة فهارس للمخطوطات هي:

- الجزء الأول من فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى في القدس ١٩٨٣

- فهرس مخطوطات المكتبة البديرية مكتبة الشيخ محمد بن حبيش في القدس ١٩٨٧.

القدس

إن أكثر المخطوطات العربية والإسلامية موجودة في مكتبات المدينة المقدسة سواء المكتبات الخاصة أو المكتبات العامة ويعود ذلك إلى المكانة الدينية التي تحظى بها المدينة في نفوس المسلمين، ولعلّ هذه المخطوطات إضافة إلى الأماكن الأثرية وغيرها تشير إلى الارتباط الوشيج بين المسلمين على اختلاف مشاربهم وما تمثله هذه المدينة في عقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم من مكانة لا يمكن تجاوزها لا حاضراً ولا مستقبلاً.

ويوجد في المدينة المقدسة تسعة مراكز ثقافية (مكتبات ومتاحف ومساجد) تخص المسلمين وتحتوي على مخطوطات تتفاوت في عددها من مركز إلى آخر.

هذا ويبلغ عدد المؤسسات الإسرائيلية التي تمتلك مخططات إسلامية ثلاث مؤسسات ولم يتح لنا معرفة عدد المؤسسات المسيحية وما تملكه من هذا التراث وسنتناول محتويات الأماكن الثقافية العربية والإسلامية أولاً ثم الإسرائيلية بغض النظر عن الترتيب الهجائي الذي اعتمدناه سابقاً.

١- مكتبة العائلة البديرية:

تقع في البلدة القديمة بجانب باب الناظر أنشأها عالم صوفي درس في الأزهر الشريف، ولم يكتف بذلك بل عمل على تنميتها وكان إنشاؤه لها في آواخر القرن الثامن عشر الميلادي هذا العالم هو الشيخ محمد بن بدير الشهير بابن حبيش وفاته في ٢٧ شعبان ١٢٢٠ هـ / ٢٠ تشرين الثاني ١٨٠٥ م درس في مصر نحو ثلاثين عاماً عاد بعدها إلى القدس واستوطن فيها وسكن الزاوية الوفائية ومات ودفن فيها.

والحق أن المكتبة البديرية تعد خير مثال على أن المكتبات العائلية في فلسطين هي في الأصل مكتبات خاصة ووضع المخطوطات في هذه المكتبة جيد إذ تخلو من الأرضة مقارنة بالمخطوطات في مكتبات أخرى وإن كانت لا تخلو من بعض المشاكل كانفراط أوراق بعضها إلى غير ذلك.

ويبلغ عدد المخطوطات نحو سبع مئة

مخطوطة بالعربية ومنها:

- الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري نسخت في ٥٦٢هـ ١١٦٧ م.
- مؤلفات الشيخ البديري مؤسس المكتبة وعددها ثمانية مؤلفات.
- منهاج الدكان لداود بن أبي نصر الكوهين العطار المتوفى ١٢٥٩ ولعلها نسخة المؤلف أو كتبت في عصره.
- البراهين النواقض لمباني ضلالات الروافض لإمام مسجد صفد وصيدا معروف بن أحمد وهي نسخة المؤلف كتبت في ١٥٦٠ وكان المؤلف قد زار مصر وشاهد إحياء ذكرى استشهاد الحسين وكتابه رد على كتب الشيعة ونقد لاحتفالاتهم.
- الأسانيد المباركة لابن حجر العسقلاني وهي نسخة المؤلف وتاريخها ١٤٤٩

وصدر لها فهرس

- سلامة، خضر، فهرس مخطوطات المكتبة البديرية (مكتبة الشيخ ابن حبيش) القدس، إدارة الأوقاف العامة – مكتبة المسجد الأقصى، جزآن ٦٧٧ صفحة

اشتمل الفهرس على مقدمة عن مؤسس المكتبة وعن العائلة البديرية في أربع وعشرين صفحة ورتب الفهرس هجائياً ضمن ستة عشر موضوعاً تبدأ بالعلوم القرآنية فالعلوم الإسلامية فاللغة العربية فالأدب العربي فالتاريخ فالمنطق فالميقات فالحساب فالطب وأخيراً موضوعات متفرقة.

وقد ألحق بفهارس المخطوطات خمسة فهارس أو مسارد مرتبة هجائياً اشتملت على عناوين المخطوطات وأسماء المؤلفين والنساخ والأعلام الواردة في بند الملاحظات وهي تتضمن الأسماء التي وجدت مكتوبة على نسخ المخطوطات سواء من قرؤوها أو امتلكوها وأسماء الأماكن التي وردت على المخطوطات إلى جانب بعض المخطوطات التي لم يعرف مؤلفوها.

إن كل المخطوطات في فلسطين هي مخطوطات عربية فلسطينية ترجع ملكيتها إلى أهل فلسطين العرب الشرعيين مؤسسات وأفراد وأسر لكن ثمة جهات تمَّ إنشاؤها بعد ظهور الكيان الإسرائيلي عام ١٩٤٨ جمعت فيها المخطوطات بالاستيلاء عليها أو شرائها من داخل فلسطين وخارجها وفي ما يلي بيان بهذه المجموعات في أماكنها الحديثة لتكتمل صورة تراثنا العربي في القدس.

مكتبة جامعة حيفا

تم تأسيسها عام ١٩٧٩ ويوجد فيها ست وأربعون مخطوطة جميعها باللغة العثمانية ويبدو أنها ألحقت بالمكتبة في عام ١٩٧٩ وهي في الأصل ملك لأحد الورثة وقام

بالتبرع بها للمكتبة ولا تملك الجامعة مخطوطات عربية.

القدس

١- المكتبة الوطنية ومكتبة الجامعة العبرية

تقع تحديداً في القدس الغربية أسست في عام ١٨٩٢ وتحتوي على ما يقارب نصف المخطوطات في فلسطين فقد بلغ عدد مخطوطاتها ٢١٤٣ مخطوطة منها أربعمئة مخطوطة بالفارسية، ومئة وعشرون مخطوطة مزينة بالرسومات، ومئة مخطوطة بالعثمانية إضافة إلى مئة وعشرين مصحفاً وعدة مئات من هذه المخطوطات تعد في النوادر.

وثمة ثلاثة مصادر لمخطوطات المكتبة الأول: مجموعة يهودا وهو تاجر يهودي عاش ١٨٧٧-١٩٥١، وأهديت مجموعته بعد وفاته للمكتبة وعدد مخطوطات هذه المجموعة ١١٣٥ مخطوطة.

أمَّا المصدر الثاني: فقد قدَّمته الحكومة الإسرائيلية للمكتبة وعدد هذه المخطوطات ٥٤٣ مخطوطة إضافة إلى ما هو موجود في المكتبة وعددها ٤٦٥ مخطوطة.

الفهارس

لا توجد فهارس مطبوعة لمخطوطات المكتبة وقد قام المسؤول عن تقسيم المخطوطات بعمل بطاقات بالعربية لجميع المخطوطات والمؤلف والموضوع.

وتم حديثاً صنع فهارس مفصلة لجميع المخطوطات عن طريق الكمبيوتر ولكنها لم تنشر حتى الآن.

٢- متحف ذكرى مائير (المتحف الإسلامي)

يقع في القدس الغربية في شارع بلماخ تحديداً أسس في عام ١٩٧٤ وهو متحف خاص أنشأته زوجة عالم الفن الإسلامي /ل-مائير/ تخليداً لذكراه ويحتوي على ما جمعه الرجل أثناء حياته من مخطوطات وتحف إسلامية ويبلغ عدد المخطوطات تسع عشرة مخطوطة سبع منها بالعربية مصحفان وأربعة أجزاء من ربعات ومخطوطة عربية وجميعها مزينة بالرسوم النباتية والهندسية أما الباقي فهي فارسية مزينة بالرسوم أيضاً.

ومن مخطوطاته:

- رسالة دعوة الأطباء لابن بطلان وترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي
- فتوح الحرمين لمحي الدين عبد الرحمن الناصري، وهي وصف مزين بالرسوم للحرمين الشريفين في مكة والمدينة.

الفهارس

ولا يوجد فهرس لهذه المخطوطات ولكن المتحف قام بعمل بطاقات للمخطوطات اشتملت على اسم المؤلف والعنوان والقياسات.

المتحف الإسرائيلي:

يقــع في القدســ الغربيــة، أسس عام ١٩٦٥، ويحتــوي علــى أربعــين مخطوطة بالعربية والتركية والفارسية وجميعها مزينة بالرسوم والألوان المختلفة.

ومن مخطوطاته:

- خمسة مصاحف ترجع للفترة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر.
- أربــع نسخ مــن دلائــل الخيرات لمحمــد ابن سليمان بن الجــزولي ترجع إلى القرنين السادس عشر والثامن عشر.
- قصة يوسف وزليخــة لنور الدين عبد الرحمــن الحامي نسخــة من بخارى يرجع تاريخ نسخها إلى عام ١٥٧٠

الفهارس

لم تنشــر فهارس لهــذه المجموعة بشكل منفصــل ولكــن نشــر المتحف كتابــاً عن المخطوطــات والأوراق التــي تحتــوي على رسوم شرقيــة مثل المخطوطــات الإيرانية وضمن الكتاب صور عن المخطوطات العربية والكتاب هو:

Mistin R Islamic painting in the Israel mueum with the con tributins n'ama brosh Jerusalem Israel museum 1984 220 pp.

الهوامش

× تنسـب العائلـة إلى خالد بن الوليد وعائلة الخالدي من أقـدم العائلات الفلسطينية، وأوثقها صلة بين المقدس، تولت مناصب القضاء والإفتاء والتدريس منذ القرن الثامن الهجري.

المصادر الرئيسة

١- كمال عرفات نبهان وآخرون، ندوة التراث العربي المخطوط في فلسطين، القاهرة: معهد المخطوطات العربية. (ومنه الاستفادة الكبرى في إعداد البحث).

٢- صلاح الدين المنجد، المخطوطات العربية في فلسطين، بيروت: دار الكتاب الجديد.

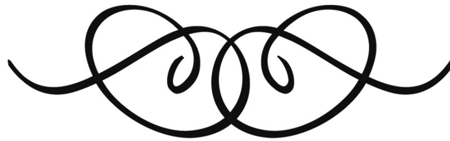
٣- فهارس المخطوطات العربية في العالم، كوركيس عواد، الكويت: معهد المخطوطات العربية.





شـــعر :

قصة :





سمفونية فلسطين
(تحية لمحمود درويش)

سليمان العيسى *

ذاتَ يومٍ.. سقَطَ الخَنْجَرُ في قلب الجَسَدْ

كانتِ الأرضُ الجَسَدْ..

أرضُنا المذبوحةُ الثَّكلى التي

تمتدُّ من حزنِ الزَّبَدْ

في أغاديرَ.. إلى حزنِ الزَّبَدْ

* شاعر العروبة الكبير.



في خليج التبْر والدُرّ، وغَصّاتِ الشَّجَنْ

كلُّه، في شهقةِ الجرح، وَطَنْ

الريــحُ الغريبــةُ العاتية ترافــقُ سقوطَ الخَنْجَــر في قلب الجَسَــد.. الغَزو الشرس يجتــاح.. و«سمفونيــةُ فلسطــين».. تجمع أولى ضَرَباتهــا، وتبدأ المقاومة، بنَبرتها التي ســوف تستعصي على الموت.. نبرةٌ تجسدت في عبارة شعرية واحدة، أطلقتها «سمفونيةُ فلسطــين». قالت العبــارة للخنجر وهو في قلب الجسد، قالت له: «سَجِّلْ أنا عربي».

ومنذ ذلــك اليوم.. تتــوالى الطعنات.. وتحاول الريح الغريبةُ العاتية أن تسحق كل شيء في طريقها.. تزمجــر تقصف، وتقتلع كل شيء. والعبارةُ الشعرية صامدة: «سَجِّلْ.. أنا عربي».



وتحل النكبة..

«سمفونية فلسطين».. تواصل رحلتها في دنيا الغربة والتشــرد، بعد أن فقدت بيتها، وقريتها، وصدر أمها، وقهوةَ أمها، ولكنها لم تفقد نبرتها الخالدة التي ظلَّت تجلجل:

«وطني، يعلِّمني حديدُ سلاسلي

عنفَ النسور، ورقةَ المتفائِل

ما كنتُ أعرِفُ أن تحتَ جلودِنا

ميلادَ عاصفةٍ، وعرسَ جداولِ»

وألتقي «سمفونية فلسطين».. التــي «خَلَعت معاطِفَها الجبالُ ودَثَّرتْها..»

ألتقيتها.. في كل مكان من أرض العرب..

يتلاقى المُشــرَّدان.. في دمشق، وبيروت، وبغــداد، والقاهــرة، وصنعــاءَ، وتونــس، والجزائــر، نعم.. يتلاقى المشــرَّدان في كل مكان، ويــذوب الجرحُ الصغــير في الجرح الكبــير، ويُسعدني، ويملؤني ثقــةً بالغد، أن استمع إلى «السمفونية» المشردة، التي تحمل قريتهــا المدمّــرة، وقهوةَ أمهــا، وهي تطير في الآفاق، حتى تصبــح خفقةً في كل قلب، وصرخةَ تمردٍ شاعرة في أرجاء الدنيا، وتُقرأ في أكثر من أربعين لغة من لغات هذا العالم.

وذات يوم.. يفاجئنــي النبأ.. كما فاجأ الجميــع.. أن السمفونية قــد توقفت، وأن محمود درويش قــد رَحَل.. وأُطرِق.. وغيمةُ الحزن تلُفُّني.. لأقول:

صوت فلسطين الشاعر.. المدوّي..

محمـود درويش لم يرحـل.. وإنما بـدأ الحياةَ الآن..

وأتمتم بيني وبين نفسي هذا المقطع من قصيدة قلتها ذات يوم:

أرأيتَ مِقْصَلَتي التي ماتت على عُنُقي..

وما ماتَ القتيلُ..

إني أُحاصِرُها..

وتعرفُ، وهي تَذْبَحني،

مَنِ الباقي؟

ومَنْ منا يزولُ؟



إلى صديقي.. شاعــر فلسطين الأول.. أهدي هذه المقاطع مــن قصيدة لي بعنوان الفلسطيني الطائر.. ألم يكن هو الفلسطيني الطائــر، الذي شاء له البغــي والعدوان ألاَّ يستقر في مكان؟

تقول القصيدة:

في الغَرْبِ.. يزرعونَكْ

في الشرقِ.. يزرعونَكْ

في العَتمَاتِ السودِ، في الضَّبابْ

في رَجْفة الحِرَابْ

تَودُّ لو تمحوكَ من ذاكرةِ الترابْ

ومن رُؤاهم..

حينما تنطبقُ الأهدابْ

عليكَ كابوساً، وحُلْماً أدمنَ العذابْ

لكنكَ.. الباقي على الزمنِ

حكايةَ الوطنْ..

يا رائعَ الشقاءِ والمِحَنْ!

يا سيدَ الشقاءِ والمِحَنْ!

حكايةَ الشعب الذي يقاسم السماءْ

بقاءَهَا.. ويُبدع الحياة

من دمهِ المُجَفَّفِ..

المذرورِ في ضميرنا..

وفي ضميرِ قاتليهِ..

يُبدع الحياةْ..



يا أيها المذرورُ في ضميرنا

وفي ضميرِ الأرضِ..

يا لَهَبْ..

يطهِّرُ العَرَبْ

يؤرِّقَ العَرَبْ

يا سُورةَ الزلزالِ في جَنَازةِ العَرَبْ
في الشرق يزرعونَكْ
في الغربِ يزرعونَكْ
وراءَ صمتِ الصمتِ، والنسيانِ، يزرعونَكْ
يا هجرةَ الجذورِ في الترابْ
يا قصة العذابْ!
تَنَاثري في لحمنا، في دمنا الفسيحْ
في عَتماتِ الوطن «الزنزانةِ» الجرِيحْ
عساهُمُ إن أطبقوا الأجفانْ
في مَصْنعِ القتلِ..
الذي يدعونه الزمانْ
يستشعروا الأمانْ
عسى يَدُ القاتل تستريحْ
من قصة المَيْتِ الذي يقاسمُ الإلهْ
بقاءَه.. ويُبدع الحياة
من دمه المذورِ في كل الجهاتِ يُبدع الحياةْ

❁ ❁ ❁

يا أيُّها الطائرُ من دَمٍ إلى دَمِ
خميرةً في رَحِمِ الترابْ
خميرةً.. يصنعها العذابْ
حتى إذا تشقَقَ الضبابْ
وانحسرت مواطئُ النعل عن الرقابْ
وجاء جيلٌ يمضَغُ السمَّ، ونابَ «الأرقم»
ويرفع الحرابْ..
من دون أن يسألَ ماذا كانْ؟
وما الذي يكونُ؟ إنَّ الموتَ والحياةَ توأمانْ

حينئذٍ.. تكونُ أنتَ الرعدَ والمَطَرْ
والخِصْبِ.. والثمرْ

حينَئذٍ.. تُفَجِّرُ الربيعْ
تعودُ بالجميعْ..
في قبضةٍ من ألَقٍ، ومن دَمٍ، تعودُ بالجميعْ

فَلْينثروكَ الآنَ.. كي تضيعْ
في وَهْمِهم.. في عُقْمِهم.. تضيعْ

يا أيها الطائرُ من دَمٍ إلى دَمِ
يا أيُّها الشعبُ الذي
يُشاطر السماءْ
عِنادَها.. ويُبدع الغنَاءْ





هارون هاشم رشيد ❁

-١-

عــربــيــة يــا قــدس مــهـمــا دبـــروا
لـك في الخـفـاء.. وهــيـئـوا.. وتـنـكـروا
عــربــيــة.. كـيــف المــآذن تـسـتـبـى
كـيـف الـقـبـاب تـبـاح.. كـيـف المنبر
عــربــيـــة مـــا نـبـضـة إلا عـلـى
أبــــواب مـسـجـدك الـطـهـور تـكـبر

❁ الشاعر الفلسطيني الكبير



مـاذا يـراد بـنـا.. وأي شرعـة
ترضى بأن يخزى الجهاد ويقهر
مـاذا يـراد بـنـا.. وأي خـرافـة
ما يـفـرضـون.. ومـا تـراه يـدبـر

-٢-

عربية أرضاً.. سماء.. محتدا
عـمـراً وتـاريـخـاً يُـضـيء ويـزهـر
عـربـيـة مـا دق بـابـك غـاصـب
إلا وزلـزلـه الـعـنـاد الأكـبـر
عـربـيـة قـد حـاولـوا في حملة
محمومة يوماً، وعنك تقهقروا
جـاؤوك مـن أقـصـى الـدنـى في
هجمة،همجيةوتحالفواوتآزروا
فوقفت في وجـه الغزاة عزيزة
وصمدت،فاندحرالغزاةتكسروا
أيـن الصليبيون أيـن همو وقد
ذهـبـوا فـمـا لـهـم وجـود يـذكـر
والـيـوم عـادوا مـرة أخـرى كما
جاؤوا.. برايات الضلال تستروا
جاؤوا «يهوذا» خلفهم وأمامهم
وبـه بـفـريـة مـا يـشـيـع تـنـكـروا
جـــاؤوا بـأحـلام مــزورة لهم
ضلوا.. وضل المقتفي والمصدر

كم يحلمون بأن تضيع معالم
لك شادها شعب عظيم خير
هيهات.. والإسلام أنت مناره
ولــــواؤه.. والملتقى والمحشر
ما «مكة» من غير اسمك يا ترى
أو ما «المدينة» دونه ما «الأزهر»
من غير «أقصاك» وغير رحابه
كيف الصلاة تجوز كيف تقدر
كيف المـآذن هل يحل أذانها
والمسجد الأقصى يغل ويؤسر
كيف العروبة لا تطأطئ رأسها
ذلاً.. وأقـداس لـهـا تـتـفـطـر
وبـأيـمـا حـق تـديـر ظـهـورهـا
حـتـى يـدمـرك الـعـدو ويـقـهـر
فيك العروبة.. وطدت أركانها
فأقيم بيت فيك أسس منبر

-٣-

عـربـيـة يـا قـدس مـا مـن رملة
إلا وضمخها الزكي الأطهر
دمنا جرى فيها.. فأثرى نبضها
وأحـالـهـا نـورا يـضـيء ويـبـهـر
دمنا جرى فيها.. فرعرع نبتها
بالحق.. يشرق رائعاً.. وينور
يا قدس أنت حياتنا ومماتنا
من غير وجهك.. نستهان وننكر

خضنا لأجلك كابراً عن كابر
هول الجهاد.. فما نكل ونحسر
آلاف.. آلاف الرجال استشهدوا
لتظل رايتك العزيزة تنشر
ليظل وجهك بالعروبة شامخاً
يزهو على الدنيا يتيه ويفخر
ليظل في جبل المكبر صوتنا
يعلو على أصواتهم ويكبر

-٤-

عربية يا قدس حتى ولو بغى
الباغي العتي.. وأفحش المستعمر
عربية مهما تحيك أصابع
في الليل من شر.. وينسج أغبر
عربية مهما يضل مغامر
ويحيد عن درب الصواب ويفجر
مهما يقول القائلون.. ويفترى
متحذلق.. ويشيع عنك مزوّر
عربية علمتنا أن الفدا
درب إلى الحق السليب ومَعْبَر
وبأنه بالدّم ليس بغيره
الأوطان من ذل الدخيل تحرر
عربية مهما بنى أعداؤنا
«المستوطنات» العاليات.. وأكثروا
تاريخك العربي يبقى خالدا
أبدا بآيات الفداء يبشر

-٥-

عربية أهلي هناك بصبرهم
وصمودهم..حملوا اللواء وكبروا
نادوا.. وليلهم طويل مرعب
والغاصبون.. تحكم وتَجَبُّر
عربية.. قالوا وأنياب الأذى
تغتال أمنهم الحبيب وتقبر
عربية «عمرٌ» ببابك واقف
يملى على التاريخ فيك ويأمر
و«أبو عبيدة» والصحابة حوله
بالله بالقرآن فيك تجمهروا
حملوا إليك العدل أرفع راية
تبقى على مر الزمان وتعمر
وأتوك بالأمن الأمين ووطدوا
حكماً بآيات الكتاب يدبر

-٦-

يا ثالث الحرمين أول قبلة
للمسلمين.. ترى نهون ونصغر
وترى تفرط بالعهود بعهده
عُمرية.. تروي لنا.. وتكرر
قد نورت تاريخنا.. وتراثنا
عبر العصور.. ولا تزال تنور

يا قدس يا وطن النبيين الأولي
حملوا إلى الدنيا الضياء وبشروا
يا قدس يا وطن الرجال أشاوسا
ذادوا عن الحق الأبي وأنذروا
عربية مهما تكالبت العدى
عسفا.. وتاه الظالم المتجبر
عربية ما عدوة.. أو ربوة
أو منحنى.. أو ملتقى أو مَعَبَرَ
إلا وفيه تلفت وتأمل
منا.. وإحساس وحب أكبر
أنفاسنا.. خطواتنا.. أحلامنا
والذكريات.. تطلع وتحسر

-٧-

يا قدس أنت كفيلة بهوا إذا
عز الرجال.. المنجدون تعذروا
أين الغزاة.. أتوك من كلِّ الدُنى
حشدوا سفائنهم إليك وأبحروا
وتجمعوا والشر ألوية لهم
في بابك الموصود حطوا عسكروا
زمنا.. وأنت الطود يشمخ صامدا
ويردهم.. ويصدهم.. ويكرر
حتى تلألأ نجم فارس أمة
في حلكة الظلماء راح ينور
وبدا «صلاح الدين» يشرع سيفه
«والله أكبر» صرخة تتفجر

لبيك يا قدس السلام ومرحبا
بالعاديات.. وويل من لا ينفر
فإذا حصون الغاصبين تهدم
وإذا حشود الدّارعين تبعثر
دحروا وأذيال الهزيمة خلفهم
ويمثل ما جاؤوا إليك تقهقروا
ما عاد منهم شارد أو وارد
مر الزمان عليهم وتحجروا
وبقيت «والمعراج» فوقك مشرع
أعلامه يحنو عليك ويسهر
ومحمد والأنبياء شواخص
أبصارهم لك و«البُراق» الأطهر
ياقدس مذ أسرى النبي «تشوقا»
لك والدنى بك تهتدي وتنور
يا قدس أبواب السماء جميعها
في سقفك الزاهي تضيء وتبهر

-٨-

ماذا نقول غداً لأجيال لنا
في الغيب ترتقب النهار وتنظر
ماذا نقول لهم إذا ما دنست
أقداسنا ومشى عليها المنكر
وإذا «حخامات» اليهود تحكموا
في المسجد الأقصى الحبيب وسيطروا

وإذا أبيحت قدسنا وتهدمت

وأذل مسجدنا.. وديس المنبر

وإذا العروبة لملمت أذيالها

وتقهقرت وهوى الشهاب المقمر

-٩-

وطني الكبير أسامع أم يا ترى

صمت بك الآذان لا تتأثر

وطني الكبير عروبتي وأرومتي

باتت مهددة وأنت مقصر

القدس كيف القدس يسبى وجهها

ونظل في صمت ولا نتفجر

جدنا بما أسطعنا.. وما زلنا هنا

في القدس بالدم الطهور نسطر

أنا هنا في القدس فوق جبالها

ووهادها أبد الزمان نعسكر

ندعوك يا وطن العروبة فانتفض

واضرب بسيفك فالعداة تجبروا

-١٠-

عربية يا قدس كم من قائل

قد قالها.. ودماؤه تتفجر

عربية يا قدس أطلقها الآلي

حملوا الأمانة مخلصين وكبروا

عربية حتى ولو حشدوا على

أبوابك الدنيا.. فلا نتقهقر

عربية حتى ولو أقوى القوى

زعمت فنحن الحسم نحن الأخطر

عربية يا قدس مخطوط على

وجناتك الحرف الكريم مسطر

عربية «الله أكبر» تعتلي

قمم الجبال الشامخات وتنذر

تبقين ما بقي الزمان عزيزة

يا قدس مهما حاولوا أو دبروا





جمال سعيد حماد ❁

أسمــر اللون شرق أوسطي كما يحلو للبعض وصفنا . جسده نحيل «جلده وعظم» يبتسم صدفة يتحدث نيابة عن خاله (أبو أيوب) الذي يتوسط الرجال الذيــن أتوا معي لخطبة فاطمة، حد الفيد وعقد وعزم وكأنه الآمر الناهي، بعــد مغادرة الرجال بتمام الخطبة بقيــت في منزل الخطيبة، ليس للجلوس معهــا ، بل الفضول شــدني لمعرفة سلطة شعبان على العائلــة التي ستصبح عائلتي، عند اللحظة الأولى للهدوء سألت خطيبتي، عن سطوة الرأي لخالها

❁ باحث وقاص فلسطيني



حيث أحب أبناء أبا أيوب مناداته، وأم أيوب عمته وبكرها شهيد.

فاطمـة حماتك تحبك منـذ فترة ولن تبخل عليـك بليلة سمر تقص عليك حكاية خالي التي لا نعرف عنها الكثير.

حماتي أسعد الله مساك، ما حكاية دلال وسطوة أبو أياد عليكم، وهو جد وقد تجاوز العقد الخامس.

أم أيـوب آه يا ولدي «وبحسـرة تتلوها زفرة حـزن» الحمد لله الذي جعل شقيقي، قبل النكبـة بسنتين متحمسـاً لشراء سرير ينام عليه ويتفاخر على أقرانه الذين ينامون علـى الأرض، ولم يكن يومها يعلم أن السرير سيكون حصنا لولـده الصغير، كنا يا ولدي يومها منتهين من الحصاد، وكما تعلم عيشة الفلاحـين وحياتهم تبدأ مـع نهاية الموسم. فجـأة دخل أبو عمـر ممازحـاً «إيش يما صهرك الجديد أخذك منا».

أم أيوب تعال يا ولدي واجلس، سأحدثكم عن ابن أخي قبل أن نلجأ إلى لبنان في الثماني والأربعـين، حيث كنا نعيش بهناء وهدوء في منطقـة إصبع الجليل نفلـح ونزرع، حياتنا جميلـة ومستقرة إلى يوم جاءنا لا نعلم عنه سوى الألم والحسـرة، سمعنا عن اليهود وما يفعلـون من خراب وقتـل للأنفس، صمدنا في بيوتنا رافضين المغادرة مهما سمعنا عن الحرب، وكان أخي من وجهاء البلد حريصاً على عـدم المغادرة، خاصة وهو فرح بأبنائه العشرة والسرير الجديد، وحصاده المربح.

فجأة انقطع التيار الكهربائي حيث يعيش لبنان حالة من الحرب والتقنين الكهربائي، دخلـت العروس والقنديـل بيمينها والقهوة بيسارها.

فاطمـة ألم تنتهـوا من خطيبـي؟ أم أن الرواية أخذته مني.

أبـو عمر اجلسـي يا أختـي فخالنا له حكاية شيقة.

تتابع الحماة سردهـا والحزن لا يفارق محياها

صوت المدرعـات وجنازير الدبابات في كل زوايا القرية وكل بيت سمع أزيز الرصاص والقذائف دكت معظم المنازل دكاً حتى أصبح العالي مساوياً للأرض وهرع الأهل من شدة الفزع إلى بيارات القرية وحقولها.

أم أيوب منذ جفـت دمعتها على بكرها الشهيد تعود دمعتها كريمة رغم مرور خمسة عقود على الحدث، منزل شقيقي كومة من الحجارة وسريره الجديد مغبراً وقطع الأثاث

تملأ جميع نواحيه، لاحياة في البيت الوجيه وزوجته والأبناء جميعهم أشلاء يا حسرتي، وبدأ أهـــل القرية الناجون يجمعون الأشلاء في ما تبقى من الأغطية..!

شعبـــان ذو الأعوام الخمســـة ليس بين الجثث أين هو؟ وبدأ البحث والجميع يعودون بدون إجابة والحزن والقلق يعتريهم.

مر اليوم الأول وأذن لعصر اليوم الثاني، جـــاء شعبـــان فاضطر للمغـــادرة من تحت السرير.

صرخ مختار القرية فرحاً وهو أغبر أشعث من عنـــاء البحث إن سرير عبد الرحمن قد حما ولده شعبان.





عــروس المطــر

هيفاء الأطرش *

حركة تنشط بوضوح داخل الــدار؛ أجساد تعبر الغرف وتجوب الأنحاء؛ انشغــالاً بحفلة الخطوبة هذا اليوم.. وأخــيراً تنطلق الزغاريد لتعلن خروج العروس حتى دار أبو وهدان؛ المستضيف للحفلة. ورويداً رويداً.. هدوء يسود أجواء المنزل ثانيةً؛ يضع أبو نادر رأسه فوق وسادة سرعان ما يغادرها؛ يرفع سماعة الهاتف.. ثم: (أم نادر هل نوران معك ؟).

- (ماذا ؟ لكنني أخبرتك أنني تركتها عندك؛ تلعب أمام الدار).

- (لا بأس؛ سأخرج لرؤيتها).

* قاصة فلسطينية



- (اتصل بي حالاً).

حثّ الخطا مسرعـــاً؛ كان الجو يواصل استلاب الدفء الراحل مع المغيب؛ يطلق أبو نادر العنان لنظـــره فيرمي به هنا وهناك.. يهرول.. يدور حول الدار؛ تهبُّ في صدره نار لم يعهدها من قبل؛ يصيح أبو نادر: (نوران.. حبيبتي نوران.. ولا مجيب!).

كانـــت الريح تحيـــك غيومـــاً سوداء في الأفق.. يعـــود إلى المنزل؛ يواصل البحث في كل زاوية فيه؛ يتصل بالجيران؛ نوران ليست في أي مكان هنا!

يقطـــع الحفل صراخ أم نـــادر: (ضاعت نـــوران..) فينتفضـــ الجميـــع متناثرين في أنحـــاء المنطقـــة.. قالت الحاجـــةُ أم عطا أنهـــا شاهدت امـــرأة تحدث نـــوران؛ أثناء نشرها لملابســـ الغسيل.. يمرّ الوقت عويلاً ويهدر الرعـــد عند منتصف الليل؛ ويواصل الغيم نزيفه؛ والهاتـــف لا يهدأ عن الرنين؛ وأم نـــادر لم ترحم حطـــام رأسها من اللطم والضـــرب. قيـــل إن امرأةً قامـــت بخطف نوران؛ ابنة الثمانية أعوام؛ وتسليمها لسيارة جيش إسرائيلية. وبدأت الأفواه تجيد تمزيق الأعصاب بحكايا وقصص لا نهاية لها.

وأخيراً بعد ثلاثة أيام؛ قصف خبرٌ رأس أم نـــادر؛ مفـــاده أن نـــوران مختطفة داخل الخـــط الأخضـــر، وسرعان مـــا كانوا على موعد برجـــالٍ لقيادتهم إلى هناك في اليوم التالي. كررَّت أم نوران شرح تفاصيل ملامح ابنتها الغالية:

(كانت تلبس بلوزة حمرا صوف.. وبنطال مخمل.. وجزمة بسحـــاب.. وجهها حنطي؛ شعرها خرنوبي اللون؛ يهدل على كتفيها..) وتصمتها غصة ثم بكاء أخرس..

كانـــت السيـــارة تطوي الأرضـــ بسرعة كرجل أهـــوج.. رنَّ هاتف الرجـــل السائق: صحيـــح! في أية منطقة؟ نعم نعم.. شكراً يا صديقي).

اشرأبَّ الأمل داخل خواطرهم؛ فحسب الجميـــع أنهم قد أناخـــوا المصيبة.. اعترى توتـــرٌ واضحٌ محيـــا الرجل الثـــاني بجانب السائـــق؛ عندما عُرف مكان نـــوران. وكاد الوالـــدان يخترقان صاج السيـــارة للطيران إليهـــا. كانت أصابع الرجـــل الثاني تضغط على هاتفه بعصبيةٍ ونزقٍ بدا على تفاصيل وجهه؛ معطياً شارةً من محموله خان بها كل المشاعر وكل شيء بـــلا استثناء، اهتالت أم نـــوران من عدم تفاعلـــه معهم وما يجري.. وبعد فـــترة وجيزة؛ كانت إطـــارات السيارة تهدأ أمام بيت أسندته سواعد امرأة سمراء عربيـــة؛ بدت قوية.. تهـــرول إليهم ثم تطل برأسها من نافذة السيارة؛ تنظر بعين ليست حزينةً ولا راجية.. ليست آملة.. ولا يائسة؛

قالــت بصوتٍ لاهــث: (الله يحمل معكم.. الآن قبــل خمس دقائــق شاهدتهم يحملون طفلــةً ويضعونهــا في سيــارة انطلقت نحو الغرب.. فزعت أم نــوران؛ وتجدد بكاؤها؛ أمسكها زوجها من كتفها بحنانٍ متعب.

بينما كان الرجل الثاني مثل الذي فؤاده هــواء؛ وكان دائمــاً يجيد تقمصــ الحالة العكسيــة للبقيــة الموجوديــن في السيارة.. وهكذا اقتاتــت هذه العائلة لقم المعاناة بين شفرات مقص هذا الزمان الغادر؛ وبين خبر عاجــل بوجود نوران في مــكان معين؛ وبين نتيجة كارثية توصلهم إلى طريق مسدود.

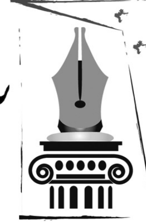
كانت غرابــة المواقف المستجدة؛ تفرض نفسهــا علــى الواقــع؛ حتــى إن أبــا نادر وزوجتــه والسائق قد هجســ في صدورهم شيء مشترك نحو ذلك الرجل المرافق لهم؛ فكانــت كلُّ العيون توجز الكلام؛ لتضعه في قفص الاتهــام؛ فالطلاســم الممتدة خلال الخط الأخضــر كانت حركاته تفكها.. ومن ثم تفضحــه. أما رحلــة المخدوعين فتبقى شقيةً طويلة.

تعبــت أم نــادر وأبو نادر؛ حتــى أقعدا منتظرين مترقبين لأي خبر؛ كي ينقضا على الطرق بحثاً عن الغالية نوران.

وبَعُــدت الأيام.. قيــل أن الخاطفة قد سُلِّمــت للجيشــ الإسرائيلــي؛ وقيــل إنها مجنونة.. لكــن خبر إطــلاق سراحها فيما بعد؛ ثم قصة قتلها الغامض (الواضح) دون عــودة البنت؛ وضع النقــاط على الحروف كعــادة كل القصص هناك!!.. لكن واقعهم؛ المفروضــ بشكل قاس أبقــى أخبار الطفلة حبيسة المجهول.

ورغــم كل الإشــارات السوداويــة التي تحطم الآمال؛ أوجست أم نادر في نفسها أن ابنتها ستعود.. هكذا هي قررت!!..

نــوران ستبقــى عروس المطــر؛ تتشح بالغيــوم؛ علها تهطل يوماً على سطح الدار؛ لتنــزع طرحة الغيــم البيضــاء؛ فتستحيل حقيقة؛ جسداً مفعماً بحرارة طفولة جديدة؛ فتهبط علــى الأدراج؛ لتصرخ: (أمي.. أمي لقــد عدت)!!.. لعل نــوران الآن تفكر كيف ستحضن أمها.. أين أنت يا نوران؟؟.. لا بد أنك تختزنين كمّاً هائلاً من العمر، الأخبار والذكريــات.. أعــرف أن النسيان لن يجد ضالته في مخيلتك؛ فعمــرك والوقت الذي توقف زمنك عنده؛ وقت اختطافك؛ لهو كفيلٌ بأن يحفر في أخاديد عروقك كل التفاصيل الحبيبة؛ الأهل والبيت.. الشارع والشجر.. سوف تعودين يا نوران.. لتنصبين مقصلة لمن فقدوا مظاهر الكرامة كي يصبحوا مكبَّلين منقادين لشهواتهم وللغرباء، فيكون القصاص ممن هجَّروك قسراً عن أحلى أيامك.



آفاق المعرفة







هوية القدس من خلال منشآتها المعمارية

د. عفيف البهنسي ❊

القدس قبل الإسلام

تمتعت القدس على مر التاريخ بقدسية كاملة، وكان سكانها الأصليون اليبوسيون، من الكنعانيين منذ الألف الثالث ق.م. وقد سميت دار السلام أورشاليم باللغة الكنعانية القديمة، بل باللغات العمورية. ثم كان ملكها «ملكي صادق» قد آمن بالتوحيد، وكان هو «الكاهن لله العلي» ق١٩ ق.م. ولعله أول من أطلق على القدس اسم أورسالم.

❊ باحث ومفكر ورئيس جمعية أصدقاء دمشق.



كانت فلسطين قبل الفتح العربي ممراً للقوافل العربية تأتي من أنحاء شبه الجزيرة العربية. وكان المسافرون يقيمون فيها بعضاً من الوقت وتكون لهم تجارة ومصاهرة مع سكانها. ويقول الإصطخري إن هاشم بن عبد مناف والد جد الرسول دفن في غزة. وأن أبا سفيان والد معاوية اشترى ضيعة في البلقاء يقال لها بقنس، كما أنشأ عمرو بن العاص قصراً في بئر السبع أسماه «عجلان».

ومع الإسلام أصبح للقدس منزلة خاصة عند المسلمين بعد أن نزلت آية الإسراء الكريمة وأصبح بيت المقدس قبلة للمصلين حتى ١٥ رجب ٢هـ . ١٢ كانون الثاني/يناير ٦٢٣م. إذ تحولت القبلة إلى البيت الحرام حيث الكعبة المشرفة.

واستقر فيها عدد كبير من كبار الصحابة من أمثال أبي عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وأبي الدرداء ومعاذ ابن جبل وغيرهم. وقام بعض هؤلاء بنشر المعرفة وتأسيس دور العلم واللغة وأقيمت المساجد في جميع المدن. ويذكر ابن عساكر طريقة التدريس في ذلك العصر كما يذكر أسماء المدرسين وأخبارهم وطلابهم.

القدس عاصمة للثقافة العربية

عندما صدر قرار منظمة اليونسكو بتسجيل مدينة القدس في سجلات الممتلكات الثقافية، اعتمدت على ملف واسع تضمن الأوابد الأثرية والتاريخية العربية والإسلامية، والتي ما زالت قائمة في أنحاء المدينة، ولم يكن من بينها أي مبنى يهودي. وكان هذا القرار اعترافاً دولياً بالهوية العربية لهذه المدينة. بل قررت جامعة الدول العربية الاحتفال بمدينة القدس عاصمة للثقافة العربية، خلال العام ٢٠٠٩

القدس بعد الإسلام

بعد أن فتح أبو عبيدة عامر بن الجراح الشام عاد من قنَّسرين إلى بيت المقدس ليساعد عمرو بن العاص في فتحها. ولما اشتد على أهلها الحصار استسلموا وطلبوا الصلح على مثل ما صالح عليه أهل الشام، وطلبوا في ذلك عهداً على أن يوقِّعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. ورغب عمر في أن يأتي بنفسه لزيارة بيت المقدس، ونزل الجابية قرب دمشق، ثم سار إلى بيت المقدس فأصلح أهلها وكتب لهم العهدة العمرية المعروفة في عام ١٦هـ/٦٣٧م، وأعطاهم الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم.

وكانت كنيسة القيامة محجاً للمسيحيين. وفي كنيسة قسطنطين صلى عمر بن الخطاب عند قمة الدرج المؤدي إلى المدخل.

الوظائف المعمارية في القدس

مع أن مدينة القدس لم تكن مركزاً سياسياً رئيسياً، بل كانت عبر التاريخ مدينة مقدسة، وأصبحت مع الإسلام أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين. تتمتع باهتمام المسلمين وبتسابقهم لزيادة عمارتها وتنوع وظائفها. كالمساجد والمدارس، ثم ظهرت الأروقة ، والميازين، والتكايا، والحجرات المستقلة، والمنابر والمحاريب المستقلة ، والحمامات، والوكالات، والرباطات، والخانقاوات، والزوايا، ودور القرآن والحديث. وغيرها.. وقد زال بعضها، وبقي أكثرها بعد ترميمه، وبات الحرم الشريف وعماراته علامة أساسية في هوية مدينة القدس الإسلامية العربية.

أول مسجد في القدس

لقد أراد عمر بن الخطاب أن يكرم منطقة الإسراء في المسجد الأقصى، كما ورد في الآية الكريمة (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ). الإسراء/١.

فأمر عمر أن ينشأ على قمة جبل موريا مسجداً للمسلمين على شكل مظلة فوق الصخرة المقدسة، و بقيت هذه المظلة حتى استبدل بها عبد الملك بناءً رائعاً يتناسب مع ما لهذه الصخرة من مكانة في قلب المسلمين.. ومما لا شك فيه أن هذا المسجد قد أنشئ، ولكن أحداً من المؤرخين المسلمين من أمثال البلاذري أو الطبري لم يتحدث عن بنائه. على أن المؤرخين من أمثال إلياس النصيبي وميخائيل السوري تحدثوا عن هذا المسجد وعن الأساطير التي رافقت ذلك.

وينقل كريزويل ما دوَّنه أحد الرَّحالين «أركولف Arculf » الذي حج إلى بيت المقدس في عام ٥١هـ/ ٦٧٠م ورأى الجامع الأول. فهو يقول: «ولكن في ذلك المكان المشهور.. وهو واقع من جهة الجدار في الشرق، يتردد المسلمون على مسجد رباعي المخطط أقاموه بصورة بسيطة، وذلك بوضع عوارض كبيرة على بعض الآثار، ويقال إن هذا المكان يتسع لثلاثة آلاف رجل دفعة واحدة».

وحسب رواية يوسيفوس Josephus التي يذكرها كريزويل أيضاً فإن «المكان

يتألف من رواق ثلاثي الأجنحة كان على شكل بازيليكا Basilica تمتد أجنحتها الجانبية بعرض ٣٠ قدماً وارتفاع ٥٠ قدماً»..

ويطلق على المنطقــة التي تقع اليوم في الجهــة الغربية من المسجــد الأقصى اسم جامــع عمر، ولعلها كانت الموقع الذي أنشئ عليه أقدم جامع في بيت المقدس.

عمارة القدس

لم تكن مدينة القدس، قبل الفتح الإسلامي سنة ١٦هـ/٦٣٧م، إلا مدينة صغيرة تعرضت لاجتياح الفرس. ومنذ أن زار الخليفة عمر بن الخطاب هــذه المدينة سنة ١٦هـ/٦٣٧م ليستلم المدينة ، ابتدأ الإعمار الإسلامي .

واستمرت مظلة الخشب على الصخرة المشرفة في قمة جبل موريا، حتى عهد عبد الملك بــن مروان حيــث أنشــأ مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

على أن المسجد الأقصى المذكور في الآية الكريمــة هنا، لا يعني المسجــد الذي أنشأه عبــد الملك بن مــروان لاحقــاً، وإنما يعني المــكان المقدس الذي يُسجــد فيه لله تعالى في مــكان قصي يبعد عــن المسجد الحرام في مكة المكرمــة، المكان الذي يسمى الحرم الشريف.

عمران مدينة القدس

تعود جميع المــدن الفلسطينية، ما عدا الرملة، إلى عهود سابقة للإسلام، وهي مدن عريقة جداً، ولكن تكوينها العمراني الحالي تشــكّل في ظل نظــام الحيــاة الاجتماعية الإسلامية .ومثالها مدينة القدس.

لقد تغيّر التكوين القــديم الذي بدا في العهود الكلاسيــة شطرنجياً أحياناً وأصبح تكويناً عربياً صرفــاً. فالمسجد الجامع هو المركز الأساسي للمدينة، وتقوم حوله المباني العامة والخاصة ،وقد تتحول الأبنية القديمة إلى وظائف جديدة مثل المدارس والحمامات ودور الحديث والمشافي. ثم تقوم البيوت حول الحارات والــدروب متواضعــة الواجهات، ولكنها جميلــة العمارة الداخليــة، إذ تقوم علــى مفهوم العمارة المغلقــة التي تنفتح في الداخل على صحــن. وطرق المدينة ضيقة متعرجة مغطــاة بعقود حجرية أو مفتوحة. وتقوم منشآت وبيوت على تلك العقود التي تسمى ساباط.

ويحيــط بالمدينة ســور ذو أبواب. وقد تتوســع المدينــة كي تنشــأ أرباضــ خارج الأسوار

وتقســم المدينــة القديمــة إلى مناطق

سميت حارات أو خطط، وفي هذه الأحياء أسواق محلية صغيرة وورشات. وقد استقلت هذه الأسواق عن الأسواق الرئيسية، وبقيت بينهما علاقة الإمداد، وبلغ عدد الأحياء في المدينة من ١٠ إلى ٥٠ حياً. وكانت الأحياء تضم مجموعة سكانية منسجمة في ديانتها وفي انتسابها، ولذلك كانت الأحياء مقسمة تقريباً بحسب الأديان أو القوميات من أكراد وأتراك وقبائل عربية. ويجتمع القرويون النازحون إلى المدينة في أحياء مستقلة، وقد يجتمع أصحاب المهنة الواحدة فيشكلون حياً مستقلاً. وتتصف الأحياء بالتضامن السكاني لتحقيق الأمن والدفاع والتعاون الاجتماعي.

يبلغ امتداد القدس ضمن الأسوار كيلو متراً واحداً وتقسم المدينة إلى حارات أو خطط، وفي هذه الأحياء أسواق محلية صغيرة استقلت عن الأسواق الرئيسية. وطرق المدينة القديمة متعرجة، غُطي بعضها بعقود، وقد تقوم فوقها منشآت أو امتدادات عالية للبيوت.

وتشكل الأسواق القسم التجاري من المدينة، وفيها الخانات. والأسواق مغطاة بعقود متصالبة بالحجر المغموس. وتشتهر مدينة القدس بأسواقها التي ما تزال قائمة؛ ومنها سوق باب خان الزيت وسوق العطارين وسوق اللحامين وسوق البازار وسوق الباشورة وسوق القطّانين، وهي تعود إلى العهد العثماني.

ويقع الحرم الشريف ومنشآته في الناحية الجنوبية الشرقية من المدينة وأسوارها.

ومن أهم هذه المنشآت المساجد والمآذن والمدارس. وإذا استثنينا قبة الصخرة ومسجد الأقصى، فإن أكثر المساجد والمآذن في القدس تعود إلى العصر المملوكي.

الحرم الشريف

ما زال قطب هذه المدينة الحرم المقدس المؤلف من المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

تشكل الحرم القدسي على أرض واسعة تحيط بها الأسوار بطول يصل إلى ٤٩٢م من الغرب وإلى ٤٦٢م من الشرق وعرضه في الشمال ٣١٠م وفي الجنوب ٢٨١م، وله عدد من المداخل الرمزية مؤلفة من أقواس وأعمدة و سواكف أطلق عليها اسم الميازين، في هذه الساحة منشآت إسلامية تعود إلى مختلف العهود الإسلامية، هي مدارس ومساجد وقباب وأهمها قبة الصخرة والمسجد الأقصى. وكان العرب

الذين يـــزورون القدس يتبركون بهذا الحرم ويطلقون عليه المسجد الأقصى.

أهمية مدينة القدس

عندما كان معاوية بن أبي سفيان والياً علـــى القدس والشام في عهد الخليفة عمر، رمم الأسوار واعتنـــى بالبساتين والأشجار، وبنى في عكا داراً لصناعة المراكب والسفن. وفي مدينـــة القدســـ نودي بـــه خليفة على المسلمين، وكان هـــو مؤسس الدولة الأموية واختـــار قبل دمشق القدس عاصمة لمكانتها المقدسة عند العرب.

وفي عهـــد عبد الملـــك بن مـــروان أمر بإنشـــاء قبـــة الصخرة سنة ٧٢هـــ/٦٩١م، وابتدأ بإنشاء المسجـــد الأقصى الذي أتمه فيمـــا بعد ابنـــه الوليد سنـــة ٨٧هـ/٧٠٥م. ولقـــد أنفق عبد الملك مالاً وفيراً في القدس لإنشـــاء هذين الصرحـــين للدلالة على قوة الإسلام وانتصاره، وأمر بتعبيد الطرق بين الشام والقدس، لتسهيل سبل الزيارة الدينية المقدسة للحرم القدسي.

وفي قبة الصخـــرة وبعد إنجازها، تقبل الوليد بن عبد الملـــك بيعة المؤمنين، خليفة على المسلمين، بينما كان أخوه سليمان ينشئ مدينة الرملة ومـــا فيها من مسجد وقصر، ودار للصباغين. ثم جاء أخوه الخليفة هشام ليبني قصر المفجـــر في أريحا. وهو أضخم قصور الأمويين.

ورغم إهمـــال العباسيين لبـــلاد الشام، فلقـــد زار القدســـ عدد مـــن الخلفاء مثل المنصور والمهـــدي والمأمون. وترك كل منهم أثره في إجـــراء إصلاحات هامة في المسجد الأقصـــى وفي قبـــة الصخـــرة. ويعـــود إلى الخليفـــة المهدي فضل إعـــادة بناء المسجد الأقصى سنة ١٥٨هـ/٧٧٤م. بعد زلزال أتى عليه.

لقـــد رزئـــت بـــلاد الشـــام بالاحتلال الصليبي، وكانت القدس أصلاً الهدف الأكثر أهمية، تم ذلـــك سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. وكان أول ما سعـــى إليه هؤلاء الغـــزاة أن جعلوا قبة الصخـــرة كنيسة رفعوا عليها الصليب؛ وهدمـــوا أطـــراف الأقصى وجعلـــوه مقراً لفرسان الاسبتارية.

ويعود المجد العظيم للبطل صلاح الدين الأيوبي الـــذي حرر القدســـ سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وسجـــل هذا التاريـــخ على محراب المسجـــد الأقصـــى الـــذي قـــام بتجديده، ومازالت الكتابة قائمة حتى اليوم في المسجد بعد تحريره. ثم قـــام بإعادة ترميم مسجد

قبة الصخــرة، وسجل ذلك في محيط القبة من الداخل.

لقــد كان الأيوبيون أبطــالاً في التحرير وكانوا قدوة في الإعمار والإنشاء، ففي مدينة القدس وحدها قام صلاح الدين بإعادة بناء سور القدس سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م وتابع أولاده ذلك، كما قام بحفر الخندق حول الأسواق. وأنشــأ الملــك العــادل أخو صـــلاح الدين الجامع العمري سنـــة ٥٨٩هـ/١١٩٣م وبنى سقاية لحفظ الماء وتمويــن القدس. وأنشأ ابنه الأفضل المدرســة الأفضلية والمسجد، وأنشــأ قبة المعــراج سنة ٥٩٧هــ/١٢٠١م وقبة سليمـــان والزاوية الجرّاحية والمدرسة الناصرية وزاوية الدركاه وزاوية الهنود.

وتابع المماليك أعمـــال البناء وأصبحت القدســ أكثر ازدهـــاراً في عهدهم. وخلال حكــم الملــك الناصــر محمد بـــن قلاوون المملوكـــي، الذي امتد ثلاثـــة وأربعين عاماً، حفلت القدس بالعمائر المملوكية التي كانت نموذجاً رائعـــاً لتطور العمـــارة الإسلامية. ولقد قام هذا الملك بإنشـــاء أروقة المسجد الأقصى التي تمتد من باب الحرم حتى باب الغوانمه، وعمّـــر السور القبلي عند محراب داود. وقام بترخيم صـــدر المسجد الأقصى إلى حائط المسجد الجنوبي. وجدد تذهيب قبـــة المسجد الأقصى، وقبـــة الصخرة سنة ٧٢٠هـــ/١٣٢٠م، وعمّر الميازين مقابل باب حُطّة ومقابـــل باب شرف الأنبيـــاء، وجدد عمـــارة باب القطانيين وعمّـــر قناة السبيل عند بركـــة السلطان، وهـــي القناة الداخلة للقدس مـــن عين العُـــروب. وأنشـــأ جامع القلعة ٧١٠هـ/١٣١٠م؛ ويتكون من حرم ذي محراب جميل.

وفي عهـــد السلطان الأشرف قايتباي تم إنشـــاء المدرسة الأشرفية وسبيل قايتباي في الحرم الشريـــف، والمدرسة المزهرية. وأنشأ السلطان برقوق المدرسة الجهاركسية وبركة السلطان وخان السلطان ودار الست.

كان عهـــد المماليـــك طويـــلاً استمر ما يقـــرب من ثلاثة قـــرون تركـــوا في القدس آثاراً كثيرة. وتلا هـــذا العهد مباشرة العهد العثمـــاني منذ عام ٩٢٣هـــ/١٥١٧م، الذي ابتدأ بأعمال الترميم التي قام بها السلطان سليمـــان القانـــوني في سور القدســ وأقام بـــرج اللقلق وبرج الكبريـــت، وأبراج أخرى. كمـــا جدد أبواب القدســ، مثل باب العمود وباب دمشق وباب الساهرة ٩٤٦هـ/١٥٣٧م، وباب ستي مريم وبـــاب الخليل وباب النبي

داوود ٩٤٧هـ/١٥٤٠م، وباب المغاربة وباب الخليل ٩٤٧هـ/١٥٣٨م. وأنشأ عدداً من السبلان في الطرق المؤدية للحرم الشريف. منها سبيل بركة السلطان وسبيل باب العتم وسبيل سليمان وسبيل باب الناظر وسبيل باب الأسباط.

وكان سليمان القانوني قد اهتم بتوسعة هامة في الحرم المكي في مكة المكرمة. كذلك قام في القدس باستبدال الزخارف الفسيفسائية في واجهة قبة الصخرة وأمر بتغطيتها بألواح القيشاني التي مازالت قائمة تحمل اسمه وتاريخ الترميم.

ولم تقتصر العمارة في القدس على بناء المساجد التي نرى شواهدها ، بل هناك الخانات والسبل والأسواق والحمّامات والمدارس والأضرحة.

والخان هو فندق يأوي إليه التجار والمسافرون ومعهم تجارتهم وقوافلهم التي تبقى في الطبقة السفلى وفي فناء الخان. وأما الطبقة العليا فيه لمقامهم ونومهم. وهناك خارج الخان سبيل وحوانيت.

وأما السُبُل فهي أماكن لتقديم الماء لمحتاجه، وتقام مستقلة أو ملحقة ببناء. ومن أشهر هذه السبل في القدس سبيل السلطان قايتباي الفني بزخارفه وقبته، وسبيل باب السلسلة وسبيل الطاسات في عكا ويعود إلى القرن الثامن عشر.

وتنتشر الحمامات العامة مؤلفة من أقسام تقليدية، القسم البارد والقسم الحار والقسم الدافئ والقمِّيم.

ومن أبرز المدارس الفلسطينية في القدس المدرسة التنكزية، وهي آية في الفن المعماري والزخرفي. والمدرسة الأشرفية والمدرسة الأحمدية. ولقد استوعبت المدارس النشاطات الثقافية والتعليمية وتبارى السلاطين والولاة والقضاة في إنشائها.

وتكثر في القدس الأضرحة والمزارات والمقامات والخوانق والرباطات التي أنشئ أكثرها في العهد المملوكي. ومن أهم الخوانق الخانقاه الصلاحية التي تقع قريباً من كنيسة القيامة، وقد اشتهرت بمئذنتها التي تعود إلى عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م. والرباط قلعة منيعة ذات أبراج في داخلها بيوت للسكن ومسجد.

خصائص العمارة الإسلامية في القدس

تحمل العمارة في القدس و فلسطين، شأنها شأن العمارة في بلاد الشام، الطابع العربي في مجمله، هذا الطابع الذي تكوّن في أماكن مختلفة في بلاد الشام. ولكن هذا الفن كغيره من الفنون السابقة له كالفن

الرومـــاني، هو فن هذه المنطقة، وقد أبدعه سكانها ومواطنوها.

تتميـــز العمارة في القدســـ عن العمارة في بلاد الشام والبـــلاد العربية بخصائص فرضتها الصفـــة القدسية التي تتمتع بها ، كما فرضتها ظـــروف الزيارات والحج التي يمارسهـــا السياح والمؤمنـــون على اختلاف دياناتهـــم، متهافتـــين على زيـــارة الأماكن المقدسة .

وأولى هذه الخصائص الطابع الوظيفي الـــذي سيطر على تلك المبـــاني سواء أكانت إسلاميـــة أم مسيحية. فلقـــد كانت المباني العامة متمثلة بالمساجـــد والكنائس لإقامة الصلاة والتدريســـ، والمدارس لتعليم الفقه والتحرر من الأميـــة، والخوانق والرباطات والأديـــرة لتقـــديم الخدمـــات للطـــلاب والمعلمين.

وعلـــى الرغم مـــن الغنـــى والأصالة في طابع منشـــآت الحرم الشريف، فإن الغرض الأساســـي لأعمـــال الإنشاء هـــو الوظيفة الدينيـــة. وفي جميـــع أنحـــاء فلسطين نرى المباني عادية يتحدّد طابعها حسب الضرورة والحاجة.

على أن منشآت الحـــرم الشريف فريدة في نـــوع وظائفها بين المنشـــآت الإسلامية. فقـــد أنشئت فيها المداخل- الميازين دون أن ترتبط بجدران مانعـــة، فهي بمثابة أقواس تذكاريـــة أكثر مـــن أن تكـــون مداخل ذات أبواب. كما أنشئت في الحرم قباب تذكارية وسبـــل، وهي منتشـــرة دون نظام مع غيرها من المنشآت التـــي كانت من توابع المساجد، ثم أصبحـــت مستقلة عنهـــا وقائمة بذاتها كالمـــآذن والمنابر والمحاريـــب. فلقد انتشرت تلك القباب والسبل كي يستفيد المصلون من إقامة الصلاة في صحن الحرم.

ولقـــد ارتبطـــت المبـــاني الإسلاميـــة بالذكريـــات الدينية التي تعـــود إلى العهود السابقـــة للإســـلام، وإلى الأنبياء السابقين للرسول الكريم. وما أسماء إبراهيم ويوسف وموســـى إلا دلالة علـــى ارتباط هذه المباني بتسميات دينية.

وكانـــت زيارة عمـــر بن الخطـــاب إلى بيت المقدس علامـــة هامة في نشأة العمارة الإسلامية. فقد خلّدت هذه الزيارة بإقامة مساجد كثيرة تحمل اسم الجامع العمري مع أنها أنشئت في عهود لاحقة لهذه الزيارة.

وقد تبارى الخلفاء مـــن أمثال المنصور العباســـي والمهـــدي الفاطمـــي بالمشاركـــة في أعمـــال العمـــران، كما انصـــرف القادة العظام من أمثال صـــلاح الدين إلى تحرير

المدن الفلسطينية، وخاصة القدس، وإعادة المنشآت الإسلامية، وأصبحت سُنَّة لدى الولاة والقضاة وحماة الحرمين. وأصبح الفخر كل الفخر أن يسجل هؤلاء أسماءهم على منشآتهم التماساً للبركة وتعبيراً عن الاعتزاز بما صنعوه. وقد قام ماكس فان برشيم Van Berchem بنشر هذه الكتابات التي أبانت أن عهد السلطان محمد بن قلاوون كان أزهى العهود، وأن هذا السلطان ترك من المنشآت ما يستحق دراسة مستقلة.

ولم يقصِّر العثمانيون في عهد السلطان سليمان عن المشاركة المعمارية.

هوية المدينة

تؤكد المباني الإسلامية التي أنشئت خلال العهود المختلفة الشخصية الإسلامية التي تتمتع بها القدس القديمة التي مازالت محافظة على طابعها التقليدي. رغم انتهاكات اليهود وتغييراتهم الواسعة

وهذا الطابع التاريخي والديني الذي يميِّز القدس أفسح المجال لإنشاء عمارات مسيحية هي كنائس وأديرة لها أهميتها عند السكان والحجاج. ولكن الأسلوب المحلي للعمارة فرض نفسه على جميع أشكال المنشآت على اختلاف انتمائها الديني. بل إن المعماريين من مصممين أو عمال كانوا دائماً من أهل البلاد ممن يدينون بأحد الأديان السماوية ويقومون معاً بإنشاء المباني دونما أي تفريق في وظيفتها. فلقد شارك مسيحيون في إنشاء الجوامع كما شارك مسلمون في إنشاء الكنائس.

وهكذا أصبح طابع العمارة القومي أقوى من أن يحمل سمة دينية متميزة. وبدا ذلك عندما فرضت السلطة السياسية تبديل استعمال المنشآت فتحقق لها الأمر دون أن يتطلب تعديلاً في عمارتها.

وقد كان هذا الطابع الموحد من الأمور القومية التي أكدت عروبة القدس وفلسطين، ولذلك فإن قوى الاحتلال الصهيوني وضعت خطة بعيدة المدى لتهويد المدن وتغيير ملامحها المعمارية، وهو أمر خطير فعلاً أدى إلى مسح الملامح الأصيلة وتقليص الوجود العربي في رقاع محددة أخذت تتناقص مع استمرار الوجود الاحتلالي الجديد، الذي يدعي العصرية والتحديث لإخفاء عملية التهويد التي لا تجد ستاراً يحميها.







القدس عاصمة للثقافة العربية محطات على الطريق

محمد قجة*

لا يمكن لقلب عربي أن يخفق بلهفة وحماسة كما يخفق حينما يذكر القدس الشريف، المدينة التي دخلت الذاكرة القومية، والوجدان الجماعي، والبعد الحضاري، والقداسة بمفهوميها الإسلامي والمسيحي.

وهذه محطات موجزة في عمر القدس الشريف:

المحطة الأولى: (البدايات المقدسة)

تبرز هذه المحطة في إطار الجغرافية المقدسة التي أعطت كثيراً من الدلالات والرموز التاريخية، فبيت المقدس يضم الحرم القدسي (المسجد

* أديب وباحث ورئيس جمعية العاديات بحلب



الأقصى) بما يعنيه ذلك من ارتباط مع الحرم المكي (أول بيت وضع للناس)، وبما يعنيه ذلك من وصلة تاريخية هامة مع القِدَم المقدسي وارتباطه بالديانة الإبراهيمية، التي طبعت الديانات السماوية التالية.

وتتكرس هذه القدسية بالإسراء والمعراج. «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» (الإسراء١). ومن هنا كان بيت المقدس يتمتع بهذه الهامة الكريمة العظيمة لدى المسلمين جميعاً، ومن قبلهم المسيحيين جميعاً.

وهكذا فإن قدسية المكان لا ترتبط بالمسجد الأقصى فحسب، وإنّما هي قدسية قديمة تكرّست ببناء هذا المسجد العظيم.

وليس عجيباً في هذا السياق، تبادل مكان قبلة المسلمين بين المسجد الأقصى والحرم المكي (الكعبة).

«قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» (البقرة١٤٤).



وفي إطار هذه المحطة القدسية تأتي الفتوحات العربية الإسلامية لمدينة القدس عام ١٧هـ، والعهدة العمرية التي كانت ترجمة للفكر الإنساني المعترف بالآخر، والمبني على أساس «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، و«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»، و«ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ».

وكان التساقط السريع للمعاقل البيزنطية في بلاد الشام مؤشراً على أنَّ الوجود البيزنطي كان قشرة خارجية، وأنَّ النسيج الديموغرافي للبلاد يتشكل من القبائل العربية والسريان وبقايا الشعوب القديمة التي سكنت المنطقة. وجاء الفتح الإسلامي المرن المتسامح يمنح الناس حرية المعتقد بعد القمع الفكري الذي مارسته بيزنطة على من تدعي أنهم هراطقة، لمجرد أنهم يخالفونها الرأي.

ونبقى في المحطة نفسها ولكننا ننتقل إلى الفترة الأموية، لنرى كيف شهدت عمارة القدس أيام عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) تطورها السريع والمذهل، من منطلق تكريس القداسة والعظمة وأبهة المكان، وتمّ بناء قبة الصخرة، وخصص خراج مصر لسبع سنين لأعمال هذا البناء الهائل الفريد.

واستمرت العناية بالقدس وعمارتها، ويمكن رمزيتها المباركة طيلة العصر العباسي، بما رافقه من حكم فاطمي أو إخشيدي للمدينة.

المحطـة الثانية: (رحلة المنبر الخشبي من حلب إلى المسجد الأقصى)

استطاع الأوروبيون اللاتين خلال حروب الفرنجة، التي أطلقوا عليها تسمية الحروب الصليبيـــة، أن يغتنموا فرصـــة تفكك إرادة القـــرار في العالم الإسلامـــي، وأن يغتصبوا مناطق من بـــلاد الشام أقاموا فيها (مملكة بيت المقدســ)، وإمارات الرُّهـــا وأنطاكية وطرابلس الشام، وذلك خلال عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م، وقـــد دمّروا بيت المقدس، وأحرقوا المسجـــد الأقصـــى، ومنبر الشهيـــد، وقتلوا عشرات الألوف من سكّان المدينة.

وكان لا بـــد للمسلمين أن تستيقظ فيهم روح المقاومـــة سريعاً، وبعـــد أقل من نصف قرن تمكّن عماد الدين الزنكي من أن يحرر مدينة الرها (٥٣٩هـ / ١١٤٤م)، وشرع –ومن بعـــده ابنه نور الدين– بالإعـــداد العسكري والاقتصادي والإعلامي والتعليمي لتحرير المناطق المحتلة وطرد الغزاة الفرنجة.

وفي مدينة «حلـــب» التي أصبحت مركز الجهاد ضد الغـــزاة الفرنجة (الصليبيين)، أمر عمـــاد الدين بصنع منـــبر خشبي باذخ لنقلـــه إلى بيت المقدس بعـــد تحريره. وتابع ابنـــه نـــور الدين هذا الموضـــوع، حتى تمت صناعة هـــذا المنبر عام ٥٦٤هـــ/ ١١٦٨م، وأقيم في جامع حلب الأموي الكبير انتظاراً لتحرير بيت المقدســ، ونقل المنبر الخشبي إلى المسجد الأقصى.

وكان منـــبر جامع حلـــب الأموي قد أتى عليـــه حريق في زمن نـــور الدين نتيجة فعل تخريبي، فكان المنبر الجديد بديلاً.

وقد وصف ابن جبـــير هذا المنبر حينما زار مدينـــة حلب عام ٥٨٠هـــ/ ١١٨٤م، أي قبل نقل المنـــبر إلى بيت المقدس. ومما قاله فيه:

(وقـــد استفرغـــت الصنعـــة القربصية جهدهـــا في منبره فما رؤي في بلد منبر على شكلـــه وغرابـــة صنعته، واتصلـــت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجلَّلت صفحاته كلها حسناً على تلك الصنعة الغريبة، وارتفع كالتـــاج العظيم على المحـــراب، وعلا حتى اتّصـــل بسمّاك السقف، وقـــد قُوِّس أعلاه، وشرف بالشرف الخشبيـــة القربصية، وهو مرصع بالعـــاج والأبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا).

والمنـــبر الخشبي القائـــم اليوم في جامع حلـــب الأمـــوي ليس منبر نـــور الدين الذي نتحدث عنـــه، وإنّما هو منبر تمّ صنعه على

غرار منبر نـور الدين بعد نقله إلى القدس، وذلك في بداية العصر المملوكي، أيام قلاوون المنصور وابنه محمد الناصر.

ومن المعلـوم أن الدولـة الزنكية انتهت بقيام الدولـة الأيوبية في مصر، وامتدادها إلى الشام. وحينما دخل مدينة حلب قال له الشاعر محيي الدين بن الزكي:

وفتحُكَ القلعةَ الشهباءَ في حلبٍ

مبشِّرٌ بفتوح القدسِ في رَجَبِ

وقد ظـنَّ بعض الدارسـين أنَّ الشاعر يتنبّـأ بالموعد بحسابات فلكية، ولكن الواقع أنَّ هذا البيت الشعـري يحمل دلالة رمزية هامـة تتصـل بشهر رجب الـذي هو شهر الإسراء والمعراج. وبالتالي فإنّ قدسية الفتح تتضاعـف إذا هو حدث في شهر رجب شهر الإسـراء والمعراج. وقد حـدث ذلك ودخل صـلاح الدين مدينـة القدس بعـد معركة حطـين الحاسمـة، وتمّت صـلاة الجمعة الأولى بعد التحريـر يوم ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٦آب ١١٨٧م.

وألقـى خطبة الجمعـة محيي الدين بن الزكي نفسه، الـذي بشّر صلاح الدين بفتح بيت المقدس خلال شهر رجب.

وكان أول مـا فعلـه صـلاح الديـن أن أرسل إلى ابنه الظاهر غازي في حلب يأمره بإرسال المنـبر الخشبي من حلب لوضعه في الحـرم القدسي. وتمّ ذلـك في يوم مشهود وحفل عظيم.

وقد وصف المؤرّخ المعاصر لتلك المرحلة العماد الأصفهاني هذا اليوم المبارك فقال:

(لمّـا فتحنـا القدسـ أمـر (أي صلاح الديـن) بتعمير المحـراب وترخيمه وتكميل حسنـه وترميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضى به الفرض. واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسـن رائع ، بحسنه لائـق، وبجماله شائق، وبكمالـه فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملـك العادل نور الدين محمود بـن زنكي رحمـه الله، لبيـت المقدس قبل فتحـه بنيّفٍ وعشرين سنـة، وأودعه له من ذخائـره عند الله حسنة، فأمر أن يُكتب إلى حلب ويُطلـب، فحُمل وعُمل على ما أمر به وامتثل، فجـاء كالروض النضـير، والوشي الحبير، عديم النظير.

وكان مـن حديث أحداثـه، ما ألهم الله نـور الدين رحمه الله لارتيـاح خاطره إليه وانبعاثـه، وقـد أوقع في ورعه، مـن النور الفائض من ينبوع ضلوعه، أنّ البيت المقدس بعده سيفتـح، وأنّ صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملهمين، وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار

يعرف بالأخترِيني من ضيعة تعرف بأخترين، لم يُلْفَ له في براعته وصنعته قرين، فأمر نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي على النعت المهندم والنحت المهندس، فجمع الصنّاع، وأحسن الإبداع، وأتمّه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل، وحكم ما له دليل، وذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل. وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنجة عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولا يقلون. أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا الكفر بالإيمان، وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب وأتعب رقم القوم، ويقول من له قوة اليقين، وعرف أن الله كافل بنصر الدين: اصبروا فلِسرٍّ هذه الأمة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: ﴿ويصنع الفُلْكَ﴾، وكلّما مر عليه ملأ. ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العباد، وأعبد الزهاد، وهو من الأولياء الأبرار، والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب. ويزيد قوة عزمه جدا، وتمده بحياء الحياة الربانية مداً، قد طهره الله من العيب، وأطلعه على سر الغيب، ونزّهه من الريب لنقاء الجيب. وشملت الإسلام بعده بركة، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولبّاه، وأحبه وحباه، وهو الذي سن الفتح، وسنّ النجح. واتفق أنَ جامع حلب في الأيام النورية احترق، فاحتيج إلى منبر يُنصب، فنُصب ذلك المنبر، وحَسُنَ المنظر، وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم، وشابه المحراب المنبر في الرسم، ومن رأى حلب الآن شاهد على مثال المنبر القدسي الإحسان.

ولما فتح السلطان القدس تقدّم بحمله وصح به في محراب الأقصى تفريق شمله، وظهر سر الكرامة، في فز الإسلام بالسلام، وتناصرت ألسنتهم بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة.

ومن المعلوم أنَّ منبر نور الدين الذي حمله صلاح الدين من حلب إلى المسجد الأقصى بقي هناك مئات السنين، حتى أقدم عنصري صهيوني على إحراقه يوم ١٩٦٩/٨/٢١، وقد تشكّلت لجنة لإعادة بناء المنبر في حلب، وذلك بقرار جمهوري أصدره الرئيس حافظ الأسد برقم /٢٥/ وتاريخ ١٩٧٨/١/١٥. ولن يحمل المنبر تحت طرب

الصهاينة -كما فعل بعض العرب ضعاف النفوس- وإنّما سوف يحمل يوم تحرير بيت المقدس نهائياً من رجس الصهاينة.



المحطة الثالثة: (الخلفية التاريخية للحركة الصهيونية)

يقول المؤرخ اليهودي سايمون دوبنوف: (هناك أمثلة عديدة في التاريخ عن أمم اختفت من الوجود بعد أن فقدت أرضها وتفرقت بين شتى الأمم، ولكن ليس لدينا سوى حالة وحيدة فقط لشعب أمكنه أن يستمر على قيد الحياة لآلاف السنين رغم تشتته وضياع وطنه، وهذا الشعب الفريد هو شعب إسرائيل).

تلخص هذه الكلمات الزعم الأسطوري الذي تقوم عليه الحركة الصهيونية، والذي يرتكز على عنصرين:

أ- أن الأرض المفقودة والموعودة لليهود هي أرض فلسطين.

ب- أن اليهود هم الشعب المختار الذي لا يمكن أن يذوب رغم عوامل الزمان والمكان.

وقد انبثقت عن هذين العنصرين مقولة (الشتات اليهودي) الذي فرضته الشعوب والأحداث على اليهود، وهو في نظرهم لا بد أن ينتهي كما تعدهم بذلك أساطير التوراة والتلمود.

ربط المنظرون للفكر الصهيوني بين موضوع الشتات وأسطورة الميعاد، واعتمد البرنامج الصهيوني الذي نضج خلال القرنين الأخيرين على تطور ظروف مادية وفكرية في المجتمعات الأوروبية تركت أثرها في الأقليات اليهودية. وهذه الظروف يمكن اختصارها فيما يلي:

١- التطور الرأسمالي والثورة الصناعية في أوروبة. وذلك منذ مطالع ما يسمى عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر، مروراً بالكشوف العالمية، والمركنتلية الرأسمالية، والثورة الفرنسية، والتكنولوجيا، وغيرها. وقد غيرت هذه العوامل بيئة المجتمعات الأوروبية من إقطاعية إلى رأسمالية اهتزت معها أوضاع الأقليات اليهودية التي كانت تحتكر التجارة في أوروبة خلال أعمال السمسرة والوساطات .

وكان لا بد من أن يظن لذلك ما أطلق عليه «المسألة اليهودية» وهي ظاهرة اجتماعية أفرزتها دورة الاقتصاد الأوروبي بتحوله الرأسمالي والصناعي الذي أدى إلى تقليص دور اليهود التجاري وتهميشه

وحشره أكثر فأكثر في نطاق «الفيتو» وتقدمته كيهودي قذر مكروه منعزل في هذا الفيتو.

وأدى هذا التطور الرأسمالي الهائل إلى نشوء الاستعمار والجيوش الحديثة للسيطرة على مصادر المواد الخام، واتخاذ الأسواق لتصريف البضائع. وأدى ذلك إلى الحروب الطاحنة في أوروبة وخاصة: ١٨٠٠- ١٨٧٠ - ١٩١٤ - ١٩٣٩.

كان عدد اليهود في فلسطين منتصف القرن الماضي لا يزيد على خمسة آلاف. وخلال الحرب العالمية الأولى وقبل وعد بلفور كان العدد لا يزيد على ٢٥ ألف يهودي. ولكن فكرة «الوطن اليهودي» كانت قد تبلورت من خلال عدد من الرواد الصهاينة، مثل: «هسّ» و«كاوتسكي» و«هرتزل». ورغم الخلافات حول مكان هذا الوطن: الأرجنتين- مدغشقر- فلسطين، فإن فكرة فلسطين تغلبت. وبعد هرتزل تولى حاييم وايزمان الجانب العملي في تشجيع الهجرات اليهودية إلى فلسطين. وقد وصف هرتزل الوطن اليهودي الموعود بأنه سوف يكون «إنكلترا الصغرى».

واستطاعت الحركة الصهيونية أن تركب موجة العنصرية الأوروبية القائلة بالتفوق الأوروبي والمستندة إلى التوسع الاستعماري، فهذه الحركة الصهيونية تعتقد أساساً أنها مشروع من مشاريع الرجل الأوروبي الأبيض ضد المنطقة المتخلفة شرقي المتوسط.

وحينما بدأت العنصرية الأوربية تتجه ضد اليهود كما اتجهت ضد أسيا وأفريقيا والعالم الإسلامي، اخترع اليهود موضوع العداء للسامية، ورأوا أنَّ الحل هو ضرورة التشبث بوطن قومي ينهي مشكلة الشتات.

وحينما انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال السويسرية يوم ١٨٩٧/٨/٢٩ كانت الحركة الصهيونية قد تبلورت في مطالبتها بأرض فلسطين وطناً قومياً لليهود.

البعد السياسي للخطر الصهيوني:

حاول هرتزل أن يلعب على جميع الحبال السياسية الممكنة، فاتصل بكافة القوى السياسية الفاعلة آواخر القرن الماضي، ومنها الدولة العثمانية، محاولاً انتزاع وعد بالسماح لليهود بإقامة دولة لهم في فلسطين. وحينما زار الإمبراطور الألماني (ويلهالم) القدس عام ١٨٩٨ كان هرتزل في طليعة مستقبليه، وكان الرهان الصهيوني على أنَّ ألمانيا هي القوة التي يمكن أن تحقق لليهود حلمهم السياسي.

وعندما جاء حاييم وايزمان إلى رئاسة

الحركة الصهيونية لعب الورقة البريطانية بعد رجوح كفة الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وتم إعلان وعد بلفور الذي يعتبر النقطة الثانية الهامة بعد المؤتمر الصهيوني، وبين الحدثين عشرون سنة تماماً. وقد أعطت بريطانيا ثلاثة وعود حول فلسطين تمثل أولها بوعدها للشريف حسين على أنّ فلسطين ستكون جزءاً من مملكته العربية المستقلة، والثاني من خلال اتفاقية سايكس بيكو بأن تكون فلسطين تحت إدارة دولية، والثالث لليهود، وهو الوعد الذي صدقت به وكذبت بالوعدين الآخرين.

ولعب الزعيم الصهيوني «بن غوريون» الورقة الأمريكية بعد صعود نجم الولايات المتحدة خلال الحلاب العالمية الثانية وما بعدها، وأنّ الزعماء الصهاينة لا يخفون أنَّ الدولة اليهودية إنما هي وجود استراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط.

وكان وايزمن يؤكد، ومن بعده بن غوريون، أن فلسطين يجب أن تتسع لـ ١٥ مليون يهودي موزعين في العالم، وبمقدار ما يأتي من يهود إلى فلسطين يجب أن تتسع حدودها بحيث يمكن أن تتجاوز الأردن إلى خط حديد دمشق المدينة، وكل منابع نهر الأردن وروافده ومنابع الليطاني، بل إن حلم إسرائيل الكبرى يصل إلى النيل والفرات لاستيعاب العدد الأقصى من اليهود الموزعين في الشتات العالمي.

ولا تزال الزعامة الصهيونية ترفض فكرة الحدود الواضحة لدولة «إسرائيل»، ونتنياهو يعلن بوقاحة أنَّ حدود إسرائيل هي حيث يصل أي مستوطن يهودي.

ومن جهة ثانية يعتبر «الحلم الصهيوني» أنَّ الأرض العربية من المحيط إلى الخليج هي مسرح للنفوذ السياسي الصهيوني، ويجب أن تبقى في حالة من الضعف والتفكك والتشرذم وسطحية القرار لتسمح للنفوذ الصهيوني بالهيمنة وفرض قراراته بشكل فظ ومهين.

قام الادعاء الصهيوني على أن فلسطين أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض، وبالتالي يمارس اليهود حقهم التاريخي المزعوم بالعودة إلى وطنهم. ورغم كل الضغوطات وممارسات شراء الأراضي واغتصابها بكافة الطرق فإن الأرض التي كانت بحوزة اليهود عام ١٩٤٧ تعادل سبعة بالمئة من مساحة فلسطين. وجاء تقرير اللجنة البريطانية لعام ١٩٣٠: (إنَّ الأرض أصبحت أرضاً خاصةً باليهود ولم تعد أرضا

يمكن للعربي أن يجني منها أي فائدة الآن أو في المستقبل).

تلعب إسرائيل منذ قيامها، وبالتعاون مع القوى العالمية التي تساندها، دور الدولة الاستيطانية التي تعتمد على التفوق العسكري والاستراتيجي ومحاولة المحافظة على هذا التفوق بالتنسيق مع مراكز الدعم الاستعماري وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. ولضمان هذا التفوق واستمراره تلجأ إسرائيل ومعها تلك القوى إلى تفكيك أقطار الوطن العربي وترسيخ الفكر الإقليمي فيها، وإثارة النزاعات العرقية والطائفية بهدف استنزاف تلك الأقطار وإلهائها بقضايا هامشية وداخلية. وإننا نجد أصابع إسرائيل بصورة مباشرة أو غير مباشرة في كل الأحداث الدامية والمؤسفة في لبنان، وحرب الخليج الأولى والثانية، والتمرد في السودان، ومتاعب مصر والجزائر، ومحاولة الامتداد لضرب إيران وباكستان كقوتين إسلاميتين قد تشكلان خطراً على الوجود الإسرائيلي. والتنسيق مع القوى المحلية المعادية للعرب كنظام الحكم التركي ونظام أرتيريا الجاحد. واختراق الصف العربي بالاتفاقيات الثنائية، والاستفراد بالجبهات العربية واحدة بعد أخرى : اتفاق كامب ديفيد، اتفاق أوسلو ، اتفاق وادي عربة.

البعد الاقتصادي للخطر الصهيوني

إنَّ أي حديث عن سلام فعلي مع إسرائيل إنما هو نوع من الوهم والخداع، فإسرائيل تريد سلاماً بشروطها وضمن مشروع الهيمنة السياسية والاقتصادية على المنطقة العربية بأسرها. وفي كتاب شمعون بيريز «الشرق الأوسط الجديد» بسطٌ واضح للأفكار الصهيونية التي تعتبر أن الثروات العربية واليد العاملة العربية رخيصة يجب أن يقودها ويتحكم فيها العقل الإسرائيلي المتطور والمتقدّم، وأن إسرائيل هي الشريك الصغير الهام للإمبريالية الأمريكية، التي تسعى للسيطرة على الاقتصاد العالمي، تحت مظلمة ما يسمى «العولمة»، وتأتي «الشرق أوسطية» ثمرة إسرائيلية للعولمة الأمريكية.

إنَّ البعد الاقتصادي في المواجهة العربية الإسرائيلية يمكن قراءته من خلال أرقام معينة، فالسكان اليهود في فلسطين المحتلة يشكلون أقل من ٢٪ من سكان الوطن العربي، ولكن الناتج القومي للفرد في إسرائيل يفوق متوسط الناتج القومي للمواطن العربي، بما في ذلك دول الخليج، أكثر من ثلاث مرات. ويتصرف اليهود في إسرائيل كتلة واحدة،

بينما يبقى القرار العربي متشرذماً ومتعادياً ومتصادماً، مما يخدم المصالح الإسرائيلية في نهاية المطاف.

وتستند إسرائيل إلى الدعم الأمريكي المطلق سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وتكنولوجياً واستراتيجياً، وهي تخطط بفظاظة ووقاحة لضرب المصالح الاقتصادية العربية وإفقار المجتمعات العربية، ومحاصرتها بمشاكل المياه: النيل- الفرات- دجلة، واستخدام هذه المشاكل ورقة ضغط، بالتنسيق مع القوى المعادية، مثل تركيا وأثيوبيا، وتمويل إقامة سدود في هذه الدول، في سياق حرب المياه المفروضة على الدول العربية.

إلى ذلك تعمل إسرائيل على إغراق الأسواق العربية بالمنتجات الزراعية والصناعية والاستهلاكية، عن طريق مباشر أو غير مباشر، أو بالتهريب (أسواق مصر والأردن مثلاً)، وفرض الاتفاقات والمؤتمرات التي تكرّس الهيمنة الإسرائيلية الشرق أوسطية، في إطار العولمة الأمريكية (مؤتمر الدوحة)، وفرض ما يسمى بالتطبيع الاقتصادي الذي هو في الواقع فرض سيطرة إسرائيلية تمزق المصالح العربية.

ومن هنا فإنَّ موقف سورية الهادف إلى إلغاء مؤتمر الدوحة أو إفشاله إنّما هو موقف قومي ينطلق من زاوية حقيقية للمصالح العربية، ورؤية دقيقة للتضادّ العنيف بين المشروع العربي والمشروع الإسرائيلي، واستحالة لقائهما أو تطبيعهما تحت أي ظرف من الظروف. فالمشروع الإسرائيلي واضح جلي في سعيه لإلغاء فاعلية الدور العربي وتهميشه، وتحويل الوطن العربي إلى سوق استهلاكية وأماكن ترفيهية ويد عاملة رخيصة، في إطار السيطرة المطلقة للمصالح الإسرائيلية، ومن خلفها المؤسسات الاقتصادية العالمية، التي تدور في إطار العولمة الاستعمارية، كالصندوق الدولي، والبنك الدولي، والشركات متعددة الجنسيات.

ويجب أن يهدف المشروع العربي إلى إقامة حد أدنى من التنسيق والتكامل على مستوى اقتصاديات الوطن العربي، وعدم السماح لإسرائيل باختراق المنظومة الاقتصادية العربية وتمزيقها وفرض القرارات الفاسدة عليها.

البعد الاجتماعي والثقافي للخطر الصهيوني

ذات يوم قال موشي دايان: (إننا لا نحسب حساباً للعرب، لأنهم شعب لا يقرأ).

تقوم سياسة إسرائيل على رسم صورة للمواطن العربي كإنسان متخلف إرهابي عدواني. وهذه الصورة تستند إلى تراكم تاريخي أوروبي يعتمد الكراهية والتجني، وتقديم صورة مغرضة مشوهة عن العربي وعن التاريخ الإسلامي. وهذه الصورة إنّما هي انعكاس لمراكز صنع القرار الإعلامي في العالم الغربي الذي يسيطر فيه اليهود على الصحافة وأجهزة الإعلام والتلفزيون ودور النشر، ويفرضون على تلك المؤسسات الإعلامية والثقافية وجهة نظرهم، علماً بأنّ اليهود لا يشكلون إلا أقل من ٢٪ من السكان في الولايات المتحدة وفي فرنسا. والمثال الصارخ على هذه السيطرة كتاب المفكر الفرنسي «غارودي» حول الأساطير الإسرائيلية، والذي لم يستطع نشره في فرنسا أو غيرها بفضل الضغط اليهودي المنظم.

إن بؤرة الاهتمام الصهيونية بالمجتمعات العربية ترمي إلى ما يلي:

- ضرب البنى الفكرية والثوابت الأخلاقية، وتشويه القيم الإنسانية في تلك المجتمعات.
- زعزعة الثقة، والحرص على إنشاء أجيال تافهة سطحية لا تهتم بقضايا وطنها.
- عدم السماح بتدريس التاريخ العربي وسير الأعلام العرب، وخطر ذلك في الاتفاقيات الثنائية: كامب ديفيد، أوسلو، وادي عربة.
- تشجيع تجارة المخدرات وانتشارها وإدمانها، وبخاصة بين فئات الشباب في المجتمعات العربية (مصر والخليج).
- الحرص على نشر الإباحية والخلاعة عن طريق استخدام أجهزة الإعلام المختلفة، وعناصر الموساد (مصر، الأردن).
- الغزو الثقافي المبرمج في نطاق التطبيع الثقافي والعولمة الثقافية، وإلغاء الشخصية المحلية في نطاق النموذج الأمريكي العالمي.
- التسلل إلى مراكز القرار الثقافي والإعلامي في المؤسسات العربية، بالخديعة والمكر والرشوة والضغط، وصرف هذا القرار عن مساره السليم.
- تشجيع الفساد الاجتماعي؛ من رشوة وانحلال وانحراف وجريمة.

البعد السكاني الاستيطاني في الخطر الصهيوني:

- ضرورة تحقيق نظرية (أرض بلا شعب)، عن طريق تفريغ فلسطين من سكانها العرب، بطردهم أو إبادتهم أو الضغط عليهم لإجبارهم على النزوح والهجرة.

- خلق الظروف المناسبة للهجرة اليهودية إلى فلسطين التي مرت بمراحل هامة:

- الهجرة خلال الانتداب البريطاني على فلسطين ١٩١٨-١٩٤٧م.

- الهجرة بعد قيام دولة إسرائيل.

- الهجرة بعد عام ١٩٦٧م.

- الهجـرة اليهوديـة السوفييتية أوائل التسعينيات.

- تنظيم الحركات الإرهابية الصهيونية المتطرفة: شترين، هاغانـاة.. لقتل السكان العرب وطردهم: دير ياسين، قبية.

- التواطـؤ البريطـاني وتسهيل هجرة اليهود من أوروبـة إلى فلسطين خلال فترة الانتداب.

- المستوطنات وخطرهـا الرهيب على الأرض العربية والسكان العرب.

- قضيـة القدس كرمز عربي وإسلامي وعالمي، ومحاولة تهويدها.

- محاولـة إسرائيل نقـل أكبر عدد من يهـود العالم، بقصـد التوسع علـى حساب جيرانها العرب.



المحطة الرابعة: (آفاق المستقبل)

لقد علمتنا تجارب التاريـخ أنّ الشعب المتماسك المتوازن المتشبث بثقافته وتاريخه، وهوية أمته لا يمكن أن يهزم.

وها هي الإمبراطوريات تتهاوى، والقوى العاتية الطاغية تسقـط، وها هي المقاومة بكل أطيافها ومعانيها ترسم ملامح الغد وإن لم يكن قريباً. فالتجربة الصهيونية محكومة بالانهيـار كالتجربة الفرنجيـة الصليبية، لأنها مبنية على أسس تخالف حتمية قوانين التاريخ.

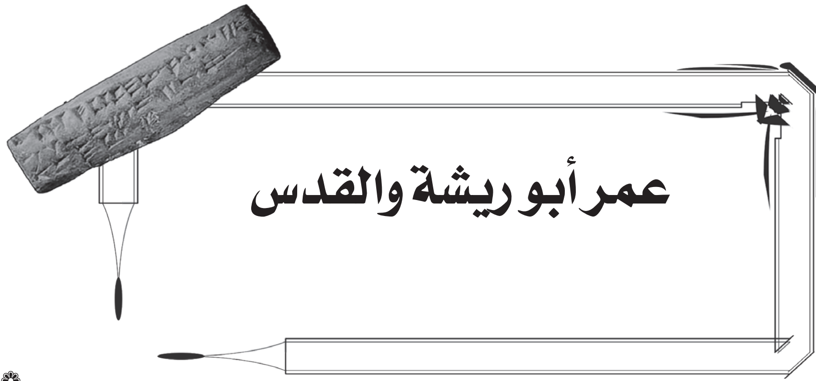
وإذا لم يستطـع جيلنا رؤية رايات النصر ترفـرف فـوق القدس عاصمـة الثقافة العربية، فإن جيـلاً تالياً سوف يحمل منبر المسجـد الأقصى ويزرعه بثبـات وقوة في مكانه الصحيح.

وإنّ غداً لناظره قريب





آفاق المعرفة



عمر أبو ريشة والقدس

د. أحمد زياد محبك*

اشتهر الشاعر عمر أبو ريشة (١٩١٠- ١٩٩٠) بمواقفه الوطنية والقومية الجريئة، فقد قارع المستعمر الفرنسي إبان احتلاله لسورية (١٩٢٠- ١٩٤٦)، كما نــدّد ببعض المواقف للحكومة السورية بعــد الاستقلال (١٩٤٦)، وكان موقفــه الوطني لا ينفصل عن موقفه القومي، بل كان شعوره القومي يطغى في كثير من الحالات على شعوره الوطني. ولقد حظيت القدس من اهتماماته ومشاعــره وعواطفه، مثلما حظيت من شعره وقصائده بأكثر مما حظيت به أي مدينة عربية أخرى، حتى مدينته حلب نفسها،

* ناقد أدبي وأستاذ جامعي



التي فيها نشأ وترعرع وأمضى معظم سني شبابه، وفيها دفن (١٩٩٠). لقد كانت القدس بالنسبة إليه طوال حياته المنطلق الذي يقوّم من خلاله أي موقف، فهي القيمة التي تثبت مقدار الإيمان بالإسلام، والتمسكِ بالعروبة، والإخلاصِ لهما، والموقفُ منها هو الموقف الذي يثبت مقدار الوفاءِ للشعب، وتحقيقِ أهدافه وأحلامه في الحرية. وكان الشاعر في كل مناسبة وطنية أو قومية، يذكر القدس، لأنها حاضرة دائماً في وجدانه، وفي وجدان كل عربي، ولأنها اللحمة والسدى أيضاً في كل مناسبة، لأن قضيتها لا تنفصل عن أي قضية عربية أخرى. وليس ذلك الموقف من القدس بغريب، فالقدس هي قلب العرب النابض، وعاصمة فلسطين، ومهد السيد المسيح عليه السلام، ومسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، وهي التي دخلها عمر بن الخطاب، فجعلها ملتقى الأديان، وأرسى فيها قواعد السلام، بل جعلها مدينة السلام، ثم غزاها من بعد الصليبيون، وظلوا فيها مئتي عام، حتى حررها فيما بعد صلاح الدين الأيوبي.

ـ ٢ ـ

فالشاعر يتغنى ببطولات الشعب العربي في سورية، وعلى رأسه المجاهد إبراهيم هنانو وهو يقارع المحتل الفرنسي، وينشد في حفل تكريمه قصيدة مطولة عنوانها قيود (١٩٣٧)، وفيها يقول (الديوان ـ طبعة دار العودة ـ ١٩٧٢، وسائر الإحالات في البحث تشير إلى هذه الطبعة ، ص٥٥٢):

وطن عليه من الزمان وقار
النور ملء شعابه والنار
تغفو أساطير البطولة فوقه
ويهزها من مهدها التذكار
فتطل من أفق الجهاد قوافلٌ
مضر يشدّ ركابها ونزار

وفي سياق الفخار بالبطولة وربط الماضي بالحاضر، ينعطف الشاعر إلى القدس، ليندد بالمستعمر الإنكليزي، ويقرنَه بالغزو الصليبي، ويصورَ ماألحقَ بالشعب العربي في فلسطين من أذى، فيقول: (ص٥٥٧-٥٥٩):

والقدسُ ما للقدسِ يخترق الدِّمَا
وشراعُه الآثامُ والأوزار
أيُّ العصور هوى عليه وليس في
جنبيه من أنيابه آثار

عهد الصليبيين لم يبرح له
في مسمع الدنيا صدى دوار
صف الملوك فما استباح إباؤهم
شرف القتال ولا أهين جوار
ناموا على الحلم الأبي فنفّرت
منه الطيوف بُنَوّةٌ فجار
صلبوا على جشع الحياة وفاءهم
ومشوا على أخشابه وأغاروا
وبكل كفٍّ غضة سكينة
وبكل عرق نابض مسمار

ثم يتحدث عن دعم الإنكليز لليهود وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين وإقامة كيان لهم، ويندد بخيانة الإنكليز للعهود التي قطعوها للعرب، ثم يؤكد أهمية الحفاظ على الحق، ويحذّر من الضعف، فيقول (ص٥٥٩- ٥٦٠) :

مدّوا الأكف إلى شراذم أمة
ضجّت بنَتْنِ جسومها الأمصار
ورمَوا بها البلدَ الحرامَ كما رمت
بالجيفة الشطُّ الحرامَ بِحَارُ
وبنوا لها وطناً وعبق محمد
وابن البتول بأفقه زخّار
أين العهود البيض ترقب فجرَها
بتلهُّفٍ صيّابةٌ أبرار
ولّت وفي حلق العروبة بُحَّةٌ
وعلى مراشفها العطاش غبار
إن الضعيفَ على عريق فخارِه
حَمَلٌ يشدُّ بعنقه جزار

وواضح أن الشاعر يحذّر في البيت الأخير من خطورة الاستكانة والتواكل والنوم على المجد الغابر، لأن الحق لاتحميه إلا القوة، وصاحب الحق من غير قوة حمل ضعيف يقاد إلى حتفه.

- ٣ -

ويستشهد في جبل النار بفلسطين المناضل سعيد العاص، وهو ابن حماه، مما يؤكد وحدة الشعب العربي، ووحدة النضال ضد المستعمر، أيّاً كان، وأينما كان، سوء في سورية أم فلسطين، فهما بلد واحد، والشعب شعب واحد، وتقام له في دمشق وحماه حفلات التأبين، ويقف فيها عمر أبو ريشة ليرثيه بقصيدة مطولة عنوانها شهيد (١٩٣٧) وفيها يقول (ص٥٦٩- ٥٧١):

ياشهيد الجهاد ياصرخة الهول
إذا الخيل حمحمت في الساح
كلما لاح للكفاح صريخ
صحت لبيك ياصريخ الكفاح
تحمل الحملة القوية والإيمان
أقوى في قلبك المفراح

فكأن الحياة لم تلق فيها
مايروّي تعطش الملتاح
هبةً في يديك كانت ولما
رامها المجد عفتها بسماح

ويذكر بوعود الحلفاء للعرب، ووقوف العرب إلى جانبهم في الحرب العالمية الأولى، وتقديم العون لهم، على أمل نيل الحرية والاستقلال، ثم يندّد بنكث الحلفاء لتلك الوعود، وما جرّ على العرب من احتلال أقطارهم، وسلبهم الحرية، يقول مخاطباً سعيد العاص (ص ٥٧٢- ٥٧٤):

أي فتى المجد، إنه العمر، يومٌ
لخسار وآخرٌ لرباح
إن من سامك المنون لقوم
لم يحيوا على الحجا والفلاح
خفروا ذمة العهود وصمُّوا
الأذن عن صرخة الهضيم اللاحي
كم وعود معسولة سكبوها
في فؤاد العروبة المسماح
فحشدنا لهم جيوش ولاء
ومددنا أكفنا للصفاح
وسفكنا الدم الزكي وزيّنّا
جبين الرحى بغار النجاح
وأردنا الأسلاب منهم فكنا
نحن أسلابهم ونحن الأضاحي

والشاعر لا يضعف، ولا يدخل اليأس إلى قلبه، بل يظل متمسكاً بالحق، وهو يؤكد أن العرب لن يتخلوا عن فلسطين، حيث استشهد سعيد العاص في جبل النار، بل يؤكد أن مأساة فلسطين ستظل منارة تضيء للعرب طريق الكفاح، حيث يقول (ص ٥٧٤- ٥٧٥):

جبل النارِ لن ننام كما نمتَ
جريحَ العلى كسيحَ الطِّماح
لك حبٌّ في قاسيونَ وصنينَ
وسَيْناء مالَهُ من براح
أنت للعرب كالمنارة في الساحل
لاحت لأعين الملاح

والشاعر يبدع في القصيدة نفسها تصوير الصراع بين العرب في فلسطين والعداة المحتلين، ويقدم لوحة فنية متميزة، إذ يصور جبل النار في فلسطين يهتز غضباً من ظلام الطغاة، وتنطلق النسور العربية، تاركة فراخها، لتصارع قوى الظلام، ولكن هذه القوى تسلط نيرانها على النسور، فتحترق أجنحتها، وهي تنشب مخالبها في جسد الظالم، وتأبى إلا أن تسلم الروح وتروي الأرض بدمائها. يقول (ص ٥٦٤- ٥٦٨):

ياظلام الأجيال قصَّ جناحيك
فهذي طلائع الإصباح

مرود كحّل الجفون الكسالى
فأفاقت على السنا اللمّاح
فصحا من عليائه الجبل الهاجع
واهتزّ مفعم الأتراح
وتعالى صياحه يتوالى
فاشرأبت نسوره للصياح
تركت في الوكون أفراخها الزغب
وهبت على أزيز الرياح
وتبارت عصائبا فالفضا الرحب
بساط من مخلب وجناح
غضب البغي فانبرى يحشد الهول
ويرنو إلى الأذى بارتياح
شقّ فكّي جهنم فأسالت
في الروابي لعابَها والبطاح
فاقشعرت من وهجة القلل الصمّ
وأجّت شوامخ الأدواح
وتدجّى الدخان يحجب عين الشمس
عن مأتم الثرى المستباح
فتهاوت تلك النسور وأزرت
بالمنايا على اللظى المجتاح
تنشب المخلب المعقّف في البغي
وتزجي المنقار في إلحاح
ولسان اللهيب يلعب بالريش
ويطوي الجراح فوق الجراح
غضبة للنسور لا النصر فيها
بمتاح ولا الونى بمباح
لم تُزَحْزَحْ تلك المخالب إلا
بعدما جُرِّدَتْ من الأرواح
فتلاشى الدخان عن وَثَبَات البغي
في بركة الدم النضاح
وسرى الليل مالئاً جبل النار
سكوناً لولا نشيد الأضاحي
يادماء النسور تجري سخاء
بغرام البطولة الفضاح
أنبتي العز سرحة يتفيا
بأظاليلها شتيت النواحي
أنت دمع السماء إن لهث الحقل
وجفت سنابل وأقاحي

فالشاعر يبدع في تصوير الصراع بين قوى الحق والباطل، الخير والشر، العرب والصهاينة، وهو يستعير صورة الليل والظلام والنيران تغالبها النسور وتنشب فيها مخالبها وتبذل الروح والدم لتسقي الأرض العطشى، والشاعر يؤكد أن قوى الحق على استعداد دائم للتضحية والفداء، وإن كانت تعلم أن الغلبة لن تكون لها، وحسبها فخراً وشرفاً أنها تثبت بطولتها، وتؤكد حقها، كما يؤكد الشاعر أن هذا الدم لن يضيع عبثاً فهو الذي سينبت شجرة العزة.

وصورة الصراع مبتكرة، وهي حافلة بالصور الجزئية البديعة، فالبغي يشق فكي

جهنم، والثرى في مأتم مستباح، والنسور تنشب المخلب في البغي وتزجي المنقار، والعز بعد ذلك سرحة، والدماء دمع السماء يروي الحقل الظامئ. إن القصيدة مبنية على فنية عالية، وصور جديدة، ومعان بعيدة، وليس فيها إلا قدر قليل من المباشرة والخطابة ، على الرغم من أنها قيلت في مناسبة، وأنشدت في حفل، وكانت موجهة إلى جمهور حاشد من المتلقين. وإذا دلَّ هذا على شيء، فإنه يدل على أن الشاعر يأبى إلا أن يجوِّد فنه، ولو كانت قصيدته في مناسبة، فهي تصدر عن موهبة، لايمكن إلا أن تعبر عن ذاتها، أقوى مايكون التعبير.

- ٤ -

وفي عام ١٩٤٥ قبل أن يتم لسورية الاستقلال، تفتتح دار الكتب الوطنية بحلب، وفي حفل الافتتاح يلقي الشاعر قصيدة مطولة عنوانها «هذه أمتي» (١٩٤٥)، وفيها يعتز بالعروبة وقدرتها على نفض غبار الأيام، والنهوض ثانية لتصنع العزة، ثم يلتفت إلى القدس، ليشير إلى غدر الأحلاف بالعرب، ونكثهم بعهودهم لهم، وتشجيعهم اليهود على الهجرة إلى فلسطين، فيقول (ص٥٢٦- ٥٢٧):

وسلوا القدس هل غفا الشرق عنها
أو طوى دونها شبا مُرّانه
أهتاف خلف البحار بصهيونٍ
وحدب على بناء كيانه
ومن الهاتف الملح؟ أحرٌّ؟
أين صدق الأحرار من بهتانهِ
أين ميثاقه؟ أتنحسر الرحمة
في دفتيه عن عدوانه ؟
يالذل العهود في فم من
أجرى على عزّها دما فرسانه

ثم يشيد بطهر الأرض المقدسة، ويستنكر تدنيسها بالعدوان، ويؤكد أن الحق لابد سينتصر، وأن الباطل سيدحر وينهزم، فيقول: (ص٧٢٥- ٥٢٨):

أي فلسطين يا ابتسامة عيسى
لجراح الأذى على جثمانه
ياأتثني البراق في ليلة
الإسراء والوحي ممسك بعنانه
لاتنامي خضيبة الحلم خوفا
من غريب الحمى ومن أعوانه
إنّ للبيت ربّه فدعيه
ربّ حاو رَدَاه في ثعبانه

ومما لاشك فيه أن الشاعر لايرفع دعوة التسليم حين يقول إن للبيت ربه فدعيه، بل يعبر عن ثقة بأن الباطل سينهزم من غير

شك لأنه يحمل في داخله بذور فنائه بسبب اعتمــاده علــى الزيف والباطــل، كالحاوي الذي يعتمد على الأفعى في كسب عيشه.

ـ ٥ ـ

وأقيمــت حفلــة ثانيــة في دار الكتــب الوطنية بحلب، عــام ١٩٤٧ في ذكرى جلاء المستعمــر عن سورية، فيلقي عمر أبو ريشة قصيــدة مطولــة عنوانها: «عرســ المجد» (١٩٤٧) يفخر فيها بمجد العرب، ويعبر عن فرحة كبيرة بالاستقــلال، يقول في مطلعها (ص ٤٣٧):

ياعروس المجد تيهي واسحبي
في مغانينا ذيول الشهب
لن تري حفنة رمل فوقها
لم تعطر بدما حرّ أبي
درج البغي عليها حقبة
وهوى دون بلوغ الأرب

ثم يخاطب في تضاعيف القصيدة القدس الشريــف فيتغنّى بطهر أرضه ثــم يؤكد أن المصــاب في فلسطــين قد وحّــد العرب ولمَّ شملهم وأنهم جميعــاً لن يتخلوا عن الحق، فيقول (ص٤٤٧- ٤٤٨) :

ياروابي القدس يامجلى السنا
ياروى عيسى على جفن النبي
دون عليائك في الرحب المدى
صهلة الخيل ووهج القضب
لمت الآلام منا شملنا
ونمت مابيننا من نسب
فإذا مصر أغاني جلّقٍ
وإذا بغداد نجوى يثرب
ذهبت أعلامها خافقة
والتقى مشرقها بالمغرب
كلما انقضّ عليها عاصف
دفنته في ضلوع السحب
بورك الخطب فكم لف على
سهمه أشتات شعب مغضب

والشاعر بذلك يــدل على رؤية تتمسك بالحق، وتثق بالمستقبــل، وترى في المصيبة نفسها مايحقــق الخلاص، ولكن من خلال وحدة العرب.

ـ ٦ ـ

ولكــن هذه الرؤية الواثقــة المتفائلة، ما تلبــث أن تصاب بفاجعة كبيرة، عندما ترتد القوى العربيــة على أعقابهــا عام ١٩٤٧، ويعلن الكيــان الصهيوني في ١٥ أيار ١٩٤٨ عن قيام دولة إسرائيل، فينفجر الغضب في قلــب الشاعر، ويعاتب أمتــه بقسوة، منكراً عليهــا تقصيرها في الدفــاع عن الحق في

قصيدة له شهيرة عنوانها «أمتي» (١٩٤٧) يقول في مطلعها (ص٧):

أمتي، هل لك بين الأمم
منبر للسيف أو للقلم
أتلقاك وطرفي مطرق
خجلاً من أمسك المنصرم
ألإسرائيل تعلو راية
في حمى المهد وظل الحرم
كيف أغفيت على الذل ولم
تنفضي عنك غبار التهم

وسرعان مايصب الشاعر نقمته على القادة العرب آنئذ ويحملهم المسؤولية، ويعاتبهم بحدّة بالغة، فيقول عنهم: (ص١٠)

ربّ وامعتصماه انطلقت
ملء أفواه البنات اليتم
لامست أسماعهم لكنها
لم تلامس نخوة المعتصم

ثم يلتفت إلى الشعب العربي ليحمله المسؤولية كلها، ويلومه على سكوته عن حكامه، فيقول (ص١٠- ١١):

أمتي كم صنم عبدته
لم يكن يحمل طهر الصنم
لايلام الذئب في عدوانه
إن يك الراعي عدو الغنم
فاحبسي الشكوى فلولاك لما
كان في الحكم عبيد الدرهم

والقصيدة مفعمة بالحدة وشدة الانفعال، وهي تضج بالأسئلة والنداءات، وقد عني الشاعر فيها بالطرافة والإدهاش، وتعدّ إحدى قصائده المتميزة، وقد لقيت في حينها رواجاً كبيراً، وحسبها أنه استهل بها ديوانه الذي أصدره عام ١٩٧١.

- ٧ -

وينتاب الشاعر بعد ذلك قدر غير قليل من الاكتئاب والحزن، وهو يرى القدس تنتهك، وقوافل اللاجئين تجرّ خطا الألم والشقاء والعذاب، والعرب لاهون عنهم عابثون، فيطلق قصيدة مطولة عنوانها «حماة الضيم» (١٩٤٨)، وفيها يقول (ص١٧-٢٠):

هل في روابي القدس كهف عبادة
تحنو جوانبه على أحبارِهِ
خشب الصليب على الرمال مخضب
بدماء من نعموا بطيب جوارِهِ
فإذا سبيل الحق منفض الصوى
تاهت به الطلقاء من زوارِهِ
وإذا قوافله العجاف طريدة
والبغي يقذفها بمارج ناره

كم متعب جرّ السنين وراءه
ومشيبه يبكي جلال وقاره
متلفتاً صوب الديار مودّعا
وخطاه بين نهوضه وعثاره
كم حرّة لم تدر عين الشمس ما
في خدرها أغضت بطرف كاره
وبناتها وجلى تضج أمامها
والرجس يدفعها إلى أوكاره
بمن استجارت هذه الزمر التي
مد الزمان لها يد استهتاره
العري ينشرها على أنيابه
والجوع يطويها على أظفاره
فلربّ سكير شدا مترنّحا
ودموعها ممزوجة بعقاره
ولربّ متلاف أشاح بوجهه
عنها وملء البيد سيل نضاره
حسبت بناء العرب مسموك الذرى
تتحطم الأحداث دون جداره
فإذا البناة على ذليل وسادها
تغفو عن الشرف الذبيح وثاره

وعلى الرغم من هذا الألم، وما يراه الشاعر من مظاهر الضعف والبؤس والتشرد، فإنه لايفقد الأمل، ويظل على ثقة بأن فجر الخلاص قادم، فيقول (ص٢٠):

مهلاً حماة الضيم إن لليلنا
فجراً سيطوي الضيم في أطماره
مانام جفن الحقد عنك وإنما
هي هدأة الرئبال قبل نفاره

ومما لاشك فيه أن هذه الثقة بالنهوض إنما هي مستمدة من التمسك بالحق العربي، ومن قوة هذا الحق نفسه.

- ٨ -

وها هو ذا العيد يمرّ بالشاعر، فلا يهنأ به، ولا يحس فيه بسعادة، لأن روابي القدس مستباحة، ولكنه يثق بأن خلاصها قادم، ويعبّر عن ذلك في قصيدة «ياعيد» (١٩٤٩) وفيها يقول: (ص ٩٣- ٩٥):

ياعيد، ماافترّ ثغر المجد، ياعيد
فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد
طالعْتَنا وجراح البغي راعفة
وما لها من أساة الحي تضميد
فتلك راياتنا خجلى منكسة
فأين من دونها تلك الصناديد
ياعيد كم في روابي القدس من كبد
لها على الرفرف العلوي تعبيد
سالت على العز إرواء لعفته
والعز عند أباة الضيم معبود
سينجلي ليلنا عن فجر معترك
ونحن في فمه المشبوب تغريد

والقصيدة تدل على حزن يحزّ في أعماق الشاعر، لما نال القدس من عدوان، ولما هو

عليه حال العرب مـن تقصير تجاهها، كما تدل القصيدة على تضحيات العرب في فلسطين ونيلهم الشهادة، والشاعر يمجّد أرواحهم، ومن خلال هذه التضحيات يمتلك الثقة بالنصر. إن الحزن حالة لابدّ منها، تزيد الحسّ رهافة، والوعي قوة، ولا تعدم الرجاء، ولا تفني الأمل، بل لعل تلك الحالة تزيد الأمل قوة.

- ٩ -

وتمر على النكبة عشر سنوات، ويطل العام الجديد ١٩٥٩، فيجد الشاعر المأساة ماتزال كما هي، احتلال، وتشريد، وقهر، فلا يهنأ الشاعر بقدوم العام الجديد، ويجد غرفته كئيبة خاوية، على الرغم من امتلائها ببطاقات التهنئة التي يراها فارغة من معناها، وهذا مايعبر عنه في قصيدة عنوانها «عام جديد» (١٩٥٩) وفيها يقول (ص٦٤):

وحـدي هنا في حجرتي
والليل والعام الوليد
وحـدي، وأشباح السنين
العشر ماثلة الوعيدْ
كم حطّمَتْ مني ومن
زهوي ومن مجدي التليدْ
وقفت لتنثر كل جرح
كان في صدري وئيدْ
من صيحة الوطن الطعين
ورقدة الوطن الشهيد
وكآبة الشيخ الطريد
ودمعة الطفل الشريد
وتململ الأحرار في
أغلال حكام عبيد
وتكالب الأقزام فوق
ذيول عملاق عنيد
وحـدي هنا في حجرتي
والجرح والفجر الجديد
ورسائل شتّى تقول
جميعها عاماً سعيد

إن حزن الشاعر في العيد، وإحساسه بما يعانيه وطنه وأمته من هوان الاحتلال والتشريد والقهر، لهو دليل على أن الشاعر يحمل الوطن والأمة في وجدانه دائماً، وأن فرحة الإنسان لاتكتمل إلا بفرحة الوطن، وتلك هي في الحقيقة معاناة كل مواطن عربي.

إن ذلك كله يؤكد أن القضية الفلسطينية هي قضية كل عربي، يعيش نبضها كل يوم، ويحس بمأساتها، ولا يهنأ في عيشه، والأرض المقدسة مدنسة، والقدس الشريف منتهك،

والشقيق الفلسطينــي يعاني من التشريد أو الاحتلال.

- ١٠ -

ولذلك يصعب على الشاعر أن يسمع أن أحــد الأغنياء العرب قد أنفــق مبلغاً كبيراً علــى ملذاتــه، في الوقت الــذي تعاني فيه القدس مــن جراحها فيثور غضب الشاعر، وينقم، ويمضي ليرســم لوحة لذلك الغني، يسخــر فيهــا منــه، ويهــزأ، في قصيدة له عنوانهــا «هكذا» (١٩٥٤) وفيها يصور جود ذلــك الغنــي وإنفاقه على ملذاتــه، فيقول (ص٢٦-٢٧):

قال: ياحسناء ماشئت فاطلبي
فكلانا بالغوالي مولع
أختك الشقراء مدت كفها
فاكتسى من كل نجم إصبع
فانتقى أكرم مايهفو له
معصم غضٌّ وجيد أتلع
وتلاشى الطيب من مخدعه
وتولاه السبات الممتع

ثــم يعلّق علــى موقف الغنــي، ساخراً، في تفجــع مــرّ، فيقول في ختــام القصيدة (ص٢٧):

هكذا تقتحم القدس على
غاصبيها هكذا تسترجع

وفي هذا الختــام مايحــزّ في الأعماق، ويثــير الشعور بالمــرارة والألم، بالإضافة إلى مافيه من سخرية وإدانة.

- ١١ -

وفي كل مناسبــة، ينعطــف الشاعر إلى القدس، ليعبر عــن واقعها المؤلم، ففي حفل تأبين الشاعر اللبناني الأخطل الصغير عام ١٩٦٩ يلقي أبو ريشة قصيدة مطولة، عنوانها «بنات الشاعــر»، يرثي فيها الشاعر، ويأبى إلا أن ينطــق بما في نفســه من حزن وأمل، حــزن على واقع فلسطــين، والأمة العربية، وأمل في المقاومة الفلسطينية وحركتها فتح التي أعلن عنها عام ١٩٦٥.

وهاهــو ذا يخاطــب الشاعــر الأخطل الصغير ويبوح له بما في جوانحه من ألم على أمته، فيقول: (ص٧٥- ٧٦):

ياراقداً في حمى النعمى ومضجعه
مازال يندى عليه العشب والزهر
نجيُّك اليوم من أزرى الزمان به
وردّه عن مدى آفاقه الكِبرُ
جناحه بعدما طال المطاف به
مخضّب من شظايا الشهب منكسر

يمشي الهوينا على صحراء رحلته
وصحبه الليل والأشباح والسهر
كانت له في هضاب الشرق ألوية
نَسْج الكرامة معقود بها الظفر
يسائل القدر المحموم في خجل
عنها فيغضي على استحيائه القدر

وهـذا البوح الحزين لا يعبر عن مشاعر فردية خاصة، إنما يعبر عن مشاعر وطنية قومية شاملة، مرجعها الحزن على واقع الأمة العربية وما نالها من ضيم، ولكن الشاعر لا يفقد الأمل، فعزاؤه في كتائب الفتح، وأمله في رجال المقاومة، الذين يصنعون المستقبل، يقول الشاعر (ص٧٦-٧٧):

كتائبُ الفتح في إعصار عاصفة
بالحقد والغضب العلوي تنفجر
من كلّ أمرد ما أدمى مراشفَه
في رعشة الشوق إلا الوحلُ والمدر
وكلِّ حسناءَ ما باعت أساورها
إلا لتشتري بها ما الموتُ يدّخر
كتائبٌ بالنضال الحق مؤمنة
إذا الطواغيت من إيمانها سخروا

ولكن، على الرغم من هذا الأمل برجال الفداء والتضحية، يظل الشاعر حزيناً، بسبب يأسه من الحكام العرب، وهو يدين في القصيدة نفسها مؤتمر القمة الذي عقدوه آنئذ في الرباط، ثم يعلن في الختام عن ألمه الشديد لأنه لم يقل كل ما كان يريد أن يقول، فما تزال في الصدر غصة، يقول (ص ٧٨):

عفواً بشارة بعض البوح ضقت به
فسال فوق فمي حرّان يستعر
خنقت بالدمعة الخرساء أكثره
وأقتل الدمع مالا يلمح البصر

- ١٢ -

ولذلك يعلّق الشاعر الأمل على الملك فيصل عندما يعلن عام ١٩٧٥ عن عزمه على تحرير القدس، فيتمثل فيه صلاح الدين محرّر القدس، ويتوجه إليه في قصيدة مطولة عنوانها «أنا في مكة»، فيقول في مجموعة «أمرك يارب» (ص ٥٧):

ربعُ حطينَ موحش يا صلاح الدين
إلا من ذكريات غوال
سِرْ بنا صوبه وصلّ بنا في القدس
واضرب حرامه بالحلال

- ١٣ -

ولكن فجأة يغتال الملك فيصل عام ١٩٧٥، فيرثيه الشاعر بقصيدة مطولة عنوانها «أمرك يارب» (١٣٩٥هـ ١٩٧٥م)، وهما الكلمتان اللتان نطق بهما الملك

فيصل وهو يجود بروحه، وقد جعل الشاعر القصيدة على لسان الملك، وصوره وهو يودّع الدنيا، ويتوجه إلى ربه بالنداء، معبراً عن أمنيته الأخيرة، وهي تحرير القدس، فيقول في المجموعة نفسها (ص١٤):

لي بعدُ يا ربّ من دنياي أمنيةٌ
تقتات بالوعد منها كلّ أشجاني
أردت أختم فيها العمر مقتحما
أحقادَ حطين في مضمارها الثاني
وأن أصلّي وكف القدس تحمل لي
رضاك في المسجد الأقصى وترعاني
ما كان أكرمها في العمر أمنية
ما كنت أحسبها تمضي وتنساني

والشاعر يدرك أن الملك فيصل لم يفقد الأمل، كما أن الشاعر نفسه لم يفقد الأمل فكلاهما يثق بالشعب، ويعرف أن القوم لن يتخلوا عن الحق، ولن ينسوا الأمانة، ولا بد من تحرير القدس، ولو طال الأمد، يقول الشاعر على لسان الملك فيصل وهو يجود بروحه (ص١٦):

يا رب ماضاع عهد القدس إن له
قومي الأباةَ أعادي كلِّ عدوانِ
أمانة لك لن يرموا بحرمتها
ولن يجروا عليها ذيل نسيانِ
أكاد ألمحهمْ في ظل مسجدها
وخالدٌ من سنا محرابه دان

وبذلك يعبر الشاعر عن رؤية قوامها التمسك بالحق، والثقة بالشعب، والتفاؤل بالمستقبل، والأمل بتحقيق النصر.

- ١٤ -

وتلك الرؤية، هي رؤية كل عربي يؤمن بالحق ويتمسك به ويناضل لأجله، وتلك المعاناة هي معاناة الشعب العربي كله، من المحيط إلى الخليج.

وهي معاناة شعب، ورؤية شعب، تعدّ قضية فلسطين بالنسبة إليه قضية حق ووجود، وهي قضية حاضر ومستقبل، ولذلك لايفقد المرء الأمل، ولو وافاه الأجل، لأنها قضية شعب وتاريخ ووطن.

ولعل في هذا كله مايؤكد انتساب الشاعر إلى أمته وشعبه وتاريخه، بل مايؤكد عمق ذلك الانتساب وقوته ورسوخه وصدقه، فهو انتساب شاعر وعى القضية، وعاش تاريخها، وعرف أبعادها، ذاق فيها المرّ، ورأى النكبة والنكسة، ولكنه لم يقنط، وظل متعلقاً بالقضية.

- ١٥ -

ومثلمـا أخلص أبو ريشـة للقضية في فكره ووجدانه ومواقفه، كذلك أخلص لها في فنّه، فكان يجوّد شعره، ويتقنه، ويعنى بصوره، ويجدّدها، وينتقي ألفاظه، ويجوّدها. ولعلّ أهم ما سيذكر له جرأته في انتقاد الحكام العرب، وتحميلهم مسؤولية ضياع القدس وفلسطين، والتنديد بحرصهم على عروشهم، كما سيذكر له دائماً ثقته بشعبه، وأمته، وتعليقه الأمل دائماً على الجندي والمقاتل والفدائي، وحماة الوطن، وإدراكه أن القوة دائماً هي السبيل إلى النصر. ومن أهم المعاني التي كان يردّدها طهر القدس ونقاؤها، وإشارته إلى مكانتها لدى المسيحيين والمسلمين، فهي مهد عيسى ومسرى محمد، عليهما السلام، وكان يراهما دائماً متعانقين. كما كان يرى في الصهاينة دائماً شرذمة من اليهود الكاذبين الظالمين الطغاة صانعي الأكاذيب مدنسي الحرم المقدس. وفي هذا السياق كان يندّد دائماً بالإنكليز، لنكثهم وعودهم للعرب، ومنحهم العهود لليهود. وكان ما يفتأ يمجد الشهداء، ويأسى لآلام المشرّدين، واللاجئين، ويؤكد انتصار الحق بالقوة. وما كان يهنأ بعيد بل كان في كل عيد يذكر القدس، كما يذكرها في كل مناسبة، لأنه كان يحمل القضية في وجدانه.

وأمل الشاعر بالمستقبل، وثقته بالشعب، وتفاؤله بالنصر، ماكان ليمحو نغمة حزن كانت تشيع في كل ماقاله عن القدس وفلسطين، مثلما هي شائعة في شعره كله. كذلك لايغيب التاريخ عن شعره في القدس، ففي كل حين تأتلق أسماء خالد وصلاح الدين وكتائب الفتح، مثلما تألقت في شعره قصائده عن محمد وخالد والمتنبي والمعري. وإذا دلّ شيوع الحزن في شعره كله وتألق التاريخ على نزوع رومانتيكي، فإنه يدل على ماهو أهم من ذلك، ألا إنه الصدق والأصالة وتميز الصوت وخصوصيته.

ويلاحظ أخيراً أنه كان يعالج تلك المعاني بلغة شعرية راقية، فيها قوة وفيها متانة، وفيها صور جديدة، وإشارات بعيدة، شفيفة، حتى في القصائد التي يعرف أنه سيلقيها في مناسبة، وأمام جماهير حاشدة. لقد كانت المناسبات تقدح زناد قريحته، وتثير فيه شاعريته، وتحرضه على القول، فيجود فيها مثلما يجوّد في غيرها، فإذا هو مجوّد في قصيدة المناسبة مثلما هو مجوّد في غيرها، وإذا دلّ هذا على شيء، فإنه يدل

علـى شاعر صادق، مخلص لشعره وفنه، في الحالات كلّها.

- ١٦ -

ويبقـى عمر أبـو ريشة بعـد ذلك كله واحـداً من مئـات الشعراء العـرب، الذين اعتنقـوا القضيـة الفلسطينيـة، وعشقوا القدس، وتمسكوا بالحـق العربي، وناضلوا بشعرهـم وفنهم، وأحياناً بدمهم وأرواحهم، في سبيل النصـر، ولم يكن أبو ريشة الصوت الفـرد الوحيد. ولا بد من القـول أيضاً إن أولئك الشعـراء أيضاً هـم ضمير الشعب، وصوت الأمة، وما التـزام الشعراء القضية الفلسطينيـة إلا جـزء من التـزام الشعب العربي في كل مكان وكل قطر لهذه القضية، التي هي قضية العرب والمسلمين، ومقياس انتمائهـم إلى أمتهـم وأرضهـم وشعبهـم وتاريخهـم. وإذا كان الشاعر يمتلك الأمل، ويحمل الثقة والتفـاؤل، فلأنه يرى الشعب كله يضحـي ويناضل، من أجل تحقيق ذلك الأمل.

المصادر

أبو ريشة، عمر، من شعر عمر أبو ريشة، دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٧.

أبو ريشة، عمر، ديوان عمر أبو ريشة، دار العودة، بيروت، ١٩٧١.

أبو ريشة، غنيت في مأتمي، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢.

أبو ريشة، عمر، أمرك يا رب، دار الأصفهاني، جدّة، ١٣٩٨.

القصائد وفق تاريخ كتابتها

١- قيـود، (١٩٣٧)، ألقيـت في حفلة الذكرى للمجاهد إبراهيم هنانو، شعر ١٤٢/١٣٦ الديوان ص ٥٥٢- ٥٦١، من البحر الكامل، مطلعها:

وطن عليه من الزمان وقار — النور ملء شعابه والنار

٢- شهيـد، (١٩٣٧) ألقيـت في الحفلـة التذكارية في حماه ودمشق للشهيد البطـل سعيد العاص الذي استشهـد في جبـل النار بفلسطين، الديوان صـ ٥٦٢- ٥٧٥ شعرص ١٩٩- ٢٠٨ من البحر الخفيف، مطلعها:

نام في غيهب الزمان الماحي — جبل المجد والندى والسماح

٣- هـذه أمتـي، (١٩٤٥)، ألقيـت في حفلة افتتـاح دار الكتب الوطنية في حلب بعد العـدوان الفرنسي،

وخروج الشاعر من السجن، شعر ص١٥٤- ١٦٣ الديوان، (ص ٥١٦- ٥٢٨)، من البحر الخفيف، ومطلعها :

ماصحا بعد من خمار زمانه فليرفّه بالشدو عن أشجانه

٤- عرس المجد: (١٩٤٧) ألقيت في الحفلة التذكارية التي أقيمت في حلب، ابتهاجاً بجلاء الفرنسيين عن سورية، شعر ١٤٥- ١٥٣ الديوان (ص ٤٣٧- ٤٤٩)، من البحر الخفيف، ومطلعها:

ياعروس المجد تيهي واسحبي في مغانينا ذيول الشهب

٥- بعد النكبة (١٩٤٨)، ألقاها بعد نكبة ١٩٤٨ في حفل ضم رئيس الوزراء في عهده وهو جميل مردم بك، وقد هجاه ببيتين لم يثبتهما في الديوان، ولكن الناس يتناقلونهما شفاها، يقول فيهما:

كيف تبغي أمة عزتها وبها شبه جميل المردم

إن أرحام البغايا لم تلد مجرماً في شكل هذا المجرم

والقصيدة في الديوان ص (٧-١١) وهي من البحر الرمل، ومطلعها:

أمتي هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقلم

٦- حماة الضيم: (١٩٤٨) الديوان ص١٤- ٢٠، من البحر الكامل ومطلعها:

عاتبته ونسيتِ طيب نجاره وأبيتِ أن تصغي إلى أعذاره

٧- ياعيد، (١٩٤٩) الديوان ص ٩٣- ٩٥، من البحر البسيط، ومطلعها:

ياعيد ما افتر ثغر المجد ياعيد فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد

٨- عام جديد (١٩٥٩) الديوان ص ٦٤- ٦٦، من مجزوء الكامل، ومطلعها:

وحدي هنا في حجرتي والليل والعام الوليد

٩- هكذا : (١٩٥٤) الديوان، ص(٢٥- ٢٧)، من البحر الخفيف، ومطلعها:

صاحَ يا عبد فرفَ الطيب واستعر الكأس وضج المضجع

١٠- بنات الشاعر: (١٩٦٩) ألقيت في حفل تأبين الشاعر اللبناني الأخطل الصغير (الديوان ٦٧-٧٨) من البحر البسيط، ومطلعها:

نديك السمح له يخنق له وتر ولم يغب عن حواشي ليله سمر

١١- أنا في مكة، بلا تاريخ، مجموعة أمرك يارب، ١٣٩٨هـ، ص ٣٧- ٥٧، من البحر الخفيف، مطلعها :

لم تزالي على ممرّ الليالي موئل الحقّ ياعروس الرمال

١٢- أمرك يارب، ١٣٩٥هـ، مجموعة أمرك يارب، ١٣٩٨هـ، ص ٩-١٩، ومطلعها:

يا ربّ أمرك هذا لاأطيق له ردّاً فأمرك ياربي تولاّني





آفاق المعرفة



لنجعل القدس رمزاً

د. عزت السيد أحمد*

جراح القدس بليغة عميقة..

كبرياؤها نازف..

وكرامتها منتهكة..

وأهلها يستغيثون..

والعالم (يتفرج) ويصفق

وكأنَّهُ يستمتع بعرضٍ مسرحي

وحماةُ القدس يقهقهون

يتبادلون اتهامات التقصير

* باحث في علم الاجتماع (سورية).



ويتشاتمون

يدَّعون حمل الأمانة

ويزايدون

والقدس تستغيث

وأهلها يستغيثون

والكبرياء تنزف

والكرامة تُجْهَضُ

ويعلو الأنين

من أين نبدأ؟

كلُّ البدايات كانت خاطئة

وبعد كلِّ بدايةٍ بدايةٌ خاطئة

ونترك المبادرات للآخرين

أمــران يوقفــان المفكــر أو الكاتبَ في حــيرةٍ؛ أن تضيــق مخيلته عن فكــرةٍ ينسجُ حولها كلامه في موضوعٍ ينبغي أن يقول فيه شيئاً، وأن تتزاحم عليه الأفكارُ المتكافئة في أهميتها في موضوعٍ واحدٍ فيحار في الفكرة الَّتي يبدأ بها كلامــه، لأنَّ كلَّ فكرةٍ تفرض ذاتها بوصفهــا الأكثر أهميَّةً. والحديث عن القدس عند أي مفكر أو كاتبٍ أو باحثٍ هي مــن هذا القبيل الثــاني، لأنَّ القدس ليست محض مدينةٍ كغيرها من المدنِ في أيِّ مستوى من مستويات الكلام أو الأفكار الَّتي تفرضُ ذاتها حَتَّى لو كانت هذه الأفكار مشتركةً مع مدنٍ أُخْرَى.

فــإذا كان الكلام عن القدســ بوصفها مدينةً محتلةً، ومن ثَمَّ المعاناة من الاحتلال، فإنَّ فكرة الاحتلال والمعاناة منه فكرةٌ تشترك فيها كثيرٌ من المدنِ، ولكــنَّ القدس وحدها من المــدن الَّتي احتلَّتْ تتعرض لاحتلالٍ من نــوعٍ مختلفٍ عــن كلِّ أنواعِ الاحتــلال عَبْرَ التاريخ هــو الاحتلال الاستيطاني، ويختلف هــذا الاحتلال الاستيطانيُّ عن كلِّ ما يمكنُ أن يسمى احتلالاً استيطانيًّا أيضاً بأَنَّهُ يقوم على تزوير جلــيٍّ للتاريخ، ومزاعمَ واهيةٍ لا تصمــدُ لحظةً أمامَ أيِّ مناقشةٍ تحترمُ أدنى أوليات العقل، ويضاف إلى ذلك مما يرتبطُ به أمران على الأقلِّ خطيران:

أولهمــا أَنَّهُ على الرَّغْمِ من هشاشة هذه المزاعــمِ وقابليتها للتداعــي والانهيار أمامَ أي مناقشةٍ عقليــة أو علميَّة أو أخلاقيَّة... فــإنَّ العــالم الغربي كلــه تقريبــاً، وخاصَّة الحكومــات منه، تقــف وراء هذا الاحتلالِ وقفةً حديديَّــة، وتبذل الغــالي والرخيص للدفاعِ عن الاحتلال، وتصويره على أَنَّهُ حقٌّ شرعــيٌّ، وفي المقابل من ذلك تماماً تتجاهل هذه الــدول حقَّ الأهــل الأصليين للمدينة تجاهلاً غريباً مُريبــاً يجعل الحليم حيراناً

ويفقد الحكيم صوابه. ولا نبالغ في هذا السياق إذا قلنا إنَّ السياسة الغربيَّة تنطلق من قناعة أكيدة واثقة بأنَّ الكيان الصهيوني كيان مزروع في مكان لا انسجام قط بينه وبَيْنَ المحيط الذي زرع فيه، ولذلك سمعنا الكثير من التصريحات التي صدرت عن مسؤولين غربيين تعلن صراحة أنَّ إسرائيل وجدت لتبقى، وقد كثرت هذه التصريحات مع انطلاقة مؤتمر مدريد للسلام العربي الصهيوني في عام ١٩٩٢م، وطبيعة هذا التصريح تكفي وحدها لتوضح أنَّ الغرب يتعامل مع الكيان الصهيوني على أنَّهُ كيان مزروع في غير أرضه، وعلى أرض لها أهلها، ولذلك تبدو الازدواجية واضحة في السياسة الغربية تجاه هذا الموضوع.

ثانيهما أنَّ هذا العالم الغربي، وهو الذي زرع هذا الاحتلال وكرَّسه وصان وجوده، وبممارسة تفقأ عين كلِّ عقل ومنطق، لم يكتفِ بالاقتناع المريب بهذه المزاعم الواهية، المتناقضة الَّتي تفتقر إلى أدنى حدود التماسك مع المنطق أو العقل أو التاريخ، بل يريد أن يفرض على أهل القدس وعلى العالم العربي والإسلامي أن يقتنعوا بهذه المزاعم، ويعتقدونها قبل دينهم ديناً، بل لَقَد كشفت بعض الوثائق عن سعي الإدارة الأمريكية لمنع العالم الإسلامي، ومنه العربي، من تدريس الآيات القرآنية الَّتي تحض المسلمين على الجهاد، أو حَتَّى تتحدَّث عن اليهود!!! وفي هذا السياق أيضاً نجد تسابق السياسيين الأمريكيين خاصَّةً، والغربيين عامَّة، في الاعتراف بالقدس عاصمة للكيان الصهيوني، وعدم تقسيم القدس بوصفها عاصمة لهذا الكيان. وكذلك نجد التجاهل الأعمى الحاقد للسياسات الصهيونية في تهويد القدس وإقامة المستوطنات فيها، والسعي الدائم لتهجير المقدسيين، ومنعهم من ممارسة حقوقهم وشعائرهم في القدس، وكذلك العمل على إزالة كل الملامح العربيَّة والإسلاميَّة من القدس عل طريق هذا التهويد.

أما إذا أردنا الحديث عن معاناة أهل القدس من الاحتلال فإنَّ الأمر سيطول بنا كثيراً، لأَنَّهُ على الرَّغْمِ من اشتراك كلِّ المدن المحتلة بالمعاناة فإنَّ معاناة أهل القدس مختلفةٌ أيضاً عن كلِّ معاناة، وحسبنا من هذا الاختلاف الصورة المقلوبة الَّتي تصل إلى العالم عن هذه المعاناة، فعلى الرَّغْمِ من وضوح الوحشية الصهيونية في اغتيال الأطفال والأبرياء بالطَّائرات والدَّبابات ومختلف الأسلحة النارية، وعدم امتلاك

أهــل القدس أكثر مــن الحجارة للدفاع عن أنفسهم فإن العالم الغربي يتحدث عن إرهاب فلسطينــي، وعنف فلسطينــي، واعتداءات فلسطينيَّة..!!! وتزداد الصُّورة فاجعيَّةً هنا عندمــا نشاهد الإعلام الغربي والحكومات الغربيــة تتهافت على استرضــاء الاحتلال الغاشــم وتسويغ وحشيتــه وتصويرها على أنَّها براءة الحمــلان الوديعة. ويتكالبون في الضَّغط على أهل القدس لإيقافِ (إرهابهم المدجج بمختلــف أنواع الحجارة والحصى) الذي يهدد أمن الاحتلال!!! ولذلك لا عجب في أن نجد غير واحدٍ من أمثال ديفيد روتم النائب في الكنيســت الصهيوني «يعرب عن استعداده لتفجير المسجــد الأقصى ومحوه من الوجود إذا كان هذا هو الطريق الوحيد للإفراج عن الجنود الإسرائيليين المحتجزين لدى حركتي حماســ وحزب الله». وأضاف «إنَّ إزالة المسجــد الأقصى من الوجود قد يحقِّق السَّلام الدَّائم»، وذريعته في ذلك: «أنَّ النِّزاع الفلسطيني الإسرائيلي ليس سياسيًّا.. إنَّما هو صراع بَــيْنَ الدِّيانة الإسلاميَّة التي لا تريدنا هنا، والديانة اليهودية، التي تريد الاستقرار في فلسطين».

سنفترضــ أنَّ ذلــك كله أمــرٌ مقبولٌ أو عاديٌّ في سياق الصِّــراع أيًّا كان مضمونه، وخاصَّةً في حقِّ القــوي في تصوير الصِّراع كيفما أراد ووافق مصالحه، ومن ثُمَّ فإنَّنا لن نلوم الغرب على عقليته المقلوبة هذه. ولكن الــذي لا يمكن تغافله أو تجاهله هو المنطق المقابل لهذا المنطق، أي المنطق المقابل لمنطق القوة وهو منطق الحق والتاريخ، هذا المنطق الذي سينصف القدس، وسيعيد لها كرامتها وكبرياءها ومكانتها، فمهما انقلبت الحقائق، ومهمــا زوِّرَ التاريخ والواقع، وحَتَّى لو كانت القدس مدينــة ككل المدن لا خصوصيَّة لها فإنَّها تبقــى وطناً له أهلــه وأصحابه، كلُّنا يعرفُ أنَّ سموَّ الوطــن في النفس وقداسته لا تأتــي من كون مائه غير الماء، ولا من كون هوائه غير الهواء، ولكن لأنَّهُ وطن، وقد أثبت التَّاريــخ أنَّ الوطن لا ينســى ولا يموت ولا يمكــن أن يخرج من النفس حَتَّى لو خرجت النفس منه!!!

هذا يعني حقيقة أساسيَّة واحدة هي أن المستقبل، قَرُبَ أم ابتعد، الذي سيعيد الحقَّ إلَى نصابه لن يرحم المتخاذلين من حاضرنا، ولــن يغفر تكاسلهم وقلة حيلتهم.. فلماذا لا يحسب هؤلاء لهذا اليوم حسابه؟!

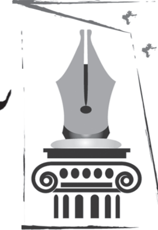
ولكــن لعنــة التاريــخ لن تكــون قليلة، وحسابــه لن يكون يسيراً، لأن القدس ليست كأي مدينــة من المــدن، فاسمهــا القدس،

والقدس مـن القداسة، وأي مدينة في العالم اسمهـا القداسة غير القدسـ؟! وأي مدينة في العـالم اجتمعـت فيها مقدسـات أديان الله الثلاثـة معاً غير القدسـ؟! وأي مدينة في العالم تسـاوت محبتها وقدستها في قلوب المؤمنـين بالله من كل الأديان غير القدس؟! وأي مدينة دُنست قداستها وانتهكت كرامتها في ظـلِّ الصَّمت الرَّهيـب المريب من العالم معظمه؟!!

بقدر هذه القداسة، وبقدر هذه الجرائم سيكون الحساب والعقـاب؛ لمن قصَّر، ولمن سكت، ولمن شارك، ولمن قام بالفعل.. فلنفكر في يـوم الحساب هـذا لأنَّهُ لن ينجـو آثمٌ أبداً.

يجـب أن نسعـى بـكلِّ مـا نستطيـع، وبمختلـف الأساليـب والوسائـل المتاحـة والممكنة كي نعيد للقدس كرامتها وكبرياءها وشموخها، القدس أكبر من كلِّ الرموز فلماذا لا نجعلها رمزاً؟! يجب أن نعلنها رمزاً يتقدَّم كل الأحداث والأخبار كي لا تفارق الأذهان لحظـةً أو ومضةً لأنَّ غيابهـا عن الأذهان خيانـة، وقبولنا بالخيانة كفـرٌ، وليس بعد الكفر ذنب.. ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.





آفاق المعرفة



القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي ومحاولة طمس الهوية العربية

د. محمد يحيى خراط *

عند قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م بقرار ظالم من منظمة الأمم المتحدة، قسمت القدس إلى «شطرين»، القدس الغربية وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي، والقدس الشرقية وبقيت عربية ضمن ما يعرف «بالضفة الغربية» والتي كانت تحت الإشراف والإدارة الأردنية.

في ذلك الحين كانت مساحة القدس الشرقية المغتصبة تبلغ ٢٠٣٣١ دونماً. ومع بدايات الاحتلالِ الصهيوني للقدس الشرقيةِ عام ١٩٦٧م، بدأت

* باحث في التراث العربي ووزير سابق



خطواتُ تهويدِ المدينــة ومحيطها، بالتزامن والتكامـلِ مـعَ الإجــراءات الصهيونيــةِ علــى الأرض ضــدّ العــرب وتجمعاتِهم في المنطقــة. في هذا السيــاقِ، أعلنت سلطاتُ الاحتلال عن توحيد شطري القدس بتاريخ ١٩٦٧/٦/٢٨م. وطبقــاً لنهــج السيطــرةِ علــى أكبر مساحــة ممكنةٍ مــن الأرض معَ أقلّ عــددٍ ممكنٍ من المواطنــين العربِ، تمّ إدخال ٢٨ قرية ومدينة عربية ضمن حدودِ القدس التــي ضُمَّتْ، فاتسعت هذهِ الحدودُ مــن ٥,٦كم إلى ٧٠,٥كم، ولتصبحَ مساحةُ القدس بشطريــه ١٠٨,٥ كم٢، ثم توسيعها لاحقاً سنــة (١٩٩٠م) إلى ١٢٣كم٢، ثم إلى ١٢٦كم٢ حالياً. ولا يخفى أنّ عمليةَ التوسعِ المتكــررةَ هــذهِ ترمي إلى قضــمِ المزيد من الأراضي لتكونَ خارج المساومةِ السياسيةِ في أيّ حلٍّ مستقبلي لمشكلة القدس.

وحسب دراسةٍ صدرتْ عن مركز العودةِ الفلسطيني في لنــدنَ، قُدّر عدد المقدسيين الذين هُجِّروا من ديارِهم وانتزعت أملاكُهم منهم عام ١٩٤٨م بنحو ثمانيةٍ وتسعينَ ألف شخص، وقُدِّرت مساحةُ أملاكهم بنحو ٢٧٣ ألف دونم. وبلــغ عددُ القرى المقدسيةِ التي تعرّضت للتهجــيرِ والمصــادراتِ ٣٩ قريةً. وبعــد ٥٠ عاماً (أي في العــام ١٩٩٨م) بلغَ عددُ اللاجئين الذين تعود أصولهم إلى هذه القرى أكثر من ٦٠٠ ألف شخص.

وفي نطاق الممارســات الصهيونيةِ التي تأطّرَتْ بنهجِ تهويدِ القدس، تتابعت عملياتُ التهجير التــي تعرض لها المواطنونَ العربُ. ويتبين من متابعةِ مفــرزاتِ تلك الممارساتِ ما يلي:

- خــلال السنــواتِ الثلاثــين ونيّــفٍ الماضيةِ، تم إجبارُ نحو سبعينَ ألف مقدسيّ على النزوح.

- منــذ العام ١٩٨٢م، ترفضُــ سلطاتُ الاحتــلال تسجيــل آلافِ المقدسيين الذين وُلِدوا في المدينةِ ولا تعترف بهم كمواطنين.

- مواصلــةُ التضييــقِ علــى المقدسيين لدفعهم إلى اليأسِ والرحيلِ.

- أسفــرتِ الممارســاتُ الصهيونيــةُ عن خفضــ عددِ الفلسطينيــين في المدينة القديمةِ، فيمــا ارتفع عددُهــم في مناطق محيطة بالمدينة (بيت لحم، بيرنبالا، الرام، أبو ديس، العيزرية.. إلخ).

وحســب تقريــرٍ نشرَهُ الجهــازُ المركزي

للإحصاء الفلسطيني (حزيران/يونيو ٢٠٠٠م) بلغتِ المساحةُ الإجماليةُ للأراضي التي صادرتها سلطاتُ الاحتلال من مناطق ٨٥٪ من إجمالي مساحةِ هذه المناطق.

وفي القدس القديمةِ ومحيطها، انتهجتِ السلطاتُ الصهيونيةُ أساليبَ متنوّعةً للاستيلاء على العقاراتِ والمباني العربية منها:

- إصدار القائدُ العسكريُّ الصهيونيُّ في المنطقة أمراً بتاريخ ١٩٦٩/٦/٢٥م بمصادرة سبعةَ عشرَ عقاراً ومتجراً وأماكنَ دينيةً في منطقة باب السلسلةِ، وحيِّ الواد يقطنها مئةٌ وخمسةُ أشخاص، وذلك لإقامة قواتِ الأمنِ فيها ونُقلت ملكيتُها للحكومةِ التي سَلّمت قسْماً من هذه العقاراتِ للمستوطنين في عام ١٩٩١م.

- الاستيلاءُ على بعض العقاراتِ العربيةِ في عقبة الخالديةِ والسرايا والسعديةِ وغيرها بوسائل عديدة منها: الترغيبُ بمبالغَ كبيرةٍ من المال، الاحتيالُ بتوقيع عقودٍ بينَ مستأجرين ثانويين لهذه المباني (أو حتى مع أشخاصٍ لا يمتّون لها بصلة).

- التهديدُ والمضايقاتُ مثل أصواتِ الضجيج وإلقاءِ القاذوراتِ وغيرها كما حصل مع المجاورين لمدرسة «شوفوبانيم».

- الاعتداءُ والقتلُ كما حدث مع الشهيدةِ فاطمة أبو ميالةَ التي قُتِلت عام ١٩٨٣م من قِبَل المستوطنين والاستيلاءُ على بيتها.

- محاولةُ الاستيلاء على المناطق الخالية من السكان والتي تعود ملكيتها إلى أطرافٍ متعددة وقد تكرّرت في أكثرَ من موقعٍ في البلدة القديمةِ، ومن ذلك استيلاؤُهم على ساحة جامعِ خان السلطان وحاكورةِ الصبرة، واستخدامُ أسطحةِ سوق العطارين واللحامين والخواجاتِ كطريقٍ للمستوطنين وإقامة جسورٍ على هذه الأسطحةِ، وذلك لربط الحي اليهودي بمنطقتيِ القرمي وعقبة الخالدية، علماً بأنّ ملكيتها تعود للأوقاف الإسلاميةِ وللوقف الذريّ للعائلات الإسلاميةِ المقدسية.

- قيام دائرةُ القيّمِ على أموال الغائبين بوضع يدِها على البيوت التي يملكها مواطنونَ عربٌ خارجَ القدسِ، ممّن لا يحملون هويةَ القدس التي أصدَرَتْها سلطاتُ الاحتلال، وتأجيرِها للمستوطنين كطرفٍ ثالثٍ، كما حصل في بيت عدنانَ خميس قرش

في حـارةِ السعدية ودار مراد في حي الشيخ جراح ودار أحمـد شحادة الفراعين وبيوت آل عباسٍ في سلوان وغيرهم كثيرون.

- وفي الحـالات المتنـازعِ عليهـا، كان المستوطنـونَ يقتحمون العقـار لخلق واقعٍ جديدٍ علـى الأرض، وإذا لجـأ صاحبُهُ أو مستأجره إلى المحكمةِ فإنّ القضية تستغرقُ سنواتٍ، ويكون المستوطنون خلالهَا قد سُمِحَ لهـم بالبقـاء في العقارِ المتنـازعِ عليه، كما فعلـوا في دارِ الزور في عقبـة السرايا ودارِ محمود أبو سنينة في عقبةِ الخالدية وإحدى غرف بيت عارف أبو صبيح في الحيّ نفسه ودار عابدين وسابيلا في باب حطة.

لقد بلـغ عدد المستعمـرات الصهيونية التي أقيمت علـى أراضي محافظة القدس (حسب التحديـدِ الإداريّ الفلسطينيّ) ٤٣ مستعمـرة تقوم على مساحـةٍ من الأراضي تزيد عن ٤٦ ألف دونم.

ويُلاحظ أنّ سلطاتِ الاحتلال الصهيونيِّ استمرتْ في إقامة المستعمرات على أراضي القدسِ بالرغم مما يسمّى عمليةَ «السلام» مع القيـادةِ الفلسطينية، وذلـك في تسابقٍ محمومٍ مـع الزمن، بهدف خلـق أمرٍ واقعٍ استيطـانيّ يحـول دون أيّ تغيـيراتٍ على الأوضـاع القائمة، خلالَ مرحلـة التسوية النهائية.

علـى الرغم من أنّ جميـع المستعمراتِ في القدسـ تشـكّلُ عواملَ مولّـدةً للصراع والمواجهة، كونَها أقيمتْ على أراضٍ مغتصبةٍ من أصحابها الشرعيّين، إلا أنّ هناك نقاطاً ساخنةً يمكـن أنْ تسهمَ في زيادةِ التوتر بينَ المواطنين العـربِ والمستوطنـين اليهودِ في المدينة.

السياسـة الصهيونيّة إزاءَ عـرب القدس:

لقد كانـت أولى وسائـلِ تهويد القدس التي اعتمدتها السلطاتُ الصهيونيةُ ولاتزال تعتمدها حتى الآنَ هي ذاتُها التي استخدَمتْها العصابـاتُ الصهيونيـة قبل عـام ١٩٤٨م وبعـده، أيْ عملياتُ القتـلِ والتدمير. فقد أمطرَتِ القـواتُ الغازيةُ مدينةَ القدسِ عامَ ١٩٦٧م بوابلٍ من القصفِ المتواصل بالقنابل المحرقةِ، جواً وأرضاً، وبالأسلحة الرشاشةِ، ممّـا أدّى إلى استشهـادِ ٣٠٠ مقدسيّ من المدنيّين، كانَ بينَهُـمْ عائلاتٌ بكاملها داخلَ منازلها، وبعضهم في الطرقات والأزقة أثناءَ

فزعِهم وهروبِهم من جحيم النيرانِ المسلطةِ عليهم.

ودمّرتِ القنابلُ الصهيونيةُ مئاتِ العقاراتِ السكنيةِ والتجارية، داخلَ السورِ وخارجَهُ، وأحرقت عشراتِ المخازن، وألحقت أضراراً فادحة بالمساجد والمشافي وسواها. وقامت السلطاتُ الصهيونيةُ بعد أربعةِ أيام من دخول القدسِ الشرقيةِ، وفي أقلَّ من أسبوع، بإزالة ١٣٥ داراً في حي المغاربةِ المجاورِ للحائط العربي للحرم القدسي (يسكنها ٦٥٠ شخصاً) ومسجدِ الحيِّ ذاتِه، ونحو ألفيْ منزلٍ ومخزنٍ في المناطق مجردةِ السلاح. وتبع ذلك هدْم عددٍ آخرَ من العقارات بينها مجموعةٌ متفرقةٌ من الدور بلغت ٢٤ داراً نسفها الجيشُ الصهيونيُّ بحجّة الانتقامِ من أعمال المقاومةِ. ولجأتِ السلطاتُ الصهيونيةُ عامَ ١٩٦٩م إلى نسف وتدمير ١٤ مبنى دينياً وأثرياً، بحجّة الكشف عن امتداد الحائطِ الغربيّ، ومنها مسجدٌ إسلاميٌّ والزاويةُ الفخريةُ. وكان من نتيجة هذهِ الأعمالِ تشريدُ ما يقربُ من ألفِ شخصٍ آخرينَ من سكان القدس.

وفي السنواتِ اللاحقةِ توالت عملياتُ القتلِ والتدمير الصهيونيةُ التي تعرّض لها المقدسيّون، وبلغت خلالَ السنواتِ الممتدةِ بينَ ١٩٨٨-١٩٩٩م ١١٠ شهداء. نصفُهم في العامين ١٩٨٩ أو ١٩٩٠ (أي خلالَ الانتفاضةِ الأولى) وتمّ هدمُ ٢٩٨ منزلاً في الفترةِ ذاتِها. هذا باستثناء تدميرِ المباني بحجة (أسبابٍ أمنيةٍ!).

وفي الحقيقة فإن هدمُ المنازلِ العربيةِ في القدس كان دائماً لأسباب سياسيةٍ واعتباراتٍ صهيونيةٍ واضحةٍ، أبرزها:

- التضييقُ على المواطنينَ المقدسيين بهدفِ إجبارِهم على تركِ المدينةِ وإلغاء حقّهم بالإقامة في القدس، وسحبِ هوياتِهم في مرحلةٍ لاحقةٍ بذريعة نقل مركزِ حياتِهم إلى خارجِ المدينة.

- إعطاءُ مجالٍ أكبرَ للتوسّع اليهوديِّ على حساب الأرضِ الفلسطينية، واستخدامِ هدم البيوت بحجّةِ عدم ترخيصها كأداةٍ لتفريغ المدينة من مواطنيها العربِ، مقابلَ ضخّ المزيدِ من اليهود إلى المنطقة.

ومن الحالات المعبّرةِ عن استمرار عملياتِ القتلِ الصهيونيةِ، ما حدث إبّانَ انتفاضةِ الأقصى التي انطلقت منذُ يوم

الجمعةِ الدامي (٢٠٠٠/٩/٢٩م). إذْ اقتحمت مجموعاتٌ كبيرةٌ من قوات الاحتلال ساحاتِ الحرم القدسي وهي تطلق النارَ عشوائياً باتجاهِ المصلينَ المسلمين، وكانت حصيلةُ اليوم الأول هي استشهادَ ٤ أشخاص وجرحَ أكثر من ٢٠٠ شخص (توفي أحدهم لاحقاً). وكانت الإصاباتُ في الجزء العلويّ من الجسم، الأمرَ الذي يعني أنّ الجنودَ الصهاينةَ رأوا في المصلين أعداءً ينبغي قتلُهم. ولولا عواملُ الحيطةِ التي اتّخذها الفلسطينيون لكان عددُ الإصاباتِ في ذلك اليوم أكبرَ. وفيما بعد تواصلتِ المواجهاتُ، ومنعت السلطاتُ الصهيونيةُ دخولَ الفلسطينيّين إلى القدسِ أيام الجمعةِ لأداءِ الصلاةِ. وبلغت حصيلةُ تلك المواجهاتِ خلالَ شهرين من الانتفاضةِ عشرةَ أشخاصٍ من البلدة القديمةِ والقرى المجاورةِ لها (٢٤) فضلاً عن أكثرَ من ٣٠٠ شهيد ونحو ١٣ ألف جريحٍ من مختلف الأراضي الفلسطينيةِ وتعرّضت غالبيةُ القرى إلى قصفٍ مركّزٍ من الدباباتِ والحوّاماتِ الصهيونيةِ أسفر عن تدميرِ مئاتِ المباني والمنشآتِ، هذا إلى جانب الممارساتِ الإجراميةِ الأخرى.

وبعد تهجير غالبيةِ عربِ القدسِ، سعَتْ سلطاتُ الاحتلال إلى تذويبِ ما يمكنُ من الأقليةِ العربيةِ الباقيةِ في المدينة، فلجأت إلى فصلِ هذه الأقليةِ عن سكان الضفةِ الغربيةِ، وأصبح هؤلاءِ بالاسم جزءاً من سكانِ دولةِ «إسرائيلَ» لكنّهم ظلّوا عملياً بمثابةِ أجانبَ محرومينَ من حقوق المواطنةِ ومن الخدماتِ البلديةِ، وتعرّضوا لجميعِ أنواع القهرِ والتمييزِ العنصريّ.

خلالَ عمليةِ التهويدِ الشاملةِ، أصدرتِ السلطاتُ الصهيونيةُ (في ١٩٦٨/٨/٢٨م) قانوناً جديداً لتطبيقهِ على عرب القدسِ أسمتْهُ «قانونَ التنظيماتِ القانونيةِ الإداريةِ لسنة ١٩٦٨م. ومن القيودِ والشروطِ التي يفرضها هذا القانونُ على أبناءِ القدس مايلي:

- كلُّ عربيٍّ صاحبِ عملٍ أو مهنةٍ وكان يمارسُ عملَهُ أو مهنتَهُ يجب عليه أنْ يحصلَ على رخصةٍ «إسرائيليةٍ» وبموجب القوانينِ «الإسرائيلية».

- كلُ شركةٍ عربيةٍ (خاصةٍ أم عاديةٍ أم محدودةٍ) قائمةٍ في القدس ومسجلةٍ بموجب القوانينِ الأردنيةِ، عليها أنْ تعيدَ تسجيلَ

نفسها لـدى المحاكم «الإسرائيلية» وبموجبِ القوانين والأنظمةِ «الإسرائيلية».

- كلُّ عربيٍ يعمل طبيباً أو مهندساً أو محامياً أو مدققَ حساباتٍ عليه أنْ يتقدَّم للسلطاتِ «الإسرائيلية» بطلبِ موافقةٍ تتيحُ له الاستمرارَ بمهنته بموجبِ القوانينِ «الإسرائيليةِ».

- كلُّ عربيٍ صاحبِ امتيازٍ أو علامةٍ تجاريةٍ أو اختراعٍ عليهِ أنْ يعيد تسجيلَ امتيازِه أو علامتِه أو اختراعه لدى السلطاتِ «الإسرائيليـة» وبموجب القوانينِ «الإسرائيلية».

ونلاحظ هنا أنّ تكرارَ عبارةِ «بموجبِ القوانينِ الإسرائيلية» يعني إعادةَ تشكيلِ الهويةِ الخاصة بجميع أشكال الأنشطة والأداءِ العامِ لعربِ القدس، لتكون النتيجةُ تهويداً للشخصية العربيةِ المقدسيةِ، حسبَ الأهدافِ الصهيونية.

لقد تعدّدت أساليب التضييقِ الصهيونيةُ على عمليات البناءِ والإسكانِ العربية، فتمّ تقليصُ المساحاتِ المخصصةِ للإنشاءات السكنيةِ للعرب شرقيَّ القدس، وتصنيفُ غالبيةِ الأراضي الخاصةِ بهم كمسطحات خضراءَ يمنعُ فيها البناءُ، لتكونَ احتياطاً استراتيجياً للاستيطانِ اليهودي، وشُقّتْ شوارعَ تهدف إلى منعِ البناء العربيِّ وصودرت أراضٍ واسعةٌ لاعتباراتٍ واهيةٍ متنوعة.

في نطاق هذه الأساليبِ، لم تخصّصِ السلطاتُ الصهيونيةُ للأبنيةِ السكنيةِ العربيةِ سوى ٥ كم٢ في المناطق الواقعةِ شرقيَّ القدسِ من أصل ١٧,٥ كم٢ حددت للبناء، أي نحو ٧٪ من مجموع الأراضي التي صودِرَتْ منذُ العام ١٩٦٧م وفي الوقتِ ذاته، لا تسمح سلطاتُ الاحتلال للعربِ بتشييدِ أكثرَ من ثلاثة طوابقَ في المبنى الواحدِ (مقابل السماح بثمانيةِ طوابقَ لليهود) وتضع أمامَ هذا التشييدِ عقباتٍ وشروطاً قاسيةً تكاد تكون تعجيزيةً منها رسومٌ وضرائبُ تصل إلى مئاتِ آلافِ الشيكلاتِ فضلاً عن المصاعب القانونيةِ والبيروقراطية لذا يواجه العربُ خياراتٍ صعبةً منها: مواصلةُ العيش في المكانِ ضمنَ أوضاعٍ وظروفٍ خانقةٍ، أو تكبدُ مصاريفَ عاليةٍ للبناء القانوني، أو المغامرةِ بالبناء دون ترخيص، أو مغادرة المدينة.

والنتيجةُ نشوءُ قوةٍ طاردةٍ تدفع العربَ للنزوح عن المدينة. ولا يخفى ما لهذا النزوحِ

من آثــارٍ كارثيةٍ على مستقبــل القدس، في المنظورَين السياسيِّ والاستراتيجي.

و بعــدَ الإحصاءِ الســكانيِّ الذي أجرته سلطاتُ الاحتلال لســكان القدس الشرقية المحتلــةِ عــامَ ١٩٦٧م، تبــيّن أنّ هناك ٦٦ ألــفَ مواطنٍ فلسطيني مقدسي ظلوا داخلَ حدود المدينةِ. آنذاك لم تقمِ السلطات بمنح هذا العددِ الحقَّ للمواطنة بموجب القانونِ الصهيــونيّ، بل منحتهــم «حــقَ الإقامةِ»، والفــرقُ واضحٌ بين الحالتــين، إذ أنّ الأولَ يعني حقاً أبدياً لا يملكُ أحدٌ إلغاءَهُ إلا ضمنَ ظــروفٍ معينة تتعلق بأمن الدولةِ، ومن قِبَلِ السلطاتِ الشرعية وليسَ سلطاتِ الاحتلال، أمّــا الثاني فيعني أنّ وزيــرَ الداخليةِ يملك الصلاحياتِ في كلّ وقــتٍ لإعطاء تعليماتٍ يمكن بموجبها حرمانُ الشخصِ من الإقامةِ في المدينــة، ويطبّق موظفــو الداخليةِ هذه التعليماتِ بصــورةٍ آلية دونَ الرجوع إلى أيّ مرجعٍ آخرَ.

كان النصُّــ القانــونيُّ المعتمدُ في هذه الحالةِ ما ورد في «قانون الدخول لإسرائيل» (لعام ١٩٥٢م) الذي طبّق على سكانِ القدس واعتبروا بموجبهِ مقيمين موجودين بتصريح هويةٍ تتيح لهم السكــنَ والعمل، وذلك على غــرارِ أيّ أجنبيٍ مقيــمٍ في القدس ويحمل هذهِ الهويةَ. وفي العام ١٩٧٤م صدرت أنظمةٌ تحكُمُ مسألةَ الدخول إلى «إسرائيلَ»، وكانت المادةُ الحاديةَ عشرةَ من هذهِ الأنظمةِ تنصُّ على أنّه يكون الشخصُ خارجَ «إسرائيلَ» إذا وُجِد خــارج حدود دولــة «إسرائيلَ» مدة ٧ سنوات أو أكثرَ، أو حصل على الإقامةِ الدائمةِ والجنسيةِ في دولة أخرى «وفسّرَتِ الأجهزةُ الصهيونيــةُ هذهِ المادةَ بأنّ أيّ مقدسيّ يقيمُ خارجَ القدس في الضفةِ الغربيةِ أو خارجَها ينطبق عليه هذا التعريفُ، أيّ إمكانُ سحبِ هويته المقدسية».

وفي التطبيق العملي، سمحَتِ السلطاتُ الصهيونيةُ للســكان المقدسيين وسواهم من المناطقِ المحتلةِ بالسفــر إلى الدول العربيةِ عــن طريق الأردنِ أو السفرِ إلى الخارج عن طريق مطارِ اللدِ، وذلك على أملِ ألا يعودوا إلى موطنِهــم. وكانتْ مــدةُ تصريحِ الخروجِ عبرَ الجسورِ معَ الأردن ثــلاثَ سنواتٍ، أمّا الخــروجُ من مطار اللدِ فــكان يتمُّ بواسطة وثيقةِ سفرٍ سياسيةٍ تصدرها وزارةُ الداخليةِ الصهيونيةِ ومدتها سنةٌ واحدةٌ. أما بالنسبة

للسكان المقدسيّين الذين سكنوا مناطقَ الضفةِ الغربيةِ فلم يكونوا بحاجةٍ إلى تصريحٍ معيّنٍ للدخول إلى القدس وحافظوا على الإقامة، ويبلغ عددُ هؤلاءِ حالياً نحو ٧٠ ألف مقدسيٍّ من أصل نحو ١٧٠ ألف مقدسيّ يحملون الهوياتِ الصادرةَ عن وزارة الداخلية الصهيونيةِ.

وفي أوائل العام ١٩٩٦م، قامت سلطاتُ الاحتلال بتبليغ المئاتِ من السكان المقدسيين بأنّ تصريحَ الإقامةِ الدائمة قد انتهى ولهذا فعليهم تركُ القدسِ وتسليمُ هوياتهم، وَوُجّهتْ هذهِ الإجراءاتُ على وجه الخصوصِ للمقدسيين المقيمين خارجَ حدود بلديةِ القدس. وطُبّقت بأثرٍ رجعيّ، مما عرّض الألوفَ منهم إلى خطر سحبِ الإقامةِ الدائمةِ وشطبِ أسمائهم من سجلات السكّانِ، بحجّة أنّهم نقلوا مركزَ حياتهم إلى خارج المدينة أو البلادِ. ولوحِظ أنّ حملةَ مصادرةِ هوياتِ الإقامة قد تصاعدَتْ في عهد حكومةِ اليمينِ الصهيوني (برئاسة نتنياهو) لكنّها استمرَّتْ في عهد حكومة باراكَ. وحسب إحصائيةٍ فلسطينية بلغَ عددُ المقدسيين الذينَ صودِرَتْ هويةُ إقامتهم في المدينة خلالَ السنوات ١٩٩٦-١٩٩٩م ما مجموعُهُ ٢٩٥٥ حالة مبلّغاً عنها، وذلك من أصل نحو ٦١٧٩ حالةً مصادرةً للهويات المقدسيةِ منذُ العامِ ١٩٦٧م.

تعبيراً عن الرفض التامِ للإجراءات الصهيونيةِ، أقامت عشراتُ العائلاتِ المقدسيةِ اللواتي سُحبت هوياتُهم مخيمَ الصمودِ والرباطِ على أرضِ وقفيةِ حي الصوانة المقدسيّ، بهدف الضغطِ على سلطات الاحتلالِ وحملِها عن التراجع عن إجراءاتها والكفّ عن حرمان العربِ من الإقامة في مدينتهم. ولكن وفي الوقت ذاته، وكرد فعل عكسيٍ شهدت مدينةُ القدسِ عودةً كثيفةً من أبنائها إلى الاستقرار في مدينتهم، ونشطت مؤسساتٌ أهلية وغيرُ حكوميةٍ في تمكين العائلاتِ من مواجهة الظروف القاسيةِ التي تكتنف الإقامةَ في المدينة. وقامت أطرٌ وفعالياتٌ فلسطينيةٌ بتنظيم أنشطةٍ إعلاميةٍ وحقوقيةٍ وسياسيةٍ واجتماعيةٍ ترمي إلى تعزيزِ صمودِ أبناءِ القدس.

أقلقتْ هذهِ الظاهرةُ السلطاتِ الصهيونيةَ، فحاولت تهدئةَ التوتّرِ باعتماد

مناورةٍ جديــدةٍ تقضي بالكــفّ عن سحب هويــاتِ المقدسيين (أواخــر العام ١٩٩٩م) وأخذت تُطبقُ مناورتَها هذهِ بصورةٍ محدودةٍ، وذلك بانتظار فرصةٍ أخرى يتمّ الإعدادُ لها وتكون بمثابة حلّ جذريٍّ يترتّبُ عليهِ تفريغُ القدسِ من أكبرِ عددٍ من مواطنيها العربِ.

في إطار التوجّهاتِ الصهيونيةِ المستقبليةِ إزاءَ مسألــةِ المواطنةِ المقدسيــةِ للعرب في المدينةِ وضَعَ طاقــمٌ مِنَ المسؤولين والخبراءِ والصهاينةِ خطةً جديدةً، من المتوقّع تطبيقُها لدى إنضاجِ ظروفِها الذاتيةِ، تتضمّن تقسيمَ العرب في القدسِ إلى خمسِ مجموعات، كما يلي:

- المجموعةِ الأولى : تشملُ سكانَ القدس الشرقيــةِ الذينَ شَملَهمُ الإحصاءُ الصهيونيُّ عامَ ١٩٦٧م، والذيــنَ يقطنون رسمياً داخلَ حدودِ بلديةِ القدسِ ويحصلون على تأشيراتِ إقامــةٍ دائمةٍ. وهــؤلاءِ تعــترفُ السلطاتُ الصهيونيةُ بإقامتهم ويمكنُهُمُ الحصولُ على حقوقِهِم الإداريةِ والاجتماعيةِ والخدميةِ.. إلخ.

- المجموعةِ الثانيةِ: تشملُ سكانَ القدسِ الذين كانوا يحملون تأشيرةَ الإقامةِ الدائمةِ التــي أُلغِيَت من قِبَــل السلطاتِ الصهيونيةِ لأسبابٍ متعــدّدةٍ، ويقيم هؤلاءِ في تجمّعاتٍ محيطةٍ بالقدس ويبلغ عددهم نحوَ ٧٠ ألف مواطــنٍ. وتــرى سلطاتُ الاحتــلالِ أنّ من حقّ أولئــك السكان الاحتفــاظُ ببطاقاتِهم (الزرقــاءِ) لتكونَ بمثابةِ تصريــحٍ لعبورِهِم الخطَ الأخضرَ لكنّ يتمّ حرمانُهم من الحقوقِ المدنيةِ والاجتماعيةِ والصحيةِ والتعويضاتِ ولا يملكون حقَّ المواطنةِ في القدس.

- المجموعــةِ الثالثةِ: تتكونُ ممّن جاؤوا للسكن في القدس عــن طريق جمعِ الشملِ، وكان هــؤلاءِ يعامَلونَ كمقيمــين أجانبَ، ثم سُمِح لهم بالإقامةِ الدائمةِ، وتعتزمُ السلطاتُ الصهيونيــةُ حرمانَهم من جميــعِ حقوقِهم الاجتماعية والصحية.. إلخ.

- المجموعــةِ الرابعةِ: تضــمّ مواطني القدسِ الذي يقيمون فيهــا لكنّهم يحملون بطاقاتِ الضفةِ الغربيــةِ (مثلَ سكانٍ: بيت حنينا القديمــةِ، الشيخ سعد، بيــت إكسا، الولجة، بيرعونة) ممــن ليس لهم مدخلٌ أو مخــرجٌ بينَ قراهم والمناطقِ المجاورةِ إلا عبر حدودِ بلديةِ القدس الغربيةِ الكبرى. وهؤلاءِ ستكــون بطاقاتُهم شبــهَ تصاريــحَ خاصةٍ

تخوّلهم الدخولَ أو الخروجَ إلى مناطقهم وإلى حدود غربيِّ القدسِ فقط، دونَ منحِهم حقَّ المواطنةِ المدنيةِ والاجتماعيةِ وسواها، وعدم اعتبارهم مواطنين مقدسيّين، على الرغم من استمرارِ فرضِ الضرائب على ممتلكاتهم وأنشطتِهم.

- المجموعةِ الخامسةِ: تتألفُ من سكان القرى الفلسطينيةِ المحيطةِ بالقدس التي شملها حقُّ الاقتراعِ للمجلس التشريعي الفلسطيني (مثل: العيزريةِ، أبو ديس، بدو، حزما، مخماس، الرام) وهيَ تجمّعاتٌ لن يكونَ لسكّانها أيُّ حقوقٍ ويمكنهم الحصولُ على تصاريحَ دخولِ القدسِ، مع إرغامِهم على دفع الضرائبِ لأنّهم ينتمون إلى المجالِ «الإسرائيلي»، بينما سيكونون من الناحيةِ الإداريةِ تابعين للسلطةِ الفلسطينيةِ.

إنّ من شأن تطبيقِ هذه الخطةِ إضافةَ تعقيدٍ آخرَ إلى مواطنة العرب في القدس، وسوف يترتّب على ذلك تقليصُ أعدادِ هؤلاءِ العربِ، وحصولُ الكيانِ الصهيوني على مكاسبَ سياسيةٍ وعمليةٍ تسرع وتأثّر في تهويد المدينةِ.

إزاءَ هذا الواقعِ المؤلم لسكان القدس بشكل خاص والفلسطينيين بشكل عام انطلقت انتفاضة الأقصى التي تحوّلت على الساحة العربيةِ-الإسلاميةِ إلى قوةِ توحيدٍ هائلةٍ يكاد لا يضاهيها أيُّ حدثٍ آخرَ، ففي الدائرة الأولى استقطبت المواجهةُ جميعَ شرائح الشعبِ الفلسطيني وقواه وفعالياته في الضفة والقطاع، وتلاشى «الخطُّ الأخضرُ» بانخراطِ عربِ فلسطينَ المحتلةِ منذ ١٩٤٨م في الانتفاضة، مؤكّدين بالشهداء والجرحى والخسائرِ الماديةِ وحدةَ الشعبِ والأرضِ والقضيةِ، ومعبّرين عن مركزيةِ القدسِ في انتمائهم الديني والوطنيّ. وفي الدائرةِ الثانيةِ عمّتْ مواقفُ التأييدِ والتضامنِ مع الانتفاضةِ مختلفَ العواصمِ والمدنِ العربيةِ والعالميةِ. وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على مكانةِ القدسِ والمدافعين عنها لدى العرب والمسلمين وقوى السلم والحرية في العالم.

وفي هذا المنحى، أفضتِ انتفاضةُ الأقصى إلى جملةٍ من الدروسِ والعِبَرِ التي عمّقت مساربَها بين مجملِ ثوابتِ الصراعِ العربي الصهيوني، وفي مقدّمتها:

- في زمن الأفرادِ قد تستطيعُ سلطاتُ الاحتلالِ أنْ تحقّق نصراً عسكرياً أو أنْ

تفرضَ الأمرَ الواقعَ بالقوة الغاشمة، بيْدَ أنّه في «زمن المجمّعاتِ» يخسر الصهيونيّون أيَّ معركةٍ حتى قبل أنْ تبدأ، بفعل القدرةِ الواعدةِ في الجانب العربيِّ الإسلامي.

- إنّ السيطرةَ الصهيونيةَ على القدس جعلتِ المدينةَ والمسجدَ الأقصى أقربَ إلى المسلم من ظلّه، وأنّ لعبةَ الموتِ التي تمارسها قواتُ الاحتلالِ أخفقت في بلورة حالةِ الردعِ التي يتوخّاها الصهيونيّون.

- أثبتت عملياتُ إطلاق النارِ وإجراءاتُ الإغلاق وحرمانُ المسلمين من الوصول إلى الحرمِ القدسيِّ أنّ سلطاتِ الاحتلالِ تسعى إلى مواصلةِ نهجها عبرَ تأجيج المشاعر، وتصويرِ الأمرِ على أنّه مجرّدُ كراهيةٍ إسلاميةٍ لليهود. وفي هذا تزييفٌ لطبيعة الصراعِ وأسبابِهِ المتعلقةِ باغتصاب الأرضِ وتهجير سكانِها، وتغطيةٍ على المساعي الراميةِ إلى شلّ قدرةِ الباقين في الوطن على البقاءِ والصمود.

- تشكّل قضيةُ القدس مدخلاً واسعاً للتاريخ الحقيقّي الذي يكتبه الشهداءُ والجرحى بدمائهم، كبديلٍ لرواية التناخ (العهد القديم) وللأضاليل والترهاتِ التي روّجَها العابثونَ بهذا التاريخ. وفي ضوء ما يجري، فمن غيرِ الممكن عزلُ هذهِ القضية عن مجملِ الموضوعاتِ التي يدور حولها الصراع.

- يمكن، منذُ الآنَ، اعتبارُ أيِّ حلٍّ وسطٍ «قد يتمّ التوصلُ إليه بشأن القدسِ، قنبلةٌ موقوتةٌ قابلةٌ للانفجار في أيّ لحظة، لأنّ حلاً كهذا سوفَ ينتقصُ بالضرورة من الحقّ العربي الإسلامي الثابتِ في القدس، ويعطي لليهود شرعيةً ترفضُ الأمةُ التسليمَ بها.

تؤكّد هذهِ الدروس أنّ الاحتلالَ يواجهُ أفقاً مسدوداً، فقضية القدس تختزل في سياقها الطبيعي صراعَ الوجودِ بينَ نقيضين يتعذّر التوفيقُ بينهما، أولاهما استمرارُ العملِ لاستكمال المشروعِ الصهيوني الاحتلالي، وثانيهما رفضُ الأمةِ الانصياعَ إلى مشيئة أعدائِها، مهما بلغت قوتُهم.

وفي خضمِ هذا الصراعِ فالأملُ معقودٌ على المخلصين من العربِ والمسلمين لإنقاذ القدسِ من براثن الاستعمارِ الاستيطاني الصهيوني وعودتِها عاصمةً لفلسطين، ولا سبيلَ إلى ذلك إلاّ بوحدةِ العربِ، فبالوحدةِ تعودُ القدسُ وبالفرقة لن تعود.

المراجع:

- حسين، غازي: الاستيطان اليهودي في فلسطين من الاستعمار إلى الامبريالية، اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٣م.
- روبرتس، ج.م. ترجمة فارس قطّان: موجز تاريخ العالم ج١، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ٢٠٠٤م.
- زريق، قسطنطين: الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول (معنى النكبة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان ط٣ – ٢٠٠١م.
- سويد، ياسين: الفن العسكري الإسلامي، أصوله ومصادره، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
- هيكل، محمد حسنين: الانفجار، حرب الثلاثين سنة ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة – مصر.
- وايزمن، حاييم: مذكرات حاييم وايزمن، دار الفنون للطباعة والنشر، بيروت، ودار قانون النهر للأبحاث والدراسات الإنسانية، صور ٢٠٠٦م.
- يوسف، محسن: سكان القدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، مجلة المؤرخ العربي (العدد ٥٧ – ١٩٩٩م)، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب – بغداد – العراق.





آفاق المعرفة



حائط البراق الشريف المسمى خطأ بحائط المبكى

شمس الدين العجلاني *

بدأت الحركة الصهيونية مسيرة التنقيب حول المسجد الأقصى بحثا عما تدعيــه من بقايا هيكل سليمان عام ١٨٩٠ باسم «جمعية صندوق استكشاف فلسطين» بهدف إيضاح ما جاء في التوراة وتأكيد مزاعمها حول حق اليهود التاريخـــي في فلسطين العربية.. وتوالت الجمعيـــات والمؤسسات والمنظمات بأسمـــاء مختلفة ومتعددة في البحث والتنقيب حول وتحت المسجد الأقصى، بهدف واحـــد هو إثبـــات المزاعم اليهوديـــة الصهيونية في هيـــكل سليمان المندثر..

* باحث وكاتب في التراث العربي (سورية).



وعلى مر السنين تثبت هذه الحفريات والتنقيبات أنه لا وجود لآثار هيكل سليمان في مدينة القدس العربية، لقد قال العلم والتاريخ كلمته بالنسبة لهيكل سليمان فقد أكدت الدراسات أنه لا يوجد أي آثار عبرانية تعود إلى الدور الأول من العصر الحديدي «١٢٠٠ - ٥٩٠٠ ق. م».

هذا مع العلم أن الدكتورة كاثلين كينون قامت عام ١٩٦٠ بإعادة التنقيب في الأماكن التي سبق وأن جرى فيها التنقيب الأثري وذكرت في تقريرها أن المكتشفات التي توصلت إليها لم تكن إلا من العصر اليوناني في القرن الثاني ق. م. وكذلك جاء في تقرير البروفسور اليهودي بنيامين مازار الذي أصدرته الجمعية الأثرية الإسرائيلية عام ١٩٧٠ أن الجدار الجنوبي للأقصى هو بناء إسلامي وما تحت الآثار الإسلامية تعود إلى أيام مدينة «إيليا»، وكذلك نفت عدة مصادر أخرى يهودية وغربية أن يكون لما يسمى بـ «حائط المبكى» أي علاقة بهيكل سليمان المندثر.. في حين تؤكد الحركة الصهيونية الآن أنه الجزء المتبقي من هيكل سليمان.. فالأنسيكلوبيديا اليهودية التي نشرت عام ١٩٠١ لم تتضمن مادة تتعلق «بحائط المبكى» تحت أي اسم، غير أن تلك التي نشرت عام ١٩٣٩ تضمنت مادة عن الحائط المذكور مع اسمه اليهودي.. وأيضا الانسيكلوبيديا الصادرة عن جامعة كولومبيا عام ١٩٦٤ تحت اسم كولومبيا فايكنغ دسك أشارت في الصفحة ٩٠٢ تحت مادة القدس فقرة المسجد الأقصى ما يلي: «جزء من جدار الحرم يعتقد أنه مصنوع من حجارة مأخوذة من معبد سليمان وهذا المسمى «حائط المبكى» مقدس لدى اليهود. وأيضا أشار الشيخ عبد الحميد السائح نقلا عن الأستاذ العامري عن دائرة المعارف البريطانية، أنه ليس من المؤكد أن الهيكل كان في حرم المسجد الأقصى (مجلة القدس العدد ٢١ تاريخ ١/٨/١٩٨١).

وفي مذكرة قدمها الأستاذ رفيق الدجاني مدير الآثار الأردنية إلى لجنة المتخصصين في الحفريات التي عقدتها إدارة فلسطين - الأمانة العامة للجامعة العربية - عام ١٩٧١ ذكر فيها أن الحفريات منذ أكثر من قرن فشلت في العثور على إثباتات قاطعة مقنعة من آثار الهيكل في الحرم الشريف.. وفي مقابلة صحفية (صحيفة تشرين أيلول ١٩٨١) مع الدكتور هورست كلينغل مدير الدراسات الشرقية القديمة في أكاديمية العلوم بألمانيا الديمقراطية

ذكر: «هذه الحفريات لا تتم لهدف علمي بل تمثل استثارة واستفزاز للشعب العربي لأن هذه التنقيبات من وجهة النظر العلمية الحقيقية لا حاجة لها إطلاقا. ومن المبادئ المعروفة في علم الآثار احترام النصب والآثار المعمارية والتاريخية. فمثلا لو كان هناك معبد تاريخي هام تحت الجامع الأموي بدمشق أو تحت الجامع الكبير في حلب لما جاز هدمها بحجة التنقيب عن ذلك المعبد، كما لا يجوز مثلا هدم أثار تدمر للبحث عن آثار أخرى تحتها».

ومع كل ذلك يحفرون وينقبون ويبحثون.. أحاطوا القدس العربية بمستعمراتهم الإرهابية.. هدموا معالمها العربية.. أعلنوها عاصمة أبدية لهم ومنحوها زورا وبهتانا جنسيتهم العنصرية.. وما زالوا يحفرون وينقبون، لقد سرقوا كل شيء الزيتون والقمر وزرقة السماء، وصادروا كل شيء الطفولة والبسمة والتاريخ.. وما زالوا يحفرون وينقبون والمدينة المقدسة صامدة وأبناؤها صامدون يدافعون عن المسجد الأقصى بالبندقية وغصن الزيتون ويستصرخون أبناء الوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج لتحريره من نير الاستعمار الصهيوني..

الجدار الغربي للمسجد الأقصى:

يحيط بالمسجد الأقصى من جهاته الأربع سور الحرم الشريف وهو سور عظيم منيع عنيَ المسلمون به وبما حوله في مختلف العصور لما له من التأثير في المحافظة على هذا المسجد المبارك، أنشؤوا فوقه المدارس والزوايا وحبسوا ما حوله من الخارج أوقافا حتى أصبح محاطا حينئذ داخلا وخارجا بألوف المتعلمين والعابدين والزائرين.

وفي الساحة من القسم الغربي من هذا السور مكان له قيمة عظمى عند المسلمين لأنه موضع البراق الشريف نسبة إلى براق النبي، صلى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء. فكان له منهم عناية خاصة، إذ حبسوا ما يحيط ويتصل به أوقافا على المسلمين وعلى زاوية الشيخ الإمام العالم العارف أبي مدين شعيب بن الشيخ المجاهد العالم أبي عبد الله محمد بن أبي مدين شعيب المغربي. وأنشئت هنالك منازل الوقف متراصة بحيث أحاط المسلمون سكانها بمكان البراق الشريف من الخارج إحاطة مؤدية إلى حراسته. وقد بلغ من تراص هذه المنازل حول هذا المكان الذي هو جدار الحرم وبقية أبنية هذا الوقف استعمل ممر ليسلك منه السكان المسلمون إلى منازلهم.

هذا الممر الخاص الموقوف وقفا إسلاميا

لم يمانــع المسلمــون فيما مضــى الزائرين والسائحين على اختلاف طوائفهم وأديانهم وفي جملتهم اليهود مــن الوقوف للنظر إلى تلك الناحية التاريخية الأثرية من الخارج.

غــير أن اليهود أخــذوا تدريجا يقلبون هذه الزيارة العادية إلى مراسم دينية، الأمر الذي انتبه إليــه المسلمون في حينه وأخذوا يقفــون دون أية محاولة من هؤلاء الطامعين يخرجون بها عن حدود الزيارة العادية.

مطامع اليهود ومحاولاتهم قبل الاحتلال:

يرمــي اليهود منذ أمــد بعيد إلى غاية رهيبة هــي انتــزاع المسجــد الأقصى من يد المسلمــين بزعم أنه (الهيــكل)، ولكنهم لم يكونــوا يصرحــون هذا قبــلا لأن البلاد المقدسة كانت في حراسة المسلمين أنفسهم، وإنما كانوا يحاولون من آن لآخر إغفال ذوي الشأن والاستفــادة من إباحة الوقوف خلف الجدار المذكور ليمنحوا تساهلا أوسع.

ولكن هذه المحاولات لم تكن تجديهم نفعا رغــم ما كانوا يتوسلون به من شتى الوسائل وخصوصا في عهد الحكومة العثمانية. فقد دأب زعماؤهم علــى التوسل إليها بمختلف الطــرق وبألوان من المطالب التي قد تخفي تحتهــا تلك الغاية مــن تأسيس حق لهم في ذلك المــكان الإسلامي المقدس يكون خطوة في سبيــل تحقيق مطامعهم الرهيبة، فكانوا يحاولــون حينا أن يصحبــوا معهم كراسي ومقاعد يجلسون عليها وحينا آخر يحاولون وضع موائد ومصابيح وغيرها.

غــير أن ولاة الأمــور حينــذاك كانــوا يحظــرون عليهــم ذلــك ويقمعونــه بشدة ويمنعونهم مــن أن يتجاوزوا الزيارة العادية بوضعهــا وشكلها إلى أيســر يسير، كما ظهر ذلك من الوثائق ومن قرارات (مجالس إدارة اللواء) في زمن الحكومة العثمانية.

محاولات اليهود بعد الاحتلال البريطاني:

لم يكــن فشل اليهــود المتكرر في عهد السلطــات الإسلاميــة ليقلع بهــم عن تلك المطامع الرهيبــة، ولكنها خبت في نفوسهم كما تخبو النار تحت الرماد.

فمــا أن كان الاحتلال ومــا أن منحو الوعد البريطاني القومي اليهودي بفلسطين حتى تطاير ذلك الرماد وعادت تلك المطامع تتأجــج وظهر لهيبها علــى ألسنة زعمائهم وغوغائييهم في جميع العالم، فأخذوا يعلنون مــا كتمــوا متخذين من الاحتــلال والوعد بالوطــن القومي قوة ظنوها كافية لتحملهم من الاستهانة بالرأي العام..

حائط البراق الشريف :

تطالعنا وسائل الإعلام المختلفة و منها العربية بين الفينة و الأخرى بأخبار حول المسجد الأقصى و يذكرون اسم حائط البراق الشريف خطأ باسم حائط المبكى و هو التسمية اليهودية ظهرت كما سيمر معنا حديثا..

يطلق الصهاينة اسم حائط المبكى على حوالي ثلاثين مترا من الحائط الغربي للحرم الشريف البالغ طوله ١٠٠م وعلوه ٢٠م ويزعمون أن هذا الجزء من الحائط هو الأثر المتبقي من هيكل سليمان.

إن هذه الناحية من الجدار، هي مكان البراق الشريف نسبة لبراق النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وإن المسلمين في جميع الأقطار يجلون الإسراء الذي جاء نصا في القرآن الكريم. وهذا الجدار هو جدار المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين، الذي هو عند المسلمين عامة بمنزلة حرم مكة المشرفة وحرم المدينة المنورة، وكل جزء من الحرم الشريف وكل جدار يحيطه بما فيه هذا الجدار الغربي هو في عقيدة المسلمين جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى المبارك الذي أشار النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى فضل زيارته والصلاة فيه، وشد الرحال إليه، من أدنى الجهات وأقصاها.

هذا ويمتد أمام هذا الحائط رصيف بعرض أربعة أمتار تقريبا وعلى مسافة قصيرة من الرصيف وإلى الجنوب منه يتشكل ضمن الحائط تجويف صغير تذكر الكتب الدينية الإسلامية أن الرسول العربي محمد «صلى الله عليه وسلم» ربط براقه «دابته» به أثناء إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لقوله «صلى الله عليه وسلم» أتيت بالبراق فركبته، حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. (رواه أنس بن مالك) ومنذ ذلك التاريخ يطلق اسم البراق الشريف على هذا الحائط تيمنا بربط الرسول «صلى الله عليه وسلم» لبراقه به.

وتعود تاريخ أحجار هذا الحائط إلى عصور مختلفة فالأحجار المنحوتة الضخمة في أسفله تعود إلى زمن هيرودوس ويعلوها أحجار غير منحوتة تعود إلى العصر الروماني والطبقات العلوية من الحجارة تعود إلى عام ١٥٠٠م وذلك حسب رأي أغلبية علماء الآثار.

وقصة (حائط المبكى) بدعة ابتدعها

زعمـاء الصهاينة حديثا لربـط اليهود من جميـع أنحاء العـالم بأي أثـر مقدسي لهم في فلسطين يثـير مكامن الشعور فيهم بغية تجميعهم لإعادة بناء هيـكل سليمان مكان المسجـد الأقصـى، وبعـد أن رأى هـؤلاء الصهاينـة أن قضيـة الحائـط تجـاوزت أهميتها الدينية إلى الناحية السياسية التي يمكن استغلالها على صعيـد أوسع وأشمل أكدوا من خلال مؤتمراتهم ووسائل إعلامهم المختلفة. أن هذا الجـزء من حائط البراق الشريف هو في الأصـل جزء باق من هيكل سليمـان لذا يجـب الكشف عنـه وإلحاقه بالممتلكات الدينية اليهودية.

وأوضح دليل على أن قضية حائط المبكى هي قضية مستحدثة أن الموسوعة اليهودية التي نشرت عـام ١٩٠١ لم تشر من قريب أو بعيـد إلى أية مادة تتعلـق بالحائط المذكور مع اسمه اليهودي «حائط المبكى» بينما تلك التـي نشرت عام ١٩٣٩ تضمنت مادة تتعلق بالحائـط مع اسمه اليهـودي وعلى أنه من بقايا هيكل سليمان..

هـذا وحـين اشتد ساعـد اليهود في فلسطين العربية بدعم من الاستعمار الغربي أخذوا يتقربون من الحائط لإضفاء الصفة اليهوديـة عليـه وتغيـير وضعـه التاريخي وصفاتـه الإسلامية، فبـدؤوا يتسللون إليه ويضعون حوله الستائر ويضيئونه بالمصابيح ويتجمهـرون حوله أيـام السبت وهذا مما أثار حفيظة المواطنين العرب ضد المحاولات اليهودية الرامية إلى قرار حقوق ثابتة لهم في حائط البراق الشريف.. وبدأت الاشتباكات اليومية بـين العرب واليهـود إلى أن بلغت ذروتهـا عام ١٩٢٩، ممـا اضطر الحكومة البريطانية آنذاك للتدخل للحد من انتفاضة الشعـب العربي، فطلبت مـن عصبة الأمم المتحـدة «الأمم المتحدة حاليا» تشكيل لجنة للتحقيق في ملكية الحائط واتخذت عصبة الأمم قـرارا يقضـي بتشكيـل لجنة دولية للتحقيـق في ملكية حائط الـبراق الشريف وكانت مهمة هذه اللجنة:

(تسويـة الحقـوق والمطالـب للعـرب واليهود).

وفي ٢ أيـار من عـام ١٩٣٠ تشكلت هذه اللجنة من:

١ - الياسـ لوففـون: وزيـر الشـؤون الخارجيـة في حكومة أسـوج سابقا وعضو مجلس الأعيان رئيسا.

٢ - تشارلسـ بـاردي: رئيسـ محكمة

العــدل في جنيف ورئيــس محكمة التحكيم النمساوية – الرومانية المشتركة عضــوا.

٣ – فان كمــين: حاكم الساحل الشرقي لجزيرة سومطرة سابقا عضــوا.

وبتاريخ الخامس من أيار من عام ١٩٣٠ وافــق مجلس عصبــة الأمم علــى مباشرة اللجنة عملها فاجتمعت اللجنة لأول مرة في جنــوى ومن ثم انتقلــت إلى القدس العربية بتاريخ ١٩حزيران ١٩٣٠ وعقدت هناك ٢٣ اجتماعــا في الفترة الواقعة بين ٢٣ حزيران و ١٩ تمــوز استمعــت خلالهــا إلى العديد من المواطنــين والأهالي العــرب بالإضافة إلى المستوطنــين اليهود وتقــدم إلى اللجنة ٢٩شاهدا استدعاهم وكلاء فريق المسلمين، ومن أبرز وكلاء المسلمين أمين عبد الهادي، أمين التميمــي، فخري الحسينــي، الشيخ حسن أبو السعــود، الشيخ راغب الدجاني. مقابــل ٢٢ شاهــدا استدعاهم وكلاء فريق اليهود، ومن أبرز وكلاء اليهود هم: المحامي مردخــاي الباشــو و داوود أيلين والحاخام موشي بلاو. وأبرز وكلاء المسلمين ٢٦وثيقة ومستند تثبت ملكيتهم لحائط البراق الشريف مقابل ٣٥ وثيقة أبرزها اليهود، وقد توصلت اللجنة إلى عدة قرارات ورفعتها إلى عصبة الأمم في شهر كانــون الأول من عام ١٩٣٠ كان من أهمها:

- للمسلمــين وحدهم تعــود ملكية الحائــط الغربي ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جــزءا لا يتجزأ من ساحة الحــرم الشريف التي هي من أملاك الوقف الإسلامي.

إن أدوات العبــادة وغيرها من الأدوات التي يحق لليهود وضعها بالقرب من الحائط بالاتفــاق بين الفريقــين، لا يجوز بأي حال مــن الأحوال أن تعتبر أو أن يكون من شأنها إنشاء أي حق عيني لليهود في الحائط أو في الرصيف المجاور له.

- يمنــع جلب المقاعــد والسجاجيد والحصر والكراســي والستائر والدواب إلى الحائط.

- لا يسمح لليهود بنفخ البوق بالقرب من الحائط.

هذا وقــد توصلت اللجنــة الدولية إلى قرارها هــذا في كانــون الأول سنة ١٩٣٠. ورفعــت نسخــة إلى الحكومــة البريطانية، ونسخــة أخــرى إلى مجلس جمعيــة الأمم «الأمم المتحدة حاليا».

ويعتبر قرار هذه اللجنة أول وثيقة دولية تثبت حق العرب والمسلمين في ملكية حائط البراق الشريف..

ومع كل ذلك لا زالوا يحفرون وينقبون ويبحثون.. عن أي أثر يثبت زعمهم الباطل في هيكل سليمان الذي قال التاريخ كلمته به و أنه هدم و خرب و اندثر آخر مرة على يد القائد الروماني طيطس في شهر آب من عام ٧٠ ميلادي.. وما زالوا يحفرون وينقبون، لقد سرقوا كل شيء الزيتون والقمر وزرقة السماء وصادروا كل شيء الطفولة والبسمة والتاريخ.. وما زالوا يحفرون وينقبون والمدينة المقدسة صامدة وأبناؤها صامدون يدافعون عن المسجد الأقصى بالبندقية وغصن الزيتون ويستصرخون أبناء الوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج لتحريره من نير الاستعمار الصهيوني..







مكانة القدس في المناهج المدرسية

أحمد حسن الخميسي *

القدس مدينة عريقة ضاربة في أعماق التاريخ، تنظر إليها الشعوب والقبائل والدول نظرة احترام وتقدير، لما لها من ماضٍ مجيد، وحاضر نضالي مشهود ومستقبل بالتحرير موعود، ولما فيها من آثار وأماكن خالدة، تُذَكِّرُ بعبقريّة الإنسان، وعبق الزمان، وطهارة المكان.

لذلك كله لاقت القدس الاهتمام البالغ قديماً وحديثاً، فقد ضحّى من أجلها الأجداد ويستشهد في سبيل تحريرها الأحفاد، وتحتفي بها وسائل

* مدرس وباحث تربوي (سورية)



الإعلام المقــروءة والمسموعة والمرئية، فهي من أكــثر مدن العالم حضــوراً على شاشات التلفــزة والفضائيــات لمكانتهــا في الماضي والحاضر، ولما يجري فيها من أحداث.

وقد أجمع العالم على أن تكون هذه الدرَّة (مدينــة القدس) عاصمــة للثقافة العربية لعام ١٤٣٠ هـ-٢٠٠٩ م.

ولكــي ينشأ أبناء الأمة على حب وطنهم والــذود عنــه، ويعرفوا خصائصــ المدن و مكانها ومكانتها، اعتنــت المناهج المدرسيّة بالقدســ الشريف، فما من كتــاب إلا وفيه خارطــة فلسطين ماثلــة في صفحاته، وقبة الصخرة شامخة في مصوراته.

وسنقلــب الكتــب المدرسيّــة للمرحلــة الابتدائية التي هي جزء من التعليم الأساسي في الجمهوريّــة العربية السوريّة، لنرى كيف يتعــرف أطفالنا على مدينــة القدس التي تحتــل القلب في الوطن العربــي الممتد من المحيط الأطلنطي إلى الخليج العربي.

أهداف المناهج المدرسيّة:

مما تهــدف إليه المناهــج المدرسيّة في سورية: تربية الأطفال على الجوانب المعرفيّة والقيَمية والجماليّة.

فكيف قُدِّمت مدينة القدس ضمن هذه الجوانب؟

إنّ مدينة القدس وردت في كتب التاريخ والجغرافيــة والقوميّــة والقــراءة والتربية الإسلاميّــة في المرحلــة الابتدائيّة، وفي كل كتاب من هذه الكتب يتم التركيز على جانب من الجوانب التي تتعلق بمدينة القدس.

فكتب التاريخ قدمت معلومات تاريخية، وكتب الجغرافية قدمت معلومات جغرافيّة وكتــب التربيــة الإسلاميــة وكتــب التربية الوطنيّــة قدمت قيماً ومبــادئ حول مدينة القدس، وقدمت القراءة والنشيد والمطالعة جوانب أدبية وجماليّة.

وسنرى ذلك جلياً في الفقرات التالية:

القدس في التاريخ المدرسي:

ينبغي للتلاميذ في المرحلة الابتدائية أن يتعرفوا على تاريخ الأحداث الرئيسية التي مرت بها أمتهم، فيعلموا زمانها ومكانها.

ومن المدن التي شغلت حيزاً من التاريخ في المرحلــة الابتدائية (مدينة القدس) فقد جــاء الحديث عن تاريخها القديم وتاريخها العربــي والإسلامــي وما حــدث في القرن العشرين بشكل موجــز، يفي بالغرض الذي وضعت المادة من أجله.

فعــن تاريخ القدســ في القــديم يقرأ التلاميذ: (غزا العبرانيــون بعض الممالك الكنعانيّــة، وتمكنــوا منهــا بأساليب الغدر

والخديعة مستغلين عدم وجود دولة موحدة تقف في وجه أطماعهم، فاحتلوا أريحا وارتكبوا فيها فظائع تشبه مذبحة دير ياسين، كما احتلوا يبوس (القدس) وشكيم (نابلس)[1]. وعن تاريخ الفتح الإسلامي ورد ما نصه: (في عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- تمكن المسلمون من استكمال تحرير سائر المدن الهامة في بلاد الشام، فأصبحت دمشق وحمص وحلب وجميع المدن الأخرى جزءاً من الدولة العربية والإسلامية ما عدا مدينة القدس التي اشترط أهلها حضور الخليفة عمر بنفسه لتسليمه المدينة، وقد حضر الخليفة وكتب لأهل القدس عام ١٥هـ/٦٣٦م عهداً بممارسة حريتهم الدينيّة والمدنيّة، مما جعله ميثاقاً مشرقاً في تاريخ الإنسانيّة لما يحمله من قيم الحريّة والتسامح والسلام)[2].

وتعرضت القدس بعد الفتح الإسلامي للغزو الصليبي، وحدثت معركة حطين وتحررت القدس على يد صلاح الدين.

فماذا يعرف التلاميذ عن تلك المعركة وعن بطولة صلاح الدين؟

«سيطر الإفرنج على القدس والمدن الفلسطينيّة مهد الحضارات والديانات السماويّة، وكانت بينهم وبين العرب هدنة معقودة، خرقها أرناط أمير الكرك بتعرضه لقافلة عربية، وعندما علم صلاح الدين الأيوبي بذلك، أراد الانتقام من أرناط وإعادة الوجه العربي لمدينة القدس، فوحد جيوش العرب في جبهة واحدة تضم العراق والشام ومصر وفلسطين والتقى الجيشان بالقرب من بحيرة طبريّة حيث دارت معركة تحقق فيها النصر الساحق للعرب.

وتعتبر معركة حطين من المعارك الحاسمة في التاريخ، إذ وضعت حداً لعدوان الإفرنج، وطهرت أرضنا العربيّة من المعتدين»[3]

لقد وقفت الكتب المدرسيّة الابتدائية ثلاث وقفات تاريخيّة رئيسيّة:

الأولى: تأسيس الكنعانيين ممالكهم في بلاد الشام وفلسطين وغزو العبرانيين لهم، ثم فتح الجيش الإسلامي لمدينة القدس أيام الخليفة عمر بن الخطاب وبعدها الغزو الإفرنجي لفلسطين، وتحريرها على يد صلاح الدين الذي انتصر على الغازين في معركة حطين وطردهم من أرض فلسطين.

وفي العصر الحديث اجتياح إسرائيل للقدس في حرب حزيران عام ١٩٦٧ م واحتلالها وارتكاب الجرائم الفظيعة فيها، هذه الجرائم التي لا تزال مستمرة إلى أيامنا هذه.

ولكن هذه المرحلة لم تسلط عليها الكتب المدرسيّة الأضواء، ولم تتعرض لما تعانيه مدينة القدس من هدم لمقدساتها وحفر الأنفاق تحت مسجدها الأقصى وتغيير لمعالمها وحرق للمسجد أكثر من مرة والاعتداء على المصلين وقتلهم داخل المسجد وخارجه، فمن حق الأطفال أن يعلموا ماذا يفعل الصهاينة بمدينة القدس الخالدة، ليكون لهم موقفهم الشجاع في الوقت الحاضر وفي المستقبل من هذا الأخطبوط الذي يمد جذوره في ربوع بلادنا الحبيبة فلسطين.

تحديد المكان والزمان:

عرّفت الكتب المدرسيّة مدينة القدس بشكل واضح ومختصر، وحددت موقعها في الخريطة الجغرافيّة، وبيّنت مكانتها عند العرب والمسلمين، فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهي مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ومنها معراجه إلى السموات العُلا وفيها قبة الصخرة، وفيها كنيسة القيامة وفيها ما فيها من المعاني والمغاني التي تهفو إليها قلوب المؤمنين.

تحت عنوان «أهم المدن في فلسطين» يقرأ التلاميذ: «القدس: مدينة قديمة، عاصمة فلسطين، تضم عدداً من المقدسات: كالمسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة، وفيها مدن مثل: غزة، حيفا، عكا»[٤]

وتضمن المحور الوطني في كتاب القراءة للصف السادس بضعة دروس هي: فلسطين (قراءة)، أطفال الحجارة (قراءة)، يوم الأرض (نشيد)، تحرير الأرض المغتصبة (تعبير).

ورد في درس فلسطين: «تقع فلسطين من البلاد العربية موقع القلب من الجسد، فهي تتوسط البلاد العربية، وفيها مهد السيد المسيح، وبيت المقدس، والمسجد الأقصى أولى القبلتين» [٥]

وقد بيّنت عدة مصورات في كتاب الجغرافية والتاريخ موقع القدس في فلسطين وفي العالم العربي والعالم.

وبعد أن عرف الأطفال موقع القدس وما فيها من المقدسات، عرفوا قيمة القدس التاريخية والدينيّة والقوميّة من خلال العبارات والمعلومات والتوجيهات التي تضمنتها الكتب المدرسيّة.

فالقدس مهوى أفئدة المسيحيين لأنَّ فيها كنيسة القيامة، وإليها توجه المسلمون في صلاتهم قبل أن يأمرهم الله بالتوجه إلى الكعبة المشرفة وهي مدينة الأنبياء وهي مكان إسراء ومعراج خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام.

فماذا ذكرت الكتب المدرسيّة عن الإسراء والمعراج؟ لقد ورد في كتاب التربية الإسلاميّة للصف السادس ما يلي:

- الإسراء: هو ذهاب الرسول صلى الله عليه وسلّم ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى بيت المقدس في فلسطين وصلاته في المسجد ورؤيته الأنبياء والرسل عليهم السلام.

- أما المعراج: فهو عروج رسول الله صلى الله عليه وسلّم من بيت المقدس ومن فوق الصخرة المشرفة المعروفة الآن إلى السماء بصحبة جبريل عليه السلام.

كان الإسراء والمعراج في ليلة واحدة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وبعد عام الحزن، وقد سرى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بجسمه وروحه وكامل وعيه وإدراكه، ليس مناماً يراه النائم.

وعندما عاد إلى مكة طلب منه المشركون أن يصف بيت المقدس. فقال: دخلته ليلاً وخرجت منه ليلاً، كيف لي بوصفه؟

فإذا بجبريل عليه السلام يحمل صورة بيت المقدس لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فبدأ رسول الله يصفه باباً باباً وأبو بكر يقول صدقت... صدقت، حتى سمي يومها بالصديق» (٦)

إنَّ في قصة الإسراء والمعراج دروساً وعبراً، يستقيها التلاميذ، فيدركوا من خلالها أنَّ للقدس مكانة سامية، وينظروا إليها نظرة إجلال لما فيها من دور للعبادة، ولأنها كانت محط رحال الأنبياء والعلماء وقواد التاريخ، ولما حوته من آثار تدل على عظم الأمم التي سكنتها على مر العصور.

ومما يعزز مكانة القدس في نفوس الأبناء ويعمق المعلومات في ذاكرتهم ونفوسهم -أيضاً- ذكر بعض الأسئلة في نهاية كل بحث، ليجيب عليها التلاميذ مثل: اذكر بعض المدن المقدسة في الوطن العربي؟ (٧)

ومن أين تستمد فلسطين قداستها في نظر العرب؟ (٨)

حب القدس والدفاع عنها:

يحرص مؤلفو الكتب المدرسيّة على غرس حب القدس في نفوس أبنائنا، ودعوتهم للدفاع عنها والاستعداد للقاء العدو، وذلك بالتسلّح بالعلم والتدريب على القتال في المستقبل.

وهذه الدعوة أخذت أسلوبين الأول تحريضي، وذلك بذكر بعض جرائم العدو وبطشه قديماً وحديثاً، مما يولد لدى التلميذ اندفاعاً لمقاومة الاحتلال ودفع جرائم العدو والانتصار عليه.

والثاني: دعوة مباشرة لاستنهاض الهمم وإذكاء الحميّة للذود عن المقدسات.

فبعد أن ذكر كتاب التاريخ فظائع العبرانيين في القدس ونابلس -كما مرّ سابقاً- قال: ما فعله العبرانيين في الماضي من جرائم وإرهاب هو ما يفعله الصهاينة اليوم في فلسطين والجولان.[٩]

ويدعو التلاميذ لأخذ العبرة والعظة من التاريخ واتخاذ صلاح الدين وغيره من الذين قاوموا العدوان قدوة لهم.

يقول بعد أن ذكر انتصار المسلمين في حطين: «ونحن اليوم جدير بنا أن نأخذ العبرة من تاريخنا العربي، ونعيد إلى فلسطين وجهها العربي المشرق الأصيل».[١٠]

وفي هذا الكلام شحذ لهمم التلاميذ ودعوة لقتال العدو كما جاهدهم البطل صلاح الدين.

لقد سطر المسلمون ملاحم البطولة في أرض المعارك، وضربوا أروع الأمثلة في تعاملهم مع الشعوب لأنهم عاملوهم بالرحمة والتسامح والسلام.

وذلك ما نلمسه في دخول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- مدينة القدس عام ١٥هـ -٦٣٦م وكتابته عهداً يسمح بممارسة أهل المدينة حريتهم الدينيّة والمدنيّة، مما يجعل هذا العهد ميثاقاً مشرفاً في تاريخ الإنسانيّة لما يحمله من قيم الحريّة والتسامح والسلام والعدالة.

هذا عن مكانة القدس الجغرافيّة ومكانتها في عقول المسلمين ونفوسهم.

فماذا عن الجوانب الأدبيّة والجماليّة لمدينة القدس؟

القدس في أدب الأطفال المدرسي:

لم يغفل أدب الأطفال في المدرسة الابتدائيّة عن قضية مدينة القدس، بل وقف عندها وقفات مضيئة، عبَّر بالنشيد الملحن والقصة الفنيّة الهادفة والتعبير الجميل عن عظمة مدينة القدس في التاريخ وحبها في القلوب، ومشاعر الأطفال تجاهها، وإنها مدينة المدائن وعاصمة العواصم التي لن تنام لنا عين ولن يغفل لنا جفن حتى تغدو حرّة أبيّة كما كانت موئل العباد وأهل السلام والتسامح في العالم.

ولإيصال ذلك كله، احتوى المنهج المدرسي الابتدائي على نشيد «زهرة المدائن» للأخوين رحباني في كتاب لغتي الجميلة للصف الثاني الجزء الثاني، طبع الكتاب أول مرة عام ١٩٩٨م ونشيد «القدس» في دليل المعلم في التربية الموسيقيّة للصف الثاني الابتدائي، طبع أول مرة عام ١٩٩٧م وهو من كلمات

محمد نور الدين الطوشي، ألحان إلهام أبو السعود.

وثمة قصة معبرة عن الواقع الفلسطيني في كتاب «قصص مختارة» المقرر للصف السادس بعنوان «مظاهرة في غزة» للكاتب أديب النحوي.

ومن الأناشيد الحلوة المحببة لقلوب الأطفال نشيد «فلسطين داري» للشاعر سليمان العيسى الذي ورد في كتاب لغتي الجميلة للصف الثاني، ونص فلسطين في كتاب لغتي الجميلة للصف الرابع الجزء الثاني الذي طبع لأول مرة عام ١٩٩٩م، يذكر فيه القدس عاصمة فلسطين فيقول: هي أجمل بقاع الدنيا وفيها المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين وكنيسة القيامة...[١١].

وفي هذا النص يسأل معن والده: وهل من عودة يا أبي.

الأب: إنني لواثق، ولكن لا بد من الوحدة وتضافر الجهود العربية.

-ولكي نتعرف على القيم التي حاول أدب الأطفال أن يغرسها في نفوس التلاميذ، نقرأ النشيدين ثم نرى ما فيهما من قيم تتصل بالقدس والقضية الفلسطينيّة.

نشيد القدس

القدس ستبقى عربية
وستبقى نور الحريّة
وسنرفع راية أمتنا
شامخة رغم الهمجيّة
فوق ذراها
رغم المحن
فوق رباها
عبر الزمن
سيحررها الشعب العربي
ويزيل وجود المغتصب
ويعيد إليها بسمتها
لتكون منارة كل أبي
فالقدس لنا
رغم المحن
فالقدس لنا
عبر الزمن
وينادي كل الأطفال
وبصوت هدّار عال
القدس لأمتنا كانت
وستبقى عبر الأجيال
القدس لنا
رغم المحن
القدس لنا
عبر الزمن[١٢]

نشيد زهرة المدائن

لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي

يا قدس يا بهية المساكن يا زهرة المدائن

يا قدس، يا قدس

يا مدينة الصلاة أصلي

عيوننا إليك ترحل كلَّ يوم

تدور في أروقة المعابد

تعانق الكنائس القديمة، وتمسح الحزن عن المساجد

الغضب الساطع آت

وأنا كلي إيمان

الغضب الساطع آت

سأدق على الأحزان

من كل طريق آت

بجياد الرهبة آت

البيت لنا

والقدس لنا

وبأيدينا للقدس سلام

للقدس سلام

للقدس سلام

للقدس سلام (١٣)

نجد في نشيد القدس تأكيداً على عروبة القدس، فهي عربية وستبقى عربية، لأن الشعب العربي مصمم على تحريرها لما ورد في النشيد:

سيحررها الشعب العربي

ويزيل وجود المغتصب

فالقدس لنا

رغم المحن

فالقدس لنا

عبر الزمن

وفي نشيد «زهرة المدائن» توجه إلى الله بالدعاء كي يحفظ هذه الزهرة من عبث العابثين وطمع الطامعين وجرائم المعتدين، فهي مدينة بهيّة في مساكنها، شامخة في مآذنها وكنائسها، ترفع رأسها تتحدى المصاعب والمحن، لأنها مدينة الوحدة والتسامح والسلام.

فلها منا التحية والسلام، ونحن عاقدون العزم على تحريرها:

الغضب الساطع آت

وأنا كلي إيمان

الغضب الساطع آت

سأدق على الأحزان

من كل طريق آت

بجياد الرهبة آت

ما أجمل أن يردد الأطفال هذين النشيدين بكلماتهما الحلوة الرقيقة المعبرة وهم يرفعون أيديهم ويسلمون وهم ينشدون.

وأخيراً: (إنّ المناهج المدرسيّة، قد قدمت صورة مبسطة لمدينة القدس تناسب عقول الأطفال وفهمهم، وزودتهم بثقافة تاريخيّة وجغرافيّة، وغرست فيهم حب الوطن والدفاع عنه وخاصة القدس والأماكن المقدسة في الوطن العربي.

نتمنى أن يزداد هذا التوجه في المناهج المدرسيّة القادمة، ويتم التركيز على الصمود البطولي لشعبنا في الأرض المحتلّة ضد هذا العدو الصهيوني الذي يقتل الأبرياء، ويهدم البيوت، ويقتلع الأشجار، ويعيث في فلسطين فساداً ودماراً لتقوى في نفوس أطفالنا ثقافة المقاومة وروح البطولة منذ الصغر ويشبوا على حب الوطن والدفاع عنه، فإما النصر وإما الشهادة..

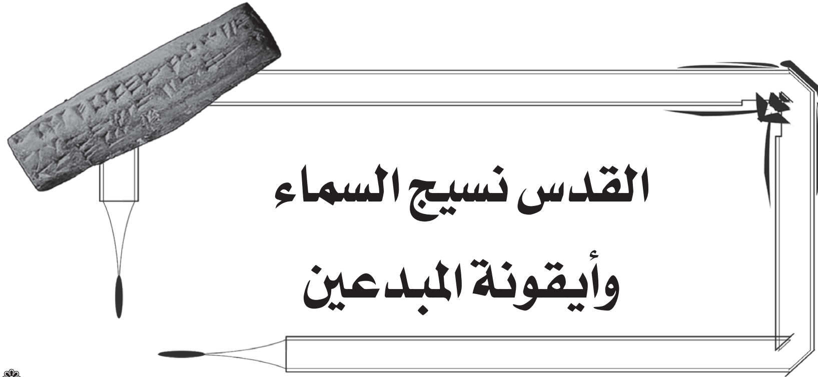
الإحالات

١- مجموعة من المؤلفين. تاريخ العرب القديم -الصف الخامس- وزارة التربية دمشق عام ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.
٢- مجموعة من المؤلفين. التاريخ الصف السادس-وزارة التربية دمشق ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص١٢٠.
٣- مجموعة من المؤلفين. التربية القومية الاشتراكيّة- الصف السادس-وزارة التربية دمشق ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص٩٩.
٤- مجموعة من المؤلفين- جغرافية الوطن العربي -الصف السادس- وزارة التربية-دمشق ٢٠٠٨-٢٠٠٩م ص١٢٩
٥- مجموعة من المؤلفين-لغتي الجميلة-الصف السادس -وزارة التربية- دمشق ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص ٥٤.
٦- فئة من المختصين -التربية الإسلاميّة -الصف السادس- وزارة التربية- دمشق عام ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص١٠٠.
٧- لغتي الجميلة -الصف السادس- مرجع سابق ص٥٧.
٨- جغرافية الوطن العربي -الصف السادس- مرجع سابق ص١٣٠
٩- تاريخ العرب القديم -الصف الخامس-مرجع سابق ص٤٩
١٠- التربية القوميّة الاشتراكيّة -الصف السادس-مرجع سابق ص١٠٠
١١- مجموعة من المؤلفين -لغتي الجميلة-الصف الرابع-وزارة التربية-دمشق عام ٢٠٠٧-٢٠٠٨م ص١٤٤
١٢- مجموعة من المؤلفين-دليل المعلم في التربية الموسيقيّة- الصف الثاني- وزارة التربية -٢٠٠١م.
١٣- مجموعة من المؤلفين -لغتي الجميلة- الصف الثاني- وزارة التربية- دمشق ٢٠٠٧-٢٠٠٨م.





آفاق المعرفة



القدس نسيج السماء وأيقونة المبدعين

محمود حامد*

إذا كانت القدس تشكل النسيج السماوي لتراب يُعتبر الأقدس فوق خارطة الفلك الكوني، فإن مبدعيها هم نسيجها الذي أضاف لقداسة المسمى وهج الإبداع الخلاق، حيث أنتجت قيمة من رجالات الكفاح والفكر، وكوكبة من روَّاد العلم والمعرفة ستظل أسماؤهم في لوحة شرف الحياة تلك الكواكب المضيئة والتي أثرت ساحة الثقافة العربية والإنسانية، في وقت مبكر من الزمان، بعطائها الفاعل والحيّ والذي شكَّل إضافةً مهمةً في

* أديب وشاعر فلسطيني



تاريخ الفكر العربي والإنساني يبقى على الدوام في ذاكرة الأجيال المتعاقبة نبراساً وضاءً بقيمه ومعاييره قائماً وعابراً في الأيام على امتداد الحياة. مبدعون استلهموا من قُدسية رحابها، وقداسة اسمها المتفرد في المسميات عذوبة ما كتبوا، ونداوة ما أبدعوا، وطلاوة ما خلفوا لنا من أفكارهم وأعمالهم، وآثارهم، ما يحق لنا أن نفخر به على امتداد الحقب...، ونعتبره امتداداً حيّاً ولائقاً لتاريخنا القيمي والمعرفي، وجزءاً حيوياً ومهماً واستكمالاً للأسس والدَّعامات التي رفع الأوائل صروحها الملحمية على امتداد الأرض والزمان، وجاء السلف لاستكمال رحلة البناء والعطاء ضمن سلسلة مترابطة اللحمة والقيمة، مجددة الأصول والثوابت، تضع في اعتبارها ووجدانها رفعة الأمة والوطن، بما يليق بهما، وبتلك المكانة العالية التي تبوآها فوق رحابة الأرض بما أنتجت، والسماء بما وهبت.

في وقت كان فيه الوطن العربي ينهض من ركامات القهر والاستبداد، ويشهد بداية الصحوة، والمد القومي العارم، وبزوغ شمس الحرية والاستقلال الوطني على امتداد الأرض العربية، كان البُناة المبدعون يؤسسون لثقافة راهنة تحمل آثارها، وتمضي بها إلى أبعد نقطة في الكون الشاسع للتعريف بتاريخنا وحضارتنا، وتراثنا الذي اتجهنا به، خارج حدودنا ليقف العالم أجمع على ما قدّمنا وأنتجنا وأبدعنا، وليضع حداً لعصور الهيمنة والاستعمار والاستعباد، وأن الكيان الإنساني استتباب سماوي واحد، عليه أن يسعى لإقامة صرح الخير والمجد على الأرض، وليس كيانات الشر والدمار والخراب.. آنذاك كانت القدس حاضرة النهوض، وحاضنة رجالات الفكر والنضال.. لذا كانت السبَّاقة في تقديم كوكبة فرسان القلم والبندقية، وزخرت بأسماء في قوائم الخالدين على الصعيدين الوطني والمعرفي. آن الأوان وفاءً لتلك الأسماء أن نسترجعها في ذاكرة كادت تنسى في خضم الحوادث والنكبات. من نحن، وما قيمة هذا التراب حضارياً وتاريخياً، وإنسانياً!!؟ وأن نستلهم مما كان ما يمكن أن يكون فيضاً ملحمياً للأجيال القادمة من المستقبل ما يجعلها تفخر وتعتز بنا تماماً، كما نحن في اعتزازنا وفخرنا وبالأوائل الخالدين. وها نحن ندخل رحاب أولئك الصفوة من البشر والمعرفيين الكبار استئذاناً بفتح ملف القدس من جديد، وهي تمضي بخطواتها الصامدة والثابتة نحو غد تكريمها اللائق والعظيم.

إذا كانت القدس أيقونة السماء، فإن مبدعيها هم نسيجها الخلاق، وها نحن نفتح ملف أولئك المبدعين، وفاءً لهم، واسترجاعاً لماضيهم العريق، وأسماء الرجالات كثيرة تشكل بمجملها تلك الحقول المعرفية المهمة، ولعل من أبرز المعرفيين المقدسيين: إسعاف النشاشيبي وإسحق موسى الحسيني، شريف النشاشيبي، أحمد سامح الخالدي، القائد الشهيد عبد القادر الحسيني، خليل السكاكيني، بندلي الجوزي، ونصري الجوزي، ثيودوري قسطنطين، جورج الصايغ، د.موسى الحسيني، منيف الحسيني، ومحمد يوسف الحسيني، وأسماء عديدة تدخل في صياغة تلك الشجرة الخالدة.. نختار منها عند وقفتنا هذه أديب القدس المبدع إسعاف النشاشيبي والذي تمتد فترة تواجده الحياتي والإبداعي بين عامي ١٨٨٢م و١٩٤٨م عام الفاجعة، ونكبة فلسطين.. علم من أعلام فلسطين، وسليل أسرة مقدسية تاريخية الجذور والنسب في بيت المقدس، أسرة يرجع نسبها إلى [١] أحمد بن رجب النشاشيبي.. جدّ الأسرة النشاشيبية، وأحد رجال الملك الظاهر جقمق.. والذي جاء واستقر في فلسطين في مدينة القدس، وأسس هناك لعائلة سيكون لها في مستقبل الأيام تاريخها النضالي والأدبي لأسماء عدة من تلك الأسرة الثرية بما لها. وفكر أبنائها ما يجعلها مع أسر مقدسية أخرى مهمة تشكل تاريخ القدس التاريخي والديني، والنضالي كذلك؛ ولعل إسعاف النشاشيبي سيشكل فيما بعد، من خلال سيرته الأدبية والمعرفية دعامة هامة في تاريخ القدس الأدبي ما يضعه في كوكبة الرجال الأوائل الذين يذكرون في مقدمة من يذكر من ذاك النسيج المقدسي العظيم والذي يشكل الدعامة الكبرى والتاريخية لتاريخ فلسطين النضالي والثقافي المعاصر.

في بدء حياته الأدبية والدراسية والمعرفية التحق إسعاف النشاشيبي أسوة برفاق عمره المقدسيين بأحد الكتاتيب المنتشرة في القدس آنذاك في أحيائها، وحاراتها العديدة، وأظهر منذ البدايات نبوغاً في المعرفة والتحصيل العلمي والأدبي[٢]: وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية حمله والده عثمان النشاشيبي، وله من العمر اثنتا عشرة سنة، إلى دار الحكمة في بيروت، وهناك تتلمذ للشيخ عبد الله البستاني، حيث أمضى في هذا الصرح العلمي ثلاث سنوات.. بعدها، وضع نصب عينيه أن «لا مدرسة من قبل، ولا مدرسة من بعد..» وإلى هذا الحد وكفى من العلم

والتحصيل العلمي.. كانت تلك خطوة.. بل رؤية طارئة في حياته ومضت كالبرق واختفت لحظة ومضها الخاطف لأن كل ما فيه يميل للعلم والتحصيل.

في دار الحكمة كان زميله الأثير الأمير شكيب أرسلان[٣]: وفي دار الحكمة تأثر إسعاف بأستاذه الشيخ عبد الله البستاني الذي توسم فيه النجابة، والانكباب على درس العربية والعب من معينها العذب، فطبعه البستاني بطابعه اللغوي، فكان من أعلم علماء العصر بها، ومن أطولهم باعاً في أدبها، ومن أشدهم رعايةً لها، وحرصاً عليها. الفترة التي تلت كانت فترة إعلان الدستور، في هذه الفترة عاد إسعاف من بيروت إلى القدس، وبدأ مرحلة جديدة في حياته هي مرحلة القراءة والكتابة والنظم. يومها بدأ يلتقي زملاءه من المثقفين وأصحاب القلم، والفكر المتحفز لخوض غمار الكتابة والإبداع.. وخاصة تلك الفئة المثقفة بثقافة الغرب بمدرستيه الفرنسية والإنكليزية، وتنقلت تلك الفئة في حقول متعددة من الأعمال ولكنها في النهاية استقرت تماماً في مجال الفكر والأدب وعبر حياته الحافلة بالعطاء والأدب ظلَّ إسعاف النشاشيبي يردد شعار العمر، والذي استلهمه من صديق عمره اللغوي الأب أنستاس الكرملي (إنَّ اللغة العربية هي لغة الله والملائكة، وإذا شاء الأولياء والقديسون أن يتخاطبوا في السماء، فإن أفواههم لا تنفتح، وألسنتهم لا تنطلق، إلا بلغة العرب)!!

في تلك الفترة المتقلبة بعواصفها واجتماعياتها المتضاربة، واجه النشاشيبي وزملاؤه تيارين متضادين من الأفكار: تيار المتحمسين لآرائهم وأفكارهم وتحصيلهم الدؤوب، وتيار الغلاة من عموم الناس والذين قاوموا فكرة العلم والأدب، وتحمسوا لفكرة الذهاب لحقول الأعمال الأخرى، وخاصة والد إسعاف والذي كان يتمنى فيه أن يكون رجل أعمال يتولى أمور الثروة التي يملكها آل النشاشيبي آنذاك وهم قوم ثراء وغنى.

كان خليل سكاكيني الصديق الحميم لإسعاف لذا توجه إليه الأب النشاشيبي لائماً لأنه يعرف الصلة الحميمة التي تربط السكاكيني بولده.. قال له[٤]: يا سكاكيني!! أهذه آخرة من يقرأ مقدمة «شميل»؟ يعني مقدمة كتاب شميل على مذهب دارون!!؟ يضيف سكاكيني: في تلك الفترة أعلن الدستور، وانتفضت الأمة، وزال القبر والكفن، وأقبلت على الحياة.. رجعت إلى القدس من أمريكا، وعاد إسعاف إلى

ملازمتــي وجعلنا نكتب ما توحيه الظروف. في تلك الآونة جاء المرحوم حَنَّا العيسى من يافا إلى القدس، وأنشــأ مجلة «الأصمعي»، وفتح المجــال للمثقفين للكتابــة فيها فكان النشاشيبــي، والسكاكيني مــن أوائل وقدوة الكتــاب المبدعين. حمــل النشاشيبي طوال عمــره لقب «أبو الفضــل»، وكان مثله فيما يكتــب بديع الزمــان الهمــذاني. هي رياح الحرب العالميــة الأولى، وريــاح التغيير في حيــاة النشاشيبي حيــث تم تعيينه في تلك الحقبــة أستاذ للعربيــة في الصلاحية التي أنشاهــا القائد التركي أحمد جمال باشا في بيت المقدس في هــذه الفترة العاصفة يذكر نصــري الجوزي المقدســي في كتابه «تاريخ المسرح الفلسطيني ١٩١٨م- ١٩٤٨م- طبعة قبرصــ أبريل ١٩٩٠م ما مفــاده: أن نهضة ثقافية عارمة تجتاح مدن فلسطين وأن بناء المدارس والمعاهد الوطنية زاحف كالعاصفة على تراب فلسطين ومن مدرسي تلك الفترة السكاكينــي والنشاشيبــي، [٥]: وفي هــذه المعاهد العلمية نشطت الحركة المسرحيَّة، إذ كانت تقوم معظم المدارس بعرض مسرحية أو فصل تمثيلي في نهاية العام الدراسي أو في مناسبات الأعياد الدينية والوطنية(ص١٤) -المصــدر السابق- وهذا دليــل على تقدم الحركــة الثقافية والمسرحيــة في فلسطين علــى سائــر الأقطار الأخــرى. خلال هذه الحقبة قام إسعاف بتأسيس مكتبته الكبرى في منزلــه، وكان البيت مقصــد أهل العلم والأدب، لكــن نكبة ٤٨ أتت على تلك المكتبة بكاملها عندما قام مرتزقة مأجورون باجتياح أحياء القدس العربية وسرقة المكتبة بما فيها وبيــع نفائس الكتب والمخطوطات لأصحاب الأفــران لتصبح وقوداً للنار والأفران.. وفي هذه الآونة كان الاستعمار البريطاني الغاشم قد بســط نفوذه على تراب فلسطين كافة.. يومها كان النشاشيبــي قد عين ستة مدراءٍ مديــراً للمدرسة الرشيدية في بيت المقدس، ثــم مفتشاً للغــة العربيــة في إدارة المعارف العامَّة. آنذاك قام إسعاف بتنظيم المدارس الأميريَّة، وأصلح التعليــم، وجدد المناهج.. وقام وزملاؤه بمتابعة الصحافة الفلسطينية التي تصــدر، والكتابة فيهــا.. وتخصيص زوايــا للشعر والنــثر، والمقــالات الوطنية الثائــرة.. كما قام النشاشيبــي بالكتابة في الصحافة المصرية والسورية.. ولقد أعجب به الزعيم الوطني سعد زغلول إعجاباً قوياً لدى إقامتــه في مصر، وهناك أسس منتداه الثقافي والذي غــدا محجَّ الكتّاب والأدباء.. وكانــت صداقته المتميزة مــع أمير الشعراء

أحمد شوقي، ومع أحمد حسن الزيات، والكتابة في مجلة الرسالة القاهرية والمشاركة في مبايعة شوقي للشعر.

مع انتهاء القرن التاسع عشر ومجيء القرن العشرين غابت أشياء كثيرة عن مسرح الحياة، وحلّت محلها أشياء أخرى، كانت التطلعات الوطنية أهمها، وبزوغ شمس التيارات القومية والتحررية، وظهور شخصيات قيادية على امتداد الصُّعد كافة، ولعلَّ ظهور التيارات والمذاهب الأدبية يمثل تلك المفاتيح التي آذنت بانفتاح الفكر على نتاجات الفكر كافة وخاصة تلك القادمة مع ريح الغرب لتنتج فكرها وأدبها، عبر هذا كله كان إسعاف النشاشيبي ينهل من مدرسة التراث بينما ذهب زملاؤه إلى المدرسة الغربية الفرنسية والإنكليزية. كان إسعاف علماً من أعلام الفكر العربي، ولقيمته الأدبية والمعرفية اختاره أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً في هذا المجمع.. كما ذكر السكاكيني آنذاك وصاحب كتاب أعلام الفكر والأدب في فلسطين يعقوب العودات (البدوي الملثم) في كتابه ط٢/ والذي صدر عام ١٩٨٧م.. وذكر العودات أن النشاشيبي استقال عام ١٩٣٠م من عمله في معارف حكومة فلسطين وتفرغ لكتبه، والكتابة.. وأن مرجعه الهم ذاك المخطوط المعنون «الأمة العربية الأهم، والذي اشتغل عليه زمناً طويلاً جهداً وعمراً فقدت أصوله بعد وفاته، ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

ينقل العودات في كتابه الكلمة المؤثرة التي قالها الزيات في مصاب العروبة بإسعاف النشاشيبي: «أهكذا، وفي أسرع من رجع النفس، يسكت اللسان الذليق، ويسكن العصب الثائر، ويخمد الذهن المتوقد، ويقف الفؤاد الذكي، ويصبح النشاشيبي نعياً في الصحف، وخبراً في البلاد، وحديثاً في المجالس، لا يقول فنسمع، ولايكتب فنقرأ.. سبحانك يا رب.. شعاع أرسلته ثم رددته، وروح بثثته ثم استعدته، وظل بسطته ثم قبضته، ولواء رفعته ثم خفضته، وبنو آدم العاجزون الضعاف لا يملكون أمام أمرك البادي، وسرّك المكنون إلا أن يشكروا على العطاء والأخذ، ويحمدوا على المحبوب والمكروه»..

كان النشاشيبي دوحة فكر وأدب وارفة الظلال، وكان بمنتدياته التي أسسها في القدس ودمشق والقاهرة ملاذ أهل الأدب والثقافة، لقد كان مرجعاً مهماً لطلاب العلم والمعرفة.. كان البحر الزاخر بكنوزه وأفكاره الخالدة.. وللآراء الحادة التي انغرست فيه،

وتشبــع بها، فليس من المستغــرب أن يكون من الثوريــين العرب الأوائل الذين جاد بهم الزمــان في حقبة هــي الأخطــر بدايةً في انبثاقها الثائر للتيــارات الوطنية والقومية والنهضوية.

يكمل الزيات رثاءه للنشاشيبي بقوله: «لا تستطيع أن تذكر له كتاباً من كتب العربية لم يقــرأه، ولا بيتاً من شعر الفحول لم يحفظه، ولا خــبراً من تاريخ العرب والإسلام لم يروه، ولا شيئاً مــن قواعد اللغة، ونوادر التركيب، وطرائف الأمثــال لم يعلمه فهــو طراز أبي عبيــدة والمبرد».. إنه خاتم طبقة من الأدباء اللغويين.. ولعل أجمل ما قيل في رثائه شعراً قصيــدة ألقاها عبد الغني حسن حين مات صديقــه إسعاف، ودفن في مصر عام ١٩٤٨ عام النكبة بعيداً عن أرض فلسطين:[٧]:

يستوي الموتُ في المكان النائي
ومكــانِ الأجــدادِ والآبــاءِ
يا غريبَ الممات، ما نحنُ إلاَّ
غرباءَ، في مَنزِلِ الغُرباءِ
كُلُّ أرضٍ ضَمَّتْكَ، فهي وسادٌ يستوي عندها مَصيرُ الفناءِ
مَـنْ دَعَتْهُ مَنيُّهُ لبلادٍ
ماتَ فيها إجابَةً للنداءِ
مَنْ تَفُتْهُ المنونُ في بأساءٍ
لَمْ تَفُتْهُ المنونُ في النَّعماءِ
أخطأتْكَ الأقدارُ، والبأسُ يغلي في فلسطينَ، والحمى في دماءِ
وأصابتكَ في مكانٍ أمينٍ
رُبَّ آمنٍ يجد حبل الرَّجاءِ
لَمْ تَمُتْ ميتَةَ الجَبانِ ولكن
مُتَّ في العِلْمِ ميتَةَ الشُّهداءِ

أحب النشاشيبي المتنبي شاعراً لا ندّ له ولا شبيــه لذا يقول فيه: (إن المتنبي شخص ثالــث بــين كل مثقفين، فمــا دار حوار بين مثقفــين إلا استشهد أحدهمــا أو كلاهما ببيت للمتنبي).

ولقد ذهب في حبِّه للغة العربية حد الوله، وسنلمح هــذا في خطبته الشهيرة وعنوانها: «قلب عربي وعقل أوروبي»، يوم دعي لتأبين صديقــه أمير الشعراء أحمــد شوقي حيث قال فيها: (وهذه العربية التي هيمنا –أيها العربي– حبها، وليس ثمة عادل، وعبدناها، ولا يعيب عبادتها عندنا إلا جاهل، لن يثبت في هــذا الكون حولها، ولــن ينتقل في «دار النــدوة» يوم القول قولها إلاّ إذا عرفت هذه المدينة الغربية، والعربية كالغربية ربة مدنية، وحالها بصحبة المدنيــات مشتهر. فإنها لما ظعنت عن جزيرتها لاقت في طريقها المدينة الإغريقيــة.. فما صعــرت عنها خدها، ولا تعبســت، وما أدلت بفضلتهــا –وإنها لذات فضلــة– ولا تعجرفت، واستيقنت أنها أعلم

منها، فأطالت الجثوم بين يديها، وحدثت عنها).

تلك ملامح شخصية مقدسية فريدة، تستنهض الذاكرة لاسترجاعها فكراً وملمحاً من ذاك العبير المقدسي المحوّم بين الزرقة السماوية الرحبة، وفلك الكون المسافر للأبد. وللمكانة الخالدة لهذا المبدع المقدسي أطلقت وزارة التربية والتعليم الأردنية اسم إسعاف النشاشيبي على مدرسة أميرية في بيت المقدس.

المراجع

١- من أعلام الفكر والأدب في فلسطين- يعقوب العودات (البدوي الملثم)- طبعة ثانية عام ١٩٨٧م.

٢- تاريخ المسرح الفلسطيني ١٩١٨م- ١٩٤٨ نصري الجوزي المقدسي- طبعة قبرص- نيقوسيا- شرق برس- إبريل ١٩٩٠م.





آفاق المعرفة



القدس في الأدب العربي الحديث

هبة الله الغلاييني *

استأثـرت مدينة القدس الشريف باهتمـام المسلمين منذ العصور الأولى للفتـح الإسلامي نظـراً لمكانتها الدينية التي أشار إليهـا القرآن الكريم في أكثر من آية، وأكدّتها السنة النبوية الشريفة في عدد غير قليل من الأحاديث والأقوال المأثورة.

وعلى الرغم من تعاقـب السنين وتقادم الزمن، فإن هذه المكانة الرفيعة بقيت آخذة بنفوس المسلمين وألبابهم دون أن يعيروها تراخٍ أو وهن، وقد شارك

* مترجمة وباحثة سورية



المجتمــع الإسلامي، علــى مختلف عصوره ومستوياته، في التعبير عــن احترامه لمدينة بيــت المقدس بجميع الوسائــل التي يملكها سواء بالأقــوال المكتوبــة أو الأفعال المادية في مجالات البناء والعمــران وإن المصنّفات الدينيــة والمؤلفــات التاريخية قد ازدحمت صفحاتها ذوات العــدد، بالشواهد الناطقة على حرصــ جميع الشخصيات الإسلامية، عبر عهودها المتباينــة على تخصيص هذه المدينة المقدسة بالنعوت السامية.

اختيــار «القدســ» عاصمــة للثقافــة الإسلاميــة لعام ٢٠٠٩، وهو خير دليل على استمــرار الاهتمــام بهذه المدينــة المباركة، والحفاظ على مكانتهــا في نفوس المسلمين والعرب قاطبة.

وفي هــذه الدراســة سنستعرض أهم ما كتب عن القدس في الأدب العربي الحديث. ســواءً في الشعر أو في القصص والرواية أو في المسرحية.

القدس في الشعر:

إن معظم الشعراء الذين عرضوا للقدس أو تناولوهــا في قصائدهم في أواخر القرن التاســع عشــر، كانــوا يشــيرون إليها -في الغالب- ضمن جــو ديني خالص - ولم تكن مقصــودة لذاتها. وخير دليــل على ذلك ما نظمّه الشاعــر الشيخ يوسف النبهاني،الذي كان معظم شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وتتبــع سيرته وتسجيل أحداثها، من ذلك قصيدته «الإسراء والمعراج به صلى الله عليــه وسلم» التي نظمهــا عام ١٨٩٦ م، وتحــدث فيها عن إســراء الرسول عليه السلام من مكــة إلى القدس، ومعراجه من المسجد الأقصــى في القدس إلى السماوات العلى، يقول:

رسـل الله هـم هـداة البرايـا
ولـكــل محـجــة بـيـضــاء
خص منهم محمداً بالمزايا الـ
ـغر منها المعـراج والإســراء
مّر في طيبة وموسى وعيسى
ولـقـد شـرفـت بـه إيـلـيـاء
ثـم صلى بـالأنـبـيـاء إمـامـاً
وبـه شـرف الجـمـيـع اقـتـداء

فالشاعر يذكر اســم «إيلياء» من أسماء بيت المقدســ، ويجعل النبــي عليه السلام يمر بطيبــة في إسرائه وهو أمر مألوف، أما أن يمــر في «الإنسان» كمــا يتضح من قوله «مّر في طيبة وموسى وعيسى» فهو أمر غير مألــوف، والذي دفع الشاعــر إلى ذلك، أنه تتبع تفصيلات الإسراء والمعراج.

وهنـــاك محاور شعرية ثلاثـــة نظّم فيها الشعـــراء شعرهـــم عـــن القدســ في هذه المرحلة.

أولاً: الشعر الديني:

وردت القدســ في عـــدد مـــن قصائد الشعراء في فلسطين والأردن، والتي نظموها لتعبر عن موضوعات دينية خالصة. ولم تكن القدســ مقصودة لذاتهـــا، وإنما وردت في هذه القصائـــد، لأنها ذات صلة وثيقة بتلك الموضوعـــات الدينيـــة والتاريخيـــة، أو أنها تشكّل معلماً رئيسياً من معالمها.

فالشاعر «وديـــع البستاني» والذي سمّى ديوانه «ديـــوان الفلسطينات»، يعد من أكثر الشعراء الذين كتبوا قصائد عن القدس وما يتصل بها، سواء أكانت تتعلق بالجانب الديني أم غيره من الجوانب الشعرية الأخرى.

من أهم قصائده التـــي نظمها في إطار ديني قصيـــدة «تحية العلـــم»، التي تحدث فيها عن أرض فلسطين المقدسّة، يقول:

أرض توطئها عيسى وشرّفها
ومات موسى إليها ناظراً أمماً
أرض محمد وافى بيت مقدسها
ومن عُلاه إلى رب السماء سما
فقدسوها ولا تبتغوا بها ثمناً
نجساً فبائعها شارٍ بها الندما

وقد اتضح أن عدداً من الشعراء - ومنهم البستـــاني - كانوا ينظمون هذه القصائد - في كثـــير من الأحيـــان - في مناسبات دينية معروفة، كذكـــرى المولد النبـــوي الشريف، والإسراء والمعـــراج، مؤكديـــن صلة القدس بحادثة الإسراء والمعـــراج، ومبينين أهميتها وقداستها، ومركزيّن على فضائلها ومزاياها التـــي اتسمت بها. فالقدس «أولى القبلتين»، و«حاضنـــة الأقصـــى» و«مدينـــة الإسراء» و«مســـرى النبي» و«مدينـــة الطهر» و«تراث المسلمين».

ووقـــف محمـــد العدنـــاني في قصيدته الإسراء عنـــد ارتباط وطنه فلسطين بإسراء النبي عليه السلام، وذكر أن حبه لوطنه قد نما وازداد بسبب هذه الصلة، يقول:

أسرى إلى الأقصى دُجى من مكة
جسد ابن عبد الله والحوباءُ
وسما به نحو السماوات العلى
رب نـــداه مـــالـــه إحـــصـــاءُ
والمســـجـــد المـــبـــارك حـــولـــه
هـــزتـــه عـــزة أحـــمـــد التعســاءُ
ما أنتَ يا وطني سوى أنشودةٍ
في كهف أضلاعي لها أصداءُ
يا موطني أسرى إليك المصطفى
فتتوجت شرفاً بـه الآلاءُ

وقد التفت الشعراء، في عدد من قصائدهم، إلى استحضار بعض الشخصيات التاريخية، والمرتبطة بالقدس ارتباطاً وثيقاً، وذلك للتعبير عن فقد أملهم في حاضر الأمة العربية، التي لم تستطع أن تنقذ القدس من جلاديها فها هو وديع البستاني يستذكر مجيء عمر بن الخطاب إلى القدس، وتسلّمه لمفاتيحها من البطريق، مما يجعل للقصيدة قيمة تاريخية لأنها تبرز جانباً مهماً من جوانب تاريخ القدس في عصر الخلفاء الراشدين.

أما الشاعر كامل الدجاني، فقد استحضر صورة البطل صلاح الدين الأيوبي من أعماق التاريخ، ليحدثه عن حالة القدس المهينة في مقطوعة قصيرة له، يقول:

يا صلاح الدين قُم وانظر إلى
حالة في القدس تستذري العيون
أبدل العَز الذي تعرفه
ذلة واستأسد المستضعفون

ثانياً: الشعر الوطني والقومي:

إن أكثر الشعر الذي اشتمل على القدس في هذه المرحلة هو الشعر الوطني والقومي. فقد عَرَض الشعراء للقدس في إطار حديثهم عن مقاومة الأعداء، وثورات الشعب الفلسطيني المتتالية، ورفض المهمات التي كانت تناط بلجان التحقيق والتقسيم، إضافة إلى استكشاف معالم صورة القدس كما بدت في قصائد الشعر القومي، التي نظمها الشعراء في استنهاض همم العرب وقادتهم، للدفاع عن فلسطين وإنقاذ القدس من أيدي مغتصبيها.

١ - الشعر الوطني:

آ - موقف الشعر الوطني من البريطانيين:

سجل التاريخ الحديث أن البريطانيين هم الذين عملوا على توطين اليهود الصهاينة في فلسطين، منذ حصل اليهود على وعد بلفور، وزير الخارجية البريطاني، الذي يقضي بتأسيس وطن لهم في فلسطين.

وقد شّن الشعراء هجوماً عنيفاً على البريطانيين، من خلال حديثهم عن وعد بلفور، واحتلالهم للقدس، أو تعاطفهم مع اليهود.

فالشاعر حسني زيد الكيلاني، في قصيدته «يا وعد بلفور يا شؤم المواعيد» ينبئ عن موقفه بوضوح من هذا الوعد. حين أخذ يستذكر في القصيدة بطولة صلاح الدين الأيوبي وانتصاره في حطين، وأخذ يتخيله وهو يخوض وهو يخوض معركة التوحيد من جديد، ثم خاطب العرب قائلاً:

حيّوا فلسطين حيّوها مجاهدة

مهد العرانين والشم المناجيد

إني لأشتم أنفاسَ المسيح بها

وروح أحمد في سراه إذ نودي

ووقف عند احتلال البريطانيين للقدس الشاعران «وديع البستاني» و«مطلق عبد الخالق» في قصيدتين لهما:

فقد نظّم البستاني قصيدته «صوت الشعب» عام ١٩٢٥ م، وخاطب فيها المندوب السامي البريطاني قائلاً:

يُريد المارشال صلاة شكر

ليهنئه انتداب واحتلال

أقد حررتها قُدساً؟ وممن

ومن ذا حطّ لما قيل شالوا

أتحرير وسيفك فوق رأسي

لعمرك إنه القول المُحال

ونظّم الشاعر «مطلق عبد الخالق» قصيدة «يوم الهوان».. يوم فتح القدس التي بلغت خمساً وثلاثين بيتاً، بعد مرور عشرين عاماً على احتلال البريطانيين للقدس. وقد برز في القصيدة الاحتفال بالطباق ليبّين الشاعر أن لهذا اليوم وجهين متضادين: وجهاً باسماً للبريطانيين، ووجهاً حالكاً للعرب، وحين تلح على الشاعر ذكرى احتلال القدس نجده يثور في وجه البريطانيين، في صياغة تقريرية مباشرة أحياناً، إذ يقول:

ذِكراكَ يا يوم الهوان مريرة

ذهبت بميعة صبوتي وشبابي

يا من فتحت القدس مهلاً ما انتهت

ما زال في الميدان بعضَ صعاب

ما زال بينكم - إلبني - وبيننا

في هذه الدنيا رصيد حساب

هذي عناصر كرهنا موروثة

لكم ونورثها إلى الأعقاب

ب – موقف الشعر الوطني من اليهود:

كان اليهود يخطّطون بدهاء ومكر لتثبيت وجودهم في فلسطين، ولذا فقد عملوا على إنشاء الجامعة العبرية بعد الانتداب البريطاني على فلسطين، إذ أقاموا في الرابع والعشرين من تموز عام (١٩١٨)م حفلة كبرى لوضع أساس الجامعة العبرية في القدس، وشارك في الاحتفال مطران الانجليز «مكنس» ومفتي القدس الشيخ كامل الحسيني

وقد ثار الشاعر «وديع البستاني» لهذه المشاركة، وأنكر عليهما صنيعهما في قصيدته «الفتوى» التي نظمها في اليوم نفسه الذي تم فيه الاحتفال يقول:

أفتني بالله بالكعبة بالـ
حجر الأسود بالركن الأغر
إنْ علت في غرها شامخة
فوق رأس الطور تلهو بالعبر
وغدتْ جامعة عبرية
ونهى الحاخام فيها وأمَرْ
أيقولُ الشيخ والقس ائتد
إن للمطران والمفتي حجر!

ومضى الشاعر بعد ذلك يحذّر من الخطر الذي سيترتب عليه إنشاء هذه الجامعة في القدس، ويستذكر مجد عمر ابن الخطاب الذي افتتح القدس، وحررها من الصليبيين ويدعو العرب إلى تكوين جيش قوي ينتصرون به على أعدائهم. وقد اقتربت المسافة بين الشاعر والقدس في قصيدته هذه، حيث كان مبصراً لما يفعله الأعداء في فلسطين والقدس، ويحّدق فيما يحدث حوله، دون أن يشير إلى الحدث فقط.

٢ - الشعر القومي:

لعلّ من طلائع القصائد التي تذكر القدس أو تشير إليها في إطار من الشعر القومي، قصيدة «آمال وآلام» التي نظمها الشاعر فؤاد الخطيب، بعد إعلان الدستور العثماني عام ألف وتسعمئة وثمانية (١٩٠٨) في معرض إنكاره على العثمانيين تحاملهم على اللغة العربية، إذ غدت القدس في قصيدته تعني فلسطين أو ترمز إليها لأنها عاصمتها التي تعرف بها.

وقد أكثر الشعراء في فلسطين والأردن من ذكر القدس ومقدساتها، وهم يدعون العرب إلى نصرة فلسطين وأهلها، وقد ألحّوا على ترداد اسم القدس والصخرة والمسجد الأقصى لإثارة نخوة العرب، وتحريضهم لإنقاذ المقدسات، وتخليصها مما تتعرض له من احتلال وإيذاء.

وحين تحدثت الشاعرة «فدوى طوقان» عن يقظة الشرق في فترة مبكرة من حياتها الشعرية، لم تستطع أن تنسى القدس، وتقدمها لنا في صورة حزينة تهز فؤادها الجريح للعرب، كما يتضح من قصيدتها «يقظة الشرق» التي تقول فيها:

هو ذا العيد أقبل اليوم محد
وّاً بروح في بردتيه جديد
فيه شيء من اعتزاز قديم
عرفته له خوالي العهود
في فؤاد القدس الجريح اهتزاز
لكم رغم صبره المنكود
انثنى مرهفاً على الجرح يشدو
ويحي أفراحكم في العيد

كما يلوم الشاعر البستاني جامعة الدول العربية، التي لم ترد القدس في بنودها الرئيسية، في إطار عتابه خير الدين الزركلي عام ١٩٤٥، إذ يقول:

أجامعة وما للقدس فيها
سوى الذيل المعلق بالبنود
وما معنى العروبة في حماها
وفي قلب الحمى وطن اليهود

ثالثاً: الشعر الاجتماعي:

رسم شعراء فلسطين والأردن صورة لما كان يجري في القدس من أحداث أو مؤتمرات أو حياة اجتماعية، تتناول أحداث الحياة اليومية، كالحفلات التي كانت تقام للاستقبال والترحيب والوداع،أو تلك التي كانت تخصص لرثاء الشخصيات الهامة والأبطال الشهداء، إلى جانب الإشارة إلى تقليد المرأة العربية في القدس للمرأة الأجنبية في زيّها وبعض عاداتها، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية المتنوعة.

وكانت قصائد الشعراء في معظمها تركّز على ترديد عبارات الترحيب والثناء في إطار من الصياغة الفنية المباشرة التي تجعل هذه القصائد نظماً لا شعراً. وهناك قصيدة تفوقت على مثيلاتها من القصائد – وقيلت في مناسبة اجتماعية، خصصت للاحتفاء بأحد القادمين إلى فلسطين – وهي قصيدة الشاعر عبد الرحيم محمود التي – سماها «نجم السعود» وقدّمها بين يدي الأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت، عندما زار فلسطين ومرّ بعنتبا ونزل في القدس ضيفاً على سماحة المفتي. وآثر قضاء معظم أيام الزيارة في القدس.

وقد خاطب الشاعر عبد الرحيم محمود الأمير قائلاً:

يا ذا الأميرِ أمام عينيك شاعر
ضمت على الشكوى المريرة أضلعه
المسجد الأقصى أجئتَ تزوره
أم جئتَ من قبل الضياع تودعه
حرم تباح لكل أوكع آبقٍ
ولكل أفاق شريد أربعه
الطاعنون وبوركت جنباته
أبناؤه أعظم بطعن يوجعه
سرْ يا أمير ورافقتك عناية
نجم السعود وفي جبينك مطلعه

وقد استوقفت هذه القصيدة عدداً من الباحثين الذين امتدحوا الحس التنبؤي عند الشاعر، الذي أشار إلى الكارثة في وقت مبكر قبل وقوعها، ومبرزين قدرته على تصوير الهم الجماعي من خلال همه

الذاتـي، ورؤيته الشاملة التي استطاعت أن تصور الواقع وتستشرف أبعاد المستقبل.

وقد عرض بعض الشعراء في قصائدهم تأثـر المـرأة العربيـة في فلسطـين بالمرأة الأجنبية، ولكنه تأثر خارجي، يتعلق بإظهار مفاتن المرأة للرجـال، والتفنن في الملابس، كما نجد في قصيدتين من قصائد البيتجالي منكـراً فيها على نساء القدسـ هذا التأثر أو التقليد مـن وجهة نظر أخلاقية، وكانت القصيدة الأولى بعنـوان «غانيات القدس» وقال فيها:

يتخطرن في الشوارع تيهاً
بحليً من أساور وعقود
يتلفتن تارة بازدراءٍ
ويتقهقهن تارة كالوليد
من بنات اليهود جئنا إلينا
من أوربا بكل زي جديد
مشهد من مشاهد القدس هذا
في غنى عن دلائل وشهود
غانيات الأعراب مهلاً فإنا
في احتياج إلى الصلاح شديد
احذري الزي هذبي الطفل كوني
بمثل النبل والتقى للوليد

وقد كـرّر البيتجـالي هـذه المعاني في قصيدتـه الثانية بعنـوان «مساء السبت في القدس».

وعندما نتحـدث عن الشعر الاجتماعي الـذي اشتمل على القدسـ، علينا أن نشير إلى قصيـدة «إبراهيم طوقان» أو مقطوعته التي سمّاهـا «القدس» وافتتحها بذكر «دار الزعامة والأحـزاب» دون أن يشير صراحة إلى القدس:

دارَ الزعامة والأحزابِ كان لنا
قضية فيكِ ضيعنا أمانيها
هل تذكرين وقد جاءتك ناشئة
غنية دونَها الأزواج تفديها
تود لو وجدت يوماً أخاً ثقة
لديك يوسعها براً ويحميها
قضية نبذوها بعدما قتلت
ما ضَر لو فتحوا قبراً يواريها



القدس في القصص:

إن الحديـث عن القصص حول القدس له عدة اتجاهات، أهمها:

١- الاتجـاه الـذي يغلّـب الإيقـاع الاجتماعي أو الرواية الاجتماعية.

٢- الاتجاه الذي يغلّب الرؤية الدينية في النسيج.

٣- الاتجاه الذي يغلّب الحس الوطني والقومي.

١ - الاتجاه الذي يغلّب الرؤية الاجتماعية:

عرضت قصص القدس التي تمثل الاتجاه الذي يغلّب الإيقاع الاجتماعي وشبكة العلاقات على سائر الروابط، عرضت لأبعاد اجتماعية متنوعة، فقد تناولت بعض القصص الهموم الاجتماعية اليومية لسكان مدينة القدس، ومعاناتهم من الاحتلال، واصطدامهم بها يفرضه عليهم من قوانين وأنظمة تتعلق بحياتهم الاجتماعية، كالحصول على تصريح عمل، أو منع خروجهم من القدس إلى البلاد العربية الأخرى، أو الضائقة المالية التي يمرون بها، كما عرضت بعض القصص لصورة المرأة في القدس، إذ تناولت نموذج المرأة الأم، إلى جانب نموذج المرأة المناضلة التي تقاوم الاحتلال.

ففي قصة «الليرات العشر» لعمير دعنا، تناول الكاتب هموم العمال العرب في مدينة القدس تحت الاحتلال، واصطدامهم بقوانين الاحتلال وأنظمته، كما نجد في قصة «يوم تحت الاحتلال» لعبد الرحمن عباد، التي تعرض ما حدث مع الأستاذ خليل الذي فصل من عمله في التربية واضطر ليكون عاملاً وفي أول يوم يعمل فيه مع يونس في حاكورة يمتلكها اليهود، يأتي الموظف الاسرائيلي ويعطيه مخالفة بعشرين ليرة، لأنه يعمل دون تصريح، وما تكاد تمر ساعات حتى تأتي سيارة إسرائيلية، وتأخذ العمال العرب، ومنهم الأستاذ خليل إلى السجن، لأن لغماً انفجر قرب تلك المنطقة التي عمل فيها يوماً واحداً!

صورة المرأة:

عرضت قصص القدس صورة المرأة، فبينّت لنا أدواراً مختلفة لها في الحياة:

وأهم هذه القصص:

- التحديق في المرآة لـ خليل السواحري
- عودة الغريب لـ رشاد أبو شاور
- تحت سقف الليل لـ أحمد عودة
- ابتسمي يا قدس لـ نبيه القاسم
- عهد من القدس لـ نجوى قعوار فرح.

وتعكس القصص السابقة صوراً مختلفة للمرأة في القدس، ففي قصتي «عهد من القدس» لنجوى قعوار فرح و«حتى لا ننسى» لجمال بنوّرة، تبدو فتاة مثقفة، تنتمي لحركة معينة لها لقاءات خاصة بالشباب المنتمي للحركة، كما جاء في القصة أو تحمل أفكاراً متحررة تؤمن بها، كما جاء في القصة الثانية التي تعرض -إلى جانب ذلك- أفكار المرأة اليهودية في صورة أخلاقية مبتذلة.

وعلى الرغم من تصوير القصتين لوضع المـرأة المثقفـة، إلا أن القدس لم تكن فيهما مكاناً جامداً تجري فيه الأحداث، وإنما نرى لها حضوراً واضحاً، دون أن يشغل الاهتمام بالمرأة كاتبي القصتين عن القدس.

ونلتقـي في قصتي «ابتسمـي يا قدس» لنبيه قاسـم، و«عودة الغريـب» لرشاد أبي شاور، بنموذج الفتاة المقاومة في القدس.

فوفـاء بطلة قصة أبي شاور يلقى عليها القبض في القدسـ بتهمة وضع المتفجرات في إحـدى دور السينمـا الإسرائيليـة، أما الفتـاة «بشرى» فقد قتل الأعـداء والدها، لأنه رفض أن يتخلّـى عن بيته لهم. ولكنها تنتقم لوالدها، وتثأر له من قاتليه، إذ قامت بعمليـة جريئة في حي الحبشة ضد الغريب وموكبه، كما يقول الكاتب، الذي جعل بطلة قصته مشدودة إلى القدس متعلقة بها، حين جعلها تصرخ رافضة تغيير اسمها وصورتها، لأن القدس عندها كالأم «ولا يمكن للواحد منّا أن تكـون له أكثر من أم في وقت واحد» وهذا أكسب القصة قيمة، وأشاع في أحداثها نبض الحياة وحرارتها.

٢ - الاتجاه الذي يغلّب الرؤية الدينية في النسيج:

لم يكـن هنـاك قصصـاً كثـيرة، تغلّب الرؤية الدينية في نسيجها، ولعل ذلك عائد إلى أن تلـك القصائـد كان يكتبها الشعراء في مناسبـات دينية وثيقـة الصلة بالقدس كالإسراء والمعـراج، أما كتّـاب القصة فلا يكتبـون قصصهم ليعبروا بها عن احتفائهم بالمناسبـات، دينية كانت أم غير ذلك، وذلك لا ينفي وجود بعض الإرشادات التي تحمل بعداً دينياً في قصص القدس المختلفة، ولكن الرؤية الدينية لم تكن هي الرؤية الغالبة على نسيجها.

وهنـاك أربـع قصص، تعـد ذات رؤية دينيـة، الأولى قصـة «موعـد في القدس» لسليمان المشينـي، والثانية قصة «الراكبون إلى بيـت المقدس» ليوسـف صالح، والثالثة «الحانوت» لإبراهيم العلم، والرابعة «أعدّوا لهم» لسعادة أبي عراق.

وقـد غلب علـى هذه القصـة المباشرة والولـع بسرد الأحـداث، بأسلـوب يقترب مـن المقالـة الصحفية، كما جـاء في قصة «الحانوت» لإبراهيم العلم.

ولعل مـن أكثر القصصـ الدينية صلة بالقدس قصـة «الراكبون إلى بيت المقدس»

ليوسف صالح، التي تعرض لرحلة أحد أفراد المدينة المنورة، وقد خرج في شلّة من قومه لزيارة بيت المقدس، بغية التعرف إلى المكان الذي عرج منه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء.

٣ - الاتجاه الذي يغلّب الحس الوطني والقومي:

سنقف هنا عند ثلاث من القصص التي تمثّل قصص القدس - وتغلّب الحس الوطني على نسيجها، الأولى «نفس تنباك» لخليل السواحري، والثانية «حكاية للأسوار القديمة»، لمفيد نحلة، والثالثة «بعد الحصار، قبل الشمس بقليل» لأكرم هنية.

كما هناك بعض القصص التي تتناول موقف العرب من فلسطين بعامة، والقدس بخاصة، مبينة تقصيرهم تجاهها، أو موقفهم المرفوض منها، كما يتضح من قصة «مروخ هبا مار سادات» لمحمد علي طه، وقصة «فصول في توقيع الاتفاقية» لعادل الأسطة، وقصة «الشيخ مكتوم يصلّي في أورشليم» ليوسف طاهر العبيدي.

يتحدث يوسف طاهر العبيدي في قصته «الشيخ مكتوم يصلي في أورشليم» عن أحد شيوخ الخليج الذي يسافر إلى باريس، ويحلم بالقدس، ويتمنى أن يصلي ركعة واحدة فيها ثم يموت. ويذهب إلى إحدى حانات باريس، وهناك يقع في فخاخ (الموساد) الإسرائيلي، الذين يعرفونه بفتاة جميلة شقراء اسمها «أورشليم»، وحين يستبّد به السكر تسيطر عليه الفتاة وتزعم له أنها القدس، فيقضي معها ليلته، مقابل أربعمئة ألف فرنك فرنسي! فالقصة تمتلىء بالسخرية المرّة، ويشيع فيها النقد اللاذع للعرب الذين يمثّلهم عند الكاتب - الشيخ مكتوم - والذين يحلمون بالعودة إلى القدس والصلاة فيها بالقول فقط، بينما أعمالهم لا تمكنهم من ذلك. وقد تدخّل الكاتب في بناء أحداث القصة تدخلاً مباشراً، وبخاصة حين روى لنا كيف قضى الشيخ مكتوم ليلته الآثمة مع أورشليم (الموساد)، يقول «إنه صلّى بها، وصلّى لها، وتعبّد في محرابها.. ولكنه نسي بأن القدس ما زالت ثابتة واقفة راسخة الأقدام، رافعة رأسها نحو السماء».

القدس في الرواية:

تفاوتت عناية روايات هذه الفترة بالقدس وما يتصل بها. نجد بعض الروايات تذكر القدس عرضاً، أو في قلة اهتمام نراه في عدد منها. غير أن هناك بعض الروايات التي توجّه إلى القدس اهتمامها، أو تكاد تقصر تناولها عليها والروايات المتصلة

بالقدس يمكن أن تندرج تحت محورين اثنين:

المحور الأول:

وهو المحور الذي تغلّبت الرؤية الاجتماعية في رواياته على نسيجها الفني. وتناولت هذه الروايات هموم الفلسطينين داخل الوطن وخارجه، والحديث عن رحيلهم وتشتيتهم في الآفاق، بعد مغادرة وطنهم.

المحور الثاني:

وهو المحور السياسي المتمثّل في الصراع مع الأعداء

أما الروايات التي غلبت الرؤية الاجتماعية على نسيجها الفني فتمثّلها رواية: «آلام نازحة» لأحمد عويدي العبادي

ورواية «إلى اللقاء في يافا» لهيام رمزي الدردنجي

ورواية «السفينة» لجبرا إبراهيم جبرا

و«البحث عن وليد مسعود» لجبرا إبراهيم جبرا، أيضاً

و«الدم والتراب» لعطيّة عبد الله عطيّة

ورواية «الرحيل» لمفيد نحلة – ورواية «طريق إلى البحر» لفاروق وادي.

أما روايات المحور السياسي المتمثل في الصراع مع الأعداء فتمثّلها الروايات التالية:

«جراح جديدة» لعيسى الناعوري.

و«سداسية الأيام الستة» لأميل حبيبي

و«الوقائع الغريبة في اختفاء أبي النحس المتشائل» لإميل حبيبي

و«حارة النصارى» لنبيل خوري

وقد سيطرت النكسة على معظم أحداث الروايات التي صدرت بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، فعرضت لتشرد الشعب الفلسطيني وما كان يدور من قتال في مدينة القدس في تلك المعركة. ولكن ذلك لم يكن إلا تسجيلاً للواقع، ونقلاً له كما هو في واقع الحياة.

وبدت صورة القدس وما يتصل بها تفوق هذا «الواقع التسجيلي»، وإن لم تكن صورتها فيها مفعمة بالحركة والحياة.

القدس في المسرحية:

إن المسرحيات التي عرضت للقدس كانت قليلة العدد، وربما يعود ذلك إلى جملة من الأسباب أهمها: قلّة المسرحيات المؤلفة في فلسطين إذا ما قيست بالدواوين الشعرية، والمجموعات القصصية، والروايات. وكان كثير من هذه المسرحيات إما مترجماً، أو معّداً إعداداً مسرحياً، ولكنه في الأصل منقول عن عدد من المسرحيات العربية، بعد إجراء شيء من التعديل والتغيير عليها.

وكانت المسرحيات التي عرضت للقدس تهتم في معظمها - بالجوانب التاريخية إلى جانب القضايا الاجتماعية، دون أن تكون هذه القضايا منفصلة عن بعضها، وإنما كانت تتداخل فيما بينها.

ومن هذه المسرحيات: «فتح بيت المقدس» للنادي الكاثوليكي في حيفا

و«فلسطين مأساة عائلات الشهداء المجاهدين» لسعيد شقير

و«وطن الشهيد» لبرهان الدين العبوشي

و«القدس الشريف» لشكري سعيد

ومسرحية «طالب الثأر ما قعد» لهدّية عبد الهادي.

و«أسرة الشهيد» لمحي الدين الحاج عيسى

و«راحيل» لنجاتي البخاري

و«الطريق إلى القدس» لعابدين بسيسو

و«شعب صامد» لأحمد عبد العزيز دحنون

وغيرها من المسرحيات. غير أن ما يتضح لنا أن صورة القدس في الأدب المسرحي في هذه الفترة، صورة مفككة الأجزاء لا تحمل قضية مصيرية، أو همّاً جماهيرياً من الهموم التي يحملها المسرح، ويعرضها أمام الجمهور أو المتلقين. وكان كثير من هذه المسرحيات يعد للطلبة أو الناشئين، ليقوموا بتمثيلها، مما جعل أصحابها - في الغالب - يكتبون تلك المسرحيات بأسلوب يوافق «السن المدرسي»، كما أن معظم الذين عرضوا للقدس في مسرحياتهم، كان همهم موجهاً لإبراز الأحداث التاريخية التي مرت بفلسطين وأهلها، ولكن تناولهم لتلك الأحداث كان أقرب إلى تناول المؤرخين والصحافيين منه إلى تناول المبدعين، فالمبدع قد يعرف ما يعرفه المؤرخ، لكنه ليس مطلوباً منه أن يقف عند دور المؤرخ، وإنما عليه أن يتخطاه، حتى لا يقوم بنسخ الواقع وتكراره كما هو.

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن الذين عرضوا للقدس في مسرحياتهم لم يكونوا - في معظمهم - من المبدعين المتفوقين الذين يحسنون التعامل مع القضايا الحياتية، ويدركون كيفية عرضها على الجمهور. كما أن المسرحيات نفسها كانت ضعيفة وهشة لا تكاد في الغالب تتجاوز النظم، إن كانت مسرحية شعرية أو الوصف أو تسجيل الواقع إن كانت مسرحية نثرية.

وكل ما ذكرناه أسهم إلى حد كبير في رسم صورة غير مضيئة للقدس في المسرحية، بل لقد بدت القدس فيها ظرفاً تاريخياً تجري فيه الأحداث، دون أن تكون قادرة على تحريك هذه الأحداث والتفاعل معها.

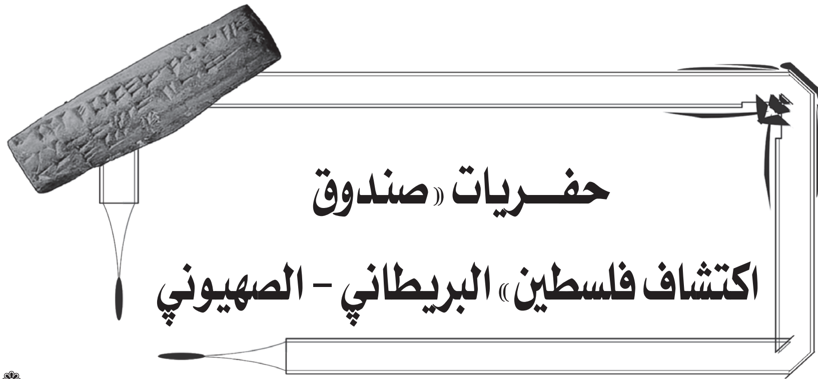
المصادر والمراجع

١- الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة المقدسي، ج ١ صفحة ١٧٩.
٢- القدسيات في شعر الحروب الصليبية، ناجي عبد الجبار محمود عبد الجابر.
٣- مجلة الكرامة، السنة ٨، العدد ٩٠، تشرين الأول ١٩٨٤، صفحة ٢١-٢٥.
٤- آلام نازحة، أحمد العويدي العبادي.
٥- الرواية في الأدب الفلسطيني، أحمد عطية أبو مطر، صفحة ١٥١.
٦- سداسية الأيام الستة، أميل حبيبي، عدد تشرين الثاني ١٩٦٨.
٧- جراح جديدة، عيس الناعوري صفحة ١٢١.
٨- ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، فاروق وادي.
٩- مأساة فلسطين، سعيد شقير.
١٠-مسرح الاحتلال في فلسطين، ياسر الملاّح.
١١-نشأة الرواية والمسرحية في فلسطين، د. ابراهيم السعافين.
١٢-وطن الشهيد، برهان الدين العبوشي.
١٣-شعب صامد، أحمد عبد العزيز دحنون.
١٤-القصة العربية في فلسطين المحتلة، عادل الأسطة.
١٥-دراسات في القصة المحلية، نبيه القاسم. صفحة ١٣٩.
١٦-القصة الفلسطينية القصيرة في الأراضي المحتلة، فخري صالح صفحة ١٣٦.
١٧-المفاتيح الدور في الأقفال، علي الخليلي.





آفاق المعرفة



حفريات «صندوق اكتشاف فلسطين» البريطاني - الصهيوني

سليمان عبد المنعم *

الدولة البريطانية تصبح صهيونية قبل نشوء الحركة الصهيونية بنصف قرن حيث لحظت التهديد الـذي شكله محمد علي عندما احتل بلاد الشام ووصل إلى الحدود التركية.

فقـد نشأت عند البريطانيين مسألـةُ مستقبل فلسطين وهل ستبقى بيد تركية أم ستفوز بها بريطانية العظمى، لأنها - أي بريطانية - بدأت تفكر في ضـم عكا وقبرص إلى الإمبراطورية البريطانية وأخذت تسعى لضمان حرية طريق الهند من أي دولة أخرى وخاصة بعد حملة نابليون.

* باحث في تراث فلسطين (فلسطين).



فيمـــا سبـــق وبهـــذا الخصوصـــ كتب الأيرل شافتسبري بالمرستون وزير الخارجية البريطاني يقـــترح إقامة مستعمرة بريطانية (دومنيـــون) وأضـــاف أن المنطقة تحتاج إلى المال والعمل وتحـــدث في رسالة أخرى /في ٢٥ أيلـــول ١٨٤٠/ كتب عن اليهود بوصفهم تجار بارزيـــن وقال إن المنطقـــة تحتاج إلى مال وسكان واستنتـــج أن اليهود يستطيعون تزويدها بالمطلوب وسأل شافتسبري أوليس لبريطانية مصلحة في ذلك؟؟

وفي تصريحات كثيرة لكتاب بريطانيين ومسؤولين دعوا إلى بسط النفوذ البريطاني علـــى سورية (فلسطـــين) واستخدام أبناء إسرائيل أو العبريين في استيطانها على نسق المستوطنـــين الأوروبيين في أمريكا، وهذا ما يفســـر كل ما حدث فيما بعد، وما صدر من كتب وتصريحات وخطب دعمت الاستيطان في فلسطين وكانت مقدمة لوعد بلفور وغيره من مساعـــدات بريطانية صريحـــة لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

تشارلز ولسن وتنقيبات مبكرة في القدس

وبعد أن تمكن بعض المستوطنين اليهود من الإقامة في القدس أخـــذوا بالسعي إلى تحقيق بعض أهدافهـــم التوراتية المزعومة ومحاولـــة الكشـــف عـــن آثـــار في فلسطين وخاصة في مدينة القدس تدعم هذه الأوهام حيـــث فشلوا في كل مـــكان قاموا بحفره ولم يتوصلوا إلى أي دليـــل يُطَمئن آمالهم فكان عملهم دائمـــاً في محاولة البحث عن هدف مزعـــوم لا يقوم له أي دليـــل سوى رواياتهم وأحلامهـــم. وممن قاموا بهـــذه الحفريات النقيب تشارلز ولسن[1] حيث نزل في تاريخ /٣٠ أيلول ١٨٦٤/ إلى ميناء يافا هو وأربعة عرفاء وتابعوا السفر فوراً ودون توقف ورغم مخاطر الطريـــق وحلول الظلام، وصلوا إلى المدينـــة المقدسة وفي اليوم التالي كان ولسن يمثل حكومتـــه وكان البنـــد الأول في خطة مهمته اجتماعاً مع القنصل البريطاني الذي كان سيتـــولى مهمة توفير الصلـــة الرسمية مـــع عزت باشـــا المحافظ العثمـــاني لمدينة القدس فتـــم الترحيب به من قبل السلطات الرسمية.

وبسرعة بـــدؤوا العمل مباشرةً وحددوا خطاً أساسياً في الجهة الجنوبية الغربية

وراحوا متتبعين الإجراءات التضاريسية النموذجيـــة ونشروا سلسلة مـــن القياسات المثلثية لابتداع شبكة رئيسية تزيد مساحتها عـــن اثني عشر ميلاً مربعاً سيتم في إطارها تسجيل جميع التفاصيـــل المادية ونقلها إلى الخرائط الأم للقدس.

ولاحــظ ولسن وجود مجمــع هائل من الصهاريــج تحــت الأرضــ داخــل الحرم الشريــف، وباشــر بأعمــال تنقيبية هناك وعمليــة التقصي هذه كانــت أشمل وأعمق من أيــة عملية تمــت في السابــق، وولسن وفريقــه وضعــوا بعنايــة مخططــاً لجميع الملامــح السطحية، ونزلــوا إلى سلسلة من الأقبيــة الموجودة تحت الأرضــ مكتشفين أن القياســات السابقــة كانــت في العديد مــن الحالات مستنــدة إلى الخيال أكثر من اعتمادها على الواقــع فأين الهدف الكبير الــذي يداعب أحلامهــم، أم هو كذبة كبرى على التاريخ والناس..؟

أما وجود الصهاريج الكبيرة لم يكن قابلاً للدحضــ وبدا لهــم كما تخيلــوا أن الموقع القديم للهيكل كما لــو أنه النقطة المركزية لشبكــة مياه واسعــة، مما دفــع ولسن إلى الإحساس بضرورة تنقيــب قنواته ومجاريه المائية عبر زحمة البيــوت والمباني المحيطة بالأسوار الداعمة للحرم الشريف.

كان جميع مكتشفي القدس السابقين قد حصروا أعمالهم التنقيبية بالآثار المرئية فوق سطــح الأرض، أما ولسن وفريقه فقد نزلوا إلى مــا تحت الأرضــ زاحفين عبر المجاري والبلاليع ونازلين إلى قلــب الصهاريج غير المستعملة، فما لبثــوا أن تعثروا بصورة غير متوقعة من قبــل. ففي حجرة تحت الأرض إلى الشمــال مباشــرةً من (حائــط المبكى) اليهودي كمــا اعتقدوا، تمكــن الفريق من التعرف على قنطرة أثريــة ضخمة متصلة بالسور الخارجــي للحرم عُرفــت بقنطرة ولسن وهي شبيهة بقنطــرة ربنسن (باحث آثاري قــام بأعمال وحفريات لنفس الهدف ولكنــه لم يفلح بشيء) وهــي قنطرة موازية تماماً لهذه القنطــرة وتمثل مدخلاً إضافياً آخر من داخل (الهيكل اليهودي المفترض) .

وهكذا فإن المؤشــرات العظيمة الدالة على بهــاء القدس القديمــة كانت مدفونة هناك في شبكة بلاليع المدينة الشرق أوسطية الحديثة، وهكذا بات واضحاً لولسن أن من شأن متابعة عمليات الاستكشاف تحت الأرض أن تنطوي على قدر كبير من المكاسب المتعلقة بالمعلومات الأثرية القيمة، فأمر بحفر ممر رأسي تحت المدينة الحالية وبلغ الحفر أكثر من ثمانين قدماً ومزيداً من التنقيب، ولكنه ارتــأى ترك ذلك لبعثات أفضل تجهيزاً لمثل هذه المهمة.

الملكة ورعايتها لصندوق اكتشاف فلسطين

وجرى تصوير هذه المكتشفات في بريطانيا على أنها فتح كبير في الوصول إلى الهيكل المطلوب فقامت الدنيا ولم تقعد تأييداً لهذه الاكتشافات.

وبعد صلاة افتتاحية ترأسها أسقف لندن وليم طمسن رئيس أساقفة يورك يوجز أهداف جمعيته لدعم هذا العمل فكشف بوضوح عن التوجهات المستقبلية للعمل إذ قال: (إن هذا البلد، فلسطين عائدة لكم ولي إنه لنا أساساً، فقد منحت فلسطين إلى أبي إسرائيل بالعبارات التالية.. هيا أمش في الأرض طولاً وعرضاً لأنني سأعطيك إياها) ونحن عازمون على المشي عبر فلسطين بالطول والعرض لأن تلك الأرض التي نتوجه إليها بوصفها منبعاً لجميع آمالنا إنها الأرض التي نتطلع إليها بوطنية صادقة تضاهي حماسنا الوطني لدى النظر إلى انكلترا القديمة العزيزة هذه، وأبلغ الحضور بعد الشرح والتوضيح بأن الملكة فكتوريا بالذات كانت قد تفضلت بالموافقة على أن تكون الراعية (وليَّة النعمة) الرسمية لصندوق اكتشاف فلسطين.

وبعد أن انتشر تسويق هذا البرنامج في بريطانيا وغيرها من البلدان الأوروبية، تطور الدعم لهذا الصندوق، فقام الصندوق بإرسال إشارات واضحة للجمهور عن مدى كفاءة تنقيب ولسن العالية بنشر كتابين كبيرين عنها، فكان المجلد الضخم الأول للنص التفصيلي متضمناً مخططين مرسومين بوضوح لمدينة القدس أحدهما بمقياس (١/ ٢٥٠٠٠) والثاني أكثر تفصيلاً من الأول بمقياس (١/ ١٠٠٠٠) وإضافة إلى ذلك كانت ثمة مخططات معمارية دقيقة لكلٍ من كنيسة القيامة وقبة الصخرة وغيرهما من المعالم الأثرية الهامة في أرجاء المدينة لإثارة العواطف لدعم أهداف وهمية يدعون إليها.

وبرهن ولسن على أن اكتشاف فلسطين كان أمراً عملياً قابلاً للتنفيذ، ثم ما لبس أن ضُخت العديد من المساهمات في صندوق (اكتشاف فلسطين) من جانب جامعتي أكسفورد وكمبريدج والمحفل الماسوني الأعظم ولجنة تحسين سورية.

وهكذا باتت الأرض ممهدة لدعم المزيد من التقصي، وكانت حملة جديدة توشك أن تبدأ.. ولكن ورغم كل الدعم والجهود المبذولة توقفت أعمال تشارلز ولسن وفريقه لأنها لم تحقق شيئاً ملموساً من الأهداف المعينة.

تشارلز وَرَن .. سراديب جديدة

وفي عـام (١٨٦٧م) وعلى نفس المنوال وترويج الأكاذيب بدأ تشارلز وَرَن(٢) بحفر سراديب رأسية في نقاط مختلفة إلى جهتي الجنوب والغرب من الحرم الشريف، وفي تموز جرى مد الحفريات إلى جهة الزاوية الجنوبية الغربية من سور الحرم وقد تبين أن هذا السور المهيب المنتصب بارتفاع يصل إلى ثمانين قدماً عن مستوى سطح الأرض ممتداً مسافةً مئة قدم أخرى تحت الأرض وفي الزاوية عثر المنقبون على علامات اعتقدوا أن النحاتين الفينيقيين قد وضعوها.

وعندما صُدمَ هذا البحث والتنقيب بعثرات كبيرة منها مالية –كما قالوا–

وأهمها عدم إدراك التنفيذ مبتغاه من الكشف عن الهيكل في دعم تخرصاتهم فأوقف وَرَن أعمال التنقيب وعاد إلى انكلترا مطالباً بتعزيزات جديدة لنفس الهدف.

تنقيبات متنوعة

وحتى العام (١٨٨٣م) كان النشاط الأثري لمختلف الجاليات الأجنبية في القدس لا يزال مطبوعاً بدمغة الهواجس الدينية والسياسية (فالجمعية الأرثوذكسية الروسية في فلسطين) قامت بأعمال التنقيب في ممتلكاتها القريبة من كنيسة المهد وثمة دراسات إضافية كانت تتم من قبل الدونيميكان الفرنسيين عند موقع كنيستهم الجديدة – أيضاً – إلى الشمال من المدينة على أيدي الأوغسطينيين بالقرب من ديرهم على جبل صهيون ومن قبل القساوسة البيض عند القديس اسطفان وعلى يد القس صلاح مريل المستكشف السابق لصالح جمعية (استكشاف فلسطين الأمريكية) وكل هذا كان مدفوعاً بحماس الجمهور العام من متديني انكلترا وأوروبة وأمريكا إلى اكتشاف أوابد ذات مغزى ديني

وفي مقدمته قبر السيد المسيح عليه السلام.

أما الدافع وراء الكثير من أعمال الحفر والتنقيب في القدس كان كامناً في مسألة صحة المواقع المقدسة التقليدية المعلقة، والتنقيبات الروسية بالقرب من كنيسة القيامة خصوصاً كان قد أعاد خلافات قديمة في مسألة حساسة.

فتحت إشراف مهندس سويسري المولد ومراسل غير متفرغ لنشرة صندوق فلسطين يدعى كونر أوشيك حيث كان قد ميز بقايا سور مدينة قديمة إلى الشرق مما يدل أن الموقع كان خارج المدينة في عهد يسوع

وهــذه الحقيقــة اعترضت عليهــا تقارير بروتستانتية.

وبعــد أخــذ ورد بين علمــاء الآثار كلٍ لــه رأيه ومع حلول صيــف (١٨٩٧م) كانت الحفريــات قــد تعقبت الحــدود الجنوبية للمدينــة القديمــة ونفذت عــدة عمليات سبر تجريبيــة داخلها فكشفوا عــن أسوار وتحصينــات وشــوارع مرصوفة وتمديدات مياه وأطلال كنيسة عائدة إلى القرن الخامس الميلادي غــير أن ما هو أهم من جميع هذه المكتشفات أنه تم تسليط الضوء الكامل لأول مرة لتعقب آثــار القدس، فالسفح الجنوبي للمدينة رغم بقائه الآن خارج الأسوار، فقد كان جــزءاً عضوياً من المدينــة من العصر البرونزي إلى الحقبة البيزنطية.

وإن الأشغال المستمرة تمخض عن قدر كبير من الفوضى وتداخل المباني

والمقالع وأكوام القمامة ومخلفات الحت. وفكــرة البحث عن آبــدة معينة مذكورة في الكتــاب المقدس تبين أنها فكرة غير عملية، أما ما هو أكــثر أهمية بما لا يقاس فكانت متمثلــة بالمبــادرة أولاً إلى قــراءة تفاصيل التطور التاريخــي للمدينــة لاكتساب فهم أشمل لأحقابها المختلفة.

فعمليــات الاستكشاف في القدس كانت مــن الآن فصاعــداً تتطلب ليســ المال أو الحماس بل أجيالاً من العمل الآثاري المكثف والمتراكم باضطراد وبذلك المعنى فإن العلم قد انتصــر كي يتقدم باتجاه مرحلة جديدة أكثر حداثة.

وفي العشرين من حزيران عام (١٨٩٧م) تم إغلاق الحفريات المقدسة للمرة الأخيرة لأنهــا لم تصل إلى كشــف أي ادعاء توراتي، وإن وعيــاً علميــاً كان قــد بــدأ يحل محل الأساطير التاريخية العريقــة والعتيدة عن المدينة وعليه فقــد بات منذ عام (١٨٩٥م) على جميــع المرشحين لشغــل وظيفة دليل سياحي المستحدثة في حينه مطالبين باجتياز امتحان في تاريخ القدس الذي كان مستنداً في معظمه إلى الاستنتاجــات التي أفرزتها حفريــات (صنــدوق اكتشــاف فلسطــين) الأثرية ولكــن هذه الوظيفــة أخذ يسيطر عليها أفراد من المستوطنات اليهودية، وبدا نفوذهم بمرور الأيــام يبرهن على أنه أقوى من مساعي أيٍ من البعثات التبشيرية.

وهــذا مــا استمــر بعــد قيــام الكيان الصهيوني الغاصب والمخرب والقاتل للبشر والحجــر ومحاولته اليوميــة إلى ضرب كل ما يخالــف الأهــداف الصهيونية الوهمية والكاذبة حتى هذه الدقيقة.

فالكيـــان يقـــوم بحفريـــات كبيرة تحت الحـــرم الشريف بحجـــة اكتشـــاف الهيكل المزعوم حتى بات الحـــرم وما حوله مهدداً بالانهيـــار في كل لحظة وبذلـــك ينتهي أمرُ الحـــرم ويصبحون أمام أطلال تدعوهم إلى بناء جديد.

أنفاق مستمرة وبناء جديد

والآن يخطط العدو إلى بناء كنيس جديد أمام الحرم الشريف ويحجب الرؤية مبدئياً عن الحرم، ثم محاولـــة لإظهار المباني حول الحـــرم والتي طـــال أساساتهـــا الحفر من قريب أو بعيد وأُعلن أنها آيلة للسقوط وتلك مقدمة لإخلائهـــا وإجلاء سكانها الأصليين منـــذ آلاف السنين إلى أماكن بعيدة عن هذا المشـــروع ويدعم هذا أيضاً بناء المستوطنات التي تطوق المدينة وتخنقها وتطرد سكانها.

ومـــع هذه الزحمة من التخريب للمدينة القديمة فإن حفـــر نفق البراق ودعمه بنفق آخـــر جديـــد يوازيـــه يجعل هـــذا المشروع في نهايتـــه كما يصـــرح الصهاينة في كل آن ودون إخفـــاء أي جـــزء من هـــذا المخطط، وقد تمت أكـــثر هذه المحاصرات والإعاقات التي تمارس على الشعب الفلسطيني بشكل مشاريع مصورة ومعلنة لدى وسائط الإعلام العالمية، وهو نوعٌ من الاستعراض الإعلامي وذلك بنـــد أساسي من معركـــة العدو ضد الحـــرم الشريف والقدس وفلسطين وغيرها من المقدسات العربية.

فنحن كعـــرب وفلسطينيين نقول لو كان في القدس عندما دخلها المسلمون في السنة الخامســـة عشرة للهجرة معبـــد أوكنيس أو هيكل يهـــودي لأمر أمـــير المؤمنين عمر بن الخطـــاب بالإبقاء عليه بل لأمـــر بصيانته ورعايته والمحافظـــة على نقوشه ومحتوياته مثلما أمر بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومزاراتهـــم ومـــا فيهـــا من صـــور وصلبان وتماثيل.

ولـــو كان في القدس مبـــانٍ أو هياكل أو آثار يهودية لما كان هناك ما يدعو جنرالات إسرائيـــل أمثـــال (موشي ديـــان) و(بارين) و(وايزمان) و(هرتوغ) إلى أن يتحولوا جميعاً إلى علمـــاء آثار وهـــواة حفريـــات ينبشون تحت الأرض في القدس وما حولها يفتشون عن معابد يهوديـــة قديمة بائدة من غير أن نسمع وحتـــى الآن عن اكتشـــاف شيءٍ مما ينقصهـــم في هذا المجال أو يحقق خيالاتهم المزعومة.

وبالرغم من كل هـــذه الحقائق فإنه في هذه الأيام تتعـــالى أصوات اليهود في أنحاء العـــالم بكل مـــا تنتجه لهم وسائـــل الدعاية

والإعلام مــن أساليب التضليــل والافتراء فنسمع ونقرأ ونرى في كل يوم من يقول: إن المسلمين أخذوا القدس من اليهود ثم أخذوا فلسطين واستولوا على هذه البلاد وحكموها قروناً ثم نهض اليهود من سباتهم واستبدلوا ضعفهم بقوة السلاح فاستردوا من المسلمين بلدهم اليهــودي ومدينتهــم اليهودية، إنها والحقيقــة أكذوبة من أكبر الأكاذيب قالوها وصدقوهــا والحقيقــة أن المسلمين حرروا القدس من الرومان الذيــن حكموها آلاف السنــين وكان قد حكمهــا كل من المصريين والآشوريــين والبابليين ودخل المدينة نبوخذ نصر ملــك بابــل وأحرقها وتركهــا مدينة مدمرة ثم حكمها الفرســ ثم جاء الإغريق وحكموها، ودخلهــا الرومان وكان كل حاكم يدخلها يحرق ويدمر ولا يُبْقى لمن كان فيها مــن قبل أي أثر، ولم يكن لهم كنيس أو هيكل فسمــح لهــم الرومان دخــول معبدهم ولما ساءت العلاقات بين الرومــان واليهود أمر الإمبراطور (نيرون) بحرق القدس كما أحرق روما فلم يبقِ من معبد القدس الروماني سوى حائط وهو ما يسمونه (حائط المبكى) وكان هذا في سنــة ٧٠ ميلادية.. وهكذا لما دخل المسلمون القدسَ في السنة الخامسة عشر للهجرة لم يكن فيها أي أثر يدل عليهم.

الهوامش:

١- النقيب تشارلز ولسن من الهندسة الملكية البريطانية في عصر التقنية الصناعية.

٢- تشارلز وَرَن مسؤول التنقيب في القدس (١٨٦٧ - ١٨٧٠).





آفاق المعرفة



الأبيوردي ومرثية القدس مدينة ضائعة وشاعر مُضَيَّع

إسماعيل مروة *

حين كنا طلاّباً درسنا قصيــدة للشاعر الأبيوردي تحمل عنوان القدس، وقــد مررنا على هذه القصيدة عَرَضاً كما مــرّ غيرنا، ولم تثبت في أذهاننا، بــل ولم نحفظها كمــا حفظنا لأبي الطيب أو المعــرّي أو أبي فراس.. ولست أدري كيف التصقــت بي هذه القصيدة منذ قرأتها! فلا تزال صورها ماثلةً في ذاكرتي حتــى وقعت عيني في مكتبة الرصيف ذات يوم جمعة على كتاب بغلاف كرتوني أبيضــ للدكتور الراحل ممدوح حقي بعنــوان (الأبيوردي).

* كاتب وإعلامي وناقد سوري.



اقتنيتــه يومهــا دون أن أعــرف الكثير عن الشاعر، وربما كان دافع الاقتناء يومها رخص ثمن الكتاب الذي عرفت قيمته فيما بعد..

وحــين تخصصت في قسم اللغة العربية بــدأت أمارس هوايتي باقتنــاء الكتب على ضيــق ذات اليــد، وكان ديــوان الأبيوردي بمجلديــه الصادر عن مجمــع اللغة العربية بدمشق وبتحقيق علمــي عالٍ للدكتور عمر الأسعد مــن أوائل الدواويــن التي اعتنيت بهــا.. وبحثــت عــن قصيــدة القدس فيه فلم أجدها، وعندها عرفــت أن القدماء لم يضعــوا عناوين قصائدهــم، وصرت أبحث حسب الأصول العلمية على المطلع والقافية، فقــرأت القصيدة وحفظتهــا ثم غبت عنها زمناً فنسيتها..

وفي عــام ١٩٩٥ عــادت القصيدة قسراً إلى اهتمامــي، فقد عرض علَــيَّ الصديق الدكتــور هــاني صالح في شتــاء ذلك العام ترجمته لكتــاب كتبته المستشرقــة الألمانية زيغريد هونكِه (التوجه الأوروبي إلى العرب والإســلام – حقيقة قادمة وقــدرٌ محتوم) وطلــب إليّ أن أستخرج له الأشعار الموجودة في الكتــاب، ليأخذها من مصادرها العربية بدل أن تتم ترجمتها مرّة أخرى بطريقة غير شعرية، وبــين هذه الأشعــار كانت قصيدة (القدس) للأبيوردي، وهنا تملكني العجب، وأنا أرى اهتمام المستشرقين بهذه القصيدة، في الوقت الذي لا نلتفت فيه إليها..

ومجــدداً يحدثني الصديق الدكتور علي القيّم عن عــددٍ في مجلة المعرفة عن مدينة القدس، ودون تردد قلت له: قصيدة القدس للأبيــوردي.. مصادفات عديــدة ربطتني بهذه القصيدة، ولكنها بمجملها مصادفات سعيدة، فوجدتني بعــد انغماس سنوات في الإعــلام ومتابعته أعود إلى مكتبتي وأنفض الغبار عــن بعض كتبها، لأمارســ بتلذّذ لا يعدِلــه تلذذ دور الباحــث المنقّب – مع أني لســت هو – وأجمع الكتــب من أجل دراسة قصيــدة تمثــل مرحلة فاصلــة في تاريخنا مع سقــوط القدس بيد الإفرنج فيما عُرف بالحــروب الصليبية، هــذه القصيدة التي تذكرنا بسقوط القدســ، وتعيد إلينا الأمل بتحريرهــا وإن طال الزمــن، ولكن من هو صاحب القصيدة الأبيوردي؟

الأبيــوردي العــالم النحــوي القــارئ الشاعر:

لم يكن الأبيوردي شاعراً فحسب، بل كان عالماً ذكرت كتبُ التراجــم مؤلفاتِه، ونحوياً وضعــه مترجمــو النُحــاة في ذروة النُحاة، وتحدثوا عن تصانيف في النحو واللغة لم يأت

بها غيره، وهو مؤرخٌ ترك تصانيفَ تاريخيةً عديـدة، وهو إلى ذلك أحد قُـرّاء نيسابور، وبعـد ذكر كلّ ما ذكر يأتـي المصنفون على جانبه الشعري، وكأنّ شعره، وهو من النسق الأعلى في الشعر، يأتـي من نافلة اهتمامه وعلومه!

يذكر الزركلي في الأعـلام، وهو مفتاح كتب التراجم في عصرنا، الأبيورديَّ، فيذكر عام وفاته، ولا يذكر ولادته، فيقول: «محمد بن أحمد بـن محمد القرشـي الأموي، أبو المظفر، شاعـر عالي الطبقة، مـؤرخ، عالم بـالأدب، وُلد في أبيـورد في خراسان ومات في أصبهـان كهلاً. من كتبـه: تاريخ أبيورد، المختلـف والمؤتلـف في الأنسـاب، طبقات العلمـاء في كل فنّ، أنسـاب العرب، ديوان شعر..» ثم ذكر بعض أقـوال العلماء فيه.. بعـد ترجمة الزركلي عرفـت سبب اهتمام المستشرقـين بـه، فهو ليس شاعـراً مجيداً فقـط، بل إنه عـالم ومـؤرخ ونسّابة. ولكن كيف يغيـب عالِمنا عنّا وتُعيد زيغريد هونكِه اكتشافَه؟ بل إنّ أعجب العجب أنني عندما بحثت في ترجمته في الكتب القديمة وجدت نماذج مختارةً من شعـره، ولكن الكتب كلّها – عدا ديوانـه – لم تذكر قصيدته العظيمة عن القدسـ..! ومع ذلك حـين استشهدت هونكِـه بالأبيـوردي، استشهـدت بـه في حديثها عـن الحمـلات الصليبية، وتحت عنوان: «وصمة عارٍ على الجبين الأوروبي»، وكان شعر الأبيـوردي للتدليل على همجية الأوروبيـين وحملاتهم العدوانيـة، فتقول: «فـلا عجب أن يكون هناك حتى يومنا هذا وصمة لا تُمحى علـى الجبين الأوروبي في الوعي والإدراك العربي. وقد ترك الشاعر أبو المظفر الأبيوردي العنان لخياله في هذه الأبيات والألم يعتصـره لانتصار الغزاة على شعبـه، فكان هذا الألم شعـراً يدعو فيه إلى الجهاد..» ص ٧٤

الطريف أنّ ما تـراه هونكه وصمة عار لا نعرفـه ولا نحفظه ولا نردده، مع أنّه كان دعوة إلى الجهاد واستنهاض الهمم!

حتى كتبنا القديمة لم تستشهد بقصيدته التي رأتها هونكِه حافزاً للجهاد، فأي قراءة نمارس؟ وأي تاريخ نسترجع؟!

أما السيوطي في (بُغيـة الوُعاة) فيذكر الأبيوردي بنسب كامل ويقول في علمه نقلاً عن السمعاني: «أوحد عصره، وفريد دهره، في معرفة اللغة والأنساب وغير ذلك، وأورد له من شعره بما عجز عنه الأوائل من معانٍ لم يُسبق إليها، وأليـق ما وُصِف به قول أبي العلاء المعرّي:

وإنّي وإنْ كنت الأخيرَ زمانُه

لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

أخذ عن عبد القادر الجرجاني، وإسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي، وأبي بكر بن خلف الشيرازي، ومالك بن أحمد البانياسيّ، وروى عنه جماعة. وصنّف كتباً منها: المختلف والمؤتلف، طبقات العلم، تاريخ أبيورد، تاريخ نسا، وغير ذلك، وله في اللغة مصنفات لم يُسبق إليها..» ١/٤٠

وبعد أنْ قرأت ترجمته في بغية الوُعاة، وعلى الرغم من عهدي الطويل معه، وجدتُ رغبةً في الاستزادة، عسى أنْ أقدم شيئاً علمياً ذا قيمة، لا يكون مجرّد إنشاءٍ وتدبيجٍ مدحيّ، فتابعت ترجمته في معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي فوجدت الحموي على تحفّظه وشدّته، يخصه بترجمة طويلة، ويذكر أسماء كتبِه وقصتَه، ويورد شيئاً من شعره، ليس بينها قصيدة القدس، فيقول فيه: «كان فاضلاً في العربية والعلوم الأدبية، نسّابة ليس مثلُه، متكبراً عظيماً» ٥/٢٣٦٠

وهذا ما أورده القفطي في كتابه (المحمدون من الشعراء) ولم يزد على الصفات شيئاً. ٤١

لم أشأ أن أقتبس من ترجمته الكثير تجنباً للتكرار، فما أوردَتْه الكتب مأخوذ عن السمعاني في الأنساب، وتوالى الاقتباس في شذرات الذهب والبغية وغيرهما من الكتب التي ترجمت له، ويذكر محقق كتاب إرشاد الأريب.. الأستاذ الدكتور الراحل إحسان عباس من الكتب التي ترجمت للأبيوردي: «إنباه الرواة، المنتظم، معجم البلدان، وفيات الأعيان، العِبر للذهبي، سيرة أعلام النبلاء للذهبي، تذكرة الحُفّاظ ، الوافي، مرآة الزمان، مرآة الجنان، طبقات السبكي، البداية والنهاية، النجوم الزاهرة، بغية الوعاة، شذرات الذهب.» وهذه القائمة التي ذكرها الدكتور عباس أثبتها لا للدلالة على كثرتها، بل للدلالة على تنوع معارف الأبيوردي وعلومه، فمن كتب الأنساب إلى التراجم والأعلام والحفاظ والمحدثين وطبقات العلماء، وكل هذا ونحن لا نعرف شيئاً يُذكر عن أبي المظفر الذي قال عنه الزركلي شاعر عالي الطبقة!.

الأبيوردي في الكتب الحديثة:

الأبيوردي العالم في كل فن، الفاضل المتكبر، الشاعر عالي الطبقة، الذي لم تخلُ الكتب القديمة من ترجمة له، والذي بكاه الشاعر أبو الفتح البستي بقوله:

إذا ما سقى الله البلاد وأهلها
فخصّ بسقياها بلادَ أبيوردِ
فقد أخرجت شهماً نظيرَ أبي سعد
مُبرّا على الأقران كالأسد الوردِ
فتىً قد سرت في سرّ أخلاقه العُلا
كما قد سرت في الورد رائحة الورد

الديوان: ص ٢٤٢

معجم البلدان: أبيورد

لا نجد لهـذا الشاعر الكبير، على كِبَرِه، ترجمـة في كتـب الأدب الحديثـة، والأمر مستنكـر حقـاً، خاصـةً أنّ زماننا هذا هو زمان تواريـخ الأدب والمصنفات التي ادّعت أنها معجمية تجمع لجميع الشعراء والأدباء والأعـلام! فـلا شوقي ضيـف ولا بطرس البستاني ولا غيرهما جـاء على ترجمة له، مـع أنهم ترجموا لمن هم أقل منه قيمة فنية وأدبية، والكتب التي تناولت الفنون المتعددة لم تترجم له ضمن أي نوع من التأليف!

فلماذا أُهمِل شاعرٌ مثل الأبيوردي؟

ولمـاذا غابـت أشعاره التـي لا تقل عن أشعار الفحول؟

ولماذا أُهمِلت قصيدته في القدس؟

الأبيوردي وتاريخ عمر فرّوخ:

أذكـر أنّ أحد أساتذتـي قال لي عندما سألته عن تواريـخ الأدب العربي وأفضلها: أفضل كتـب تاريـخ الأدب للباحثين كتاب الدكتور عمر فرّوخ، فلا يفضله سوى تاريخ الرافعـي لما فيه من رؤيـة عميقة، وعندما اقتنيت هذين الكتابين فيما اقتنيت، عرفت معنى ما قاله أستاذي، ففي مرات لا أستطيع إحصاءها كان تاريخ الأدب العربي للدكتور فـرّوخ الملاذ الذي أعود إليـه فأجد بُغيتي، والأمر لا يتعلق بجانب واحد، بل إنه يتجاوز الكتب الأخرى في عدد من الأمور:

- الاستيعاب
- حُسن التقسيم والوضوح
- التوثيق وذكر المصادر
- النقد والتعليل
- الشرح والتحليل

وحين أردت شيئاً عـن الأبيوردي عُدت إلى الدكتور عمر فرّوخ بعد أن نفضت يدي مـن الكتب الحديثة، فوجدت الدكتور فرّوخ قد جمع شتات التراجم القديمة المنثورة في الكتب العربيـة، وقام بتبويبهـا وتنظيمها، وحكـم على ما يصلح منهـا فأثبته، واختار الوجـه الصحيـح ممـا اختُلف فيـه بعد إخضـاعٍ للدرس والتحليـل، وذكر المصادر التي يمكن العودة إليهـا، وفوق هذا وذاك، كان الكتـاب الوحيـد الذي أثبـت قصيدة الأبيوردي عـن مدينة القدس. وبذلك تفرّد

عن الكتب القديمة والحديثة حين أخذ هذه القصيدة بين مُنتقياتــه من الديوان، وذلك قبل أن يطبع الطبعة العلمية في مجمع اللغة العربية بدمشق، وبتحقيق من الدكتور عمر الأسعد.

وبعد حديــث عن حياتــه وتنقلاته وما عصــف به يذكــر الدكتور فــرّوخ بعبارات مكثّفة:

«كان الأبيوردي أحــد القرّاء في أبيورد، وكان محيطــاً بالعلوم العربية والأدبية وبعلم النسب، ثم هو مــن مشاهير الأدباء وشاعر فصيح متــين السبك رائق المعاني. أمّا فنون شعــره فهي المديح والفخر والهجاء والعتاب والغزل والوصف والأدب..

والأبيــوردي مصنف بــارع حاذق له من الكتب ..» ٢١٧/٣

وفي المختــارات مــن شعــر الأبيــوردي يقول:

«لمــا استــولى الفرنجــة (الصليبيــون) على بيــت المقدس (٢٢ شعبــان ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩/٧/١٥م) قتلوا فيما ذكر ابن الأثير في المسجــد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً. وكان أمراء المسلمين في ذلك الحين مختلفين متنابذين، فنظم الأبيوردي في ذلك قصيدة ..» ٢١٩/٣

ديوان الأبيوردي وقصيدة القدس:

ديــوان الأبيــوردي كبير، وشعــره كثير، وقد تنــاول مختلف فنون الشعــر كما أشار الدكتور فــرّوخ، وعند استعراضــ الديوان علــى ضخامتــه نجــد إهمالاً كبــيراً لهذه القصيدة، ولــولا أنّ النشرة علمية لضاعت القصيــدة! لكن المنهج الذي اختاره الدكتور الأسعد في التحقيق حفظ لنا هذه القصيدة من الضيــاع، فضِمْن قســم الزيادات نجد قصيــدة القدس مستدركــةً بالاعتماد على الكتب والمصادر القديمة.

وقصيدة القدس هــي وحيدة في ديوان الأبيــوردي، إذْ يفصــل بــين قصيدته عند سقوط القدس ووفاتــه ثلاثة عشر عاماً، لم يقــل قصيدة أخرى عنهــا أو عن الحوادث التي تلت سقوطها، ومــع أنها وحيدة فإنها استطاعت أن تكــون علامة فارقة للشاعر، وأن تكــون أصدق القصائد عن سقوط بيت المقدس.

تقع القصيدة في اثنين وعشرين بيتاً من البحر الطويل جمــع فيها الأبيوردي – كما سنرى – كل ما أراد أن يقوله، وكلّ ما يمكن أن يُقال.

«وقال أبو المظفــر الأبيوردي لما استولى

الفرنجة على البيت المقدس في سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة، قصيدة:

مزجنا دماءً بالدموع السَّواجم
فلم يبقَ منّا عَرضَةٌ للمراحِم
وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضُه
إذا الحرب شُبَّت نارُها بالصوارم
فإيهاً بني الإسلام إنّ وراءكم
وقائعَ يُلحقنَ الذُرا بالمناسم
أتهويمة في ظلّ أمن وغبطة
وعيشٍ كنوّار الخميلةِ ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مُقيلُهم
ظهورَ المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ
تجرون ذيل الخفض فِعْلَ المُسالِم
وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دُمىً
تواري حياءً حُسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرّة الظبا
وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة
تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروبٌ منْ يغِبْ عن غمارها
ليسلمَ يقرعْ بعدها سنَّ نادم
سَلَلْنَ بأيدي المشركين قواضباً
ستُغمدُ منهم في الطُلى والجماجم
يكاد لهُنّ المستجنّ بطيبةٍ
ينادي بأعلى الصوت: يا آل هاشم
أرى أمتي لا يُشرِعون إلى العِدا
رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى
ويُغضي على ذلّ كماة الأعاجم
فليتهم إذْ لم يذودوا حميةً
عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا بالأجر إذ حَمِسَ الوغى
فهلاّ أتَوه رغبةً في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى
فلا عطسوا إلاّ بأجدعَ راغِم
دعوناكم والحرب ترنو مُلِمّةً
إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً عربيةً
تُطيلُ عليها الرومُ عضّ الأباهم
فإنْ أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه
رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

٢ / ١٥٦ – ١٥٧

القصيدة والموضوع:

تمثل القصيدة واقع سقوط بيت المقدس تحت الاحتلال الصليبي، وموضوعها ليس رثاءً وحسب، بل إنّ الشاعر الأبيوردي بما عُرف عنه من غرور وتكبّر، كما ذكرت

كتب التراجــم القديمة، كان صاحب موقف مختلف، فهو يصور ويرثي ويستنهض الهمم، ويعرضــ حال المسلمين والعــرب الذي أدّى إلى هــذا الواقع المؤلم، وكذلــك قدّم صورة مؤلمة لأفاعيل المحتلّ، ودعا إلى إنقاذ مدينة القدســ وحرائرها من أيــدي المستعمرين الذين لم يرعَوا ذمّةً، ولم يحفظوا عهداً للناس الآمنين.. ولم يكتفِ الشاعر بالبكاء، بل قدّم واقعاً وخَلُصــ إلى نتيجة، وهذه النتيجة لا تخصّ شخصاً محدّداً، بل يمكن أن يكون كل عربــي معنيّاً بها، من الناس العاديين وحتى الحكام.

وهذا الموضوع على جلالة قدره وخطورته لم يحظَ مــن الشاعر الذي يعــود بنسبه أو يعيده نسبه إلى معاويــة بن محمد، ومن ثم إلى أبــي سفيان، بأكثر من هــذه القصيدة، وربمــا كان ذلك لقرب عهــد الاحتلال من وفاتــه، وربما كان لأنّ الشاعر استحضر كل مــا يمكــن أن يقال في الموضــوع الجلل، ولم يحدث ما يستدعي قولاً جديداً.

بين الضعف والقوة:

كان الشاعــر أبــو المظفّــر، كمــا تذكر المصــادر، يلقّــب نفسه ب (المعــاويّ) نسبة إلى جــدّه معاويــة بن محمد والــذي ينتهي نسبــه إلى أبي سفيان، وقد قام أحد الحكام بشطب الميم من نسبه في رقعة وصلت إليه، وتشير مجمــل الأخبار التي ذكرها المؤرخون إلى اعتداده بنسبــه وتكبّره، ومنظرانيته، إذ كان مهتمّاً غاية الاهتمــام بشكله ومظهره، وفوق ذلــك هو أحــد العلمــاء المعدودين، وأحد القرّاء ورواة الحديث. وهذا كلّه جعل الشاعــر مغروراً، ممــا أدى إلى ظهور هذه المواصفات جليّــةً في شعره، ولا يتسع المقام لذكر ذلك في شعره النجدي أو العراقي، وفي قصيدته القدس تظهــر صفاته الحقيقية، فهو العالم القارئ المستقرئ للواقع لا يجافي الواقــع ولا يحاول تجميلــه، ولا يرتكز إلى الأمجاد الغابرة، شأنه في ذلك شأن الشعراء الآخرين، وإنما يلتقط صــورة واقعية مرّة، فهو أمام ضدّين اثنين: القوّة والضعف ومن خلالهما يصوّر المفارقة المؤلمة، والتي يسعى من خلال تصويرهــا إلى استنهاض الهمم، ويدعــو إلى الجهــاد من أجــل استخلاص مدينــة القدس من براثن الصليبيين، وجعل عناصر القوة والبطش كلّها في المحتلّ الغازي القــادر، وعناصــر الضعف في العُــزَّل أهل القدس، وفي العــرب والمسلمين عموماً، وما بين القوة والضعف تكمن دعوته لتجاوز هذا الضعف.

قوة العدوّ:

(الحرب شبت نارها بالصوارم)

(تسومهم الروم الهوان)

(دماء أُبيحت)

(السيوف البيض محمرّة الظبا)

(سمر العوالي داميات)

(الطعن والضرب)

(سللن بأيدي المشركين قواضباً)

(ستغمد في الطلى والجماجم)

(الحرب ترنو ملمّة)

ضعف العرب:

(مزجنا دماءً بالدموع)

(شرّ سلاح المرء دمع)

(أتهويمة في ظل أمن وغبطة)

(تنام العين ملء جفونها)

(تجرون ذيل الخفض)

(دماء أُبيحت)

(دمىً تواري حياء حسنها)

(لا يشرعون إلى العدا رماحهم)

(يجتنبون النار خوفاً من الردى)

(لا يحسبون العار ضربة لازم)

(ليتهم ضنّوا غيرةً بالمحارم)

(فهلاّ أتوه رغبة في المغانم)

(أذعنت تلك الخياشيم)

بين قوة العدو القادم وضعف العرب الذي يلازمهم تبرز صورة المفارقة التي يريد الشاعر من خلالها أن يشحذ الهمم من أجل نجدة القدس، وهو لم يترك عنصراً من عناصر التحفيز إلا واستخدمه، ابتداءً من استثارة الغيرة والحمية على الأعراض والنساء اللواتي أُبحنَ في الحرب، مروراً بالتذكير بالقوة العربية، وانتهاءً بالتحفيز المادي الذي يمكن أن يحصلوا عليه فيما لو أنجدوا بيت المقدس، وكأنه بذلك قسم المسلمين والعرب إلى جماعات، بعضها يثور لغيرة، وبعضها يثور لنخوة وعزّة، وبعضها يثور لمكسب ومغنم، فإن لم تهبّ جماعة هبّت أخرى، وبالنتيجة فإن ما يريده الشاعر من نجدة سيتحقق بطريقة أو بأخرى. فهل كان له ما أراد؟ وبعدَ كمْ من السنوات تحقق ما أراده ودعا إليه الشاعر؟

قيمة القصيدة:

تكمن قيمة القصيدة في علوّها فنّياً، فهي قصيدةٌ قويةٌ مبنىً ومعنى، وبعيدة عن الثرثرة، واختار لها الشاعر البحر الطويل المناسب لتصوير مأساة طويلة، واختار الميم المكسورة التي تنتهي بدعوة مفتوحة تدل على الألم والتوجع.. كما تكمن منطقية الشاعر الذي دعا العرب والمسلمين إلى نجدة القدس المدينة الغالية المقدّسة دون

اللجـوء إلى أي شعار مقدس، على الرغم من معرفته وعلمه، وإنما لجأ إلى استخدام المعاني الإنسانية العالية، وإلى استثارة الغيرة والحمية، وهـو بهذا تقدم أشواطـاً بعيدةً على شعراء زماننا الذين تحدثوا عن مأساة القدس التي تكررت .. لذلك بقيت قصيدة الأبيـوردي وعاشت على الرغم من إهمالها كنمـوذج من نماذج الشعر الـذي حفظ لنا التاريخَ طازجاً.

تسجيل حيّ للهمجية:

القيمـة الحقيقية للقصيدة هي في أنها تسجيل تاريخي لهمجية المحتلّ، والشاعر هنا لا يريـد أن ينقل صورة عبر وسائل الإعلام، وإنما يسجّل وثيقـة أدبية تاريخية لاجتياح مدينة مقدسـة مسالمة ليس فيها أي عنصر مـن عناصر القوة، ولا يهـبّ أحدٌ لنجدتها، فالقـوة التي جاء بهـا المحتـلّ تمثّل ذروة القوة في ذلـك الوقت، والقدس لا تملك إلاّ الدمع ومعاصم الحرائر، وهذا المنطق الذي استخدمه الشاعر، قد يراه بعضهم استهانة بالشعور العام، لكنه ليس كذلك، فلا يعتمد علـى بطولات فردية، ولا على فخرٍ أجوف، ولا يستنجـد بتاريخ قوي للعرب والمسلمين. إنّ الشاعر يصـور واقع سقوط الأعزل بين أيدي المتسلّح بكل أنواع السلاح، القادم للغزو عن سابـق إصرارٍ وتصميم، ويسجل للتاريخ وصمة عارٍ علـى جبين الحملات الصليبية التي ادّعى أصحابهـا أنّ المسلمين والعرب يفعلون الأفاعيل. وهـذه الصورة هي التي كانت سبـب أنْ أبدأ البدايـة التي اخترتها من زيغريد هونكِـه وشهادتها على الحروب الصليبية، فهي التي رأت أنّ هذه القصيدة أظهـرت العار الـذي التصـق بالأوروبيين وحروبهم المقدسة كما يزعمون، وليست هذه النتيجة قراءةَ عربي فيما جاء. وقد اختارت هونكِه هذه القصيدة لما فيها من صوَرٍ مؤلمة لوحشية الحروب الصليبية وهمجيتها أمام شعب مسالم أعـزل! فكيف رأت هونكِه هذا ولم نرَه نحن أصحاب القضية؟!

وستبقـى هـذه القصيـدة شاهدة على ما حلّ في بيت المقدس على أيدي القوات الأوروبيـة الغازية التـي حملت اسم حروب الإفـرنج عند العرب، والحـروب الصليبية عند الأوروبيين أنفسهم.

القدس بين الأمس واليوم:

مـن قبـل الميلاد كانـت القدس قلب الصراع، وعلى الدوام كان العرب يسترجعون مدينة القدس، ومع الميـلاد ازدادت مدينة القدس اشتعـالاً وصراعاً بـين المسيحية واليهودية، ومع توالي الأحداث حاول الأقوام

تغيير هوية مدينة القدس جغرافياً وسكّانياً، ولكنّ هذه المحاولات باءت بالفشل، وجاءت جيوش الإسلام وكانت القدس آمنةً سليمة، وصارت لدى المسلمين في مكانتها المقدسة لكونها أولى القبلتين ومعراج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء.

ولو عدنا إلى التاريخ والأدب لعرفنا قيمة القدس ومنزلتها لدى المسيحيين الذين يطلقون على زائرها لقب (مقدّس) ويتم التبرّك بهذا الزائر والتمسّح بمسوحه وثيابه، وكذلك عند المسلمين، فحتى عام ١٩٦٧ كان أغلب الحجاج الذين يؤمون بيت الله الحرام في مكة المكرّمة يكملون حجهم بزيارة القدس، وقد توقّف هذا الطقس مع الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس، وبقي حسرةً في نفوس المسيحيين والمسلمين على السواء، خاصة وأنّ القدس كانت مفتوحة لجميع الناس على الدوام، ومع الاحتلال الإسرائيلي كان السعي محموماً لإسباغ الصفة اليهودية عليها.

تشكل القدس اليوم عقدةً من العقد العصيّة على الحل في الأزمة الفلسطينية، وربما كان من حظ القضية أن ترتبط هذا الارتباط العضوي والجوهري بالقدس المدينة المقدسة، لأنّ هذا الارتباط هو الذي سيكفل لها مع الأيام – إنْ طالت وإنْ قصُرت – أن تكون عربية ومقدّسة.

بكى الأبيوردي بيت المقدس عند سقوطها، ودعا إلى شحذ الهمم، وقد طال الوقت حتى شحذ العرب والمسلمون الهمة وحرروا القدس الشريف، لكنّ التحرير قد تمّ، وهنا لا نراهن على التحرير مع الزمن لأنّ التحرير لم يتم لولا أنْ تم العمل والتحضير له، وكذلك اليوم، فإنّ القدس تستصرخ، والأدباء كتبوا وحاولوا، وأدركهم اليأس، ولكنّ التحضير الحقيقي وإعداد العدّة والقوّة سيحرر القدس من أيدي المحتلّين من جديد، وحتى يتمكن أصحاب الحقوق من استعادة حقوقهم نردد ما قاله الأبيوردي، وما قاله أدباؤنا وشعراؤنا مع القدس المعاصرة ، مع إيماننا بأنّ شرّ السلاح الذي نواجه به أعداءنا هو سلاح الدمع:

وشرّ سلاح المرء دمع يُفيضه
إذا الحرب شبّت نارها بالصوارمِ

ونردد مع الأبيوردي حين قال عن نفسه، وكأنّه يتحدّث باسم القدس:

تنكر لي دهري ولم يدرِ أنني
أعِزُّ وأحداثُ الزمان تهونُ
فباتَ يريني الخطبُ كيف اعتداؤه
وبِتُّ أُريه الصبرَ كيف يكونُ

ونجعل قولَه شعاراً:

من أغفل الحزمَ أدمى كفّه ندما

واستضحك النصرَ من أبكى السيوف دما

استضحك الأبيـوردي السيوف، ومات مسمومـاً، فكانـت القدس مدينـةً ضائعةً والأبيوردي الشاعرَ المُضَيَّع!

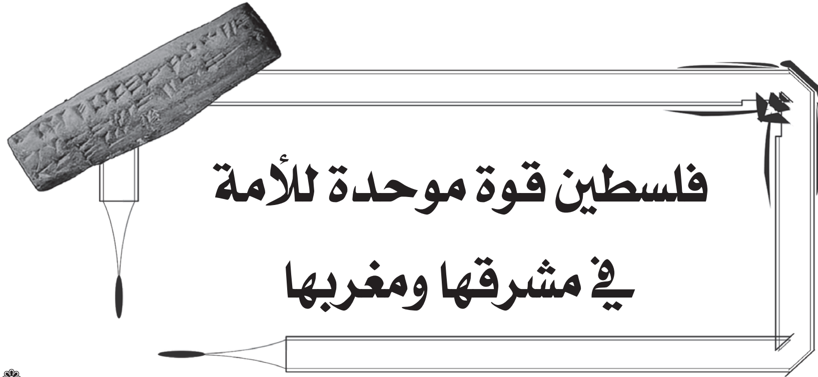
المصادر والمراجع:

- الأعلام، خير الدين الزركليّ، دار العلم للملايين – بيروت، ط ٥، ١٩٨٠
- بُغية الوُعاة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، بلا تاريخ.
- تاريخ الأدب العربي، د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين – بيروت، ط ١، ١٩٧٩
- التوجّه الأوروبي، زيغريد هونكه، ترجمة د. هاني صالح، دار الرشيد – دمشق، ط ١، ١٩٩٨
- ديوان الأبيوردي، تحقيق د. عمر الأسعد، مجمع اللغة العربية – دمشق، ط ١ ، ١٩٧٥
- ديـوان البستـي، تحقيـق درّية الخطيب – لطفـي الصقال، مجمع اللغة العربيـة – دمشق، ط ١ ، ١٩٨٩
- المحمدون من الشعراء، القفطي، تحقيق رياض مراد، دار ابن كثير – دمشق، ط ٢، ١٩٨٨
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٣
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر – بيروت، ١٩٧٩





آفاق المعرفة



فلسطين قوة موحدة للأمة في مشرقها ومغربها

يحيى يخلف *

حلـم الوحدة بأي شكل من أشكالها كان جــزءاً أصيلاً من تعريف الأمة العربية، وما تجارب الوحدة المختلفة منذ الستينيات حتى يومنا هذا، والتي بلغ عددها حوالي ثلاثين تجربة، إلا محاولة لتجسيد ذلك الحلم، ولن ندخل في تفاصيل وآليات وظروف تلك التجارب، ولن ندخل أيضاً في أهداف ونتائج ذلك، إلا أن هذا العدد الكبير من محاولات الوحدة، ما هي إلا تعبير عن رغبة دفينـــة وعميقة لدى المواطن العربي في رؤيـــة أمته ذات كيان فاعل وحاضر

* أديب وروائي (رام الله - فلسطين).



وناشــط ومشــارك في الحضــارة البشرية، وعلى الرغم من إغراء الكلام هنا، وفي هذا الحقــل بالذات، إلا أنني أرغب هنا أن أركز كلامي على فلسطين، وكيف لعبت دوراً هاماً وأصيــلاً في عمليات التواصل والتكامل بين أبناء الأمة الواحدة، في مشارقها ومغاربها، علــى مدى تاريخ هــذه المنطقــة، ومنذ أن تمحور الوعي الثقــافي والوجداني والديني بفلسطين، كبلد نادر وخاص.

ففلسطــين، البلد والتاريــخ والوجدان والثقافة، شكلت طيلة الوقت وعلى مدى مئات السنين، دافعية هامة وقوية ودائمة الحضور في وجدان شعوب العالم العربي، على مستوى الأفراد وعلى مستوى النخب وعلى مستوى القــادة السياسيــين، ومنذ القــرن السابع شكلت فلسطين محــوراً من محاور المشاركة السياسية والثقافية والاجتماعية، وفي بعض الأحيان تحولت إلى مركز من مراكز الصراع ليس ضــد الآخر النقيض فقــط، بل ضد الآخر الداخلي. إن ارتفاع فلسطين بارتفاع ذكرهــا وقيمتها الروحية والوجدانية جعلها شيئاً أشبه باللؤلؤة الغالية، ذلك الأمر الذي جعلها باهظة في كل شيء، باهظة في الدفاع عنها، باهظــة في الاحتفاظ بها، باهظة في الارتفاع إلى مستواها. ومنذ القرن الحادي عشر الميــلادي – أي بدء الحملات الغربية علــى بلادنا في الشام ومصر – فقد تحولت فلسطــين عمومــاً والقدســ خصوصاً إلى مــكان امتزجت فيه كل الأطمــاع والأهواء والأساطير والوقائع. وبسقوط القدس أمام الفرنجــة واحتلالها لمده مئة عــام تقريباً، فقــد شغلت القدس خيــال ووجدان شعوب المنطقة العربية والإسلامية من حدود الهند وحتى حدود السنغــال، كان سقوط القدس فــي تلك الحقبة أشبه باللعنة الإلهية وقعت على الجميع، وعندمــا نعود إلى ما كتب في تلك الفترة من أشعار ونصوص تاريخ وحتى مراسلات، نجد ما يدهشــ حقاً، فالقدس كانت حاضــرة في أشعار الساعاتي العراقي وابن القيسراني الفلسطيني، وسندهش حقاً عندمــا نقرأ مذكــرات القاضــي الفاضل والعماد الأصفهــاني وسيجبر المرء ربما إلى البكاء عندما نقرأ تحسرات الرحالة الزاهد والذكــي ابن جبير القادم مــن بلاد الغرب، ومــن يقرأ مــا كتبه ابن الأثــير الذي سكن الموصل وأحبها، سيشعر بمدى الخسارة التي يشعر بها لسقــوط القدس، حتى المرابطون والموحــدون مــن بعدهــم في بــلاد المغرب

والأندلس، أحبــوا أن يشاركوا في نصرة من يقاتل من أجل إرجاع القدس، وتذكر لنا كتب التاريــخ في تلك العصور، كيف كانت تتوافد العساكــر من الجزيــرة واليمــن والسودان والنوبــة ومصر من أجل مساعدة نور الدين زنكي ومــن بعده صلاح الديــن. وهذا ابن شداد يخبرنــا في سيرته السلطانية عن تلك العساكر ومــن أين أتت وكيف تجمعت. كان ابــن شداد من أقل المؤرخــين تفذلكاً وسعة اطلاع، ولكنه كان من أكثرهم دقة في وصف تلك الوحدة والتعامل الذي كان يجمع شعوب المنطقة من أجل القدس وفلسطين.

وقبــل أن أترك الماضــي أحب أن أعرج علــى حادثة معبرة وموحيــة، ذلك أن الملك الكامل وهو حفيد لصـــلاح الدين، ونتيجة لخلافات مــع أشقائه، استعان بملك الألمان لحمايته مقابل أن يمنحــه القدس، وما أن فعــل الملك الكامل ذلك، حتــى قامت عليه قيامة كل الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وتعرض هذا الملك لأسوأ حملة إعلامية قد تكون أشـــد من الحمـــلات الإعلامية على أيامنا هذه رغم اتساع الوسائل وتعقدها.

هذا كان في الماضي، ولكن الأمر لم يتغير في الحاضر أيضاً. فمنذ أن سقطت القدس بيد الإنكليز عــام ١٩١٨ وحتى يومنا هذا، تحولت القدس ومن ثم فلسطين إلى نوع من نقطــة الارتكاز للوجــدان العربي والنضال العربــي والسعي من أجــل الوحدة العربية، تجلــت نقطة الارتــكاز هــذه في التغيرات السياسية والإبداع الأدبي والثقافي. تحولت القدس منذ ذلــك التاريخ وحتى يومنا هذا إلى جرح نازف، مؤلم وحارق، ويمكنني القول إن هــذا الجرح النازف جعل من انتصاراتنا ناقصة، ومن أفراحنا معكرة، ومن إنجازاتنا غــير مكتملــة، فالقدس محتلــة والأقصى مختطف وفلسطين النادرة اللؤلؤة بعيدة.

تغييب فلسطين بالاحتــلال والحصار، يطــرح الســؤال الكبير والمــؤلم حول جدوى التجارب وحول مصداقية الخيارات وحول أهداف الاتجاهات.

احتــلال فلسطين، جعــل كل عربي، في مشــارق الأرض ومغاربهــا في حالة مقارنة حضارية وثقافية مــع الآخر على اختلاف أنواعه.

احتلال فلسطين، وضع العربي أينما كان في حالة تساؤل كبير، لماذا نحن هكذا؟ ولماذا الآخرون هكذا؟!

احتلال فلسطــين نقصــن للثقافة وثلم

في العقيدة وإهانة للكرامة. ولهذا كانت فلسطين مرتكزاً للسؤال الكبير: هل الوحدة بمعناها السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي وبمعنى التواصل ذي المستويات والتكامل ذي المستويات أيضاً ستؤدي إلى رفع حالة الإهانة هذه؟!

هذا السؤال، جعل الحركات الثورية العربية منذ بداية هذا القرن وحتى يومنا هذا، وجعل النخب السياسية الحاكمة من بداية هذا القرن وحتى يومنا هذا، تضع السؤال أمامها وتحاول الإجابة عنه بطريق أو بأخرى.

ففلسطين، هي سؤال النظام العربي، كما هي سؤال المواطن العربي رغم كل ما يعانيه هذا النظام ورغم ما يعانيه هذا المواطن. وعلى الرغم من أن النظام العربي يعاني حصار وضغط ورقابة المؤسسات الدولية الكبرى إلى درجة تهدد سيادته وثقافته الوطنية، إلا أن سؤال فلسطين يظل هو السؤال الذي بلا إجابة. فغياب فلسطين يعني حضور المحتل، وحضور المحتل يعني هيمنة وتفرقة وإخافة وتهديداً وسيطرة على المحيط، حضور المحتل مكلف وباهظ أيضاً. حضور المحتل إضافة إلى كونه هزيمة فهو أيضاً يطرح السؤال أيضاً: هل حالة الهزيمة بمعناها الكبير تشكل الشرط الأبدي للتخلف والتبعية والجهل والفقر والمرض؟!

إذاً، فاحتلال فلسطين لا يؤذي أهلها الذين يسكنون فيها فقط، وإنما كل أهلها في مشارق العالم العربي ومغاربه، ومن هذا المنطق الذي هضمه واستيعابه خلال ستين عاماً أو يزيد جعل من معظم النخب السياسية والثقافية العربية على اختلاف مواقعها الجغرافية والفكرية تخصص لفلسطين وقضيتها ركناً أساسياً من أركان منظومتها الفكرية والسياسية والإبداعية.

إن معظم هذه النخب رأت في قضية فلسطين جزءاً من نضالها ضد الاستعمار وضد الجهل والتخلف والتبعية، ورأت في الاحتلال عدوها الشخصي والمباشر. كان شعار «من أجل فلسطين» وما يزال، شعاراً يجمع ويثير ويدفع ويحرض، وعلى الرغم من كل ما حدث بعد الحادي عشر من أيلول من عام ٢٠٠١، واختطاف العالم إلى مانوية بسيطة وغبية تمثلت في فسطاطين أو معسكرين، ومحاولة تجريد الثورة من مرجعياتها وشرعياتها وتحويل نضال الشعوب إلى إرهاب، إلا أن شعار «من أجل

فلسطين» ظل فوق كل هذه الألاعيب والخدع والمنـاورات الدولية، وقد أتجـرأ هنا على القـول إن العالم بعد الحادي عشر من أيلول أصبح أكثر قرباً وفهماً وتفهماً لبؤر الصراع في العـالم وأهمهـا على الإطـلاق الصراع العربي الإسرائيلي ومركزه فلسطين.

ليس من الغريب هنا القول إن المبادرات والخطـط والبرامج الهادفـة إلى حل هذا الصراع زادت ولم تنقص، كدليل على اهتمام المجتمع الدولي وإدراكه أن ما يسمى الإرهاب أو توتير الأجواء وتسميمها لا يلد من الفراغ وإنما له أسبابه الحقيقة والواقعية.

شعار «من أجل فلسطين» هو شعار يعني أن العمـل من أجل فلسطين يعني العمل من أجـل التنمية والوحدة وإعداد العدة وحفظ الأمن وحفـظ الوطن وحفظ المواطن.. لأن الاحتلال –ببساطـة– هو عكس ذلك كله.. فالاحتلال ودولته مجرد كيان اثني وقطاعي، كيان مهاجرين، وهو لا يستطيع أن يعيش في محيط متجانس عرقيـاً وثقافياً ووجدانياً، إن تفكيك العالم العربي وتذريره هو جزء من الخطة الاستعمارية القديمة والجديدة معاً. ومن يقرأ كلاسيكيات الأدبيات الاستعمارية بداية القـرن الماضي سيدهش من أن أفكار المحافظين الجـدد ونظرياتهم حول تفكيك العـالم العربي إلى اثنيات لا تختلف عن تلك الأطروحـات.. حتى المفـردات هي ذاتها.. حلـم تفكيك العـالم العربـي إلى قطاعات وأثنيـات حلـم غربي لم ينتـه.. وقد تجسد هذا الحلم جزئياً بإيجـاد إسرائيل كحاجز ديموغـرافي وأمنـي يفصل جناحـي العالم العربـي الأسيوي عن الأفريقـي.. بكلمات أخـرى، لم يجـد الغرب الاستعمـاري سوى فلسطين لتسدد للعـالم العربي طعنة نجلاء تمنع توحده وتواصله وتكامله.. لم تجد سوى فلسطين (جغرافيـاً) لتقيم كياناً مهدداً، ولم تجد سوى فلسطين (ثقافياً) من أجل إهانة الأمـة إهانة لا تغتفـر ولا تنسى.. ولم تجد سوى فلسطين لتجعلهـا بؤرة صراع الأفكار والحضارات والرؤى.. ويجب أن نرى الأمر هكـذا لأن الشواهد كلها تشـير إلى ذلك.. ففلسطين ليست ككل البلدان..

هـذا الإدراك وعلى هذا المستوى، جعل المثقف العربي المسؤول والملتزم يعرف تماماً أن يجدول قائمـة أعدائه وخصومه، وجعل السياسي العربي المسؤول والملتزم يعي تماماً مخاطر مشروعه السياسي حاضراً ومستقبلاً، ولهذا السبب نجد أن الحاج أمين الحسيني

الـذي كان علـى رأس الحركـة الوطنية الفلسطينيـة في الثلاثينيـات والأربعينيات يستعين بعبد العزيز الثعالبي من بلاد المغرب ليناصره ويدعمـه في الانتفاضات الصغيرة والكبيرة في تلك السنين، وللسبب ذاته، رأينا كيف تدفق المجاهـدون والمناضلون من كل البـلاد العربية لدعم إخوانهم الفلسطينيين في ثورتهم الكبرى عـام ١٩٣٦، فجاؤوا من الأردن وسوريـة والعراق ومصـر والسودان وبلاد المغـرب كلها، وها هي بطاح فلسطين وهضابها وسهولها وجبالها تشهد على ذلك، فقبور أولئـك الشهداء ما تزال محط عناية واهتمـام، وما تزال قصصهـم تروي حتى اللحظة، وما تزال وثائق المؤتمرات القومية العربية التي ضمت كل المناضلين العرب منذ العشرينيات موجودة ومقروءة لتعبر عن ذلك الوعـي الشديد بمركزيـة فلسطين وبؤرتها في المشـروع الوحـدوي والنهضوي العربي، وأستطيع القول هنا أن من الأسباب الجزئية لأزمة المشروع الصهيوني في المنطقة هو هذا الوعـي العميق والذي لا يمكـن القفز عنه في استحالة لقاء القوميتـين المتصارعتين، فالأولى أصيلـة وعميقة وعريقة ومتجذرة، والثانيـة مصطنعة ومرتجلة وتفتقد أسباب بقائها.

المثقـف العربـي تنبـه مبكـراً لخطر الصهيونية ودوافعهـا وارتباطاتها، وأدرك مبكراً – وربما قبـل السياسي العربي– إلى خطورة هذا المشروع على المستقبل العربي، وأنا هنا لا أتحدث فقط عن ما كتبه المثقفون الشاميـون والعراقيـون والمصريـون بهذا الصدد، وإنما أشـير أيضاً إلى تلك الجهود الفردية والجماعية التي قام بها ثوار جاؤوا من بلاد عربية قريبـة وبعيدة إلى فلسطين للقتال ضد الاحتلال الإنكليزي، وربما كانت ظاهـرة الشيخ عز الدين القسام القادم من جبله في سورية الذي استشهد في فلسطين هـي خير من يمثـل ذلـك.. وفي فلسطين، وفي القدس تحديـداً، في قلبهـا بالذات، هناك حارة تعـرف باسم حـارة المغاربة.. هي حـارة داخل السور ومجـاورة للمسجد الأقصـى، كانت تضم أبناء الجالية المغربية الذين جاؤوا للحـج والقتال والعبادة.. هذه الحـارة وبعد عـام ١٩٦٧، أي بعد احتلال المدينة المقدسة، قـام الاحتلال بنسف تلك الحـارة عن الوجود من أجل توسيع الساحة أمام ما يدعـون أنه حائط البراق، ولكن في القدس وحتى اللحظة ما زالوا يطلقون على

الساحــة المضاءة والمبلطة أمام الحائط أنها حارة المغاربة.. لم يستطع الاحتلال أن ينسف الاسم من الذاكرة..

ولأن فلسطــين كانت دائمــاً وأبداً بلداً موحداً ومركزاً للوجدان والثقافة العربية في مشارقها ومغاربهــا فإنك تجد في فلسطين وحتــى اليوم عائــلات من أصــول مصرية وسودانيــة ومغاربيــة وعراقيــة ونجديــة وحجازية.. وما زلت شخصياً أدهش عندما أقرأ في صحفنا عــن مجالس عزاء تقام في مدننــا لموت زعيم أو كبــير في إحدى الدول العربية القريبة والبعيدة.

والثــورة توحــد، والمقاومــة للجميــع، وكمــا كانت ثورة الجزائــر في الخمسينيات والستينيات ثــورة موحدة ومجمعة، وألهمت العديــد من الثــورات في المشــرق العربي، وناصرها المواطــن العربي بكل ما يستطيع، حيــث تشكلت لجان دعم لهذه الثورة في كل القرى والمــدن العربية، ومازالــت شخصياً أذكــر كيف كنا ندفع مــن مصروفنا القليل أيام المدرسة لصندوق الثورة الجزائرية، ما زلت أذكر تلك المبالغ القليلة التي أشعر معها أن الثــوار في الجزائر سينتصرون بها، وقد انتصــرت الثورة الجزائريــة بعد أن قدمت نموذجاً فريداً في انتصار الدم على السيف، الأمر الــذي ألهم ثواراً آخريــن في المشرق العربــي ليبدؤوا ثورتهــم، الثورة الجزائرية العظيمة في المغرب كان لها صدى عميق في أرجاء العالم العربي كله.

كان انتصــاراً للمظلومــين على الظالم، وكان انتصــاراً للثقافــة العريقــة والشعب المتجذر. ثوار عرب آخــرون استلهموا تلك الثــورة، وكان الفلسطينيون من أوائل أولئك الثــوار، ولم يكن مستغربــاً، والحالة هذه أن تكون الجزائر، الثورة والنظام والشعب، من أوائل من احتضنــوا الثورة الفلسطينية، في أروع صور التواصل والتكامل للحلم العربي والهدف العربي. كانت تلــك الروابط التي نشــأت بين الثورتين، علــى اختلاف المواقع الجغرافية وبُعدها، دليل ساطع على انتفاء الجغرافية أمام الوعي والوجدان والأحلام. مــرة أخرى، فــإن الثورة توحــد، والمقاومة هي الوصفة الأكيدة لتقريب وجهات النظر وتحديد الأهــداف وتركيزها، وهي العلاج الناجــع لــرأب الصــدع وســد الفجوات، وفلسطين، قدمت ذلك كله للأخوة والأشقاء العــرب في مشارقهــم ومغاربهــم. وعندما انطلقــت الثــورة الفلسطينيــة في منتصف

الستينيـات، اجتمع حولهـا الأخوة العرب في كل مـكان، دعموهـا وناصروهـا ورأوا فيهـا أحلامهم تسعى بين أيديهم، رأوا فيها فرسـان الشعر، ورهبان الليـل، ورأوا فيها عمق الثقافة وقوة النص وعنفوان الوجدان. كانت الثورة مخلصاً أشبه بالمخلص الديني، الأمـة التي لا تثور تفقـد سريعاً ملامحها. كانت الثـورة الفلسطينية ثـورة كل العرب، وأذكر أنه في أوائل السبعينيات وبعد انتصار الثـورة في معركـة الكرامـة تدفق عشرات الآلاف مـن الأخوة العـرب للانضمام إلى الثورة، كان ذلك نوعاً من الرغبة في التخلص من إثـم الهزيمة، ورغبـة في الاغتسال من عـار النكسة، كانت الثـورة الفلسطينية في تلـك الأيام ثورة كل العـرب، على الأقل في مستواهـا الشعبي، الـذي رأى في انطلاق الثورة دليلاً على بقـاء الأمة وحياتها وقوة ثقافتها. يجب القـول هنا إن الثورة محتوى ثقافي بالدرجـة الأولى.. الثورة ذات منطلق ثقـافي يوفر الدعـم والتبريـر والشرعية.. ولهذا كانت الثورة ثورة العرب بحق.. تماماً كما كانت ثـورة الجزائر قبل ذلك بعقد من السنـين. وقد تعـززت الثـورة الفلسطينية وانتشرت وقويت بذلك الدعم العربي الشعبي والرسمي علـى حد سواء، على اختلاف في الدرجة والعمق والهـدف، وعلى الرغم من دخـول العالم العربـي الرسمي في تحالفات وتيـارات متعارضـة ومتناقضـة في بعض الأحيان وما تزال، إلا أن الثورة الفلسطينية ظلـت تجد ذلك الحضـن الدافئ والداعم من قبل الجماهير، وكان المثقفون المسؤولون والملتزمون هم من يقود تلك العملية الحقيقية مـن ربط الثورة بالمجهـود الكلي للأمة من أجـل التحـرر والتقدم والوحـدة. ويضيق المجـال عن ذكر الأسمـاء والجهود العربية في مشارق العـالم العربي ومغاربه التي رأت في الثـورة الفلسطينية نقطـة انطلاق نحو تحقيق الأهداف والآمال.

وكما كانت ثـورة الجزائـر يوماً تجمع العـرب، صارت الثـورة الفلسطينية كذلك، ومـا سأقوله الآن سيتذكره الجميع، فمعظم النخـب العربيـة مـن مثقفـين وسياسيين وأحـزاب وقـوى وجماعـات ومنظمات في مشـارق العـالم العربي ومغاربـه كانت لها علاقة ما مع الثـورة الفلسطينية، علاقات أخذ وعطاء، ومداولات ومشاورات وتنسيق جهود ورؤية مشتركة، كل أولئك رأوا في الثورة الفلسطينية شريكاً ووسيطاً ووسطاً للالتقاء

والتفاعل والمشاركــة، وكل تلك النخب رأت في الثورة مشروعــاً وحدوياً تجب مساعدته ودعمه ومناصرته.

وجاء ذلك على صورة مساعدات وإسناد، وجاء ذلك على شكل إبداعات ثقافية وفنية، وجاء ذلك على صورة اندفاعات جماهيرية مخططة وغير مخططة.

وأقــول بهــذا الصــدد إن سنــوات السبعينيــات والثمانينيــات، وهــي سنوات الذروة، شهــدت فيها شهدت اجتماع القوى العربية التقدمية والشعبية والتحررية على دعم الثورة الفلسطينيــة باعتبارها البديل للعجز والتبعية والهزيمة.. ومن يراجع تلك السنوات وأدبياتها سيلحظ ذلك النسق الذي شمل معظــم الحركات والقــوى والأحزاب العربية على طول العالم العربي من مشارقه إلى مغاربه.. ورافق ذلك كله أو تخلق معه أو خلقه إبداع ثقافي متميز شارك فيه وصنعه كبــار شعراء العــرب وكتّابهــم ومنظريهم. كانت فلسطين بالنسبة لهؤلاء جميعهم بلاد العــرب كلهم، وقضيتها قضية العرب كلهم. ولم يختلــف في ذلك الشامي عــن المغاربي، أو الخليجي عــن المصري.. كلهــم رأوا في فلسطين قضية العرب الأولى..

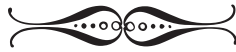
والآن، وثورتنــا الفلسطينيــة تعــاني ما تعاني، وشعبنا الفلسطيني يدخل نفقاً أسوداً ومجهــولاً.. والعالم العربــي في اصطفافاته واستقطاباته.. فإن الأمر لم يتغير أبداً..

وقد يكون هناك تغــير في الدرجة ونوع التعبير، ولكن فلسطين رغم كل ذلك ما تزال تجمع وتوحــد، لأنها ما تزال السؤال الكبير عن الهزيمة والإهانة وجــرح الكرامة. فلا أحد يعفى مــن مسؤولياته، ولا أحد يتنصل من تاريخه ولا أحد يتنكر لثقافته، فلسطين، ورغم ما تشهد اليوم مــن تقلبات قد يكون بعضهــا عصياً على التبريــر أو التفسير إلا أن فلسطــين ما تزال قضيــة العرب الأولى أيضاً..

وإذا كان العــالم العربــي يدخل مرحلة رماديــة بسبب عظم التحديــات وضخامة الضغوط وتعددهــا، وانهيار أحلام الوحدة والتنمية والتحرير ودخول مزيد من العواصم تحت الاحتلال أو التهديد أو خطر التقسيم، إلا أن المربــع في فلسطين ما يــزال ساخناً ينبض بــكل أسئلته المحرجــة والمؤلمة، وقد يكون من الصحيح أيضــاً القول إنه بسبب عدم حــل القضية الفلسطينية فإن عواصم عربية أخرى تتعرض لما تعرضت له القدس

عام ١٩١٨ وعام ١٩٦٧.. وبرأيي أيضاً، فإن مزيد الهزائم التي منـــي بها العرب مؤخراً عـــزز وزاد من سؤال فلسطـــين. لأن المحتل ذاتـــه ولو غير اسمـــه، ولأن الهدف ذاته ولو غير جبهاته ومواقعـــه. ويعود سؤال الوحدة والتحـــرر والتقدم من جديد ينطح الوجدان ويستفز الوعي.

فلسطـــين التـــي يعيش شعبهـــا وثورتها وضعاً حرجاً ومحرجاً، تشعر معه أن ذلك ما كان ليكون لولا ذلك الوضع المحرج والحرج الـــذي يعيش به النظام العربـــي أيضاً.. إن خطـــر التفـــكك والتذرير خطـــر حقيقي.. وهذا يطرح المسألة من جديد.. نحن بحاجة إلى ثورة جديدة من أجل أن نتوحد حولها.. وفلسطين مؤهلة دائمـــاً للعب هذا الدور.. فالمحتل ما يزال هناك.. ولأن المحتل واحد رغم تعدد أسمائـــه.. فإن هزيمة المحتل في مـــكان هو هزيمـــة له في كل مـــكان.. نحن بحاجـــة إلى ثورة جديدة من أجل أن نتوحد حولهـــا.. وفلسطين هي المبتـــدأ والخبر في ذلـــك كله.. ومنذ القرن الحادي عشر وحتى القرن الواحد والعشريـــن ما تزال فلسطين تقـــوم بدورهـــا.. أن توحـــد وأن تجمع وأن تنتصر.





آفاق المعرفة



أين أبحث عن القدس؟

نواف أبو الهيجاء*

مـا أنا بباحث أكاديمي، ولسـت مؤرخاً، حتى أبحـث في بطون التاريخ والكتـب علّي أقع علـى تاريخ أهلي وأرضي وقدســي وأنفاس جدي، ورياح بحـر البلد من النهـر إلى الشاطئ. عن أي قدس أبحـث اليوم -في عامها الثقافي عاصمة للثقافة العربية- أي وهي ترتفع إلى عنان الوجود الإبداعي والضمـير الجمعي الإنساني في العام ٢٠٠٩ -وقد تسلمت الشعلة من شامها -الحبيبـة- وعـبر كل المعوقات والأضـداد ومن فوق ما اعتمـر في القلوب

* أديب وروائي وناقد فلسطيني



الغازية مــن إثم المنع والحصـــار والتحريم والتلفيق والمصادرة؟

هل أكتب ما تحفظه خلاياي، ومن بعدي في (جيناتي الوراثيــة) عن جينات أجدادي الوراثيــة. إنهــا في النسيج العــام للأهل- أكانوا ظلوا فيهــا بعد احتلالها (الحديث)، أم غادروهــا إلى المنافي شرقــاً وغرباً -فما غربوا عنها ولا شرقوا. إنها في النسغ، ومابين الضلوع.. إنها أنا وأنت وكل حي يخفق قلبه بالإيمان بها والاعتراف بها وجوداً للحقيقة والسلام والعدالة، والشعــور بها حياة تعبر عــن ذاتها في العصور كلها وفي المواجع كلها أيضاً.

هــل أبحــث عنها وهــي تحمــل اسم (أورساليم) -مدينة السلام- الكنعانية- قبل أكثر من خمسة آلاف من السنين قبل الميلاد؟ أم عنها وهي تحمل الاسم ذاته (عبريا) -أي أورشليم- البيت المقدس؟

أأبحث فيها عن اليبوسيين -الكنعانيين العرب الذين أسموها (يبوسا) في عام، ٢٥٠٠ قبــل الميــلاد؟ أم أبحث عنهــا وهي تصبح (الهدف) الأعلــى والأول للطامعين بالمجد والمعالي: من الفراعنة إلى الفرس ومن الفرس إلى اليونانيين ومــن اليونانيين إلى الرومان ومــن الرومــان إلى المغــول؟ وقبــل هؤلاء وبعدهم -تظل هي المنارة والهدى- والسلام المصلوب عليها- عبر أزقة التعذيب والرفض والجريمــة؟ كم عاماً حكمها (اليهود)؟ ليس أكــثر من ٧٣ عاماً - أنــا أحفظ الرقم منذ كنت في الثانية عشرة من العمر وفي التفصيل حكمها داود أربعين عاماً وابنه سليمان ثلاثة وثلاثين عاماً. ليس أكثر.

تتالت عليها الهجمــات والاحتلالات.. لكنها بقيــت القدس المقدسة: أولى القبلتين وثالــث الحرمين الشريفــين - وهي بالذات شهادة الأمــل العربي الإسلامــي الإنساني (في ليلــة الإسراء والمعراج)- مسرى الرسول العربي محمد (صلى الله عليه وسلم)- وهي تحمل في كل الخلايا صيحــات آلام السيد المسيــح- وجــراح المدافعين عنهــا في وجه الغــزاة - وهي من صمد حتــى اليوم أمام كل الهجمــات- وأنا أقــرأ في سطرها على (الصخــر في القلعــة - كيــف أن أجدادي حاربوا وحرروها مع صلاح الدين الأيوبي)- احتلها الحالمون بمفاتيــح العالم والهيمنة - باسم الحرب الصليبية أو الحروب الصليبية

وذاقوا الهزيمة والمرارة وتحررت القدس في عـام ١١٧٨ للميلاد ومرة أخـرى بعد وفاة صلاح الدين الناصر في ١٢٤٤ على يد الملك الصالـح نجم الدين أيـوب. ثم ظلت تحت الحكم العربـي -الإسلامـي- إلى اندحار الدولـة العثمانيـة ووضـع فلسطين تحت الوصايـة البريطانية (صاحبـة وعد بلفور) والمشاركـة الأصيلـة في صياغـة (معاهدة تقسيم الوطن العربي سايكس-بيكو -عامي ١٩١٦-١٩١٧ على التوالي) ولأني لست باحثاً أكاديمياً فلا تسألوني (من أين حصلت على هذه المعلومـات سأقول لكم. نحن في عصر المعلومات كما أن علـى كل فلسطيني، على كل عربـي، على كل مسلـم، على كل إنسان يبحـث عن العدالة والحرية والسلام أن يلم بتفاصيـل تاريخ العـالم - فتاريخ القدس - فلسطين هو تاريخ الدنيا - فعل الإنسان في الزمن- منذ الكتابة ومنذ القراءة ومنذ تفتح الأدمغة علـى حقيقة (الانتمـاء - للمكان ومن ثم إطلاق صفـة الوطن على المكان)- فذي هي الجـذور الفعلية لعملية السيرورة التاريخيـة البشريـة - إن المـكان يستقـي قدسيته من كل ما يعنيه لساكنيه ومن كل ما يفعله ساكنوه له - من تلك العلاقة الحميمة التلاحمية بين الإنسان ومكانه - وطنه.

أين أبحث -إذاً- عن القدس؟

أبحث عنها في (عـين حوض)- مسقط رأسي؟ أبحث في ثراهـا وحصاها، وأبحث في صبارهـا وفي خروبها الفريد العزيز وفي زيتونها وفي الشقوق الكثيرة لصخورها وهي تتحـدر إلى حيث الاستقـرار لصق حيفا - فتلحس مياه البحر المتوسط بقايا الصخور المنصهـرة من (الكرمل) نـزولاً حتى اتقاد القـرى المشهورة (جبع واجـزم وعين غزال والطـيرة والطنطـورة والمـزار وحتـى بلد والداليـة وعسفيا) أبحث عـن القدس في الثرى الذي إليـه أهفو - حياً أم ميتاً- فهو مـا حملني وهو ما حمل أبـي وجدي وجد جـدي إلى ما قبـل آلاف السنين أبحث عن القدسـ التي ماذهبت صورتهـا من رأسي وأنـا أزورها للمرة الأولى واعياً عام ١٩٦١، فمشيـت في شوارعهـا وبكيت فرحـاً وأنا أدخل المسجد الأقصى وأقف قبالة (القبة) - وأتملـى فيها صورة الإسـراء والمعراج - وأتذكر أنهـا مدينة سلام قطعـه إرباً إرباً بالحراب أولئك المحتلون الغاصبون -الذين

كانوا- في ذلك الحين- قد احتلوا (الجزء الغربي) من المدينة المقدسة - ووضعوا بينها وبين الشرقية الأسلاك الشائكة وبوابة (مندلبوم).

أبحث عن القدس في (سفر التكوين) وفي أي إصحاح؟ أبحث عنها في عيني أبي وهو يقول -في المرض النهائي- (ترجعون على البلاد حين يحب بعضكم بعضاً) وكلمة أو لفظة (البلاد) عند أهلنا وأجدادنا تعني (الوطن - فلسطين) - وكانت تعني أيضاً (بلاد الشام) فلقد كان جدي يقول لي (كنت أركب حصاني وأجوب كل هذي البلاد من هنا (قضاء حيفا - أم الزينات - إلى صور وصيدا وبيروت إلى الشام- ومن هناك كنت أحياناً أتحرك إلى حلب)- هذا الكلام كان في نهايات العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

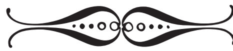
والدلالة أن (الشيخ عز الدين القسام كان سورياً - من جبلة) وأنه صار قائداً ورمزاً من قادة ورموز النضال الوطني الفلسطيني في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي أبحث عن القدس في ابتسامة اغتصبت من على شفتي طفلة وهي تشهد وحشية الجناة المدججين بالحقد والجريمة أبحث عن القدس في التكوين الحي للشعب الفلسطيني - والأمة العربية. ليست القدس مجرد أبنية وأزقة؟ ليست مجرد رقعة جغرافية، إنها الحياة تصارع أسباب الفناء وعوامل الإفناء ونزعة الشر والجريمة لكي تبقى القطعة التي جعلها الله مباركة وبارك (حولها) أبداً__ أنا أبحث عن القدس اليوم في ترنيمة أم فلسطينية تحاول أن تهدهد طفلتها أو طفلها لكي تنعم أو ينعم بالنوم- في ظل التشرد والحصار والجوع والعري - إنها أرجوحة الذهاب إلى الأمل والعودة إلى الأمل - كي تمتلئ الأرض بالخضرة، ولكي تعود البهجة إلى الحزانى والثاكلات والمحرومات من نعمة (الوطن).

في الخيمة (الفلسطينية) التي تطارد الفلسطيني منذ ستين عاماً ما تعلق الأفئدة إلا بالقدس -الوطن- فالقدس ليست مجرد مدينة - ولا هي مجرد جدران وأسوار ولا هي شوارع ومجاري، إنها الطلقة الكبرى الأخيرة للحظة الولادة وقد امتدت يد الغزاة إلى فم الأم محاولة خنق الآهة وإنهاء المولود قبل الولادة أو في لحظتها بل وقطع (السّرة) فوراً.

أنا لا أكتب عن تاريخ القدس.. أقرأ تاريخ القدس في تاريخي الشخصي، حيث شردت من بعد (البلاد) ست مرات، وتغريباتي ربما كنّ أخف وطأة من تغريبات أخوة لي وأشقاء وأولاد عمومة وخؤولة ــــ لقد توفي أبي وتوفيت أمي وهما يحلمان بأرض اكتنزت أنفاسهما واحتضنت أجداث أجدادهما - وحلماً بالقدس حتى اللحظة الأخيرة - وها أنذا أنقل الحلم منهما إلى الأولاد والأحفاد كيف لنا أن ننأى بالذات عن الذات - وبالروح عن الروح، وبالحياة عن المجرى الأصيل لها؟

قبل أيام جاءني هاتف من (السويد) حيث رحلت شقيقتي وأسرتها إلى هناك بوساطة (المفوضية العليا لشؤون اللاجئين) - من مخيم على الحدود العراقية - كانت الكلمات باكية - بل إنها ربما فضلت البقاء في الخيمة على الانتقال البعيد جداً عن (البلاد) - كانت تقول: صحيح أنا لم أولد في البلاد ولم أر (عين حوض) ولم أزر (القدس) لكني أحس أن ثمة فراغاً موغلاً وكبيراً في روحي لايمكن أن يمتلئ إلا بكم وبالبلاد.

هذا الفراغ الموحش في النفس الفلسطينية - حتى تلك التي ما رأت القدس عيناها وما عاشت في أرض فلسطين لحظة واحدة - حيث ولدت في الشتات، هو المد العظيم لطوفان الحقيقة الفلسطينية - العربية - تلك التي انتصرت أبدا على الغزاة وعلى العابرين منهم (والقاعدين) عقودا، إنها الحقيقة التي طيرت عن صخرتنا المقدسة كل أثر من أثار عاصفة حملت دائماً غبارها الأصفر: هذا الفراغ الموحش هو الذي يعبر عن نفسه برفض التوطين والتعويض وحياة التشرد والمهانة، هو ذاته الذي هزم جيوش الغزاة بالفداء، وهو من تصدى وانتصر على: الرومانيين واليونانيين والفرس والصليبيين والمغول في هذا الفراغ الهائل أفتش عن القدس فليس إلا هي التعبير الحار المفعم بالحياة عن عودتي إلى الحياة في (عين حوض) وفي فلسطين كلها (من بحرها إلى النهر)- وحيث (القدس).





آفاق المعرفة



الأدب الجغرافي الفلسطيني دعوة مبكرة للتحرر

د. محمد فؤاد الذاكري *

شغلت الحروب الصليبية ضد الوطن العربي قرابة أربعة قرون بدأت من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي إلى أواخر القرن الخامس عشر امتد فيها الصراع، وتوالت الحملات العسكرية الصليبية إلى بلاد الشام والمقدس ومصر نظراً لأحوال الجبهة الإسلامية فدولة الأتراك السلاجقة القوية انقسمت إلى عدة دول بعد وفاة السلطان ملكشاه عام (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) وذهبت قوتها وأصبحت أربع ممالك بدلاً من واحدة، فظهرت سلطنات فارس

* أديب وباحث سوري



وكرمان والعراق والشام مستقلاً بعضها عن بعض، وأصاب الخلافة الفاطمية الضعف والانهيار ومنيت بأزمات اقتصادية ومجاعات جعلتها غير قادرة على التمسك أمام أطماع الوزراء وتجلى ذلك في عهد الخليفة المستنصر بالله الذي دامت خلافته ٥٨ سنة (١٠٣٦-١٠٩٤م) وكان عهده مليئاً بالكوارث التي نشأت عن المجاعات والأوبئة.

وأصبحت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م، وإلى جانب السلاجقة الذين كانوا يسيطرون على الشمال والفاطميين الذين كانوا يسيطرون على الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام، كانت بلاد الشام الداخلية مجزأة إلى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال كلي.

تحركت جموع الصليبيين من بلادهم في عام (١٠٩٧م-٤٩٠هـ) ووصلوا أسوار بيت المقدس في (١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ) وشددوا الحصار عليها وخصوصاً بعد أن وصلتهم الإمدادات عن طريق البحر، ودخلوها بعد أن ارتكبوا فيها مذبحة رهيبة ذكرها أكثر من مؤرخ صليبي عاصر تلك الأحداث المأساوية وشاهدها، ثم شرعوا في وضع خطة لفتح باقي مدن فلسطين وتمَّ لهم ذلك.

هذه الصورة القاتمة لا تعكس تماماً حقيقة الأمر، فقد ظلت الروابط الثقافية قائمة بين أقاليم الوطن العربي رغماً من انقسام العالم الإسلامي إلى عدد من الوحدات السياسية، وكان باستطاعة العلماء والرحالة الانتقال دون أي صعوبة من بلد إلى آخر وأن يمكثوا أمداً طويلاً أو قصيراً في مختلف الأماكن دون إحساس بالغربة أو بتغير كبير في الوسط.

الأدب الجغرافي الفلسطيني:

وظهر لدينا أدب جغرافي ذو طابع دعائي ارتبط ارتباطاً وثيقاً على جميع المراحل بنمو حركة (التحرير) التي ترجع إلى عهد (صلاح الدين الأيوبي) وتنتهي بتحرير عكا وطرابلس في عام (١٢٩١)م.

لا بد من الإشارة إلى أن الأدب الجغرافي يعكس جميع أوجه النشاط الاجتماعي، باعتباره يقدم صورة متكاملة الجوانب للتطور الثقافي للحضارة العربية وارتباطها بالتوسع الاقتصادي للحضارة الإسلامية.

ولم يقتصر على وصف العالم الإسلامي

وحده بل زودنا بمعلومات لا يستهان بها عن جميع البلاد التي وصلها الرحالة المسلمون أو التي تجمعت لديهم معلومات عنها، وذلك بالصورة نفسها التي وصفوا بها بلاد الإسلام، وفي بعض الأحيان تمثل المادة الجغرافية العربية، المصدر الوحيد والهام في معرفتنا بقطر ما خلال حقبة معينة من تاريخه، إلى مرحلة جعلت المستشرق المعروف (تيودور نولدكه) يقول:

«إن الجغرافيا في أكثر من ناحية هي الجانب الأكثر إشراقاً في الأدب العربي» حيث تبين من خلال الدراسات الحديثة سعة المعارف الجغرافية لدى العرب التي تجاوزت بصورة أكيدة حدود العالم كما عرفه اليونان.

و لابد من توضيح اتجاهين أساسيين في الأدب الجغرافي العربي، يعود إلى تقاليد قديمة، فالاتجاه الأول يهتم بالعلوم الدقيقة بالمعنى الذي نقصده حالياً مثل:

الجغرافيا الحيوانية وتمثله كتاب الحيوان للجاحظ، والجغرافيا الوصفية وأطلق عليها تسمية (المسالك والممالك) وترتبط ارتباطاً وثيقاً بقصص الرحلات، الجغرافيا التاريخية، الجغرافيا الرياضية ويقابلها علم الأطوال والأعراض وعلم تقويم البلدان، الجغرافيا الفلكية وغيرها.. والاتجاه الآخر يولي وجهه شطر الأدب الفني وقد أدرك المؤلفون العرب ذلك الطابع المزدوج لعلم الجغرافيا وشرحوه بدقة في تصنيفهم للعلوم، وهكذا تقابلنا الرسالة العلمية في الفلك والرياضيات، كما تصادفنا المداخل العملية التي وضعت من أجل عمال الدواوين وجمهرة المسافرين ونلتقي فيه بنماذج أدبية فنية رائعة، صيغت بالسجع أحياناً تكمن فيها المتعة والفائدة.

وبنظرة فاحصة للمصنفات التي عالجت الأدب (الفلسطيني) في الفترة التي تسبق عهد (صلاح الدين الأيوبي)، نلاحظ أن فلسطين نفسها لا تذكر كَإقليم مستقل بل ترد ضمن مجموعة بلاد الشام بحدودها الطبيعية المعروفة وخير مثال على ذلك مصنف يحمل عنوان (الأعلام بفضائل الشام ودمشق وما ذكر فيها من الآثارات والبقاع الشريفة) للمؤلف (أبي الحسن علي الربعي) الذي تم تأليفه حوالي عام (٤٣٥هـ/١٠٤٣م)، ولابد من ذكر علم مشهور هو (محمد بن أحمد المقدسي) الذي توفي حوالي (٣٩٠هـ/١٠٠م) وينتمي

إلى إحدى الأسر العربية الكبرى التي سكنت (القدس) غير أن صيغة (المقدسي) واسعة الانتشار وهناك أكثر من عالم ومؤلف في التراث العربي يحملون ذات اللقب، ونتيجة لرحلاته الواسعة واستفهاماته العديدة ونشاطه الجم، استطاع في سن الأربعين أن يؤلف كتابه المعروف : (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وهو يذكر منهجه العلمي في التأليف:

(فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام أحدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه من الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره) كما يسرد حكايته المشهورة للمغامرات التي مرت عليه خلال أسفاره وتجواله والمصاعب والمخاطر التي تعرض لها (و أشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق وخدمت القضاة والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت في الطرق الفساق وبعت البضائع في الأسواق وسجنت في الحبوس وأخذت على أني جاسوس، وعاينت حرب الروم في الشواني وضرب النواقيس في الليالي ويرى العالم (كرامرس Kramers) أن (المقدسي) أكثر الجغرافيين العرب قيمة، بل ويبلغ الحماس من جانب المستشرق (اشنبر نجر Sprenger) فيعتبره (أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة).

وفي مراحل زمنية تالية من تطور الأدب الجغرافي الفلسطيني تظهر مصنفات تحمل عناوين (القدس) بشكل مستقل شأنها في هذا شأن (دمشق) مثل مصنف (فضائل بيت المقدس والشام) لأبي المعري المشرف بن المرجي بن إبراهيم المقدسي الذي عاش في نهاية القرن الخامس الهجري أي الحادي عشر الميلادي وبحسب (كراتشوفكسي):

(يبدأ العرض بتاريخ موجز لبيت المقدس القديمة وفتح العرب لها في عهد عمر وبناء عبد الملك في الحرم ويلي هذا الكلام على فضائل القدس وفضائل الصلاة فيها، وينصب العرض في جوهره على سرد الأحاديث النبوية التي قيلت في فضل القدس وهو منهج اكتسب رواجاً كبيراً لدى المؤلفين التالين).

ثم يقابلنا عنوان القدس منفرداً قائماً بذاته في مصنف آخر هو (فضائل بيت المقدس) الذي ألفه حوالي (٥٠٠هـ/١١٠٦م)، أبو بكر بن محمد ابن أحمد الواسطي، وتبرز شخصية كبيرة كالمؤرخ الداعية المشهور (أبو

الفــرج عبد الرحمن بن الجــوزي) المتوفى عــام (٥٩٧هــ/١٢٠٠م) الــذي جعــل من قضيــة تحرير فلسطين وبيــت المقدس من براثن الصليبيين نشاطاً لدعوته وموضوعاً لخطبــه ورسالته (فضائــل القدس) مجرد فصل من مصنفه الكبــير (مثير الغرام إلى ساكني الشام) ولكــن حفيده وتلميذه المؤرخ (سبــط ابن الجوزي) المتوفــى عام (٦٥٤هـ /١٢٥٧م) لم يتوقف بدعــوة أهل دمشق إلى جهاد الفرنجة. بل اشترك بنفسه على رأس حملة عسكرية موفقة على مدينة نابلس.

وفي نفس الوقت ظهــرت أسرة دمشقية اشتهــرت بمؤرخيهــا هــي (بنــو عساكر) واحدهــم هو (القاسم بــن عساكر) المتوفي عام (٦٠٠هــ/١٢٠٣م) وقد تبع خطا والده فاشتغــل بالوعــظ الدينـــي بدمشـــق وزار القاهرة والقدس حيث قرأ على مسامع الناس فيها مصنفه الذي نال رواجاً كبيراً (الجامع المستقصـــى في فضائل المسجــد الأقصى) وذلــك في عام (٥٦٦هــ/ ١٢٠٠م)، ولنا أن نتصور مشاعر الغبطة والسرور لدى العامة وهم يعيشون في المقدس المحررة وقد مضى على تحريرهـــا أكثر من عشريــن عاماً من أيدي الصليبيين والمصنف المذكور أوشك أن يكون المصــدر الأساسي لجميع من عالجوا الكتابة عن المقدس حتى القرن الرابع عشر الميــلادي وازدهــر أدب جغــرافي ذو طابع دعائـــي بفلسطين والشــام وارتبط بمصير بيت المقدســ وحروب صــلاح الدين، ومن الجائــز اشتراك علماء مــن أسرة واحدة أو من مدرسة واحدة في معالجة موضوع معين، مثل تاج الدين عبد الوهاب السبكي المتوفى (١٣٢٧-١٣٧٠م) والذي سبقه قريبه (أمين الدين أحمد بن محمــد) في تأليف مصنفه (كتــاب الأنس بفضائل القدســ). أما (تاج الدين عبد الوهاب فهو من مواليد القاهرة ومؤلفه عن فلسطين يمكن تحديد موضوعه من العنوان هو (الروض المغرس في فضائل البيــت المقدس) وكان مصــدراً لاقتباسات هائلة منقولة عنه في أدب فلسطين.

التخصص في المسألة الفلسطينية:

في القرن الثامن الهجري ظهر جغرافيون تخصصــوا في المسألــة الفلسطينية منهم : أحمــد بن محمد المقدســي المتوفى في عام (٧٥٦هــ/ ١٣٦٤م) وقد اشتغــل بالتدريس لمدة طويلــة بالقدس ولكنه تــوفي بالقاهرة ويحمــل مصنفه الذي أتمه في عام ٧٥٢هـ/ ١٣٢١م، عنوان (مثير الغرام إلى زيارة القدس

والشام) والكتاب ينقسم إلى قسمين الأول في فضائل الشام وفلسطين عامة والثاني في فضائل المسجد الأقصى خاصة وفي سير بعض الشخصيات التي ارتبط اسمها به ولكن الاهتمام بالمسائل الفلسطينية لم تعد وقفاً على أهل الشام وحدهم أو أصحاب الجغرافيا والطبوغرافيا، بل شارك الفقهاء بنصيبهم مثل الفقيه الكبير (محمد بن بهادر التركي المصري الزركشي) المتوفى (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م) وقد تلقى تعليمه بالقاهرة ودمشق وحلب، وإلى جانب مؤلفاته الفقهية العديدة له رسالة بعنوان (إعلام الساجد بأحكام المساجد) ومن الجلي أن القدس قد فازت بمكانة كبرى في تلك الرسالة.

والفقيه الآخر هو (شهاب الدين أحمد ابن محمد الاقفهسي المصري) المتوفى (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) وأشهر كذلك بمؤلفاته الفقهية ومؤلفه (تسهيل المقاصد لزوار المساجد) يتكلم عن فلسطين بشكل عام.

قرب نهاية القرن التاسع الهجري، وصلنا كتاب (اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى)، وهو وإن كان في جوهره تاريخاً ووصفاً للمسجد الأقصى، كما يؤكد ذلك عنوانه إلا أن فصوله الثمانية أبعد من أن تقتصر على ذلك الموضوع وحده، فإن به فصولاً في الدعاية الصرفة تدعو إلى زيارة فلسطين وإلى إنفاق الصدقات في المواضع المقدسة بها، كما يوجد به أقساماً مخصصة للقصص الإسلامية المرتبطة ببيت المقدس كالإسراء والمعراج. وهو يتحدث بإسهاب عن الرسل المختلفين ومشاهير الرجال الذين أقاموا بفلسطين، كما وإنه يولي عناية خاصة لتاريخ إبراهيم الخليل وإقامته ببلاد العرب مع ابنه إسماعيل، ولاشك إن معرفته بالحجاز قد أعانه على اختيار مادته لهذا الموضوع. أما أنبياء التوراة (العهد القديم) فيعرض تاريخهم عن طريق توضيح الأساطير من ناحية، ثم يفرد أقساماً مسهبة للكلام على حبرون (الخليل) وقبر موسى ومسجد دمشق (الأموي) كما لا يهمل الكلام عن آثار ومواضع الشام المشهورة، وتبقى فلسطين المحور الأساسي خلال جميع صفحات هذا الأدب الجغرافي.

وآخر مؤلف عرفته سلسلة الأدب الفلسطيني هو (مجير الدين عبد الرحمن بن أحمد العليمي العمري) المتوفى (٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م) ومصنفه يحمل عنوان (كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) ويعتبر أوسع

وأحفل وصف تاريخي طوبغرافي للمدن الفلسطينية، والمؤلف (العليمي) أصله من القدس لكنه تلقى تعليمه بالقاهرة ثم تولى منصب القضاء بمدن فلسطين المختلفة، والكتاب مرتبط في جوهره بالجغرافيا الدينية وذلك على طراز الكتب التي تدعو إلى الحج ولكنه يفسح المجال لتاريخ الشعوب على أساس معالجة سير مشاهير رجالها، ويمكن تقسيمه إلى أربعة أقسام : الأول منها في وصف القدس، والثاني في وصف المسجد الأقصى والكلام على مدارس وأديرة فلسطين ومدنها، والثالث يحوي تراجم السلاطين والعلماء، أما القسم الرابع فيعالج الكلام على تاريخ الولاة ويختمه بتاريخ سلطنة قاتيباي.

أما الأسلوب العلمي الذي سار عليه المؤلفون فلا يخرج عن الإطار العام الذي حدده (تقي الدين المقريزي) المتوفى (٧٦٦هـ/١٣٦٤م) بقوله:

(اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهي، الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبة، وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من الأجزاء وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه).

الفضائل والمحاسن:

كان العامل المشترك بين المصنفات الجغرافية المذكورة اهتمامها الأساسي على المدن الكبرى كدمشق والقدس وهو نمط قديم معروف يعرف بـ (الفضائل) و(المحاسن) أي ذكر محاسن البلاد والشعوب، فعند الكلام على مدينة القدس كان يتم وصف مساجدها المختلفة وحماماتها ومنتزهاتها والحديث عن قراها ومواضعها المشهورة بأزهارها ونباتها وأشجار فاكهتها، مع تفصيل طرق جمعها ووسائل تسويقها وإيراد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية والإشارة إلى من عاش بها من مشاهير الرجال وعن مقابرها وما بها من قبور معروفة، أما الأسلوب الكتابي فلا يخلو أحياناً من التكلف وتبدو عليه غلبة السجع والمحسنات البديعة والتشبيهات والاستعارات المبالغ بها وتنتثر فيه الاستشهادات الشعرية، ولكن يمكن استخلاص مادة علمية جيدة ومعطيات هامة.

ولابد من التأكيد بأنه توجد أسباب خاصة جعلت فلسطين في فترات معينة من التاريخ محط أنظار العالم الإسلامي بأجمعه، هذه حقيقة لا مراء فيها، ومن الواضح أن

مؤلفي هـذه المصنفات لم يكونـوا من أهل فلسطـين والشام وحدها،بل كانوا أيضاً من المصريين والمغاربة.

والسبـب معـروف فقـد كانـت مصر المملوكية والبلاد العربية المرتبطة بها، معنية أولاً بتحريـر فلسطين والمناطق المجاورة لها من أيادي الصليبيين.

هـذه الحركـة التحريريـة قـد تركت صداها في عدد من الآثار الأدبية منذ عهد صلاح الدين الأيوبي إلى عهد محمد الفاتح (العثماني)، وتتمثل بأن فلسطين وجميع أرض الشـام لا ينازع في شرعيتهـا أي منازع، أما مقابر الأنبياء القديمة في القدس ومعابدها ومساجدها العتيقة فقد اكتسبت قداسة لا تفوقهـا سوى قداسة مكـة والمدينة المنورة، وتحريرها واجب مقدس، إضافة لتعريف الشعوب الإسلامية بتلك البلاد وتضاريسها الجغرافيـة وأوضاعها التاريخية. وفي ذلك الحين بدأت تتشكل وتنمو فكرة مفادها بأن بلاد الشام تمتلك تسعـة أعشار ثروة العالم بأجمعه، وعلـى العرب استغـلال خيراتها لأنفسهم سواء في مجال الزراعة أو التجارة، وهذا ما حدا (بأبي البقاء عبد الله البدري) المتوفى (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) إلى تدوين مصنفه (نزهـة الأنام في محاسن الشـام) قدم فيه وصفـاً لمشاهد الشـام، وأولى اهتماماً أكثر لأزهار وفاكهـة وادي الشام، معدداً أنواعها ومزاياهـا وفوائدها الغذائيـة والعلاجية، مبيناً ما يلقاه كل منها من إقبال في البلدان الأخرى، ويمكن القول إن الإحساس بخطر الغـزو والأطمـاع الأوروبيـة التـي تهدد سواحل مصر والشام كانت دافعاً قوياً لتلك المصنفات المبكـرة، وتكمن قيمتها في المادة التي تحويها، فـلا تقتصر على الموضوعات التي ذكرها، بل تعالج أيضاً مسائل هامة في مجال التاريخ والآثار والطبوغرافيا أحياناً.

وظهر في بعض المصنفـات ضرباً من الدعايـة الصريحـة لزيـارة القدس حتى يفـوز المرء بحس المثوبـة والمكافأة في الدار الأخـرى، مثل (باعـث النفوس إلى زيارة القدس الشريف) للمؤلـف (برهان الدين إبراهيـم بن الفـركاح) المتوفـى (٧٢٩هـ/١٣٢٩م) وقـد اشتغـل بالتدريس بدمشق وزار مصر، وتخصص بـالأدب الفلسطيني ويـورد في كتابـه معطيـات ذات قيمة في مجالي الجغرافيا التاريخية والآثار المختلفة حيث يبـدأ من لحظة بناء المسجد الأقصى والصلاة فيه وما في الحج من بيت المقدس

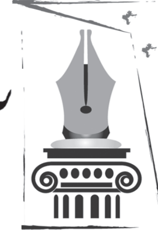
إلى مكــة من مزايا وفي أهمية الزكاة في بلد كبيــت المقدس كما يهتــم بالأماكن المقدسة الأخــرى في القدس، ولاينسى إبراز فضائل مدينة الخليــل ومكانتها المتقدمة إلى جانب بيت المقدس والدعوة لزيارة فلسطين.

إن هذه السلسلة من المؤلفات تمثل حدثاً مرموقــاً وجديــراً من وجهة نظــر التطور العام لــلأدب الجغرافي العربي كونها تتميز بضخامــة عددها واتساع مداها وقد تركت طابعاً خاصاً مميــزاً على الأدب الجغرافي، وازدهار التأليف بغزارة في مجال الجغرافيا الإقليمية في الشام وفلسطين هو أمر طبيعي، فهو يمثل جانباً أساسياً من المقاومة الثقافية التــي أبداها العالم الإسلامي ضد الحملات الصليبية، وعاملاً مهماً على شحذ النفوس وإثارة الهمــم، وإنه دور علمي ناجح يتشابه مــع دور وسائل الإعــلام في عالمنا الحالي، والفرق أن ثماره قد أتت أكلها آنذاك.

المصادر:

- اغنــا طيوس كراتشـو فسكي – تاريخ الأدب الجغـرافي العربي – ترجمه عـن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم- بيروت- دار الغرب الإسلامي- الطبعة الثانية- ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ١- ميخائيل زابوروف- الصليبيون في الشرق- ترجمة الياس شاهين- موسكو- دار التقدم- ١٩٨٦م.







القدس في الفن التشكيلي

د. محمود شاهين ❊

تُشــير كتب التاريخ إلى أنه قبل ستــة آلاف سنة، وضع العرب الكنعانيون حجر الأساســ لبناء مدينة القدس التي تُسمى عند الأوروبيين Jeruslam والتــي أصبحت مدينة مقدسة لدى الديانــات السماوية الثلاث: الإسلاميّة والمسيحيّــة واليهوديّــة، ولأن القدســ مسرى الرسول محمــد عليه الصلاة والسلام (المعراج) اكتسبت أهمية خاصة عند المسلمين الذين يعتبرون المسجد الأقصى الموجود فيها، عتبة الجنة يوم الحساب،

ولأن المسيحيين ينتظرون مجيء المسيح المنتظر فيها، ينظرون إليها، بكثير

❊ فنان وناقد وأكاديمي (سوريّة).



من التقديس والتبجيل والاحترام، غير أن الغزاة الصهاينة القادمون من مختلف بقاع العالم، يدّعون اليوم، أن هذه المدينة العربية الخالصة، عاصمة كيانهم الغريب القائم على أرض فلسطين العربيّة، ويجهدون لتقويض مقدسات المسلمين والمسيحيين، وتغيير ملامحها، تمهيداً لتهويدها وتحقيق زعمهم الباطل القائم على الأوهام والخرافات، بأنها عاصمة بني إسرائيل.

تنهض القدس على عدد من الجبال، أبرزها جبل (موريا) وهو الجبل الذي يقوم عليه الحرم الشريف الذي تعلوه قبة الصخرة المشرفة، وعلى سفحه من الجهة الجنوبية، ينهض المسجد الأقصى، وعلى سفحه من الجهة الغربية، ينتصب حائط البراق الذي يقع عليه سور القدس القديم المحيط بالمدينة المقدسة من جهاتها الأربع.

يعود تاريخ إشادة قبة الصخرة إلى العام ٦٩١، حيث أمر ببنائها الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان) ثم أشاد المسجد الأقصى الذي أعيد بناؤه عدة مرات فيما بعد.

يرى (جورج مارسيه) أن الطراز المعماري الثماني لقبة الصخرة، مأخوذ من الفن المسيحي، فبعض الكنائس السورية ذات المخطط المركزي، ككنيسة بصرى، أو كنيسة الصعود في القدس، نجد فيهما هذا الترتيب العام القائم على القبة والأروقة المحيطة بها، وتحمل تيجاناً بديعة مزينة بورق الأكانتوس من الطراز اليتودوسي. أما ما يضفي مظهراً شديد البهاء وعلى العمارة فيها، الفسيفساء ذات الخلفية الذهبية التي تزين عنق القبة، وبطون الأقواس والأكتاف التي تفصلها، فهي أعمال ذات طبيعة بيزنطية، أو نُفذت من قبل فنانين سوريين تعلموا في مشاغل القسطنطينية.

أما (دافيد تالبوت رايس) فيرى أن مخطط قبة الصخرة، يمثل توسيعاً لمخطط كان قد طُوّر فيما سبق في العالم البيزنطي أثناء عصر (جوستانيان) في كنائس مثل كنيستي القديسين (سرجيوس) و(باخوس) في القسطنطينية (٥٢٦ ـ ٥٣٧) وكنيسة (فيتالي) في رافينا (٥٢٦ ـ ٥٤٧). وكذلك يدين داخل القبة بالكثير، لا للفن المسيحي في سورية وفلسطين فقط، بل أيضاً لفن العالم البيزنطي بالمعنى الضيق للتسمية. لذا فإن الأعمدة وتيجانها ورفائد الجدران الرخاميّة لا تكاد تتميز عن أمثالها مما يوجد في إحدى كنائس القسطنطينية. وبعض تصاميم أشكال أوراق الأشجار على الأغلفة المعدنية للروافد الخشبية غالباً ما تكون أقرب إلى الأشكال المحلية منها إلى الأشكال البيزنطية المحضة، بينما التصاميم

الزخرفيــة الأخرى عليهــا، كذلك تصاميم الفسيفســاء، تدين لبــلاد فارس الساسانية بقدر ما تدين للفن البيزنطي.

علــى نفســ الهضبــة، يقــوم المسجد الأقصــى الذي بناه أيضــاً الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أو ابنه الخليفة الوليد الذي حكم مــن (٧٠٥ . ٧١٥م) والمؤلف من جناح مركزي عريض تحــدّه أقواس ترتكز على أعمدة وعلى جانبيه جناحان أضيق.

يرى (جورج مارسيه) أن ترتيبات المسجد الأقصــى، بما فيهــا تلك الممــرات الثلاثة الموجهة نحو العمق، هــي ذاتها التي توجد في البازيليك. ولما كانت من أعمال معماريين محليــين، فهي تتلائم مع العبــادة المسيحيّة أكــثر من تلاؤمهــا مع العبــادة الإسلاميّة، ولكن بعــد إضافة اثني عشــر جناحاً على طرفي الأجنحة المركزيّة الثلاثة، أصبح هذا الحرم ذا تناسب في العرض أكثر انطباقاً مع متطلبات الصلاة الإسلاميّة.

أمــا (دافيد تالبــوت رايســ) فيرى أن المسجد الأقصى في الأصل، كان يحمل شكل قاعدة كبيرة ذات أعمدة، وكان يمثل مفهوماً جديــداً في الهندسة المعماريّــة الإسلاميّة، رغــم أن أعمدته وتيجانهــا كانت بيزنطية فقد أعيد استعمالها حين أعاد الوليد إشادة البنــاء، ولكن معظم ما نــراه اليوم، أتى في وقت لاحق، إذ إنه أُدخلت عليه التصليحات إما من قبل المنصور عام ٧٤٠ أو المهدي عام ٧٨٠. ومــرة ثانية من قبل الحاكم الفاطمي الظاهر عام ١٠٣٥.

هذان المعلمان المعماريان البارزان، اختزلا (القدســ) زهرة المدائــن العربيّة، في رسوم ولوحات وصور ومحفورات ومنحوتات عدد كبير من الفنانــين التشكيليين الفلسطينيين العــرب والأجانــب، ومن الطوائــف والملل والأجيال كافة، ولا يــزال المسجد الأقصى وقبة الصخــرة، الإشارة الأهم والأبرز التي تذهــب بنــا مباشــرةً إلى القدســ، مؤكدة عروبتهــا وعودتها الأكيــدة، عاصمة لدولة فلسطــين القادمة لا محالة، وفي وقت لم يعد بعيداً، فكيف بدت عروس المدائن، في أعمال الفنانين التشكيليين، بــأي صيغة تناولوها، وكيف عبروا عن مواقفهــم تجاهها، وتجاه القضيــة الفلسطينيّة التــي شارف عمرها على ستين عاماً، ظل خلالها الجرح العربي والإسلامي مفتوحاً ونازفــاً ومأزوماً .. ولا زال!!

يأتي الفنــان التشكيلي السوري الراحل (غازي الخالدي) في طليعة من تناولوا مدينة القدســ ورموزها في لوحاتهــم، وبأكثر من صيغة، ولأكثر من هدف وموضوع وقضية. من ذلك ربط رموز القدس المعماريّة الإسلاميّة

والمسيحيّة، بموضوع الشهادة والشهداء، كما في لوحته (تحية إلى شهداء فلسطين) المنفذة بالألوان الزيتية عام ١٩٧٦، حيث شكّلت هذه المعالم الشريط السفلي في اللوحة، وقد عالجها بواقعية مُبسطة، وألوان قليلة (الأزرق والبرتقالي) ورمز في الشريط العلوي (ويشكل ثلثي مساحة اللوحة) إلى الشهداء بثلاثة أحصنة مشرئبة الأعناق نحو السماء الغارقة بألوان الأحمر القاني والبرتقالي والأسود، إشارة إلى دماء هؤلاء الأبطال المؤسسة لفجر التحرير القادم المتمثل بقرص الشمس (أو القمر) الذي تنكشح عنه الغيوم السوداء (رمز الاحتلال الصهيوني) ممهدة الطريق لبزوغ فجر الحرية النقي الصافي القادم من الأفق،والمرتمي فوق أسطح عمائر القدس وبين جنباتها.

اللوحة بسيطة العناصر، قليلة الألوان، واضحة الرموز، ما جعلها سهلة التناول والوصول، إلى المتلقي، على اختلاف ثقافته. أما في لوحته (زهرة المدائن يا قدس) المنفذة بالألوان الزيتية والموجودة في نادي ضباط الجيش العربي السوري بدمشق المنفذة عام ١٩٨٢، فقد ربط قبة الصخرة ومحيطها، بفتاة خائفة رسمها بلون أبيض (رمزاً للطهارة) تطل من القسم الجانبي اليساري من اللوحة، تحتضن بيدها اليمنى، هذه العمائر المقدسة، وتشير باليد اليسرى إلى قبة الصخرة المهددة، بينما طيف حمامة بيضاء (إشارة إلى الحرية القادمة) يتشكل في الأفق المرسوم بألوان زرقاء سماوية، شفيفة، انعكست أطيافها على جدران العمائر المنفذة بخطوط صلبة، وألوان متدرجة مكونة من البني والأصفر والأبيض ومشتقاتها. واللوحة كسابقاتها، معالجة بالأسلوب الواقعي المختزل والبسيط.

أما لوحته (فلسطين عام ١٩٤٨) المنفذة مطالع سبعينات القرن الماضي، فقد صوّر فيها عملية النزوح الفلسطيني من خلال فتاة مذعورة الملامح، تستقر على كتفي رجل يعبر بها البحر إلى المجهول،وقد رمز إلى فلسطين، ببيوت ومساجد وأشجار أخذت لون الدم، إشارةً وتأكيداً، على الطغيان الصهيوني ومذابحه التي دفعت بالفلسطينيين إلى مغادرة بيوتهم وأراضيهم، وكانت قبة الصخرة، الرمز الأبرز والأهم في اللوحة. وحتى في لوحاته الوطنية والقوميّة الأخرى، ظلت القدس برموزها الأساسيّة، حاضرة ومؤكدة فيها، من ذلك وجود قبة الصخرة ومحيطها العمراني العربي الإسلامي المميز الطراز، في الطرف اليساري العلوي من لوحة (ملحمة حرب تشرين ١٩٧٣) الموجودة في القصر الجمهوري

بدمشق، مشيراً بذلك، إلى وحدة النضال العربي وضرورته، لتحقيق أهداف الشعب والأمة، في التحرر من السرطان الخبيث الذي زرعه الغرب في جسد الأمة العربيّة، ومن ثم التفرغ لبناء الحياة العربية الجديدة الخالية من المخاطر والتحديات.

وفي لوحته (القدس في النار) المنفذة عام ١٩٧٣، صوّر الفنان غازي الخالدي اللهيب الذي طاول شوارع ومرافق هذه المدينة المقدسة، معبراً عن المأساة التي يعيشها شعبنا العربي الفلسطيني، تحت الاحتلال الصهيوني، مُبيناً من خلال تباينات الألوان المتضادة، حدة هذه المأساة وقسوتها وتداعياتها على الأمة العربية ومستقبلها.

عبر هذه التباينات اللونيّة، والصياغة الواقعيّة المبسطة، تمكن الفنان الخالدي، من وضع المتلقي في عمق المأساة الفلسطينية، من خلال التعبير المأساوي الانفعالي الحاد الذي سكبه فيها.

لقد ظلت القدس بخاصة، وفلسطين بعامة، حاضرة ومتألقة، في معظم أعمال الخالدي الوطنيّة والقوميّة، ما يعكس حساً رفيعاً ومتيناً بالانتماء القومي، رافقه طوال حياته، وانعكس بوضوح في إبداعاته المتشعبة. بل قد لا نكون مغالين، إذا قلنا إن القدس شكلت أيقونة لوحاته الوطنيّة والقوميّة، ومنها لوحته المعروفة (سورية بطولة وحضارة) التي ربط فيها بين القديم والجديد، من رموز حضارتنا العربية والإسلاميّة، كصلاح الدين وزنوبيا، وتدمر وقبة الصخرة، ودمشق والجامع الأموي، دون أن يغفل الإشارة إلى الشهداء المتمثلين بالأحصنة المشرئبة الأعناق نحو السماء، وبالتحديد إلى قرص الشمس الذي يهب الخصوبة والعطاء والأمل، ويرمز في الوقت نفسه، إلى العزة والسمو والرفعة والكبرياء.

إلى جانب الخالدي، قام عدد كبير من الفنانين التشكيليين بتناول القدس في أعمالهم، منهم الفنان سليمان منصور الذي جسد مأساة ومعاناة الشعب العربي الفلسطيني، بزهرة المدائن تتوسطها قبة الصخرة، على شكل عين، تستقر فوق ظهر رجل يحملها كما الوديعة أو الحرز، في عالم لا ملامح له، ومستقبل مجهول الهوية، وتحديات لا حدود لها، ومع ذلك، يحمل القدس بأناة وصبر وإرادة لا تلين ولا تنكسر.

الفنان الرائد إسماعيل شموط، ربط بين القدس والجماهير المزروعة حولها كجذور الشجر العتيق، مُبرزاً ومؤكداً، على المرأة العربية الفلسطينية التي أخذت على عاتقها، ضخ قوافل المناضلين والشهداء

وصنـــاع الحيـــاة، وبشكل متواصـــل ودائم، لتتحرر البلاد، وتـــورق الحياة عزة وكرامة ومستقبـــلاً آمناً. وفي إشارتـــه إلى القدس، جـــاءت قبـــة الصخـــرة الذهبيـــة، كعنصر أساســ ومحـــوري في لوحته. نفســ الشيء فعله الفنان عيسى عبيدو، عندما جعل قبة الصخرة تتوسط لوحتـــه عن القدس وتبرز كعنصـــر أساس، لا سيمـــا بعد أن جعل سور القدســ يشغل القسم السفلـــي من اللوحة، وتعمد عدم التأكيد علـــى النسيج العمراني حولها، وبالغ في مساحة السماء التي أخذت نحـــو نصف مساحـــة اللوحـــة. ولأنه عالج السور والمحيط العمراني، باختزال وبساطة، برزت وتأكدت قبة الصخرة بلونها الذهبي. ولربطهـــا بالسماء المطـــرزة بالغيوم، أغرق الحرم الشريف الـــذي تعلوه باللونين الأزرق والأبيضـــ وتدرجاتهمـــا، وهو مـــا فعله في مساحة السماء.

وبأسلـــوب واقعـــي مُبســـط تماهى بين الرســـم والتصوير والحفر المطبـــوع، صوّر الفنان حسن نعيم التلال التي تنهض عليها القدس القديمة، لا سيما الأماكن المقدسة، الإسلاميّة والمسيحيّة.

وأحـــاط الفنان تيسير شـــرف في لوحته (القدســ) هـــذا الجـــزء المعمـــاري، بموج متدفق من الحروف والكلمات (من الأسفل) وبشرائط شاقوليّة ملونة، تنهض في الأعلى كألسنـــة اللهب، وكغيره مـــن الفنانين، يؤكد ويـــبرز الفنان شرف، قبـــة الصخرة والحرم الشريـــف، إنما ضمـــن جوٍ مـــن الزخرفيّة الطاغية، سببه قوة الألـــوان المتضادة التي استعملها في لوحته.

علـــى العكســ من ذلـــك، تأتـــي لوحة (القدســ) للفنـــان توفيق عبـــد العال التي اختزلهـــا بجامـــع ومئذنة وخلفيـــة رمزية مؤلفة من مساحة لونية زهريّة، وتقطيعات هندسيـــة صفـــراء، ومـــن هذيـــن اللونين: الزهري والأصفـــر ومشتقاتهما، بنى عمارة اللوحة البسيطة التي قاربت أسلوبيتها رسوم الأطفال والبدائيين.

وقـــام الفنـــان بشـــير السنـــوار بالربط بـــين الحصـــان ـ الرمز الذي تطـــوق عنقه الكوفية الفلسطينية ويقف شاخصاً إلى قبة الصخرة، فـــوق تلة مواجهـــة، ولسان حاله يقـــول: إن الحق بـــاقٍ، والأصالة مترسخة، وشمس الحرية والتحرير، قادمة لا محالة.

ثمة لوحات ورسوم أخرى كثيرة، وضعها رسامـــون ومصـــورون عـــرب، حـــول زهرة المدائـــن التـــي اختزلها معظمهـــم، برمزها الخالد (قبـــة الصخرة) وهو ما فعله معظم الفنانين التشكيليين الأجانب الذين تصدوا لنفســ الموضـــوع، منهم الفنـــان الإنكليزي

(إدوارد ستانلي) المولود عام ١٨٥٥ والمتوفى عام ١٩٢١. ففي لوحته التي يمكن أن نطلق عليها عنوان (قبة الصخرة) صوّر هذا المعلم العربي الإسلامي المفعم بالدلالات والرموز، بدقــة متناهية، رغم وجوده في عمق اللوحة التي رسم فيها محيط الحرم الشريف، بألوان ترابيّــة، وأسلوب مختصر بسيط، هدف منه إلى إبراز وتأكيد، موضــوع اللوحة الأساس (الحرم وقبة الصخــرة) الذي بدا في أبهى حضــور، وأجمل طلة، وأعمــق دلالة. تشير لوحــة ستانلي إلى موهبتــه الفنيّة الكبيرة، وخبرتــه الواسعــة والعميقــة، في التعامل مــع الألوان التي يسخّرهــا لأكثر من مهمة تشكيليّة وتعبيريّة في عمله الفني.

قبــة الصخــرة ومحيطهــا المعمــاري والطبيعي، شكّلت موضوع لوحة رائعة نفذها فنان أوروبــي مجهول، بصيغــة استشراقيّة تشير إلى معلميّة صاحبها الكبيرة، كما تُشير شخوصها وطرز الثيــاب التي ترتديها، إلى أنها منفذة بداية القرن التاسع عشر وأواخر القــرن العشريــن. تحمل هــذه اللوحة من الدقة الواقعية ما يجعلها تتماهى بالصورة الضوئيّة، وهو مــا يجعل منها وثيقة دقيقة وجميلــة، لهــذا المعلــم المعمــاري العربي الإسلامي الهام.

وأغرق الفنان (سكايلي ملر) لوحته عن القدس، بألوان وحشية قوامها الأزرق النيلي والأحمــر والأصفر والبرتقــالي والأبيض، وفيهــا صــوّر (ضمن شريــط في الأسفل لا تتجــاوز مساحتــه خمس اللوحــة) ملامح لمساجد وكنائس وأسوار وأشجار غلبت عليها الألــوان البنيّة. فنان غربــي آخر، قدم قبة الصخرة والحرم الشريف والمسجد الأقصى ومحيطهم، بأسلوب (الماكيت) وبدقة واقعيّة شديــدة، اعتمدت على الرســم والقليل من الألوان الشفافة. في هذه اللوحة، تُطل عين المتلقي على موجوداتها وعناصرها من أعلى، وبرؤية بانوراميّة تحيط بأكبر قدر ممكن من تفاصيل المشهــد. وبرؤية وأسلوبيّة مشابهة، نُفــذت لوحة متخيلــة للقدس أيــام السيد المسيح، بالأبيضــ والأسود والقليل الباهت مــن الألوان، مــا جعلها تقــارب المحفورة. وبشــيءٍ من خيال المجنــح، عالج فنان آخر (يوحي أسلوبه بأنــه روسي) المعالم المعماريّة الرئيســة لمدينة القدســ، لا سيما المساجد والكنائس والمحيط الطبيعي. الصيغة الفنية لهــذه اللوحة، حالــة متوافقة مــن أسلوب المنمنمة والأيقونة، وهي على قسط كبير من الخيال والطرافة والجمال والتفرد.

وفي لوحة لفنان مجهــول، منفذة بألوان ضائعــة بــين الزيتــي والمائي، بــرزت قبة الصخــرة، ضمن محيط ساحــر من العمارة

القديمة وبعض العناصـر الطبيعيّة، زادتها بروزاً، المساحة الواسعة والخالية من العناصر الموجودة في مقدمتها، والسور الذي يليها.

رُسمت هذه اللوحة بأسلوب واقعي مُبسط، وبألوان زخرفيّة متباينة الدرجات، مأخوذة مباشرة من إصبع الألوان. أي إن الفنان لم يتعب نفسه كثيراً في استنباط ألوان يقارب فيها الواقع الحقيقي، وإنما اكتفى بالألوان الجاهزة، وهو ما أوقع لوحته بالسمة التزينية الزخرفية، والحس التلقائي البسيط.

عكسها تأتي لوحة أخرى لفنان مجهول أيضاً، صوّر فيها قبة الصخرة، وسور القدس العتيق، والمحيط العمراني المؤلف من مجموعة كبيرة من المساجد والكنائس والبيوت القديمة، ذات الطراز العربي الإسلامي. اعتمد الفنان في إنجاز هذه اللوحة، على الخط (الرسم) كقيمة تشكيليّة أساسية، إذ أكد به عناصر اللوحة المعماريّة والطبيعيّة، وأعطاها هيكليتها الصحيحة، أما اللون فجاء شفيفاً متدرجاً من الغامق إلى الفاتح، ضمن مساحات واسعة، ما أعطى العناصر ثقلاً ورسوخاً ووضوحاً، ولأنه عالجها والسماء، بكثير من الأناة، والتأكيد على التفاصيل والنمنمات الدقيقة، أخذت اللوحة خصائص ومقومات المحفورة الملونة.

الفنان الهنغاري (كونستغاري كوستاك تيفدار) نفذ لوحة للقدس عام ١٩٠٥، أظهر فيها معلمين أساسيين هما: كنيسة (جاءت في مقدمة اللوحة) وقبة الصخرة (في وسطها) إضافة لطيف جامع يلوح في الأفق، وبضعة أسوار وبيوت قديمة، تحيط بالمعلمين، انبثقت بينها، أشجار ونباتات. اللوحة منفذة بالأسلوب الواقعي المبسط الملحاح على التفاصيل الصغيرة، لا سيما رسم الأحجار في مداميكها، ما أوقع العمل في سمة بدائية، وحس تزييني.

وكما استأثرت القدس وقبة الصخرة، باهتمام الفنانين التشكيليين، كذلك الأمر بالنسبة للمصورين الضوئيين الذين أشبعوها معالجة، وبعضهم لجأ لاستخدام أحدث التقانات في ذلك، كالتصوير الرقمي، والحاسوب، والفوتو ـ مونتاج، ما جعلنا نواجه مدينة جديدة أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع المعيش، لا سيما وأن بعض المصورين حذف من الواقع وأضاف إليه، وكرر رموز القدس الخالدة (قبة الصخرة) في أكثر من موقع في الصورة الضوئية التي فقدت الكثير من خواصها التقانيّة المعروفة، لصالح خواص اللوحة المرسومة بالألوان والفرشاة والأقلام.



حوار العـدد

مع نواف أبو الهيجاء:

معاناة في الشتات

حــوار: عادل أبو شنب

حوار العدد



نواف أبو الهيجاء: معاناة في الشتات

حــوار: عادل أبو شنب ⁂

مــن مكان إلى آخر حمل حقائبه، هــذا الفلسطيني، منذ نزح صغيراً من قريته.. «عــين حوض» متذوقاً مرارة الشتات في بغــداد ودمشق، وفي مخيم على الحدود بين العراق والأردن، ولد له فيه توأمان!

إنــه الأديب نواف أبو الهيجــاء الذي نذر عمره ورواياتــه و مسرحياته و أولاده لفلسطين. وكم يسرني أن أحاوره، بمناسبة بدء سنة الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية التي تبدأ هذا الشهر.

⁂ أديب وقاص سوري.



- تحدث عن ولادتك- نشأتك- ودراستك؟

• كانــت الولادة في ١٢/١٢/ ١٩٤٢ في (قرية عين حوض) -بجبل الكرمل- وهي تبعد عن حيفا مسافة أربعة عشر كيلومتراً- إلى الجنوب الشرقي وتعــد واحدة من أجمل قــرى فلسطين- بشهادة أهلهــا ومن رآهــا- كما أن معظم كتــاب وأدباء فلسطين كتبوا عنهــا- ويسميها المحتلون رسمياً (قريــة الفنون) ـــ النشــأة فيها لخمس سنوات ونيــف. أذكر القرية ولاسيمــا بستاننا الصغير- وبيتنــا وبيت جدي وجدتي- وأشــد وضوحاً في الذاكــرة سقوط (حيفا) إذ كنــت صحبة والدي حين وقعت الواقعة في نيسان من عام ١٩٤٨ ـــ قريتنــا احتلت أكثر من مــرة- وآخر مرة خرجنا منها إلى (دالية الكرمل) ومكثنا نحو شهر هناك- ثم حين سقطت قرى المثلث- بعد أكثر من شهرين على قيام الكيــان الصهيوني- نزحنا إلى جنين- بعــد أن حررها جيش العراق- وهناك مكثنا (أنا وشقيقتي والمرحومان أبي وأمي) تحت شجرة لعدة أيام إلى أن انتقلنا بشاحنات الجيش العراقي إلى العراق ـــ نقلنا إلى معسكر (الشعيبة) في صحراء جنوبــي البصرة- وهو معسكــر أخلاه الانكليز- يبــدو قبــل وصولنا بعام أو أكــثر. تعلمت هناك السنتين الدراسيتين الأولى والثانية- بعد أن رفض تدريســي حين وصلنا لأنني لم أكن أبلغ من العمر السنوات الست.. بعــد ثلاث سنوات في المعسكر هبت عاصفة صحراوية دمرته، فقامت الحكومة العراقيــة بنقل من أراد منا إلى بغداد ومن لم يرد إلى مدينــة البصرة. إلى بغــداد ذهبنا وسكنا في بيوت (مجمدة) كل عائلة بغرفة واحدة- وأحياناً مــن كان سعيد الحــظ يحظى باثنتــين- كانت المناطــق شعبية جداً (أبو سيفــين- سوق دودو- سوق حنــون- الشورجة) مــن ١٩٥١ إلى ١٩٥٩ حيث نقلنــا إلى (حي السلام- الطوبجي) ببيوت صغيرة من حوالي ثمانين متراً مربعاً كانت الأسرة تكبر حتى بلغنا (دزينة) مــع الأبوين- درست في العراق إلى السنة الرابعة الجامعية حيث سجنت وأبعدت إلى سورية وأكملت الدراسة في الجامعة السورية (لغة انكليزية وآدابها) في شباط ١٩٦٦.

- كيــف ســارت حياتــك في الشــتات؟ أولاً في العراق ثم في سوريــة؟

• حملــت مرضاً إلى اللحظــة الراهنة أثره- البرد في التشرد سبــب لي الحمى الروماتزمية- التــي دغدغــت لي رجلي وعضــت قلبي- حيث تركت الأثر في الصمــام الأبهري. أنا أحمل منذ ربع قرن صمامــاً اصطناعيــاً في القلب. الفقر والزحام- والانتقالات والتنقلات تركت الكثير من الآثار في نفســي. في العاشرة من العمر- في أبي سيفين- ثقل علــي المرض فأقعدني عن الذهاب إلى المدرسة وقعت على كتاب- لم يكن له غلاف- قرأته فغير مسار حياتي. كان الكتاب (الام فيرثر- لغوتــه)- بدأت أعشق القراءة والاطلاع- فقرأت للمنفلوطي (النظرات والعبرات وبول وفرجيني..) ثم شرعت بقــراءة الروايــات العربية- محفوظ وعبد القدوس والسباعي. تركت الأخيرين مبكراً وتمسكت بمحفوظ. كنت آنذاك أحاول أن أكتب شعــراً.. مطولاً. ومــع الاستمــرار في القراءات والانتقال إلى قراءات المترجم من الأدب العالمي- دستويفسكي- تشيخــوف هوغو شكسبير- ابسن

وهمنغواي وجون شتانبيك- إلى آخره. وعرضت شعري أو كما كنت أظنه شعراً على الشاعر الفلسطيني خالد علي مصطفى وأنا في السنة الثالثة المتوسطة- فنصحني بكتابة القصة. أخذت بنصيحته- وتركت الشعر. في ذلك العام (١٩٥٧) وبداية عام ١٩٥٨ تغير مجرى حياتي تماماً- انتميت إلى تنظيم البعث. أملاً في أن تكون الوحدة العربية سبيلاً إلى تحرير فلسطين. وبعد سنتين ونيف وكنت أنهيت السنة الجامعية الأولى تزوجت. وفي العام ١٩٦٣- وقعت ثورة شباط في العراق- وآذار في سورية- ثم انقلبت علينا دنيانا- وكنت في السنة الرابعة الجامعية وأباً لطفلين. سجنت وتم إبعادي في الأول من آذار عام ١٩٦٤ إلى دمشق. هنا بدأ النضج واتضحت الإمكانية تدريجياً في اللاذقية- حيث تطوعت للتدريس في ثانوية المثنى هناك. كان الاحتكاك بالكتاب مباشراً- وخاصة المرحوم هاني الراهب الذي كنا نتمنى لقاءه بعد أن قرأنا في بغداد روايته الأولى (المهزومون).. ومن اللاذقية بدأت مسيرتي الأدبية الفعلية.

- قص علي معاناتك في مخيم على الحدود العراقية الأردنية.. وهل تركت هذه المعاناة رصيداً لعمل أدبي أنتجته أو ستنتجه؟

• في عام ٢٠٠٣ وبعد احتلال العراق- قررت ترك بغداد والعراق- وتوجهت إلى- الحدود الأردنية العراقية تصحبني زوجتي العراقية أيضاً ـــ لم يسمح لنا بدخول الأردن أول الأمر. فنزلنا في مخيم (بين الحدين)- المقام لصق الكرامة الأردني- ويسمى (أرض لايملكها أحد) المفارقة: أن الخيمة كأنها قدر الفلسطيني. حين كنت في الخامسة والنصف من العمر وخرجنا من فلسطين لم أقم في خيمة- لا في (جنين ولا في العراق)- ظلت الخيمة تلاحقني إلى أن بلغت الستين من العمر المفارقة الثانية أننا- في المخيم- أنجبنا توأمين (ذكراً وأنثى)- فكانا من أب وطنه احتله الصهاينة ومن أم وطنها احتله الأمريكان مكثنا ستة أشهر إلا يوماً واحداً فقط ـــ المخيم عالم كامل- من البشر إلى الحيوانات إلى المناخ إلى الرمال إلى السلوك إلى (الضبط والربط) وأهم من هذا كله أنه (جامعة للعلاقات الإنسانية) وذا ما جعلني أكتب أكثر من مرة التجربة- كانت تجربة ثرية وعميقة جداً- ومذهلة وقد تصل إلى (ما لايمكن تصديقه) ـــ الآن أنا في خضم العمل الذي يحمل عنوان (المخيم)- وهو الجزء الأول من (تغريبتي السادسة)- أو تصدق؟ في المخيم كان ثمة (الخيمة الطبية اليابانية) وتعرفت هناك إلى مجموعة من -مناصري أطفال فلسطين والعراق وبعد أن دخلنا إلى الأردن زارونا ثلاث مرات- وسألني الياباني- ميكي- إن كنت كتبت التجربة فقلت له إنني أحاول ولسوف أكتبها. قبل ثلاثة أيام (في ١٩ من شهر تشرين الأول- ٢٠٠٨) جاءني الصديق وبصحبته امرأة ورجل- المرأة (مغنية يابانية) جاءت تغني للأطفال المرضى بالسرطان في سورية- والآخر مترجم- وأكدا أنهما يريدان الرواية لترجمتها إلى اليابانية وعدتهما أن يتسلما المخطوطة في نهاية شهر كانون الثاني- يناير- ٢٠٠٩ بعون الله؟

- ما هي كتبك التي أصدرتها في سورية وفي العراق؟

• أصدرت في سورية: (والخيبة أيضاً)- مجموعة قصص في عام ١٩٦٥ وكذلك رواية (الطريد) عام ١٩٦٦- ومسرحية (نهار خليلي ١٩٧٠) ومسرحية (التصفية) ١٩٧٢- كما أصدرت مجموعة (طقوس لقتل الحبيب)- بدمشق عام ٢٠٠٤- عن اتحاد الكتاب العرب في العراق أصدرت روايات (أنت خط الاستواء) ١٩٨٢- المغارة (١٩٨٥) -(الخروج من جوف الحوت) ١٩٨٨. (العناق) ١٩٩٠- (ولكن شبه لهم)١٩٩٥ - (القسمة على واحد ١٩٩٩) ونشرت في لبنان رواية (شمس الكرمل) عام ١٩٨٠- ومجموعة (إن كنت الليلة وحيدا ١٩٧٧) وفي بغداد مسرحية (أبو الأمين الخليع والجارية شموس ١٩٧٨) ونشرت في الأردن روايتين هما (الحب في المحرقة) ٢٠٠١ و(غيبوبة الجسد) ٢٠٠٥.

- إلى أي حد تعتبر نفسك كاتباً فلسطينياً.. بمعنى ما هو تأثير قضية العرب المركزية على أدبك؟ والقدس بشكل خاص

• أنا فلسطيني- وما أنا فيه نتاج كوني فلسطينياً- احتل الغرباء وطني واستولوا على أرضي- وبيتي وبستاني- وما أعاني منه أنا أو أشقائي وشقيقاتي وأولادي كله نتاج الاغتصاب الصهيوني لفلسطين أنا إذاً أحمل ثقل أخطر وأعقد قضية في التاريخ الإنساني كله- دون مبالغة فكل ما أنتجه وما أكتبه هو ابن القضية ولها وفي سبيلها- وإذا كان الإنسان يتعاطف مع قضية ما كونه إنساناً- فأنا فلسطيني- عربي- مسلم وإنسان- أي أنا صاحب القضية من كل وجوهها- وأصدقك القول إن كل ما كتبت هو فلسطيني حتى إن كان عن إنسان أو عن حيوان أو طير ما- كما أنني قدمت روايتين هما بحق أقول الآن التوثيق الحقيقي والفعلي لحياة الفلسطينيين في العراق لم ينل هؤلاء حقهم من الانتباه إلا اليوم ولكنني كتبت عن معاناتهم وحياتهم بكل صدق وبقوة من خلال روايتي (المغارة- والخروج من جوف الحوت). أما القدس فهي جزء حيوي من فلسطين- كل فلسطين مقدسة وقضيتي- والقدس لب القضية لأنها العاصمة ولأنها (القدس) مسرى النبي العربي ومهد السيد المسيح- وفيها درب الأمة أيضاً. إنها رمز البحث عن العدل وعن السلام وهي مقررة (السلام العادل) من عدمه.



- تعلم أن هذا العام (٢٠٠٩) هو عام القدس

عاصمة للثقافة العربية، فما هو رأيك؟ ألا ترى في هذه الاحتفالية حفاوة عربية بالقدس وتاريخها العربي، أو رداً على محاولات تهويدها؟

• لقد كتبت عن الموضوع خلال العام الراهن مرتين في جريدة الثورة (الغراء)- آخرهما في شهر تشرين الأول ٢٠٠٨. ما أعنيه هنا هو ضرورة أن يكون العام المقبل عاماً للقدس ولفلسطين عربياً ودولياً. القدس محتلة والنشاطات ستكون رهناً بموافقة أو رفض المحتل. هذا من جهة ومن ناحية مهمة جداً أقول: إن احتفالية القدس عربية فلسطينية إسلامية إنسانية، وبالتالي فعلى المعنيين الفلسطينيين تقع مسؤولية ملء أيام العام بالنشاطات التي يسهم فيها الفلسطينيون، بالدرجة الأساس- شعراء وقاصين ومسرحيين ورسامين.. إلخ- وفي أمكنة تواجدتهم وفي الأمكنة التي يستطيعون الوصول إليها- في دنيا العرب والمسلمين وأرجاء الأرض وأنصح منذ اليوم للمرة الألف أن ينأوا بأنفسهم عن الصغائر و أن يكونوا فلسطينيين- لا أن يتشرنقوا في ضيق الفصائلية والحركية والحزبية- فلسطين هي الأكبر والأقوى والأهم والأعظم والقدس هي الأقدس. أعرف أن مرض (الفصائلية) يشل أحياناً العمل الفلسطيني الوطني لذا أرجو أن يبعدوا هذا المرض عن نشاطاتنا في العام- وإلا فالتاريخ لن يرحم. أقول لهم (اخوتي: دعوا شيئاً لفلسطين.. لا تقولبوا كل شيء.. ولا تفصلوه كل على مقاساته، ليكن كل شيء على مقاس الوطن- القضية- الشعب) أما العرب فالقضية قضيتهم شاءوا أم أبوا- أدركوا أم لا. عليهم القيام بالواجب المقدس حيال أنفسهم- إنهم يدافعون عن أنفسهم وعن حقوقهم حين ينتصرون للقدس ولفلسطين. لذا آمل أن تكون النشاطات شاملة وعامة وفي العواصم والمدن العربية كلها. وأملي أن تكون حقيقة محاولة صهينة أو تهويد القدس حاضرة في الأذهان العربية عامة والفلسطينية خاصة- ليس في العام المقبل بل في كل حين أيضاً.

- ما رأيك بالحركة الثقافية في فلسطين، بشقيها المحتل والمحرر؟

• أقول الصدق أنا أنظر إلى فلسطين كلها من منطلق أنها كلها محتلة- القطاع محتل من وجوه عدة- ليس بينها الاحتلال المباشر- ولكن الاحتلال يفرض عليها الحصار وهو مستعد في كل حين لتدميرها وإحراقها وإعادة احتلالها.. كما أنني أقول إن فلسطين كلها تظل محتلة إن بقي أي جزء منها تحت الاحتلال الصهيوني. هذه وجهة نظري- إننا من عين حوض- إن عدت إليها وظلت مثلاً (الطيرة) تحت الاحتلال فلا أستطيع الزعم أنني في أرض محررة. أما المشهد الثقافي الفلسطيني فهو- بالتأكيد انعكاس للواقع الاجتماعي والسياسي الفلسطيني- من جهة- وللواقع العربي من جهة أخرى. أقول لك (نحن خلاصة الواقع العربي كله) لماذا؟ لأننا في واقع الأمر نعيش في الوطن العربي كله- في الدول والمدن والأمصار- الحركة الثقافية الفلسطينية تعاني الكثير- ليس من الاحتلال حسب- بل من الأمراض العربية الأخرى- ومنها عدم التواصل

المباشـر- منهـا أيضاً التعمـد في إفشاء الفراق والقطيعة- كما أن الحركة الثقافية الفلسطينية تعاني مما تعاني منه الحالة النضالية والفصائلية- الخلافات والاختلافـات والصراعات تقرأ منذ الصفحة الأولى فماذا أقول؟

- ما رأيك بالأدب الفلسطيني، وأين تضعه من أدب الشعب العربي؟

• الأدب الفلسطيني جزء من الأدب العربي- لأنـه نتاج الإنسان الفلسطينـي الذي هو إنسان عربي. لكن الأدب الفلسطيني يعاني (الإهمال)- إلى جانـب ما تفرضه الجغرافيـة من مصاعب الاتصـال- اضرب لك مثلاً: الروائي الفلسطيني جمهوره يجب أن يكون الشعب العربي الفلسطيني أولاً فمـاذا نقـول والشعـب المعنّـي متوزع في مشـارق الأرض ومغاربها؟ حتـى المسرح يراد له -(الاستقـرار)- أي أن يعرض في واقع مستقر.. الشعـب الفلسطيني في واقع غـير مستقر- هو مشتـت ومتشتت ومـوزع في الاتجاهات الأربعة في العـالم. الأدب الفلسطيني أنتج مبدعين كباراً في الشعـر والرواية تحديـداً: إن محمود درويش مدرسـة شعريـة عربية أيضاً هنـاك شعراء في الوطـن المحتل وهناك قاصون في الوطن المحتل: ما رأيك بجبرا إبراهيم جبرا مثلاً؟ ما يغل الأدب الفلسطيني هو الواقع الفلسطيني المحكوم عربياً وإقليمياً إلى جانب الأغلال الصهيونية الاحلالية والاحتلاليـة -عليه أرى ضرورة الاهتمام بالأدب الفلسطيني- إنه محروم مـن الدراسات النقدية الجادة وهو بالتالي محـروم من (خصوصيته) - التي لا أرى) أنها دائما (انحيازاً له) بقدر ماهي التعبـير عن اهتمام مركزي بـه كونه التعبير عن القضيـة المعقدة المقدسـة- قضية النضال ضد الاحتـلال وضـد الغصب والقهـر والاستلاب- والأدب الفلسطينـي ذو موقـع جوهـري ومهم في الأدب العربـي عموماً- ولكنـه ليس في هذا الموقـع عملياً أي على العـرب أن يفتحوا المجال ليس لنشـر الأدب الفلسطيني حسب بل لترجمة الجيـد منه إلى لغات العالم- إنه التعريف العملي المثير للمتلقي من حيـث إنه الصورة الجميلة إذ تعري القبح الأكيـد للظلم والاغتصاب ومن هنا تأتي أهميته.

- هـل تتمنـى العودة إلى فلسطين؟ بكلمة: هل أنت مع توطين الفلسطينيين أم ضده؟

• أنـا ضد التوطين على طـول الخط أنا مع عودة فلسطين- كلها إلى أصحابها الشرعيين- أي أنـا مع حق العودة وليس حق العودة فقط بل مع حق العودة مـع التعويض- يجـب تعويضنا عن آلامنـا ومعاناتنا نتيجة الاحتـلال- نحن نعاني منذ أكثر من ستين عاماً.. ولقد قتل منا عشرات الآلاف ومات منا الآلاف وهـم يحلمون بالحياة الطبيعية للإنسان في بيته وأرضه ووطنه كما أن المحتلـين تمتعوا – طوال هـذه العقود- بكل ما كان ليس لهم- تمتعوا بـالأكل والشرب والتنفس والاحتلال والإحلال والمصادرة وبالتالي إن عليهم أن يعوضونـا عن كل ما خسرناه نحن عليهم دفع غرامات أبدية ودائمة للمآسي التي سببوها لنا.

أما التوطـين فهو المؤامرة الكبرى للتصفية- ولكن رفض التوطين لايعني أن يبقى الفلسطينيون محرومـين مـن الانتقـال وحرية العمـل وحتى

التملك.. أقول لك أتظن أن الفلسطيني (الأمريكي أو البلجيكي أو السويدي) ليس فلسطينياً؟ أبداً إنهم يحلمون بالعودة إلى الوطن- أقول أيضاً مقولة رددتها كثيراً. فلسطين لاتقبل القسمة على اثنين- ولست أعني (محو أو طرد) كل اليهود من فلسطين- هناك يهود عرب ويهود فلسطينيون- أقول ليعد اليهود الغرباء إلى الأوطان التي جاءوا منها – ليس ثمة من حل- الصهاينة لن يقبلوا بحل (الدولتين)- إلا مرغمين وانتظاراً لظروف أخرى أحسن لهم كما أنهم لن يقبلوا بحل (الدولة) حتى لو قبل به الفلسطينيون لأنهم يدركون أن العامل الديمغرافي لصالح الفلسطينيين و في النهاية ستكون فلسطين (عربية) ذات أقلية يهودية.

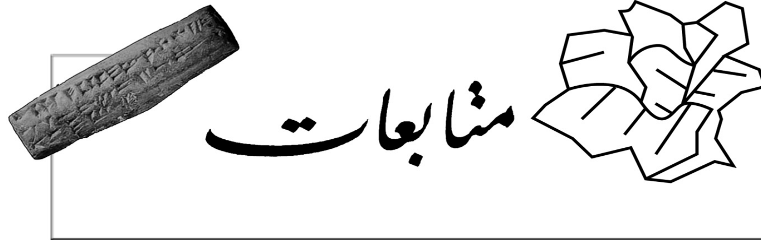
- من هم الأدباء الذين تقرأ لهم من العرب ومن الأجانب؟

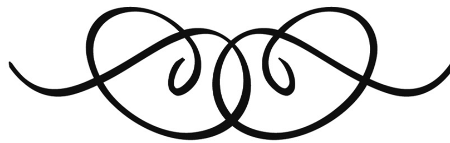
• ليس هناك أسماء بعينها. أقرأ ما يقع أمامي- فإن راق لي أتممه وإن لم يرق عفته أقرأ لأدباء أمريكا اللاتينية- واقرأ للعرب- من كل الأقطار- من أصل إلى إنتاجهم- بعد هذه الفترة من الانقطاع. أقرأ القصص القصار والروايات والشعر مع أنني في أوقات التأليف أنقطع كلية أحياناً عن قراءة القصة والرواية تحديداً. إلا أنني وإن وجدت شيئاً ذا قيمة التهمته بسرعة.

- هل يكفي ما تقبضه لقاء كتاباتك، وكيف تعيش؟

• ما أقبضه لقاء كتاباتي لايكفي على الإطلاق- فانا أعيل ثلاثة أطفال- كما أن الاحتلال الأمريكي للعراق قد حرمني- حتى الآن- من حقي في التعويض وفي (التقاعد)- لقد خدمت في العراق ربع قرن- وأضيفت خدماتي في سورية والكويت، إلى سنوات الخدمة فأضحت خمسة وثلاثين عاماً. لكن أقول لك: لايموت الإنسان جوعاً مادام يجاهد ويكابد. لو قلت لك إنني أحلم بيوم لا أكتب فيه أكذب عليك- ليس لكي أحصل على مكافأة بل لأن الكتابة حياتي كلها. وللحقيقة المظالم ترى. أتدري أنني ما عدت عضواً في (اتحاد الكتاب العرب) مع أنني من الذين كانوا في التأسيس عام ١٩٦٩؟ أو تدري أنني من مؤسسي اتحاد الكتاب الفلسطينيين منذ عام ١٩٦٦ في غزة؟ مع ذلك أعرف أن ثمة من بيننا- نحن الكتّاب الفلسطينيين- من يتلقى راتباً من (المنظمة أو السلطة الفلسطينية) شهرياً- من دون أن يكون موظفاً لديها- إلا بالاسم أو الدرجة الوظيفية التي تحدد له الراتب الجيد.

إنما سأبقى أكتب وأجالد وأجاهد إلى أن ألاقي وجه ربي. وثق أن الله هو الغني- وذا ما كنت قلته في مقالة وجهتها إلى اتحاد الكتّاب العرب- على صفحات جريدة الثورة قبل بضعة أشهر. والحمد لله أنني أعيش أفضل بكثير من كثير من الملايين من البشر- وإن كنت أظن أنني استحق الأفضل فلا يضيرني إطلاقاً أن أتلقى ما أظن أنه ليس يكفي أو هو أقل مما استحق. أحمد الله دائماً. وأرجوه أن يمن علي بالصحة لكي أواصل خدمة شعب أصعب قضية في التاريخ.


متابعات



متابعات



صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين *

القدس عاصمة الثقافة العربية

هذا العام سيكون عام الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية، حيث لن يقتصر الاحتفال بها على الفلسطينيين والمدن الفلسطينية، بل سيمتد ليشمل العواصم والبلدان العربية، نظراً لما للقدس من مكانة خاصة، ولما

* كاتب وباحث في التراث العربي (سورية)



لهـذه الاحتفاليـة من قيمـة رمزية ودلالة وطنية وقومية.

وفي هـذا المنحـى كان وزراء الثقافة العرب وافقـوا بأن تكون مدينة القدس هي عاصمـة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، وذلك خلال الدورة الخامسة عشر لمؤتمرهم الذي انعقد في مدينة مسقط بسلطنة عمان أواخر عام ٢٠٠٦.

ونظـراً لما تعانيـه دولـة فلسطين من حصار وتعانيه مدينـة القدس من حملات صهيونية خبيثـة لتهويدها ومحـو تاريخها العربـي طالب وزيـر الثقافـة الفلسطيني آنـذاك الدكتور عطـا الله أبـو السبح أن تتقاسم الدول العربيـة فعاليات ونشاطات الاحتفاء بالقدس وتقام في الأقطار العربية جميعا كما في الأراضي الفلسطينية وأيضاً أن يتم الاحتفاء بها خـارج المنطقة العربية وذلك تأكيداً على عروبة القدس.

وكان مؤتمـر وزراء الثقافة العرب قرر إصدار كتـاب حول موقـع «مدينة القدس وأسوارهـا» المسجـل علـى قائمـة التراث العالمي من قبل المملكـة الأردنية الهاشمية عـام ١٩٨١ وعلـى قائمة الـتراث العالمي المهدد بالخطر عـام ١٩٨٢ باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والإسبانية، وتوزيعه على نطاق أوسع.

وتقـدم المؤتمر ببيان لمنظمـة اليونسكو طالب فيه برفض إدراج إسرائيل موقع القدس على قائمتها التمهيدية لمواقع التراث الثقافي العالمي وقال الوزراء العرب في بيانهم: «نعبر عن أسفنـا الشديد لظهـور ذلك في وثيقة رسميـة لليونسكو لما فيها مـن تعارض مع قرارات الشرعية الدولية المتمثلة في قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن التي تقر بأن القدس أرض محتلة، ومخالفة لكافة المواثيق والاتفاقيات الدولية بما فيها اتفاقية التراث العالمي التي أقرهـا المؤتمر العام لليونسكو عـام ١٩٧٢ »كمـا طالب المؤتمـر في بيانه لليونسكو إسقاط مدينة القدس وكافة المواقع الفلسطينية من القائمة الإسرائيلية التزاما بالقـرارات الدولية التي تؤكـد أن إسرائيل تحتل أراض فلسطينيـة وعربية، وفي نهاية البيـان طالبوا منظمـة اليونسكو ومديرها العـام بالالتزام بقـرارات الشرعية الدولية

وتجسيدها في اجتماعاتهم ووثائقهم.

وفي هذا الإطار شدد المؤتمر أن تهتم العواصم العربية بالتغطية الإعلامية اللازمة في هذا الشأن والتنسيق فيما بينها وبين بعضها البعض من أجل تفعيل الدور الإعلامي اللازم للتعريف بالحقوق العربية والثقافية مستخدمة في ذلك كافة الوسائط الإعلامية من مقروءة، ومسموعة ومرئية.[1]

مؤتمر القدس السادس:

دعا المشاركون في اختتام أعمال مؤتمر القدس السادس الذي عقد في الدوحة عاصمة دولة قطر كافة مكونات الأمتين العربية والإسلامية من أجل توحيد الصفوف للدفاع عن القدس الشريف، وصد الخطط الإسرائيلية الرامية لطمس معالمها، والتحذير من تداعيات حملات التهويد الجارية في المدينة، وأكدوا على ضرورة توحيد صف الأمة وخاصة الصف الفلسطيني من أجل الذود عن القدس الشريف.

وشدد المتحدثون في المؤتمر، وفي مقدمتهم رئيس مجلس أمناء مؤسسة القدس العالمية الشيخ يوسف القرضاوي ونائبه الإندونيسي محمد نور هداية محمد والمطران عطا الله حنا، على أن الدفاع عن القدس واجب الأمة جمعاء وواجب أحرار العالم كافة، في ذات الوقت جدد رئيس مجلس أمناء القدس دعواته كافة الفصائل الفلسطينية من أجل نبذ الخلافات، وتحقيق المصالحة الوطنية من أجل حشد كافة الطاقات لمقاومة الاحتلال على جميع الجبهات.

وكانت فعاليات المؤتمر قد تضمنت عقد ندوة تناولت الأوضاع بمدينة القدس في ظل ممارسات الاحتلال الإسرائيلي ومعاناة المقدسيين في مجالات الصحة والتعليم، وتداعيات وآثار الحفريات الإسرائيلية على مقدسات المدينة، وفي تلك الندوة دحض عالم الآثار الفلسطيني رائف نجم الخلفيات التاريخية والدينية التي تستند عليها تل أبيب لتبرير ما تقوم به من حفريات في القدس الشريف بشكل يهدد هوية ومستقبل المدينة، وأثار المطران عطا الله حنا المخاطر الإسرائيلية التي تهدد أيضا المقدسات المسيحية في القدس، داعيا إلى إنشاء جبهة

إسلامية مسيحية مشتركة للدفاع عن المدينة ومخاطبة العالم بلغة واحدة في ذلك الباب.

وكان المؤتمر أصدر بياناً ختامياً أكد فيه ضرورة استنفار الهمم لمواجهة التهديدات التي تتعرض لها المقدسات الإسلامية والمسيحية، وخصوصاً المسجد الأقصى المبارك، وطالب الحكومات العربية والإسلامية بإعطاء مسألة القدس ما تستحق من أهمية، وألا تتعامل معها وكأنها شأن فلسطيني، داعيا المنظمات الدولية المعنية بحماية التراث الروحي والحضاري والثقافي الذي تزخر به القدس، مستنكراً الحفريات الجارية تحت المسجد الأقصى، ولاسيما في المنطقة الجنوبية والغربية منه، إضافة إلى الاعتداء على مقبرة الرحمة، شرقي المسجد ومحاولة فرض الطابع اليهودي عليها، والتدخل المباشر في عمل دائرة الأوقاف الإسلامية وفي حركة المصلين، ودعا المؤتمر الجماهير العربية والإسلامية إلى تكثيف تحركها لمناصرة القدس، كما دعا الحكومات العربية والإسلامية للعمل وفق استراتيجية واضحة، يكون فيها المس بالثوابت الفلسطينية وعلى رأسها قضية القدس وهويتها ومقدساتها، وخصوصاً المسجد الأقصى خطاً أحمر لا يجوز تجاوزه.

وجاء في بيان المؤتمر أن الإعلان عن القدس عاصمة للثقافة العربية لسنة ٢٠٠٩، يعد تحدياً حقيقياً أمام الأمة العربية، بكل أطيافها ومكوناتها، الرسمية والشعبية، إذ أضحت الأمة أمام اختبار عملي تترجم فيه تقديرها للقدس، وتثبت من خلاله أنها أمة تستحق القدس، وأن القدس عاصمة عالمية لحوار الثقافات، ولقيم الخير والتسامح والعطاء، لذا فإن المؤتمر يدعو إلى تنظيم أوسع للفعاليات الثقافية الرسمية والشعبية، وإلى أكبر مشاركة في هذه الفعاليات، التي ستقام في مختلف العواصم العربية من أجل القدس.

كما دعا المؤتمر المجالس النيابية العربية والإسلامية لتشكيل لجان للقدس وفلسطين، وتفعيل دور هذه اللجان، للقيام بما يتناسب مع حجم المخاطر التي تحيق بالقدس وفلسطين، ودعا المؤتمر السلطة الفلسطينية إلى مواجهة ما يجري في القدس

والمسجد الأقصى، وإلى وقف اللقاءات والاجتماعات مع الجانب الإسرائيلي، بعدما أثبتت التجربة عدم جدواها.

وأكد بيان المؤتمر على ما ورد في إعلان اسطنبول التاريخي، الصادر في ١٧ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧، ولاسيما إدانة الممارسات الاستيطانية العنصرية التي تستهدف محو معالم القدس وتهويدها، وأكد المؤتمر على حق العودة للاجئين والنازحين والمهجرين باعتباره حقاً لا يمكن المساومة عليه أو التنازل عنه، وعلى وقف كل أشكال التطبيع مع الصهاينة، وإلى إطلاق الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وأن تتحمل جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والأمم المتحدة مسؤولياتها في هذا الإطار.

ودعا البيان كافة جهات الاختصاص والقطاعات المهنية والأكاديمية للقيام بدورها في دعم صمود أهلنا في القدس، وثباتهم على أرضهم، والمحافظة على هوية القدس وتراثها الحضاري، وينوه إلى الأدوار الكبيرة المنشودة من العلماء، والحقوقيين، والإعلاميين، والتربويين، والأدباء والكتاب، والمؤرخين، ومؤسسات المجتمع المدني، حتى تكون قضية القدس حاضرة على جميع المستويات الشعبية والمنابر الدولية، وفي مناهج الدراسة والتعليم. (٢)

أسماء القدس تؤكد عروبتها:

تؤكد الأسماء التي أطلقت على القدس منذ أقدم العصور وحتى اليوم هويتها العربية بالرغم من كل أشكال التضليل والإدعاءات الصهيونية التي لا سند لها ولا مصداقية تاريخية.

وأول اسم عرفت به القدس، هو الاسم الذي سماها به سكانها الأصليون «الكنعانيون» وهو «يرو-شاليم» أو «يرو - شلم» وشالم وشلم اسم لإله كنعاني معناه السلام، وقد ورد أول ذكر لمدينة القدس كتابة في الوثائق التي عثر عليها في «إيبلا- تل مرديخ في شمال سورية، وهي وثائق ترجع إلى أواسط الألف الثالث ق.م، وترد فيها أسماء عدة مدن منها - سالم- التي يرجح البعض أنها تشير إلى القدس.

أما أول اسم ثابت لمدينة القدس فهو

«اوروســالم» أو «اوروشالم» وقد ورد ضمن ما يسمــى بنصوص اللعنة، التــي تذكر أسماء البلــدان والمدن والحكام الذيــن كانوا فيما زعم من أعداء مصر، وكانت العادة هي كتابة أسماء الأعــداء علــى الأواني الفخارية ثم تحطيمها في أحد طقوس السحر التأثيري، وثبت أن تاريخ تلــك الأواني يرجع إلى فترة حكم الفرعون «سيزوسترس الثالث ١٨٧٨- ١٨٤٢ ق.م» وكانت كلهــا أسماء تسع عشرة مدينة كنعانية من بينها اوروسالم.

وهناك من يذهــب في أصل أوروسالم أو اوروشــالم إلى أن الاســم مكون من مقطعين «سالم أو شــالم» وهو إسم إلــه، وأورو: وهي كلمــة تعني أســس أو أنشــأ، فيكون معنى الاســم «اوروســالم» أسسهــا ســالم، ويعتبر الاسم اسماً عموريــاً، بدليل أن أول اسمين لأميريــن تاريخيين مــن القدس هما: «باقر عمــو» و«سزعمو» وهما اسمــان عموريان، والعموريــون هــم سكان كنعــان الأصليون، ولغــة العموريين تدعــى غالبــاً الكنعانية، كما أن اســم الكنعانيين يشمــل العموريين أحيانــاً، وعليه فــإن تسميــة أورشليم التي يحاول الصهاينة اليــوم عدها من الأسماء العبرية هي في الحقيقة كلمة كنعانية عربية أصيلــة، وكيف تكون كلمــة أورشليم عبرية واللغة العبريــة لغة حديثة جــداً ولدت في القرن الرابع ق.م وتبلورت في القرن الخامس الميلادي وبعده؟!.

وبعد نصوص اللعنــة بحوالي خمسمئة عــام ظهر اسم جديد للقدس هو: اوروسالم، وذلــك فيما يعرف بألواح تل العمارنة، وهي ست رسائل بعث بهــا «عبدي خيبا» - ملك أوروســالم في القرن الرابــع عشر ق.م - إلى فرعون مصــر «اخناتــون» إضافة إلى ذلك فقــد ذكــرت «سليمو أو ســالم» في سجلات «سنحاريــب» ملك أشــور ضمن عداد المدن التي تدفع له الجزية، وقد ظل اسم أورشليم شائعاً منذ ذلــك العهد إلى يومنا هذا ومنه جاء الاسم الإفرنجي «جيروزاليم».

إلى جانب تلك الأسماء فقد حملت القدس اسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين، وهم فرقة من الكنعانيين سكنــوا القدس وحولها، وفي هذه الفترة أخــذ اسم«يبوس» و«اليبوسيين» يظهر في الكتابــات الهيروغليفية، ويبدو أن

اليبوسيين قد تلو العموريين في سكنى المدينة خــلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م، وأطلق على القدس اسم «يبوس» وهو الاسم الثاني لمدينــة القدس بعــد أورشاليم، وقد سماها الفراعنــة في كتاباتهم الهيروغليفية «يابيثــي» و«يابتي» وهو تحريف لاسم يبوس الكنعاني.

ويقــال: إن اليونانيــين سموهــا - هروسوليما- ولكــن مؤرخهم «هيرودوتس» سماهــا «قديســ» كما سمعها مــن سكانها العرب المعاصرين له، وفي زمن الرومان بدل الإمبراطور «هادريــان» اسم مدينة أورشليم بعــد أن استولى عليهــا ودمرها عام ١٢٢م، وأطلق عليها اســم «إيليا كابيتولينا» وصدر الاسم إيليا لقب عائلة هادريان، وكابيتولين جوبيتر هــو الإله الرومــاني الرئيس، وظل اســم «إيليا» سائداً نحو مئتــي سنة، إلى أن جاء الإمبراطور «قسطنطــين» المتوفى عام ٢٣٧م، وهــو أول مــن تنصــر مــن أباطرة الرومان - فألغى اســم إيليا وأعاد للمدينة اسمهــا الكنعاني، لكن اســم إيليا شاع وظل مستعملاً، كما نجد ذلك في العهدة العمرية والشعر العربي.

وبعــد الفتح الإسلامــي أطلق على هذه المدينــة أسمــاء: القدس، وبيــت المقدس، والبيت المقدس، ودار السلام، وقرية السلام، ومدينة السلام. (٣)

العهدة العمرية:

هــذا مــا أعطى عبــد الله عمــر أمير المؤمنين، أهل ايلياء، مــن الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمهــا وبريئها، وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهــم، ولا تهــدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها،ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهــم، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهــود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منها فإنه آمــن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومــن أقام منهــم فهو آمن، وعليــه مثل ما على أهل ايليــاء من الجزية، ومن أحب من أهل إيليــاء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيعهــم وصلبهم فإنهــم آمنون على أنفسهــم وعلى بيعهم وصلبهــم حتى يبلغوا

مأمنهـم، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء مـن الجزية، ومن شاء سار مع الـروم ومن شاء رجـع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتـى يحصد حصادهم، وعلى مـا في هذا الكتاب عهـد الله وذمة رسوله،وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

وقـد شهد على هذا العهـد الذي كتب سنة خمس عشرة للهجرة وحضره خالد ابن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.[٤]

الأقصى ومساجد القدس القديمة:

يرى الباحثون في تاريخ المسجد الأقصى أن هذا الاسم يشمل كل ما دار حوله السور الواقع في أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة القدس القديمة المسورة بدورها، وبذلك فهو يشمـل: قبة الصخرة، والجامع القِبْلِـي، فضـلاً عن نحـو ٢٠٠ معلم آخر تقـع ضمن حدود الأقصى، ما بين مساجد، ومبان، وقبـاب، وأسبلة ميـاه، ومصاطب، وأروقـة، ومدارسـ، وأشجـار، ومحاريب، ومنابر، ومآذن، وأبواب، وآبار، ومكتبات.

ومع الفتح الإسلامي للقدس عام ٦٣٦م (الموافق ١٥ للهجرة)، بنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجامع القبلي، كنواة للمسجد الأقصـى، وفي عهد الدولـة الأموية، بنيت قبة الصخرة، كما أعيد بناء الجامع القبلي، واستغـرق هذا كله قرابـة ٣٠ عاما من ٦٦ هجريـة ٦٨٥/ ميلادية - ٩٦ هجرية/٧١٥ ميلاديـة، ليكتمل بعدهـا المسجد الأقصى بشكلـه الحالي، الذي يرجـع إلى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليـد اللذين أعادا بناءه في الأعوام ٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥- ٧١٥م، حيث أقـام الخليفة الأمـوي عبد الملك بن مـروان بين عامـي ٦٦ . ٨٦ هجري / ٦٨٥ . ٧٠٥ قبة المسجـد الأقصى على شكل قبة ذهبية عظيمة فوق أعلى صخرة في المسجد الأقصى المبـارك، تقوم علـى مبنى مثمن الشكل.

وقد تعرض المسجـد الأقصى منذ عام ١٩٦٧ لاعتداءات إسرائيلية مستمرة بحجة المزاعم الإسرائيلية الكاذبة التي يدعون بها أن المسجـد الأقصى المبارك بني في موضع مـا يسمى بالمعبد/ الهيـكل اليهودي، حيث

تقوم قوات الاحتلال وأفواج المستوطنين الإسرائيليين والجماعات اليهودية المتطرفة بالاعتداء على حرمة المسجد والمصلين فيه، وحرق جزء منه، ومحاولة تفجيره، وتخريبه أكثر من مرة، والاستيلاء مثل: باب المغاربة، وحائط البراق، ومحاصرة المصلين من الوصول إليه، وشق الحفريات والأنفاق تحت أساساته، ما أدى إلى تصدع أجزاء منه، ومنع محاولات ترميمه، وإعادة بناء ما تصدع منه.

وإلى جانب الأقصى ثمة مئات المساجد القديمة التي تزخر بها مدينة القدس، تعاني ما يعاني منه الأقصى من اعتداءات إسرائيل المتكررة عليها ومن أشهر هذه المساجد: مسجد الشوربجي، مسجد النبي داود، مسجد المئذنة الحمراء، مئذنة باب المغاربة، مئذنة باب السلسلة، مئذنة باب الغوانمة، مئذنة باب الأسباط، مسجد قبة موسى، مسجد باب حطة، مسجد كرسي سليمان، مسجد المغاربة، مسجد باب الغوانمة، مسجد دار الأمام، مسجد خان الزيت، مسجد سلمان الفارسي، مسجد رابعة العدوية، مسجد الطور، مسجد القلعة، مسجد الحنابلة، مسجد عكاشة، مسجد سويقة علون، مسجد الخانقاه، مسجد الخالدية، مسجد اليعقوبية، مسجد البراق، مسجد خان السلطان، مسجد القرمي، مسجد الكريمي، مسجد العلمي، مسجد بني حسن، مسجد حارة الأرمن، مسجد الشيخ لولو، مسجد حارة النصارى، ومسجد البازار، مسجد المسعودي، مسجد الشيخ جراح، مسجد حجازي، مسجد المطحنة، مسجد المولوية، مسجد الشيخ ريحان، المسجد الأفغاني. (٥)

الحفريات الإسرائيلية تحت الأقصى:

حذرت وزارة الأوقاف في الحكومة الفلسطينية من أن تؤدي شبكات الأنفاق والحفريات الإسرائيلية الجارية تحت أساسات المسجد الأقصى إلى انهيار المسجد بشكل كامل.

وقالت الوزارة في تقرير لها إن «المسجد الأقصى يتعرض إلى أكبر عملية استئصال وتهويد، وسلطات (الاحتلال الإسرائيلي) تزيد يوما بعد يوم من حجم وعدد الأنفاق وتواصل أعمال الحفريات تحت أساسات

المسجد بهدف هدمه وإقامة الهيكل المزعوم»، وأضافت أنه «في أقصى شارع الواد في البلدة القديمة في القدس يقع حمام العين أحد الأبنية الإسلامية الوقفية القريبة من الجدار الغربي للمسجد الأقصى واستولت سلطات الاحتلال على المبنى وبدأت منذ نحو سنة ونصف ببناء كنيس يهودي لا يبعد سوى ٥٠ مترا عن المسجد الأقصى المبارك وفي نفس الوقت كانت حفريات عميقة ومتسعة تنفذ أسفل حمام العين».

وأكدت الوزارة وقوع عدة انهيارات خلف مبنى حمام العين (الكنيس اليهودي) الخميس ٢٠٠٨،/٢/٢٨ ما أدى إلى إحداث حفرة عميقة على مدخل أحد البيوت المقدسية، «حيث أشار شهود عيان لموقع الانهيار إلى وجود حفريات واسعة ومتشعبة لاتجاهات متعددة وبأعماق متفاوتة كلها تسير باتجاه المسجد الأقصى المبارك»، وتحديداً نحو منطقة باب المطهرة الواقع في حدود المسجد الأقصى المبارك من الجهة الغربية.

وقد كشفت مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية، عن معلومات جديدة حول الحفريات الإسرائيلية أسفل وفي المحيط الملاصق للمسجد الأقصى وتداعياتها الخطيرة على المسجد الأقصى، وأشارت المؤسسة إلى أنَّ الحفريات تصاعدت حدتها في السنوات الأخيرة، فقد انهار جزء من طريق باب المغاربة مطلع عام ٢٠٠٤.

وكشف رئيس الحركة الإسلامية الشيخ رائد صلاح عن كنيس يهودي ومبنى قافلة الأجيال العبريّة أسفل المسجد الأقصى مطلع عام ٢٠٠٦. وفي مطلع عام ٢٠٠٧ بدأت المؤسّسة الإسرائيليّة بهدم طريق باب المغاربة وغرفتين من المسجد. وفي مطلع عام ٢٠٠٨ تمَّ الكشف عن نفق جديد بطول ٢٠٠ متر ملاصق للجدار الغربي للمسجد يربط بين ساحة البرّاق والكنيس اليهودي، وتبعه كشف لنفق في قرية سلوان جنوب المسجد طوله ٦٠٠ متر يحفر تحت بيوت حيّ وادي حلوة في قرية سلوان ويصل إلى الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد.

وكان الشيخ رائد صلاح رئيس الحركة الإسلامية في الداخل، قد نبه إلى مخاطر الأنفاق التي تقوم إسرائيل بحفرها تحت

المسجد الأقصى، وناشد العالمين العربي والإسلامي إنقاذ المدينة من التهويد والأقصى من الهدم، موضحاً أنه لا يمكن أن يقبل أن يقف الكل موقف المتفرج والتعويل على الحاضر الفلسطيني فقط، وعن واقع الحفريات قال الشيخ صلاح:«الحفريات تجري الآن في «حمام العين» وهو أحد الأبنية الإسلامية الوقفية، القريبة من الجدار الغربي للمسجد الأقصى، حيث استولت المؤسسة الإسرائيلية على المبنى وبدأت نحو سنة ونصف ببناء كنيس يهودي لا يبعد سوى ٥٠ مترا عن المسجد الأقصى المبارك. (٦)

من المقدسات المسيحية في القدس:

تحفل مدينة القدس بالمباني الأثرية الإسلامية والمسيحية، ومن أهم المقدسات المسيحية فيها:

كنيسة القيامة: التي تحتوي على قبر السيد المسيح، كما تحتوي على قبور يوسف الراعي وأسرته، وأول من بنى الكنيسة كانت الملكة «هيلانة» عام ٣٣٥م، بعد اكتشاف الصليب الذي صلب فيه السيد المسيح في نفس الموقع، وفي عام ٦١٤ م احترقت الكنيسة على يد الفرس ليعيد بناءها الراهب «مودستوس» بعد عامين من الحريق، لكنها تعرضت لحريق آخر في عهد «الإخشيدي» سلطان مصر عام ٩٦٥م، وتم إعادة إعمارها عام ١٠٨٩م، ثم هدمت بكاملها وبنيت مرة أخرى حتى جاء الصليبيون فأجروا عليها الترميمات اللازمة، ووحدوا أبنيتها ومعابدها وجمعوها في بناية واحدة.

وفي عام ١٨٠٨م أتى عليها حريق كبير دمر جوانب فنية عديدة، حيث رممت فيما بعد، وفي عام ١٨٤٣م ضربها زلزال كبير فيما تعهدت فرنسا وروسيا آنذاك بتمويل نفقات تعميرها على أن يتم ذلك تحت إشراف السلطات العثمانية، وتبع ذلك زلزال آخر عام ١٩٢٧م أثر على أساساتها مما حذا بسلطات الانتداب البريطاني بوضع دعامات حديدية وخشبية لحمايتها من الكوارث الطبيعية.

درب الآلام: وهو طريق يعتقد أن «السيد المسيح» قد سلكه حاملاً صليبه عندما ساقه جنود الرومان إلى موقع صلبه، ويتكون

درب الآلام مـن ١٤ مرحلة تبدأ من مدرسة راهبـات صهيون حيث الموقـع الذي أصدر منه الحاكم الروماني «ثيوش» حكمه بصلب السيد المسيح، وتتجه غرباً إلى منطقة الواد، وعقبـه المفتى ثم عبر الطريـق الذي تصل الوادي باب خـان الزيت معقبـة الخانقاه لتصـل إلى القبر المقدس في كنيسة القيامة، وعلـى درب الآلام وقـع المسيح مغشياً عليه عدة مـرات بفعل التعذيب الذي لاقاه وثقل الصليب الذي كان يحمله.

كنيسة سيدتنا مـريم: وتقع الكنيسة في وادي قدرون في مـكان متوسط بين سلوان وجبـل الزيتون وبـاب الأسبـاط، وتحتوي الكنيسة علـى قبور «مريم البتول» ووالديها وكذلـك قبر يوسف النجـار، وقد بنيت بين عامي ٤٥٠-٤٥٧م.

كنيسة القديسة حنـة الصلاحي: وتقع الكنيسة شمالي الحـرم القدسي قرب باب الأسباط، حيث أتـى السيد المسيح في هذا الموقـع بإحـدى معجزاته، وقـد احترقت الكنيسـة إبان الغزو الفارسـي عام ٦١٤م، فأعـاد الصليبيون بناءهـا وتم تحويلها في عهد صـلاح الديـن الأيوبـي إلى مدرسة للفقهـاء الشافعيين، ثم استلمها الفرنسيون من السلطان «عبـد الحميد العثماني» عام ١٨٥٥م فأنشؤوا بها مدرسة.

كنيسـة الجثمانية: وتقع هـذه الكنيسة في المنطقـة بين سلوان وجبـل الطور وباب الأسبـاط كنيسة «سيدتنا مـريم» وكان قد بناها اللاتين عـام ١٩٤٢م، حيث يعتقد أن الموقع شهد عملية القبض على السيد المسيح عندما وشى به «يهوذا الاسخريوطي».

دير كنيسة العلية: ويقع هذا الدير على قمة جبـل صهيون بالقرب من باب الخليل، ويعتقد بعض المسيحيين أن «السيد المسيح» تناول وأتباعه في الدير عشاؤهم الأخير.

كنيسـة الصعود: وقد بنيـت على جبل الزيتـون في المكان الذي يعتقـد أن «السيد المسيح» صعد منه إلى السماء.

قبر البستان: ويقع شمالي باب العامود، وقد حفـر القـبر في الصخرة علـى هيئة جمجمة أصبحـت مزاراً مسيحياً وسياحياً، حيث تعتقد طائفة من البروتستانت أن السيد المسيح صلب في حديقة تقع على مقربة من

تلة كان اليهود يرجمون فيها المحكومين ويصلبونهم، ويلقون بجثثهم منها إلى واد قريب، ويعتقدون أنه هو هذا المكان.

ومن المقدسات المسيحية الأخرى نشير إلى الكنائس والأديرة التالية التي يقع أغلبها داخل السور، وهي: دير أبونا إبراهيم، دير مار يوحنا المعمدان، دير العذراء، دير قسطنطين، دير الثبات، عيسى المسيح، دير ماركرا لامبوشن، دير السيدة، دير العدس، دير مارجرجس، دير الأرمن، دير مارميخائيل، دير مار ديمتري، دير مار نقولا، دير مارتا.

ومما هو خارج السور منها نذكر المواقع الآتية: دير اليعازر، دير أبي ثور، دير القديس أنوفريوس، دير القطمون، دير الجليل، دير مار الياس، دير المصلبة، دير مار سابا، دير المخلص، المسكوبية، كنيسة نياحة العذراء.(٧)

سرقة التراث الفلسطيني:

إلى جانب سرقتها الأرض وتزويرها التاريخ، تعمل إسرائيل من طرف آخر على طمس معالم الهوية الفلسطينية، وسرقة التراث الفلسطيني، ومحاولة نسبته لها في أكبر عملية تضليل للرأي العام الدولي، وفي شبه غفلة من المؤسسات الثقافية العربية والدولية، ويرى كل متتبع أن السرقات الإسرائيلية تطال كل ما يعبر عن الهوية والتراث الفلسطيني، وقد شمل ذلك:

- سرقة الأدوات الفخارية والزجاجية التقليدية:

المستوحاة من تاريخ فلسطين وتراثها والتي أنتجتها ورسمتها أيد فلسطينية، وبيعها للسياح الأجانب على أنها تراث إسرائيلي، حيث أكد الدكتور إدريس جرادات، مدير مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي، أحد أبرز المهتمين بقضايا التراث والآثار في الأراضي المحتلة، أن مصنوعات الفخار التي يعرضها الإسرائيليون في متاحفهم ومتاجرهم هي من إنتاج عربي وبأيد فلسطينية انتقلت إليهم من أجدادهم الكنعانيين.

- سرقة الأزياء والملابس الفلسطينية:

ويؤكد الخبراء الفلسطينيون في هذا المجال أن الإسرائيليين ذهبوا إلى أبعد من مسألة العرض وتزوير الحقائق والتاريخ أمام السياح الأجانب، بارتداء الملابس التراثية

الفلسطينيـــة كما فعلت زوجـــة موشي ديان التي ارتدت في إحدى المناسبات العالمية ثوبا عربيا على أنه تـــراث إسرائيلي، وكما تفعل مضيفات شركة العـــال الإسرائيلية للطيران اللاتي يرتدين الزي التقليدي الفلسطيني.

واتهمت باحثة فلسطينية في مجال التراث الشعبـــي، إسرائيل بسرقة ثـــوب فلسطيني تقليدي، وانتحاله علـــى أنه ثوب إسرائيلي، حيث قالت مهـــا السقا مديرة مركز التراث الفلسطينـــي: بـــأن إسرائيـــل انتحلت ثوب عروس بيت لحم المعروف باسم (ثوب الملك) ووضعته في الموسوعة العالمية باسمها، مشيرة بأن إسرائيل سجلت الثوب باسمها في المجلد الرابع من (الموسوعة العالمية)، استمراراً لما وصفتـــه بنهجها في الاستيـــلاء على التراث الفلسطينـــي، مثـــل الملابس التـــي ترتديها مضيفات طائـــرات العال الإسرائيلية، وهي مـــن الـــتراث الفلسطيني وتقـــدم على أنها إسرائيلية.

-سرقة الآثار الفلسطينية:

مـــن جهة أخـــرى أكد عدنـــان أبو تبانة المحاضر بقسم التاريـــخ بجامعة القدس أن الاحتـــلال دأب علـــى نبش القبـــور وسرقة الآثـــار الفلسطينيـــة بصورة غـــير قانونية بهدف بيعها لجهـــات خارجية، وقام بتغيير الأسماء التاريخية للعديد من المواقع والقرى والمقتنيات والمكتشفـــات الأثرية، وقد حذر المختصون في مجال الآثـــار وتاريخ القضية الفلسطينيـــة من الحـــرب الصامتـــة التي يشنها الاحتلال لشطب الهوية الفلسطينية، وإحـــلال الهوية اليهودية الإسرائيلية مكانها بالموازاة مع ما يجري على الأرض من تهويد واستيطان وتغيير لمعالمها.

- سرقة الرموز الفلسطينية:

إلى جانـــب ذلك فإسرائيل متهمة بسرقة الرموز التراثية الفلسطينية الأخرى، ومنها الأطعمـــة الفلسطينية، حيث تنسب إسرائيل لنفسهـــا الحمصـــ، والفلافـــل، والمفتـــول (الكسكســـي) وتشـــارك في مسابقة عالمية سنويـــة في ايطاليـــا لأفضل طبـــق مفتول، وينافسها في نفس المسابقة الفلسطينيون.

- سرقـة شجرة الزيتـون والزهـور الفلسطينية:

وقد طالـــت سرقات إسرائيـــل الزهور الفلسطينية، حيث أكدت مصادر فلسطينية،

أن إسرائيـــل اختارت زهرة (قــرن الغزال) الفلسطينية، وشجـــرة الزيتون، لتمثيلها في حديقة الورود التي افتتحها الصين بمناسبة استضافتهـــا للألعاب الأولمبيـــة وبالتزامن معها، ومعروف للجميع أن زهرة قرن الغزال زهرة فلسطينية تعرف بأسماء عديدة وتكاد كل منطقـــة في فلسطين تعرفها باسم معين، فهي الـــزوزو في ريف القدس، ومن أسمائها الأخـــرى: الزعمطـــوط، وعصـــا الراعي، وسيدو، ودويك الجبـــل، وبخور مريم، وإذا كانت زهرة قـــرن الغزال غير معروفة، على نطاق واسع، بأنها رمز فلسطيني، فإن شجرة الزيتون، تحتـــل مساحة واسعـــة في الوعي الجمعي الفلسطيني، وتقدم بلا منازع على أنهـــا رمز لفلسطين، ولذلـــك تنتهج حكومة إسرائيـــل سياسة لاقتلاع أشجار الزيتون في الأراضي الفلسطينية. (٨)

إسرائيل تسرق مخطوطات عراقية:

وعلى صعيد مواز ذكرت وسائل الإعلام أن إسرائيـــل نهبـــت آلاف الوثائـــق والكتب والمخطوطـــات التاريخيـــة، والقطع الأثرية العراقية النادرة خـــلال عملية غزو العراق واحتلالـــه عـــام ٢٠٠٣، وفي هـــذا المجـــال استبعد خبـــير هولندي سبق لـــه العمل في وزارة الثقافـــة العراقيـــة، أن تكـــون الكتب اليهوديـــة العراقية التي ظهـــرت مؤخراً في إسرائيل، قد جاءت عبر واشنطن. ورجح عالم الانثروبولوجيا وخبير صيانة الأعمال الفنية رينيـــه تايخلر، أنّ تكون هـــذه المخطوطات والكتب المطبوعة قد سُرقت من العراق أثناء خزنها بشكل مؤقـــت في المنطقة الخضراء، لغرضـــ تجميدها قبل نقلهـــا إلى الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣.

وكان باحث إسرائيلي قد كشف لصحيفة هآرتســ، عن حيازته عدداً من المخطوطات النادرة باللغة العبريـــة القادمة من العراق، حيث أثار هذا الخبر استياء عراقياً، وشكوكاً بـــأن هذه المخطوطات قـــد وصلت إسرائيل بتعاون أمريكي.

وقـــد كشف مديـــر مركز بابـــل للتراث اليهودي في تل أبيب، مردخاي بن بورات أن المخطوطات المشار إليها تضم كتاباً يحتوي تعليقـــات على سفر أيـــوب، يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي ومخطوطة تتكلم عن

أنبياء العهد القــديم تعود لعام ١٦١٧، وقد جاء ذلك في إطار صفقة تهريب كبيرة تعود قصتهــا إلى الأسابيع التــي أعقبت سقوط بغداد عام ٢٠٠٣، حيث عُثر آنذاك على قسم كبير من الأرشيف اليهودي العراقي في حالة سيئة جداً، في قبو تابع لمبنى إحدى الجهات العراقية، و يضم الأرشيف خليطاً من الكتب التاريخية والدينية، ووثائق حكومية ومدنية، تتعلق بالجالية اليهودية في العراق.

وأكــد المسؤولون الأمريكيون في أكثر من مناسبــة أن هذا الأرشيف سيعود لاحقاً إلى العراق حين تسمـــح الأوضاع الأمنية بذلك، لكن جهات عراقية كثيرة، حكومية وشعبية، أعربت عن شكوكها بالنوايا الأمريكية، وعن خشيتهــا مــن انصياع الجهــات الأمريكية للمطالــب الإسرائيلية بـ «استعادة» ما تعتبره إرثاً يهودياً قبل أن يكون عراقياً.

وقد أكد الخبير الهولندي رينيه تايخلر، المتخصص بصيانة الأعمــال الفنية، عمل في عامــي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ مستشاراً في وزارة الثقافــة العراقيــة، وكانت مهامــه تشتمل على الإشراف علــى عمليات استعادة الآثار والتحف الفنية التــي سرقت أثناء الفوضى التي أعقبت سقــوط العاصمة العراقية أن نقل الأرشيف اليهودي العراقي إلى واشنطن تم بطريقة أمينة، وقال في مقابلة مع إذاعة هولنــدا العالميــة بالقول «أنا علــى اتصال مستمر بضابط الاحتياط الأمريكية السابقة التــي أشرفت على عملية نقل الأرشيف بعد تجميده، لافتاً أنها أكــدت له أنها الوحيدة التي تمتلك مفتاح الخزانة التي حُفظ فيها الأرشيف، وأنها تتأكد يومياً من عدم اختفاء أي شيء.»

مع ذلك فــإن السيد تايخلــر يرجح أن تكون الكتب التي ظهرت مؤخراً في إسرائيل هي بالفعل جزء مــن المجموعة نفسها التي عُثر عليها في قبو الاستخبارات عام ٢٠٠٣. «في الفترة التي تلــت العثور على الأرشيف، في أبريل عــام ٢٠٠٣، وحتى أنجزت عملية تجميده لغرض نقلــه، وقد حُفظ الأرشيف لمــدة ستــة أسابيــع في مخزن تابــع لشركة تجارية في المنطقة الخضــراء. وأعتقد أنه في تلــك الأسابيع الستــة، قد حدثت بعض السرقات».[٩]

إحـــالات

١- موقع الجزيرة توك

WWW. ALJAZEERA TALK. NET

٢- موقع إسلام ويب

WWW. ISLAMWEB. NET

٣- موقع نوافذنا

WWW. NAWAFITHNA. COM

٤- موقع الحقيقة المجهولة عن العرب

WWW. FACTOFARABS. NET

٥- موقع من أجل الأقصى

WWW. FORAQSA. COM

٦- موقع القدس

WWW. ALQUDS. COM

٧- موقع مدينة القدس

WWW. ALQUDS-ONLINE. ORG. COM

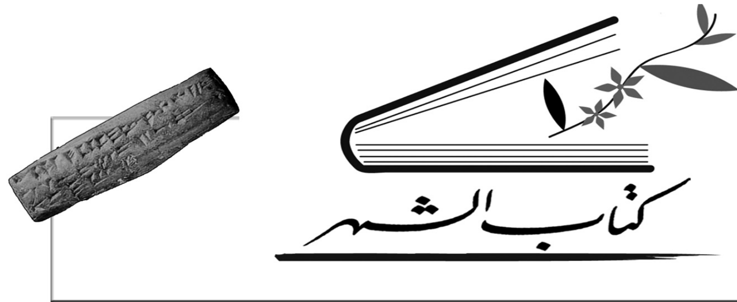
٨- موقع أحرار فلسطيني

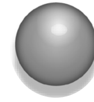
WWW. PALA7RAR. COM

٩- موقع مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية

WWW. AQSAONLINE. INFO

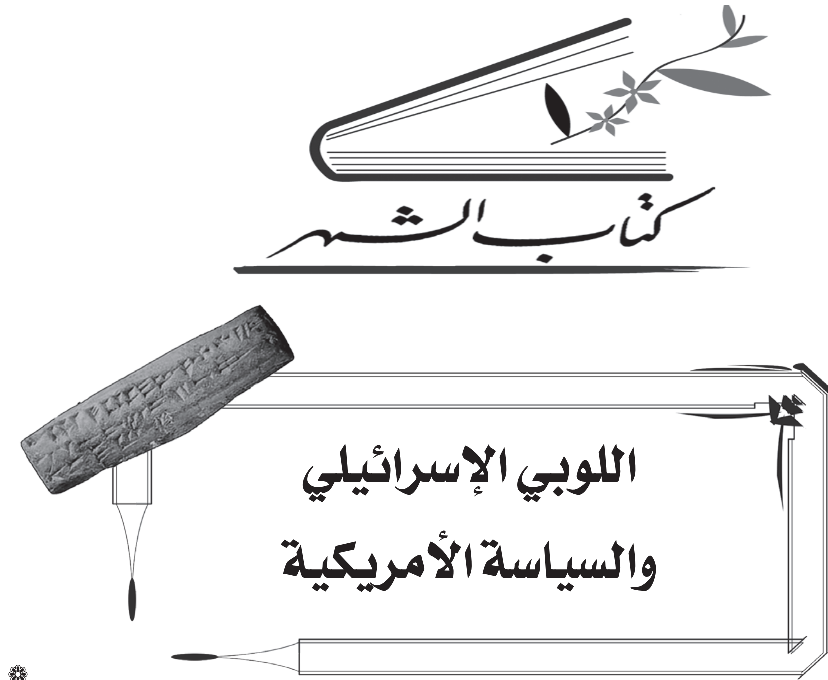






اللوبي الإسرائيلي والسياسة الأمريكية

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن



اللوبي الإسرائيلي والسياسة الأمريكية

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن *

في الأدبيات السياسية، تطرح على الدوام، العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. ويطرح أيضاً، الدور الذي يقوم به اللوبي الإسرائيلي، داخل السياسة الخارجية في الولايات المتحدة. ودائماً كان يقال: إن الكثير من السياسات التي تقوم بها الولايات المتحدة في الصراع العربي الصهيوني هي من صنع هذا اللوبي الإسرائيلي.

هذا الكتاب لمؤلفيه: جون مير شايمر وستيفن والت. يطرح هذه العلاقة فيما يشبه الدراسة الوثائقية المدعمة بكل الشواهد. قام بترجمته إلى اللغة

* باحث من سورية.



العربية الأستاذ (عماد شيخة) وصدر عن دار المركز الثقافي في بدمشق.



من دعائم السياسة الخارجية للولايات المتحدة، صوغ برنامج عمل لكل الخريطة الدولية، ولاسيما بؤر النزاع والخلاف في العالم. وخاصة منطقة الشرق الأوسط والصراع العربي الصهيوني. وعلى الرغم من أن مصالح الدولة هي ذات الأولوية، إلا أنّ الولايات المتحدة في الصراع العربي الصهيوني منذ /١٩٦٧/ تصوغ هذه العلاقة وفق رؤية أكثر انحيازاً لصالح إسرائيل. هل يكفي وجود مصالح استراتيجية والتزام أخلاقي بين الطرفين ليعلل مثل هذه العلاقة؟ أم أن الأمر يتعلق بـ (اللوبي الإسرائيلي) داخل المطبخ السياسي للولايات المتحدة؟ سيزعج هذا التحليل بعض القراء في محتواه وطروحاته. لكنه وجهة نظر أولاً لطرح جديد لم يقدم سابقاً.

المحسن العظيم..

منذ حرب تشرين الأول /١٩٧٣/، قامت الولايات المتحدة بتقديم مستوى من الدعم لإسرائيل. إذ بلغ إجمالي المساعدات الأمريكية ما يزيد عن /١٤٠/ مليار دولار بأسعار العام /٢٠٠٣م/. هذا السخاء مدهش حين نعلم أنّ إسرائيل اليوم دولة صناعية غنية. يمكن لإسرائيل استخدام حوالي ربع حصتها من المساعدات في دعم صناعتها الدفاعية الخاصة. علاوة على ذلك، زودت الولايات المتحدة إسرائيل بما يقارب ثلاثة مليارات دولار لتطوير منظومة أسلحة لا يريدها البنتاغون. تقدم واشنطن لإسرائيل، إضافة لذلك، تأييداً دبلوماسياً راسخاً. فمنذ العام /١٩٨٢/، نقضت الولايات المتحدة اثنين وثلاثين قراراً صادراً عن مجلس الأمن الدولي ينتقد إسرائيل. كما أنها تعيق جهود الدول العربية لوضع ترسانة إسرائيل النووية على جدول أعمال الوكالة الدولية للطاقة النووية. كذلك، تهب الولايات المتحدة لإنقاذ إسرائيل زمن الحرب، وتقف إلى جانبها حين تخوض مفاوضات السلام. منحت واشنطن إسرائيل، حرية واسعة في التعامل مع الأراضي المحتلة، حتى حينما تكون أعمالها مخالفة لسياسة الولايات المتحدة المعتمدة. يمكن فهم هذا السخاء الاستثنائي في ما لو كان لإسرائيل فائدة استراتيجية حيوية أو إن هنالك قضايا أخلاقية مقنعة تعزز تأييد الولايات المتحدة لها. لكن كلا الأمرين غير مقنع.

التزام استراتيجي..

طبقاً للجنة العلاقات العامة الإسرائيلية الأمريكية، فإن الولايات المتحدة وإسرائيل صاغتا شراكة فريدة لمواجهة التهديدات الاستراتيجية في الشرق الأوسط ربما كانت لإسرائيل منفعة استراتيجية خلال الحرب الباردة. وبين حين وآخر، ساهمت إسرائيل في حماية حلفاء الولايات المتحدة الآخرين. ومع ذلك ينبغي عدم المبالغة في القيمة الاستراتيجية لإسرائيل خلال تلك الفترة.

إذا لم تستطع الولايات المتحدة، الاعتماد على إسرائيل حين صعدت الثورة الإيرانية في العام /١٩٧٩/. كما أظهرت حرب الخليج الأولى (١٩٩٠-١٩٩١) أن إسرائيل قد تحولت إلى عبء استراتيجي. منذ بداية التسعينيات، بررت الولايات المتحدة دعمها لإسرائيل بزعم أن كلا البلدين تهدده مجموعات إرهابية نشأت في العالم العربي أو الإسلامي. وجود علاقة سببية تخالف القول بأن الولايات المتحدة وإسرائيل يوحدهما تهديد إرهابي مشترك وما يتساوى في الأهمية، أنّ الدعم غير المشروط الذي تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل يسهل الأمور على الطرفين أمثال (بن لادن) لحشد التأييد الشعبي وجذب المتطوعين. أما بصدد ما يدعى بالدول المارقة في الشرق الأوسط، فهي لا تشكل تهديداً حقيقياً لمصالح الولايات المتحدة، عدا التزام الأخيرة تجاه إسرائيل نفسها. علاوة على ذلك، تجعل تعاملها مع هذه الدول أكثر صعوبة. أما السبب الأخير الذي يضع قيمة إسرائيل الاستراتيجية موضع التساؤل، فهو أنها لا تسلك سلوك حليف مخلص.

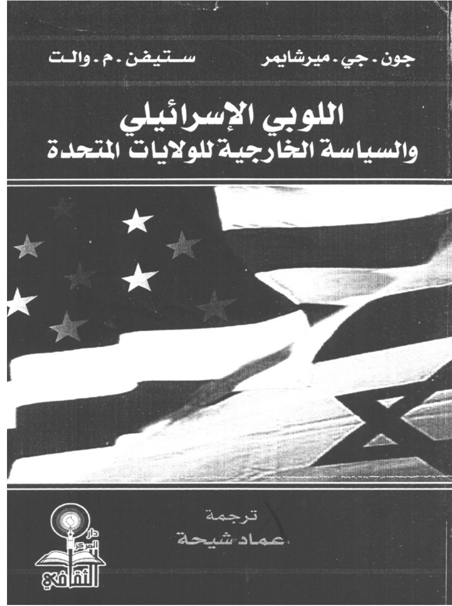
حجج أخلاقية متضائلة..

غالباً ما تصوّر إسرائيل بأنها ضعيفة ومحاصرة، لكن الصورة المعاكسة هي الأقرب إلى الحقيقة. فقد كان لدى الصهاينة قوات أكبر وأحرزت انتصارات سهلة في الأعوام /١٩٥٦/ و/١٩٦٧/. أما في الوقت الحاضر، فإن إسرائيل تعتبر القوة العسكرية الأولى في الشرق الأوسط. غالباً ما يسوغ الدعم الأمريكي الإسرائيلي بإدعاء أنها شريك في الديمقراطية محاطاً بديكتاتوريات معادية. كذلك فإن حجة (الديمقراطية المشتركة) واهية لأن سمات الديمقراطية الإسرائيلية تتعارض مع جوهر القيم الأمريكية.. لم تكن القيادة الصهيونية مهتمة بإنشاء دولة ثنائية القومية أو راضية بتقسيم دائم لفلسطين. ولتحقيق هذا الهدف، توجب على الصهاينة طرد أعداد هائلة من العرب من الأراضي التي يفترض بها أن تصبح إسرائيل. منذ ذلك الحين، سعى زعماء إسرائيل مراراً وتكراراً للتنكر للطموحات الوطنية الفلسطينية. وتصور الحجة الأخلاقية الأخيرة إسرائيل كبلد ينشد السلام. أما العرب فيقال إنهم يتصرفون بفجور. وثّق العديد من منظمات حقوق الإنسان هذه الوقائع المتعلقة بسلوك إسرائيل، ومن ضمنها مجموعات إسرائيلية بارزة. ولكن: أليست إسرائيل مخولة أن تفعل ما تشاء لحماية مواطنيها؟ ينبغي ألا ننسى أخيراً أن الصهاينة استخدموا الإرهاب حين كانوا في حالة ضعف مشابهة وحاولوا الظفر بدولة خاصة بهم.

اللوبي الإسرائيلي..

نستخدم لفظة (اللوبي) كاختصار ملائم للتعبير عن ائتلاف واسع من الأفراد والمنظمات، يعمل على صياغة السياسة الخارجية للولايات المتحدة في اتجاه موال لإسرائيل. تتضمن نواة هذا اللوبي يهوداً أمريكيين

كرسوا حياتهم اليومية لتوجيه السياسة الخارجية للولايات المتحدة بما يخدم مصالح إسرائيل. كما يختلف الأمريكيون اليهود مع سياسات إسرائيلية معينة. من غير المستغرب إذاً أن يتشاور زعماء اليهود الأمريكيين غالباً مع المسؤولين الإسرائيليين، بحيث يستطيع الأولون زيادة نفوذهم داخل الولايات المتحدة. أذ شكل الأمريكيون اليهود مجموعة مؤثرة من المنظمات للتأثير على السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وتعد الإيباك أشهرها. يتضمن اللوبي كذلك مسيحيين إنجيليين بارزين. ويعتقدون أن الضغط على إسرائيل يخالف الإرادة الإلهية. تتضمن عضوية اللوبي، إضافة لما سبق، مسيحيين محافظين جدد. للولايات المتحدة حكومة منسقة تقدم العديد من الإمكانيات للتأثير على العملية السياسية. علاوة على ذلك، تتمتع مجموعات المصالح بقوى متفاوتة حين تتورط في قضية معينة. تتبع قوة اللوبي الإسرائيلي من قدرته الفذة على أداء لعبة سياسية مجموعة المصالح. يتابع اللوبي استراتيجيتين واسعتين لتعزيز دعم الولايات المتحدة لإسرائيل. فهو أولاً يمارس تأثيراً بارزاً في واشنطن بالضغط على مجلس النواب والشيوخ. ويجاهد اللوبي ثانياً لضمان أن يقدم الخطاب العام إسرائيل بصورة إيجابية. تكمن الدعامة الرئيسية لفاعلية اللوبي في نفوذه داخل مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة. أحد أسباب نجاح اللوبي في تعامله مع الكونغرس وجود أعضاء من



الصهاينة المسيحيين، أهم أولوياتهم فيما يتعلق بالسياسة الخارجية هو حماية إسرائيل. يعتبر موظفو الكونغرس الموالون لإسرائيل أحد مصادر قوة اللوبي. ومع ذلك (فالإيباك) نفسها هي من شكل نواة نفوذ اللوبي في الكونغرس. يمتلك اللوبي كذلك نفوذاً بارزاً داخل السلطة التنفيذية، وهو ناتج جزئياً عن تأثير الناخبين اليهود على الحملات الرئاسية. كذلك يستهدف اللوبي مباشرة الإدارة القائمة. ولا تزال هذه القيود فاعلة في الوقت الحاضر. تتحقق أهداف اللوبي كذلك حين يشغل مؤيدو إسرائيل مناصب هامة في السلطة التنفيذية. كما يجاهد اللوبي لتشكيل مفاهيم الأمريكيين حول إسرائيل والشرق الأوسط. ينعكس هذا التحيز الموالي لإسرائيل في افتتاحيات الصحف الرئيسية. وتسيطر

القوى الموالية لإسرائيل على مجالس الخبراء التي تلعب دوراً رئيسياً في إثارة النقاشات العامة، إضافة لصياغة السياسة الفعلية. كما أنّ نفوذ اللوبي في عالم مجالس الخبراء يتجاوز مهدداً واشنطن لسياسات الشرق الأدنى. يعدّ تطور معهد (بروكينفز) مؤشراً هاماً على نفوذ اللوبي داخل مجالس الخبراء. تمثلت أكبر مصاعب اللوبي في إخماد النقاش المتعلق بإسرائيل في كليات الجامعات. تحرّك اللوبي بقوة لاسترداد الحرم الجامعي. كما أخذ يراقب ما يكتبه أساتذة الجامعات ويعلمونه. تسلط مجموعات اللوبي أيضاً نيرانها على أساتذة معينين وعلى الجامعات التي توظفهم. لن يكتمل النقاش حول آليات عمل اللوبي من غير تحري أقوى أسلحته: تهمة معاداة السامية.

الذيل الذي يهز الكلب..

لم تقف حدود المساعدة لإسرائيل من قبل الولايات المتحدة على المسائل الاقتصادية بل تجاوزتها إلى اقتناع القادة الأمريكيين بضرورة قمع إسرائيل المتواصل للفلسطينيين وتوجيه السلاح إلى خصومها الإقليميين: إيران والعراق وسورية. في /١٦/ تشرين الثاني، وجّه /٨٩/ عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ رسالة إلى (بوش) تثني عليه لرفض الاجتماع بعرفات، وعلى موافقة الولايات المتحدة إسرائيل من الانتقام من الفلسطيني. في نيسان /٢٠٠٢/ شن الجيش الإسرائيلي عملية الدرع الواقي وسيطر على كامل أراضي الضفة الغربية. وعلى الرغم من الطلب المباشر لبوش أن تنسحب من الضفة إلا أن الضغوط على بوش وإدارته من قبل اللوبي حدت من طلب الولايات المتحدة، بل وصدر القرار بدعم الولايات المتحدة للإرهاب الذي تتعرض له إسرائيل من قبل الفلسطينيين. لم يكن ضغط إسرائيل واللوبي هو العامل الوحيد خلف قرار الولايات المتحدة الهجوم على العراق في /آذار ٢٠٠٣/ لكنه كان العامل الحاسم. حرباً لجعل إسرائيل أكثر أمناً وليس أكثر نفطاً للولايات المتحدة. كانت القوة الدافعة الرئيسية للحرب على العراق، داخل الولايات المتحدة، زمرة من المحافظين الجدد، لغالبيتهم صلات وثيقة مع حزب الليكود الإسرائيلي. مع فارق أن اليهود في الولايات المتحدة خارج اللوبي لم يكونوا ليرغبوا في هذه الحرب. كان المحافظون الجدد قد صمموا على إسقاط صدام قبل وصول بوش إلى الرئاسة. كان غزو العراق في نظرهم خطوة أولى من خطة أكبر لإعادة ترتيب الشرق الأوسط. إذ إنه بعد سقوط بغداد، بدأ شارون ومساعدوه حث واشنطن على استهداف دمشق: ومن دمشق كانت طهران والمفاعل النووي الإيراني. كل ذلك لأن هذه الدول تهدد أمن إسرائيل. ففي قوتها زوال إسرائيل وبالتالي زوال اللوبي ومن ثم زوال الضغط الصهيوني للوبي داخل أروقة السياسة في الولايات المتحدة.





عروبة القدس

رئيس التحرير

اجتماعات اللجنة الدائمة للثقافة العربية، التابعة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أتاحت لنا في السنوات الماضية مناقشة مواضيع عديدة تهم مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، للإجابة عن العديد من الأسئلة التي تخامر أذهان المثقفين والمعنيين بشؤون الثقافة والقيمين عليها والمبدعين في مجالاتها المختلفة، وكان موضوع

«الثقافة العربية وعروبة القدس» من المواضيع التي أخذت من وقتنا وجهدنا، لأن هذه المدينة المقدسة، كانت وما تزال، تواجه مشكلات متعددة، يأتي في مقدمتها إعادة هيكلة المدينة وهويتها على يد العدو الإسرائيلي الذي يسعى إلى إعطائها طابعًا هجينًا يهدد هويتها العربية (التاريخية والسياسية والثقافية)..

انطلقت الدراسات من مقولة ثابتة أن العدو الإسرائيلي يقوم بإخضاع القدس لعملية تغريب واستلاب، ويخضع الهوية والثقافة الفلسطينية إلى عملية تفتيت مبرمج، ويتم ذلك من خلال إحداث طلاق كامل بين القدس كمدينة، وبين إنسانها العربي الفلسطيني، وطلاق بين المدينة وتراثها وحضارتها، أي طلاق بين الجغرافية السياسية المقدسية التي استقرت عبر قرون طويلة، وبين هويتها وثقافتها العربية التي أنتجتها، وتنطلق أيضًا من الدعوى بأن القيادة الصهيونية تصوغ الهوية الإسرائيلية من فتات إثني وثقافي متنافر تسقطه على خلفية تاريخ يهودي في فلسطين مضى وانقضى قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة، بالرغم من علمها الأكيد بأن ما تقوم به ينافي الحقيقة، ويتعارض مع القوانين الدولية، الصادرة عن الأمم المتحدة ومنظمة «اليونسكو» التي اعتبرت الإجراءات الإسرائيلية في القدس باطلة، وغير قانونية لأنها: «تعرّض التراث الثقافي لمدينة القدس وموقعها التاريخي التقليدي لتغييرات.. من شأنها أن تسيء

إلى الذاكرة الجماعية للشعوب، لا سيما شعوب المنطقة، فيما يتعلق بتاريخها وحضارتها».

لقد بدأت الإجراءات الإسرائيلية بفصل القدس العربية مع الجزء الذي ألحقته إسرائيل بها، من أراضي الضفة الغربية، وتعزز الفصل بتبني الكنيست للقانون الأساسي «القدس عاصمة إسرائيل ٣٠ تموز ١٩٨٠» واستنادًا لهذه القوانين بسطت إسرائيل سيادتها على المدينة وصادرت مساحات واسعة من أراضي القدس والضفة الغربية وضمتها إليها وفرضت سلطتها وإدارتها عليها وأخضعت تنظيمها الحضري للقوانين والأنظمة والمعايير والسياسات التي تتبناها، ووظفتها جميعًا لتهويد القدس وتغيير طابعها العربي، وإسقاط حق المواطنة عن أهلها في المدينة، وبدأت عمليات إخراج المدينة عن مسار تطورها الطبيعي، وقطع العلاقة بينها وبين تاريخها وأهلها، وفرض رؤية مسبقة على حاضرها ومستقبلها، وذلك خدمة لغرض سياسي بغيض تحدّد تحت ظروف لا علاقة لها بالمدينة، لإعطاء الانطباع بأن المدينة منذ عام ١٩٦٧ أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الدولة الصهيونية..

من جراء هذه الإجراءات القمعيّة فقدت القدس القديمة طبيعتها كخلية حيّة، وفقدت الكثير مما كان يشكل جزءًا من نسيجها الحضاري، فقد فقدت منبر نور الدين (أحضره صلاح الدين الأيوبي من حلب) في حريق المسجد الأقصى (٢١ آب ١٩٦٩)، وتم تدمير الجزء الجنوبي

الشرقي من المسجد الأقصى المبارك في هذا الحريق، وقبل ذلك هدم العدو الصهيوني حارة المغاربة التاريخية التي يعود تاريخها إلى سنة (١١٠٠ ميلادية) في البلدة القديمة، وهدمت الزاوية الفخرية التي تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي في الحرم الشريف، وغير ذلك من الأعمال التدميرية التي تتنافى مع الحرمات والمقدسات الدينية، وتهدف إلى فرض الطابع الصهيوني على المدينة.

القدس التي يتجسد في تاريخها حضارة وثقافة العرب، كانت وما زالت تنبض بالحياة، لم ينقطع ماضيها عن حاضرها العربي، ولن يستطيع العدو الصهيوني، مهما حاول أن يغيّر شيئًا من هذا التاريخ المجيد الذي يستمد نسغه وحيويته من إنسانها العربي المقاوم لكل أعمال السلب والاستلاب، ولكل أشكال القهر والعدوان..

